

د. بشار خليف

تاريخ المشرق

من 12000 سنة ق.م. إلى القرن 6 ميلادي



مركز المشرق
للأبحاث والدراسات

Levant Center for Research and Studies

تاريخ المشرق

من 12000 سنة ق.م. إلى القرن 6 للميلاد

الكتاب: تاريخ المشرق من 12000 سنة ق.م. إلى القرن 6 للميلاد

الكاتب: د. بشار خليف

الموضوع: تاريخ قديم

عدد الصفحات: 544

القياس: 17×24

سنة النشر: 2023

الطبعة الأولى: 2023

© جميع حقوق النشر والترجمة محفوظة

مركز المشرق للأبحاث والدراسات

بيت المشرق ، ساحل علما - جونية، لبنان

رقم الهاتف: 00961 9 636400

00961 81 835109

البريد الإلكتروني: levant.research.center@gmail.com

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن من مركز المشرق للأبحاث والدراسات.

د. بشار خليف

تاريخ المشرق

من 12000 سنة ق.م. إلى القرن 6 للميلاد

بيروت 2023



مركز المشرق
للأبحاث والدراسات

Levant Center for Research and Studies

الشكر للباحث والإعلامي
الأستاذ غسان الشامي
الذي جعل دماغي يفرغ - إلى حين -
من الأمواج المشرقية المتراكمة.

شكراً مدى العمر.

نحو المشرق |

قَدَّمْ في الماضي قدم في الحاضر! ماذا تفعل تلك الخطوة التي تتسع شاملة مدناً، بشراً، صروحاً، مقابرَ وأساطير؟

هل تكفي عينُ الحاضر لاستيعاب تلك الرؤيةِ والرؤيا، ماذا شاء التاريخ أن يقول لنا؟ في المستوى الفردي، مئةُ عام كفيلاً بإنهاء حياة فردٍ عبَرَ برزخَ الوجود بأمراضه، بأحزانه، بتجلياته الأخرى ومضى إلى أمه أخيراً، تلك الأرض التي احتوت مليارات الناس الذين تصارعوا وأحبوا وتبادلوا كأس الموت لتفوز الحياة. كأنَّ الحالَّ حالٌ بشرٍ نيام متى ماتوا استيقظوا!! لذا كلما اتسعت رؤيتنا ضاقت عبارتها.

التاريخ عبرة؛ لكنَّ الحاضر يقول: لا أحدَ يعتبر من الرواية بأنساقها نفسها، بحبكاتهما التي لم تشدَّ عن قاعدة البقاء للأقوى بدل البقاء للأفضل.

في المستوى الاجتماعي، تضحكُ المجتمعات وتحيا وسطَ الحروب والنكبات والتهجير والمذابح، وتبقى تملأُ أمكنتها بالجدوى شاءت الحروب أم لم تشأ، وشاء السلام. مجمل المنجز الإنساني وإبداعاته هو ابن المجتمعات، الأفراد يفعلون؛ لكنَّ المجتمع يدومُ فقط. في المستوى الإنساني، لعبةُ الانتماء حاضرةٌ بحدود وحدِّ، منذ أول سياج وضعه مزارع تحدد الإنسان، منذ أول ملكية نمت الحروب والإلغاء والاستعلاء والجنون الذي غلَّف ويغلَّف إنسانه العاقل.

من الخشب إلى الطين فالحجر إلى صهر المعادن بأنواعها، صنع الموت أدواته كرمي الملكية والحدود المصطنعة. ووصل العاقل أخيراً إلى نهايته في عصر الذرة، مجردُ حقيبة وكبسة زر، وكانت الأرض.

العبودية قائمة، المناخ سيّد المشهد، وكان ما كان.

أيُّ حيادية يمكن أن يرتديها فكرُ الباحث في التاريخ؟ وأي إيمان بذاك الملك الذي أمره إلهه أن يدمر مدينَةً بالماء؟

الحقيقةُ الدامغة هنا في الواقع الذهني المشرقي أنه منذ تولى ملكُ عرش المشرق (مدنه)، مثل صورة إلهه على الأرض، راح المشرقُ هنا إلى الحائط المسدود ثم أوشك على الموت. إنَّ السلطة الإلهية المستمدة من الإله منحت الملك المشرقي فردانية تسلطية، وعلى الرغم من تلك المجالس الشعبية ومجالس الشيوخ وغيرها لم نقرأ وثيقةً تتضمن أنه بأمر من مجلس الشيوخ تنحى الملك عن عرشه! فالإله لا يقصى دنيوياً.

كأن لعنة المشرق في جلعامشه! حتى التجارة التي ولدت للتبادل الفكري قبل السلعي أصبحت خطوطها ألوان حروب حمراء، تلك آثار قدم واحدة في الماضي وللقدم الثانية حكايتها أيضاً عبر العاقل المهووس. الإنسان المعاصر فاقد المعنى والجوهر أيضاً، بقيت قدمه في الماضي، والأخرى لم تجد لها موطن قدم بعد. على هذا يستعزُّ الماضي بين أشباح حاضرة، كلُّ يدعي ما لا يقوله التاريخ، وهي محاولات فارغة لتحقيق ذاتٍ فقدت ذواتها الأخرى.

كأن تلك العنصرية الجديدة ابنة شرعيةً للفراغ الحضاري والثقافي. مراكز الحضارة الأولى تشمل كرة أرضية برمتها لا جغرافية بعينها، فالزمن خدعة حين يريد أن يفرض مكاناً على مكان، والمشهد هنا أكثر ثراءً حين تصير الأرض نابضةً بأحيائها لا بأمواتها.

تصارع القوم على الكتابة من بدأها أولاً، الرافديون أم المصريون؟ ثمة مئة عام فاصلة وحاسمة في تقرير حجم الطاووس ولونه، وغاب عن البال أن الإنسان واحد والرؤية واحدة. لحظات البدء الحضارية مفعمةً بطاقات الروح، الروح الإنسانية لا تُحدَد بنصف جغرافيا إذاً، الحقيقة الإنسانية الحضارية الدافعة، جغرافيا تاريخية متداخلة ومتزامنة، لا يهم إن كانت غير متزامنة؛ لكن الأرض واحدة كما أن السماء الوحيدة كما الإنسان الواحد.

نحو المشرق، القدم الثانية لم تعد في حاضر؛ صارت كلتا القدمين هناك تنبشان وتريان وتتأملان حتى علا طين البدء على الكلام فكتبنا.

حكاية الوثائق وما بين السطور، غياب الشمس عن مدينة ليحل القمر في مدينة أخرى، موت مدن بلا كفن، وولادة مدن لقيطة أو على قارعة النهر، مدن زالت وبقي الماء، فأى وهم في تغلب الحركة على الثبات؟!

لم أستطع أن أكون حيادياً في مقاربة تاريخ هذا المشرق بهلاله الخصب، فالحيادية هنا نوعٌ من الكذب على التاريخ، على شخوصه وجنونه أيضاً.

عين المناخ ذاتها تُهجّر بشراً وتقتل آخرين جوعاً وشراسة وعدوانية، حتى حين سيطرت المجتمعات على الطبيعة بقيت ظواهرها سيادة الحال عليها.

يضرب المناخ فترتعد ممالك ومجتمعات ويتبادل حتى الأعداء أنخاب الخلاص بمحبة فائقة، وحين لا يضرب يعود أصدقاء المحن إلى شراستهم الأولى ليتناهبوا بعضهم كالضباع.

لا حكمة تجذرت لفهم قصة الشروق والإشراق أو الغروب في الأحوال مطلقاً.

حزنُ الجغرافيا حطَّ على كاهل هذا المشرق، ومع هذا فرِحَ بمركزية موقعه. جناحُ رافديٍّ امتد على مجرى النهرين وجناحُ شاميٍّ امتلك البحر، وجهَ حضارةٍ آخر، وشُباكاً لريحِ مثاقفةٍ وتفاعلاتٍ ستُخصب المشهدَ الإنساني. المشرقُ شعراً كمصر واليونان وروما وقرطاج، الهاجسُ الإنساني نفسه ضاربٌ في الحضارة.

الحكاية واحدة لكنَّ الرواةَ كُثُر.

تخلو الأبحاث التاريخية من النظر إلى المناخ والظواهر الطبيعية المرافقة له، ودورها الرئيس في صياغة حركة التاريخ والشعوب والمجتمعات، مرور الكرام لا يحقق فهم تلك الانسياحات البشرية بين الأقاليم، وولادة معطى جديد كالحالة الأمورية أو الآرامية وحتى العربية.

شيء آخر أكثرُ قسوةً أدركته في حوارٍ مع باحثٍ ريادي لبناني حين أرفقتُ حوارِي معه الحوار التاريخي بمعطيات علوم الاجتماع. جملة من فمه جعلتني أدرك الأمر الجلل، فقد قال: «لا تورطني بعلوم الاجتماع!» هو يعلم الخطورة إذاً! فهتمت حينها أن لا تاريخ بلا علوم الاجتماع ليستند إليها؛ لذا تخلو أبحاثنا التاريخية من دور الأثرولوجيا في حركة تاريخ المجتمعات؛ ولذا قُدِّم التاريخ على طبق من مللٍ وجمود.

لا إطلاق في بحثنا ولا يقين، ويبقى السؤالُ أكثرَ حضوراً من إعطاء جرعة من أجوبةٍ لا تشفي الغليل المعرفي؛ فهي محاولة غير محايدة، وبنظرة عقلٍ مشرقية لا تمت إلى الاستشراق المسكين بأوهى صلة.

المقاربة هنا تمَّت بعين الحاضر أيضاً؛ لأنَّ الأسسَ القديمة ما زالت فاعلة في حاضرنا. التشرذم عينه في موقع جغرافي كان عليه أن يعيَ ضرورته المركزية في الحضارة الإنسانية.

ليست الحقيقة في تدمير مدن لمدن أو تدمير ممالك لممالك، الرؤية الأقسى هنا هو دافع التشرذم التاريخي المتأصل، حتى بدأ أن ثمة عقداً بين فاوست وشيطان.

تُرفع القبة أكثر لحيوية المجتمعات لا لسلطاتها؛ فالسلطات لم تكن أكثر من مشيخات قبلية تتناحر وهي تسوق المجتمعات كالخراف \ إلا ما ندر إلى مصائرها.

الاتحاد أو الوحدة مفاهيمٌ مؤجلة لإشعار آخر؛ ولهذا سقطَ المشرق بالضربات القاضية، فالجناح الرافدي وحده أنهاره إلى حدٍّ ما، لكن في المقلب الآخر تشرذم الجناح الشامي

بإخلاص حتى بانت عورته. قالوا إن التضاريس الشامية سببت هذا التشرذم والانحلال، ولم نتأكد بعد من دور التضاريس في الوحدة الاجتماعية والسياسية هنا.

محض هراء فكري، وبعد:

بالمقدرة غير المحدودة على النور، مشى المشرق في العتمة، هو المسبب لهذا الجدل التاريخي؛ كالضرورة الإنسانية انبثق في لحظة تمايز بين المحدود واللامحدود، بين الوهم والحقيقة، بين صفر على اليمين مقابل صفر على الشمال. التفاصيل تحكي والوثائق تدل والخير «لقدام» كما يقال. وبعد ثانياً:

قرأنا وحللنا، ناقشنا وكتبنا. موجة في بحر تتلاطم فيه الأفكار والعقائد والمعطيات، وجهة بصر وبصيرة لا وجهة نظر فقط.

في الطريق، ومنذ أول خطوة رافقنا البشر أكثر من القصور والمعابد، حللنا بعض المبالغات والأكاذيب التاريخية بمحاولات موضوعية إلى حد ما، لكننا لم نوفق بالحياد؛ فالمؤرخ ليس حكواتياً في حوار المدن القديمة.

نظفنا بعض ما علق من مفاهيم استشراقية أسهمت في تلك الفوضى المعرفية التاريخية. لم نصفق أو نهلل، ولم نشتم وتعلو الشتيمة، فالتاريخ والنظر إليه دعوة إلى التوازن والاتزان. الرقص مع التاريخ أفضل من تدوينه، علينا أن نشم عبقه وانهياراته وتآلقه وأشياء أخرى. التاريخ ليس وثيقة فحسب؛ إنما حدس وفق معطيات هائلة، لا ينفع النظر إلى عمودين من أثر، وما بين العمودين أحياناً تكمن رواية أخرى تحكي عما يكمن بينهما. تلك الرواية العلمية الحدسية الأخرى جديرة بالنقاش.

شيء آخر، الأسبقية الحضارية الوجودية وتمثلاتها لا تعني الأفضلية؛ الأفضلية دوماً في مقاربة هذه الأسبقية للضرورة الإنسانية، ولمحاكاة الجوهر الإنساني الحقيقية.

النزوع إلى ادعاء الأفضلية هو نكوص إلى الوراء حين يفرغ الحاضر من معنى الوجود والجدوى.

الذي يعيننا في المقاربة التاريخية هنا هو المساهمة المثلى في المنجز الإنساني وقراءته. مليون وثيقة مشرقية وأكثر أعادت البنية المعرفية التاريخية إلى حقيقة المتواليات التاريخية للمراكز الحضارية لئلا تضيع الملامح الأولى في سياقها التاريخي.

حين يصرح جان بوترو Jean Bottero بأنَّ التنقيبات الأركيولوجية في المشرق كان من نتائجها تفنيدُ أسطورةِ الأصليين النهائيين للغرب (اليونان والتوراة)؛ لكنَّ إيديولوجيا الأصول تصمُّ أذنيها عن العلم التاريخي.⁽¹⁾

وعليه حاولنا قدر المستطاع مقارنةً تاريخيةً اجتماعيةً حضارية بإيجابياتها وسلبياتها، لم نخشَ من فضائح المشرق التاريخية؛ لأنَّ عقامة التاريخ مستحيلة، فالإنسان واحد منذ أول عاقل إلى الآن.

نكادُ نتبين أنَّ مجملَ التاريخ بحثٌ عن الكفاية المادية قبل الروحية؛ لهذا نشأت معالمُ السقطات التاريخية الكبرى.

ليس بالإمكان التصفيقُ للأداة الأولى التي صنعها إنسان خائف جائع، ونحن نعلم أن نوع الأداة تلك سيتطور إما بعقل إله أو شيطان، والمعطيات تؤكد في الزمن المعاصر أن تلك الأداة أوصلتنا إلى الكفاية والأمان، لكن التشيطنَ الإنسانيَّ أوصلنا إلى حافة الهاوية في الأدوات المعاصرة، كل هذا من أجل ابتداع فن للاستحواذ والاستئثار والسيطرة.

المشرق قال كلمته ومضى إلى حاضر يمتلكه غياب اللحظة المجنونة، تلك الطفرة الباعثة على الحضارة.

د. بشار خليف

2022 - دمشق

(1) Mesopotamie. La raison, l'écriture et les Dieux, Gallimard, 1986.

البدايات

هذا المناخ:

منذ انبثاق الأنسنة⁽¹⁾، ساقَ المناخ عبيدهُ، ولعبت النشاطات الجيولوجية ومحيطها الحيوي والظواهر الطبيعية لعبتها على الأرض وموجوداتها، تضاريساً، بشراً، حيواناً ونباتاً. قيل: ما من ثقافة أو حضارة تعلقو على مناخها. كيف ذلك؟ في 2021/4/5 تتوارد المعلومات: «كتلة ضخمة من غاز ثاني أوكسيد الكبريت SO2 السامة في طريقها إلى أجواء المشرق. المختصون يحذرون: هذا الغاز يسبب تهجياً في الجهاز التنفسي، وتعرضه لأذيات، ربما يؤدي إلى سكتة دماغية وأمراض قلب وربو وسرطان رئة ووفيات مبكرة».

القصة لم تبدأ هنا، فلا بُدَّ من أسباب، هناك في جزيرة صقليا الإيطالية بركان (إتنا) يقذف حممه 17/ مرة على التوالي، مُشكِّلاً غيمةً من غاز ثاني أوكسيد الكبريت، وسوف تتجه إلى شواطئ المشرق. بركان (إتنا)، سَمِّيَ «ملك مصانع النيران» ذات تاريخ، ألقى الفيلسوف اليوناني أمبيدوكليس نفسه في فوهته، يقولون: لم يبقَ سوى حذائه خارجاً.⁽²⁾

تغضبُ الأرض بزلازلها وبراكينها أيضاً، لكن المناخ يوازن أحياناً، لم يعد المشرق الآن في خطر، ثمة رياحٌ شرقية دافئة أدت إلى ارتفاع درجات الحرارة في المشرق؛ ما أبعد السحابة القاتلة!

العاقل الآن يتنبأ، ليس كأجداده الأولين، لكن الأمر ليس كذلك دائماً، ربما تطول لعبة الأحجيات الجيولوجية ومن ثَمَّة المناخية؛ فيؤثر في مستوطنات بشرية بأناسها، حيواناتها ونباتاتها.

(1) الأنسنة L'Hommanisation: منعطف بيولوجي دماغي أدى إلى انبثاق الإنسان العاقل، وَفَّقَ طفرات أدت إلى ظهورات في اللغة والدين والفن، لم يتوضح تبلور هذه الظاهرة إلا بدءاً من 60000 عام نتيجة طفرة -باعتقادنا- على هذا ليس بالإمكان إطلاق التسميات مثل Homo، إلا عمن امتلك اللغة منطوقة ومفهومة، واعتقادات ونشاط فني.

(2) فرنان بروديل، يناقش أحوال البحر المتوسط مناخياً وبيولوجياً بشكل موضوعي في كتابه «البحر المتوسط» La Mediterranee

انظر: الترجمة العربية وزارة الثقافة السورية - 1990.

تلك التغيرات المناخية تؤثر في الاجتماع البشري واستقراره وحتى بقائه، فالقصة أحياناً وجودية، والمثال القادم: تغيرات مناخية حصلت قبل نحو 11000 ق.م، ومسرحها حَدَثٌ جيولوجي دراميّ على بعد آلاف الكيلومترات عن موقع مشرقى «أبو هريرة» (على الضفة اليمنى لنهر الفرات، يبعد 35 كم عن مدينة مسكنة القديمة في سوريا)، الحدث في أميركا الشمالية.

بحيرة أغاسيز بمياهها المرتفعة غطّت أقاليم في كندا وأجزاء من أميركا الشمالية، زيادة تدفق المياه نحو الجنوب سدّ طريق الرياح الدافئة وسقوط الأمطار من جهة الجنوب الغربي ما أدى إلى احترار كوكبي.⁽¹⁾

في عام 11000 ق.م، كانت مياه البحيرة تمتد بعيداً إلى الشرق؛ حيث أصبحت تلامس الحرف الجنوبي للفص الأعظم كاملاً، (الفص الأعظم: بروز جنوبي في اللوح اللورنتيدي)، وفي النهاية نتيجة الغمر العظيم اختفت بحيرة أغاسيز بسبب الاحترار.

حصلت بعد ذلك تأثيرات عميقة في أوروبا، أما مواقع الأناضول والمشرق فقد حل فيها جفاف طويل وقاس استمر إلى عشرة قرون. من هذه المواقع المشرقية التي دُرست «موقع أبو هريرة» الذي تحول سكانه فيما يقارب 11000 عام ق.م من جمع الثمار وجذور الشجر، وقوي تركيزهم على الحبوب البرية، وبعد 400 عام تقريباً تحول السكان إلى البرسيم الذي يقاوم الجفاف وعشب الفصفصة.⁽²⁾

(1) الأبحاث التطبيقية في دراسة أحوال المناخ العالمي تتبع مجموعة تقنيات أهمها: استخدام أسطوانات اللب Cores البحرية، وهي عينات أسطوانية تحفر في ألواح الجليد وقاع البحار، ثم يتم إخراجها وتنظيفها من الشوائب ويحتفظ بها في غرف تجميد ثم تدرس مخبرياً.

والأسطوانة هنا تُمثل قطعاً طويلاً في الجليد تكونت طبقاته عبر الزمن، وبتحليلها يُعرف ما تحويه من غازات وبقايا حية وحبوب لقاح... إلخ. مثل هكذا دراسات أوصلتنا إلى أن الـ 15 ألف سنة الماضية كانت أرضاً لمدة دفء كوكبي طويلة وذوبان الجليد، وهذه تُعدّ أكثر مدة من الاستقرار المناخي لكوكب الأرض من بين 400 ألف عام ماضياً. للمزيد انظر: براين فاغان، الصيف الطويل.

(2) تراكم معطيات الجفاف أدت إلى تحول مجتمع أبو هريرة إلى رعي المعز والغنم، عودة المزارع الأولي إلى الرعي من جديد.

«الصيف الطويل» كتاب ممتع في دراسة دور المناخ في تغيير المناخ والطبيعة لمؤلفه «براين فاغان»

The long Summer- Brian Fagan 2005 - Basic Books Publishing, New York.

انظر: ترجمته العربية - عالم المعرفة الكويتية 2007 - العدد: رقم 340.

المناخ يحوّل الإنسان، هنا نموذج لأحوال الظواهر الطبيعية حين تسوق الحضارة.⁽¹⁾
بين تغيرات المناخ وتغيرات الحضارة سنلاحظ أنّ المناخ يفوق الحضارة، فلماذا النظر
إلى المناخ وتغيراته الجيولوجية بتغيراتها هنا؟

قلنا: المناخ يسوق التاريخ، فأحياناً تكون القسوة أشدّ من أن تختفي مدن، كما أنّ
التبدلات تلك ستؤدي إلى تغيرات في المكونات الاجتماعية، وهذا ما يعيننا في أحوال
المشرق، فثمة مدن تموت مقابل أخرى تُبعث، والتاريخ يشهد.

التحريض والاستجابة ثنائية أشار إليها المؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) سابقاً في مسار
الحضارات البشرية، ومن هنا تحتّم على الإنسان والمجتمعات أن يتكيفوا، التكيف حالّ
دفاعيٌّ وجوديٌّ تُجاه تحريض هجومي ربما أخذ صورةً سلبيةً أو إيجابيةً؛ لهذا كانت المرونة
والتكيف عنصرَ توازنٍ ماديٍّ روحيٍّ حضاريّ.

في واقعة تضيء على جنون الجيولوجيا وغضب الطبيعة وتأثيرها في انهيار عالم وظهور
عالم جديد، سوف نعود إلى ما يقارب 2200 ق.م.

المكان: الجزء الشرقي من طور عابدين في شمال المشرق، ينفجر بركان جبل كوكب،
الحمم البركانية غطت مساحات واسعة، موقع تل ليلان/ شيخنا- شوباتل/ أنليل⁽²⁾، روى قصة
هذا البركان: الحمم انطلقت بكميات هائلة من الرماد إلى الجو، حقول الموقع أصبحت
أحواضاً من غبار تتقاطع فيها قنوات ريّ مملوءةً بالطمي، نفقت الماشية حتى بانت عظامها،
وانهارت مملكة (أكد) عندما انهارت أراضيها الزراعية، وللبقية تفاصيل.

وتل ليلان الآن أصبح مدينة أشباح؛ إذ يتحدث هارفي وايس، منقب موقع تل ليلان، عن
هروب ما يقارب 14000 - 28000 من سكان الموقع متجهين إلى أراضٍ أقلّ جفافاً ووضعاً
كارثياً.

تل براك (مدينة ناجار)، انكمش إلى ربع حجمه الطبيعي، وأراضي نهر الخابور هُجرت
ثلاثة قرون تقريباً، وضعفت المدن في المشرق التي عانت خطأ امتداد البركان ومفاعليه.

(1) لنا عودة في الفصل القادم لمناقشة أكثر استفاضة لهذا الموقع الهام في المشرق، لا سيما أن إحدى الدراسات
تشير إلى تعرّض هذا الموقع لنيزك في 12800 عام خلّت، أدّى إلى احتراقه.

(2) تل ليلان: يقع في شمال شرق سورية ويطلق عليه منقار البطة، يتميز بوقوعه في مركز سهول نهر الخابور
الخصيبة.

(أور) في الجنوب الرافدي عانت مأساتين: جفافٌ مميت، وانسياح الأموريين هرباً من المناخ السائد فيها⁽¹⁾، الأموريون في انسياحهم ضحايا هذه الظاهرة البركانية.

إدارة أور تقيم سوراً طوله 180 كم، أطلق عليه اسم «طارد الأموريين»، ولم تستفد المدينة من سورها أمام شعوب جائعة، وهي الجائعة أيضاً، الأراضي التابعة للمدينة شهدت زيادة السكان بثلاثة أمثال، فقد قالت الوثائق: إنَّ توزيع الحبوب على السكان أصبحت حصصه ضئيلة، واستمرَّ الجفاف في أور متزامناً مع انفجار البركان، زهاء 278/ عاماً.

الجفاف العام جعلَّ سهول نهر الخابور الشمالية صحراء شرسة، وفي عام 2000 ق.م لفظت أور أنفاسها، وانخفض عدد سكانها إلى النصف، يبدو أن انهيار المدينة بعامل المناخ هو الذي حفَّز (عيلام) على إنهاء فاعلية (أور) التاريخية مع الانسياح الأموري نحو الجنوب الرافدي، كما هياً هذا الجفاف لانهايار أكد، وإبلا وهكذا⁽²⁾. وستنتظر قليلاً، حتى يهدأ كل شيء، من أجل ولادة جديدة، فالانسياحات الأمورية الجائعة أغرقت مدن المشرق المتهالكة.

الإشارة إلى عامل المناخ والنشاطات الجيولوجية هنا نجدُه ملائماً لطبيعة حركة الاجتماع البشري في المشرق، هذه الحركة دفعت الفاعلية الديمغرافية، إن كان في عمقها الأموري

(1) أشارت المعطيات إلى أن التفجر البركاني هذا جعل الشمس كلها تحتجب شهوراً، مؤدياً إلى طقس بارد في غير أوانه، حتى أن الجفاف أصاب مساحات شاسعة من عالم شرق البحر المتوسط. تأخرت الرياح الغربية الرطبة المتوسطة، وانخفض سقوط الأمطار؛ ما أدى إلى اضمحلال المياه في نهري دجلة والفرات. كذلك لا ثلوج تملأ الجبال الشمالية، حتى فيضان الأنهر صمَّت بدوره.

للمزيد: الصيف الطويل - مرجع سابق.

(2) تكررت دراما الاختفاء لفاعليات مدن بسبب المناخ ونشاطات الجيولوجيا الأرضية، وجزيرة كريت ماتت فاعليتها التاريخية أيضاً بفعل بركان جزيرة سانتورين في بحر إيجه زهاء 1500 ق.م.

كريت الذي وصلها أسطورياً ذات تاريخ زيوس محملاً بأوروبا أميرة صور الكنعانية.

فرناند بروديل، وصف كل ذلك بثلاث كلمات: خيانات الجيولوجيا والمناخ.

لا يمكن أيضاً نسيان أن الحضارة الميسينية في البحر المتوسط قضت بفعل الجفاف كالمملكة الحثية أيضاً، وذلك قرابة 1200 ق.م.

ويبدو أن هذا ما دفع قراصنة شعوب البحر إلى الهجوم على مدن المتوسط وممالكة؛ ما أدى إلى إفساح المجال للانسياح الآرامي في المشرق ذي المدن المتعبة.

أو فيما بعد الآرامي في الألف الأول ق.م، وحتى الجولانات العربية في فضاء جغرافي لا يفصل بين شمال شبه الجزيرة وبلاد الشام سوى صحراء ممتدة دون حواجز طبيعية.

لم يعد في الإمكان أن ننظرَ خلسةً إلى المناخ ومؤثراته في الحضارة، فهو شأن تطوري ارتحالي تدميري وتحريضي يُحتمُّ خلقَ استجابة تلائم إحساسَ المجتمعات بالبقاء وضروراته.

ندرك أن عالم ما قبل التاريخ يعتمد مصادرَ وإلهاماتٍ تشمل:

البعد البيولوجي لعلوم الحياة.

البعد البيئي لعلم الأرض.

البعد التاريخي الخاص بالهجرات والارتحالات والمستعار من العلوم الإنسانية.⁽¹⁾

يشير «ريك بوتس» إلى التحلّي بالإنسانية، بوصفها ضرورةً بتلك المرونة، وقاربَ نجاة من خيانات المناخ، بقوله: «القدرة على ضبط وتنويع سلوكنا والفيسيولوجيا الخاصة بنا».

يقاربُ «براين فاغان» الدماغ وعملياته العقلية في الترنح الإنساني بين الجوع والشبع، ومزاجية المناخ التي خلقت دافعاً قوياً للعقل البشري.

«سينيثيا براون» تربط بين ما آل الإنسان العاقل إليه، نتيجة لعبة المناخ بوصفه عاملاً في التغييرات التطورية، بقولها: «لو لم يتغير المناخ بالصورة التي تغيّر بها، ولو لم يتعرض مجمع الجينات في أماكن معينة لمزاجية المناخ كما ظهر نوعنا العاقل بما أصبحنا عليه»⁽²⁾، فالتغيرات الدراماتيكية للمناخ والمحيط الحيوي حددت ملامح تاريخ الأرض والإنسان والحيوان والنبات كذلك.⁽³⁾

(1) فرانسوا بون-عصور ما قبل التاريخ بوتقة الإنسان- المركز القومي للترجمة- مصر- 2013.

(2) سينيثيا براون- تاريخ الأحداث الكبرى في التاريخ من الانفجار إلى الزمن الحاضر- المركز القومي للترجمة- مصر- 2010.

(3) في إسقاط لتأثير المناخ على المجتمعات يشير لويجي لوقا كافيللي في كتابه «الجينات والشعوب واللغات»، إلى أن الاستجابة التكيفية للمناخ لا بد أن تولّد جماعات متجانسة وراثياً في المنطقة المتجانسة مناخياً، وجماعات متباينة جداً في المناطق مختلفة المناخ، وهذا سوف نلتمسه إلى حد ما في دراستنا للبنى الديمغرافية في المشرق تبعاً للمناخ والمحيط الحيوي وتأثيره على البيئة الطبيعية والاجتماعية بما يؤدي إلى بعض المفارقات في النظر إلى المكون الديمغرافي عبر التاريخ.

حين أشرق المناخ:

أزاح البليستوسن Plesitocene -العصر الجليدي القديم- جليده نحو الشمال ليحلَّ الهولوسن Holocene -العصر الحديث جداً- الدافئ والمطير، وهذا يعاصر العصر الحجري الوسيط (الميزوليت Mesolithic)، ويؤرخ بين 12000 - 8000 ق.م.⁽¹⁾ هنا في المشرق قدّم المناخ فرصته الذهبية للبيئة الطبيعية التي هُيئت لاستقبال عالمها النباتي والحيواني والإنساني.

وبداً المشرق.

ومع ذوبان الجليد المتسارع بين عامي 14000 - 11000 ارتفع منسوب المياه وغطى اليابسة والتضاريس، حتى أنّ السواحل اختفى منها 40 % تقريباً، وعلى مساحة الكرة الأرضية، ومنذ 12000 عام تكونت أنهارٌ كبرى منها: دجلة والفرات، وترسبَ الطمي من فيضانات تلك الأنهار ما سمح بالزراعة فيما بعد، ثم في 10000 عام تقريباً ارتفع منسوب البحار عما يزيد على 140 متراً عن السابق.

تشير الباحثة براون إلى أنه في 28000 عام كان يبلغ عدد سكان العالم مئات الألوف، ثم في 10000 عام ارتفع العدد إلى ستة ملايين شخص، فالمناخ ساعد البيئة الطبيعية، والطبيعة أعدت عدتها لأن تتكيف الكائنات مع العالم الجديد.

ثمّة إذاً ما سمّاه (إيان تاتيرسول) «الإشعاع التكيفي»⁽²⁾، الذي سيسمح من الآن فصاعداً للكائنات بتحقيق استمراريتها وحيويتها في البيئة التي تغيرت بفعل المناخ. فالمرونة، إذاً، كانت ردة فعل تطوري تضمّنت ضبط السلوك وتنوعه، وحتى الفسيولوجيا الخاصة ليست للبشر وحدهم؛ بل لكل الكائنات، وهذه المرونة بحد ذاتها أكسبت الإنسان، على نحو كبير، القدرة على محاولات التأثير في البيئة.

(1) سينيثيا براون، تناقش أحوال العصر الجليدي الكبير الذي دام من 90000 - 17000 عام، واصلاً إلى ذروته في 20000 عام، فبدايات هذا العصر كانت تدريجية، في حين أنّ ذوبان الجليد وبدء المناخ بالتغير نحو 17000 عام، وهي حقبة الدفء العالمي، حيث وجبَ على الحياة النباتية والحيوانية بما فيها البشر أن تتكيف سريعاً أو تهلك، وبين عامي 14000 - 11000 ارتفعت درجات الحرارة وذاب الجليد سريعاً. انظر: تاريخ الأحداث الكبرى.

(2) إيان تاتيرسول- العالم من البدايات- هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث- 2011.

قلنا: إنَّ المناخ شأن تدميري وتحريضي وتطوري وارتحالي، وتوازنيٌّ أيضاً، وسنرى كيف ذلك.

دفع المشرق - البدايات:

تُقدِّم أبحاث الهجرات والارتحالات البشرية للإنسان العاقل *Homo Sapiens Recent*، أنَّ موجةً أخيرةً شهدتها تاريخ هذا الإنسان عبر هجرته من إفريقيا نحو المشرق وأوروبا في أربعين ألف عام مضى تقريباً، هذا الإنسان المكتمل لشروط الأئسنة الذي يبدو أنَّ مناخ المشرق وبيئته لم تناسبه، فعبرَ نحو أوروبا.

يرجِّحُ «إيان تاتيرسول» وصول العاقل من المشرق إلى أوروبا (العالم من البدايات)، ويقترحُ (لويجي لوقا كافيللي): على الأغلب أنَّ هجرات العاقل نحو أوروبا جاءت من غرب آسيا ومن شمال أفريقيا نحو 43 ألف عام⁽¹⁾، ويضيف: إنَّ دراسة الهجرات بيّنت أن جزءاً مهماً من الجينات الأوروبية جاءت من الشرق الأوسط.

يُوثِّقُ رالف لنتون في كتابه «شجرة الحضارة» بأدلة هجرات عظيمةً من جنوب غرب آسيا إلى أوروبا، ويركز على فكرة أنَّه يمكن إرجاع أصول كل من النوعين اللذين نطلق عليهما اسم «الألبي» ونوع البحر المتوسط، وهما الجنس اللذان اشتهرا في عهود أوروبا التاريخية في تلك المنطقة (جنوب غرب آسيا).

«تلك الهجرات لم تسبب فقط زيادة في عدد المجموعات الجينية التي مارست إنتاج الغذاء؛ بل قللت بطريقة تلقائية عدد الجماعات التي تعيش على الصيد وجمع الغذاء».

ويضيف لنتون: المهاجرون من غرب آسيا لم يُبيدوا سكان أوروبا القدامى من الصيادين اللاقطين بل امتصوهم. (شجرة الحضارة.⁽²⁾)

يصف براين فاغان أولئك المندفعين نحو أوروبا من جنوب غرب آسيا، والفنانين وصيادي الحيوانات فائقي المهارة، أنهم بشرٌ قادرون على التحكم في أي مناخ على الأرض، وكانوا في كامل قدراتهم الإدراكية.⁽³⁾

(1) لويجي لوقا كافيللي - سفورزا- الجينات والشعوب واللغات- المجلس الأعلى للثقافة- مصر- 2004.

(2) رالف لنتون - شجرة الحضارة- قصة الإنسان ج-1 المركز القومي للترجمة- مصر- 2010.

(3) يقول فاغان: «كانت أوروبا في العصر الجليدي المتأخر قارة تنفس، فتجذب البشر والحيوانات إلى داخلها في الأزمنة الدافئة، ثم تطردهم في الأزمنة الباردة، ثم لا تلبث أن تحتويهم ثانية بعد ذلك بألاف السنين. وفي 15

هناك استطاعت المجتمعات العاقلة أن تُعبّر عن وجودها وتُمثّل أحوال الأنسنة بكلّ معطياتها.

هنا في المشرق، وتبعاً لأحوال المناخ شديد البرودة على ما يبدو، لجأ من بقي من العاقلين إلى المغاور والملاجئ.

وبعض المخلفات الأثرية⁽¹⁾ تركها هؤلاء الخائفون، كما في موقع (كسار عقيل) في لبنان، ومغارة الواد ومغارة الأميرة في فلسطين، كما نلاحظ احتواء موقع يبرود (الملجأ الثاني) على وجودهم، وكذلك منطقة (الكوم) في البادية الشامية، أما في الأردن فقد قدمت مواقع وادي الحمة ووادي الحسا ومنطقة الأزرق والحسمي معطيات أولية عن ثقافة بسيطة تعتمد الصيد لا أكثر.

ويشير الدكتور زيدان كفاقي إلى أنّ المواقع الجنوبية لبلاد الشام (فلسطين والأردن) ربما كانت تمتلك بيئة أفضل وحالاً مناخياً ملائماً للعيش؛ ما يُظهر كثافة أكثر من مواقع سوريا ولبنان.⁽²⁾ ثم كان على جميعهم أن ينتظروا حتى يطرق تغيير المناخ أبواب ملاجئهم ليخرجوا إلى الشمس، وكان هذا مع نهاية عام 19000.

ثمّة أسئلة تطرح نفسها هنا: هل العاقلون المشرقيون هم فقط من خرجوا من الكهوف والمغاور؛ ليملئوا الجغرافيا المشرقية المتحالفة مع المناخ الدافئ، أم أنه مع تراجع حضارة العاقل الأوروبي قرابة هذه المدة جعلته يتجه عائداً إلى المشرق ليسهم في الحضارة المشرقية؟ أم أن ثمّة دفعات حضارية لارتحالات جديدة من أفريقيا إلى المشرق اندمجت مع المكون العاقل المشرقي الذي خرج من الكهوف والمغاور؟ إذاً أين راح عاقل أوروبا ما قبل الألف العاشر ق.م؟

ألف عام تسارع المناخ الدافئ في أوروبا، وهاجرت الحيوانات، وانتشرت الغابات، فهجرت جماعات أماكنها، وتفرقت إلى جماعات أصغر -الصيف الطويل يستمر حتى أيلول-، واختفت الرنة والثيران البرية والأيل الأحمر، وأصبح البشر نباتيين، والمناخ يحول الإنسان ثانية، إلى أن اختفت مجتمعات صيد العاقل في أوروبا في 12 ألف عام، هنا بدا المشرق رافعاً قبعة الاحترام للمناخ.

(1) اقتصرّت مخلفاتهم الأثرية على أدوات حجرية متنوعة في غياب أدوات عظمية أو خشبية، مع انعدام أثر للفنون أو المعتقدات أو الأبنية. ويبدو هنا أن عاقلي المشرق لم يقووا على المناخ فانعزلوا حتى تُفرج الأحوال المناخية عن عزلتهم.

(2) زيدان كفاقي - بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ - جامعة اليرموك - 2011.

انظر أيضاً: الوحدة الحضارية لوطن العربي من خلال المكتشفات الأثرية - مؤتمر - وزارة الثقافة السورية - 2000م.

مع تجاوز هذا التساؤل، نحن أمام معطى جديد هو أن المناخ أخيراً أفسح مجال الاختبار للإنسان ومجتمعات المشرق أن تمضي في خلاصها الحضاري إلى حدٍّ ما. فبين 19000 و10500 عام، انطلقت التجمعات الصيادية اللاقطة خارج كهوفها ومغاورها، والمناخ الإيجابي دَفَع إلى ذلك⁽¹⁾.

هذه الفترة تشكل منعطفاً مهماً لتأسيس التجمعات وانتقالها فيما بعد إلى مجتمعات، وذلك بمناخٍ عديدة أهمها:

فهم المكون الجماعي تفاعله مع البيئة الطبيعية، ومحاولة مقارنة الطبيعة ومحيطها الحيوي.

وعى المكان أكثر، وانتقال هذا الوعي من الكهف الثابت إلى معسكرات مؤقتة وليست دائمة.

تطور الأدوات الصوّائية وتقنياتها بما يحقق وظائف أكثر جدوى في الصيد، وفي القطع وما إلى ذلك.

والوعي الإنساني هنا كان معادلاً لتوازن المناخ، والتجمعات المؤقتة الأولى الخارجة من الكهوف والمغاور أنشأ بعضها معسكراتٍ مؤقتةً لإقامة عيش مؤقت، ثم عاود الرجوع إلى الكهوف والمغاور.

المعطيات تشير إلى التقاط الناس الحبوب البرية كما اصطادوا بعض الحيوانات، وبعض التجمعات لجأت إلى إنشاء أكواخ بسيطة من الخشب والأعواد وربما استخدمت الجلود.⁽²⁾ كأن إنسان المشرق آنذاك كان يُلاعب بيئته بإقامة مؤقتة، وهو الحذر الخائف؛ لهذا منحها إقامة مؤقتة؛ ليحقق، فيما بعد، طمأنينةً واستقراراً دائماً.

الدراسات العملية والأبحاث التطبيقية لمتغيرات البيئة آنذاك أجريت بأخذ عينات من باطن الأرض من منطقتين في بلاد الشام: الأولى من سهل الغاب في شمال غرب سوريا، والثانية من سهل الحولة شمالي فلسطين، بينهما مسافة 300 كم تقريباً.

(1) جاك كوفان، ينظر إلى دور رياح البحر المتوسط في درء الجفاف عن منطقة المشرق الشامي.

انظر: الألوهية والزراعة- ثورة الرموز- وزارة الثقافة السورية، 1999.

- Jacques Cauvin- Naissance des Divinites) 1997.

(2) كما في موقع خربة العاشق على الضفة الشرقية لبحيرة طبرية.

ونتائج العينات قدمت أدلةً مناخيةً وجيولوجيةً كالاتي:

منطقة سهل الغاب:

الحرارة تتراوح بين 8-10 درجات مئوية، بين 20000 - 18000 عام مضى.

برودة شديدة، الثلوج غطت جبال لبنان الشرقية والغربية.

تجمد المياه أدى إلى هبوط في مستوى البحر المتوسط بين 100 - 120 كم عن مستواها الحالي.

وهنا حصل اتساع في عرض منطقة ساحل المتوسط في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من مدينة اللاذقية.

وفي 18000 عام مضى حصل ارتفاع حراري أدى إلى انحسار الثلوج، ومنطقة الغاب اكتست بالأشجار الحرجية لا سيما البلوط.

ونهر العاصي بدوره قسم المنطقة إلى غربية جبلية مكسوة بالغابات، وشرقية إلى سهول.

استمر تراجع المناخ، فقبل 17000 عام أدى الجفاف الذي حصل إلى تراجع شجر البلوط، واتسعت مناطق السهول.

وقبل 13000 عام عاد الموسم الممطر مؤدياً إلى امتداد الغابات فوق مناطق واسعة.

منطقة سهل الحولة:

زهاء 17000 عام تعاقب بين السهوب والغابات.

وقرابة 13500 - 12500 عادت السهوب والصحاري إلى الظهور.

فالمناخ بارد وجاف، والنباتات الصحراوية غطت مناطق الصحراء على الأشجار الحرجية.

وفي 12000 عام أصبح المناخ معتدلاً، وعادت الغابات إلى الظهور.⁽¹⁾

بإمكاننا مقارنة ثقافة العصر الانتقالي بتواجدها بشرية استمدت مسمياتها من بعض أسماء مواقعها:

الأولى: الكبارية: من 19000 - 12000 عام مضى.⁽²⁾

(1) للمزيد انظر: زيدان كفاي - مرجع سابق.

(2) الثقافة الكبارية: جاءت تسميتها نسبة لموقع مغارة وادي كبارا في فلسطين، تقع على بعد 10 كم، شمال شرقي عسقلان على ساحل البحر المتوسط، وتقسم قسمين:

الثانية: الزرزرية: نسبة لموقع زرزري عاصرت الكبارية الهندسية.

الثالثة: النطوفية: منذ 12000 - 10500 عام مضى.⁽¹⁾

الثقافة الكبارية: (19000 - 14000) عام مضى

لعلّ ثقافة هذه الجماعات ومعيشتها لا تخرج عن مقدمات التفاعل المألوفة والحذر في أن مع البيئة الطبيعية والمحيط الحيوي، والمعسكرات المؤقتة لسكن مؤقت يقضي حاجة المعيشة والتفاعلات مع البيئة.

ذكرنا أنّ ثمة أكواخاً صغيرة بُنيت ببساطة، أما الأدوات فكانت من الصوّان، وعُثِرَ على أصداف بحرية استُخدمت حلياً، ففي بعض المواقع عثر على عظام حيوانية، وحجارة طحن ودق وهرس، وبعض المواقع عثر فيها على مدفنين (موقع الخزانة- حوض الأزرق).

مواقع هذه الثقافة: (واحات الكوم- تدمر- يبرود- جيروود- وادي الفرات- حوض الأزرق- وادي جيلات- وادي الحمة- وادي الحسا- وادي المدفع- صحراء النقب- سيناء).

ومن اللافت للنظر هنا أنّ معظم المواقع وُجِدَت بالقرب من مصدر مائي دائم، ومارس سكان المواقع الصيد البري، وبعضهم الصيد البحري. ويشار هنا إلى ابتكار مشرقية المواقع الأسلحة المركبة؛ حيث صنعت بقبضات من العظم أو الخشب وحدّها من قطع صوانية صغيرة، وأدخلوا البازلت تدريجياً ليصنعوا أدواتهم الثقيلة كالأجران والمدقات والفؤوس والبلطات.

اصطاد الكباريون الثيران والغزلان، واعتمدوا التقاط الحبوب البرية (القمح والشعير).⁽²⁾

الكبارية: 19000 - 14000 عام مضى.

الكبارية الهندسية: 14000 - 12000 عام مضى.

(1) الثقافة النطوفية: جاءت التسمية نسبة إلى وادي النطوف في جبال القدس والخليل في فلسطين.

هناك نطوفية مبكرة من 12000 - 11000 عام مضى.

ونطوفية متأخرة من 11000 - 10500 عام مضى.

(2) انظر: د. سلطان محسن- المزارعون الأوائل- دار الأبجدية- دمشق 1994.

انتشر الكباريون من سيناء في الغرب إلى سواحل البحر المتوسط والفرات في الشرق، ومنذ 14000 عام مضى ستتجه هذه الثقافة إلى تطوير أدواتها الميكروليثية لتأخذ أشكالاً هندسية، ممّا جعل الباحثين يطلقون عليها اسم «الكبارية الهندسية».

نحن هنا أمام تجمعات أكبر من سابقتها، وما زال السكن في معسكرات شبه مستقرة، فقد بنوا بيوتاً ذات أشكال دائرية بجدران من الطين والحجر، والسقوف من الأغصان والجلود، وبقيت بيوتهم، كطورها الأول، مغروسة في السطوح والمنحدرات.

والخوف لديهم ما زال مستمراً؛ إذ لم يغادر السكان المغاور كلياً، ويبدو أن إقامتهم بقيت على المصاطب أمام مداخل المغاور.

استخدموا الأدوات العظمية والمناجل بالإضافة إلى البازلت والصوان، وأدواتهم الصغيرة الميكروليثية الهندسية استخدمت في صيد الأسماك والطيور.⁽¹⁾

والواقع الطبيعي يشهد في هذه الحقبة في المشرق تزايداً لغابات البلوط الغنية بالجوز، أجريت عينات لحبوب لقاح ووجدت في قاع البحيرات القديمة في وادي الأرون ومواقع أخرى، والشيء اللافت في هذه الحقبة هو توافر المياه السطحية والينابيع أول مرة منذ آلاف السنين.

وشهد الواقع الديمغرافي انتقالاً للمجموعات الصيادة اللاقطة من الساحل نحو الشرق؛ إذ لم تكن الأراضي قابلة للإقامة، وأدواتهم حملها سهل؛ كونهم متنقلون، ولا تزيد عن عشرين أداة، وصنع كثير منها من الخشب، وثمة أدوات حجرية هندسية صغيرة الحجم أيضاً.

الاستنتاجات الإنسانية تمنح ملاحظات على تواجد البشر آنذاك، فمن عاش على ارتفاعات أقل استطاع اعتماد الحشائش البرية ذات الحبوب.

(1) نتجه إلى اعتماد اصطلاح «اللا شعور البيولوجي» فحين تطلب الخلايا مادة مالحة أو حلوة... إلخ، فهذا يدفعنا إلى تناول ما نطلبه دون دراية ممّا من أجل تحقيق توازننا البيولوجي، لعلها عملية لا شعورية بحثت في إطار بيولوجي، وعلى هذا، فإن التواجدات القديمة حتى ما قبل الإنسان العاقل القديم، نجد أنها تقارب البيئة المائية لا شعورياً.

وفي المصادر المائية هناك حمض دوكسو هيكلزا نويك OHA، هذا الحمض يؤدي دوراً مهماً في تطور البيئة الدماغية للإنسان، وهو حمض دهني معقد ينتجه جسم الإنسان لكنه لا يكفي، ما يدفعه لا شعورياً إلى مصادر خارجية، أهمها البيئة المائية، هنا الدماغ البشري يطلب والمعدة تناولت.

وتبعاً لإيقاع المناخ بكره وفرة، بفيضه وإمساكه، يُلاحظُ أنه عند ارتفاع الحرارة تحول الكباريون إلى الجوز والبذور، خصوصاً في مناطق غابات البلوط والفسق الأوفر حظاً في المياه، ومن ثمَّ نجد شمول ذلك على منطقة تمتد من منتصف حوض نهر الفرات إلى منطقة دمشق فنهر الأردن.

كذلك نرى أن المواقع الأكثر ارتفاعاً حوت أدوات سحن وهاونات، وهي أدوات معالجة محاصيل البذور والجوز؛ لخبزها فيما بعد. والاستجابة ضرورية هنا في منطقة تسقط فيها الأمطار موسمياً، وتعاني جفافاً دورياً.

ويلاحظ أيضاً أنه في 11000 عام أصبح البشر أكثر اعتماداً على الغذاء النباتي، فالتكيف هو إدراك أهمية المكان واستراتيجياته النباتية؛ فقد فضلت الجماعات الإقامة في أراضٍ فاصلة بين بيئتين نباتيتين؛ إذ تستطيع الاستفادة من أطعمة مختلفة في أوقات مختلفة من العام، والإقامة في الكهوف كانت مهمة لحفظ الأغذية النباتية فيها.

انتشار مشرقى هذه الحقبة شمل مساحات واسعة من بلاد الشام:

- في فلسطين: (الخيام - وادي فلاح - روش زين).

- في سوريا: (يبرود - جيرود - الكوم - نهر الحمر - عفرين - أم التليل - الندوية).

- في الأردن: (خزانة - البتراء ومواقع أخرى).

وما زال المشرق صياداً لاقطاً.

هذا في الجناح الغربي للمشرق من حيث التجمعات الأولى ما قبل مدة الاستقرار، أما في الجناح الرافدي فسنبكون أمام الثقافة الزرزية، نسبة إلى موقع زرزي في كردستان العراق، التي زامت أواخر الثقافة الكبارية، وأوائل الكبارية الهندسية 15000 عام مضى.

الثقافة الرافدية الزرزية: في 15000 ق.م عاصرت الكبارية الهندسية في بلاد الشام، واتصفت بتجمعات شبه مستقرة، وانتشرت من شمال الرافدين ووصلت إلى وادي (خوارم باد) في لورستان إيران، وشواطئ بحر قزوين في الشرق، وربما أنشأوا بيوتهم على سطح الأرض مباشرة، ويبدو أنهم أقاموا صوامع قرب بيوتهم لتخزين الحبوب والأطعمة، والصوامع دليل أولي على تفكير إيجابي بالاستقرار والتوطن.

ثقافتهم ثقافة صيد والتقاط (الغزلان - الماعز - الغنم - البقر الوحشي)، والتقطوا ثمار اللوز والزعرور والشعير والقمح، ويبدو أنهم استأنسوا الكلب مبكراً منذ ذلك الحين، كما

استخدموا الحجر البركاني «الأوبسيديان» Obsidian الذي يؤتى به من شرق أناضول، مما يمنح دليلاً على اتصالات وتبادلات مبكرة مع مواقع أخرى.⁽¹⁾

إن الممهّدات الثقافية والتطورات المعيشية في التفاعل مع البيئة الطبيعية والمحيط الحيوي وفهمهما، وهذا التبادل المتناغم بين التجمعات البشرية الأولى، كل على حدة، في المشرق وبين مناخها، زاد القدرة والمقدرة البشرية على وضع أسس لتطور جديد تُجَاهَ عالمٍ جديد، وستكون الزراعة والاستقرار مرتكزاته ومنعطفاته الحاسمة في التاريخ المشرقي والبشري.

النتوفيون المشرقيون:⁽²⁾

استقرارٌ أكثر، بيوتٌ حجرية، مُنعطفٌ وعيٌّ أكبر، برعاية المناخ المستقر. 8500 - 10000 ق.م.

وما يميز هذه الحالة التطورية عقلياً⁽³⁾ واندماجاً وفهماً للبيئة الطبيعية وأحوال المناخ، أنّ البشر في هذه الحقبة يمكنُ وصفهم بالجامعين اللاقطين والصيادين، لكنهم اعتمدوا الأغذية النباتية، ثم تمكنهم التدريجي من التخلي عن حياة التنقل، ومحاولات استقرارهم في أماكن تجمعٍ موسمية، ثم دائمة.

يصف د. زيدان كفاي الثقافة النتوفية بأنها تمثل حلقة وصل بين الجماعات الصيادية والجماعة للقوت من جهة، والجماعات المنتجة له من جهة أخرى.⁽⁴⁾

(1) للمزيد انظر: سلطان محيسن- عصور ما قبل التاريخ- منشورات جامعة دمشق- 2003 2004. والجدير ذكره هنا: اتجاه معظم الدراسات إلى الإشارة إلى معالم تجارية وعلاقات بين المواقع المتزامنة، فإننا ننظر إلى الأمر بطريقة أكثر قُرْباً. سبق أن أشار إليها الباحث نقولا زيادة، في مناقشته تفاصيل تبادل السلع التجارية عن طريق الحرير. فالمادة المُصدرة من الصين مثلاً (الحرير) لا تصل مباشرة من التاجر الصيني إلى تدمر فوراً؛ بل تنتقل بواسطة مواقع متدرجة، لنقل: الصين وباكستان وأفغانستان وإيران، والمشرق، عبر عدة محطات تستورد وتصدر للقرى منها. على هذا نعتقد أنه ربما كانت هناك علاقات تجارية مباشرة في حقبة ما قبل التاريخ، وربما كانت علاقات متدرجة بواسطة مواقع بسيطة. والأمر هنا قابل للأخذ والرّد.

(2) جاءت التسمية النتوفية نسبة إلى وادي النطوف في فلسطين، في جبال الخليل والقدس، ومغارة شقبة. تؤرخ على النصف الثاني من العصر الحجري الوسيط (الميزوليت).

(3) ناقشنا في كتابنا «دراسات في حضارة المشرق العربي القديم» معالم نشوء الحضارة المشرقية تبعاً لتطور البنية الدماغية عند الإنسان العاقل. (دار الإنماء الحضاري- حلب- سوريا- 2004).

(4) زيدان كفاي- مرجع سابق.

ولعلَّ اعتماد المصادر النباتية أعادَ المصادر الحيوانية إلى الدرجة الثانية، وهذا ما سبَّبه النبات للحيوان؛ إذ يبدو أنَّ حصاد النباتات كان يستمر في البدء أسابيع في معسكرات مؤقتة، ثم أخذت تزداد حتى أصبحت قرية دائمة، هكذا وُلدت القرى الأولى. وبدأ الشأن الاجتماعي يتجه من الجماعات البشرية الأولية إلى قليل من التماسك هياً لمعالم مجتمع قبلي.

يتحدثُ «يوفال نوح هراري» في كتابه «العقل»، عن بناء النطوفيين بيوتاً حجرية لمخازن من الحبوب، فثمة تطويرٌ للأدوات لتليق بواقع غذاءٍ جديد (مناجل حجرية لحصاد القمح البري، وهاون ومدقات حجرية لطحنه أيضاً).

إنَّ كَانَ عَيْشُ الصيادين اللاقطين قبلاً يعتمد مقولة: «من الأرض للفم»، فالآن نحن أمام معادلة جديدة: «من الأرض للعقل واليد فالفم».

والبيئة النباتية ربطت الإنسان أكثر بإيقاع المناخ، بالانتماء إلى أرض متطلبة حتى تمنح. وشيء آخر لا بدَّ من الإشارة إليه هنا، هو أنَّ اعتماد التأريخ بحرفيته في الوقائع التاريخية أمرٌ يحتملُ التمدد والتقلص، فلا إطلاق ولا يقين.

وقرابة هذه المدة نعتقد أنه يجب التوقف قليلاً للعودة إلى الخلف نحو ما يزيد على ألفي عام؛ لترصد تطور موقع مشرقى تناغم مع بيئته الطبيعية ومناخه، والتناغم يمكن أن يكون سلبياً أيضاً.

إنَّ وصف هكذا موقع ربما يمنحنا نظرةً بانورامية لمختلف المواقع المتزامنة، كلُّ حَسَبَ بيئته المحلية الطبيعية وربما مناخه أيضاً، ويوضح آليات تفاعل عن المجموع البشري مع مناخه وبيئته الطبيعية، فالتفاعل تفاصيل قائمة بحد ذاتها لفهم مراحل التطور الثقافي في ناحيته الأثروبولوجية، ولا ننسى أيضاً دور التغيرات المناخية المحرصة للوعي الدماغى بوصفها استجابةً طبيعيةً توازنيةً من أجل البقاء.

إلى موقع «أبو هريرة»⁽¹⁾ إذًا

سوف يرافقنا السيد «برايين فاغان»، ليتحدث: نحن أمام قرية بسيطة صغيرة تتألف من مساكن بسيطة تعود إلى ما يقارب 11500 ق.م، بيوت محفورة جزئياً في الأرض، مسقوفة بأغصان ورقع من البوص مدعومة بأعمدة خشبية.

المعاينة والاستكشاف لاحظتُ رماداً سميكاً ورواسب الأرض الرملية، يثبت أجيالاً من الإشغال البشري، وتم فرز عينات من تلك الرواسب، من التربة خلال ماء في ماكينة للطفو، وتم بذلك فصل الآلاف من البذور ذات الحجم الضئيل، وغيرها من بقايا النبات، ومكّن أيضاً فرز عظام سمك وخرز حجمه ضئيل.

مما أمكن الحصول على 712 عينة من البذور، كلُّ عينة فيها ما يصل إلى 500 بذرة لأكثر من 150 نبتةً مختلفةً من النباتات الصالحة للطعام، وبذا أُعيدَ تكوين عادات جمع النباتات منذ 13000 عام في قرية ذات موقع استراتيجي.

كان سكان الموقع يحصلون بسهولة على القمح في أثناء الربيع والصيف، وكذلك على نوعين من «الجوادار»، وهي حبوب برية تنمو عند الحدود بين غابات البلوط ومفيدة غذائياً، وثمة أغذية من اللحوم كالغزلان، وتلك الموارد الغذائية وفرت لأناس «أبو هريرة» طمأنينةً ووفرة، لا سيما مع إمكانات التخزين، مما سمح لأجيال قادمة باستيطان الموقع.

ومن ثمّ سنلاحظ أنّ طبيعة الالتقاط للبذور والثمار، ثم التخزين وأحواله التي فرضت عملاً جماعياً مكثفاً، وهذا ما جعل السكان يتعدون عن التنقل، مع تواجد بعض منهم مختصّ بالصيد، ونتيجة هذا يبدو أنّ قدرة البشر على التكيف مع ظروف الجفاف الأكثر شدة أصبحت محدودة، فلقد مروا من عتبة الاستهداف البيئي.

بدأ عالم ما قبل الزراعة يمارس غوايات الأسر للإنسان والمجتمع. وبعد عام 11000 ق.م، ونتيجة لعالم الوفرة، ظلوا مأسورين بعالم الغذاء النباتي وتفصيله، وليس في هذا الموقع فقط.

(1) موقع «أبو هريرة»، يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات -الآن يُعدّ عن مجراه-، إلى الشمال منه وعُثر على آثار ومخلفات ما قبل التاريخ.

يشير «براين» إلى أن أجزاء كثيرة من الهلال الخصيب شهدت ازدحاماً في المواقع بما أن هناك طعام يؤكل، والمستوطنات سُغت بالسكان لأجيال عديدة، وهذا الازدحام جعل التجاوز أمراً طبيعياً. إذاً الصرامة مهمة لتحديد الحدود (مجرى نهر، حرف وادي، أيكة بلوط، وادٍ جاف).⁽¹⁾

مع كل هذا بقيت التجمعات عرضةً لأمزجة المناخ: القلق نفسه، الجفاف الماحق. «نحن البشر نشبه العنكب، من حيث أننا نعمل من خلال شبك غير مرئية قد نسجناها نحن: شبك من تفاعل البشر فيما بينهم وعوالم من المعاني تُعين لهم آفاقها ما يكون من فعل، وخبرة، وذاكرة، لقد بقيت هذه الشبكة على حالها في أكثرها لعشرات الآلاف من السنين».

نتيجة الاستيطان لأجيال عديدة فقدت التجمعات قدرتها على المناورة والانتقال بعيداً، والعلاقات غدت أكثر تعقيداً بين العائلات وفي العائلة، العلاقات الروحية بالأرض بممكنتها تطورت وتعدت أيضاً، كأن التجمعات تلك أصبحت عبدةً لأرض معطاءة ومناخ ما زال ملائماً للعيش والبقاء. ثم أزلت الآزفة⁽²⁾، الجفاف أدى إلى توقف الناس عن جمع ثمار وجوز الشجر، زاد تركيزهم على الحبوب البرية.

بعد 400 عام اختفت البروق والحبوب البرية من «أبي هريرة» كما اختفت ثمار الفستق الصغيرة إلى حد كبير، وصمت الفرات عن فيضه على الضفاف، المناخ خانَ بشر الموقع، وأدى ذلك إلى تحولهم في غذائهم إلى أطعمة غير مرحب بها، كالبرسيم الذي يقاوم الجفاف وعشب الفصفصة، وهذا العشب يستخدم علفاً للحيوان.⁽³⁾

يبدو أن المناخ قادر على أن يحوّل الأنسنة شيئاً فشيئاً إلى ما قبل التمايز في الكائنات، الذي يبدو الآن مشهداً طبيعياً واجتماعياً، أن كل تجمع مأسور بأرضه، والمناخ الجاف هو المايسترو الذي يقود القافلة.

لا حروب بين التجمعات المتجاورة من أجل تأمين القوت، فالمقابر لم تشهد إصابات بشرية حربية، استكان كلُّهم، استسلموا بهدوء وتكيفوا مُجبرين، ثم زاد التحريض المناخي

(1) هذا يذكر بعلاقات المدن التاريخية في الألف الثالث ق.م، لكننا هنا أشد قسوة مما بين المجتمعات البسيطة قبل أكثر من 10000 عام، حيث حلت الحرب فاصلاً بين حدين.

(2) يُرجى العودة إلى الصفحة 14 لتبيان واقعة مناخية وجيولوجية في أميركا الشمالية أدت إلى جفاف قاسٍ وطويل في المشرق، ومنه موقعنا أبو هريرة.

(3) هذا النوع من الأطعمة لا يحوي راتباً غذائياً يُعول عليه، كما تتطلب معالجة شاقة لإزالة سُميتها قبل استهلاكها.

سلبيته، ودأماً أكثر مما يُحتمل إنسانياً وربما حيوانياً، وتم اتخاذ القرار من أجل البقاء فيما يقارب 10000 عام ق.م، بمحاولة زرع الحشائش لتوسيع المحصول البري.

الدراسات أكدت ظهور أول البذور المدججة الجاودار والحنطة البرية والعدس، ومع هذا لم يكفِ الإنتاج سكان الموقع البالغ قرابة أربعمئة نسمة.

«أبو هريرة» موقع لم يعد قادراً على الحياة في غياب محاصيل ثمار الجوز وفي مواجهة الجفاف القاتل هُجِرَ الموقع بعد ذلك، والمناخ خان البيئته الطبيعية التي خانت الإنسان بدورها؛ (حلقة وجود واحدة).

«فاغان» يوضح أن موقع أبي هريرة فيه أقدم تسجيل لزراعة الحبوب في العالم، ولكنه ليس أول موقع لهذه التجارب.

وبالعودة إلى الموقع الذي هجره سكانه، يثبتُ التخمين العلمي أنهم تبعثروا في مستوطنات قريبة من مصادر المياه في واحات طبيعية، هناك واصلوا زراعة الحشائش لدعم غذائهم من النباتات البرية.

بعد أجيال قليلة بدأت الحقول المزروعة تنتج محاصيل أكبر من مساحات الحشائش البرية، يبدو أنه تمَّ التحول إلى عملية زراعة كاملة النمو، ومع انسياب المناخ، أضحت الزراعة وسيلة الغذاء الأساسية، ثم فيما يقارب 9500 ق.م سنلحظ انبثاق مستوطنة جديدة مختلفة تماماً فوق أبي هريرة القديمة.

القرية الجديدة أكبر بكثير، مجتمع متشابك على نحو وثيق، منازل مستطيلة من دور واحد، مبنية من طوب طيني وتفصلها حارات وأقنية ضيقة. مجتمع يعتمد كلياً على زراعة الحبوب، عظام النساء كشفت هذه المعلومة بوضوح، فالأبحاث والدراسات العملية تقول: إنَّ نساء الموقع أنفقن ساعات طويلة وهُنَّ رابضات على ركبهن، وقد انحنين فوق أدوات الطحن، أصابع أقدامهن مدسوسة تحت أرجلهن، ووزن الجسم هنا يُستغلّ لطحن الحبوب مع اتخاذ أصابع القدم قاعدةً لتطبيق الحركة، وعملية السحن بالمدقّ فوق المطحنة لساعات ستؤدي إلى ضغط شديد على الركب والرسغين وأسفل الظهر. والمعاینات أثبتت إصابة كثير من نساء الموقع بالتهاب مفصلي في الظهر، وتشوهات في أصابع القدم، في حين لم يُصَبَّ الرجال بذلك، لكنَّ الهياكل العظمية لكليهما تُظهرُ فقراتٍ علوية متضخمة نتيجة تعود إلى حمل الأثقال فوق الرؤوس.

إنَّ دراسات التغذية والمعيشة ما قبل التاريخية تُركز على أنَّ حبة جوز البلوط كانت غذاءً رئيساً في الأماكن التي توفرتُ بها في العالم القديم ما قبل الزراعي، واللا شعور البيولوجي للتجمعات اعتمدها لأنها تقدم راتباً غذائياً يُعتد به، فهي تحوي 70 % من الكربوهيدرات، و5 % من البروتين، و18 % من الدهون.

معالجة هذا النبات يحتاج إلى فريق عمل لتقشير الثمار وسحبها، فلبُّ هذه الثمرة لا يؤكل لاحتوائه على حمض التانيك المرّ المذاق، وهذا ما يدفع إلى أن تتم تصفيته حيث ينقع الجوز مدةً طويلة قبل الطهو. وسحنُ ثلاثة كيلوغرام من جوز البلوط يحتاج إلى ثلاث ساعات، ثم أربع ساعات لتصفية الوجبة بدفق الماء عليها، وبعد هذه الساعات السبع ينتهي الأمر للحصول على 2,5 كيلوغرام من وجبة صالحة للأكل تكفي لإطعام عائلة عدة أيام.

«فاغان» يشير إلى أنه عندما أصبح جوز البلوط طعاماً رئيساً تغيرت الحياة في المجتمعات تغيراً عميقاً.

هذا التفصيل الذي أشرنا إليه يمنحنا مقارنةً مهمة للحافز الذي دفع النطوفيين إلى الاستقرار، فتقافة جوز البلوط، من حيثُ جمعُ الثمار وإعدادها وتطويرُ الأدوات، وتأمين مخازن الثمار، كل هذا شكّل جانباً مهماً من دوافع الاستقرار ومحبة المكان.

الرجال في الموقع قاموا بفعل الصيد، لا سيما الغزلان، ومارسوا رعي القطعان، واصطادوا السمك، وربما قاموا أيضاً بتنظيف الأرض التي سوف تُزرع. والنساء زرعن وأزلن الأعشاب، حصدن وطبخن.

يبدو أنَّ ثمة مفارقة معيشية مهمة، فنحو 9000 ق.م ثمة تحولٌ حاد في المجتمع من صيد الغزلان إلى رعي الغنم والماعز، ربما نَفِدَ مخزون الغزلان في المحيط.

بشر موقع أبي هريرة عاشوا قرابة ثلاثة آلاف عام فوق كوم قريتهم القديمة، تم أسرهم بمحاولات الزراعة ومقتضياتها، ثمة روابط تجمعهم مع أمواتهم الأقدمين، ونشأت روابط روحية تحمل شيئاً من قدسية التواصل الاجتماعي والروحي عبر الزمن. خَلَفُ صالح لسلفٍ كان. هكذا بصمتُ بدايات الزراعة بين قديم المجتمع وجديده.⁽¹⁾

(1) الجديد هنا هو بحث يتحدث بأخذ بعض العينات من الموقع، حيث إن مستوطنة أبي هريرة الأولى القديمة تعرضت إلى التدمير بفعل شظايا مذنب سقط على الأرض نحو 12800 عام مضى. فحين اخترق المذنب الغلاف الجوي للأرض تشظى إلى عدة أجزاء لم يصل جميعها إلى الأرض، لكنها أنتجت سلسلة انفجارات في الغلاف

«إيان تاتيرسول» يُعدُّ أن موقع أبو هريرة يقدم سجلاً متواصلًا لمدة الانتقال من الصيد والجمع بين 11500 و11000 عام ق.م، إلى الصيد والجمع المضاف إليهما زراعة البقول قرابة عام 10400، ثم إلى تربية الحيوانات والنباتات إضافةً إلى الصيد والجمع منذ ما يقارب 9000 ق.م.⁽¹⁾

نعتقد أنه كان من المهم استعراض موقع أبي هريرة؛ لأنه مثالٌ يُحتذى به؛ للإضاءة على معالم الانتقال بين ثقافتين في المعطى الأنثروبولوجي، وهذا يُشكل قاعدة استثنائية لفهم

الجوي تعرف باسم الانفجارات الجوية، وكل انفجار فيها يعادل انفجاراً نووياً، أدت إلى تبخير التربة والنباتات وأنتجت صدمات خلّفت إحداها دماراً كبيراً في المستوطنة. يقول أندريه مور الذي اشتغل في الموقع: «لاحظنا وجود آثار حرائق شديدة في المنطقة، لم يخطر في بالنا المذنبات أو شيء من هذا القبيل...» يُتابع: «اتضح لنا الآن أن آثار تلك الحرائق الشديدة كانت نتيجة لتصادم الدخان في كامل القرية بسبب الانفجار الجوي». ولاحظ العلماء الدارسون أن عينات التربة كانت مملوءة بقطع صغيرة من الزجاج المصهور (أجزاء صغيرة من التربة المتبخرة التي تجمدت بسرعة بعد الانفجار)، قطع الزجاج هذه يتراوح قطرها بين 1 و2 ملم.

لوحظ أيضاً تركيزات عالية من ألماس النانوي المجهرى والكريات الكربونية الصغيرة والفحم، جميعها تشكلت على الأرجح بتأثير كوني، فهذا الزجاج المصهور -والقول للباحث مور-: «يتطلب حرارة هائلة تتجاوز ما يمكن لجماعة من الصيادين الجامعين أن تولده». والدراسات أشارت إلى أن تأثير النيزك غيرَ مناخ الأرض وحصلت برودة استمرت 1300 عام. انخفضت درجات الحرارة 10 درجات مئوية في المتوسط، وصار المناخ أكثر جفافاً في المشرق.

أيضاً تعتقد الأبحاث أن التحول من الصيد إلى الزراعة سببه تلك المتغيرات المناخية، فموقع أبي هريرة بعد دماره أُعيد بناؤه وبشيء من الطرافة تشير الأبحاث تلك إلى أن من أعاد بناءه ربما فته ناجية كانت بعيدة عن الموقع في أثناء دماره. فإعادة تعمير الموقع كانت من قبل السكان السابقين أنفسهم؛ لأن الأدوات الأثرية لم تختلف عن سابقتها (تواصلية تقنية)؛ لكن ما اختلف هنا هو ظهور الاقتصاد القائم على الزراعة.

«مور» يعاود القول: موقع أبي هريرة هو الأقرب لأن تكون الزراعة المنهجية قد ظهرت فيه، لقد بدأ السكان في زراعة حقول حبوب الجاودار ثم القمح والشعير، بعد ذلك ربوا الأغنام والماعز، وبمرور الوقت تطور الأمر إلى مستوطنة ضخمة تضم عدة آلاف من السكان فأصبحت القرية المهيمنة في ذلك الجزء من سوريا. ويبدو أن سكان الموقع لم يهتموا كثيراً بتنظيف خارج بيوتهم، «البيوت نظيفة من الداخل لكنهم قاموا برمي الفضلات والقمامة في الأزقة الضيقة والساحات العامة، ما يوحي بوجود تناقض شديد بين النظافة الخاصة والعامة، بين الأنا والنحن». انظر: آثار الممالك القديمة بالجزيرة وطور عابدين- د. علي أبو عساف- وزارة الثقافة- سوريا 2011.

وانظر:

https://www.smithsonianmag.com/science-nature/comet-upended-life-paleolithic-village-12800-years-ago-180974575/?utm_source=facebook.com&utm_medium=socialmedia&fbclid=IwAR2BELu2Tz9OTeZz5iDhFR4W4SrSjMxs4ah8vdiHmvlS1B2LulyFWTbkTY

(1) إيان تاتيرسول- العالم من البدايات- مرجع سابق.

معالم التطور المعيشي لبشر المشرق في العصر الانتقالي. ونحن نقرب نحو عالم الزراعة بظهوره الأول، وهذا يتطلب الإضاءة أيضاً على مواقع نفوسية شكّلت رافعة حضارية لانبثاق الزراعة.⁽¹⁾

ستخيل الآن، مع ازدياد معالم هذه العلاقة «البين بين»، مناخاً وبيئةً طبيعيةً وكائنات، بسليباتها وإيجابياتها، أنّ من بين الكائنات امتلك الإنسان مصيره أكثر، ومضى للسيطرة على البيئة والطبيعة⁽²⁾ دون أن يستطيع إمساك جنون المناخ وجيولوجيته وكونياته.

الجوع مصيرٌ إن لم يتمّ وعي انزياحات المناخ الجافة، فخرنّ ثم مال نحو القطعان السائبة البرية، كالماعز والأغنام، وأدرك أنه بإمكانه احتباسه قطعياً من هذه داخل حظائر، وهي كائنات اجتماعية بجدارة، وتحلم بمن يسوسها، فحُبست وتكاثرت، وتمّ حلّبها وتناول لبنا الذي صار طعاماً للقربة⁽³⁾، وها هم يرتدون أيضاً ألبسة من فرو الصوف بعد أن أنتجوا

(1) شغلت جماعات بشرية الموقع في العصر الحجري الحديث (عصر النيوليت) في الحقبة ما بين 13400 إلى 7500 عام على مرحلتين. وعثر على بقايا بشرية تعود إلى 162 فرداً خلال حفريات الإنقاذ لبعثة جامعة أوكسفورد إبان بناء سد الطبقة قبل أن تغمره مياه «بحيرة الأسد». وأحد أهم الأسئلة التي قد تخطر على البال هي: ما أصول هؤلاء السكان؟ وهل يمتون بصلّة مباشرة إلى السكان المعاصرين؟ وقد حاول باحثون الإجابة عن هذه الأسئلة بدراسة تشريحية مقارنة لعينات الفك السفلي. أظهرت هذه الدراسة المنشورة في مجلة *Bioarchaeology of the Near East* عام 2012. 1- هنالك نمطان شكليان في عينات الفك السفلي يشيران إلى وجود تنوع حيوي بين سكان الموقع. أحد الأنماط ABO (وهو يمثل الغالبية) له صلة بمجموعات سكانية نيوليتية في الأناضول وسوريا. والنمط الآخر ABO يظهر تشابهاً بيولوجياً مع عينات نيوليتية من شرق إفريقيا وشمالها، وأريحا في فلسطين ما يدلّ على حدوث هجرات من إفريقيا إلى الشرق الأدنى في نهاية العصر الجليدي.

2 - النمط الثاني ABO يظهر في مدة متأخرة نسبياً عن النمط الأول، وهو تحول يترافق مع تغيرات سلوكية عديدة في الموقع.

3 - يتوافق شكل النمط ABO مع التشكل الذي يمتلكه السكان الحديثون للمنطقة اليوم، ولاحظت دراسات أخرى أنّ هذا النمط يشيع لدى مجموعات عديدة من سكان شرق البحر المتوسط المعاصرين. كما أنّ بعض السكان المعاصرين في المنطقة اليوم يمتلكون أصولاً تعود إلى شمال إفريقيا وشرقها.

Bioarchaeology of the Near East, 2012, Origins of the Neolithic people of Abu Hureyra, northern Syria, Theya Molleson, Antonio Rosas.

(2) الدماغ الإنساني يحوّل طاقة لا تزيد على 10 واط مع بعض الكيماويات في الدماغ إلى أفكار وذكريات، تجارب سابقة، عمليات خلاقية فكرياً، شعور، عواطف أحلام، وباختصار شديد «وعي كامل للبيئة والنفس».

(3) هنا سنلاحظ أنّ توافر بدائل لحليب الأم يدفع إلى إنجاب أطفال أكثر، وهي حاجة المجتمع القادم نحو الزراعة. شيء آخر: الدراسات التطورية منحنتنا أدلة على أنّ التغذية المتضمنة الحليب (سكر اللبن والكالسيوم) أدت إلى تحول تدريجي بمورفولوجيا الإنسان، حيث بدأت تظهر جماجم مستديرة بدل الجماجم المستطيلة، خصوصاً مع التحول الكبير نحو الزراعة واستئناس الحيوان.

غنماً بفرو. استؤنس الحيوان أخيراً، كفايةً من اللحوم، ودفءٌ ضد البرد، ربما حصل هذا في 9000 عام ق.م، والكلب سبق استئناسه بعدة آلاف من السنين أيضاً. ندرك الآن أن مراحل التحول تكون أصعب من تحقيق الهدف أحياناً.

في الزراعة تعوّد، ولكن في التحول نحوها كان المفاض عسيراً.

انتشار الثقافة المتحوّلة للزراعة هنا نجده في مواقع عديدة من المشرق: سواحل المتوسط الجنوبية حتى كيليكيا، بادية الشام ومنطقة الفرات، ومنطقة الأزرق في الأردن، هذا في البدء، ثم عمّ انتشار السكان في مواقع كثيرة كالملاحة وروش هوريتا في فلسطين، والمريبط وأبو هريرة على الفرات، وغيرها.

هورس كوبلاند Hours F.Copland، وأورانس Auranshe.l، يتحدثان عن سيادة «العرق المتوسطي القديم» في الثقافة النطوفية في بلاد الشام، وربما المشرق كاملاً.⁽¹⁾ ثقافة النطوفيين شملت صنع أدوات عظيمة، وأدوات بازلتية ثقيلة، وما يميز هذه الحقبة هو ظهور الفنون الأولى في المشرق⁽²⁾، حيث تفنن النطوفي في صنع تماثيل صغيرة حيوانية وإنسانية وأدوات زينة، كما بنوا المقابر الكبرى بجوار قراهم.⁽³⁾

موقع عين الملاحة في الأردن قدّم لوحتان من الحجر على كلّ منها رأس إنسان مختزل الملامح، كما قدم لنا قبراً لرجل مدفون إلى جانب كلبه، وهذا الموقع يشغل مساحة تزيد على 1000 م²، هذه المساحة تتفوق على معسكرات الصيادين اللاقطين في أي مكان آخر. الدليل القوي للاستقرار في الموقع ولعدة أجيال نجده حين حفروا الأوجار للتخزين، يأتي من ظهور فئران المنزل في الموقع، في أكوام القمامة وبأعداد كبيرة، كذلك جردان وبقايا عصافير دورية، هذه الكائنات الحيوانية تُصاحب دائماً الاستقرار في المكان ولأمدٍ طويل، فأر المنزل كان عدواً مباشراً لثمار الجوز المُخزّنة.

إيان تاتيرسول يصف التغير من أسلوب الحياة المتنقل إلى الاستقرار، وتم توثيقه بأفضل أشكاله في منطقة الهلال الخصيب، حيث يبدو أنّ هذا التغير قد حدث هنا أولاً، ويعزى

جان شالين- الإنسان نشوؤه وارتقاؤه- دار بتر- دمشق- 2005.

(1) Les Industires Paleolitique Du Proche – Orient – 1973.

(2) يتفنن الإنسان حين يكتفي ويحقق طمأنينة ووفرة معيشية، ما يدفع الجانب الروحي إلى حيث محاولات استجلاء آفاق لم يرتدها قبلاً.

(3) انظر: سلطان محيسن- عصور ما قبل التاريخ- مرجع سابق.

وجود عدة مواقع أثرية في المشرق، تعود إلى ما بين 12000 - 10000 عام مضى، إلى ما نسميه الثقافة النطوفية.

يشير «فريد سباير» في كتابه «التاريخ الكبير» إلى أنه منذ 10 آلاف عام على الأقل تعلم البشر زرع النباتات وتأسيس الحيوان، وهكذا أمكن لهم التحكم في التدفقات المهمة للطاقة. موقع عين صخري في فلسطين قَدّم تمثلاً صغيراً يُصور رجلاً وامرأة في احتضانٍ حميم (حالة جنسية).

في موقع المربيط (IA) السوية الأولى عُثِر على خرز من الحجر المصقول، أول مرة يصقل فيها الحجر في عصور ما قبل التاريخ.

وثمة أدلة على حالة روحية اجتماعية تختص بالمجتمع القبلي في تقديس الأجداد، الرأس مفصول عن الجسد ودُفن منفرداً داخل بيوت السكن.⁽¹⁾

واتجاهاً نحو الجناح الشرقي الرافدي سنجد ثمة تجمعات انتقالية في منطقة زاغروس تؤرّخ بين 10000 - 8000 ق.م تقريباً. هنا نلاحظ مغادرة للكهوف، ومساكن في مناطق مكشوفة كما في موقع «زاوي شمسي - شانيدار» وكما في مواقع الجناح الغربي الشامي المعطيات الثقافية لا تختلف، لكنّ العثور على خرزة من النحاس تدفع إلى الدهشة من هذا الزمن المبكر للنحاس المُصنّع. الدكتور محيسن يشير إلى أن الصفات العرقية لتلك المجتمعات تشبه ما لدى نطوفيّ بلاد الشام.

كما أنّ موقع نمريك Nemrik حول مدينة الموصل يقدم حالةً متطورة في العمارة ذات البيوت الدائرية، ويؤرّخ هذا الموقع نحو الألف التاسع ق.م. فقد عُثِر على أول الأعمال النحتية، والجميل في الأمر أنّ النحات لم ينفِ عمله عليها بعد، والقطع النحتية صغيرة من الصوان أهمها تمثل رؤوس طيور جارحة بعضها يملك تفاصيل متكاملة، وأخرى نُحتت بخطوط وسطوح خارجية دون تفاصيل.⁽²⁾

(1) تتحدث الأديبات التاريخية ذات الصلة بتقديس الأجداد Animism على أنها ديانة أو عبادة، ولا يمكننا هنا الأخذ بمفهوم العبادة أو حتى التدين، بقدر ما هو تقليد اجتماعي، يتضمن طمأنينة أرواح الأسلاف في استمرارية للقبيلة عبر الزمن. الشأن هنا اجتماعي وليس دينياً.

بالإمكان لمزيد من الأفكار الرجوع إلى كتابنا: نشوء فكرة الألوهة- 2011- دمشق.

(2) انظر: د. مؤيد سعيد بسيم- بحث في المؤتمر الخامس حول الوحدة الحضارية في العصر العربي- العصر الحجري الحديث/ فترة ما قبل الفخار في العراق وبلاد الشام- دمشق- وزارة الثقافة السورية- 2000م.

الجدير ذكره هنا أنه فيما يقارب 10000 عام ق.م كانت الأرض موطناً قرابة 5 - 8 ملايين جامع ولاقط، وإجمالاً نجد أن المشرق في الحقبة النطوفية سادّه تجانسٌ ديمغرافيٌّ عرقيٌّ، أخذ بالتعبير، ولو بشكل بدئي، عن ظهور شخصية لمجتمع في مواقع متعددة، نحن أمام الاستقرار النسبي ومغادرة عالم الصيد والالتقاط الذي يتميز بسكن المغاور والكهوف.

أيضاً نلاحظ أنّ للبيئة الطبيعية وعياً متقدماً بعالمها النباتي والحيواني، للتفاعل مع معطيات المناخ وأمزجته، كما نتلمس أولى الانبثاقات الروحية الاجتماعية، وليست الدينية كما تذكر الدراسات^١، بواسطة ظاهرة الأرواحية في مُقدّماتها، بالإضافة إلى أنّ هذا الاستقرار النفسي قليلاً تُجَاه مقتضيات العيش والاستمرار والبقاء، بمقاربة أكثر لعالم النبات والحيوان، حرّرت المجتمعات نحو المسائل الروحية الفنية، فأصبحنا أمام بؤادر فنون وتنوعات فنية هي الأولى في المشرق حتى الآن.⁽¹⁾

Jacques cauvin يختصر الثقافة النطوفية بقوله: ليس في تقنياتها ما هو ثوري بالضرورة، لكننا نشير إلى الأهمية التاريخية للظاهرة القروية، إنها مرحلة مهمة في نزعة مستمرة للبشر للتجمّع دائماً في أعداد أكبر، وهي تفترض، في كل حال، تعديلاً تدريجياً للبنى الاجتماعية من أجل تأمين هذا التعايش المشترك بشكل أكبر.⁽²⁾

«براين فاغان»، يناقش المنحى الروحي الاجتماعي في الحقبة النطوفية وامثاله في الترابط الاجتماعي.

«العلاقة بالأرض تغيرت تغيراً عميقاً قبل بدء الزراعة في المجتمعات التي حلت فيها المستوطنة الدائمة مكان معسكرات الصيد المؤقتة، وحيث توجد المناطق المحدودة جيداً التي تغذي الحياة البشرية عن طريق حصاد الحبوب البرية والجوز البري، أصبحت هذه المناطق أراضٍ قبلية اكتسبت تواصلاً تاريخياً. غدا الأسلاف هم الأوصياء على الأرض والوسطاء بين القوى المتقلبة للبيئة، ذلك العالم فوق الطبيعي وبين عالم الأحياء. قوة الأسلاف تتأتى من التربة التي كانت هاجعة ثم عادت للحياة، وأنتجت المحاصيل، ثم

(1) سنناقش هذا الموضوع في فصل خاص عن تاريخ الفن في المشرق.

(2) Jaques cauvin - جاك كوفان - الألوهية والزراعة - ت. موسى الخوري - وزارة الثقافة السورية - 1990.

تبدو مَيّنة، لتتكرر الدورة نفسها ثانية، كما تفعل الحياة البشرية. عندما أصبح الناس مزارعين صارت هذه العلاقات إحدى البؤر للمجتمع والعقائد الروحية»⁽¹⁾.

ال عمران النطوفي:

في ورقة بحثية مهمة تناقش المنقبة والباحثة دانييل ستوردور Danielle Stordeur، مساهمات الثقافات النيوليتية في سوريا والمشرق⁽²⁾. تصل إلى أن العلامات الأولى للبناء تعود إلى 15000 ق.م تقريباً (العصر الكباري)، حيث تم التعرف في موقع (عين جيف) في فلسطين على كوخ يبلغ قطره 5 م، وهو شبه مطمور على حافة الرابية، كما أنّ هذا يتزامن مع موقع مغارة جعيتا في لبنان II، فثمة بقايا جدار صغير من التراب المدكوك المبني فوق أساس من الحجارة الملساء المستندة على جوانب المغارة.

وفي رأي الباحثة أنّ كل ذلك يمثل أحد الشواهد القديمة المعروفة في المشرق عن تنظيم السكن الذي يؤمن إقامة مديدة ستمتد تقريباً إلى 2000 عام قادم، فالتجمعات السكنية الأولى وتجمعات المستقرين الأولى (القرى) لم تظهر إلا في 12000 ق.م تقريباً. وهذا النمط من الحياة المستقرة (سابق الزراعة) استدعى وجود جزء من المستقرين وظيفته البحث عن موارد غذائية إضافية.

السكن في القرى النطوفية يناقش في نمطين:

نمط يُعدّ السكان مستقرين فعلاً، ونمط لسكان لم يكونوا سوى شبه مستقرين، وتختلف الآراء بحسب الدارسين هنا.

لنطوفيين إسهامٌ مهم في عدة تجديدات تقنية، أولها: اكتشاف الطوب (طوب مقولب يدوياً). الأعمال الجماعية المنظمة في القرى النطوفية تدل على تعاون معيشي على مستوى التجمع، مع ملاحظة أن القرى محدودة، فليس ثمة مستوطنة تتجاوز مساحة نصف هكتار. في الانتقال إلى الحقبة بين 9500 و8200 ق.م، سنجد مواقع نطوفية تتكون فيها الأحجار مع الخشب وتربة البناء (موقع المريبط)، ونلاحظ بعض التنوعات المرتبطة بالبيئة المحلية.

(1) فاغان - مصدر سابق.

(2) انظر: المدينة في سوريا وأقاليمها - المورثات والمتحولات - مجموعة باحثين - دار الجندي - 2004.

الافتراق هنا أن موقع المربيط نجد فيه تدخل الحجارة قليلاً على عكس موقع جرف الأحمر⁽¹⁾ الذي كان للحجر فيه دور أساس. فالتقنية العمرانية في جرف الأحمر البيتون الطبيعي المكون من حصى وطين «ملتصقان»، لا سيما قواعد الجدران، سنجدتها بعد قليل في موقع نمريك الرافدي. كما نلاحظ تشابهاً في التفاصيل التقنية للبناء بما سمي «الحجارة الشبيهة بالسبجار»، بين مواقع جرف الأحمر وأريحا في فلسطين وموقع معليات في الرافدين. يبدو أننا أمام استعمال مواد مسبقة الصنع بوصفها أقدم شهادة أثرية. العمارة النطوفية أسست لنشوء البيوت المستطيلة بدلاً من البيوت الدائرية.

شيء آخر مهم يدخل في سياق الروحية الاجتماعية في الثقافة النطوفية، فقد أمكن تمييز أبنية لاستخدام جماعي، سواء في جرف الأحمر، أو المربيط - اثنان في الأول واثنان في الموقع الثاني - مع ملاحظة أن كلا الموقعين يبعدان عن بعضهما 60 كم تقريباً. حوت هذه الأبنية أدوات وبقايا حيوانية وأيضاً بقايا بشرية (جماجم بلا هياكل، هياكل عظمية بلا رأس ممددة في الغرفة المركزية).

«ستوردور»، تتحدث عن إمكانية استخدام مثل هذه الأبنية لنشاطات اجتماعية ورمزية. لعل هذه البنية المعمارية النطوفية تقدم دليلاً مهماً على اتحاد الجماعة آنذاك وزيادة اللحمة الأهلية فيما بينها. عموماً أدت الثقافة النطوفية بكل مناحيها إلى تأسيس مرتكزات ثقافية حضارية أسهمت في ظهور الزراعة بوضوح.

أُننا الطبيعة - الزراعة

الزراعة - الطامة الكبرى المفيدة أو قلقٌ طبيعي «الألف التاسع قبل الميلاد»⁽²⁾

(1) موقع جرف الأحمر، يقع في محافظة حلب على الضفة اليسرى لنهر الفرات. يؤرخ على امتداد النصف الأول من الألف السابع ق.م، تبلغ مساحته 2م1200. أقصى امتداد لهذا الموقع يبلغ ثلاثة أرباع الهكتار في مقابل أن موقعي مربيط وأريحا كانا أكثر اتساعاً. قد تكون بعض المواقع العائدة إلى الحقبة النطوفية تمتد حتى 3 هكتار مساحة. تستوقنا وجهة نظر هنا للباحث «بيتر فارب»، في كتابه «بنو الإنسان»، حيث يشير إلى أن سكان موقع المربيط في 10000 عام كان معظم سكانه تجاراً لا مزارعين. يورد مثلاً: أن مدينة أريحا منذ أقل من عشرة آلاف عام كانت مساحتها عشرة أفدنة تقريباً، محصنة بخندق عريض، سورٌ يحيطها إحاطة كاملة، يعتقد الباحث هنا أن كل هذا من أجل حماية تجارتها القائمة على الملح التي كانت تحصل عليه من البحر الميت. ويؤكد أنه في ذلك الوقت لم يكن إنتاج الغذاء قد بدأ في البلدة. الموقع هذا بلغ عدد سكانه 2000 نسمة، والمعطيات تدل على وجود سلطة مركزية. تاجرَ بالملح مقابل منتجات زراعية. انظر: بيتر فارب- بنو الإنسان- عالم المعرفة الكويتية.

(2) في الألف التاسع ق.م بدأ العصر الحجري الحديث ولا سيما في منتصفه Neolithic.

رأى «إيان تاتيرسول» أنّ الزراعة في الهلال الخصيب مع تربية الماعز والأغنام والخنازير شكّلت الأساس لتوسيع وتقوية جوهرين في الاقتصاد، وهذا ما كان له نتائج هائلة في عملية التمدن التي غدتّ أمراً ممكناً ومن ثم تمهيد الطريق للحضارات الأولى.⁽¹⁾

في المقابل ينظر «يوفال نوح هراري» إلى عالم الزراعة بعين الشك فيما آل إليه وضع البشرية، فمع أنّ المشرق في 8500 ق.م كان مليئاً بالقرى الدائمة كأريحا التي قضى سكانها معظم وقتهم في زراعة بضعة أنواع مستأنسة، غير أنّ للعالم الزراعي مأساته أيضاً على كلّ من زرعٍ ودجن.⁽²⁾

وفي رأينا: إنّ مطلق منجز إنساني كان يحمل في حياته بذور هلاكه إن لم يتم وعي وجهيه المتناقضين.

الزراعة أدت إلى استقرار كلي، إلى الاستحواذ على الأرض، إلى ابتكار سور تملك لحماية المحاصيل والحيوانات المستأنسة، ثم سيلد العالم الزراعي المخازن من أجل المحاصيل، وسوف تكثر المحاصيل فتنشأ تجارة المقايضة، وتتطور الأدوات والتفاعلات، وتتضخم مفاعيل التملك وربما السيطرة والعدوانية إن حلّ الجفاف. ثم الزراعة التي تطورت من عوالمها، القرى إلى بلدات إلى مدن، إلى عالم تقني زراعي، فتطور المجتمعات، إلى أن تصبح الزراعة أمراً بدهياً.

نمت الاقتصاديات مع الزمن، حل التنافس، فالصراعات من أجل التملك، أصبحنا في عالم صناعي يُلوث المحيط الحيوي للكرة الأرضية، احتباس حراري يؤدي إلى هلاك المناطق الجليدية، ارتفاع مستوى البحار نتيجة ذوبان الجليد، زوال مدن، وارتفاع حراري على مستوى الكوكب، طعن الزراعة من جديد⁽³⁾؛ لهذا قلنا: إنّ الزراعة هي الطامة الكبرى المفيدة.

وبالعودة إلى ما قبل الثقافة النطوفية، حيث مضت القرى في فهم أدوات تفاعلها مع إمكانات البيئة الطبيعية، فاستمرت في جمع الحبوب لكنها تبعاً لمجاري التطور توصلت

(1) إيان تاتيرسول - مرجع سابق.

(2) انظر آراء يوفال هراري في كتابه «العاقل» فهي جديرة بالتأمل والمناقشة.

(3) أيضاً رأي جان شالين في أنّ الثورة البيئية في مستوى صناعة العصر الحجري الأخير أدت إلى تركيب جديد في المجتمع انتهى إلى عالمنا الحالي. ثورة صناعة الأدوات والتقنية لدى شعوب الأرض منذ العصر الحجري الحديث قد تمت بدرجات من السرعة المختلفة بفعل أسباب متنوعة، ثقافية ودينية وسوسولوجية. انظر: جان شالين - الإنسان نشوؤه وارتقاؤه.

إلى زراعتها شيئاً فشيئاً. في البدء جمعوا الحبوب البرية، ثم أبقوا بذوراً لبزرها في موسم قادم، تطورت ملكاتهم الزراعية ليتبينوا أن بذر الحبوب في عمق الأرض أفضل من بعثرتها على السطح، بدأوا يجرفون ويحراثون، صاروا مزارعين بامتياز.

منذ الزرع الأول صار ثمن التحديق إلى الأعلى (السماء) مهماً، أطلق عليه «فاغان» «القلق الطبيعي»، وصار إيقاع الطبيعة والوسط الحيوي المناخ أكثر التصاقاً بيوميات المزارعين. وقد سعى الإنسان إلى الطمأنينة والأمان، لكن القلق سَكَنَهُ وسيبقى، وصار إيقاع الفصول يعنيه أكثر فأكثر، فالظواهر الطبيعية بتنوعها وتناقضاتها كلها ستؤثر في مجريات المجاميع الزراعية، صار للشمس حضورها، للقمر، للريح، للطوفان، والجفاف كابوس، بعد حين ستصبح للظواهر الطبيعية رموزها ومعتقداتها.

التحول إلى الزراعة بدأ من 9500 - 8500 ق.م، بدأ في تلال الريف في الجنوب الشرقي لتركيا وغرب إيران وشرق المتوسط، والزراعة ظهرت في بقاع مختلفة من العالم على نحوٍ مستقل وكلٌّ حَسَبَ بيئته، مثلاً: في أميركا الوسطى بدأوا بزراعة الذرة والفاصولياء دون أن يعرفوا شيئاً عن زراعة القمح والباذلاء في المشرق، وسكان أميركا الجنوبية زرعوا الذرة واستأنسوا اللاما.⁽¹⁾

(1) أمكن وفق الأبحاث الأثرية تبيان وجود سبعة إلى ثمانية مراكز زراعية، وتم تطوير استئناس الحيوان والنبات فيها وبشكل مستقل عن بعضها، وذلك بعد بدء التحول المناخي نحو الإيجاب وانتهاء العصر الجليدي في 12000 عام ق.م.

تلك المراكز هي الهلال الخصيب، والشريط على طول الحواف الجنوبية للصحراء العربية الكبرى - اثنتين من وديان الأنهار في الصين - أجزاء من أميركا الوسطى والجنوبية، وغينيا الجديدة.

وأمكن تمييز اختلافات كل ثقافة بحسب بيئتها =

=الأغنام والشعير والقمح، الكلب والماعز في الهلال الخصيب.

الأرز والجاموس في الصين.

اللاما والذرة الصفراء في أميركا الوسطى.

الموز وقصب السكر والقلقاس في غينيا الجديدة.

يبدو أن أقدم ظهور لبدايات الزراعة كانت في الهلال الخصيب وتركيا، هناك آراء متناقضة في ذلك بالطبع.

كما أشارت سينيثيا براون إلى انتقال الزراعة من الهلال الخصيب إلى أوروبا وبلاد النيل 6000 ق.م تقريباً.

إيان تاتيرسول يشير إلى أن امتداد عالم الزراعة من الهلال الخصيب إلى أوروبا قبل 7800 عام مضى.

وإجمالاً، منذ 7000 - 5000 ق.م تقريباً، انتشرت أساليب الزراعة إلى جميع مناطق العالم المأهولة.⁽¹⁾

تفاصيل:

أهمية العالم الزراعي يمكن مقاربتها بمقارنة مع عالم الصيد والالتقاط، فمثلاً: الصياد الجامع للثمار كان يحتاج إلى عشرة أميال مربعة تقريباً من الأقاليم الصالحة، كي يجمع منها ما يقيم أوده من الطعام، وفي المقابل إن ميلاً مربعاً واحداً من الأرض المزروعة يمكن أن يؤمن غذاءً لخمسين شخصاً على الأقل، بهذا نفهم دور الزراعة في الاستقرار أولاً، وفي الكثافة السكانية للقرى الأولى التي وُسِّعت إلى بلدات، وبعد آلاف من الأعوام إلى مدن ممتدة على ريفها.

نلاحظ أيضاً أن من بين 200.000 نوع من النباتات، ولم يستعمل الإنسان سوى 3000 نوع استعمالاً مهماً من أجل طعامه، من بينها 15 نوعاً أكثر أهمية هي: (القمح، الأرز، الذرة، السكر، الشعير)، وأما البقول: (العدس، البازلاء، الفول، فول الصويا، الفول السوداني). نساء الهلال الخصيب أتقنَّ البحث عن ثلاثة أنواع من الأعشاب البرية: قمح الإمر، قمح الإينكورن، الشعير، كذلك على نوعين من البقول البرية: العدس، والحمص.

تشير الأبحاث إلى أن الفائض السكاني لدى بعض المواقع في القرى الزراعية الأولى دفع تلك المجتمعات إلى قتل المولودات الإناث فجعل تناسب ما بين إمكانات البيئة

انظر: إيان تاتيرسول- مرجع سابق.

ر. ديكورت. ك. فان ليربرج، يعتقدان أن الزراعة الأوربية نشأت في الشرق الأوسط منذ قرابة 10000 عام، في سهول ما بين النهرين والمنطقة الجبلية في الأناضول، ثم انتقلت إلى أوروبا من البلقان ومناطق المتوسط حتى غطت المناطق الملائمة للزراعة كاملةً في أوروبا تقريباً في 3500 ق.م. قدم تحليل الزمر الدموية والأشكال المتعددة للبروتينات للشعوب الأوربية المختلفة، والبراهين على وجود علاقة مؤكدة مع انتشار الزراعة. أسهم تحليل التنوعات الجينية في بقايا الإنسان القديم في مواقع سوريا الأثرية وفي مناطق أوروبا بإعادة تصور التاريخ للشعوب الأوربية. (سوريا وأصل الكتابة).

(1) عام 1968م، أمكن التثبت من دفاء المناخ الذي حدث منذ 11000 عام، القول لـ «سينيثيا براون»، حيث تم تحليل بذور لقاح عثر عليها في قاع بحيرتين في إيران، وثمة أدلة أخرى هي بقايا متحجرة لبراز بشري تكشف عن نوعية النباتات التي تغذى عليها البشر.

انظر: تاريخ الأحداث الكبرى- 2007.

الزراعية وعدد أفراد البيئة الاجتماعية، ومع هذا فقد أدى إنتاج الغذاء والتحكم به زراعياً إلى زيادة أعداد السكان وربما تضاعفها.

«بيتر فارب» يشير إلى أن عدد سكان المشرق ما بين 10.000 - 6000 ق.م، زاد مما يقارب 100 ألف إلى أكثر من 6 ملايين نسمة، هذه الزيادة، وهي تحريض هنا، دفعت المزارعين إلى تدجين أنواع جديدة واختراع تكنولوجيات زراعية ومقتضياتها من حرث وري.

زيادة عدد السكان يحمل في طياته عيوباً تَهلك النظام الزراعي، كالحاجة إلى تأمين القوت لأعداد كبيرة من السكان، هذا مع مناخ متقلب لا يبعث على الأمان، وتخزين الحبوب وتجفيف اللحم⁽¹⁾ عامل مساعد لكن مع طول سنوات الجفاف سوف يحل الانهيار. والفكرة هنا أنه كلما زاد عدد السكان أصبح أكثر عرضة للاضطراب البيئي. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كنا قبل عشرة آلاف عام تقريباً أمام ثورة زراعية كما عبّر «جوردن تشايلد»؟

نعتقد هنا أن الزراعة هي حصيلة تراكمية تطورية في مسار الوجود الإنساني، فهناك تراكم لملاحظات وخبرات وتجارب دفعت الإنسان إلى وعي المكان بممكّناته، ولا يمكننا عدم الإشارة إلى بنيته الدماغية الآخذة في التطور لفهم المحيط والبيئة، فالزراعة منعطف لا ثورة، وهي مجموعة تراكمات على مدى آلاف السنين تبلورت وعبّرت عن حالها. وهذا الأمر ينسحب على مقولة الثورة المدنية وما إلى هنالك، فهذه المقولات تُعبّر عن دهشة من الماضي وتصفيقٍ لمنجزات نضجت على تلك النار الهادئة.

في موازاة ذلك دفع تبلور الزراعة أو ما قبل الزراعة بقليل إلى انبثاق الفن، وبدأت المعتقدات ترافق تلك الحالة التفاعلية التراكمية التي أمّن المناخ لها الاستمرار والديمومة، وبغض النظر عن العوامل التي أدت إلى الزراعة، فإن المناخ يحتل مكانة رفيعة في تبلورها، كما تحتل المرأة مكانة أولى في المجتمع آنذاك، فلولا المناخ الإيجابي لما كانت الزراعة⁽²⁾.

(1) اللحم تفسد بسرعة في حال المناخ الدافئ والجاف، كيف حاولت المجتمعات الالتفاف على هذه المشكلة؟

في شبه الجزيرة العربية حتى الآن يعمد البدو عندما تحل هجرة الغزلان بدفع قسم كبير منها إلى حظائر ذات مخازن تؤدي إلى حفر عميقة، والغزلان التي تسقط في الحفر يموت قسم منها وتُجمَع، والغزلان الفتية الناجية تنقل إلى حظيرة أكبر، لتُستأنَس، هذه الغزلان الفتية تُمثّل احتياطاً حياً من اللحم، وهذا ما يحصل منذ الألف العاشر ق.م.

للمزيد انظر: بورهارد برينتس - نشوء الحضارات القديمة - دار الأبجدية - دمشق - 1989.

(2) لا يمكن اعتبار التحول من الصيد والالتقاط أمراً أنسياً لدى شعوب الأرض كلها، فهناك حالات لم يتحول بها

«تاتيرسول»، يقارب أهمية الزراعة التي أدت إلى تغيير الحسابات كلياً، فبدلاً من العيش ضمن البيئة وجزءاً منها وجدت الشعوب الزراعية الأولى نفسها في مواجهة قوى الطبيعة، ثم إنَّ الإنتاج الزراعي ربما اختلفَ على نطاق واسع بين عامٍ وآخر، فثمة قلق من التقلبات المناخية يشعروهم بفقدان الإحساس بالأمان والاندماج بالطبيعة، فتصبح الحياة نضالاً للتغلب على الطبيعة من أجل تطويعها، وإذا كان ممكناً السيطرة عليها.

ويضيف: ليس من قبيل المصادفة أنَّ الوثائق التأسيسية للديانة المسيحية استُمدَّت في النهاية من المزارعين الأوائل في الهلال الخصيب.

«جاك كوفان»، يصف إنتاج المعيشة الذي يشكل المعنى التقليدي لنشوء الزراعة، وبهذا بدأت المقدره البشرية على الصعود، تلك المقدره التي ليست حدثنا سوى ثمرة لها.

أجرى الباحث الأميركي بريد وود دراساته ليصل إلى مشهد بانورامي لواقع الكثافة السكانية في المشرق من قبل ومع تبلور الزراعة. ففي الحقبة ما بين 25000 و10000 ق.م -وهنا ثقافة الصيد والالتقاط- كانت الكثافة السكانية لا تتجاوز ثلاثة أشخاص في 160 كم². وما بين 10000 و8500 ق.م، أصبحت 12.5 شخصاً في كل 160 كم². ومع نشوء المجتمعات الزراعية الأولى نجد أن في كل 160 كم² 2500 شخص.⁽¹⁾

هنا سنميز ضرورة نشوء سلطة ببساطتها، تنظم التعاون المشترك بين أفراد وعائلات القرى الزراعية، وظهور نمط علاقات اجتماعية تجمعها الأرض والوسط الحيوي وحتى المناخ.

تلك التفاصيل كانت تأملاتٍ عامةً في معالم ظهور الزراعة وتبلورها، البدايات، الدراما وتراجيديا التفاعل مع بيئة طبيعية ومناخ وإنسان وكائنات، والبقاء هنا للأقوى.

تفاصيل أكثر:

قيل: الهلال الخصيب ولَّدَ إمدادات غذائية للإنسانية، كيف؟

صياد لاقط ما إلى زراعة، بل انتقل إلى المدينة، هذا ما حصل مع سكان استراليا الأصليين، فقد تجاوزوا العالم الزراعي، وصالحوا الصيد والالتقاط مع عالم المدينة فوراً.
(1) الجديد حول الشرق القديم - موسكو - 1988.

الزمن المعاصر كفيل بالإجابة، الحالة المناخية في الولايات المتحدة الأميركية تعاني ارتفاعاً حرارياً منذ 2000 - 2015 ميلادي، الأحوال المناخية الجافة وتباعد أوقات هطول الأمطار هددت المحاصيل بسبب الآفات والحشرات الناتجة عن الجفاف.

المعطيات أشارت إلى أنه تم الاستعانة بالبدور السورية، الباحثون في جامعة كنساس الأميركية لاحظوا أن البدور السورية «Aegilops Tauschii» أو «الدسور» هي الوحيدة التي لم تُصَبِّها الآفات والحشرات من بين 20 ألف نوع من النباتات، هذه البدور عُثِرَ عليها في سوريا قرب حلب.

الاستنتاج: البدور السورية تمتلك القدرة على التطور جينياً وأن تحافظ على خصائصها التي تمكّنها من مكافحة الحشرات والآفات مع تغيير الطبيعة المناخية للمكان.

في النرويج وفي جزيرة فوق الدائرة القطبية ثمة مركز يُشكّل «خزينة يوم القيامة»، حيث يحوي بذوراً لنباتات من المشرق، والباحثون وصلوا إلى نتائج أنّ تلك البدور تمتلك قوة الاحتمال ما يجعلها تمنح أماناً غذائياً لمناطق كثيرة في العالم قد تعاني القحط والجفاف.

تساءلوا: كيف يمكن للبدور المشرقية أن تساعد في إطعام كوكب الأرض؟

هنا في المشرق، حتى النبات تكيّف لضرورة إنسانية.⁽¹⁾

والذي يبدو الآن أنّ للقمح قصةً، وهذه القصة أوجزها «يوفال هراري» بقوله: أكثر من 90% من السعرات الحرارية التي تغذي البشرية الآن أتت من تلك الحفنة من النباتات الأولى التي زرعها أسلافنا، كالقمح والذرة والرز والبطاطا... إلخ.⁽²⁾

فمع التحريض المناخي بعد انزياح العصر الجليدي ومواجهة البشر لفصول صيفيّة أطول، ثم ترنحات المناخ الدافئ والجاف أحياناً، لجأ البشر في الهلال الخصيب منذ 11000 - 10000 عام مضى إلى تعويض ضعف الإنتاج ما قبل الزراعة بقليل؛ إذ عمدوا إلى الانتقاء، فقاموا بزراعة أنواع مختلفة من الحبوب البرية كالقمح وحيد الحبة، وكان

(1) ذكرنا سابقاً: إن تغيرات مناخية حادة في 9500 ق.م تقريباً في الولايات المتحدة الأميركية، أدت إلى مناخ جاف وحرار في موقع أبي هريرة، ما دفع السكان إلى الارتحال عنه، ومن الطرافة لما قبل التاريخ أن نجد الآن ولاية في أميركا تكتشف أن القمح السوري الذي ربما يكون في نفس موقع أبي هريرة قد أنقذها من شبح المجاعة وأنقذ محاصيلها.

(2) انظر: العاقل - مرجع سابق.

میلهم إلى أنواع أكثر قوة وإنتاجاً، والتغيرات المناخية كان لها الدور الحاسم في تحريضها، وفي استجابة المجتمعات من أجل بقائها، صار القمح سيد المحاصيل إلى جانب الشعير والبقول.

ماذا يقول القمح؟ مفتاح الزراعة:

لنقلب أوراق «برونوفسكي»، في ارتقاء إنسانه⁽¹⁾: «إن نقطة التحول الهامة التي تسببت في انتشار الزراعة في العالم القديم كانت ظهور نوعين من القمح لهما سنبله ضخمة، ممتلئة بحبوه. لم يكن القمح قبل عام 8000 ق.م النبات الغزير كما نعرفه الآن، كان مجرد واحد من أنواع الحبوب البرية العديدة التي كانت تنتشر في المشرق».

وبصدفة تطورية ووراثية حصل تهجين القمح البري مع كلاً الماعز الطبيعي في بداية عصر الدفاء العالمي، والنتيجة: نبات هجين كثير التاج. حين زرع هذا القمح الهجين مكرراً، تزوج ثانية مع كلاً الماعز الطبيعي، فأدى إلى إنتاج قمح هجين جديد أكبر من الهجين الأول، وهذا الجديد هو قمح خبزنا، (Bread Wheat).

القمح الهجين الأول، إن كُسرَّت السنبله فسوف تطير حبوبها في الريح، وبموازاة هذا، فقد قمح الخبز القدرة على الطيران، بسبب تماسك حباتها وكثرة الحبوب فيها؛ لهذا لا يمكن أن يتكاثر إلا بمساعدة الإنسان الذي إن أراد يحصد السنابل وينثر حبها.⁽²⁾

ثمة توافق متوازن هنا بين الإنسان وبيئته الطبيعية، وهذا ما أدى إلى تبلور الزراعة في العالم، كان ذلك في الهلال الخصيب⁽³⁾، مع القمح الهجين (قمح الخبز) أمكن للمجتمعات أن تؤمن قوتها، وأمانها الغذائي وأمنها، بتلك العلاقة الخفية والانسائية المفهومة من قبل كل من الكائنين (الإنسان والنبات). ومع هذا يبدو أن القمح كان يعي مركزه؛ ولهذا كان نباتاً متطلباً، فهو يحتاج بعد حصده إلى زمن ترتاح فيه الأرض ليُزرع من جديد.

(1) J.Bronovoski – The Ascent Of Man 1976.

ج- برونوفسكي- ارتقاء الإنسان- عالم المعرفة الكويتية- عدد 39- 1981.

(2) في قمح الخبز التقى الإنسان الراغب في البقاء في مكانه مع نبات لا يتطاير في الريح.

(3) القمح والشعير كانا ينموان طبيعياً في بيئات من الشرق الأدنى، كما يقول «بيتر فارب»، ولكن عندما دجّنها الإنسان انتشرت زراعتها إلى المناطق المعتدلة في العالم كله.

تأملَ الباحث «يوفال هراري» في تبلور الزراعة من وجهة نظر القمح في المشرق: «هذا القمح يُغطّي الآن ما يقارب من 2 - 2.5 مليون كم² من سطح الأرض، تمكّن من التلاعب بالبشر العقلاء من أجل مصلحته، فخلال بضعة ألبات وفي أجزاء عديدة من العالم، لم يعمل البشر من الفجر إلى الغسق إلا لرعاية نبات القمح، الأمر تطلب الكثير من الجهد. القمح مدلل لا يحب الأحجار والحصى، فكسر العقلاء ظهورهم وهم ينظفون الحقول القمح أناني لا يحب مشاركة مساحاته مع نباتات أخرى، فكان على العقلاء أن يزيلوا الأعشاب والمتطفلين أيضاً.»

ولكيلا يمرض القمح كان على العقلاء أن يراقبوا الديدان والآفات بانتباه، وحين تعرض القمح لمهاجمة الأرناب وأسراب الجراد سعى المزارعون إلى بناء الأسيجة ويوقفون حراساً عند الحقول. وإن غَدَرَ الجفاف لا بدّ أن يحمل البشر الماء إليه، حتى إن ضَعَفَ وجاعَ القمح فسيسعى البشر إلى جمع روث الحيوانات لتغذية الأرض التي ينمو عليها، لقد دَجَّننا القمح»⁽¹⁾.

نلاحظ الآن أنّ طبيعة بعض النباتات التي تطلب الاستقرار البيئي والغذائي دفعت المجتمعات تلقائياً إلى الاستقرار ضمناً لبقائها واستمراريتها. الاستقرار والزراعة كلاهما عاملان مهمان في ظهور الحضارة، كما في وجود القمح والماء، جميعهم في أحضان مناخ متفهم لضرورات البقاء.

المواقع الطبيعية في تبلور الزراعة في المشرق⁽²⁾:

موقع المريط، تل الشيخ حسن، تل أسود (حوضه دمشق)، جرف الأحمر، تعود إلى القسم الأول من العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ)، هذا في سوريا. وفي فلسطين: جلجال في وادي الأردن، أبو سالم في النقب، وادي فلاح في الساحل، والأهم موقع أريحا شمال البحر البيت.

(1) العاقل - مرجع سابق.

(2) تُورخُ هذه المواقع في الألف التاسع ق.م، وتقسّم قسمين:

- العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار /7600-8300/ Pro - Pottery Neolithic A (T) ق.م.

- العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار /6000-7600/ Pro - Pottery Neolithic B (B) ق.م.

كل هذه المواقع في هذه الحقبة مارست الزراعة، وأظهرت بعضها فنونها كالتماثيل الحجرية البسيطة والساذجة، وقدمت اهتماماً خاصاً بتقديس الأم الولود واعتبارها .Deesse Mere.

موقع المريط مَنَحَ دليلاً على اعتبار الثور أهميةً خصبية اجتماعية، حيث دُفِنَتْ جماجم الثيران، واكتُفِيَ بالقرون، والمعطى الآخر في الروحية الاجتماعية نقاربها في دفن هياكل عظمية لموتى تحت أراضي البيوت.

موقع أريحا: يعود إلى الألف الثامن ق.م، في هذا الزمن المبكر نلاحظ إقامة سور حجري حول قلعة الموقع وأبراجاً وخندقاً⁽¹⁾، وبيوتُ الموقع المترصّة بُنِيَتْ من الآجر المشوي، وامتدت مساحة هكتارين ونصف. يبدو أنّ هذا الموقع مارسَ التجارة والزراعة لا سيما القمح والشعير، واستخرج السكان الملح من البحر الميت، كذلك القار والكبريت حول البحر فقد كانت تترسب كتلاً إسفلتية.

والكبريت استُخْرِجَ من وادي الأردن، وذكرنا سابقاً أنّهم كانوا يصدرون ملح الطعام إلى المزارعين، ما دفعَ إلى وجهة نظر تتبنى فكرة أنّ الموقع تجاريٌّ قبل أن يكونَ زراعياً. «برونوفسكي - ارتقاء الإنسان».

في الرافدين نجدُ موقعَ قرمز ديري في الألف التاسع والثامن ق.م، كموقع نمريك شمال العراق، فقد أُرِّخَ على الألفين الثامن والسابع ق.م.

(1) بلغ طول سور الموقع 8م وعرضه 3م وارتفاعه 8.5م.

القلعة شُيِّدَتْ من الحجارة، بَلَغَ طول الواحدة منها ثلاثة أمتار وعرضها مترين، ووزنها عدة أطنان.

الخندق بعرض 8 أمتار وبععمق مترين و60 سم.

الأبحاث تشير إلى أن حفر الخندق بشق الصخور بناقوية ثم تبريدها بالماء فوراً. والجدير ذكره هنا: أن قلعة الموقع عثر في بعض أماكنها على 22 سوية أثرية، ما يعني أن ذلك البناء شُيِّدَ 22 مرة في المكان نفسه.

بورهارد برينتس - نشوء الحضارات القديمة - دار الأبجدية - دمشق - 1989.

بذلك نحن أمام موقع يملك تواصلية حضارية منذ ما قبل النيوليت، ثم النيوليت فالعصر النحاسي والبرونزي، مع انقطاع في السكن بعد 7600 ثم عودته لاحقاً.

وتختلف الآراء في اعتبار موقع أريحا مدينة أم بلدة، لكن ما قدمه هذا الموقع في ذلك الزمن المبكر، ولا سيما من ناحية العمارة وضرورة وجود سلطة تنظم وجوه الحياة فيه تدفع إلى رفع القبعة.

مواقع حقبة ما بين 7600 و6000 ق.م⁽¹⁾ - تبلور العالم الزراعي في المشرق مع بعض المنعطفات المناخية:

هنا تبلور منجز الزراعة واستئناس الحيوان في معظم المواقع المشرقية؛ حيث غدا التعرف إلى نوعية المزروعات والحيوانات أوضح من قبل، والمُلاحَظ أنَّ مواقع هذه الحقبة عامةً التي ظهرت ما بين 7500 و7000 ق.م كانت ذات مساحات كبيرة، والأسباب إما زيادة في عدد السكان أو ارتحالات جديدة إليها من مواقع أخرى خانها المناخ أو البيئة بممكنتها.

مواقع هذه الحقبة المربيط (السوية الرابعة)، أبو هريرة، تل أسود (بسويته المتزامنة مع العصر) وتل الغريفة، والأخيران في منطقة دمشق، وجعدة المغارة، وحالولة، وتل الصبي الأبيض - تل الكوم (2) - أريحا في فلسطين (سوية ما قبل الفخار (ب) ومنهاتا (السويات 4-6) ووادي فلاح والبيضا وغيرها. وفي الأردن موقع البسطة، وعين غزال، وموقع البجعة الذي مارس سكانه الرسم على الجدران باللونين الأحمر والأسود.

ويُشار هنا إلى أنَّ المواقع في بلاد الشام في هذه الحقبة كانت على صلة فيما بينها، ويبدو أنَّ موقع تل الصبي الأبيض، الذي كان منعزلاً على حوض نهر البليخ، لم يكن على اتصال مع غيره من المواقع المتزامنة.

في نهاية هذه الحقبة، تحديداً في منتصف الألف السابع ق.م، حصلت تغييراتٌ في الاستيطان البشري في المشرق، فمقابل ترك موقع المربيط والشيخ حسن في سوريا، نجد نشوء السوية العليا في موقع «أبو هريرة» وبقرص في حوض الفرات والكوم في البادية الشامية.

في دمشق هجر تل أسود وتل الغريفة، وظهر تل الرماد في سفوح جبل الشيخ ورأس الشمرة على الساحل المشرقي، وموقع اللبوة في لبنان، أما في فلسطين فاختلفت مواقع لنشوء مواقع جديدة، والمناخ هنا كان سبباً لانطفاء المواقع ونشوء بعضها في مناطق أخرى.⁽²⁾

(1) مواقع النيوليت ما قبل الفخار (ب).

(2) هذه التبدلات في الاستيطان وهجر المواقع، ونشوء مواقع أخرى، يتبع أمزجة المناخ بالتأكيد، فهو اللاعب الحقيقي هنا.

«فاغان» يشير إلى حقبة كارثية من الجفاف أصابت المشرق ما بين 6200 و5800 ق.م، ونحن نستطيع تمييز المناطق الأقل ضرراً أو أكثرها تبعاً للارتحال عن مواقع والاستيطان في مواقع جديدة. ويعد العصر الجليدي الصغير الذي حدث فيما بين 6200 و5800 ق.م كارثةً لكثير من مجتمعات الزراعة بين بحيرة الأكسين في الأناضول ونهر الفرات.

هذه الحقبة عبّرت عن تفاعل بيئتها الاجتماعية مع البيئة الطبيعية، ومجمل أوجه الحياة العمرانية والفنية والاعتقادية والإنشائية والسلطوية شَهِدَتْ تطورات أو قفزات أسهمت في تكريس العالم الزراعي ومُضِيهِ نحو مواقع وقرى متطورة تملك أقنية للتصريف وتقسيم للعمارة الداخلية للبيوت... إلخ.

موقع «أبو هريرة» صار عشرة هكتارات، وموقع بقرص قدّم لنا ثلاث قرى متتالية ما بين 6400 و5900 ق.م، ومنازل الموقع شُيِّدَتْ وَفُقَ تخطيط سابق⁽¹⁾.

نشير هنا إلى موقع رافدي مهم هو مستوطنة «جرمو»، إلى الشرق من مدينة كركوك، وضم هذا الموقع مستوطنة تعود إلى العصر الحجري الحديث سابقة عصر الفخار، تعود إلى النصف الثاني من الألف السابع ق.م. وثمة طبقات عليا تنتمي إلى عصر الفخار. الحياة بوجوهها الثقافية والإنسية تُمثّل تفاعلات تطورية، إن كان في الالتقاط والصيد والأدوات والفنون.

ما يلفت النظر هنا العثور على كتل دائرية طينية ربما حوت عمليات حسابية بسيطة، كما عُثِرَ على خواتم وأساور مرمرية، وهناك مواقع متزامنة مع مستوطنة جرمو كموقع تل المغزلية وتل شمشارا.

يناقش د. محيسن التبدلات الثقافية بين مواقع الرافدين وبلاد الشام يقول: «نلاحظ واقع تواجد مجتمعات رعوية في زاغروس وأخرى حضرية في بلاد الشام الذي ميز مجتمعات الألف الثامن ق.م، سرعان ما تبدل في الألف السابع ق.م، حيث مارست كل المجتمعات المشرقية (الرافدية والشامية) الزراعة والتدجين جنباً إلى جنب⁽²⁾».

تحمصت تربة الأرض شهراً بعد شهر بالشمس القاسية، ولم تعد بعد تربة خصبة، جفت البحيرات والأنهار، وانكملت مجتمعات الزراعة أو تبخرت إزاء جفاف صارم، ولجأ كثير منهم إلى تربية الأغنام، تتعوا مساراً جديداً إلى موطن بيئي جديد أقل تأثراً بالجفاف والبرودة، وتحايلوا على العيش بالاعتماد على قطعانهم، حتى عادت الأوقات الطيبة في 5800 ق.م؛ إذ ضُغَطَ زر تشغيل لحوثهم إلى حيث الأراضي الأدفأ والأوفر مياهاً خلال الهلال الخصيب كله حتى ضفاف نهري دجلة والفرات». فاغان- الصيف الطويل.

(1) لمزيد من التفاصيل انظر: د. سلطان محيسن- المزارعون الأوائل- 1994. أيضاً: عصور ما قبل التاريخ- 2003 - 2004.

(2) مرجع سابق.

في الرافدين وُضِعَت بواكير النيوليت في شماله، في جبال وتلال كردستان وسنجار، فهي ذات مناخ جاف وشبه استوائي، يَحْمِلُ إليها الهواء من البحر المتوسط أمطاراً شتوية كافية للزراعات المبكرة.

إلى الآن المشرق يسير بعد أن تماسك مع بيئته، كانت الزراعة تفاصيل مناخ، وتفصيل صبر، ورقعة شيطانية بين إنسان وطبيعة ومناخ أحياناً، ولكن بصحبة المناخ المناسب شقت الزراعة طريقاً نحو المدينة⁽¹⁾.

لغة المشرق:

المحددات العامة علمياً تشير إلى ظهورات للغة المنطوقة منذ 250 ألف عام، ولوبشكل بدئي؛ لكن تبلورها مضى تدريجياً، بدءاً من الإنسان العاقل البدائي قرابة 300 ألف عام حتى الطفرة العاقلة نحو 50 ألف عام مضى.

البحث في أحوال النطق عند الإنسان يتشابك مع معطيات بيولوجية ودماعية ومورفولوجية وتطورية، مستندة إلى منظومة تفاعل بين التجمعات البشرية أو مجتمعاتها مع البيئة، وكذلك تفاعل البيئات الاجتماعية فيما بينها.

حين تخبرنا المعطيات الوجودية عن عودة المناخ إلى سلامته في المشرق وشروع التجمعات اللاقطة في التفاعل الحياتي، فإنَّ مجمل الإيقاع المعيشي والتفاعلي والاجتماعي

(1) تنبؤاً لا بد منه: ذات مقال، كتب الآثاري البريطاني «جوردون شيلد»: «إن أوروبا مدينة للشرق الأدنى (المشرق)؛ لأنه زودها ببراعم الفن... التي بدأت عملية تحرير الإنسان من عبوديته للبيئة».

وفي مقابل ذلك يشير Peter Farb في كتابه «Human Kind» إلى أن فكرة انتشار أساليب إنتاج الغذاء من الشرق الأدنى إلى بقية أنحاء العالم لم تعد سائدة كما كانت؛ إذ إنَّ المعتقد حالياً أنَّ عملية إنتاج الغذاء نشأت مستقلة في ستة مراكز رئيسة على الأقل، وفي أوقات متعاقبة يفصلها بضعة آلاف من السنين. هذه المراكز: الشرق الأدنى، أوروبا، جنوب شرق آسيا، المكسيك، البيرو.

انظر: الترجمة العربية للكاتب أيضاً، بنو الإنسان، عالم المعرفة الكويتية 1983 - عدد: 67.

الزراعة الأوروبية نشأت في الشرق الأوسط تقريباً منذ عشرة آلاف عام في سهول ما بين النهرين والمنطقة الجبلية في الأناضول، وبدأت بالانتقال إلى أوروبا من البلقان ومناطق المتوسط حتى غطت المناطق الملائمة للزراعة كاملة في أوروبا قرابة 3500 ق.م. وقدم تحليل الزمر الدموية والأشكال المتعددة للبروتينات للشعوب الأوروبية المختلفة البراهين على وجود علاقة مؤكدة مع انتشار الزراعة.

ويسهم تحليل التنوعات الجينية في بقايا الإنسان القديم في مواقع سوريا الأثرية وفي مناطق أوروبا إلى إعادة تصور التاريخ للشعوب الأوروبية. انظر: ر. ديكورت. - ك. فان ليربيرج- سوريا وأصل الكتابة.

سيهيئ قواعد نشوء لغة بين الأفراد، يدل على ذلك مجملُ الخبرات المتوارثة، والكم الهائل من الملاحظات ومعاينات الطبيعة وضرورات الفهم المشترك لناظم اجتماعي لا بُدَّ منه.

«جين أتشنسن» في مقاربتها لبذور الكلام تُعدُّ أنَّ الحقبة فيما بين 10 آلاف و25 ألف عام بلغت اللغة مرحلةً حرجة من التعقيد وأتت ساعة الاشتعال، فقد تطورت اللغة في أثنائها تطوراً سريعاً ومباغتاً وفي مدة قريبة.⁽¹⁾

اشتراطات تحقيق اللغة المنطوقة تقف خلفها قواعد أساسية تُسهِّم في الكلام. والبصمة الإنسانية هنا تحققت في لغة منطوقة (الكلام) ثم لغة مكتوبة (الكتابة). والركائز العامة لتطور العالم اللغوي عند الإنسان تعتمدُ عواملَ أوليةً كوجود لغة الإشارة أولاً والنداءات الصوتية ثانياً، والتماهي مع الطبيعة وأصواتها وأفعالها الصوتية⁽²⁾.

الأصل أنَّ العملية التعبيرية باللغة هي رسالة حوارية، إن كانت إشارةً أو إيماءً أو إيحاءً أو نداءاتٍ تُذكرُ الإنسان القديم بلحظة الصيد وتنبهه مرافقيه البعيدين⁽³⁾.

كيف نطق؟

النطق بحاجة إلى منظومة متشابكة من النشاطات الدماغية والفيزيولوجية والبيولوجية، وكلها استندت إلى حاجة الإنسان إلى الكلام والتعبير، بما أن الحياة بصخبها وحيويتها تدفعه نحو ذلك.

الشرط الفيزيولوجي الأساسي في عملية النطق هو هبوط الحنجرة إلى الأسفل، ومن دون هبوط للحنجرة ليس بإمكان الإنسان أن ينطق؛ ولهذا نحن ننتظر أطفالنا الرضع حتى يبلغوا ستة أشهر لتبدأ حناجرهم بالهبوط، ومن ثم يخوضون في مفرداتٍ أولية.

(1) جين أتشنسن - بذور الكلام - وزارة الثقافة السورية - 2009.

(2) كثير من الأصوات والتعبيرات اللغوية حتى الآن في اللغات العالمية تستند إلى تماهيات أولية مع الطبيعة، حيث إنَّ المدلول اللغوي للكلمة يمكن أن يشير أو يدل على معناها.

ذات زمن جاءني مريضة صومالية أفريقية تعاني ألماً في سنّها، حين قلت للمترجمة المرافقة لها: لتتمضمض، فقالت لها: لوغ لوغ لوغا. أحسست حينها من وقع الكلمة بصوت المضمضة والماء.

(3) حتى اللغة الإشارية المرافقة للكلام لوحظ أنها إذا حصل تلف في نصف المخ الأيسر فسوف تتعطل وظيفتها، وهذا يمنح دلالة على أن اللغة الإشارية رافقت اللغة المنطوقة في سياق التطور الإنساني. كورباليس - في نشوء اللغة.

إنَّ هبوط الحنجرة سيدفع الإنسان ثمنه؛ إذ أصبح كل ما يأكله أو يشربه قد يمر في القصبة الهوائية، وهذا قد يؤدي إلى الشردقة والاختناق إذا دخل الطعام أو الشراب في المجرى التنفسي.⁽¹⁾ هنا تستوقفنا حالة الغوريلا والشمبانزي؛ إذ لا هبوط للحنجرة ما جعل هذه الكائنات تعتمد الإشارات وإصدار أصوات بدائية لا علاقة لها بهبوط الحنجرة. ولإنتاج اللغة ينبغي لمركز النطق في الدماغ أن يتشكل، ومنطقة «بروكا» BROCAS المسؤولة عن النطق.

عند فحص الجماجم في الدراسات الأثروبولوجية تُفحصُ هذه المنطقة دليلاً على وجود لغة لدى النوع صاحب الجمجمة، وتناسب تطورات اللغة واستخدامها مع تطور تشريحي في هذه المنطقة، وفي المقابل لا بُدَّ من وجود منطقة أخرى لفهم اللغة المنطوقة، منطقة «فيرنيكه» WERNICKE⁽²⁾

وتشريحياً بين المنطقتين هناك مسار ليفي يقوم بنقل الرسائل بينهما، فنصف المخ الأيسر هو المسؤول الرئيس عن لغة الإنسان؛ لكنَّ معالجة اللغة تتم أيضاً في نصف المخ الأيمن، فقد أشارت الدراسات الدماغية والعصبية إلى حصول تدفق الدم في أثناء معالجة اللغة، ويتم التحكم دماغياً بمجمل النظم العاملة على إنتاج اللغة وعلى فهمها.

النظم اللغوية المساعدة في إنتاج اللغة يمكن مقاربتها بثلاثة أصناف:

تركيبية: مختصة بقواعد اللغة.

دلالية: تختص بمعاني الكلمات المفردة.

صوتية: تختص بنطق الألفاظ التي تكوّن الرسائل.

الجهات الدماغية للعملية الصوتية، المنطقة الأمامية من الدماغ تنتج اللغة، والمنطقة من الخلف إلى الأولى تدرك اللغة.

لا نريد التوسع أكثر في موضوع الأسس العملية وشروط إنتاج اللغة؛ لكنَّ الإضاءة على كيفية نطق الإنسان مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتطوره الحياتي والمعيشي وتفاعلاته مع البيئة، حتى أمكن للتجمعات أن ترسّخ وجودها.

(1) المرجع السابق.

(2) كلا المنطقتين بروكا وفيرنيكه، جاءت على أسماء مكتشفها.

«مايكل كورباليس»، في مناقشته ارتباط تطور صناعة الأدوات مع اللغة، يشير إلى أنَّ الأدوات التي صنعها الإنسان في مشواره الأول لم تزدهر صناعتها إلا بعد أن أصبح الكلام هو الشكل السائد في الاتصال بين البشر، ويعود هذا تقريباً إلى خمسين ألف عام مضى.⁽¹⁾

يتوقع الباحث (أ. د. سدني. لامب) في كتابه «الشبكات الدماغية»، حصول طفرة بيولوجية وربما دماغية لدى الإنسان القديم أدت إلى منعطف مهم في ظهور اللغة: «ربما امتلك أحد البشر في مرحلة ما القدرة على الوصل بين ما يصل عدده إلى 10000 وصلة في نظام الإنتاج الفونولوجي... لعلَّ في أحد أجيال الماضي وُلد شخص بقدرات عالية مكنته من بناء نقاط اتصال بما يكفي لمئة مفردة معجمية في الوقت الذي لم يكن بوسع أعضاء المجموعة الآخرين أن يتعاملوا سوى بتسعين مفردة».⁽²⁾

على هذا وفي النطق مع الكتابة فيما بعد، فاليد أداة الكتابة، في حين أنَّ الفم الناطق أخذ وقته ليتبلور لغوياً. وسبقت اليد الفم في التعبير بالرسوم الأولى على جدران الكهوف في فرنسا وإسبانيا، تلك التصاوير كانت تعبيراً لغوياً مفقوداً نسبياً، وسعت الصورة نحو اللغة حينها لكنَّها لم تمنح النطق الاتساع الكافي.

يعود «كورباليس» ويناقش تطور الصورة في سعيها نحو اللغة ثم الكتابة، فرسوم الكهوف لم تبدأ في اكتساب خصائص لغوية حتى طورت أشكالاً قياسية تُعرف باسم «البكتوغرامات» المصممة تعبيرياً لغرض الاتصال البصري، ويصل إلى نتيجة أنَّ أقدم «البكتوغرامات» المعروفة تعود إلى المشرق (الجنوب الرافدي)، منذ خمسة آلاف عام مضى تقريباً ثم انتشرت فيما بعد.

إنَّ تطور «البكتوغرامات» إلى «ايديوغرامات» جعل الرموز تدل على الأفكار المجردة إلى جانب الأشياء المحددة، ثم تطورت هذه بدورها إلى «لوغوغرامات» التي تدل على وحدات أساسية للمعنى، وبهذا تحركت الكتابة لتكون أقرب إلى الكلام⁽³⁾. والإشارة هنا

(1) مايكل كورباليس. في نشأة اللغة - عالم المعرفة الكويتية - 2006.

(2) أ. د. سدني. م. لامب الشبكات الدماغية - وزارة الثقافة السورية - 2009.

طبعاً يذكر هذا بلحظة انبثاق الأبجدية الأجرائية واختزالها الرموز المسماة إلى 29 رمزاً.

(3) كورباليس - مرجع سابق.

هذا التطور المبتدئ نحو قرب الكتابة إلى الكلام يتوضح في نص أخذه كيش العائد إلى ما يقارب 2400 ق.م، وكُتِبَ كما قيل لغةً.

إلى أنّ ولادة اللغة الحقيقية تمت حين حصل التأليف بين المفردات، وليس بإنتاج مفردات لغوية فقط.

«اتشسن» تجد أنّ ضمّ الكلمات إلى بعضها بعضاً بصورة منضبطة قواعدياً قد وقع وقوعاً بطيئاً، ولا سيما في التأليف بين الأسماء والأفعال، ولعل التراكم والتحليل ثم ظهور اللغة الأولى هو الذي أدى إلى حالة دمجٍ نهائية لظهور اللغة الحقيقية⁽¹⁾، وبذا ربما نستطيع فهم الوثائق الأولى المشرقية التي اقتصت بتفاصيل تجارية وسليعية واقتصادية وإدارية، وكان علينا انتظار قرابة 500 عام من ظهور أولى الرُّقم من أجل أن نُقارب ما يلي تلك التفاصيل من معانٍ وأفكارٍ وأساطير، فالنطق أنسنة.

لغة المشرق في التاريخ:

ذكرنا سابقاً استعداد المناخ ليعود ملائماً لطبيعة الحياة الإنسانية في المشرق، وذلك منذ 19000 عام، والمواقع قبل ذلك قليلة، وبقيت تحت وطأة مناخ لا يُقدم ولا يؤخر، عدا بعض المواقع الأكثر حظاً في جنوب بلاد الشام، وبعودة المناخ المتوازن عاد الإنسان اللاقط في المشرق إلى فعله.

لا يمكن لغويّاً مقارنة حقيقية ودقيقة لتبلور لغة منطوقة واضحة مكتملة إلا مع الاستقرار، وربما قبل هذا نكون مع لغة تسيير الحال من التفاهم والتفاعلات باعتماد بعض المفردات المتطورة والإشارات بما يجعل الحياة الاجتماعية ممكنة، خصوصاً في واقع مناخي يحتم الهجوع والكمون بحد أدنى من التفاعلات.

أيضاً نحن مع عودة المناخ أمام ارتحالات بشرية جديدة إلى المشرق ربما تُحمّل مفرداتها ولغاتها الأولية مزيجاً لغويّاً سيتفاعل، وسيتضح أكثر حين تستقر التجمعات اللاقطة وتتحوّل إلى مجتمعات تتجانس.

ربما حين نقارب مدة النضوج النطوفي قرابة 10000 عام ق.م، نتوقع معالم لغة محلية، ولا سيما مع الحديث عن عرق متوسطي قديم شمل المشرق آنذاك. وشيء آخر؛ حين تفنن

انظر: مقاربات الكتابة المشرقية لاحقاً.

(1) اتشسن - مرجع سابق.

الناطقون بتمثيلهم، فقد كانوا يتكلمون باليد، فحين كانوا يدفنون رجلاً برفقة كلبه كانوا يقولون شيئاً علينا أن نفهمه.

أوجار التخزين التي أنشأوها تدلُّ على استقرار ما، والأرواحية في فصل الرأس عن الجسد ودفنه منفرداً داخل بيت السكّن تتحدث عن نفسها أيضاً.

الصفات العرقية المشرقية النطوفية واحدة، ما يعني أن الاتصال قائم، وأن لغةً ما تجمع بين التجمعات والمجتمعات آنذاك.

حين قلنا عن الثقافة النطوفية: إنها تُعبّر عن تبلور الشخصية المجتمعية لتجمعات المشرق، فنحن مقارِبون لوجود لغة تجمع بينها وتشكل صلةً الوصل فيما بينها، وتهيئ لتبادل الخبرات وتوارثها في الشأن العمراني وصناعة الأدوات والتعامل مع البيئة الطبيعية ونمط الحياة. (هذا تصور واحتمال مبني على واقع تاريخي ثقافي).

فكما وُحِدَتِ المعتقدات بين التجمعات، وُحِدَتِ اللغة المنطوقة بينها، ويمكن الرجوع إلى بحث الثقافة النطوفية لمحاولة أكثر مقاربةً في فهم تلك الثقافة اعتماداً على الواقع الاجتماعي والطبيعي والتفاعلي.

«كوفان» ذَكَرَ التعديل التدريجي للبنى الاجتماعية من أجل تأمين هذا التعايش المشترك على نحو أكبر⁽¹⁾، والثقافة المهية لانبثاق الزراعة وتبلورها حَتَمَتِ النظامَ التعاوني على أفراد التجمعات، هذا النظام لا يمكن أن يكون دون وسيلة اتصال مفهومة ومعبرة عن المغزى والهدف؛ فالعالم الشفاهي كان حاضراً بقوة متجانسة عبّرت عنه فيما بعد الوثائق وربطت بين عالمين: شفاهي وكتابي. ومعالم الاستقرار نحو الزراعة ستدفع إلى زيادة سكانية سيُعبّر عنها لغوياً في اتصالات اجتماعية.⁽²⁾

« بريد وود» ناقش واقع الكثافة السكانية في المشرق:

بين عامي 250000 و10000 ق.م، كانت الكثافة السكانية لا تتجاوز ثلاثة أشخاص في كل 160 كم².

(1) كوفان- مرجع سابق.

(2) ما بين 10000 و6000 عام ق.م زاد سكان المشرق من 100 ألف تقريباً إلى أكثر من ستة ملايين نسمة. بيتر فارب- بنو الإنسان.

وبين عامي 10000 و8500 ق.م أصبحت 12.5 شخصاً في كل 160 كم². ومع نشوء المجتمعات الزراعية الأولى أصبحت 2500 شخص في كل 160 كم².

كل هذه المعطيات تمنح دلالة على وجود مجتمعات ناطقة بلغة مفهومة وواضحة أكثر مما كانت عليه في حقبة الهمود البشري لأسباب مناخية؛ فالأساس ديمغرافي والتجانس البشري على امتداد المشرق، مع التفاعلات بين المجتمعات في نشاطها الأولي الذي يتصاعد تبعاً للزمن.

بعد الزراعة وعالمها في 5000 عام تقريباً، سنقع على تعابيرهم في وثائق اقتصادية وسلعية وإدارية أولاً، ثم سينطقُ المشرقيون أفكارهم وتصوراتهم، ويفرغونها على الألواح الطينية لنرى كيف كانوا في ذلك العالم الشفاهي الذي استغرق وقتاً طويلاً.

الثقافة النطوفية بمنظومتها كاملة هيأت الشروط الناضجة لعالم النطق المشرقي، فحين قال سقراط: «تكلم حتى أراك»، ربما كان يعني أن الفم الناطق يقوم على فائض بصيرة وحياة.⁽¹⁾

استنتاجات زراعية:

توسع للقرى في امتداداتها، تراص القوة الاجتماعية لأفراد المجتمع، ما يُشكل لُحمة اجتماعية ضرورية لاستيعاب العالم الزراعي.

مغادرة الكهوف والمغاور وإنشاء قرى ذات بيوت متطورة تلائم مقتضيات الحياة المعيشية.

تطورٌ في تقنية الأدوات التي استطاع العالم الزراعي فرضها على التفكير الإنساني، من المنجل⁽²⁾ حتى أدوات الحرث وما إلى ذلك .

(1) للتوسع في الموضوعات المطروحة هنا يمكن الرجوع إلى المؤلفات الآتية: كارل ساجان- تنانين عدن. مايكل ترايمبل- الروح في الدماغ. ويندي ليسير- عبقرية اللغة. كريستين تمبل- المخ البشري.

(2) قيل: إن الزراعة المستقرة خلقت تقنية تبنثق منها جميع العلوم؛ لكن الإنسان، كما يبدو، دجن نفسه قبل أن يدجن الحيوان والنبات. وفي تطور تقنيات الحصاد تم ابتكار منجل مسنن في الألف التاسع ق.م، المنجل البري الأول المخصص للقمح البري غير مسنن، وهو منجل الألف العاشر ق.م، ولو تم حصد القمح به لأدى إلى ضرب النبات بحدّه؛ لأنه يؤدي إلى سقوط الحَب من السنبل إلى الأرض.

ابتكار المنجل المسنن جعل الحَب يبقى في السنابل، هذا المنجل بقي حتى عصرنا الحديث مستعملاً، وهناك مخترع كان قبل عشرة آلاف عام ما يزال منهم. انظر: برونوفسكي- مرجع سابق.

أهم ما في تبلور منجز الزراعة هو الإحساس بالملكية الاجتماعية، ففرض تحديد الملكيات (الحدود) مما خلق صراعات بين المستوطنات على الري وعلى مواد الخزن، بالإضافة إلى غارات بقايا المرتحلين البدو على الأماكن الزراعية وحقولها.

الصيد اللاقط الآن الذي لم يتحضر زراعياً صار بدوياً، والبدواة منها الإيجابي ومنها السلبي.

يُعتقد أنَّ ضرورات الحماية الزراعية تستوجب سلطة دفاعية غير السلطة الإدارية التي أسهمت في التطوير والإشراف على علاقات القرية الزراعية ومنشآتها وأقنيتها وإنتاجها.

وحين استقر الإنسان، وارتبط بإيقاع الطبيعية بطمأنينة المخزون الغذائي حقق جانبه المادي الذي أفسح له أن يتأمل وأن يتفنن⁽¹⁾، وأن تخلق المجتمعات لنفسها روابط وتقاليد روحية اجتماعية تلتف حولها لزيادة اللحمة الروحية، فحضرت تقديسات الأم الولود - الأسلاف - والثور المقدس مُعطى زراعياً مهماً ينبىء بالخصوبة والقوة.

مجمل هذه المرتكزات الروحية، نجد ما بعد الكتابة في العالم المشرقي بعد خمسة آلاف عام، يحفل بتلك الجوانب الروحية الاجتماعية موثقة في الأساطير وطرائق التعبير الفكري والذهني الأول.

التفكير الزراعي بالظواهر سيخلق فيما بعد تصورات رمزية سوف تشكل بداية نشوء الاعتقادات في تشكّل الكون والرموز الطبيعية، هذا الأساس هو الذي شكّل معالم الذهنية المشرقية فيما بعد.

(1) مع الإشارة هنا إلى عدم ارتباط نشوء الفنون بالزراعة؛ لأننا نعلم أن بدايات الفن ظهرت في حضارة الإنسان العاقل في أوروبا وهو الصيد واللاقط، فمنذ أكثر من 32000 عام رسم الإنسان العاقل الصيد اللاقط رسوماته في كهف شوفيت Chauvet في جنوب فرنسا.

وكذلك موقع كهف فوغلهرد Vogolherd في ألمانيا، وهنا نحظى بتماثيل صغيرة لحيوانات، كذلك في جبال البيرينيه عُثِرَ على مزامير تمتلك مقدرات صوتية موسيقية مهمة تعود إلى 30 ألف عام، ربما مصنوعة من عظام النسور، بالإضافة إلى مواقع في التشيك وإسبانيا.

كل هذه تُشكل إلى الآن أول فنون في التاريخ لم نجد لها في المشرق في ثقافة الصيد والالتقاط، وكان علينا انتظار حلول 10000 عام حتى يبدأ الفن المشرقي، مع أن بعض الدراسات الحديثة تشير إلى أن كائن النيندرتال قد رسم على جدران بعض الكهوف في أوروبا.

والطامة الكبرى هنا هي أنّ الزراعة قوّت إحساس المُلْكِيَّة التي ستنشئ الصراعات والحروب بسبب الحدِّ والحدود بين المجتمعات، ولا نخطئ إذا قلنا أيضاً: كذلك التجارة والكتابة والحساب والمعتقد الروحي الاجتماعي والديني.

قيل: ثورة بيئية في مستوى صناعة العصر الحجري الأخير أدت إلى تراكيب جديدة في المجتمعات، وانتهت إلى عالمنا الحالي؛ ثورة صناعة الأدوات والتقنية لدى شعوب الأرض التي تمت بدرجات مختلفة من السرعة، وبفعل أسباب متنوعة، ثقافية وسوسولوجية.

قال برونوفسكي: الثقافة تُضعف الأفكار والآراء؛ حيث إنّ كل ابتكار يُسارع ويُضخم قوة بقية الابتكارات متواليّة زراعيّة وحضاريّة بامتياز.

هنا بدأت الحضارة الإنسانية تمضي مؤسّسةً أولى خطواتها الإيجابية والسلبية.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سيطر الإنسان بالزراعة على الطبيعة؟

الجواب: نعم، بقدر ما قدمت الطبيعة له من حوافز، لكنّ المناخ كان السيد هنا في الكفّة الراجحة بين إنسان وطبيعة.

إلى الآن نحن في المشرق أمام ثقافة زراعية وثقافة بدوية رعوية، ولم تولد الثقافة المدنية بعد. فبعد 5 آلاف عام تقريباً سنقرأ في وثائق المشرق الرافدية صراعاً بين انكمدو المزارع ودوموزي الراعي:

«انكمدو: أيها الراعي (دوموزي) لماذا تريد أن تبدأ خصاماً معي...؟»

لتدع مواشيك تأكل عشب الأرض

ولترتع قطعانك في مروجي الخضراء

وفي السهول... فلتأكل الحبوب

ولتشرب من ماء نهري».

كأنّ ثمة حرب ستبدأ!

وماذا فعلت الزراعة أيضاً؟

قلنا: إنّ وفرة المحاصيل الزراعية دفعت المجتمعات الزراعية إلى التخزين، لا سيّما بعد

ظهور الفخار الذي أبعَد أشباح الفضوليين من الحيوانات عن المحاصيل المخزنة.

حسناً، امتلأت المخازن، وبعد؟ ثمّة فائض ستم المقايضة به على سلع لا تتجها المجتمعات الأخرى، بدأت تجارة المقايضة، لا عملة أو معادن تُحسب على العملات لتبادل الأثمان.

ماذا فعل مزارعوننا الأوائل؟

لنعد إلى القرن العشرين الميلادي، عام 1959، أدولف أوبنهايم المنقب والباحث في جامعة شيكاغو ينشر بحثاً عن مدينة «نوزي» الرافدية الواقعة في شمال بابل، يناقش في بحثه عن نظام الجرد المستخدم تقريباً في 1500 ق.م في المدينة، ولاحظ أنّ هناك طريقة متبعة آنذاك في إجراء الحسابات بواسطة فيش، مع مرور 1700 عام على اختراع الكتابة المسمارية تقريباً.

في نوزي عُثِرَ على 48 من الفيش ضمنَ لوحة طينية مجوفة شبيهة بالمغلف، كُتِبَ على جدرانها بالإشارات المسمارية: «21 نعجة، 6 حملان، 8 خرفان، 6 عنزات»، ما لفتَ نظر الباحث آنذاك إلى أنّ كل حيوان يرمز له بفيشة معينة، كما لاحظ أنه في حال سوق قطع إلى مكان آخر وراعٍ آخر كان يتم تحويل الفيش إلى المكان الآخر.

درستُ بعد عشرين عاماً تقريباً من أوبنهايم الباحثة الأميركية «دينيزا شمادت-بيسيرا» الفيش⁽¹⁾، وتوصلت نتائج اطلاعها على فيش كثيرة من مواقع عديدة في المشرق⁽²⁾، وكذلك في إيران، إلا أنّ ظهور الكتابة المسمارية في نهاية الألف الرابع ق.م، سبقت مسميات تعود في بداياتها إلى العصر الحجري الحديث.

نحن في عصر الزراعة الأولى تقريباً 8000 عام ق.م، والمواقع الزراعية المتمكنة من محاصيلها ومن ثم فائضها مارستُ تجارة المقايضة الداخلية والخارجية، وبدا أنّ معظم

(1) الفيش: كتل طينية صغيرة (1-3 سم)، مشوية، لها أشكال كروية ومخروطية وأسطوانية وقرصية، وهرمية بثلاثة سطوح،

تحوي سطوحها أخاديد وتجاويف أنجزت بالعصا، ويبدو أنّ لكل شيء معناه من النقوش ولكل إشارة مدلول. أقدم هذه الفيش عثر عليها في المشرق، في تل مريبط وتل أسود وفي جرمو عثر على 1153 كرة و296 قرصاً، و106 مخروطاً.

والمعطيات تؤكد أن موقعي تل مريبط وتل أسود استخدمت هذه الفيش لحساب المنتجات الزراعية والحبوب خاصة.

(2) في الألف السابع ق.م شاع استعمال الفيش في مجمل مواقع الهلال الخصيب.

المواقع التي عثر فيها على تلك الفيش تقع على طرق تجارة. تلك الفيش تطورت عبر الزمن لتلائم احتياجات ابنة الزراعة: التجارة والتبادل السلعي.

الاعتقاد أنه تم التبادل السلعي داخلياً في المجتمع الواحد، كالمجتمعات الأخرى، وكذلك مع البدو المحتاجين إلى منتجات الزراعة مقابل مواشيهم وصفوفها ومنتجاتها من الحليب، كذلك استخدمت هذه الفيش لحساب المنتوجات الزراعية. ثم تطوّر استعمال الفيش لثلا يقتصر على الحبوب؛ بل تعدّها إلى الحيوانات وجرار الزيت والمشروبات... إلخ. وبعد أربعة آلاف عام، تطورت تقنية الفيش أكثر نتيجة لرسوخ العالم الزراعي وتطور التبادل التجاري، والطريق هنا نحو الملائمة والسهولة والتعبير الأكثر جدوى في ابتكارها؛ حيث نجد ظهور أشكال جديدة (شبه معين، مثلث... إلخ)؛ لكن لوحظ أنّ الفيش زادت بإشارات وعلامات إضافية؛ (حفر وتظليل مثلاً).

تطوّر التقنية هنا منح قدرة على إعطاء معلومات مفصلة عن نوعية المادة المرموز إليها بالنماذج الأساسية من الفيش؛ كأن نقول: كلُّ فيشة تقابل وحدة معنية من المنتج المحتسب (سلة حبوب، جرة بيّرة، جرة صوف، وهكذا).

وتبعاً للتطور الزراعي والاقتصادي والاجتماعي لمجمل المواقع، كان لا بُدّ من تطور آخر يجري على نظام الفيش وتقنياته: عُلفت الفيش، ففي عام 3500 ق.م صارت توضع داخل مغلفات طينية تتخذ شكل كرات مجوفة⁽¹⁾، ووظيفة الغلاف حماية المحتويات في الفيش من التلاعب بها؛ لهذا خُتمت الأغلفة ووضعت الأطراف المتبادلة للمواد طبقات أختامهم الشخصية بالإضافة إلى الشهود، ثم سهّلت طريقة معرفة محتويات الفيش؛ إذ ابتكرت فيش ذات بصمات توضح تفاصيل المحتويات، وهذه الفيش ابتكرت قرابة 3200 ق.م.

يسيرا تصل في استنتاجاتها إلى أنّ الفيش ذات البصمات شكلت الأساس الذي قام عليه نظام الكتابة في المشرق.⁽²⁾

وباستعراض موجز:

8000 ق.م اختراع الفيش بشكل الرموز الثلاثية الأبعاد.

(1) عُثر على هذه الفيش ذات الأغلفة في المشرق في مواقع: أوروك ونوزي وحبوبة كبيرة وخفاجة وعارودة وماري وتل الشيخ حسن وشكر بزر وتل براك وحبوبة الصغيرة. وبقيت تُستخدَم في المشرق من 4000 - 1500 ق.م.

(2) انظر: كلاتشكوف- الجديد حول الشرق القديم 1988- دار التقدم- موسكو.

3300 ق.م ظهور المُغلفات المحتوية على الفيش.

3200 ق.م اللوحات الأولى ذات البصمات.

3100 ق.م بداية الكتابة التصويرية.

نُسجل هنا أنَّ الزراعة ومنجزها، هذه المؤسسة لعالم الحضارة الإنسانية، تميَّزت بإنجابها مفهومي التخزين والتوفير، قال غولايف: «الزراعة وتربية الماشية والتبدلات المرتبطة بهذا حوّلت بوضوح، أكثر من أيّ شيء آخر، ظروفَ تطور الحضارة البشرية، وغيَّرت بيئة الإنسان الطبيعية وبيولوجيته، وغيّرت كل كوكبنا إلى درجة معينة»⁽¹⁾. باختصارٍ شديد؛ مع الزراعة لم يعد الإنسان يأخذُ بأسباب البقاء؛ بل بأسباب الحياة.⁽²⁾

6500 - 5500 - عصر حجري فخاري:

عُثِرَ في هذا التاريخ على بعضِ الفخار المكسورة، ولكنَّ الزخَمَ الفخاري كان في هذه الحقبة، خصوصاً في 6000 ق.م. وكمعظم التطورات المعيشية وأنواعها مرت صناعةُ الفخار بقفزات عديدة، فمنَّ الفخار البسيط إلى المزوق والمشوي فالملون، وأول دلائل عمليات شيّ الفخار في الفرن جاءت من مواقع بقرص والكوم وموقع حسونه الرافدي) وهكذا.

ولكن ما قصة الفخار وما أهميته؟

إنه يحددُ تاريخَ الموقع الأثري أولاً، ثم يمكن به تتبعُ انسياحات المجتمعات وانتقالها من موقع إلى آخر، كما يقدمُ المعطيات حولَ تزامن المواقع التاريخية؛ فالفخار يربط بين موت موقع أثري وانبعائه في منطقة أخرى، هذا في شأن البحث العلمي، لكنَّ الفخار قدّم فائدة مهمة لمن زرعوا واستوطنوا واستقروا، فهو وعاء كبير للحبوب والأغذية لحمايتها من

(1) انظر: غولايف- المدن الأولى - 1989.

(2) قال برونوفسكي: الزراعة وإكثار الحيوان عمليتان تبدوان بسيطتين؛ لكن الأمر في حقيقته يدل على أن العمليتين لا تقفان جامدتين دون حراك أو تطور الوسائل والأجهزة الأساسية التي ابتدعها عقل الإنسان، وأصابعه الماهرة موجودة دون أن يلحظها أحد في أية قرية على وجه الأرض. عدة أدوات صغيرة ووسائل صناعية بسيطة التي ابتدعها الإنسان قديماً تعادل في براعة صنعها وأهميتها لارتقاء الإنسان أيّ جهازٍ من أجهزة الفيزياء النووية.

الإبرة، المخرز، القدر، جهاز اللحم، الرفش، المسمار، البرغي، الوتر والعقدة والكور، آلة النسيج، الزر والحذاء، مئات الأشياء أيضاً، هذا الثراء يأتي من تفاعل الاختراعات فيما بينها، والثقافة تُضاعف الأفكار والآراء؛ إذ إنَّ كل ابتكار يسارع ويضخم قوة بقية الابتكارات. ارتقاء الإنسان 1976.

الأعداء، وهو وعاء لتخزين المياه والمشروبات، حتى إنَّ ثَمَّةَ مواقعَ فيما بعد مدَّتْ أقيَّةً فخاريةً لسحب المياه من الأنهار.

«بيتر فارب» يشيرُ إلى أنَّ أقدم شيء فخاري صنعه الإنسان كان في مجال روعي؛ إذ ثَمَّةَ تماثيلُ من الطين المحروق بالنار اتُّخِذَتْ تعاويدً من أجل الخصوبة والإنجاب، في حين أنَّ صنعَ الجرار والقروور لخبزن الغذاء والطبخ جاء تالياً ذلك، كما أنَّ استعمالَ العجلة في أول اختراعها كانت لغايات اقتصادية وصنع الألعاب من أجل العربات.

قال: يبدو أنَّ خطوات التقدم في ميدان التكنولوجيا ما كانت تتمُّ لولا الرغبة الإنسانية الدافعة إلى استكشاف اتجاهات جديدة في قدرة الإنسان الفنية المبدعة. (بنو الإنسان.

«جاك كوفان» يشيرُ في بحثه عن موقع تل أسود في الجزيرة السورية إلى أنَّ معرفة الفخار امتدت انطلاقةً من سوريا نحو بلاد الرافدين، وشمالاً إلى الأناضول، ثم غرباً وجنوباً في بلاد الشام. (كوفان 1972.

في منتصف الألف السادس ق.م نجد صناعة الفخار أخذت بعداً أكثر رواجاً حتى غدت تجارةً في بعض أشكالها، والحقيقة المناخية فرضتُ نفسها خلال الحقبة بين 6200 و5800 ق.م بعصر جليدي صغير، سببت انكماش المجتمعات الزراعية المتفائلة.

شهدت مواقع المشرق تغيرات في مسارات الموقع، كارتحالات إلى بيئات أكثر إمكانية للحياة والعيش، والتحايل البشري كان حاضراً من أجل البقاء، والصبر التاريخي كافاً البشر حين عاد المناخ في 5800 ق.م تقريباً إلى سابق عهده المتوازن.

في هذا العصر الفخاري توسع مزارعو المشرق، ورسّخوا وجودهم في البيئة المستجيبية للحياة بجوانبها: النباتي والحيواني والطبيعي.

هذه الحقبة حفلت باستعمال وسائل الري الصناعي مثلاً، وذلك بإنشاء الأقيَّة والسواقي، وهذا بدوره سوف يؤدي إلى نشوء زراعات مروية ستغلب على مزاجية المناخ قليلاً، فنشأت الزراعة غير البعلية كالكتان، ومثل هكذا نشاطات تُحتم وجود سلطة إدارية تنظم مساق العمل وتوازنه.

موقع الكوم أيضاً في البادية الشامية شهد زراعات مروية؛ حيث تمَّ جرُّ المياه من الأنهار إليه، ومواقع تل أسود وتل بقرص، ومواقع العمق ورأس شمرة في سوريا، وفي الجناح

الرافدي تحركت المستوطنات الزراعية من سفوح جبال زاغروس تجاه المناطق السهلية الجنوبية⁽¹⁾.

مع الإشارة هنا إلى أن موقع بقرص يُعدُّ دليلاً على نشوء أول قرية منظمة أُنشئت وُقِّد مخطط معماري سابق.

في الرافدين نقع على مواقع عديدة مهمة: أم الدباغية، تل سوطو، يرم تبه، كول تبه، نينوى، منطقة حميرين وغيرها. وبعض المواقع الرافدية تعود إلى الألفين السادس والخامس قبل الميلاد.

الشواهد الأثرية تشير هنا إلى تشابه مهم في معطيات مواقع أم الدباغية مع مواقع شامية في الكوم وبقرص⁽²⁾.

(1) مناطق الجنوب الرافدي في هذه الحقبة كانت أمطارها قليلة، وكان هذا محفزاً وتحريضاً لسكانه من أجل ممارسة السقاية والري، فتغلبوا على مزاجية الأمطار بإبداع جديد.

عالم من حقول مزروعة ومستنقعات، كُثبان رملية، معظم أجزائه برية مقفرة، صحراوية بقشرة ملحية تندر فيها الأمطار، قوى طبيعة متطرفة، صيف درجات حرارته من أعلى درجات الحرارة في الأرض، رياح شتاء قارسة وعواصف صاخبة، فيضانات أنهار لا ترحم.

الأبحاث المناخية أكدت أن الحرارة في الصيف بين عامي 10000 - 4000 ق.م كانت الأعلى، كما أن سقوط الأمطار كان أكثر، فقد كان معدل سقوط الأمطار أعلى مما عليه الآن بخمسة وعشرين إلى ثلاثين في المائة، وهذا شمل مجمل بلاد الرافدين طوال تلك الحقبة ما عدا انقطاعات مناخية صغيرة.

هنا يبدو أن القدرة البشرية تكيفت على أفضل ما يكون، لتنشأ أول المدن في التاريخ فيما بعد. ويبدو أن الأثر السلبي للإنسان في البيئة تم توثيقه في مستوطنة جرمو عندما كانت مجرد موقع صغير لقرية.

بريد وود يتحدث عن أثر الإنسان في بيئته في هذا الموقع وينسحب هذا على مواقع أخرى في الشرق وسواه. قال: دور الإنسان بزراعته وقطعانه كان دوراً تدميراً دون أن يكون ذلك ناتجاً عن رغبته في ذلك.

فعلى طول المناطق السهلية وعرضها التي كانت في الماضي مملوءة بالغابات ومنطقة التلال في وادي شيمشال، لم تبقَ أيَّة شجرة ولم يُسمح لشجرة البلوط أن تصل إلى طول يزيد على ستة أقدام قبل أن يقطعها الإنسان لصناعة الفحم الخشبي. وبسبب زوال الأشجار وقيام الحيوانات بالتهام الأعشاب حتى جذورها في كل ربيع امتلأت الأنهار بالتربة الطميية؛ حيث كانت في الشتاء تتشكل عند كل منحدر سيول من مياه الأمطار الملونة بلون الشوكولاتة. هذا هو مصدر الطمي الذي نشأ في سهل بلاد الرافدين.

(2) الاعتقاد هنا أن أصول ثقافة أم الدباغية الرافدية تنتمي إلى البادية الشامية، وثمة ملاحظة هنا هو أن هذا الموقع لم تكن الزراعة من أولوياته، كما عُثِر فيه على أدوات معدنية قليلة من النحاس والرصاص، هذا الموقع قَدِّم أول نموذج معروف لابتكار القوس معمارياً في الشرق. والجدير ذكره أن الأدوات الصوانية المكتشفة في تل بقرص تقدم دليلاً على وحدة الفن في الهلال الخصيب في تلك الحقبة وذلك مقارنة مع الأدوات الصوانية المكتشفة في العراق في موقعي تل الصوان وأم دباغية. انظر: سلطان محيسن، المزارعون الأوائل.

وإلى الجنوب الرافدي كانت هناك طبقات من الطمي؛ لكن أول المستوطنات في 5800 ق.م تقريباً قدمت كفوراً من الأكواخ مصنوعةً من الطين والبوص، ومستوطنةً لا تزيد على هكتار واحد، ونعثر أيضاً على مواقع هذا العصر في جبيل بلبنان، وفي فلسطين: القحوانة، المنحطة، أبو تراب، وعين غزال في الأردن.

الفخار الذي ظهر هنا في جنوب بلاد الشام أول مرة قرابة 5500 ق.م، فثمة ما يشابهه في مواقع تل الصبي الأبيض في سوريا، وموقع تل حسونة في شمال الرافدين. يتم الاعتقاد الآن أنّ صناعة الفخار جاءت إلى الأردن وفلسطين عن طريق مجموعات بشرية قادمة من شمال سوريا أو شمال الرافدين.

كان المشهد آنذاك مُحزناً، فقد كان الواقع البيئي يدفع السكان إلى مغادرة منازلهم، بسبب انهيار بيوتهم المشكّلة من الطين، ومعها البقايا المهجورة لأشغال الري البسيط، وقنوات صغيرة لتحويل مياه النهر إلى أحواض تخزين طبيعية، وسدود منخفضة، وفخارٌ مطليٌّ باللون الأسود. هنا تشكّلت «ثقافة العبيد»⁽¹⁾.

وإلى الشمال الرافدي، في منتصف الألف السادس ق.م، ستظهر ثقافات مؤسّسة فيما بعد؛ كثقافة حلف في الشمال، وحسونة في الوسط وسامراء في القسم الجنوبي من الشمال الرافدي.⁽²⁾

التطورات التي ابتدأت منذ الزمن النطوفي مروراً بتبلور الزراعة حتى الآن تُقدّم حالة تصاعديّة حضارية، إن كان في التطور التقني للأدوات والمواد وممكنات الطبيعة، أو في تطور نسق العمران وتخصّصه، مع ظهور أبنية عامة، ربما تدل على حالة روحية اجتماعية،

(1) براين فاغان- مرجع سابق.

(2) المعطيات تشير إلى تطور متزامن بين مواقع الشمال الرافدي ومواقع الثقافة الحلفية في سوريا، فثمة صلة قوية وافية بين مواقع شجر بزر وتل أسود وتل عقاب وتل حلف في شمال سوريا مع مواقع يريم تبه والعرجية في الرافدين.

لاحظت التنقيبات في مواقع العبيد في الجزيرة الشامية أنّ العبيديين الجنوبيين وصلوا إلى مناطقها، ففي تلال الخابور عُثِرَ على أوان عبيدية جنوبية تعود إلى 4600 ق.م تقريباً، وفي تل مشنقة عُثِرَ على جسم قارب طيني مشابه لقوارب عبيد الجنوب. وموقع كوران أيضاً، وقبور ككشوك وتل مشنقة عثر على فخار عبيدي يشبه الجنوبي مع صناعته المحلية. ثمة اعتقاد بوجود روابط بين هذه المواقع الشامية مع مواقع عبيد الجنوب، ويبدو أنّ الانتقال أو الهجرة إلى مناطق حوض الخابور آنذاك من الجنوب لم تتجاوز رأس مثلث الخابور قرب الحسكة. (د. علي أبو عساف 2011).

كما قدمت بعض المواقع وجود بدايات المعبد، ولا نستطيع استساغة مقولة المعبد هنا؛ إذ إنَّ المعبد يشتمل على خصوصية اعتقادية كمذبحٍ وأحواضٍ تطهيرٍ ومعبود يشاد من أجل إله.

هنا نعتقد أن البنى المعمارية ذات الشأن الروحي الاجتماعي كتقديس الأجداد، لا تُمثِّل مفهوم المعبد، وسوف نجده فيما بعد مع اكتمال الاعتقاد برمزية الظواهر الطبيعية للقمر والشمس والرياح والطوفان وما إلى ذلك، وهذا ما وضحته الوثائق المسمارية فيما بعد.

تقديس الأجداد اعتقادٌ اجتماعيٌ روحي بسيط قال عنه «بورهاد برينتس»: «الأسلاف يحمون البيت بذلك، أو يشكلون لحمة روحية عبر الزمن باعتقادنا، وهو أرضي النشأة ولا يدخل في عداد المعتقد. (انظر: د. بشار خليف - 2011).

كذلك تطورت تقنيات تقديس الأجداد بالفنون وإعادة تشكيل الجماجم، بالإضافة إلى ما سبق، ابتكار أفنعة حجرية ملفتة فنياً ولا سيما في مواقع فلسطين.

في منتصف الألف السادس ق.م ازدادت القدرة الإنسانية على استنبات أنواع جديدة من المزروعات؛ كالعدس والحمص وأشجار الكرمة والفل والنخيل والزيتون والتين. فالتنوع الغذائي مهم من جانب الأمن الغذائي وصحة المجموع.

أيضاً حلَّ القرميد المشوي أول مرة في العمارة المشرقية في هذه الحقبة، ويبدو أن بوادر التمييز الاجتماعي بين ثقافة زراعية وثقافة رعوية قد بدأ بالظهور.

هنا بقيت الطقوس الروحية الاجتماعية، إن كان في تقديس الأم الولود، أو الأرواحية وحالة اعتبارية للثور. ثم اتسعت في مساحات القرى الزراعية، وتعدَّد الحياة الاجتماعية واتساعها، كذلك التبادل التجاري بين المواقع.

نلاحظ وفق ذلك التصاعد الحضاري بين جناحي المشرق، وأحياناً يأخذ حالة تبادل أدوار حضارية، ولكن في الاتجاه نحو نهاية الألف السادس ق.م، ونجد أن الحيوية والثقافة الحضارية سوف ينتقل إلى الجناح الرافدي ترافقه مواقع سوريَّة شمالية، في حين بقيت مواقع جنوب بلاد الشام محايدة في هذا الأمر (جنوب سوريا- الأردن، فلسطين).

هنا أصبح المشرق أمام اكتشاف جديد يضيف إلى الصوان والحجر والخشب مادة جديدة ومهمة هي النحاس، وذلك في مطلع الألف الخامس ق.م مترافقاً مع حضارتي

حلف (المستمرة عما قبل) والعبيد الآن⁽¹⁾، وبدأ الأمر في مكان ما⁽²⁾، حين عمد الإنسان إلى وضع حجر المالاكيت الأخضر في النار، وهو أحد خامات النحاس، وربما كان ذلك فضولاً منه، أو خطأً، فلاحظ أن هناك معدناً أحمرًا يسيل، وكانت درجة حرارة النار معتدلة.

قبل ذلك بألفي عام كان البشر يعرفون النحاس المتوفر أحياناً على أشكال كتل فوق الأرض، فكانوا يطرقون تلك الكتل ويشكلونها ويستعملونها كما يريدون. فالمعطيات تدلُّ على مشغولات نحاسية بصورةٍ حليٍّ مصنوعةٍ عُثِرَ عليها في شمال الرافدين، وترقى إلى 9000 ق.م تقريباً.⁽³⁾

إنَّ إسالة النحاس من الخام بالنار مكَّنَ الإنسان من قولبته وطرقه وتشكيله؛ لكن هذا المعدن طريٌّ نسبياً وقابل للانقطاع والانفصال عن بعضه، بسبب انفصال طبقات البلورات التي تؤلفه إذا شدَّ بقوة.

وحين حاول الإنسان أن يصنعَ من النحاس حافة حادة أخفَقَ وأجَلَّ التفكير إلى ما بعد ألفي عام، حين أدرك أن إضافة مادة أخرى إلى النحاس، وإن كانت أليْن منه، سوف يحصل على سبيكة أقوى، وهكذا وُلِدَ البرونز من تزاوج القصدير والنحاس فيما بعد.⁽⁴⁾

من حظَّ الطبيعة والإنسان أنَّ القصدير بنخامه كان جاراً لخام النحاس، وقبل هذا استخدموا النحاس مطروقاً لصنع بعض أدواتهم الصغيرة.

(1) يبدو أن النحاس لم يستطع فرض حضوره على المسميات التاريخية، فقد بقي العصر عصراً حجرياً وأضيف إليه معدن النحاس. في حين أن البرونز استطاع أن يزيح الحجر عن طريقه لتغدو فيما بعد تسمية العصور به. وجمال الحالة الإنسانية هنا أنه حين اكتشف النحاس، لم يلجأ الإنسان بادئ ذي بدء إلى صناعة الأسلحة أو السكاكين، بل ابتكر فيه شكل كرات وسواها، ولنتظر حتى 4000 ق.م لبدء صنع الأسلحة المعدنية.

(2) ربما يعود اكتشاف النحاس إلى بلاد فارس وأفغانستان والأناضول قرابة 5000 ق.م. وقبل العصر الحجري النحاسي عُثِرَ على بعض القطع النحاسية كالحلي والأدوات الصغيرة في المشرق، وفي الرافدين: موقع شانيدار في الألف التاسع ق.م، تل المغزلية، وفي سوريا في تل الرماد (منطقة دمشق). وفي جنوب بلاد الشام كُشِفَ موقع في وادي محرس الواقع غرب البحر الميت عما يزيد على 400 قطعة مصنوعة من خامات النحاس. وبعض الآراء تتحدث عن أن خامات النحاس كانت تستخرج من منطقة وادي عربة (وادي فينان أو خربة المنيعه) أو حتى من سيناء. انظر: كفاي.

(3) كاتي كوب- هارولد جولد وايت- إبداعات النار- عالم المعرفة الكويتية 266.

(4) تم اكتشاف البرونز أول مرة قرابة 3800 ق.م. لمزيد عن حكايا المعادن في التاريخ: برونوفسكي- ارتقاء الإنسان. بعض الحضارات لا تعرف العصر البرونزي كفنلندا وشمال روسيا وبوليفينيا ووسط أفريقيا وجنوب الهند وأمريكا الشمالية وأستراليا واليابان، هذه الحضارات قفزت مباشرة من الحجر إلى الحديد (إبداعات النار).

العصر الحجري النحاسي Calcholithic، تبلور تقريباً في الألف الخامس ق.م واستمر 1500 عام حتى 3500 ق.م. وميّز هذه الحقبة فاعليّة مواقع امتدت من شمال المشرق حتى البحر المتوسط؛ (الحلفيون فالعبيديون ذو المنشأ المحلي جنوب الرافدين. وثقافة العبيد في جنوب الرافدين التقت بثقافة حلف الشامية في الجزيرة).

يشير «غولايف» في كتابه «المدن الأولى» إلى أنّ العبيديين في النصف الثاني من الألف الخامس ق.م أنهاوا الفاعلية التاريخية للحلفيين، فقد أُبِيدَ بعضهم، واندمج بعضهم بالسكان الآخرين، وربما أزيح بعضهم إلى مناطق أبعد.

للدكتور سلطان محيسن رأي مخالف لرأي غولايف، حيث لا يُعَدُّ العبيديين غزاةً لمواقع الثقافة الحلفية، مع وجود آثار دمار وحروب ودلائل قدّمها موقع العربية الرافدي. (محيسن - المزارعون الأوائل).

كما يشير في كتابه «عصور ما قبل التاريخ» إلى أنّ العبيدين السوريين هم مثل الحلفيين سكان أصليون وليسوا مهاجرين أو غزاة، وأتوا من جنوب الرافدين، مع الإشارة هنا إلى أنّ «غولايف» أطلق على الثقافة الحلفية صفة «الدخيلة» على الرافدين. وسميت ثقافة العبيد بذلك نسبةً إلى بلدة العبيد جنوب الرافدين، وتقع على بعد 8.5 كم من موقع مدينة أور، استمرت قرابة 1000 عام من 4500 - 3500 ق.م، وتعيد المعطيات الوجود البشري لهذه الثقافة إلى الألف السادس ق.م.

الأرضية الثقافية للحقبة السابقة تطورت بطبيعة التفاعل الأقوى مع البيئة الطبيعية، وهذا ما أثر في زيادة اللحمة بين البيئات الاجتماعية في المشرق.

لوحظ أنّ تلال الجزيرة الشامية شكلت صلة الوصل بين جناحي الهلال الخصيب، فلا انقطاع بين الثقافة الحلفية والعبيدية، كما في تل عقاب وتل كشكشوك وموقع زيادة. وما يلفت النظر هنا الشبه المهم بين فخار الحلفيين السوريين بفخار الجناح الرافدي.⁽¹⁾

(1) إبداع الثقافة الحلفية في صنع الفخار وتقنياته ورسوماته وتزييناته وتلاوينه دفع غولايف إلى القول: يمكن القول بلا مبالغة إن فن صنع السيراميك وصل خلال الحقبة الحلفية إلى ذرى لم يتسن الوصول إليها بعد ذلك في «المشرق» ولا في المناطق المجاورة.

الحلفيون مارسوا الزراعة كالصيد، وتبادلوا السلع مع المناطق الأخرى، والعيبيديون انتشروا في مناطق المجتمعات الحلقية، من شمال سوريا حتى حمص.⁽¹⁾

وما يميز ثقافة هؤلاء ابتكارهم الدولار البطيء الذي أسهم في زيادة إنتاج الأواني الفخارية، وقرابة 4000 ق.م ابتكر الدولار السريع.

مواقع هذه الثقافة شملت رأس شمرا وتل أم قصير جنوب مدينة الحسكة وتل زيادة على الخابور الأوسط، وقوزاق شمالي تل عبر، وجنوب جرابلس، وتل كشكشوك شمالي حلب وتل مشنقة.

في تل مشنقة على نهر الخابور عُثِرَ على أجزاء لمركب قديم، ربما يمنح دلالة على صناعة القوارب واستخدامها (Beyer 1996). وفي الرافدين: اريدو (أبو شهرين) ثم موقع حجي محمد إلى الشمال من موقع العبيد، فتبة غورا.

في منتصف الألف الخامس كانت الثقافة العبيدية تُشكل حضارةً تمتد من عربستان شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً، ومن زاغروس شمالاً إلى سواحل الخليج العربي والبحرين جنوباً، والمعطيات تشير إلى أنه في بداية الألف الخامس ق.م انتشر العبيديون حتى سواحل الخليج العربي والجزيرة العربية. (محيسن 2004)

يلاحظ هنا أن الجنوب الرافدي أخذ بأسباب التحولات الحضارية الكبرى التي سنلتمسها فيما بعد. وتبعاً للبيئة المحلية أصبحنا أمام ثقافة عبيدية شمالية وأخرى جنوبية⁽²⁾، والمقاربة

(1) في الألفين الخامس والرابع ق.م في جنوب مستوى حمص، بدا أن مجتمعات هذه المناطق كانوا أقل تطوراً من الشمال الشرقي. وثقافة العبيد وجودها قليل في الأردن وفلسطين، هناك بعض المواقع عُثِرَ فيها على كسر فخارية قليلة تشبه فخار العبيد في زخرفته، كموقع «أبو حامد» والكنارة والسمره على الضفة الشرقية لنهر الأردن. أما في سوريا فكان امتداد ثقافة العبيد على سواحل البحر المتوسط وحوض العاصي (حول مدينة حماة)، كذلك في مواقع عديدة مثل كردو في سهل العمق E تل الكرخ، وتل حمام التركمان، وتل العبر على الفرات الأوسط.

(2) في مقاربة لأحوال البيئة بين جنوب الرافدين وشماله، إن مناطق الجنوب كانت تتعرض لمد الخليج العربي، والرياح الموسمية تدفع المياه المالحة إلى الأهوار المستنقعية والبحيرات، ثم أدغال القصب المليئة بالوحوش المفترسة والمعرضة دوماً لأسراب الحشرات. في حين نجد الشمال الرافدي كان ذا مناخ جاف شبه استوائي، تهب عليه رياح البحر المتوسط، بما يضمن مواسم أمطار مهمة. وكلا البيئتين قدمتوا عوامل التحريض من أجل أن تحافظ المجتمعات على ديمومتها؛ لهذا جاءت الاستجابة البشرية متوازنة مع قوة التحريض الذي يبدو هنا أنه كلما ازداد التحريض قويت شدة الاستجابة؛ ولهذا حاول العبيديون السيطرة على سلبات البيئة الجنوبية بمكافحة ملوحة الأرض، وتجفيف المستنقعات واستطاعوا ممارسة الزراعة المروية بالأقنية والمنشآت المائية، وهنا أيضاً سنكون مع سلطة نازمة لفاعليات المجتمعات ربما أكثر تطوراً. فالجنوب الرافدي سيكون موئلاً

بين عبيدي الشمال والجنوب تستند إلى تمايز البيئة الطبيعية والوسط الحيوي بينهما في كلٍّ منهما.

فأما الشمال كافيهِ للزراعة البعلية، ولا حاجة إلى الزراعة المروية، والماعر والأغنام شمالاً مقابل البقر جنوباً، وفي الشمال حيث تتوفر الأحجار سنجد بيوت المجتمعات حجريةً وكذلك أدواتها، أما في الجنوب فقد اعتمدوا الطينَ والقصبَ وحتى الأدوات صنعت من الطين. والشمال تفوقَ بصنع الأختام المسطحة من الحجر، ومن العظم والطين وزُخرفت بأشكال هندسية، في المقابل أواني الجنوب أكثر جودة من أواني الشمال.

في المراحل الأخيرة من ثقافة العبيد صارت المقابر مستقلةً خارج البيوت⁽¹⁾، ولوحظ في بعض المرفقات الجنائزية بعضُ أشكال السفن من الطين، يحمل هذا الأمر على احتمالات ما وراثية أو واقعية مُعاشة.

ليس ثمة سلطةٌ زمنيةٌ حتى الآن في حضارة المشرق، ويبدو أن إدارة المجتمع كانت عائلية أو عشائرية أو لأشخاص يتحلون بصبغة قدسية اجتماعية. وقد مارس العبيديون الجنوبيون الملاحة، وعثر على لقاهم في مواقع الخليج العربي (قطر، البحرين، شبه الجزيرة العربية)، بما حفزَ على التحدث عن «عبيد عربي».

في الثقافة العبيدية نلحظ تجانساً حضارياً في الهلال الخصيب شاملاً عربستان أيضاً. وثمة إشارات إلى انتقال العبيديين الجنوبيين إلى الشمال عبر قرون عديدة، ويبدو أن ثمة استيطانات لهم في الأراضي الشمالية في وقت مبكر، يصل إلى ما وراء الألف الخامس ق.م⁽²⁾. وإذا اتجهنا إلى جنوب بلاد الشام فنسجد مواقع مهمة تعود إلى الحجري النحاسي بين 4500 و3500 ق.م. ومن أهم المواقع نجد تليلات الغسول في الأردن، وبئر السبع في فلسطين بين 4000 و3500 ق.م⁽³⁾.

الحضارة الأول. ولا يمكننا النظر إلى الثقافتين العبيدية والنطوفية قبلاً إلا في مراحل تأسيسية مهمة لحضارة المشرق، فالثقافة النطوفية جبّت كل المخزون المتراكم من الثقافة السابقة وعبرت عنه وبه مطوراً إلى عالم الزراعة. كالثقافة العبيدية التي راکمت الخيرات والتفاعلات الحضارية ومضت بها مطورةً أيضاً إلى عالم المدن.

(1) سلطان محسن - المزارعون الأوائل.

(2) انظر: فاغان - الصيف الطويل.

(3) تميزت بعض المواقع هنا وفي هذه الحقبة بفنون عاجية وأدوات من العاج والعظم، كما في مواقع صحراء النقب، ويبدو هنا تطورٌ لافت في تقنيات صناعة العاج.

امتلكت الثقافة العبيدية هنا طبيعة بيئتها؛ ولهذا أقام العبيديون قراهم في بيئة جافة وصحراوية كمواقع صحراء النقب. فنجد مواقعَ في غور الأردن والبحر الميت ووداي عربية والعقبة ووداي غزة، كما نلاحظ استيطاناً فوق مرتفعات الجولان. وموقع تليلات الغسول في الأردن بلغت مساحته 52 هكتاراً بُنيَ وَفَقَ مخطط سابق الصنع يدل على وجود سلطة أولية لمشيخة أو قبيلة، كما تمت هنا تقنيات الزراعة المروية، ودلَّ على ذلك وجود بذور الزيتون والبلح.

وشهدت بعض المواقع خلال العصر الحجري النحاسي صناعةً خواتم وأساور من الذهب؛ ككهف قانا في شمال فلسطين عُثِر فيه على ثمانية قطع تُعدُّ الأقدم في بلاد الشام. وعموماً شهد العصر النحاسي في مرحلته الأخيرة في الجنوب الشامي ممارسة الزراعة المروية والرعي بالإضافة إلى نشاطات حرفية مهمة.⁽¹⁾

اتجاهاً نحو نهاية الألف الرابع ق.م، نتيجة الحيوية الثقافية والحضارية لمواقع المشرق سنجد العبور نحو المدن وانتقال السلطة من المشيخة والقبيلة إلى المعبد، فالسلطة الزمنية الذي حتمَّ وجودها حواضر كبيرة تتطلب إدارةً وتنسيقاً مهماً.

مضت كل ثقافة بتطوراتها حتى 3500 ق.م، حيث سنشهد انتهاء فاعلية الثقافة العبيدية الشمالية على نحوٍ مأساوي من حرق وتدمير.

توقف الشمال مدةً ليكونَ الجنوبُ الرافدي مركزَ الإشعاع الأول في الحضارة الإنسانية⁽²⁾. والمقاربة المناخية آنذاك التي يمكن أن تكون سبباً لدمار الثقافة العبيدية الشمالية ربما نجدها في جنون المناخ.

قراءة 3800 ق.م مضى المناخ نحو الجفاف واستمر أكثرَ من ألف عام. الأبحاث تشير إلى انخفاضٍ ما يصل الأرض من إشعاع الشمس (معدل الضوء الآتي إلى سطح الأرض)، وذلك بسبب دراسات الكربون المشع لحلقات الأشجار وعينات أسطوانات لب قاع البحيرات في جنوب غرب آسيا ووصولاً إلى جنوب كاليفورنيا.

ما السبب؟ هناك تعديل في زاوية الأرض بالنسبة إلى الشمس، وهذه الزاوية تحدد كمية الإشعاع الذي يصل إلى سطحها.

(1) كفاي - مصدر سابق.

(2) انظر: فقرة استنتاجات عبيدية - سومرية.

ماذا حصل؟ ضَعُفَت الرياحُ الموسمية الجنوبية الغربية وكذلك أمطارها، وغدا فيضان الصيف يصل متأخراً بعد المحصول، انخفاضٌ حاد في سقوط المطر والثلوج في مرتفعات الأناضول.

ماذا حصل في جنوب الرافدين إذاً؟ جفافٌ في المواقع، وصدّمت بيئية متكررة خرّبتُ المستوطنات الصغيرة المرتبطة بقنوات النهر.

السكان اعتمدوا على مياه الري وحدها لسقي محاصيلهم، اختفى فائض الطعام، بوادر مجاعة ضاربة، أرضٌ تشققتُ.

النتيجة: المسح الأثري دلَّ على هجرات جماعية من المواقع.

التأثيرات طويلة المدى لموسم الأمطار الأشد قصراً ظلت تتواصل لأجيال خلال مجتمع جنوب ما بين النهرين. بعض السكان تحولوا إلى رعي القطعان (من الزراعة نحو الرعي)، بعض السكان بقوا يمازحون قسوة الرياح بمنشآتهم البسيطة في الري، وعادوا إلى الالتقاط والصيد للحيوانات الكبيرة المتعبة⁽¹⁾.

هنا السؤال يطرح نفسه: هل جائحة المناخ هذه سببتُ هجرة جائئةً من مواقع العبيد الجنوبية نحو المواقع الشمالية، أم غير ذلك؟

هذه البانوراما التي قدمناها منذ التجمعات الأولى الصيادة اللاقطة في المشرق حتى تبلور منجز الزراعة وما تمخض عنه، يجعلنا ندرك معاناة التجمعات البشرية العاقلة ثم المجتمعات المنظمة في قرى سوف تتسع وتكبر مع الزمن؛ لتغدو نواةً لمجتمعات أكبر تُهيئُ لمنعطف جديد في مسار الحياة الإنسانية، الكامن في نشوء المدن الأولى.

التفاعل الروحي- المادي لمجتمعات أوصلت القدرة البشرية إلى هنا، في 17 ألف عام تقريباً، منذ 20000 حتى 3500 ق.م.

ها نحن نطرق أبواب المدن الأولى والكتابة الأولى، في وقت يقول «ج.س. سمّس»: « عندما أنظر إلى التاريخ، أكون متشائماً. ولكنني عندما أنظر إلى ما قبل التاريخ، أكون متفائلاً».

(1) انظر: فاغان- الصيف الطويل.

مدن واقفة - النشوء

نحو المدن: 3500 ق.م

تمركز الثقل الثقافي والحضاري منذ أواخر العُبيد في الجنوب الرافدي. كيف ساقَ المناخ المدن إلى تبلورها؟

في عام 3500 ق.م اشتد الجفاف، وأوروك⁽¹⁾ كانت بحُكم التطور أكبر كثيراً من أن تكون بلدة كبيرة، فثمة قرى تابعة لها، وكل قرية تمتلك نظاماً لريها الخاص وتمتد عشرات الكيلومترات في كل اتجاه، هذه القرى تمد المدينة بالسلع والأغذية، والمدينة بدورها تبادلها منتجاتها، كلاهما يعتمد الآخر.

القرى المتطورة مارست الزراعة المزدوجة للمحاصيل، استخدمت المحارث وحيوانات الجر، واعتنت بقنوات الري والسقاية، وزعماء العشائر نظموا ونسقوا نشاطات المجتمعات. تطورت الأنشطة الحياتية في كل مجالاتها، تضاعفت قوة المدينة، والتحتّم القرى بمدينتها، مارست أوروك تجارتها القريبة والبعيدة حتى إنها أسست مستعمرات تجارية في شمال الرافدين.

قسى المناخ أكثر، بين 3200 و3000 ق.م، جفاف وبرد سريعان، المواقع الشمالية عانت الجفاف، تدفقت الهجرات الجائعة إلى الجنوب نحو أوروك ومدن الجنوب الرافدي. ومع ازدياد عدد السكان تشكلت مدن جديدة في المناطق البيئية الواقعة بين المستوطنات الكبيرة، وفي عام 3100 ق.م غدت مدن الجنوب الرافدي أولَ حضارةٍ في العالم.⁽²⁾

مناقشات عبيدية - «سومرية»:

بعد انتهاء الثقافة العبيدية في 3500 ق.م سيكون الاتجاه الحضاري نحو نشوء المدن الأولى.

(1) أوروك: تقع على نهر الفرات آنذاك إلى شمال شرق مدينة أور.

منذ الثقافة العبيدية في أواخر الألف الخامس ق.م كانت المدينة تتشكل وَفَقَ قانون التطور المديني - الزراعي، ومسافة الموقع آنذاك تزيد على 80 هكتاراً ويسكنه قرابة مئة ألف نسمة بين بلدة كبيرة وقراها.

(2) المناخ ومدن المشرق في الجنوب الرافدي يقاربها «فاغان» في مؤلفه «الضيف الطويل» بشيء من التفصيل المهم.

تستوقفنا هنا بعض الأفكار، فمثلاً: أسماء بعض المدن الرافدية (أريدو، أور، لاجش، نيبور) وهي أسماء ليست سومرية؛ حيث الثقافة اللاحقة للعبيدية. ويبدو أن أسماء هذه المدن تعود إلى عصر الثقافة العبيدية، كما يبدو أن اللغة التي انتشرت في هذا العصر هي اللغة التي استعار منها السومريون كلمات مهمة مثل: فلاح، وراعي، ومحراث، ونساج، ونجار... إلخ.⁽¹⁾

أيضاً العبور من العبيدية إلى السومرية رُبطَ بقدم شعوب جديدة، وهنا يُقصد بالسومريين. ماذا تقول المعطيات الأثرية والبحثية؟

قالت المكتشفات الأثرية: السومريون كانوا يسكنون الجنوب الرافدي منذ مرحلة العبيد على الأقل، إن لم يكن أقدم، ثم بالبحث في آثار ذلك العصر، لا سيما مواقع أوروك في الجنوب الرافدي، وفي الجزيرة السورية، لم تقدم المعطيات حدوث تحولٍ ديمغرافيٍّ بعد عصر العبيد الأخير، وليس هناك ما يوحي بتبدلٍ جوهري في الحضارة وثقافتها، ثمّة تواصلية وتطور تدريجي يعمّه السلام.⁽²⁾

(1) د. عيد مرعي - تاريخ بلاد الرافدين - دار الأبجدية - دمشق - 1991.

= بالإضافة إلى ما ذكره الدكتور مرعي فقد ورد ذكر كثير من الكلمات المقتبسة من قبل السومريين من العبيديين: دباغ، طباخ، حجار، حداد، سمكري، حنطة، بيرة من الحنطة، شجرة النخيل، تمر، نحاس. كما أن هناك أسماء لبعض الآلهة: أوشار، أشنان، اينين، نيرجال، أريشكيجال. انظر: برينتيس - نشوء الحضارات القديمة.

في كتاب «حقيقة السومريون» يورد د. نائل حنون آراء بعض الباحثين:

Thorkild Jacobsen و Benno Lands Berger, Ignace jay Gelb، ويورد أسماء مدن قيل: إنها سومرية؛ لكن الحقيقة هي أسماء تعود إلى حقبة سابقة عن التواجد السومري: أريدو، أور، أوروك، كلاب، لارسا، لاجش، جرسو، نينا، سيرارا، أوما، شروباك، أدب، نفر، كش، مرد، لرك، ايسن، كيش، سبار، أكشاك، أكاد، بابل، بورسبا، اشنونا، توتب، فضلاً على اسمي نهري دجلة والفرات.

والباحث حنون هنا يشير إلى أن الاطلاع على هذه الكلمات يفصح للوهلة الأولى عن أصول أكادية «سامية» قديمة، وإن عدداً منها مشترك مع اللغة العربية لفظاً ومعنى. ويتبنى آراء الباحثين في قولهم: إن دور العبيد لم يكن أناسه سومريين مثلما لم تكن الأسماء سومرية.

جوزيف هالفي يعتقد بدوره بأن لا يوجد دليل واضح على وجود السومريين، وأن اللغة السومرية كانت لغة سرية من ابتكار البابليين، ويقصد الأكاديميين لأغراض دينية وشعائرية (ألفرد هالدار - العموريون.

(2) سلطان محسن - المزارعون الأوائل.

غولايف قال عن اجتماع الباحثين والعلماء تأكيداً للتعاقب الثقافي الواضح: ما بين عُبيد وسومر في ميدان عمارة أماكن العبادة والسيراميك، وبناء البيوت والخبرات والأساليب الاقتصادية ومواد المعيشة... إلخ، وليس مصادفة أن تظهر كل المدن السومرية الرئيسة في مكان المستوطنات العبيدية السابقة.

ويضيف: «إنَّ التعاقبَ الثقافي بالدرجة التي يمكن تتبعها في الآثار المادية تجعلنا نعتبر أن السومريين كانوا على الأقل مؤسسي الثقافة العبيدية في جنوب ما بين النهرين في أواخر الألف الخامس ومستهل الألف الرابع ق.م، حتى أصبحنا مع ظهور الكتابة المسمارية في تخوم الألفين الرابع والثالث ق.م نملك براهين لا جدالَ فيها أنَّ سكانَ المنطقة السفلى فيما بين النهرين كانوا سومريين»⁽¹⁾.

ويصل غولايف إلى استنتاجه: «إنَّ فرضية حلول دخلاء أجانِب مكان السكان الأصليين أمرٌ بعيدُ الاحتمال.»

«بورهارد برينتس» الذي يقدم قناعةً أنَّ السومريين وافدون إلى الجنوب الرافدي، قال استناداً إلى المعطيات الأثرية في مدينة أوروك: إنَّ السومريين كانوا في بلاد الرافدين في أثناء أواخر الحضارة العبيدية أو أنهم عاشوا جنباً إلى جنب مع قبائل العبيديين؛ ولكنهم أخذوا يتأصلونهم تدريجياً...! (برينتس - نشوء الحضارات القديمة).

في كتاب «تاريخ سوريا» يلفت الدكتور عبد الله حلو إلى ملاحظة مهمة هي أنَّ الآداب السومرية لا تقدم أدنى إشارة، ولو بصورة غير مباشرة، إلى أصل السومريين؛ بل إنَّ ما يلفتُ النظرَ أنَّ أقوالهم وأساطيرهم عامةً تستند في معظم الأحيان بأفكارها إلى الأنهار والمستنقعات وأشجار النخيل والقصب؛ إذ يُخيلُ إلى الباحث أنَّ السومريين قد وُجدوا منذ أقدم الأزمنة في أرض الرافدين، وهذا أمر يميلُ بعض الباحثين فعلاً إلى الاعتقاد به»⁽²⁾.

«هنري فرانكفورت» يُعدُّ السومريين السكان الأوائل للجنوب الرافدي، ويستند في رأيه إلى أنَّ اللقى الأثرية المكتشفة، لا سيما في تل العبيد وأوروك جمدة نصر، ليس بينها اختلافات جوهرية؛ أي ثمة تواصلية انسيابية تاريخية. ويُضيف: إنه حتى في الميثولوجيا

(1) غولايف - مصدر سابق.

(2) د. عبد الله حلو - تاريخ سوريا.

السومرية ليس هناك إشارة خاصة بمجيء السومريين إلى وطنهم الجديد، وبهذا يكون السومريون هم أول سكان الجنوب الرافدي على الإطلاق.⁽¹⁾

برينتس يستشهد بآراء العالم الآثاري «ناغيل»: أن السومريين انحدروا من آسيا الصغرى وقت بدء انهيار الثقافة العبيدية، وهذا دليل «ناغيل» وهو تشابه بعض أشكال فخاريات شاه تبه، فرأيه إنَّ السومريين المنحدرين من آسيا الصغرى هم الذين صنعوا الفخاريات الرمادية في شاه تبه وتبة غيسار التي ظهرت في شمال شرق إيران، ويُصرّ على أن الأدوات الرمادية والحمراء التي اكتشفت في أوروك ظهرت بعد وصول حضارة شاه تبه إلى جنوب الرافدين في أواسط الألف الرابع ق.م.⁽²⁾

وفي رأينا: إن الخروج من هذه الضبابية التاريخية في استجلاء حقيقة العلاقة بين الثقافة العبيدية والثقافة اللاحقة لأنَّ المعطيات الآثارية لم تقدّم ما يُشفي غليل العلم في ذلك، وهو التفكير في عدّ الثقافة السومرية محلّية الطابع، ثم إنَّ ما يكفي من منظومة التفاعل التاريخي الاجتماعي أنَّ المكوّن السومري كان إيجابيّ التفاعل في النواحي كافّة مع من سبقَ ومن لحق، ومن ثمّ فعلى قاعدة فلسفة التفاعل الاجتماعي التاريخي هم مشرقيون حكماً بصرفِ النظر عن أصولهم، ونحن نعلمُ أنَّ كثيراً من الأرومات الديمغرافية تداخلت مع المزيج الديموغرافي المشرقي، وذابت، دون النظر إلى أصولها، بما أنّها حالةٌ كيميائية ممتزجة لا فيزيائية منفصلة، ولا نعتقد أنَّ اللغة السومرية فقط هي الدافع الفضولي المهم للبحث في أصول السومريين؛ إذ لم يُعثر على أية لغة إلصاقية مثلها.⁽³⁾

شيء آخر: لم نشهد نزوحاً للسومريين في وقت الشدائد إلى موطنهم الأصلي المفترض؛ بل نجد اندماجاً يشي بقديسية المكان الرافدي الجنوبي بالنسبة إليهم.

(1) انظر: فوتيك زاماروفسكي - في البدء كانت سومر - ت. أحمد حسان - مطبوعات وزارة التعليم العالي - سوريا، 2015.

(2) انظر: نشوء الحضارات القديمة - برينتس.

(3) في بحث جدليّ عن حقيقة السومريين ينهج الدكتور نائل حنون نهجاً متفرداً في نفي وجود سومريّ بالمعنى الديموغرافي، ويُحيل الأمر برمته إلى أن الاسم للسومرية يكون «الكتابة السومرية» وليست اللغة السومرية، أما الأكاديمية فهي «اللغة الأكاديمية».

قال الباحث: «لقد واجهت الأكاديميين الذين ابتكروا لغة الكتابة السومرية... إلخ». ثم: «لما كانت السومرية من وضع الأكاديميين أنفسهم... إلخ».

«بوترو» هنا يعيدنا إلى بداية الألف الرابع ق.م: «حين تواجدت وجهاً لوجه في القسم الجنوبي للرافدين، مجموعتان من السكان، إحداهما غربية تماماً عن الأخرى، السومريون من جهة ومن جهة أخرى أولئك الذين اصطُحِحَ على تسميتهم بالأكاديين». (بوترو- بابل والكتاب المقدس).

خاتمة كتابنا سوف تشير إلى توقع علمي جديد بخصوص المعضلة السومرية.

نحن في منهجنا نجد أن التسميات الديمغرافية لا تحقق غايتها المعرفية والعلمية دائماً، ونحن نعلم مدى البلبلة الفكرية التي سببها الدراسات الاستشراقية المجزأة والمُجزّئة للمشرق ومواقعه ومدنه، حتى غدا المشرق بتاريخه مجموعة هويّاتٍ وكيانات منفصلة ومتصارعة لسبب عنصري لا اقتصادي أو مصلحي.

ربما إذا أخذنا باصطلاح الجنوب الرافدي والجنوبيين الرافدين في حقبة نشوء المدن لتجاوزنا تلك النظرة الديموغرافية التجزيئية حتى جلاء المعطيات والقرائن. وهذا بالطبع ينسحب حتى على اصطلاح «الأكدية»، التي أعيدت إلى نصوص ووثائق قبل نشوء مدينة أكد قرابة 2350 ق.م.

السؤال الذي يطرح نفسه: هل تنبثق لغة قبل نشوء ديمغرافيتها وجغرافيتها؟ ولماذا الوثائق العائدة إلى حقبة ما قبل الأكدية والنصوص ينبغي أن نطلق عليها صفة الأكدية؟ بعض الباحثين أشار إلى أن كل ما هو غير مكتوب بالسومرية قبل «أكد»، اصطُحِحَ عليه «أكادي»، وفي رأينا هذا يجافي الحقيقة العلمية وينبغي التفكير في جدواه وأهدافه. فنحن نسينا «الأمورية القديمة» قبل نشوء الممالك الأمورية في مطلع الألف الثاني ق.م على مدى المشرق. وربما نفتح ثغرة في جدار التاريخ.

ماذا يقول الماء؟

أجملُ الأقوالِ ما يقوله عالمٌ عن عالمٍ...

«زينون كاسيدوفسكي» في كتابه «الواقع والأسطورة في التوراة»⁽¹⁾ لا يخفي إعجابَه بالمنقّب البريطاني «ليونارد وولي» مكتشف موقع مدينة «أور» في الجنوب الرافدي. قال

(1) دار الأبجدية- دمشق - 1990 - ت: د. حسان إسحاق.

كاسيدوفسكي: «على عمق 14 متراً تحت جدران العاصمة السومرية اكتشف وولي مقبرة الملوك السومريين الذين حكموا في بداية الألف الثالث ق.م؛ لكنه أصرّ على معرفة ما يختبئ تحت هذه المقبرة، عندما وصل العمال إلى الطبقة التالية وقعوا على طمي نهريّ ليس فيه أي أثر للحياة البشريّة».

هل وصل العمال إلى طبقات الأرض التي يرجع تاريخها إلى المرحلة التي لم يكن الإنسان قد استوطن فيها في هذا الموقع؟

حسابات وولي أوصلته إلى نتيجة مؤداها أنه لم يبلغ التربة البكر بعد؛ لأنّ الطمي استلقى أعلى من الطبقة المحيطة به مشكلاً علواً واضحاً بارزاً. وتابع وولي العمل ليُفضي السبر إلى اكتشاف مدهش: لقد ظهرت تحت طبقات الطمي التي بلغت سماكتها ثلاثة أمتار⁽¹⁾ آثارٌ جديدة لمستوطنة بشريّة: (طوب ونفايات ورماد نيران وقطع من فخار).

دراسة الفخاريات وزخرفتها أفضت إلى أنّها تنتسب إلى ثقافة أخرى مختلفة تماماً عن تلك الثقافات التي اكتشفت فوق طبقة الطمي.

صرّح وولي: «إنّ سيلاً مائياً هائلاً قضى على مستوطنات بشريّة غير معروفة لنا، سكنت هنا في زمن سحيق لا نعرف حدوده، وعندما انحسرت المياه جاءت بلاد الرافدين موجاتٌ بشريّة أخرى وسكنتها من جديد، يُعتقد أنهم السومريون.»

قال النصّ الرافدي فيما بعد: «بعد أن تهدمت الأبنية،

بعد أن ساقّت العاصفة العاتية الأمطار،

بعد أن هبّ الناسُ كالأعداء وجهاً لوجه،

بعد الطوفان قال: سأمسح الجميع من وجه الأرض،

السماوات تأمر، الأرض تمنح الولادة»⁽²⁾.

في المنحى الفكري والعقلاني لما كان وحصل، وما كُتب بعد حين، يصف يوفال هراري ميكانيزما التصور بقوله: «اتضح أنّ الأساطير أقوى مما كان يتصوره أي شخص، فعندما

(1) تجمّع ثلاثة أمتار من الطمي يحتاج إلى ارتفاع مياه يزيد على ثمانية أمتار على أن تبقى المياه هكذا مدة زمنيّة طويلة.

(2) أ. كوندراتوف-الطوفان العظيم - ت: عدنان حمودي - دار وهران - نيقوسيا - دمشق 1986.

أتاحت الثورة الزراعية فرصاً لإنشاء مدن مكتظة وإمبراطوريات قوية اخترع الناس قصصاً عن آلهة عظيمة، وأوطان وشركات مساهمة لتوفير الروابط الاجتماعية الضرورية. في حين كان التطور البشري يزحف بوتيرته المعتادة، كان الخيال البشري يبنى شبكات مذهلة من التعاون الجماعي كما لم يحدث من قبل على وجه الأرض»⁽¹⁾.

لهذا تحفل الأدبيات التاريخية المشرقية، ولا سيما الرافدية منها، بعد اختراع الكتابة بنصف ألفية تقريباً وما بعد، بأفكار وأساطير وتصورات اختلاقية، نجد أساسها في تأملات المزارعين الأوائل صعوداً إلى مرحلة نشوء المدن، خمسة آلاف حاسمة من التنور العقلي العاطفي لغاية المجتمع، فتأملات الخمسة آلاف عام تلك وثقت بعد ذلك عبر عناوين كبيرة:

- ولادة الإله سين وصباه (إله القمر)

- خلق القمر والشمس.

مناظرات: الصيف والشتاء، الراعي والفلاح، الماشية والغلة، المسحاة والمحراث، شجرة الطرفاء والنخلة، شجرة الحور والغار، الشعير والقمح، الثور والحصان.⁽²⁾

هذا في غير تلك التأملات في المنحى الكوني والتكويني والأسئلة الكبرى للبشر التي توضحت فيما بعد نشوء المدن.

«وولي» يشير ثانياً إلى أحداث الطوفان الذي لم يكن عالمياً: كان مجرد فيضان اعتيادي نحو المناطق السكنية الواقعة بين الجبال والصحراء ووادي دجلة والفرات، والوادي كان عالمياً كاملاً بالنسبة إلى سكانه. «يبدو أن أكثرية سكان الوادي قد هلكت، أما القلائل من سكان المدن فقد عاشوا لحين تراجعت المياه، ليس هناك ما يدعو للدهشة عندما يرون في هذه الفاجعة غضب الرب الذي انصبَّ على الجيل العاصي، كما وصفوه في القصيدة الدينية فيما بعد».

(1) يوفال هراي- مرجع سابق.

(2) نعتقد أن الحقبة العبيدية هي وعاء النضوج لبدایات الرمزية الاعتقادية، إن كان للشمس أو القمر، لرمز الرياح والعواصف والظوفان، بالإضافة إلى استمرار القدسية للثور والأسلاف والأم الولود. بل إن شدة التحريض المناخي والبيئي قفزت بالفكر والتخيل الإنساني هنا إلى محاولات ترميز وتألّيه للظواهر الطبيعية، وسوف نعثر عليها في العصر اللاحق كرمزية المياه في إنكي مثلاً.

استنتاجات «وولي»: لم يتضح إلى الآن ما إذا كان الناس في العهد العبيدي سومريين أم لا، ولكن ما هو جلي وواضح هو أنَّ الحضارة التي شيدها لم تكن عاقراً، لقد عاشت الطوفان، وأدت دوراً كبيراً في تطور الحضارة السومرية.

بالإضافة إلى أنهم أورثوا السومريين أسطورة الطوفان، وهم من عاش هذه الكارثة، وبوسعنا الآن أن نجزم بكل ثقة أن مؤسسي الحضارة العبيدية الذين اجتازوا الطوفان لم يكونوا من السومريين.⁽¹⁾

لماذا كان علينا ذكر الطوفان العبيدي؟

الجواب كامن في الحقة اللاحقة له، فالأدلة الأثرية لم توضح أيَّ تغييرات ديمغرافية بين الثقافة العبيدية وما بعدها، وبما أنَّ أخبار الطوفان الواردة في الأساطير الرافدية تشير إلى أنَّ ناجياً طاهراً عفيفاً شريفاً أنقذ البشر والحيوانات ولم ينقذ النبات آنذاك⁽²⁾، فهذا يمنح دلالة على استمرارية بشرية لناجين، و جرى إسباغ العاطفة الجمعية الخائفة من قوى الطبيعة ورموزها فيما بعد عليها ووثقت كتابياً في منحى اعتقادي صارم يفصل بين الخير والشر بسكين إلهي لا رادَّ له.

انعدام وجود متغيرات ديمغرافية وأثرية تجعلنا نميل إلى استمرارية تواصلية ديمغرافية عبيدية وما بعدها صعوداً نحو نشوء المدن الأولى، فالجنوب الرافدي شهد تطوراً محلياً بشرياً بصرف النظر عن المُسمَّيات التي ذُكرت آنفاً، والحال أنَّ المشرق كاملاً امتازَ بهذه التواصلية التي ينبغي إدراكها وفَّقَ ناظم علمي تاريخي اجتماعي تفاعلي. فإن كانت الثقافة النطوفية شكلت رحمَ الزراعة في الجناح الشامي فإنَّ الثقافة العبيدية هنا قفزت بالقرى إلى أن تصيرَ مدنًا في الجناح الرافدي.

(1) أ. كوندراتوف - مرجع سابق.

(2) لا نخفي في هذا المجال التابع التاريخي لظهور الناجي الشريف العفيف من زيوسودرا الوارد في وثائق مدينة نيور الرافدية، ثمَّ أتناهستم الوارد في ملحمة جلجامش، فنوح في الأديان التوحيدية اللاحقة، يبدو أن الملك الخاشع زيوسودرا والشيخ الخالد أتناهستم والشيخ التقى نوح وجه واحد شخصية واحدة، ويحملون أسماءً مختلفة على حد قول كوندراتوف «الطوفان العظيم».

ما المدينة؟

منذ أن فرضت الزراعة ثبات المجتمع في المكان لغايات الوفرة والأمان توسعت معالمها الاجتماعية والاقتصادية والاعتقادية والفنية والتجارية وحتى التفاعلية مع المجتمعات الزراعية الأخرى، والثبات الاجتماعي في المكان وتداعياته أدى إلى نشوء نوع من القرى الكبيرة فالمدن؛ لكن للمدينة حكاياتها وليس كل مدينة ابنة قرية، فثمة مدنٌ مؤسّسة⁽¹⁾ ومدنٌ موروثة ومدن مؤقّته، وهكذا في الاتجاه نحو مدن الفرات الأوسط مثلاً في الجناح الغربي للهِلال الخصيب نجد موقعَ حبوبة الكبيرة الذي أنشئ وفق مخطط سابق في النصف الثاني من الألف الرابع ق.م، ثم سنجد مع مطالع الألف الثالث ق.م تأسيس مدينة ماري على الفرات الأوسط وفق مخطط سابق أيضاً، هذه مدن مؤسّسة غير موروثة، في المقابل إنَّ مدناً مثل أرووك واريديو وأور وتبة كورا في الجنوب الرافدي، عدا الأخيرة، هي في شمال بلاد الرافدين، نجد أنَّ لها استمراريةً تاريخيةً منذ حقبة العبيد حتى انبثاقها مدناً موروثة.⁽²⁾

(1) Jean Metral يطرح في بحثه عن المدينة في سوريا وأقاليمها مصطلحَ المدن المؤسّسة والمدن الموروثة. (2) اريدو تُعدُّ من أقدم مدن جنوب الرافدين، قدّم موقعها 18 سوية أثرية، والجميل هنا أن زقورة المدينة الضخمة قامت على سويات 18 معبداً تعاقبت في مكانها منذ أقدم العصور، والجدير ذكره هنا: أنَّ ثمة صيغة معمارية وتقليدَ مشرقين عبر العصور، وهو بناء المعبد فوق معبد سابق والقصر فوق سابقه أيضاً، وبالنسبة إلى مدينة أوروك، بدا أنَّ آثار ثقافة المدينة أعقبت مباشرة الزمن العبيدي. ويشار هنا إلى أنَّ ظهور المستوطنات في المدينة يعود إلى الألف الخامس ق.م. ويبدو أنها وصلت في الحقبة العبيدية إلى صفة المدينة.

غولاييف أشار إلى أنَّ مساحة المدينة آنذاك زادت على 80 هكتاراً وسكنها أكثر من 10000 نسمة، أما مدينة أور فذكرنا أنَّ ثمة انقطاعاً جرى في زمن الطوفان العبيدي، ثم سُكّن الموقع من جديد، عموماً عناصر التمدن في الجنوب الرافدي استغرقت وقتاً طويلاً في عمق الثقافة الزراعية وتحول القرى والبلدات إلى مستوطنات فمراكز مدنية نحو المدن الأولى في الألفين الرابع والثالث ق.م.

لـ«بوترو» هنا وجهة نظر في نشوء المدن: قرابة بداية الألف الرابع ق.م، وُجِدَت وجهاً لوجه في القسم الجنوبي للرافدين مجموعتان من السكان: إحداهما غربية عن الأخرى، السومريون من جهة، ومن جهة أخرى ما اصطُح عليهم بالأكاديين.

المؤكد أنَّ احتمالات تلقيهم لابتكارات تنسب إلى سابقهم ومحافظة عليهم عليها بدءاً بتقنيات الري وحفر الأقبية، ولكن هناك غيرها أيضاً، فمفردات صناعة البيرة ليست أكادية ولا سومرية، وحتى المدن الأولى ثمة احتمالاً أنها أُقيمت قبل اللقاء السومري- الأكادي؛ لأنها تحمل أسماء غير قابلة للتحليل، لا باللغة السومرية ولا باللغة الأكادية. ومع ذلك إنَّ هذا اللقاء في نظرنا هو الذي يشكل نقطة انطلاق حضارة ريفية ومبتكرة. انظر: بوترو- بابل الكتاب المقدس.

يذكر هنا أن أسماء ملوك اريدو الذين حكموا بعد الطوفان بحسب قائمة السومرية كانت أسمائهم أكدية، ويشير د. مرعي إلى احتمال أن الأكديّة كانت معروفةً في بلاد الرافدين حتى قبل ابتكار الكتابة في نهاية الألف الرابع ق.م. (اللسان الاكادي).

ولكن ما مقومات المدينة؟

المدينة مساحة، معظم المدن المعتبرة تفوق مساحتها 50 هكتاراً، ولهذا حين انفعل العقل الأثاري العلمي في وصف مدينة أريحا أول مدينة في التاريخ، انفعل بما يفوق العلم، ولو أن الموقع كان مُحصَّناً ويمارس التجارة أكثر من الزراعة.

والمدينة أنظمة اقتصادية اجتماعية اعتقادية، وشبكة أنظمة لتفاعلاتها فيما بينها وبين المدن الأخرى ولا مانع من سور حماية، نحن هنا في تفيصل وتركيز أمام معبد ثم في وقت لاحق، مع نشوء السلطة الزمنية والسوق، وتبادل الخبرات والآراء والمواد، وهذا ما بدأنا نتلمسه في المشرق قرابة 3500 ق.م، في مدن أوروك وحبوبة الكبيرة وعارودة وبقرص وتل ليلان، وتل براك، والمشنقة، ولكن الثقل الحضاري كان في مدن الجنوب الرافدي فاعليّة ومساحةً وقوة.

قال «فاغان»: المدينة كيان يختلّف عن القرية، ليس في أنها أكبر حجماً؛ بل تتطلب وجود التخصص الاقتصادي ومركزية في التنظيم الاجتماعي، وهذا الحجم من العمل يؤدي إلى نشوء كيانات سياسية تكبر لتصل إلى الدول- المدن، ثم في النهاية إلى امبراطوريات، ولكنها بسبب حجمها غدت هي نفسها مستهدفة لضغوط بيئية أكبر حجماً. (الصيف الطويل).

«جان كلود مارجرون» يضيء في فكرة مهمة هنا: «مع ظهور المدن يبدو أن انعزال الجماعة خلف جدار حماية أصبح شبه قاعدة.⁽¹⁾

فنشوء المدن الأولى إذاً يستند إلى معايير وتراكمات تفاعلية للبيئة الطبيعية وفق تطورات في المكان والزمان. وفي البدء كان المعبدُ صديق السلطة التي لم تولد بعد، والحيوية الاجتماعية والزراعية والاقتصادية والتجارية في اندفاع أدى إلى جملة إبداعات جديدة، منها: الكتابة والأختام الاسطوانية، وتطورات في وسائل النقل، والفن والمعتقد.

(1) - انظر: بحث مارجرون من «القرية إلى المدينة... استمرارية أم انقطاع؟ كتاب «من القرية في العصر الحجري إلى المدينة السورية الرافدية».

ولعلَّ «هراري» قد أوقعه مطب اختراع الكتابة حين عدَّ اختراعها هو الذي أدى إلى ظهور المدن والممالك والإمبراطوريات:

«في الفترة بين 3500 و3000 ق.م اخترع بعض العباقرة المغمورين نظاماً لتخزين العمليات خارج أدمغتهم، نظاماً صُمم خصيصاً للتعامل مع الكميات الضخمة من البيانات الحسائية، وبذلك حرر السومريون نظامهم الاجتماعي من محتويات الدماغ البشري، وفتحوا الطريق لظهور المدن والممالك والإمبراطوريات، سُمي نظام معالجة البيانات الذي اخترعه السومريون (الكتابة)»⁽¹⁾.

اختراع الكتابة، في رأينا، كان نتيجة لتصاعد حيوية المدن في منتصف الألف الرابع ق.م، لا سبباً لنشوء المدن فيما بعد؛ لأنَّ الكتابة بمفاهيمها وجدواها الحقيقية لم تثمر باختراعها إلا عندما ألحقت الكتابة المسمارية باللغة.⁽²⁾

وبالعودة إلى مواقع النصف الثاني من الألف الرابع ق.م، ذكرنا أنَّ منطقة الجزيرة الشامية ومنطقة الفرات الأوسط شهدتا ولادة مواقع لم تصل -في رأينا- إلى المدن بعد، كحبوبة الكبيرة الجنوبية 3500 - 3350 ق.م، وجبل عارودة⁽³⁾، وتل قنص في حوض الفرات، وتل الحاج، وتل الشيخ حسن، وتل براك في الجزيرة السورية العليا، وثمة انتشارٌ حتى حوض الكوم في البادية الشامية.

يبدو أن مدينة حبوبة الكبيرة تمنح تصوراً عن نواة المدن؛ حيث شُيِّدت وُقِّفَ مخطط سابق، بلغت مساحتها 18 هكتاراً، وسورت المدينة من جميع اتجاهاتها عدا الجانب المطل

(1) انظر: العاقل - مصدر سابق.

(2) لمتابعة المناقشات هنا: يُشكل كتاب «بابل والكتاب المقدس» حوار مع جان بوترو، مدخلاً مهماً في مسألة اختراع الكتابة وجدواها الحقيقية. يقول «بوترو»: الكتابة في حالتها الأقدم لم تكن أكثر من عملية تقوية ذاكرة، كانت عاجزة عن تعليم شيء مجهول، شيء جديد، كانت صالحة فقط للتذكير بتجربة معاشة». ونحن نعلم أن تبلور الكتابة وتجاوزها لمفهوم الحساب والبيانات الاقتصادية، تم بعد 2650 ق.م، حيث أصبحنا نقرأ نصوصاً في الميثولوجيا والآداب والتعاويد وغيرها، وكان علينا الانتظار حتى نهاية الألف الثالث ق.م؛ حتى نقرأ شعر المشاركة ونشرهم.

(3) يشكل موقع عارودة مركزاً رئيساً مهماً في هذه الحقبة، فهو يجثم فوق جبل عارودة ويتحكم بحوض النهر.

يعتقد د. علي أبو عساف أن السلطة الأعلى كان مقرها هنا، وكذلك كبير الأرباب، أما العامة فقد أقاموا على ضفاف نهر الفرات. ويشير د. كزافي إلى أن معابد عارودة كانت تشكل المنطقة الدينية لسكان حبوبة الكبيرة في نهاية الألف الرابع ق.م.

على الفرات، وقامت هذه المدينة باتصالات تجارية مع مدن الجنوب الرافدي وساحل المتوسط. وتل براك في الجزيرة العليا الشامية بلغت مساحته زهاء 43 هكتاراً، ما يمنحه صفة المدينة آنذاك، وأصبح في منتصف الألف الرابع ق.م مركزاً دينياً تتبع له عدة قرى.

بداية استيطان تل براك تعود إلى الألف السادس ق.م، حيث يقع على نهر الخابور في الجزيرة الشامية العليا، قدّم فخاريات كثيرة، ومبانٍ مهمة ومعبدًا يُذكر بمعابد جنوب الرافدين.

في معبد العيون، ويؤرخ قرابة 3000 ق.م، عُثِرَ على تماثيل رمزية غريبة المواضيع وموضوعة على قواعد مرتفعة، للواحد منها عينان أو أربعة عيون، ويبدو أنّ ثمة إحياء على وجود تقديس للآلهة «إنانا» فوجه التمثال هنا المصنوع من الرخام لا يختلف عن تماثل الرأس في أوروك إلا بحيوية التعابير التي أعطتها ترصيع العينين.⁽¹⁾ شيء آخر أبانت عنه مكتشفات تل براك، هو رسوم محفورة على الصخور تتمتع بخيال فسيح.

اللقى الفنية في هذا الموقع تُدَكَّرُ بالتنوع والغزارة الفئتين، ومعبد «إنانا» زِينَ القسم العلوي منه برسوم من الذهب ومسامير من الفضة. وما يُميِّزُ هذا الموقع هو العثور على لوحات تصويرية تعاصرُ كتابات أوروك التصويرية، وهذا يقدم فرضية أنّ الكتابة في أساساتها ربما كانت من امتزاج شامي- رافدي، سوف نتحدث عنه لاحقاً، لا سيّما أنّ جبل عارودة قدّم أيضاً لوحات تصويرية كتابية عليها طبعه أختام أسطوانية تشبه لوحات حبوبة الكبيرة وأوروك.

ثقافة الألف الرابع ق.م صعوداً إلى 3100 ق.م، التي أطلق عليها «ثقافة عصور أوروك» بحسب المكتشفات الطليعية زمنياً في الجنوب الرافدي، يبدو أنّ معطيات جديدة ربما تغير التفكير السائد في نشوء المدن الأولى. تلك المعطيات الجديدة تظهر نواتها في منطقة الجزيرة الشامية ومنطقة الفرات الأوسط والأعلى.

لمقاربة أكثر وضوحاً حول جدلية العلاقة بين ثقافة أوروك في هذا العصر مع الشمال الشرقي الشامي ومستوى الفرات الأوسط، ثمة أفكار تناقش أنّ سكان الجنوب تحركوا شمالاً وأسسوا مراكز تجارية مثل: حبوبة، القناص، تل الحاج، وجبل عارودة وغيرها من

(1) انظر: آثار الممالك القديمة في الجزيرة وطور عابدين- د علي أبو عساف.

المواقع كتل الشيخ حسن، مثلما أقاموا موقعي القريا والرمادي على الفرات الأوسط بين ماري وترقا، كذلك ربما أسسوا مراكز في جرابلس تحتاني وكركميش وسميساط (شمشاط) في منطقة الفرات الأعلى، كما اتجهوا إلى موقع الكوم أيضاً.

في مقابل هذا واتجاهاً نحو الجناح الشامي، ولا سيما جنوبه، نجد المنطقة الممتدة من جيبيل شمالاً حتى خليج العقبة جنوباً تأثرت حضارياً بمصرَ بالعلاقات التجارية.

كما سيستوقفنا موقعٌ معاصرٌ تقريباً لموقع مدينة حبوبة كبيرة في شمال شرق الأردن، يعود إلى منتصف الألف الرابع ق.م. والموقع يُعتدُّ أنه مدينة، كشفت التنقيبات عن سورٍ وسدودٍ تخزينية، وموقع جاوة الذي يصفه الباحث أنه أخ لموقع حبوبة كبيرة: سوريا. (انظر: كفاي 2011).

في المقابل ثمة رأيٌ آخر هو أن قوة ثقافة أوروك جعلت المواقع الشمالية تتماهى بالأقوى دون أن تؤسس أوروك أية مراكز، وأيضاً هناك رأيٌ عن إقامة الجنوبيين لمراكز، وقد استخدموا السكان المحليين في الشمال.

الدكتور علي أبو عساف يعتقد أن هذه المحطات التجارية الشامية أقامها السكان المحليون غايةً تجارية تربط الجنوب الرافدي بمواقع الشمال وكذلك نحو المتوسط.⁽¹⁾

ثقافة هذه الحقبة انتشرت في الجزء الشمالي من بلاد الشام حتى أطراف الأناضول، مع ملاحظة تجانس الحالة الاعتقادية والفكرية والعادات والتقاليد التقنية. والمرحلة المبكرة من ثقافة أوروك شملت المنطقة الممتدة من مدينة جيبيل على الساحل الشرقي حتى شرق الرافدين وجنوب غرب إيران وجنوب الأناضول.

حين جفَّ المناخ هُجرت المواقع الشمالية، ويبدو أن انسياحاً بشرياً حصل من مواقع الشمال تجاه المواقع الرافدية الجنوبية⁽²⁾؛ ولكن إلى الشمال الشرقي الشامي ثمة معطيات تتكشَّف قد يؤدي تكرارها إلى تغييرات معرفية مهمة في نشوء المدن الأولى من حيث

(1) الدكتور علي أبو عساف- مصدر سابق.

(2) ذكرنا سابقاً أنه بين حقبة 3200 و3000 ق.م حصلت أزمة مناخية (جفاف وبرد سريعان)، أدت إلى اضطرابات ونتيجة لشدة الحالة المناخية من جفاف تهاوت المواقع، وحصلت انسياحات سكانية من المواقع الشمالية إلى المواقع الجنوبية، ما أدى إلى ازدياد عدد السكان في أوروك وغيرها من المدن، كما تشكلت مدنٌ جديدة في المناطق البينية بين المستوطنات الأصلية الكبيرة. وهنا في 3100 تبلورت مدن الجنوب الرافدي كحالة حضارية.

أسبقيتها. هنا في حوض الخابور يتم اكتشاف آثار إحدى أقدم مدن العالم التي سُكنت منذ النصف الأول من الألف الرابع ق. م، 4000 - 3500 ق. م، وبلغت أقصى اتساع في الألف الثالث ق. م. (أكثر من 103 هكتارات).⁽¹⁾

موقع حموكار يعود في سكانه تقريباً إلى 5000 ق. م، وربما يعيدُ اكتشاف هذه المدينة النظرُ إلى منطقة الجزيرة السورية التي تحوي تلالاً كثيرة تنبئ، إذا نُقبت، عن معطيات جديدة قد تقلب ما كان بدهياً إلى فكرة وجود مدن شمالية تملك الأسبقية في المشرق.

حموكار في البدء كانت مساحتها قرابة 13 هكتاراً، ويبدو أنها مضت في اتساعها، لولا أنّ حرباً مدمرةً أنهت فاعليتها، وكانت مساحتها تتجاوز 100 هكتار. تقول آثار المدينة: أدت حرائق وحرب إلى تدميرها، قُذفت بكرات بيضوية مختلفة الأحجام، مات كثير من البشر، ماتت حموكار هنا في الشمال عام 3500 ق. م، ووُلدت أوروك هناك في الجنوب.

أخيراً: يُطلَق على النصف الثاني من الألف الرابع ق. م، في منتصفه تسمية «العصر البرونزي» بدءاً من المبكر وهكذا، وها نحن أمام تطورٍ مهم في تقنية جديدة ستحلُّ بعد استعمالِ النحاس.⁽²⁾

ذكرنا سابقاً أنّ البرونز صُنِع من تزاوج النحاس والقصدير، وهذا ربما عائد إلى الصدفة الجيولوجية؛ إذ إنّ خاماتهما تتجاور فيما بينها، وتبين في تقنية البرونز منذ اكتشافه عام 3800 ق. م أنّ استعمال نسبة من القصدير تعادل 15 % مضافة إلى النحاس تحقق أفضل جودة للبرونز من ناحية دقة صبه وصلابته. (برونوفسكي - ارتقاء الإنسان).⁽³⁾

في المقابل تقف أوروك في الجنوب الرافدي مدينةً مكتملةً متميزةً بمعايير ضخمة أُنشئت بأسلوبٍ معماريٍّ احترافيٍّ، ويبدو أنّ المعبد الكلسي في هذه المدينة الذي حوى مصطبةً مشيدةً بالحجر الكلسي الذي تفتقده المدينة، وقد جرى استحضاره من مكامن هضبة شبه

(1) عيد مرعي - تاريخ سوريا القديم - وزارة الثقافة السورية 2010.

(2) الاستعمال الفعلي للبرونز يعود إلى مطلع الألف الثاني ق. م في حين جرى إطلاق التسمية كعصر برونزي قبل ذلك. انظر: كفاقي، 2011.

(3) الإشارة هنا إلى أنه بالإمكان تصنيع البرونز من النحاس والزنبرخ إن ندر القصدير، لكن الأبخرة الناتجة عن العملية تسبب التسمم بالزنبرخ، فمن المحتمل أن يكون الفنيون هم الذين اختفوا وليس الفن؛ لهذا لم تستمر هذه الصناعة. (إبداعات النار).

الجزيرة العربية على بعد لا يقل عن 60 كم، هنا في أوروك بدأت الظهورات الأولى لفنّ الموزاييك أيضاً.

الحضور العمراني الاعتقادي في أوروك كفيلاً بأن يدفعنا إلى مناقشة الحالة الاعتقادية التي تعود جذورها إلى العصر العبيدي على أقرب تقدير، وهذا ما سنناقشه في التفصيل الاعتقادي لمدن المشرق لاحقاً.

وإذا تفحصنا موقعَ مدينة جيبيل في لبنان فسوف نكتشف مقبرةً تعود إلى ما بين 4000 و3100 ق.م، وتقدم دليلاً على تقليدٍ دُفني مهم، حيث دُفِن الموتى داخل جرار كبيرة بعد قصّ أحد جوانبها لإدخال الجثة، ثم استفادوا منه غطاءً، وزُوِّدَ المدفنُ بأوان فخارية وأسلحة مصنوعة من النحاس والحجر، أما قبورُ النساء فاحتوى الأثاث الجنائزي على حلي وأدوات زينة وتبرج.

التشابه بين مواقع الجناح الشرقي والغربي للهِلال الخصب أكدته المعطيات الأثرية في أوروك والمواقع الشامية المزامنة له، إن كان في مخططات المعابد أو الأختام الأسطوانية والعمارة عموماً، كذلك في الفخار.

تعاصرت ثقافة أوروك مع مواقع شامية: في حماة الطبقة k، أجاريت نهاية الطبقة b III، الطبقة L- والطبقة F في سهل العمق، وبداية الطبقة الأولى في تل مردوخ. كما أنّ سهل البقاع في لبنان في هذه الحقبة كشف عن وجود نظام سياسي، وثمة مركز ارتبطت به عدة قرى، لا سيما في حوض نهر الليطاني، ولم ترتقِ البقايا الأثرية في هذه الطبقات إلى مستوى مواقع الفرات الشامية.

مدن المشرق الأولى - حين تمدّنت الآلهة:

قالت وثائق المشرق: «لقد قضى الطوفانُ على الجميع، وبعد الطوفان الذي قضى على الجميع، نزل الحكمُ الملكي من السماء من جديد، وأصبحت مدينة كيش مقرّ حكم الملوك». فقبل الطوفان كان الحكم الملكي قد «هبط من السماء» أول مرة في مدينة أريدو.⁽¹⁾

(1) قائمة الملوك السومرية كُتبت في نهاية الألف الثالث ق.م، تحدد القائمة أسماء الملوك وأوقات حكمهم، جاء في القائمة: «ثمانية ملوك فقط وخمس مدن، وبعدها وقع الطوفان، وبعد ذلك نزل الحكم الملكي من الأعلى»، ثم تستمر القائمة بسرد أسماء الملوك الذين حكموا ما بعد الطوفان، وهذه الوثيقة قدمت أسماء مدنٍ مشرقية رئيسة مثل: سيبار، شوروباك، أور، كيش، أدب، ماري، أكشاك، لاجاش، إيسين، لارسا، ومدن أخرى.

وثيقة أخرى تقول: «حينما... هبطت السلطة الملكية من السماء، حينما هبط التاج الرفيع والتاج الملكي من السماوات، وضع الإله الشعائر والقوانين الإلهية العليا، وأسس خمس مدن في أماكن مقدسة ومنحها أسماء وجعلها المقدسات الرئيسية». (غولايف).

هذا ما تقوله وثائق المشرقيين آنذاك، ولو بعد حين من نشوء المدن، تدهشنا هنا قصة لملمة التراث المشرقي من ثقافة لاحقة إلى ثقافة سابقة، وهذا ما استمر حتى الألف الأول قبل الميلاد، لنا أن نتذكر مكتبة آشور نبينعل، لعل هذا يمنحنا دليلاً مهماً على التواصلية الانسيابية التاريخية المشرقية عبر العصور.

وبالعودة إلى مدن الآلهة المشرقية يقول العلم: إنه مع نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق.م ظهرت السلطة بمعناها الزمني، وبدأت دعائم سلطة الدولة (دولة المدينة)؛ ولكن للمشرق رأي آخر، ولا سيما جناحه الرافدي.

«إن الثقة التي كانت تبديها المدينة في تنظيمها ومؤسساتها ومواضيعها مغمورة بالخوف، هذا التوتر بين الشجاعة والإحساس باعتماد الإنسان على قدرة خارقة أوجد توازناً عجباً خاصة في بلاد الرافدين، وهي فكرة يعالجها لاهوتهم معالجةً شديدة التعقيد، لكنها تنم عن تنظيم عملي للمدينة، إن المدينة تحكمها الآلهة، هكذا كانوا ينظرون إلى المدينة...»⁽¹⁾

في تفسير ظاهرة التدين الصارم الذي أبدته ثقافة المشرق، لا سيما في جناحها الرافدي وبعض الجناح الشامي، نلاحظ مجموعة أفكار تُسهم في الإضاءة عليها، ولعل الركيزة الأولى كانت في أحوال المناخ، ومن ثم البيئة الطبيعية، ثم طبيعة التفاعل بوجهيه السلبي والإيجابي «الإنسان والطبيعة»، فالحدّة الرافدية لم تكن ذات منشأ نفسي أو جمعي عرقي بقدر ما كانت استجابةً لتحريضات مؤلمة سببها المناخ ثم البيئة الطبيعية، وهذا ما أثر في تكوين الشخصية الرافدية شأنًا مكتسبًا.

فعلٌ طبيعيٌّ ورد فعلٌ بشريٌّ، والبقاء لكليهما؛ لكن ثمن البقاء الإنساني كان مداراة الخوف وعدم الطمأنينة بالاستعانة بالسماء، وبالتصورات الأولى لرمزيتها، ولساكنيها وأمرجتهم.

خضع الإنسان ليستمر، قالت ووثاقه: أنا السماء، لن تستطيع النيل مني

أنا الأرض، لن تستطيع سحري.⁽²⁾

(1) انظر: فجر الحضارة في الشرق الأدنى - فرانكفورت - ت: ميخائيل خوري - دار مكتبة الحياة - بيروت.

(2) ثوركولد جاكوبسن - ما قبل الفلسفة - ت: جبرا إبراهيم جبرا - المؤسسة العربية - لبنان - 1980.

حين قلبنا مواقع ومعابد الثقافة العبيدية، أدهشتنا معابدٌ تقومُ فوق بعضها، كما أدهشنا الماء في طوفانه، وفي فصل السويات الأثرية عن بعضها.

هذا الغضب الطبيعي زاد استجابة المجموع العبيدي، وتم اختزانه في الذاكرة الجمعية؛ ليُكتب بعد حين عن غضب إله من جعجة رعاياه الفاسقين والمزعجين. كلُّ الأشياء تُرمى على السماء في الشرق منذ الأزل! مات الطوفان «بعد سبعة أيام وسبع ليال⁽¹⁾»، وقامت قيامة المدن الرافدية الجنوبية بالتدرج، مدنٌ موروثه بعد انقطاع، ومدنٌ أُسست كنداء وحياء، ولضمان البقاء والاستمرارية ابتكرت العاطفة المشرقية الرافدية حكايا.

الوثائق الرافدية مع وعي الكتابة الوجدانية ذكرت أن إله السماء كان مؤسس المدن الأولى؛ لهذا سنقرأ تصوراتهم:

مدينة اشنوناك «وادي ديالي» أطلال تل أسمر.

مدينة الإله تشباك.

مدينة سيار: آنو - شمش «أوتو».

مدينة كيش: زبابا.

مدينة نيبور: انليل.

مدينة أوروك: آنو وإنانا⁽²⁾.

مدينة أوروك: آنو وإنانا.

مدينة أور: أنكي - آنو - نانا «سين».

مدينة أدب: دينكير ماخ.

مدينة أوما: شارا.

(1) الحقيقة أننا هنا أمام التعبير «سبعة أيام وسبع ليال» نقف مستفسرين أن قصد المشرقي القديم سبعة نهارات وسبع ليال، فيصير زمن الطوفان سبعة أيام، أم أنه قصد في سبعة أيام النهار والليل، فنكون أمام زمن طوفاني يُقدر ب أربعة عشرة يوماً؟

(2) يعتقد هنا أن وجود إلهين يعود إلى اندماج مدينتين في واحدة، والأقوى هي أوروك بإلهين: آنو والمدينة المؤسسة المجهولة الاسم، مدينة إنانا «بعضهم يشير إلى مدينة كلاب». وهناك مدن أخذت عدة أسماء آلهة بحسب العصر.

مدينة بابل: مردوخ.

مدينة لاجاش: ننجرسو.⁽¹⁾

في مقارنة لفهم الآلية الذهنية المشرقية في علاقة الألوهية بنشوء المدن، كون المدينة نتاجاً إلهياً لا إنسانياً، ينظرُ المشرقيُّ آنذاك إلى أنَّ الإلهَ أنو، سيدُّ الآلهة، وهو «الملك والحاكم الأقدم»، فهو إذاً النموذجُ البدئيُّ للسلطة والحكام.

والشارات التي ترمز إليه، كما صاغها العقلُ الإنسانيُّ، ترمز إلى جوهر الملك: صولجان- تاج- رباط رأس- عصا الراعي. وهي شارات لا تُمنح ولا تُستمدُّ إلا منه. شارات سماوية وُجِدَتْ قبل أيِّ ملكٍ بين البشر.

حين وُلدت الملكية بعد الطوفان صارَ كلُّ ملكٍ أو حاكمٍ يمثِّلُ حُكْمَ أنو الإلهي، هي حالةٌ من تماهٍ بين مقدسٍ وديويٍّ، صاغها الديويُّ كي يُثبِتَ قواعدَ السلطة وتنظيمَ المدن وعلاقاتها وحروبها مع المدن الأخرى، وهذا سوف نجدُه من ذرائعٍ في الحروب المستمرة بعد حين بين دول المدن في الألف الثالث ق.م، وكذلك بين ممالك الألف الثاني ق.م.

هذا الامتزاج الديوي-الإلهي توثقه أسطورة «صعود إنانا»، حين تقول الآلهة لأنو:

«ما تأمر به يتحقق

وما قول السيد والأمير إلا

ما تأمر أنت به، وما توافق أنت عليه

يا أبا الآلهة، إن أمرتَ

(1) المدن الأولى في الجنوب الرافدي، اريدو، أوروك، نيبور، أور، لاجاش، وتنفرد اريدو ونيبور من بين المدن بصفتها الدينية؛ فقد كانتا مركزين اعتقاديين حتى النهاية، وهذا ما يفسر عدم وجود مطامع لهما، وستستمر هذه الظاهرة الاعتقادية حول التأسيس الإلهي للمدن المشرقية بعد أكثر من ألف عام، حيث سنجدُ أنَّ ملك ماري «يخدون ليم» ينشئ معبدَ شمش في ماري، وجاء في الوثيقة: «منذ أن بنى الربُّ مدينة ماري»، كما تستوقفنا أهمية مدينة ترقا (تل العشارة، وتوتول) (تل البيعة) كمركزين دينيين في الألف الثالث والثاني ق.م.

للمزيد: يمكن مقارنة «ديانة بابل وأشور- صموئيل هوك.

المدن الأولى- (غولايف).

سومر- فنون ومهارتها... أندريه بارو.

حضارة مدينة ماري- د. بشار خليف.

فأمرُكُ أساسُ السماء والأرض.»⁽¹⁾

نقرأ أيضاً:

«أنت حاكمُ السماء والأرض،

بكلمة منك وُجد البشر في الكون.

أنت الذي تعين أو تعلن أسماء الملوك والأمراء»⁽²⁾

إذاً فالمدينة مشروعٌ إلهي بطريقة إنسانية، وهذا التصور بشريٌّ أدى إلى تأليه السلطة في نوعيها الزمني والاعتقادي. نذكر جميعاً كيف وقف حمورابي بعد ألف عام تقريباً أمام الإله شمش ليأخذ القوانين منه بأمرٍ من آنو وانليل.

لا يفوتنا هنا نصٌّ مشرقِيٌّ طريفٌ يبدو أنه يكشفُ الغطاءَ عن آلية الذهن الإنساني آنذاك في استعارته للسماء يقول: «أمي سومر، أيتها الأرض العظيمة بين كل أراضي الكون، أنت التي يغمرك ضوء لا يخبو، يا من تُسنن القوانين الإلهية لكل الشعوب من الشرق إلى الغرب. (غولايف).

الذي يبدو أنه كما كانت المدينة تصوروا السماء وعالم الألوهية ورموزه، فهو إسقاطٌ أرضيٌّ على السماء. «بيتر فارب» يحللُ ظاهرة تأليه السلطة على أن الامتياز السياسي لبعض أفراد المجتمع تطور إلى مفهوم حكم إلهي. (بنو الإنسان).

«ف. تالون» يفهمُ الطبيعة الفكرية المشرقية في الوثائق: جميع الأحداث في بلاد ما بين النهرين يتم تأويلها: الظواهر المناخية والفلكية والولادات الغربية عند الحيوانات والبشر وتصرفات الحيوانات، وطرق بناء المدن وحتى طريقة التحية في الشارع.⁽³⁾

لا يفوتنا هنا أن نذكر أيضاً أنه حتى سقوط مدينة أو تدميرها كان يُعزى أحياناً إلى غضب إلهي، والوثائق السومرية ذكرت أن دمار أكد كان بسبب ارتكاب ملك أكد «نارام سين» جريمةً

(1) انظر: توركلد جاكوبسن- أرض الرافدين- ما قبل الفلسفة.

(2) انظر: الديانة عند البابليين- جان بوترو- دار الإنماء الحضاري.

(3) تالون- النصوص الأدبية والمساهمة الثقافية- سوريا وأصل الكتابة.

دينيةً في مدينة نيبور المقدسة حيث دمرها، وهذا ما أغضب الآلهة فاجتمعوا وأجمعوا على تدمير أكد وكل أشكال الحياة فيها.⁽¹⁾

بهذا المنهج الأسطوري الذهني في تأسيس المدن المشرقية ونشوئها، لا سيّما في جنوبه، ثم في استعارة هذا النهج ليعم مدن المشرق كافة عبر العصور، نستطيع فهم كيف تمدنت الآلهة في المشرق، على الأقل في العقل الإنساني، وكيف تألهت المدن منذ نشوئها، وكيف صار الحاكم يد الإله في الأرض وصوت الإله في المدينة أو المملكة، حتى في طغيانه أو حكمته، كان نائب الإله في المملكة الأرضية.

وإذا تأملنا المدينة في فضائها الجغرافي سنجد مركزاً مدينياً يشتمل على معابد أو تجمعات لمعابد عديدة، ومؤسسات تُعنى بالشأن الاقتصادي والخدمي وشؤون الري والسقاية، وإذا كانت المدينة مسورة فحولها تمتد الحياة الزراعية التي تستمد المدينة منها عالمها الغذائي، بالإضافة إلى مجاميع قرى تدور في فلك المدينة المركزية المستندة حكماً إلى الماء كنهر الفرات جنوباً، والخابور والفرات الأوسط شمالاً.

المعطيات تشير إلى أنه في أواسط الألف الرابع ق.م كان الجنوب الرافدي يشتمل على سبع عشرة مستوطنة وثلاث بلدات ومركز طقوسي. ويقدر وسطياً عدد سكان المدن آنذاك نحو عشرة آلاف إلى خمس عشرة ألف نسمة.⁽²⁾

في فلسطين في منتصف الألف الرابع ق.م دلت البحوث الأثرية وتنقيباتها على وجود أكثر من 50 مستوطنة غدت اليوم صحراوية تماماً، وذلك بين غزة والبحر الميت في وادي بئر السبع. وحفريات موقع أبي مطر وبئر الصفدي دلت على وجود مستوطنات غنية آنذاك. (بورهاد برينتس).

(1) The Last King of Agade. Cambridge 1971 –J. Gadd.

(2) يقارب أوبنهايم إلى حد ما تخطيط المدينة في الجنوب الرافدي، إذ تتألف من ثلاثة أجزاء المدينة الداخلية «المركز» والضواحي والتخوم، وهي أراضٍ مُحاطة بسور يقع فيها المعبد أو المعابد مع قصر الحاشية ومسكن أهل المدينة عادة ما تكون أقدم جزء من المدينة، مركز إدارة المدينة يقع عند البوابة وهنا يؤدي قائد المدينة مهامه.

المدينة الخارجية: تشتمل على بيوت ومراعٍ وحقول بوصفها وارداً زراعياً للمدينة.

منطقة الحرس «KAR بالسومرية»: مركز النشاط التجاري، لا سيما الخارجي، يعيش فيه التجار الغرباء.

في نهاية الألف الرابع ق.م تقريباً حصل ما ذكرناه سابقاً، عواملٌ مناخية سببت انسياحات بشرية من الشمال إلى الجنوب، فأدى ذلك إلى زيادة عدد سكان المدن ومن ثمَّ زيادة عدد المستوطنات ونشوء مدنٍ جديدة.

أصبحنا الآن مع 3200 ق.م أمام 112 مستوطنة و10 بلدات ومدينة أوروك الصغيرة⁽¹⁾، هنا يبدو أنَّ الامتزاج الشمالي «شمال الرافدي وشمال شرق سوريا» مع الجنوب الرافدي أدى إلى نهضة الجنوب الرافدي بقوة. بعض الباحثين يتحدث عن امتزاج سومري جنوبي مع أكدي: «سامي» في هذه المدة السابقة على نشوء مدينة أكد! وقلنا: إنه ربما يكون امتزاجاً سومرياً أمورياً قديماً.⁽²⁾

ملاحظة أخيرة تختص بماهية السلطة في المدن المشرقية آنذاك.

معظم المعطيات تُقدم مكانةً لسلطة المعبد في الألف الرابع ق.م، ربما نجد في هامشها إدارات تدير الشأن العام؛ لكن القوة السلطوية كانت لدى رجال الدين والكهان.

السلطة المعبدية كانت تمارس مهامها الحقيقية والزمنية في آن واحد، وفيما بعد أدى تكريس قوة المدن وحيويتها إلى نشوء مؤسساتٍ تتلاءم مع التطور الحياتي، وظهرت مؤسسات المدينة- الدولة City State.

أصبحنا أمام ملامح سلطة مدنية إلى جانب سلطة المعبد، وظهور السلطة الزمنية إلى جانب السلطة المعبدية لم يُؤدِّ إلى خلافات أو تصارع على السلطة، بل يُلاحظ تماهي السلطتين تحت راية حاكم المدينة أو ملكها الذي كان بدوره الكاهن الأكبر.⁽³⁾

(1) غولايف.

(2) الدكتور أبو عساف في مناقشته لحيوية شاروكين الأكدي يقول: «لقد دخل شاروكين الملك مدينة كيش وكانت تخضع لملك أوروك لوجال زاجيزي، فانتزعها منه وضم الجزيرة السورية بأكملها له، ولا نظن أنه خاض معارك هنا لتحقيق الضم، كما فعل في الجنوب، فهنا وجد مناصرون له من بني قومه على ضفاف الفرات وفي الجزيرة، فموطن عشيرته القديم هو جبال بشري تحركت إليه مع غيرها من الجنوب، ثم هجرته إلى جنوب بلاد النهرين».

انظر: آثار الممالك القديمة في الجزيرة وطور عابدين - 2011 - ص 148.

(3) للمزيد: انظر: د. بشار خليف- نشوء فكرة الألوهة 2011.

نستطيع توثيق ذلك بوثائق نهاية الألف الثالث ق.م التي أشارت إلى أنّ الحاكم والكاهن كانا يسكنان في المعبد في جناح خاص سمي «غيار». وقد أمدتنا نصوصٌ عديدةٌ تفيدُ أنّ ملك أوروك كان يستقبلُ الضيوفَ والسفراءَ في فناء المعبد.⁽¹⁾

واتجاهاً نحو منتصف الألف الثالث ق.م سنقعُ على ظاهرةٍ جديدة: القصر- المعبد، هذه الظاهرة جمعت أماكنَ طقوس العبادة ومركزَ الحياة الاقتصادية والقصرَ داخل مجمع واحد هو القصر الملكي.⁽²⁾

نحن منذ الفاعلية العبيدية يمكننا أن نلمس صعودَ الرمزية في مجال المعتقدات الدينية، إنّ كانَ في أهمية الظواهر الطبيعية ومكوناتها (الشمس، القمر، الرياح، الطوفان، المياه وتوابعها).

مضى العقل آنذاك إلى تقديس الموجودات الطبيعية، وحتى تفاصيل الحياة اليومية، فثمة رموزٌ لكلِّ نشاطٍ حياتيٍّ: (المحراث، المنجل، الساقية ومجاريها) وهكذا شيئاً فشيئاً سيكتشف العقلُ هناك أنّ وراء هذه الظواهر سيبدأ، هو سيد السماء (أنو)، وهكذا ستكرُّ السُّبحة.

إذاً نحنُ في مطلع الألف الثالث ق.م، مدن مرميةٌ على جغرافية المشرق، مرتفعةٌ ألواحاً طينية نُقِشتَ عليها صورٌ ورموزٌ وحروف.

المدن كَتَبَتْ.

المشهد الديني يجعلنا أمام مدن جديدة إلى جانب مدن مستمرة من الزمن العبيدي، (تواصلية مدنية، قطعها الطوفان قليلاً. الدراسات أشارت إلى أن ما بين نهري دجلة والفرات، من بغداد إلى البصرة فقط، هناك 15 مدينة- دولة صغيرة تمتلك حكمها الذاتي، وثمة بلدات اتحدت فيما بينها لتُنشئ مدناً جديدة.

الجناح الرافدي: أورورك، أور، لاجاش، أوما، كيش، شوروباك، نيبور، أدب، أريدو.

(1) صموئيل كريمر- من ألواح سومر.

(2) يبدو أنه حين فشلت السلطة الدينية بعامل الزمن حضرت السلطة الزمنية، مثلاً: إصلاحات أوركاجينا تدخل في هذا السياق، كشرائع أو قوانين المشرق المتتالية وكذلك الثقافة الأكادية، ويبدو في تطور الحالة الدينية أنّ الدين فيما بعد حاول تجديد نفسه عبر الأديان التوحيدية في محاولة للحضور وإثبات الوجود، ثم سينشق الفكر العلماني الذي حاول جعل ما لله لله وما للسلطة للسلطة.

الجناح الشامي: تل براك، تل البيدر، ماري، ترقا، مجدو، خربة الكرك، تل الفرخ، جبيل، باب الضهرة.

شيئان هنا نقف أمامهما: إبلا التي تعود في نشوئها إلى منتصف الألف الرابع ق.م بوصفها بلدة صغيرة، وسوف ننتظر قرابة 500 عام حتى تنبثق فاعليتها التاريخية، وماري التي أنشئت دفعة واحدة وفق مخطط سابق وإرادة لإدارة مكنتها من الولادة على الفرات الأوسط. واتجاهاً نحو جنوب بلاد الشام في منتصف الألف الثالث ق.م شهد رأس النقب في فلسطين موقع وادي عربة -وُجد ولكن ربما لم يرق إلى مستوى المدينة بعد، ويبدو أنه كان يُستخرج منه النحاس ويتاجر به- وموقع عند خامات طبيعية، وموقع وادي فينان وموقع وادي افدان، في هذه الحقبة كسابقتها، كانت ثمة علاقات تجارية مع مصر، ولكن يبدو الآن أن هذه العلاقات تراجعت، فدفع الموقع إلى نقل خط التجارة إلى المواقع اللبنانية براً وبحراً.

أيضاً ثمة موقع مهم في جنوب غرب البحر الميت وهو موقع «عراد»، وهو على الأطراف الشمالية الشرقية لصحراء النقب، تُقدَّر مساحة الموقع بـ10 هكتارات، ويشتمل على خمس سويات أثرية: أولها تعود إلى العصر الحجري النحاسي. وفي السوية الثالثة المؤرخة في 3500 ق.م نعر على مبان دينية وقصر وسور يحيط الموقع. دُمِّر الموقع في 2800 ق.م تقريباً، ومع هذا استمر السكن فيه؛ حيث نعر في السوية الثانية على آثار سور طوله 1175 متراً، وسماكته 2-5 م، وارتفاعه 4-5 م، وعُزِّز السور بـ40 برجاً، وله بوابتان.

ثمة أسواق وبيوت ومجمع ديني يذكر بما عثر عليه في تل المتسلم في 3100 ق.م تقريباً، تاجر سكان الموقع مع مصر وبلاد الشام. البحوث تشير إلى تحوُّل هذا الموقع إلى مدينة وحيدة في منطقة النقب خلال 3100 - 2700 ق.م، تشمل في محيطها عدة قرى مرتبطة بها، يبدو أنها كانت تمثِّل مركزاً تجارياً وسياسياً وإقليمياً. (كفافي زيدان 2011).

دُمِّر الموقع زهاء 2700 ق.م بهجوم مصري كانت غايته السيطرة على مناجم النحاس في وادي عربة، والتدمير شمل معظم مواقع منطقة صحراء النقب؛ لكن المواقع الجنوبية الأخرى استمرت تطورها: (تل المتسلم، تل الفارعة، أريحا، خربة الزيرقون وغيرها)، وكانت تدل على سلطات تقوِّد حيوية هذه المواقع.

نحن الآن أمام مدن كأنها لم تُصدّق نفسها، مدن ضرائر، تتداخل فيما بينها الحدود والأنهار والجداول والمصالح، مدنٌ حققت التجانس الديمغرافي والتفاعل مع البيئة والسيطرة على الطبيعة إلى حد ما، لا المناخ بالطبع؛ لكنّ وعيها تقلّص إلى مستوى الوعي المدني لا أكثر، وهذا الوعي استند في مجمله إلى قوة المصالح، لا على مشاعر وطنية أو قومية.

المياه والمحاصيل والمواد الخام وطرق التجارة أربعة أسباب لصراع لا ينتهي ولن ينتهي بين مدن ضرائر⁽¹⁾، ومع هذا مثلت هذه المدن - الدول مراكز إبداع حضاريٍّ وضعت أسساً مهمةً لحضارة إنسانية، وشاركتها فيها حضاراتٌ أخرى بالتأكيد.

في تفاصيل تلك المدن الأولى قام الباحث هنري فرانكفورت بمحاولة لتحديد عدد سكان المدن المشرقية آنذاك. وأخذ مثلاً: مدن أور وأشنونا وخفاجي في الرافدين، ووجد أنّ كل هكتار احتوى 50 بيتاً تقريباً، وكلُّ بيت أخذ مساحة 200 م²، افترض بعد ذلك أن ساكني كل بيت من 6 - 10 أشخاص، وعليه فإنّ متوسط الكثافة السكانية في المدينة يعادل 300 - 500 شخص في كل هكتار.

استند فرانكفورت في بحثه إلى مثال هو: مدينتان معاصرتان لا تزالان تحتفظان، من عدة نواحٍ، بمظهرهما القديم منذ القرون الوسطى، ليؤكد استنتاجه، وجد أن متوسط الكثافة السكانية في دمشق وحلب يعادل 400 شخص في كل هكتار، وهذا يطابق افتراضه السابق.

(1) بتبلور المدن الأولى نهائياً في الألف الثالث ق.م، تبلور الاجتماع البشري المشرقي في ثلاث ثقافات:

ثقافة مدنية: تشكل المدينة مركزها. ثقافة زراعية: تشكل أيضاً المدينة مركزاً لها وتبعية الزراعة لها. ثقافة رعوية بدوية: لا مجالاً جغرافياً محدداً لها؛ لكنها تجول بين المراكز الحضارية، وتبعاً للمناخ تنتظم علاقة البداوة مع عالم الزراعة والمدن.

المناخ الطبيعي يحفز لعلاقات إيجابية نوعاً ما، مصلحة بين الثقافات الثلاث، وتالياً ربما يتحضر الجوالون ويصبحون جزءاً من الثقافة الزراعية أو المدنية، وفي المقابل يؤدي المناخ الجاف والمختلف دوره في الإساءة إلى هذا السيناريو المُفترض، وتحدث الصراعات والحروب من أجل البقاء، وقد وثقت كتابات المشرق هذه الصراعات كوثائق ماري وصراعها مع القبائل البدوية التي لم تتحضر، مع أن الديمغرافيا تشير إلى أمورٍية الجميع.

حتى أن حالات المناخ الأشد قسوة قد تسبب انهيار ممالك ومدن، ما يدفع البدويين إلى اجتياح المدن والاستيطان فيها. أيضاً نلاحظ تطور النسق البدوي وتفاعله شيئاً فشيئاً تطوراً إيجابياً، مما سوف يخلق سلالات حاكمة لممالك ومدن كما حصل مع مطلع الألف الثاني ق.م، في ممالك ومدن المشرق الأموري، وليس معنى هذا أن هذا التصنيف إطلاقي معمم، فثمة مجتمعات لم تنتقل من الصيد والالتقاط إلى الزراعة فالمدينة، سكان أستراليا الأصلية مثلاً انتقلوا من ثقافة الصيد والالتقاط فوراً إلى المدينة والمدن.

القاعدة هنا، بحسب الباحث وفهمه المدن القديمة، أنها يمكن معرفة مساحة المدينة القديمة، بصرف النظر عن المسوحات الأثرية، بحساب تقريبي لعدد السكان، حيث يُضرب كل هكتار بعدد ساكنيه وسطياً بأربعمئة شخص، وعليه فمدينة أور مثلاً التي كانت مساحتها تُقدر بتسعين هكتاراً كان يسكنها 35000 نسمة تقريباً.

مدينة لاجاش: 1900 نسمة، أوما: 1600 نسمة، اشنونا: 900 نسمة، أوروك مع أراضيها المحيطة 440 هكتاراً، وهي أكبر مدينة مشرقية، بلغ عدد سكانها من 75.000 - 200.000 نسمة.

الطريف هنا أنّ وثائق شوروباك قدمت معلومات سكانية صدفّة، فقد ذكرت عدد الذاهبين إلى الحرب ضمن حاميات مدن التحالف العسكري الأوروكي قرابة 780 شخصاً، طعام المساهمين في الاجتماع الشعبي يُقدم إلى 1612 شخصاً، ضمن هؤلاء بالطبع الأشخاص المرافقون لأسيادهم، وهم 39 صبياً، و47 خادماً لحمل السلاح، و39 خادمة، كما تقدم وثيقة أخرى معلومات عن عدد المقاتلين الإجمالي: 8970 مقاتلاً.

مدنٌ تُفارق أقيمتها:

المجتمعات التي زرعت ثم وفرت وخزنت فتاجرت وحسبت كان طبيعياً أن تعتلي قمة جديدة فرضها الواقع التجاري والزراعي؛ لهذا ابتكر نظام الجرد بالفيش التي تحدثنا عنها سابقاً، ثم كان طبيعياً أن تطور التبادل التجاري سوف يدفع إلى ابتكارات جديدة أو تقنيات جديدة للتوثيق وستصل إلى الكتابة أخيراً.

لم يكن في الأمر إراحة دماغ ونقل العمليات خارج الذاكرة كما يظن «يوفال هراري» كان في أساسه توثيق الأرباح والخسائر، وتوثيق المحاصيل وهكذا. ذكرنا انتشار نظام الجرد في عدة مواقع من المشرق، وهذا يمنح دلالة زراعية- تجارية؛ لكن في البحث رؤيا جديدة يطرحها الدكتور علي أبو عساف تناول نشوء الكتابة التصويرية في 3100 ق.م تقريباً في الجنوب الرافدي، ومواقع الشمال الشرقي في سوريا.

نحن الآن على الضفة اليمنى لنهر الفرات في نهاية الألف العاشر ق.م، وموقع الجرف الأحمر هذا الموقع ثقافياً يُعبّر عن زمن التحول من الصيد والالتقاط إلى إنتاج الغذاء. بنى

الإنسان في الموقع البيوت من الحجارة الكلسية الكبيرة من غير نحت، وعلى الحجارة نقش سكان الموقع تصوراتهم وتأملاتهم وأفكارهم البسيطة رمزاً.

«المقبض رقم 1155: مصنوع من الحجر البازلتي بطول 1.2 سم وعرض 5.2 سم، الوجه الثاني من المقبض نقش الرسام صورةً على قسمين أعلى وأسفل.

النصف الأسفل (من الأسفل إلى الأعلى): شريطٌ عريض يعلو آخر ضيق يتلوها خطٌ متعرج فخط مستقيم، وهو حد بين الخط المتعرج وحقل الأعشاب فوقه، الذي يحد من الأعلى خطان متوازيان، هما الحد الذي يميز بين النصف السفلي والنصف العلوي.

النصف العلوي: قاعدته صف من المثلثات بقي منها اثنان، مزوقان بأشكال تشبه حراشف الأسماك، يعلوها شريط متعرج يتبعه صف من المعينات يتلوها ثلاثة أشرطة تؤلف وحدة خاصة. تُوجَّح المشهد بشريط أو حدّ بارزاً⁽¹⁾.

الباحث أبو عساف ينقل مقارنته في مقبض الجرف الأحمر ونقوشه إلى ما بعد منتصف الألف الرابع ق.م في مدينة أوروك، وذلك بواسطة إناء أوروك⁽²⁾، يلحظ أن جوهر المشهد على الإناء الأوروكي يشبه المشهد المنقوش على المقبض، وذلك تقريباً قبل خمسة آلاف عام.

يُفصّل الباحث كلا المشهدين مع الفارق الزمني.

«إنَّ المشهدَ سفر تكوين خطّته يد فنان عبّر عن معتقد مجتمعه في أنّ الخالق هو على كل شيء قدير، وأن الماء هو سبب الوجود، والواقع أن هذا المعتقد هو نفسه الذي يصوره لنا مشهد مقبض الجرف الأحمر مع اختلاف في بعض التفاصيل». والتفاصيل هنا تختص بالتطور الذهني عبر عدة آلاف من السنين.

أيضاً يقارن الباحث بين مقبض رقم 1193 ونقوشه مع نقوش تعود إلى منتصف الألف الثالث ق.م، على سطح ختم أسطواني، وعدة قطع أخرى تصل في التصور الفني بين منطقتين على نهر واحد بفارق زمني يزيد على خمسة آلاف عام.

(1) انظر: د. علي أبو عساف - إنشاء الحضارة في حوض الفرات توافق مع مجرى النهر - وثائق الآثار السورية 1996.

(2) انظر: أيضاً د. علي أبو عساف - فنون الممالك القديمة في سوريا - دار شمال - 1993.

ثم ينتقل الدكتور أبو عساف إلى نقطة أوسع في مناقشته: تل براك في شمال شرق سوريا كشف عن معابد ولقى أخرى تُشابه معابد ولقى أوروك في الجنوب الرافدي، كذلك قدمت مواقع جبل عارودة وحبوبة كبيرة جنوبية وتل قناص في الجناح الشامي، وعلى الضفة اليمنى لنهر الفرات معابد من طراز معابد أوروك، والمعابد الشامية تلك الحاوية على أوان فخارية وطبعات أختام اسطوانية وغيرها لها ما يماثلها في أوروك، لكنها تحمل طابعاً محلياً.

يتساءل الباحث إن كانت ثقافة أوروك قد امتدت نحو المواقع الشامية، أو أنها احتلالات «سومرية».

ثم يطرح سؤالاً: هل كانت تسكن في حوض الفرات ببلاد الشام والعراق مجموعات بشرية من أصل واحد أو من أصول مختلفة اختلطت وتعايشت مع بعضها؟

و يوجز وجهة نظره بالقول: «إن نقوش الأدوات الحجرية التي تعود إلى الألف العاشر ق.م وثيقة الصلة بنقوش إناء أوروك، والأختام الأسطوانية من عصر فجر التاريخ الألف الرابع ق.م، إن ما أنتجت عبقرية عقلاء الجرف الأحمر الحرفيين كان إرثاً لم يخف باختفاء أهله؛ بل استمر وتناقلته الأجيال، فهو صورة معتقداتهم الدينية».

قد تكشف التنقيبات الأثرية عن آثار تحمل صورة «هذا التكوين» وتعود إلى الحقبة الممتدة بين ظهورها أول مرة في الجرف الأحمر إبان الألف العاشر ق.م، وظهورها في أوروك إبان الألف الرابع ق.م.

فالإنسان الذي حمل هذه الأفكار بقي من العصر الحجري الحديث حتى العصور اللاحقة، مع الأخذ بعين الاعتبار تدفق الجماعات البشرية نحو بلاد النهرين واتساع رقعة الاستيطان والتوطن.

السومريون والأكديون كانوا في البلاد من الألف الخامس ق.م، حسب أكثر التقديرات تفاعلاً، أما على ضفة الفرات اليمنى (الشامية) فكانوا أيضاً من نسب الأكديين والماريين (نسبة إلى مدينة ماري)، فالمنطقة كانت في نهاية المطاف للعشائر الأكادية والمارية والآشورية التي نزحت من الجنوب إلى الشمال ومنها تفرقت في بلاد النهرين.

بحسب هذه المعلومات يبدو أن الأكديين وغيرهم من العشائر ذات الأصل المشترك، والسومريين كانوا سكان البلاد، وبحسب رأي العلماء أن جماعات أخرى سبقتهم إليها، لا

نعرف أصولها وأسماءها؛ وإنما بقيت مفرداتٌ من لغاتها في السومرية والآكدية، فإنَّ هذه الحجة غير كافية لإثبات هذا القول، فالمفردات تتسرب إلى لغة أخرى من خلال قنوات أخرى أهمها التجارة.

من كل ما تقدم نستنتج مع شيء من التحفظ أنَّ القبائل الأكديّة والمارية والإبلية (نسبة إلى إبلا) والنجارية (نسبة إلى ناجار تل براك)، وأيضاً أفراد القبيلة الذين سكنوا تل بيدر، هم سكان الجزيرة وحوض الفرات الذين خالطهم آخرون لا نعرفهم باسمهم، بل نجد إشارات على وجودهم من الفنون ومفردات اللغة، وقد لا نكون على خطأ إذا افترضنا أنهم أصحاب حضارة العصر الحجري الحديث قياساً على قاعدة التواصل الحضاري، والتطور الحضاري والثقافي، وإذا كان الأمر كذلك تكون الأفكارُ ومعتقدات العصر الحجري الحديث المصورة على أدوات الجرف الأحمر قد انتقلت مع القبائل الأكديّة التي تحركت مع مجرى النهر نحو الجنوب، ووجدت صورها في فنون أوروك وغيرها من المدن الجنوبية السومرية.

لعل ما يطرحه الباحث هنا جديرٌ بالتأمل والمناقشة وبانتظار عودة العمليات التنقيبية في سوريا لتبيان التواصلية بين العصور، وبين مناطق الجناح الشامي والجنوب الرافدي في الجهات كافةً الفنية واللغوية والكتابية وغيرها.

في السياق ذاته كان الباحث لاندزبرجر Lands Berger قد ناقش هذا الغموض فيما قبل السومري من حيث المفردات والمُسَمَّيات الواردة في النقوش السومرية والآكدية، فوجد أنَّ هذه ربما تعود إلى الفراتيين الأوائل الذين وُضعت مستوطناتهم على ضفاف نهر الفرات.

ويرى أنَّ الآثارَ العائدة إلى مواقع العبيد تعود إلى هؤلاء الذين أسسوا المدن والبلدات الأولى وعاشوا فيها خلال الألف الخامس ق.م، فكما هو معلوم وحسب رأي الباحث أنَّ المُسَمَّيات الأولى للمدن والمراكز والأنهار يطلقُها مَنْ أسَّس أو اختبرَ الجغرافيا، وهذه المُسَمَّيات تبقى لعصور لاحقة بالتفاعلات الديمغرافية الواردة والموجودة.⁽¹⁾ هل هنا تتقاطع المعطيات لتجعلنا نقاربُ أنَّ عصرَ العبيد ما قبل الطوفان الحاصل في الألف الرابع ق.م قد سكنه فراتيون أوائل، ثم بعد الطوفان حلَّ السومريون في المواقع مع من تبقى من فراتيين شماليين؟

(1) Land Sberger - Die Anfaenge Der Zirilisation in Mesopotamien, Journal of The Faculty of Longaages, Ankara,1944.

لعلّ الكشوف القادمة في الرافدين وشمال غرب سوريا توضح شيئاً جديداً يضيء على هذه المسألة.

حين كتب المشرق - اختراع الكتابة:

سنتصور إنساناً مشرقياً يتأمل طوفان النهر، أو حالة خسوف القمر في مقتبل الألف الرابع ق.م، لم يكن هذا الإنسان يمتلك الحروف ويعرفها ليدونَ مشاعره وانفعالاته وتصوراتهِ. كان الأمر بالنسبة إلى تلك المجتمعات لا يخرج عن الاحتفال بالمخزون والوفرة التي أمنتها الزراعة. ربما لجأ هذا الإنسان المنفعل إلى التعبير بالرسم والرقص، وعالم شفهيّ يربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، لم تفتح الكتابة أبوابها بعد لانفعالات الإنسان وتصوراتهِ.

سينثيا براون تُعيدُ تاريخ الحكايات الشفوية إلى الألف السابع ق.م على أقل تقدير، وذلك مع بداية استئناس الحيوان والنبات والبشر في دورة واحدة.⁽¹⁾

سندعُ هنا العالمَ الشفهي إلى عالم الحساب والعدّ الذي اقترن بالتبادل التجاري والسلعي بين المجتمعات آنذاك.

ذكرنا تلك الفيش (نظام جرد حسابي) التي رافقت الاستقرار والزراعة، وآلية تطورها بآلاف السنين، ووصلت إلى أن أصبحت مغلفات ذات بصمات شكّلت الأساس لنشوء الكتابة التصويرية الأولى، وتطورت في قرونٍ لتصبح مقطعيةً في نهاية المطاف قبل أن تُولد الأبجدية المسمارية.⁽²⁾

وسيلة الكتابة الأولى كانت عالماً صورياً؛ فهي مثل الفن مثّلت فعلاً ثقافياً.

«بوترو» يصفُ غاية تلك الصور في الكتابة: «لم يكن غايتها إعطاء الفكر شكلاً مادياً؛ بل بكل بساطة وتواضع كانت وسيلة تساعد على التذكّر وأداة ملحقة بالمحاسبة، أداة مساعدة للتذكّر والتذكير لا أكثر، بما هو معروف ومعلوم، لا تُعلّم شيئاً جديداً».⁽³⁾

(1) سينثيا براون - تاريخ الأحداث الكبرى - مصدر سابق.

(2) جان بوترو، يجد أن استبدال الفيش برسومات بسيطة مرفقة، في هذه النقطة ولدت الكتابة. (بوترو - بابل والكتاب والمقدس).

(3) الشرق القديم ونحن - مجموعة مؤلفين - دار المدى - دمشق 2007.

سننتظر لقرنين أو أكثر حتى تتحول كتابة الأشياء إلى كتابة كلمات «اسم الشيء في اللغة هو مجموعة صوتية قابلة للنطق».

في مقاربة للخطاب الشفوي «الكلام» نجد أنه يتطلب حضوراً متزامناً في المكان والزمان. فمً يتكلّم وأذنان مصغيتان.

في عالم الكتابة استطاع الخطابُ تجاوزَ الزمان والمكان، وأخذ حضوراً وثائقياً ومادياً؛ فالكتابة وسّعت إشعاع اللغة على نحوٍ كبير، واللحظة التي لحقت الكتابة باللغة كانت تمثّل الرموز فيها.

الكتابات الأولى لم تُكتب على الطين، فثمة حجر كلسي يُنقش عليه بأداة حادة، ثم تطوّر الدماغ وابتكر الكتابة على الطين الطري بأداة من القصب. آلية التطور الكتابي كانت فنية بامتياز، نلاحظ التطور هنا في أنّ الصور فيما بعد لم تعد تُعبّر عن الصورة تماماً، بل تُعبّر عن فكرة أو معنى؛ فصارت الشمس نوراً وضوءاً، وفيما بعد رمزاً للعدالة. والقدم بالمشي والحركة، هنا حلّ الرمز، فالخطان المتقاطعان رمزٌ للعداوة والنفور، والخطان المتوازيان رمزٌ للصدقة والانسجام.⁽¹⁾

بعد ألف عام كتب بابلّي قديم عن كتابته: خربشة أو برقشه الأسافين Tikip Santaki.

إن كانت الكتابة المسمارية كُتبت للغة السومرية المُلصقة وتحفل بصعوباتها، فإن استعمال الأكديين الكتابة المسمارية بلغتهم مضى بها إلى تطور جديد، فشكل الكتابة في البدء كان من الأعلى إلى الأسفل في حقولٍ حدّت جُملاً ونثرت كلماتها كيفما اتفق ليقرأ القارئ من اليمين إلى الأسفل، ثم حدث تطورٌ قلبَ الكتابة 90 درجة، لتُقرأ من اليسار إلى اليمين بالسطور، وكان هذا مع منتصف الألف الثالث ق.م.

انتشارُ الكتابة المسمارية امتدَّ إلى المشرق كاملاً: وبلاد فارس الجنوبية، والأناضول، وهضبة أرمينيا (بلاد أورارتو)، ومصر (رقم تل العمارنة).⁽²⁾

(1) د. عدنان النبي - المدخل إلى قصة الكتابة في المشرق العربي القديم - دمشق - 2001.
(2) ر- ماثيوس في بحثه عن الكتابة في المشرق الأدنى يشير إلى أنّ أقدم كتابة اكتشفت في مصر كانت في صعيد مصر، في مدفن Jd Abydos - u الذي يرقى إلى 3150 ق.م: نقوش على قطع عظمية أو عاجية، طبعت أختام مكتوبة على أغطية الجرار - إشارات مرسومة بالحبر على الأواني الفخارية، هذه الكتابات أشارت إلى موقعي بوتو وتل الغارا في دلتا النيل.

خارج أرومات المشرق كتبَ بها الكاشيون والحواريون والميتانيون والحثيون والعيلاميون والأورارتيون والأخمينيون الفارثيون.⁽¹⁾

ظهورُ الكتابةِ شاركت به مواقعُ رافدية وشامية، أوروك (السوية الرابعة)، وفي الرافدين تل براك وحبوبة الكبيرة الجنوبية وجبل عارودة في سوريا. ويبدو أنَّ التواصليةَ الأقوى لمنجز الكتابة استمرت بالتطور في الجنوب الرافدي بأقوى من المواقع الشامية.

«ر. ماثيوس» يعتقد أنَّ منطقةَ جنوب الرافدين كانت المكانَ الأفضلَ للتطورات ولتحول الكتابة إلى وثيقة (سوريا وأصل الكتابة).

والذي يبدو لنا أنَّ الثقلَ الحضاري لأوروك بوصفها مدينةً بوجهها الاقتصادية والاجتماعية والاعتقادية كلها، وبوصفها نظامَ مدينةٍ معقدٍ وثابت، هو ما جعل موقعها أساسياً ومركزياً لانبثاق الكتابة، وسوف ننتظر عدة قرون حتى تتجاوز الكتابات الأولى الشؤون الاقتصادية من سجلات الواردات والصادرات للمعابد.

ذكرنا سابقاً أنَّ في 2650 ق.م تقريباً بدأنا نجدُ نصوصاً فارقت لغةَ الاقتصاد والتجارة إلى مدى فكري أرحب من حيث التصورات والتأملات وتثبيتُ منظومةِ العالم الشفاهي في ألواح بأساطير وآداب وتعاويد⁽²⁾، وبعد نصف ألفية أخرى سنكونُ مع الحضور الشعري والثري في وثائق المشرق.

الذي يبدو هو أنَّ التدفقَ الحضاري الاقتصادي والاجتماعي والاعتقادي، وتعدّد الحياة في المجتمعات بتكاثر المعطيات دفعَ هذا التحريضَ إلى تحولاتٍ كبرى في منجز الكتابة؛ حتى تتوافق مع آلية تطور المجتمعات.

التحريض هنا: تراكمُ المعطيات الحضارية والحيوية الثقافية المعاشة.

تقنيات بوتو قدمت شواهد على وجود علاقات مع بلاد الرافدين.

ماثيوس يعتقد أنَّ الكتابة عرفت طريقها إلى مصر في مرحلة ما قبل السلالات عن طريق تجارة النبيذ مع بلاد الرافدين وأوروك عن طريق فلسطين. انظر: En Syrie Aux Origines De L'écriture - Brepols

(1) النبي - مصدر سابق.

(2) ميكالوفسكي أشار في بحثه عن استخدام المسمازية في اللغة الأكديّة إلى أنَّ اندماج اللغة المحكية مع الكتابة تم تقريباً في 2600 ق.م.

انظر: مصدر الهامش الأول.

الاستجابة: عالم من التوثيق في الزمان والمكان وما بعدهما.

شيء آخر: لم يكن في التصور بقاء الكتابة المسمارية باللغة السومرية فقط، وتكامل المنجز هنا كان نتيجة الالتحام السومري الأكدي. والأكدية لغة كانت العامل المطور للكتابة المسمارية، عندما استخدم الأكديون نظام الكتابة السومري لم يكن هذا النظام يتضمن مقاطع صوتية. إن أهمية المنعطف الأكدي هنا هو إدخال النظام المقطعي الأكدي على النظام السومري الرمزي مما سيشكل أساساً للوصول إلى التجريد الأبجدي فيما بعد. مرونة اللغة الأكدية هنا ساعدت في تطوير تلك الكتابة، فقد لعب الأكديون لعبتهم وتعاملوا بذكاء على القيم الصوتية للكلمات السومرية، ثم استخدمت مقاطع صوتية إلى جانب استخدامها رموزاً.⁽¹⁾

«بوترو» يتحدث عن أن الإمكانيات الصوتية للكتابة المسمارية حدثت بالحضور الأكدي؛ لأن لغتهم مُعربة.

قلنا: إن الثقل الحضاري كان في الرافدين الجنوبي، ولا تقدم مواقع بلاد الشام الجنوبية والغربية سوى قليل من معطيات الكتابة آنذاك؛ لكن في مدينة جبيل في لبنان عُثِرَ على لوحين برونزيتين تحويان كتابة خاصة، وكذلك شذرات كتابية مع ثلاثة ألواح حجرية وأربعة نقوش قصيرة تعود إلى نهاية الألف الثالث ق.م، أو بداية الألف الثاني ق.م.

الباحث «يوهانس فريدريش» يعتقد أن أشكال هذه الكتابات تشبه أشكال الكتابة المصرية من حيث الشكل الخارجي، بينما بعضها الآخر يشبه الرموز الكنعانية (الفينيقية القديمة). هنا يعتقد الباحث أن كتابة جبيل جاءت على النمط الكتابي المصري، ومن ثم أثرت هذه الكتابة في نشوء الألفباء الفينيقية تقريباً في 1000 ق.م.⁽²⁾

نحن نلاحظ عموماً في مجريات حركة التاريخ أن بلاد الشام الجنوبية حتى الساحلية كانت عرضة للتأثير المصري، وذلك منذ الألف الثالث ق.م، إن لم يكن قبل ذلك، وهذا طبيعي في سياق التجاور والمصالح بين المجتمعات آنذاك، وتبعاً لاختلاف الفاعلية التاريخية بين المواقع، حيث نلاحظ غياباً نسبياً للفاعلية الثقافية الرافدية الشامية الشمالية الشرقية عن الجنوب الشامي، وبدرجة أقل عن مواقع الساحل الشرقي.

(1) فيصل عبد الله- مقدمة في علم الأكديات- دار الأبجدية، دمشق، 1990.

(2) يوهانس فريدريش- تاريخ الكتابة- وزارة الثقافة السورية- 2004.

«ف. فون. زودن» بدوره يتحدث عن دور إبلا في تطوير الكتابة المسمارية: الإبلوية لم تأخذ كل علامات الكتابة السومرية، ولا كل قيمها الصوتية؛ بل استحدثت عدداً من القيم الصوتية الجديدة، فصارت بعض العلاقات المقطعية تحتل قراءات أكثر من الشائعة في الرافدين.⁽¹⁾

وانتقالاً إلى تل بيدر في سوريا (شمال غرب الحسكة) العائد إلى 2500 ق.م تقريباً، هذا الموقع قدم أقدم الوثائق المسمارية المكتشفة في الجزيرة الشامية. الباحث حميدو حمادة يشير إلى قوائم الموظفين والحصص التي كانت توزع عليهم، والتي عثر عليها في هذا الموقع تبين وجود كتبة، إنَّ هذه الإشارة دليلٌ واضحٌ على شيوع مهنة الكتابة في منطقة الجزيرة الشامية، ودليلٌ على أنَّ الكتابة عُرِفَت في الجزيرة السورية قبل هذا التاريخ بعدة قرون.⁽²⁾

في حين يناقش «و. ساللا. بيرجيه» وثائق تل بيدر، ويدهش التشابه الواضح بالإشارات والمقاطع اللفظية والكتابية بين وثائقه ووثائق جنوب ما بين النهرين العائدة إلى الحقبة نفسها⁽³⁾، مع الإشارة هنا إلى أنَّ الرقم الأولى عثُرَ عليها في أوروك (السوية الرابعة)، كذلك على قسم منها في موقع جمدة نصر، وتل العقير، وخفاجي، وأور، وشروباك، وكيش. وكحال المدن المتدينة ارتبطت منجز الكتابة بعالم الآلهة، الآلهة نيسابا: آلهة الكتابة والحساب والعد والنبوءات.

قال كاتبٌ مشرقى: لقد أصبحتُ أهلاً للقب كاتب، لقد أعليتُ قدر نيسابا ملكة المعارف، فالحمد لك يا نيسابا أيضاً، نجد الإله نبو (نابو) حامي الكتبة والمدرسة، رُمز له برقيم واسفين، ووصف بأنه مبتدعُ كتابة الكتبة.

(1) ف- فون- زودن- مدخل إلى حضارات الشرق القديم- دار مدى- دمشق- 2003.

ل. ميلانو، يعيد بداية الكتابة الإيلانية إلى 2600 ق.م، ويتحدث أن إبلا في بداية الألف الثاني ق.م كانت من وجهة نظر كتابية وثقافية تمثل جزءاً من عالم مسماري متجانس أكثر من الألف الذي سبقه. انظر: سوريا وأصل الكتابة. (2) انظر: ميلانو.

(3) سوريا وأصل الكتابة- الكتابة المسمارية في تل بيدر.

الأجمل في التصورات المشرقية هنا هو تصور آلهة كاتبة في العالم السفلي (كشتن إنا)، انكيدو يصفها في ملحمة جلجامش: تجلس القرفصاء، وتحمل لوحاً مدوناً به أسماء الموتى وتُعلم إلهة العالم السفلي إيريشكيجال بأسماء المتوفين يومياً.⁽¹⁾

مدن أمية:

الذي بدا في مدن الألف الثالث ق.م أنها كانت أمية في القراءة والكتابة مع وجود قلة قليلة من الكتبة.

قال دومينيك شاربان: الكتابة المسمارية بتعقيدها قُيدَ استخدامها في المجتمع، فثمة فئة صغيرة من الكتّاب هم فقط الذين كان باستطاعتهم الكتابة⁽²⁾، ومع ذلك شهدت المدن وجود مدارس للتعليم حتمتها الحاجة المجتمعية للتطور آنذاك، فكان منها المدارس التابعة للمعبد، ومدارس في القصور الملكية، وربما مدارس شعبية.

المعطيات تشير إلى أن مدينة جرسو الرافدية، قرابة 2250 ق.م، أمكن تحديد ثلاثين كاتباً تقريباً، على مدار أربعة أجيال امتدت ما بين 2100 و2000 ق.م، أما في مدينة لاجاش فقد حُدد ستمئة وعشرون كاتباً، ومدينة أوما ثلاثمئة وأربع وثمانون كاتباً.

في مقارنة لهذه الأعداد وبمقارنة مع عدد السكان، فالمعلوم أنّ متوسط عدد سكان المدن آنذاك 20 ألفاً، ناهيك من ممالك؛ كأكد وماري وإبلا وغيرها، فإن نسبة عدد الكتّبة إلى عدد السكان تُعدُّ هزيلةً، ومع المرونة الكتابية ما بعد استخدام الأكدي سوف نجد أن الكتابة مع الألف الثاني قبل الميلاد قد انتشرت على نحوٍ مكثفٍ في المجتمعات كلها.

«شاربان»: «المدارس التي كانت في الألف الثالث ق.م يبدو أنّها اختفت في حوالي منتصف الألف الثاني ق.م، وحلَّ محلها نقل المعرفة وانتقالها في إطار الأسرة».

تطوّر الكتابة المسمارية يجعلنا نرصد احتواءها على 2000 رمز في منتصف الألف الثالث ق.م، ثم أخذت الرموز تنقص، وهذا يعني التكتيف والاختزال، إلى ما يقارب 500 رمز في الألف الأول ق.م. الطرافة هنا أنّ آخر نص مسماري يعود إلى 75 ق.م، وقد عُثِرَ عليه في مدينة اختراع الكتابة أوروك وكان يتضمن محتوىً فلكياً.

(1) عامر الجميلي - الكاتب في بلاد الرافدين القديمة - اتحاد الكتاب العرب، 2005 - دمشق.

(2) دومينيك شاربان - كتبة بلاد ما بين النهرين - تاريخ الكتابة - مكتبة الإسكندرية - 2005 مجموعة باحثين.

الآن، نحو منتصف الألف الثالث، توثق المشرق، قلنا: حُمِلت الكتابةُ بلغةٍ غيرِ سومرية، فتم إنقاذ الكتابة المسمارية.

بين أيدينا نصٌّ يُظهرُ تقريباً اللغة المحكية كتابة، نصٌّ أخذه كيش، ويُعدُّ هذا النص من أقدم النصوص الأدبية في المشرق، اكتشف هذا الرقيم في خرائب مدينة كيش⁽¹⁾، يعود تقريباً إلى 2400 - 2200 ق.م. والنص كُتِب باللهجة الأكديّة القديمة، ويُقدم معطيات عن اللهجة المحكية في مدينة كيش آنذاك. حقق هذا النص ودرسه ج. أ. نستهلتز. الجميل في النص أنه لا يشمل أسطورةً أو شأناً اقتصادياً أو سياسياً، بل يمنحنا دلالةً على نمط الذهنية الشعبية الاجتماعية آنذاك، والمستمرة حتى الآن في المشرق بأدوات مختلفة ومنظومات شعبية أخرى. أهمية النص الأخذة هذه أنه أول نص أدبي في المشرق يمكن قراءته كما نطق به الناس آنذاك.⁽²⁾

العالم Gelb جيلب يشير إلى نمط الكتابة المسمارية في هذا النص من وجهة النظر الجمالية، حيث يُعده من أحسن الأنماط⁽³⁾ أهمية نص الأخذة، لأنه من الوثائق التي تمثل شاهدة على أول تدوين للغة كما كانت تُحكي، وذلك قبل أن تنفصل للمرة الأولى لغة الكتابة عن لغة الكلام المحكي، ثم إنه يكتسب أهميته الخاصة لجهة الجذور الألسنية للسان العربي لأن الأكديّة جدّة اللغة العربيّة.

اشتغل على قراءة هذا النص الدكتور ألبير نقاش والأستاذ حسني زينة، ونشر نتائج بحثه في كتاب أخذة كيش عام 1988، وموضوع الأخذة يتضمن تعويذة لاستمالة قلب امرأة كتبها رجلٌ من مدينة كيش، وهو أحد الكهنة.

(1) كيش / تل الأحيمر، تقع على بعد 12 كم شرقاً من بابل على الطرف الشمالي لجنوب الرافدين، فاعليتها الديمغرافية بدأت تقريباً في 2800 ق.م، ثم حققت فاعليتها التاريخية في منتصف الألف الثالث ق.م، موقع المدينة على مقربة من النهرين (دجلة والفرات) قدّم لها إمكانية الفعل التجاري والشرط الحضاري التاريخي. يبدو من المعطيات الأثرية أن ثمة تفاعلات مهمة مع موقع إبلا، حتى إنها مثلت حضارة تكمل حضارة الجنوب الرافدي، وما يميز ثقافتها أنها فصلت السلطة الدينية عن السلطة الزمنية، ربما قبل ولادة أكد.

(2) يشير الباحثان ألبير نقاش وحسني زينة إلى أنه مع بداية التدوين كان هناك وضع لغوي مميز لا سيما مع فاعلية مدينة كيش وعهد سلالة أكد، حيث كانت اللغة المكتوبة صورة عن اللغة المحكية، ثم في أوائل الألف الثاني ق.م لم يعد النمط القديم هذا محافظاً على صفاته؛ بل ثمة تداخل للهجات المحكية بلغة نمطية أدبية كانت تكتب ولا تحكي، وظلت متداولة بين الكتبة لأسباب غير لغوية.

(3) ألبير نقاش- حسني زينة- أخذة كيش- دار المطبوعات- لبنان- 1989.

الجميل في هذه المحاولة هو أن قراءة النص المسماري الأكديّ لغةً، تُرجمَ مباشرةً من الأكديّة إلى العربية دون وسيط للغة أجنبية، فحافظ على رونقه ومدلوله الثقافي الألسني، ما أكد أن روحية النص ما زالت فاعلةً حتى الآن في ثقافتنا الشعبية.

النص الأكدي:

حيا إرحم يرءم
إرحم مرء عشتَر إن زجَّ يثب
إن رعت كنكت يدرة
وردتا دمفتا تحتنا
كريشم تردا تردام
أن كرى رعت كنكت طيب دادك
أخذ فاك ش رقت أخذ برمات عنيك أخذ عرك ش ثنت
أشحط كرىش سين أبتك صربت
يوميش دوري تنت تزكريني
ك رعي بطور صان عنز جلمش لخر فحس اتان مهرش
شركوا يداش شمن و طيبوت شفتاش
أسام شمن إن قاتيش أسام إرن إن فوديش
إرحم يدبش و يشكنش إن محوت
أخذ فاك ش دد
عشتَر و إشخر تميك
قد زورش لا يعتمدا لا تفسحين

النص معرباً:

حَيَا يِرَامُ الْيِرْحَمَ

الْيِرْحَمَ ابْنُ عَشْتَرٍ قَائِمٌ فِي الْمِحْرَابِ

بِإِخْوَارِ الْمُرِّ يَتَجَلَّى

الْبَتُولَتَانِ الْحَسَنَتَانِ اسْتُشْفِعَتَا

وَرَدَّتَا الْكِرْمَ وَصَدَرَتَا

فِي كِرْمِ بَخُورِ الْمُرِّ طَيِّبٌ وَدَّكُ .

أَخَذْتُ فَاكُ ذَا الرِّقَّةِ، أَخَذْتُ عَيْنَيْكَ الزَّرْقَاوَيْنِ، أَخَذْتُ حِرْكَ ذَا الثَّنِيَّةِ .

خَفَفْتُ إِلَى كِرْمِ سَيْنٍ وَقَطَعْتُ مِنْ غَرْبَةِ الْفُرَاتِ،

تَمَجِيداً ذَكَرْتَنِي مُدَّةَ دَهْرِي، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ

كَالرَاعِي يَطُورُ الضَّأْنَ، وَالْعَنْزَةَ جَدِيهَا وَالشَّاةَ حَمَلَهَا وَالْأَتَانَ مُهْرَهَا .

هَبْتَانَ يَدَاهُ، دُهْنٌ وَطِيبٌ شَفَعْتَاهُ،

دُهْنُ الْأَرْزِ اللَّائِقِ فِي كَفِّيهِ، دُهْنُ الْأَرْزِ اللَّائِقِ فِي فَوْدِيهِ،

زَمَزَمَ الْيِرْحَمُ عَلَيْهَا ثُمَّ فَتَّهَا .

أَخَذْتُ فَاكُ الْحَبِيبِ .

أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ بِ عَشْتَرَ وَ إِشْخَرَ

أَلَا تَتَفَسَّحِي قَبْلَمَا زَوْرُهُ وَزَوْرُكَ يَعْتَمِدَانِ .

النص يدل على مدى الذهنية العالية والراقية في معالجة أمر بأسلوب ديني أو اعتقادي،

وهذا يمنح دلالة مهمة على طرق التفكير الاجتماعي في المشرق آنذاك.

إن تقديمنا لهذا النص يوضح كيفية كتابة اللغة في صفائها الأول، ثم إلى مزيد من التطور

الكتابي واللغوي مع مطلع الألف الثاني ق.م؛ إذ صارت الكتابة حرفة وصنعة وبإمكانها أن

تُحَقِّقُ الغايات العقلية والتخيلية والفانتازيا التي تريد، كما أنَّ هذا النصَّ قدَّم لنا نمطاً تفكيرياً اجتماعياً ذهنياً وتفاعلياً راق في هذا الزمن الأول.

مشاهدات:

مقابل ما كانت تشيرُ إليه بعضُ الأدبيات الاستشراقية حول العنصر السومري الغريب، إلى جوار تجمع ساميٍّ في المشرق، حتى بدا للمتابع، وكان ثمَّة دخلاءً على بيئة المشرق الاجتماعية وبنيتِه الديمغرافية؛ لكنَّنا في المقابل حين نرصدُ التراثَ الكتابيَّ المشرقي اللغوي أيضاً سنقف على معطى حضاريٍّ مهمٍّ، هو أنَّه ليس ثمَّة صراعٍ بين سومريٍّ وغير سومريٍّ (أكدي أو أموري... إلخ. حتى في حيز الكتابة المسمارية التي حملت لغات ولهجاتٍ مشرقيةً، وهذه اللغاتُ ولهجاتُ طورَتْها ودفعت بها نحو المسار الحضاري عبر الزمن.

إذاً ثمَّة انسيابيةً تاريخيةً كتابيةً ولغويةً تشيرُ إلى انسجام مجتمعي وحضاري وتفاعلي وثقافي بين مختلف الأرومات، وهذا سوف يتحقق أيضاً حين تحلُّ الآرامية كتابةً بديلاً عن المسمارية، وخير شاهدٍ احتفالٌ ملوك آشور في الألف الأول ق.م بالكتابة الآرامية واستخدامها جنباً إلى جنب مع الكتابة المسمارية⁽¹⁾ على الرغم من الصراعات الآشورية- الآرامية حين حلَّ الآراميون في مطلع الألف الأول ق.م أو قبل ذلك.

هو خطُّ حضاريٌّ تواصلِيٌّ واحد، إن كان في الفكر أو في الكتابة أو في اللغات ولهجات، وهذا ما وثَّقته أيضاً رقمٌ إبلا في الألف الثالث ق.م، حين ضمت معاجم لغويةً سومرية- إبلائية مفرداتٍ تفاعليةً بين مراكز المشرق. وشيءٌ آخر ينبغي الإشارة إليه هو أنَّه حتى في صراعات «المدن الضرائر»-ابتداءً من منتصف الألف الثالث ق.م- لم تكن تلك

(1) يشار هنا إلى أنَّ كتبة ملوك آشور في الألف الأول ق.م كانوا يسألون الملوك في مراسلاتهم إن أرادوا كتابة الرسالة بالمسمارية أو بالآرامية.

جيمس بريستد يشير هنا إلى إجماع الرأي العام الآشوري آنذاك، على أن تدار الأشغال العمومية باللغتين الآشورية والآرامية، أما في الحكومة فإذا كان الكاتب آرامياً فيدوُّ المحاضر بقلم الحبر على ملف البردي، وإن كان آشورياً يكتب على الأجر بقلم قصب. انظر: العصور القديمة- بريستد.

إذاً ثمَّة مرونةً دماغيةً اجتماعية حضارية حتمت التفاعل بين مختلف التنوعات وحيوياتها، وهذا ما يحسب أيضاً على معطيات الألف الثالث أن التفاعل السومري- الأكدي- الأموري، فقصة المعالجة الدماغية بين كتابة من اليسار إلى اليمين وكتابة معكوسة من اليمين إلى اليسار تتطلب مرونةً دماغيةً وبصريةً، ما يمنح دلالة تفاعل حاد بين نصف المخ الأيمن ونصف المخ الأيسر.

الحروب لأسباب عنصرية، وهنا نبدي شكنا بمفهوم تعدد العناصر في المشرق بما فيهم السومريون. ونحن نعلم أن هناك حكاماً وملوكاً حكموا مُدناً سُميت سومرية، لكنهم من أصل أكدي، وربما أموري قديم.

«لوجال زاجيزي» كان مثلاً على ذلك، والدليل اسم أبيه الأكدي (بوبو) وهكذا، حتى في نهايات الألف الثالث ق.م حين شهدنا زيادة الفاعلية الديمغرافية الأمورية نحو الجناح الرافدي، فإنَّ الاحتجاج من قبل أور في سلالتها الثالثة كان احتجاجاً اجتماعياً يدخل في سياق الصراعات الاجتماعية بين ثقافة رعوية وثقافة زراعية - مدنيّة لا أكثر، ووثق ذلك في حواريات أدبية وأساطير تظهر الصراع الاجتماعي بين تلك الثقافات.⁽¹⁾

ونحن نعلم أنه حين استقر الاحتجاج الأموري أسس ممالك على مدى مدن المشرق في مطلع الألف الثاني ق.م.

التراث الكتابي المشرقيّ يزيد عدد وثائقه على المليون في مجمل مدن المشرق، وثائق قدمت حيوية مدن مارست حياتها، وحضارتها في الصح والخطأ وفي الصعود والهبوط؛ لكنها ثبتت نظاماً أخلاقياً حضارياً مهماً يُعبر عن شخصية المشرق بجناحيه بصرف النظر عن الاختلافات المحلية لكل منهما؛ إذ إنَّ اختلاف البيئة الطبيعية، لا سيّما غرب الفرات نحو الساحل والجنوب الشامي، يخلق معايير مختلفة لكنّها تنتمي إلى الناظم الأخلاقي الحضاري الثقافي ذاته.

مؤرخ الأديان «جان بوترو» الفرنسي حين فرّ من دراسة اللاهوت بجانبه التوراتي، ومضى إلى عالم الكتابات المشرقية وقرأ الوثائق المسمارية قال لمحاورته «مونساكريه»: «هناك نقطة ما زلت أتمسك بها وهي أن علم الآشوريات (الاسم القديم لعلم وثائق المشرق) يملك امتيازاً عظيماً جداً وثميناً جداً. لقد جعلني عاجزاً عن إيذاء أيّ كائن في العالم، عن إزعاج أي كائن، عن تعكير صفو أحد: ألا يعتبر ذلك في هذه الأوقات امتيازاً مدهشاً وشديد الندرة؟ لقد حيّدني علم الآشوريات، وجعلني جذرياً، غير مؤذٍ؛ لهذا تمسكتُ به وما زلتُ مثابراً».⁽²⁾

(1) أماننا نصوص مشرقية كثيرة تخص هذا المجال منها: أسطورة مارتو- زواج الأموري- الماشية والغلة- الراعي والفلاح وغيرها.

(2) جان بوترو- بابل والكتاب المقدس.

صفوة جماليات الذهنية المشرقية هنا؛ لهذا قال الكاتب المشرقي القديم:

انحن أمام الكتابة.

بقيت ملاحظة أخرى هي أن مواقع بلاد الشام غربها وجنوبها تخلو من وثائق مسمارية في الألف الثالث ق.م، وهذا باعتقادنا يتبع إلى مجمل اشتراطات بيئية ديمغرافية لم تُقدم حتى الآن إمكانات لتطورات كبيرة في حيز المدن والوثائق. وبموازاة منجز الكتابة كنا أمام مؤشرٍ فنيٍّ مهمٍّ يختصُّ بالملكية الفردية الخاصة وربما العامة في مؤسساتها في:

الأختام الأسطوانية Cylinder Seal

سبق ابتكار الأختام الأسطوانية أختام عُثْرَ عليها في مواقع عصر العبيد، تبة كورا في شمال الرافدين، وتل الشيخ في سهل العمق في الجناح الشامي ومواقع أخرى. صنع المشرقيون أختامهم في البداية من أنواع هشة من الحجارة (الحجر الكلسي، الالابتر، السيتايت، اللازورد، لب القواقع البحرية).

وكعادة أي منجز لا بدَّ من تطوره مع الزمن؛ لهذا نجد أنه مع الثلث الأخير تم التحوُّل إلى استخدام المواد القاسية في صنعه كالهيماتيت والكريستال الصخري والكوارتز وحجر الكالسيدون.

صُمِّمَتِ علبٌ أيضاً لحفظ الأختام التي صنعت من المعادن، الأختام في مجملها بطول 5-7 سم، مع أن بداياتها كانت بين 8-10 سم. مع الكتابة، استُعملَ الختم نوعاً من البصمة الشخصية على اللوح الطيني.⁽¹⁾

حوت نقوش تلك الأختام على مواضيع متنوعة، دينية وطبيعية وحيوانية وعلى قصص وأساطير بشكل مُرمز، وكذلك انتصارات سياسية منقوشة.⁽²⁾

الختم آنذاك كان يُعدُّ هويةً شخصيةً للإنسان، إذ إن ضياعه يستوجبُ إعلامَ السلطات، حيث تتمُّ إذاعته خبر الفقد لئلا يُستعمل من قبل شخص آخر. أيضاً كانت الجرار والأواني تُطمعُ بالختم في حال الملكية الفردية أو المؤسساتية لمنتج كنيذ أو زيت وهكذا.

(1) يمكن للختم الأسطواني أن يطبع الأشكال المنقوشة فيه مئات المرات على الطين.
(2) الأختام التي كانت تحوي كتابات مسمارية لأسماء ملوك كانت تفيد في تاريخها كأختام تحمل اسم شاروكين أو أورنمو أو حمورابي.

الطريف هنا هو إذا وُجِدَ متعاقدون ولم تكن أختامهم معهم، فإنَّهم يلجؤون إلى صنع أختام سهلة الصنع من الطين والخزف، أو يستعملون أظفار اليمين أو طرف الرداء بدلاً عن الختم. وفي حال آخر، يستطيع إنسان استعمال ختم شخصي لإنسان آخر، ولكن ينبغي أن يذكر في الوثيقة نوع الختم البديل. استمرَّ استعمال الأختام عدة آلاف من السنين حتى اختفى ظهوره منذ منتصف الألف الأول ق.م⁽¹⁾، مع بقاء استعمال الأخنمين لها.

أيضاً توصلَ تديّن المشرق آنذاك إلى صنع أختام تخص الآلهة، الملك الآشوري «أسر حدون» في الألف الأول ق.م ختم إحدى الوثائق المسمارية بختم الإله آشور. وكان لا بدّ أيضاً من إضافة اسم الرب الحامي لصاحب الختم في مطلق الأحوال. يشار هنا إلى أنّ أختام الملوك والعائلات التجارية كانت موروثاً من الأب إلى الابن إلى الأحفاد أيضاً.⁽²⁾

نقطة أخيرة: الكتابة على الأختام الأسطوانية لم تبدأ إلا في 2600 - 2500 ق.م تقريباً. ومن وجهة نظر الحكاية الأختام الأسطوانية قدمت مجموعة كبيرة من الصيغ الأسطورية والاعتقادية والحياتية حَسَبَ ميول صاحب الختم ورسالته في الحياة وتصوراته، فهي تشكل تبادلاً فنياً يَصوِّرُ الشخصية الفردية والمؤسسية القائمة.

يُلاحَظُ هنا أنّ التطوّر في نقوش الأختام أخذ منحىً تصاعدياً بين 2900 و2700 ق.م، وسادت النقوش التجريدية، أما الزخارف الهندسية والحيوانية والنباتية لم تكن بالوضوح اللافت. وبين 2700 و2500 ق.م بدأنا نجد نقوشاً إنسانية وحيوانية واجتماعية، وكان تُوشَّحُ النقوش هنا حالة ظلّية. وفي 2500 - 2350 ق.م، سادت الواقعية وتراجعت الظلية السابقة، وعمد الفنان إلى حَزِّ أشكاله عميقاً في سطح الحجر.

(1) في مقاربة لغاية استعمال الأختام، أنه في الألف الثالث ق.م كان الختم يقتصر على المؤسسات الرسمية (معبد وقصر).

ومع الفاعلية الأكديّة وفصل السلطة الدينيّة عن الزمنيّة، وظهور الملكية الفردية على نحو واسع صارت الأختام في أيدي الملوك وكبار الموظفين والكتبة والتجار، ويبدو أنّه شاع شعبياً، بدءاً من الألف الثاني ق.م. المرأة في المشرق استعملت الختم أيضاً أقل من الرجال، أما العبيد فلا يحقُّ لهم.

(2) لتفاصيل أكثر انظر: تاريخ الفن في العراق القديم، ج 1 د. صبحي رشيد- المؤسسة الإسلامية للطباعة- لبنان- بيروت.

الأختام الأسطوانية في سوريا- دليل معرض جامعة توبنغن.

فنون الممالك القديمة في سوريا- د. علي أبو عساف- دار شمال.

في ماري/ تل الحريري نعثر على ختم كشاشة تلفاز، قسّم الفنان أسطح اللوحة إلى مربعات، ثم نقش في كل منها مشهداً مكتملاً. لا فن الآن دون خيال.

الألف الثالث ق.م - مدن تؤكد نفسها:

في الحقبة السابقة من فجر التاريخ صاغت نواة التواجد المدني في المشرق ولاسيما في جنوبه، مع تواجيدات ما قبل المدنية إلى حد ما في شمال الرافدين والشمال الشامي وشرقه. المشهد الآن يأخذ أبعاداً جديدة؛ مدنٌ موروثه وأخرى أُسست ضمنت بيئتها ومحيطها، وسعت إلى التكامل بها، كل مدينة على حدى، تتحاذى تلك المدن وتتداخل عند حدودها. حقّ المدن أن تأخذ راحةً من الإنشاء والتأسيس والاستمرارية وسطّ مناخ وبيئة صعبة. رافقت الآلهة المدن خطوة بخطوة وباباً باباً وسوراً بسوراً؛ هكذا اطمأنت المدن.

خلال القرون الخمسة الأولى، على ما يبدو من الألفية الثالثة، تعايشت المدن مع بعضها بعضاً، فلا حروب ولا صراعات، والعصر عصر البرونز الذي ربما يُحرض على القتال والحروب بأسلحته.

ثمّة تداخلٌ ديمغرافي بين مواقع الجنوب الرافدي وشماله، وتُمثّل كيش مركزاً لتجمع «الأكديين» إن صح القول هنا، لأن أكد لم تكن مولودة بعد، وهذا سوف يُعاد بذكر ماري، بوصفها مدينةً لتجمع الأموريين، عاصمةً.

يُعتقَد هنا أنّ كيش في مطلع الألف الثالث ق.م مدت نفوذها على بلاد الرافدين كاملةً، ولا سيّما جنوبه، حيث المدنُ الأولى التي تمضي في تبلورها وترتيب تفاعلاتها التطورية، كان هذا في عهد «إتانا» ملك كيش، لكنّ الفاعلية الأقوى نجدُها مع حقبة ميساليم.⁽¹⁾

يهمُّنا هنا أنّ نشير إلى الامتداد غير السومري الذي عُرف بالدراسات الاستشراقية بالسامي، يدفع لتثبيت فكرة الالتحام السومري الأكدي مع انتظار كشوفات ووثائق جديدة توضح معالم هذا الالتحام وأصوله وتفصيله.

(1) «زودن» يرى أن قدوم «الساميين» إلى بلاد الرافدين وشمالى بابل لم يتأخر عن قدوم السومريين إلى جنوب الرافدين؛ إذ تم ذلك في أواخر الألف الرابع ق.م، ويشير إلى أنه في 2900 ق.م كان ثمّة دولٌ يسود فيها «الساميون» بل ربما كانت هناك لمدة مؤقتة مملكة «سامية».

الملك ميساليم كان قد رتّب العلاقات الحدودية بين مدينتي أوما ولاجاش، وذلك بوضع «حجر الحد» بينهما. وبعد حين في زمن حاكم «لاجاش أي - أناتوم» يذكر هذا الملك أن ملك «أوما» أقدم على تعديل موقع الحجر الذي يُبْت بين المدينتين قبل قرن ونصف تقريباً، وهذا يُخالف الأعراف الدولية آنذاك، وسوف يدفعه إلى شنّ حربٍ على «أوما».

الطريف في الأمر هنا أنّه بعد موت ملك لاجاش خلفه أخوه على العرش «أي - ناناتوم» الأول. هنا استغلت الضرة «أوما» موت عدوّها لتستعيد ما فُقد من أراضي، حيث حطم الملك حجر الحد بين المدينتين، وسببت هذه الحال حرباً طويلة بين الضرتين، حتى موت ملك لاجاش، وحلول خليفته ابنه ملكاً على المدينة، «ان تيمينا»، فشنّ حرباً على أوما وقتل ملكها «اور - لومّا» ونصّب حاكماً جديداً هو أحد الكهنة، ما يعني بتبعية لاجاش لأوما.

سنلاحظ هنا أنّ الوعي المدنيّ سادَ مختلف مواقع المشرق ومدنه، وسوف يستمر أبداً الأبدين كما سنرى، وسوف يخلق ظاهرةً ما اصطلاحنا على تسميته «المدن الضرائر». قال أفلاطون ذات يوم: كلُّ مدينة هي حالةٌ حربٍ طبيعية مع كل مدينة أخرى. (كتاب القوانين). كما يبدو لم يكن في وارد تلك المدن - الدول وممالك المدن، أن تُطوّرَ وعيها المدنيّ إلى وعيٍ اتحاديٍّ أو وحدويٍّ، فالآن أو أن انفصالٍ وتشظيٍّ سوف يحتمُّ الضعفَ أمام الطامعين).

«أرنولد توينبي» يتأمل مدن المشرق «الجنوب الرافدي» في فجر التاريخ للمدنية السومرية كأنها قطعةٌ فسيفساء مكونة من مدن - دول محلية ذات سيادة، والوحدة الثقافية التي عرفها العالم السومري لم تكن بعدُ قد وازنها وحدة على المستوى السياسي.⁽¹⁾

أوروك المدينة الأكبر، أور - لاجاش - كيش -⁽²⁾ أوما - شوروباك - نفر - أدب - نيبور - اريدو - ماري.

(1) أرنولد توينبي - تاريخ البشرية. ت. نقولا زيادة - الأهلية للنشر - لبنان - بيروت - 1981.

(2) في بداية الألف الثالث ق.م حكم كيش الملك إتاناشم نجد ميبارجيزي الذي حكم قرابة 2675 ق.م من أهم ملوك المدينة «ميساليم» المذكور أيضاً في رُفيمات إبلأ، ويعتقد أنّ ميساليم غير السومري هو أموري بحسبِ الواقع الديمغرافي المشرقي؛ فإن أكد لم تظهر بعد إلى الوجود.

آخر ملوك كيش هو «آجا» الذي حارب جلعامش ملك أوروك، وبعد سقوطها استلمت أوروك الحكم في الرافدين الذي يبدو هنا أن كيش تُمَثّل وجوداً متميزاً عن الجنوب الرافدي، فمعظم ملوكها أسماؤهم ليست سومرية بل أكديّة أو أمورية قديمة. وامتلكت علاقات قوية مع إبلأ وماري ووصفت بالاتحادية مع إبلأ.

في بحث مهم يذكر عدّة باحثين أهمية ثقافة كيش؛ «فقد كان لمدينة كيش سياسة خاصة وهامة، ومن المحتمل أن هذا تأتّى من موقعها الجغرافي والاستراتيجي، فالذي كان يحكم كيش وجد نفسه تلقائياً المسؤول عن حماية

ارتاحت المدن من عناء التطور قليلاً، أمّنت مجالها المعيشي والوجودي والطبيعي. التجاور والتلاصق بين المدن سيتيح المجال للاحتكاك المباشر، وللطمع في مصلحة المدينة على أختها، وسيحل عام 2500 ق.م؛ لتدخل المدن الضرائر في صراعات التحدي والمصالح.

حرب المئة عام:

قناة مائية تقع بين مدينتين؛ لاجاش وأوما، سوف تفجر صراعاً عسكرياً تدفع ثمنه أوما حسب قوائم الملوك السومرية. وفي 2500 ق.م انتقل مقر الملكية من كيش إلى مدينة لاجاش / تللو، وكان اريشكيجال أقدم ملوكها الذي ربما قاد الانفصال عن كيش. ويبدو أنّ ضعف كيش حفز مدناً جنوبية رافدية على الانفصال عن فاعليتها كمدينة شوروباك وأدب.

وتسلسلت لعبة الدومينو الجهنمية؛ فقد قويت لاجاش في زمن حاكمها «إنا توم»، وشتت حروبها على مدن أوروك؛ كيش وأور، مع ملاحظة أنّ كيش تقع إلى الشمال، ووصلت لاجاش إلى منطقة الفرات الأوسط الشامي - إلى مدينة ماري؛ فبدأ الصراع للحفاظ على مصالح المدينة، وسوف يمضي بإحساس المدينة بقوتها وحيويتها والطاقة الزائدة لاستيعاب المراكز الأخرى واحتوائها. هي قاعدة حركة التاريخ التي بدأت مع الاستقرار والزراعة وتضخمت.

قيل: قرابة 4300 ق.م بدأت الحروب بين البشر؛ لهذا طوروا أدواتهم وأسلحتهم واكتشفوا وصنعوا معادهم من أجل الموت. ثم قيل: إن للتاريخ دوائره، فنقطة البداية ربما تكون نهاية.

«جنوب الرافدين» ضد غزوات الجبلين، ومن ناحية أخرى منذ عهد كيش ضم طريق تجاري جديد... إنه طريق سفوح الجبال ينطلق من جنوب الرافدين صاعداً مع نهر دجلة حتى بلاد آشور، واصلاً بعد ذلك إلى مثلث الخابور لاجتياز الفرات بسوية كركميش، ثم إلى إبلا أو البحر المتوسط إلى الجنوب، تسمح باجتياز طوروس للتزود بالمواد الأولية في الأناضول أو أرمينيا أو العكس، والاتصال بمدن الفرات الكبرى مثل ماري. يبدو أنّ هذه الطريق تفوقت على طريق الفرات، للاستفاضة أكثر يمكن الرجوع إلى *de l' Ecriture En Syrie Aux Origines*، وهناك ترجمة عربية: «سوريا وأصل الكتابة». والحقيقة أنّ مدينة كيش أدت دوراً مهماً جداً في نظام المبادلات التجارية وحركة القوافل، القصة هنا لم تتوقف عند التجارة كما نعلم، كان هناك حيوية تنتج عن التجارة وحركتها في تبادل الأفكار والقيم والمعارف في مناحي الاقتصاد والدين والسياسة والحياة والاجتماع، ويبدو أنها أسهمت في نقل الكتابة إلى الشمال نحو ماري وإبلا وتل البيدر في الألف الثالث ق.م. وشكلت كيش مع ماري وتل براك وتل خويرة وإبلا مراكز سياسية مهمة في الألف الثالث ق.م.

في لاجاش وبعد انتصاراتها ينقلب رجل «أوركاجينا» على الملك وأصبح ملكاً. (د. مرعي يستخدم: أورو إنمجينا- انظر: تاريخ بلاد الرافدين).

السلطة في وجهها الآخر بغیضة أحياناً، فعلٌ سيؤدي إلى ردود أفعال، القوى المناوئة لأوركاجينا، وكان مصلحاً جيداً، تحالفت مع مدينة أوما المهزومة التي يحكمها «لوجال زاجيزي»، قاد التحالف إلى سيطرة أوما على لاجاش، بكى أوركاجينا بعد استباحة مدينته وقال: «حاكم أوما بما أنه دمر لاجاش ارتكب إثماً بحق (الإله) نينجرسو، سوف تُقَطَّع اليد التي مدها عليه، لا يوجد إثم ارتكبه أوركاجينا ملك جيرسو، لتجعل الآلهة نيسابا لوجال زاجيزي أوما، يحمل هذا الإثم على رقبتة». (عيد مرعي - 1991).

لعبة الدومينو ما تزال تفعلُ فعلها، فأوما التي تضخمت وضعت عينها على أورو، ويُقال: إنَّ زاجيزي جعلها عاصمةً لدولته، وهناك عند الفرات الأوسط الشامي كان لوجال زاجيزي جولةً على ماري التي دُمرت جزئياً، وصارت خطوط التجارة نُصبَ العين للمدن آنذاك، فكان التحكم بالحركة التجارية الدولية بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. ولم يكتف زاجيزي ابن «بوبو» الأكدي من الوصول إلى ماري⁽¹⁾ فحسب؛ بل وصل إلى ساحل «بحر أمورو» البحر المتوسط.

للمؤرخ «أرنولد تونبي» وجهة نظر في امتداد سلطة زاجيزي، فهو يرى أن حروبه التوسعية كانت أقل شراً على البلاد من الحروب الأهلية المستمرة الشاملة، والتوحيد السياسي الذي فرضه كان العلاج الوحيد لهذه الأزمة الاجتماعية، ذلك لأن شبكة الأقنية التي كانت قائمة في الحوض الأدنى لدجلة والفرات-الطبيعية والصناعية- كانت واحدة لا تقبل التقسيم، وإذا لم تقم سلطة واحدة قادرة على تنظيم المياه وتوزيعها فمن الممكن أن يكون هذا سبباً لإثارة الحروب بين المدن.

ففي رأي الباحث إنَّ قيام سلطة واحدة تشرف على مياه دجلة والفرات جعل ذلك أمراً ممكناً أول مرة⁽²⁾ وبالطبع لا يمكننا أيضاً إغفال الجانب التجاري وطرق التجارة آنذاك، كما المواد الخام وتوابعها.

(1) لم يمض بعد على ماري منذ نشوئها قرابة 400 عام حتى انقض عليها حاكم أوما وخرّبها وضمها مؤقتاً لفاعلية أوما المتصاعدة.

(2) توينب تاريخ البشرية، ج 1.

وَشَنَّ زاجيزي الحروبَ لمواجهه كيش⁽¹⁾ وأدب واريديو ونيبور كعادة الحاكم آنذاك
يستثمر حظوة الإله، فهو أداةٌ في يد الغاية الإلهية:

«حينما وضع انليل، ملك كل البلدان
مُلْك البلاد يد لوجال زاجيزي
حينما وجّه انليل أعين الشعب كله نحوه
وبسطَ كلَّ البلدان تحت قدميه
وحينما أخضع له كلَّ شيءٍ من الشرقِ إلى الغربِ
في ذلك اليوم أصلح انليل له
بين الطرق من البحر الأسفل (الخليج
على امتداد دجلة والفرات إلى
البحر الأعلى (المتوسط))»⁽²⁾.
يتابع: في أوروك نصّبوه كبيراً للكهنة
وفي أور رفع رأسه كالثور إلى السماء
سقى لارسا المحببة بحياة النعم
ورفع منزلة أوما مدينة الآلهة المحبوبة إلى قمة المجد
وبيتهل للإلهة انليل:

«ليضيف إلى عمري عمراً آخر

ليمنحني من المحاربين بعدد الأعشاب ويزودني بقطعان السماء».

(1) مدينة كيش غير السومرية توصلت إلى مد نفوذها وسيادتها على كل بلاد سومر (الجنوب الرافدي). ويبدو أنّ هذا تم في عهد ملكها «إتانا» الذي حكم، على ما يبدو، في بداية الألف الثالث ق.م. انظر: عيد مرعي تاريخ بلاد الرافدين.

(2) غولايف- مصدر سابق.

إلى الآن لا نعلم إن كان هذا التدين السياسي يُعبر عن تفكير الملوك والحكام آنذاك، أو كان خُدعاً لتحقيق المصالح الدنيوية عبر السماء. كما يبدو أنه قبل ذلك قام حاكم لاجاش «أي - أناتوم» بشنِّ حربٍ على مدينة أور/ أوروك وأوبيس في الشمال وكيش ومدينة «ما - ار»، ووثق انتصاراته في نصبٍ تذكاريٍّ معروفٍ باسم «نصب العقبان» الذي يُعبّر عن تقنية فنية نحتية مهمة في ذلك التاريخ.

لن يغيب عن بالنا تجييرُ الحروب وهزائمها وانتصاراتها إلى إله كعادة المدن المتدينة الضرائر أيضاً؛ «أي - أناتوم»: ناصر نينجرسو، الذي يحطم رأس البلدان باسم الربة «آين» (إنانا) و«نطق باسمه الإله انليل».⁽¹⁾

مدينة أوروك بدورها دخلت في صراعٍ مع كيش منذ 2700 ق.م، وكيش كانت قد هددت أوروك في عهد دموزي ثم في عهد جلجامش. وكانت كيش قد جعلت من مدينة نيبور مركزاً دينياً أو عاصمةً دينيةً وبنّت معبداً للإله انليل فيها، ويبدو أن كيش كانت تخشى من تصاعد قوة أوروك، فدفعها ذلك إلى محاصرة أوروك وطلب منها الانصياع لكيش، وذلك في حكم الملك جلجامش في أوروك وحكم الملك آجا في كيش.⁽²⁾

جلجامش رفض الاستسلام لكيش ودعا مجلسَ الشيوخ إلى المشورة، فعارض مجلس الشيوخ الملكَ وفضلَ الحل السلمي؛ فدفع الملك إلى دعوة مجلس النواب الذي يبدو أنه مجلسُ حربٍ ومحاربين، وطرح الملك رأيه؛ فجاء رأي المجلس بعدم التسليم بتهديدات كيش وإعلان الحرب عليها، وفي النهاية تنتهي القصة بين المدينتين بالمصالحة والصدقة.

كتبوا عن الاحتكاك الأوروكي - الكيشي بعد حين:

«وقدم رسل آجا ابن انبارجزي

إلى جلجامش في أوروك

عندها طرح جلجامش على شيوخ مدينته

السؤال التالي وطلب الجواب:

(1) توفيق سليمان- دراسات في حضارات غرب آسية القديمة- دار دمشق 1985.
(2) الصراعات بين مدن الجنوب الرافدي لا سيما كيش وأوروك وأور، دفعت عيلام في الشرق للسيطرة على الجنوب الرافدي، واستطاع ملك «أدب»، «لوجال اني موندو» أن يعيد السيادة المشرقية إلى مدن الجنوب.

أنتسلم لبيت كيش، أو نجابهه بأسلحتنا؟

أجاب شيوخ المدينة:

نستسلم لبيت كيش ولا نجابهه بأسلحتنا

جلجامش

لم يهتم، بجواب شيوخ المدينة

وللمرة الثانية يطرح جلجامش

نفس السؤال على محاربي المدينة

أجابه محاربو المدينة:

لا نستسلم لبيت كيش نجابهه بأسلحتنا

عندها أفرح هذا الجواب قلب جلجامش

وبعث في نفسه الشجاعة والأمل.⁽¹⁾

ما يلفت النظر هنا أنَّ جلجامش الملك لا يظهر بمظهر الديكتاتور المتهوّر كما تبدّى في ملحمته؛ بل ثمة نظامٌ ديمقراطيٌّ في المدينة، ولكن في المقابل إنَّ شخصية هذا الملك تصوّر تناقضاتٍ يمكن تلمسها بين الوثائق والأساطير ومجرى الأحداث.

كشفت التنقيبات في موقع تلول السيب وحداد في منطقة حوض حميرين في ديالي عن بقايا مدينة «ميتورناة» التي تعود إلى أوائل الألف الثاني ق.م. حوى الموقع على رقم مسمارية، منها نص «موت جلجامش».

الدكتور نائل حنون يشير إلى أنَّ هذا النص يصف الأيام الأخيرة في حياة جلجامش والظلال التي كانت لم تزل تكتشف مفهومه للموت حتى رضخ له، ويذهب النصُّ إلى أبعد من ذلك؛ ليصف لنا لحظة موت جلجامش وتشديد ضريحه ومراسم دفنه حسب وصية جلجامش كما يبدو.

(1) توفيق سليمان- مصدر سابق. هذه الوثيقة كُتبت تقريباً بعد 1000 عام من زمن حدوثها.

نعلم من النصّ أنّ موضعَ الضريح كان في قعر نهر الفرات بعد أن حوّل مجراه لِيُسَيِّدَ الضريحُ بالحجر وتُخْتَمَ فتحاته ويُغلقَ مدخله، ثم إنَّ النهرَ أُعيدَ إلى مجراه السابق ليخفيَ الضريحَ عن العيون.⁽¹⁾

في تفاصيل الحدث هنا: أنّ «الإله انكي بعث بإيحاءه إلى جلامش بواسطة كلب، وتضمّن الإيحاء إشارةً إلى الوضع المناسب لتشييد الضريح بحيث لا يمكن أن تُتَهَكَ حرمتُه مستقبلاً، وعلى هذا النحو يوجّه جلامش أتباعه إلى تحويل مجرى نهر الفرات، وتشيد الضريح في قاع النهر من الحجر، وتأخذ زوجات جلامش وحاشيته أماكنهم في الضريح لمصاحبة الملك في رحلته الأخيرة إلى العالم السفلي.

أخيراً يَضَعُ جلامش في الضريح الذي يغلق مدخله بحجرٍ ضخّم ويُعادُ نهرُ الفرات إلى مجراه فيغمر الضريح ويخفي موضعه إلى الأبد».

قالت الوثيقة: (بتصرف)

تمدّد هو نفسه

جلامش ابن الإلهة نسون

حيث سكب قربان الماء

أخذوا في داخل الضريح، ختموا مدخله

فتحوا نهر الفرات

تدفقت مياهه

وأخفت المياه موقع راحته

وعلى السيد الفتى السيد جلامش

(1) انظر: د. بشار خليف- حوارات في الحضارة السورية- دار الرائي - 2008.

الطريف في نص موت جلامش أنّ الآلهة منحت جلامش أن يكون حاكماً في العالم السفلي أسوةً بالإلهين ننجشزيدا ودوموزي، لا بل يقررون لجلامش خلود الذكر في عالم الأحياء عن طريق إحياء ذكره في «عيد المشاعل» السنوي الذي يتصارع فيه الشبان مع بعضهم، واختير الشهر الخامس من السنة البابلية، وهو شهر آب، لإجراء هذه المصارعة التي كان موعدها في اليوم التاسع من الشهر، يوافق موعد تقديم القرابين الجنائزية السنوية»

صرّ الناسُ أسنانَهُم

نتفوا شعورَهُم

لَطَّخُوا وجوهَهُم بالوَحْلِ

يا جلعامش، سيد كلاب، عذب تمجيدك.⁽¹⁾

تستوقفنا فكرة يذكرها د. أنطون مورتكات في كتابه «تاريخ الشرق الأدنى القديم»: يبدو لنا حَسَبَ ما تذكرهُ المصادرُ وكأنَّه ينتسبُ إلى أصلٍ غريبٍ، حيث كان يربطُ اسمهُ بمدينة كركميش في شمال بلاد الشام.⁽²⁾

حتى إنَّ الباحث يطرح هنا أنَّ سورَ أوروک المُكتَشَف الذي يُعدُّ ماثرةً لجلجامش يعود إلى عصر ميساليم ملك كيش غير السومري، (الأكدي وربما الأموري القديم)؛ وبذا يمكننا ترجيحُ أنَّ كيش كانت منطلقاً لأول عملية «تأسَم» قوية للشعب السومري. والقصد حسب مورتكات هو العنصر «السامي». (انظر: مورتكات- تاريخ الشرق الأدنى القديم).

(1) د. نائل حنون ملحمة جلجامش.

(2) في مقاربة شخصية لملحمة جلجامش حاولنا النظر إلى ثنائية الشخصيتين (جلجامش - أنكيبدو) من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي، فحين يفرغ جلجامش وأنكيبدو من قتال خمبابا الوحش في غابة الأرز وبعد انتصارهما يضع جلجامش التاج على رأسه، ويرتدي ثياباً نظيفة فتظهر له عشتار، عشتار المعجبة بقوته، وبجمال هيئته، الأنثى عشتار تصرخ أنوثتها لجلجامش: تعال يا جلجامش وكن عريسي، هبني ثمارك هدية، كن زوجاً وأنا زوجٌ لك، سأمر لك بعربة من لوزورد وذهب... فإذا دخلت بيتنا، قَبِلْتُ المنصة قدميك والعتبة...

ما استوقفني في الملحمة أن جلجامش المدني- الزراعي يتحالف مع الصياد الراعي انكيبدو في تحقيق انتصار على معيقات التطور والتقدم الاجتماعي. هذا في المنحى الاجتماعي، وفي المقابل إنَّ شخصية انكيبدو في الملحمة تشكل في البعد النفسي جانب ما تحت الشعور عند جلجامش، وهذه باعتقادي لم تقربها وتقاربها الدراسات وأدبيات الملحمة تلك.

انكيبدو يمثل في شخصية جلجامش بقايا الطبقات السفلى مما تحت الشعور، بتشكله الأول وبيدته، بقسمه الزواحف، ومركز العدوانية لدى الإنسان، وحين يواجهه فإنه يواجه نفسه، ثمَّ صراعٌ في داخله بين أفضليات التطور والتمدن وبين حياة البدء الموحشة والبرية.

والملاحظ كما في الشخصية والذهنية المشرقية أنَّ جلجامش لم يقتل انكيبدو، على الرغم من أنه نقيضه؛ بل جعله مكماً له بتدخل القشرة الدماغية سيدة الإدراك الانساني في تكييف القسم الزواحفى وتدجينه وتأنيسه.

جلجامش جعل من نقيضه انكيبدو مكماً له في مسار بقاء الحياة وتطورها.

بعد حكم جلجامش توالى على حكم أوروك اثنا عشر ملكاً، ومالت فاعلية المدينة نحو الضعف؛ لتصبح مدينة «أور» التي امتدت علاقاتها التجارية حتى الدلمون (البحرين)، وماجان (عمان)، وميلوخا، وفي وادي السند.

موقع المدينة كان محاذياً للخليج العربي، وكنا ذكرنا أنه في 4000 ق.م تقريباً عانت المدينة طوفاناً في الحقبة العبيدية، وفي 2800 ق.م شهدت المدينة نهضةً حضارية دل عليها القصور والمعابد والأضرحة المميزة، بالإضافة إلى فنون سبك المعادن وصبها، وحققت الصياغة تطوراً مهماً.

المقبرة الملكية المكتشفة في المدينة التي تعود إلى ما يقارب 2500 ق.م، تكشف الحياة في نواحي المدينة كافة؛ كالصياغة والمجوهرات والموسيقى وآلاتها والأواني ونظام البناء الجنائزي المتقدم. في المقبرة 16 قبراً ملكياً، وثمة ظاهرة غريبة في المشرق نجد مثلها في مدينة كيش، هي دفن أتباع الملك معه.⁽¹⁾

البانوراما التاريخية لحقبة الألف الثالث ق.م حتى ظهور الفاعلية الأكديّة تشي بمعطيات إيجابية وسلبية معاً. الإيجابية: تعبّر عن حالها في مجمل المنجز العمراني والكتابي والاعتقادي والذهني الذي سيكتب فيما بعد، معظم تلك الإيجابيات مثلت مرتكزات حضارية ورواثر مادية وروحية إلى ما بعد، ولم تتحقق إلا بالتفاعل والاتحام المشرقي الديمغرافي على الرغم من ظواهره السلبية المتبدية في وعي مدني لم يتطور إلى حالات اتحادية.

ربما مثلت محاولة لوجال زاجيزي نوعاً من السيطرة على البيئة الطبيعية، ولا سيما المائية، فحتمت عليه هذا الاجتياح، فالتداخل بين مدن الجنوب مهم؛ لهذا لا يمكن عدّ محاولة زاجيزي محاولات اتحادية أو وحدوية؛ بل محاولات مائة لاتفاق المدن على ناظم

(1) هنا دفن قرابة 80 شخصاً مع الملك، كلٌ منهم يمك كأساً ربما يحتوي على شراب مخدر أو مميّت.

عند مدخل قبر الملكة نحن أمام 15 جثة يبدو أنهم حرس، وألحق قبر الملكة بخمسين جثة أو مرافق. للمزيد حول الموضوع انظر: د. بشار خليف- شعائر الموت ومعتقداته في المشرق القديم- دراسات في حضارات المشرق القديم- دار الإنماء الحضاري- 2003.

شاه محمد علي الصيواني- أور- وزارة الأعلام- بغداد- 1976.

نائل حنون- المدافن والمعابد بلاد الرافدين القديمة- دار الخريف- دمشق- 2006م.

في الرّيِّ والمعيشة، ثم يأتي دور خطوط التجارة وتأمينها بواسطة مدن الفرات التي على ضفافه، ولم يكن ثمة مانعاً من الامتداد نحو بحر أمورو المتوسط لغايات تجارية أيضاً.

وثائق تلك الحقبة تشير إلى أنّ زاجيزي أخضع لسلطته قرابة 50 من ملوك الدويلات وحكامها. المدنُ الضرائرُ آنذاك ترمّلت، وكان لا بُدَّ من قفزات حضارية تطويرية تتابع محاولات مدينة كيش سيّدة التجمع غير السومري.

وفي الاتجاه نحو الجناح الشامي في الألف الثاني ق.م إن مدينة إبلا (تل مردوخ) التي لم تقم على ضفة نهر؛ بل اعتمدت الزراعة البعلية والاستفادة من مياه الأمطار قرابة 3500 ق.م، لكن فاعليتها التاريخية لم تتحقق إلا في 2400 ق.م تقريباً؛ لتستمر مئة وخمسين عاماً تقريباً، ثم تُدمر وتُعاد قيامتها في الألف الثاني ق.م⁽¹⁾ حتى 1600 ق.م. ويصف الدكتور أبو عساف ثقافة إبلا وحضورها أنّها أكدت التمازج الحضاريّ بين جناحي الهلال الخصيب، بالوثائق العلمية فالمعاجم الجغرافية -إن صح التعبير- والمعاجم اللغوية المكتشفة في إبلا هي عينها في موقع (أبو صلابيخ الرافدي)، وأكثر من ذلك أنّ مملكة إبلا من ماري إلى كيش في جنوب الرافدين، كانت تتبادلُ الأساتذة والكتّبة، وهذا يعني أن هناك علاقات ليست عابرة، وإنما قد تكون علاقات وحدوية ومتمينة؛ فهناك رسائل تتحدث عن أستاذ أتى من كيش الرافدية إلى ماري، وإلى إبلا والعكس⁽²⁾.

د. نائل حنون: في إبلا يتجلى ذلك الانتقال السريع من طريقة التدوين السومرية إلى تدوين الإبلائية الأكديّة⁽³⁾.

هورست كلينغل يناقش كتابة إبلا: جعلتنا نميلُ إلى أنّ لمنطقة الرافدين وشمال سوريا المستوى نفسه من التطور⁽⁴⁾.

(1) باولو مايتيه يشير إلى تفرّد إبلا في نشوئها: الأهمية العظيمة لاكتشاف إبلا تكمن في حقيقة أن ثقافتها هي الثقافة الأولى الراقية التي أصبحت معروفة جداً، والتي ازدهرت في وسط بيئة غير طمبية، وليس كما هو الحال في مدن الفرات ودجلة حيث البيئة طمبية.

د. بشار خليف، حوارات في الحضارة السورية- مصدر سابق.

(2) علي أبو عساف - «د. بشار خليف- حوارات في الحضارة السورية».

(3) نائل حنون- مرجع سابق.

(4) هورست كلينغل- تاريخ سوريا السياسي - دار المتنبّي - دمشق- 1998.

تقول المعطيات: إن موقع إبلا يتمتعُ بحلقةِ الوصل بين الرافدين والبحر المتوسط، كما بين الجنوب والشمال. الطريق من إبلا إلى ماري فمدينة كيش في وسط الرافدين، ثمّة شراكةٌ بين المدينتين؛ حيثُ تُنقلُ الأخشاب من جبال الأمانوس وسلسلة الجبال الساحلية السورية إلى ماري، وكذلك النيذ والمشروبات والمنسوجات والمفروشات، وماري بدورها نقلت الأحجار الكريمة؛ كاللازورد والعقيق.

ثمّة علاقاتٌ جيدةٌ بين إبلا ومصر، وطريق اللازورد آنذاك ينطلق من بادخشان في أفغانستان إلى مصر بموقع شهري سوخطة في سيستان ثم تبة هيسار، وتبة يحيى وعيلاّم فأشور في الألف الثاني ق.م، وماري وإبلا فجيبيل على الساحل السوري.⁽¹⁾ وربما كانت علاقات إبلا مع مصر تجري بمراكز ساحلية مشرقية كجيبيل مثلاً.⁽²⁾

تردُّ في وثائق إبلا أسماءُ مدن: ديماشكي (دمشق) - أمادو (حماة) - أجاريت- ايميسيا (حمص) - وأرمان الذي يُعتقَدُ أنها (حلب). كما تذكر وثائقها اسم «مارتو» الأموريين، ويشير «ألفونسو آركي» إلى أنّ محفوظات المدينة تزودنا تقريباً بثلاثين شاهداً على هذا الاسم، وجميعها ترقى إلى عهدٍ أقدمٍ بقليلٍ من عهد السلالة الأكديّة. (ألفونسو آركي- الأموريون في نصوص إبلا).⁽³⁾

حدود إبلا امتدت من منطقة الفرات الأوسط حتى ساحل البحر المتوسط، ومن سهول حمص وحماة إلى جبال طوروس. د. مرعي يعتقد أنّ نفوذها السياسي أو الاقتصادي ربما تعدّى إلى ما وراء حدودها.⁽⁴⁾

الدراسات تختلف في لغة إبلا منها كنعانية وأكديّة وربما أمورية؛ لكنها يبدو تنتمي إلى اللهجات الغربية للمشرق. الرُّقم المكتشفة في الموقع تتخطى 16500 رقم، بين رقم كاملة وأخرى محطمة، والكاملة تبلغ قرابة 2000 رقم، وما يبعث على الدهشة هو عدم وجود أي

(1) النشاط التجاري لإبلا نلتمسه في وثائقها حيث تذكر الوثائق قرابة 260 مدينةً وموقعاً يتم التبادل التجاري معها- كلوتشكوف.

الجديد حول المشرق القديم دار التقدم- موسكو- 1981.

(2) د. عيد مرعي- إبلا.

(3) يذكر آركي في بحثه معلومات مهمة عن علاقة إبلا مع الأموريين منذ 2400 ق.م، وإلحاق الهزيمة بهم ثم عقد معاهدة معهم.

(4) هورست كلينغل، مرجع سابق.

ذكر لمدينة أكد أو شاروكين في وثائق إبلا في مقابل ورود أسماء مدن رافدية وملوكها. وسجل إبلا الجغرافي ضمَّ 289 اسماً لمدينة وصل فيما بعد إلى الرافدين؛ إذ نُسخَ في الأكاديميات والمدارس القديمة.

المعاجم السومرية/الإبلائية احتوت على 3000 كلمة، تُعدُّ أقدمَ المراجع التاريخية حتى الآن⁽¹⁾. نصوص المدينة قدمت قرابة 20 قصيدة ملحمة وأسطورية من القصائد السومرية والإبلائية، والأناشيد الدينية ورقى، بالإضافة إلى نصوص الطقوس والأمثال. هنا ينبغي الوقوف للإضاءة على كتابة إبلا، فقد استخدمت النظامَ الإشاري الكتابي السومري؛ لكنها أضافت خصائص اللغة الإبلائية.

أشار حميدو حمادة في بحث له عن أن اكتشاف وثائق تل بيدر جعلنا نعيد النظر في الدراسات التي ظهرت بعد اكتشاف وثائق إبلا، هذه الدراسات ربطت التقاليد اللغوية والكتابة الإبلائية بتراث كيش الرافدي وهو رابط لا نشكُّ فيه، وعلينا الآن أن ننظر إلى وجود تراث أكثر شموليةً امتدَّ من غرب سوريا إلى أعالي الجزيرة إلى منطقة كيش وديالي، وهذا يستند إلى تقاليد لغوية محلية على صعيد النحو أو الصرف أو الأسماء. (حميدو حمادة- سوريا وأصل الكتابة).

«طورت إبلا الكتابة المسمارية، بحيث إنه بدل أن تكون مقطعية تامة، وبدل أن تظلَّ محليةً جعلتها أقرب إلى استعمال الحرف من جهة، وبذلك وضعتها من جهة أخرى على خطِّ التطور، بحيث أصبحت في متناول الأموريين وغيرهم، حيث انتهى الأمر بها [إلى] أن أصبحت حروفَ هجاءٍ»⁽²⁾.

«كلوتشكوف» يبدي إعجابه بالنصوص الإبلائية التي لا تدع مجالاً للشك في وجود مدرسة أكاديمية، خلال الألف الثالث، سواءً في إبلا أو في المراكز الحضارية الضخمة في بلاد الرافدين مثل: أوروك، وأور، وكيش، وشوروباك، وأبو صلابيخ. يقول أيضاً: لم يكن نشاط هذه الأكاديميات يقتصر على إعداد الكتب والإداريين بل كان يجري إنشاء مجمل الثقافة المكتوبة لتلك البلاد. (كلوتشكوف 1988).

(1) لم تعتمد هذه المعاجم الترتيبَ الأبجديّ؛ وإنما المبادئ الصوتية (الأكروفونية)، وفي بعض الحالات لوحظ أنه يُشارُ برموز صوتية بسيطة إلى كيفية لفظ الكلمات السومرية المعقدة، وقراءة الإشارات الرمزية (الإيديوغرامات) الصعبة الحفظ. (كلوتشكوف- مصدر سابق).

(2) نقولاً زيادة- مجلة الفكر العربي- عدد: 52- بيروت- لبنان.

ونقطة مضيئة هنا هي أنّ النصّ الرياضي الوحيد الذي حوته وثائق إبلا كتبه ناسخٌ من مدينة كيش الرافدية؛ هو كاتب كيش (اسمع إل)، كان أستاذ رياضيات كيشي في إبلا يحلُّ مسألةً رياضيةً مبنيةً على النظام الستيني.

يفترض أنّ عددَ سكان مملكة إبلا 260 ألف نسمة، ومساحتها عدت 56 هكتاراً؛ أي أنّ عددَ سكان المدينة ما يقارب 50 ألفاً. ذكرنا أن المدينة لم تقع على ضفة النهر؛ بل اعتمدت الزراعة البعلية، وسهول المدينة الخصيبة مع مناخ مناسب؛ كالينابيع والمستنقعات أمنت الوفرة الغذائية لها.

يقال: إنّ الحنطة هناك عُرِفَت بسبعة عشرة صنفاً. ويبدو أنّها حققت اكتفاءها الذاتي، حتى أكثر من ماري المعتمدة على منطقة الخابور شمالاً. النصوصُ تتحدثُ عن كميةِ الحبوبِ المخزونة في مستودعات المدينة تنبئُ بأنّها كانت تكفي بما يقارب 18 مليون شخص على مدى عام كامل.⁽¹⁾

وثيقة تحدثت عن تصدير 300 ألف لتر من النبيذ، وكميات ضخمة من زيت الزيتون من منطقة غزة. وزيت الزيتون الإبلوي يُصدَّرُ من إيمار إلى مدن الرافدين. وثيقةٌ أخرى تُعدُّ قطعان المواشي: 30 ألف رأس، وثمة 80 ألف شاة تعود إلى الملك.⁽²⁾

الذهب والفضة امتلکا حضوراً لافتاً، الحديث هنا يدور حول كميات تقدر بالأطنان، خلال عام واحد سلّمت خزانة الدولة من الفضة ما يعادل 3796 مينا / زهاء 2000 كغ، أيضاً قوائم تسميات المعادن والمهن المختلفة شملتها الوثائقُ مجموعها 500 نصّ.

المحفوظات الإبلائية تُردُّ باستمرار أسماء مدن فلسطينية ولبنانية، وفي العمق الشامي جبيل وبيروت وصيدا والالاح ومجدو وعكا ويافا واشدود. والحقيقة أنّه منذ منتصف الألف

(1) كلوتشكوف - مصدر سابق.

(2) لعل قرب إبلا من سهول بادية الشام ساعد سكانها في تربية المواشي بأعداد كبيرة، وهذا ما أسهم في صناعة الصوف والجلود.

الوثائق هنا تشير إلى أنواع عديدة في الصناعة النسيجية وسواها:

Zara- Gada - Tug - A- Da -um - Aktum.

وهناك: صوف أبيض - صوف Da - Rai - صوف ماري (مدينة ماري) - صوف ناجار (تل براك) - صوف نظيف - صوف Uduu - Ur - ألبسة صوفية. انظر - عيد مرعي - 2015.

الثالث ق.م تشيرُ الوثائق في موقع إبلا وجبيل إلى علاقاتٍ بين شمال سوريا ووسطها مع بلاد الرافدين ومصر.

الدكتور عيد مرعي يصفُ المظاهرَ الحضاريةَ الواحدة بين إبلا وجنوب الرافدين، في المنطقة الممتدة من كيش إلى إبلا، مع ملاحظة الواقع الديني في إبلا الذي يمتلك استقلاليةً عن الرافدين، ولا سيما في الآلهة المعبودة. (مرعي - 1996).

إبلا تستورد النحاسَ من قبرص عن طريق إحدى المراكز الساحلية، ومدينة كانيش في وسط الأناضول تتبعُ فاعليةً إبلا التاريخية. المعطيات تدل على وجود نظام ضريبي متطور.⁽¹⁾

الفعاليات الموسيقية الإبلائية كشفت عنها وثائق إبلا أيضاً:

نصُّ يذكر ثلاثَ مغنين كبار وثلاثة وعشرين مغنياً صغيراً من ماري كانوا في إبلا. ونصُّ يتحدث عن إعطاء أربعة وأربعين ثوباً إلى اثنين وعشرين مغنياً من مدينة سازا.

نصُّ يشيرُ إلى تسلّم مغنٍّ صغير من ماري ستة وأربعين ثوباً من نوعين مختلفين. وأحد النصوص يأتي على ذكر ثلاثين مغنياً وتسعة من عازفي القيثارة.⁽²⁾

مائة وخمسون عاماً، من 2400 - 2250 ق.م عاشتها إبلا، مدينةً ومملكةً، وسبق هذا معالمُ تطورٍ وتأسيس بدأت في منتصف الألف الرابع ق.م. المدنُّ الضرائ ما زالت تفعل فعلتها، والدواعي الاقتصادية والتجارية تتفوق على الدواعي الاجتماعية والديمغرافية والدينية. وثائق تلك المرحلة تكتب عن رسالة من «إنا دجن» ملك ماري الجديد، ويُذكر بها: ملك إبلا بانتصارات سابقة وسيطرته على الأجواء التاريخية وهو الذي أكملها.⁽³⁾

قيل آنذاك: إنَّ ملك إبلا دفعَ مبالغَ كبيرةً لماري ليتحاشى قوتها، على أنّها هديةٌ من إبلا لماري. صراع المدينتين قصة بحد ذاتها، كرٌّ وفرٌّ، مدٌّ وجزرٌّ، ثم وعيٌّ بأنَّ التساوي بين المدينتين المملكتين لا بُدَّ أن يصيغَ معاهدةً سلامٍ وتفاعلاً.

(1) يمكن الرجوع إلى الحوليات الأثرية السورية، العدد الخاص بآثار محافظة إدلب.

إبلا- مجموعة باحثين- ت: قاسم طوير - 1984 دمشق.

(2) عيد مرعي- مصدر سابق.

(3) «اشجي ماري» ملك ماري يذكر في وثائقه تحقيقَ انتصار على مدينة إبلا. بعد 13 عاماً تقريباً سيقوم ملك أكد «شاروكين» بالاستيلاء على المدينتين دون تدميرهما، وأكد الآن صارت الأب الحنون لابتين ناشرتين.

تفيد هنا دراسة ألفونسو أركي: Archi- A. victory Over Mari And the Fall of Ebla- 2003.

«ألفونسو آركي» يتوقَّع هزيمةً لإبلا أمامَ ملكِ ماري إنا- دجن، بعد حين ستقومُ إبلا بردِّ الصاعِ صاعين وتهزم ماري في زمن حكم مَلِكِهَا «إشار دامو» والحصيلة: اتفاق سلام بين الضرتين.

وأكد لم تنسَ إبلا: «شاروكين خراً خاشعاً في توتول أمام دجن وصلّى.

الأرض العليا أعطاه إياها: ماري- يرموتي- إبلا...»

كلُّ شيءٍ دنيوي، ما زال يُرمى على عالم الآلهة.

«نارام سين»، حفيد شاروكين، قرابة 2250 ق.م سيعيد تكرار المَلحمة:

«منذ خلق البشر لم يخضع أيُّ ملكٍ من الملوك، أرمانوم- إبلا.

فتح نارام سين القوي الطريق إلى هناك وأعطاه (الإله) أرمانوم وإبلا...»⁽¹⁾

كأنَّ نارام سين كذبَ هنا وبالغ؛ فقد سبقه جدُّه إلى إبلا.

الطريف في الأمر هنا خلوّ وثائق إبلا من ذكر أكد والأكاديين، وهذا يبعث على التساؤل،

فثمة تجاهل مقصود، في رأينا، الأمر هنا لا يتعدى اصطلاح المدن الضرائر.

الفاعلية الأكديّة التي عاصرت ازدهار إبلا شكّلت عنصراً ضاعطاً في الاقتصاد والتجارة

والسيادة، وكان على إحدى المدينتين أن تسود الأخرى، والقوة الأكديّة الحيوية المتصاعدة

بعد حروب شاروكين في الرافدين شكّلت رافعةً قويّةً لعوامل السيطرة على إبلا المسالمة

إلى حد ما.

لم تنتهِ إبلا على الرغم من آثار الحريق بسبب هجوم أكد؛ بل استمرت بفاعلية تابعة إلى

حين انتهاء فاعلية أكد⁽²⁾؛ ولهذا وثائق نهاية الألف الثالث ق.م، في مدة استعادة أور بواسطة

السلالة الثالثة لفاعليتها (تذكر إبلا).

(1) نارام سين كان أول من آله نفسه حين وضع علامات الألوهية أمام اسمه في وثائقه: إله أكد. والمعلوم أنّ تأليه

الملوك كان يتم في إبلا بعد موت الملوك، حيث تُقدم الأضاحي في مقابريهم.

(2) هورست كلينغل لم يجد أنّ فتوحات شاروكين كانت تعني دمج المنطقة السورية في دولة أكد. وفي رأينا أيضاً:

إنَّ هذا واضح في حقبة السيادة الأكديّة على ماري. وتلك الاستقلالية النسبية توثقها نقوش موقع مدينة جبيل

على الساحل المشرقي، حيث إن العلاقات بين سوريا ومصر كانت في ذروتها في عصر الفاعلية الأكديّة، كما

أبان موقع إبلا نقشاً للملك المصري «بيبي» الأول، يعود إلى الألف الثالث ق.م. يبدو هنا بعمق أنّ جبيل قامت

بدور الوسيط بين المواقع الشامية الداخلية ومصر.

هنا في المشترك الحضاري المشرقي نجد خصوصيةً إبلانيةً وَفَقَ ناظمِ التجانس الحضاري المشرقي. إنَّ بوابة سور إبلا العائدة إلى الألف الثاني ق.م التي أطلق عليها اسم البوابة A تشترك مع أسوار عدة مدن مشرقية في نموذجها: قطنة، الاالاخ، إيمار، كركميش، أريحا، حاصور، مجدو.

د. مرعي يشيرُ إلى أنَّ المعبد P2 في إبلا يشبهُ في تصميمه معابدَ فلسطين التي تعود إلى عصر البرونز الوسيط. وأخيراً، الأسفُ إياه، تشيرُ المعطيات إلى فقدان وثائق إبلا من سوريا خلال الأزمة الوطنية وتهريبها إلى خارج سوريا.

ماري . تل الحريري 2900 - 1760 ق.م

الصيغة الحضارية ذاتها في مدن المشرق في الألف الثالث ق.م، قرابة 2900 ق.م، ترتئي إدارةً فاهمةً وإرادةً واعيةً بتأسيس موقع مدينة على الفرات الأوسط وإنشائها، وكان الاختيار إذاً، أنَّه ربما تُنبئ الإشارة هنا إلى أن تلك الإدارة المنشئة لماري كانت تعاني صعوبات في موقع قديم، قد يكون في تل الرمادي ما حفزها لاختيار هذا الموقع الأفضل والأجدي. الرؤية الاستراتيجية والهندسية والحضارية والوعي بالمكان والتاريخ وهذا الفرات الممتد من الشمال إلى الجنوب جعلَ ماري عقدةً وصلٍ جديدة بين جهات أربع.

المنعطف الحضاري هنا هو ضروراتُ التعدين رَغَمَ موقعها الذي لا يحتوي على المعادن، حسناً، نستوردُ القصدير من الشرق (إيران وأماكن أخرى)، نستورد النحاس من قبرص، وتُحلُّ المشكلة.

هنا في ماري اجتمع التخطيط المُحكم مع ضرورات العيش والتجارة، ومعالجة الماء، مدينةً أنشئت وَفَقَ مخطط سابق⁽¹⁾، المساحة قرابة 200 هكتار. تبدو ماري مدينة مؤسَّسة لا موروثاً أو مطوَّرة عن قرية، والموقع يحفل بالسدود والمنشآت المائية من أجل الري والشرب، ثم شكَّلت مناطق الخابور الخصيبة سلة غلال لماري.

(1) نحن مع هذه الظاهرة العمرانية أو التقليد العمراني نملك أسبقية حين أنشئ موقع تل بقرص قبل ماري قرابة 3500 عام وفق مخطط سابق.

للمزيد: د. بشار خليف- حضارة مدينة ماري- وزارة التعليم العالي- سوريا- 2018.

جان كلود مارجرول- المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية- Ifapo- 1989.

أندريه بارو- ماري- وزارة الثقافة السورية- 1979.

في معالم الإنشاء يبدو أنه بُنيَ السور أولاً ثم تبعه إشادة المعابد والقصور والمباني والبيوت. جرى التوسع من المركز نحو السور، والسور أحاط بالمدينة عدا الجهة المطلّة على نهر الفرات، فزاد قطر المدينة على 1.9 كم، مع ملاحظة أنّ ماري لم تكن على الفرات مباشرةً.

«مارجرون» أشار إلى تدمير المدينة وفق مخطط وتنظيم هادفين، يشهد على ذلك منشآت المائية وآثار السور، «منظر المدينة في الألف الثالث ق.م يدل على تفكيرٍ منطقيٍّ متجانس...»

أوليفيه روو يصفُ المستوطنة تلك في ماري البعيدة عن النهر؛ لكنّها تتصلُّ بواسطة نظام قنوات معقدٍ أدى إلى تحكُّمٍ صناعيٍّ وفعّالٍ بين النهر والمدينة.

بناؤو ماري:

مع معطيات الألف الثالث قبل الميلاد وما قبله، تحدثنا عن ديمغرافيا مشرقية تمتلك ربما كتلتين أساسيتين: السومرية مع احتمال أنّ تكونَ ظاهرةً لغوية لا أكثر، بدليل غياب الصراع الديمغرافي مع الغريب، وبدليل آخر: هذه الحيوية التفاعلية بين مكونات المشرق بصرف النظر عن أطروحات الاستشراق التي شكّلت له الظاهرة اللغوية السومرية مشكلاً دفعه إلى البحث عن أصول هؤلاء الغرباء. الوثائق والمعطيات الأثرية المختلفة لم تقدم معالم شروخ بين مكونين؛ فثمة انسجامٌ والتحامٌ وتداخلٌ.

في مطلع الألف الثالث كان لكيش غير السومرية، التي تقع في شمال الجنوب الرافي ومدينه، سيادةً على الجنوب ومدينه، وأسماء بعض الملوك في المدن السومرية كان غير سومري واقترح البديل الأكدي مع عدم ولادة أكد بعد.

جان بوترو أدلى بدلوه هنا: «الحضارة فيما بين النهرين وُلدت بشكلٍ رئيسي من تكافل طويل، سومري-أكدي؛ أي سومري «سامي»، لم تعطِ كلُّ ثقافة في أثنائه من نفسها فقط، بل لقد أثّر أفراد الثقافتين كلُّ منهما في الآخر على نحو متبادل، وبالتالي غير كلُّ منهما الآخر إلى هذا الحد أو ذاك.»
بدهيُّ أنه من الصعب؛ بل من المستحيل تمييز الأشياء التي تنتمي إلى هؤلاء من الأشياء «السامية المنشأ»⁽¹⁾

(1) ايلين مونساكرية- بابل والكتاب المقدس - مرجع سابق.

مقولة أخرى للدكتور أبي عساف: إنَّ السومريين لم يسهموا في حضارة الجناح الشامي للمشرق؛ بل قامت على أكتاف الأكديين والماريين والإبليين، وضمن هذه الدوامة المعرفية في الأصول يمكننا مقارنةً الديمغرافيا المارية بأنها تنتمي إلى الديمغرافيا المشرقية التي سادت في شمال الجنوب الرافدي وصولاً إلى مواقع الجناح الشامي الشمالية، أما التسمية الدقيقة فتنجبنها؛ لكنَّ البصمة محليةٌ متجذرةٌ إنَّ كانت أموريةً قديمةً أو أكديّة.

شيء آخر هنا: منذ اختراع غرابة الظاهرة السومرية باللغة المُلصقة جرى تجزيءٌ ديمغرافيٌّ للمشرق، لكننا علمنا ونعلم أنَّه منذ الألف الرابع كانت الديمغرافيا المشرقية متداخلة من الجنوب إلى الشمال، ثمَّ إنَّ هذا الأنبوب المائي (الفرات) مثلاً ضامناً جغرافياً للتاريخ المشرقي، فمعظمُ المدن وُضعت حول ضفافه، ومعظم السفن مارسَت تجارتها بين الشمال والجنوب والعكس، ونعلم أنَّ التجارة حمالةٌ معتقداتٍ وأساطيرٍ وأفكارٍ وتفاعلاتٍ؛ لهذا تضيعُ معالمُ الخصوصية هنا نسبياً.

وفي ماري قال بارو: ثقافةٌ ماري سومرية تفتحت في وَسَطٍ غيرِ سومريٍّ!

لا يمكننا النظر إلى ثقافة ماري وُفَّقَ هذا المنحى الفيزيائي؛ فالتفاعلات في وجوها المختلفة ليست عنصرية؛ بل اجتماعية، وعلى ذلك نظر إلى ثقافة ماري ضمن النطاق المشرقي المتجانس دون صرفِ النظر عن الاختلافات المحلية بين المواقع تبعاً للبيئة المحلية.

وُفَّقَ ذلك، ثقافةٌ ماري مشرقيةٌ متفاعلة أثرت وتأثرت، وحين نقول: إنَّ الثقل الحضاري منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد كان في مدن الجنوب الرافدي، فهذا يخلق معالمَ تفاعلاتٍ وتأثراتٍ سنجدها في فنون ماري مع نشوئها، وسوف نتابعُ هذه الثقافة وكيف أخذت بماريتتها وجهاً حضارياً مشرقياً واضحاً.

في النصف الأول من الألف الثالث ق.م كان الاتجاهُ التفاعليُّ لماري مع المدن الرافدية لم يكن في المشرق مدناً ذات تكامل واضح بعد. شكَّلت علاقة اشنوننا مع ماري ثنائياً مهماً، كذلك مع كيش؛ لهذا سنجد أنَّ المعطيات الأثرية من فخارٍ أو فنون كانت متأثرةً بصفاتٍ

أنطون مورنكات يركز على فكرة أنَّ منحوتات ماري تحمل كتابة «سامية» أقدم من عصر سلالة أور الأولى، ما يعني أنَّ التشكل الأساسي لماري كان مشرقياً غير سومري. انظر: تاريخ الشرق الألف القديم - 1967. دمشق.

رافدية في الشكل والروحية، ولغة ماري يُعتَقَدُ أنَّها أكديّة: قديمة أو أمورية قديمة بتعبيرٍ أصح، وحوت المدينة معابد لآلهة رافدية وأمورية.⁽¹⁾

قراة 2500 ق.م ونتيجة الصراعات المزمنة بين المدينتين: أوما ولاجاش، وانتصار ملك أوما لوجال زاجيزي، وجعله عاصمته مدينة أوروك، تمتد فاعلية هذه المملكة إلى ماري، والمعطيات تشير إلى السيطرة على ماري مع بوادر تدمير، فسرعان ما تخرج منه واقفةً على نهرها. ومع القضاء على مملكة زاجيزي قراة 2340 ق.م من قبل شاروكين الأكدي سوف تكون ماري مع جولة من السيطرة الأكديّة عليها.

ذكرنا: «شاروكين خرّ خاشعاً في توتول أمام دجن وصلّى

الأرض العليا أعطاه إياها: ماري- يرموتي- إبلا».

عانت ماري فقدانها سيادتها ثلاث مرات تقريباً في منتصف الألف الثالث ق.م، لوجال زاجيزي. في الثلث الأخير من الألف الثالث ق.م تقريباً، الفاعلية الأكديّة، بعد الأكديين امتد تأثير مملكة أور السلالة الثالثة عليها، وفي الثلث الأول من الألف الثاني ق.م، الفاعلية الآشورية وقتلتها الفاعلية البابلية.

وذكرنا عوامل الكرّ والفرّ للسيطرة على الحياة التجارية والمعيشية في الجناح الشامي بين ماري وإبلا، ومع هذا استطاعت ماري قراة 2400 ق.م أن تهيمَ مجالها الحضاريّ في منطقة الفرات وحوض الخابور⁽²⁾، وغدت ماري مفتاح التجارة النهرية على نهر الفرات.

«مارجرون» يُذكر: «وادي الفرات الأوسط عاش عصره الذهبي في فترة البرونز، وهذا الوضع يتطابق واللحظة الحاسمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، حين كانت سهول الرافدين التي سارت على خطى حضارة أوروك تتجه بنفسها نحو البحر المتوسط».⁽³⁾

(1) جورج لامبيرت يشير إلى وجود أسماء آلهة سومرية في معابد سورّية، وكذلك أسماء آلهة سورّية في معابد سومرية، ومن ثمَّ فإنَّ الحديث عن مجمع ديني في سورية أو الرافدين لا يكتمل إلا بالتطرق إلى كلا الجانبين.

دراسات تاريخية- د. فيصل عبد الله- قراءة في مجلدات من ماري- عدد 38/37.

(2) ماري في الألف الثالث ق.م امتد نفوذها حتى كركوك في وقت ملكها إيبلول ال، ومنطقة كوموكينا في الأناضول.

(3) مارجرون- الفرات الأوسط في عصر البرونز- الوثائق الأثرية السورية- 2002.

المعالم الاقتصادية لماري في الألف الثالث ق.م كشفتها وثائق إبلا التي أشارت إلى اعتماد المدن الجنوبية في الرافدين المواد الخام من خشب وذهب وفضة التي تأتيها من مدن الجناح الغربي لا سيما إبلا وماري.

خلو ما بين النهرين من الأخشاب والحجارة والمعادن جعل ماري تفرض نفسها مركزاً لصناعة المعادن المستوردة، وطريقاً تجارياً لا بُدَّ منه بين الجنوب والشمال في أوائل الألف الثالث ق. (1)، والمشهد الاقتصادي/ التجاري آنذاك يُقدم نسبةً من التكامل بين المدن المشرقية؛ فمدينة لاجاش استوردت النحاس من الدلمون (البحرين)، والقصدير من الشمال، والخشب من عيلام والدلمون، كذلك مستحضرات وزيوت الأشجار الأبرية من الجناح الشامي.

أور بموقعها شكلت ميناءً بحرياً على الخليج العربي، ومصباً لحركة التجارة على الفرات وعبر البر من الشمال (2). ونشير هنا إلى أن التجارة كانت تعتمد المقايضة وثمة بعض البضائع تُسدّد أثمانها بوزنات فضة.

هناك نشاطٌ تجاريٌّ مشرقِيٌّ مع أفغانستان في تلك الحقبة، وثقتهُ لقي هي أحجارٌ كريمةٌ وعادية، صنعت منها الحليُّ والأختامُ الأسطوانية، هذه اللقى وُجدت في مدن أوروك وماري وأور وإبلا.

«كلينغل» أشار إلى مشاركة مواقع الألف الثالث في الجناح الشامي بالتجارة البعيدة بالأحجار الكريمة. (كلينغل - تاريخ سوريا السياسي).

الملاحظة هنا هي مشاركة مواقع الخليج العربي في التجارة الدولية آنذاك؛ كموقع فيلكة في الكويت، وجرها في السعودية، والدلمون في البحرين، وأم النار والعين وجلفار في الإمارات العربية، وماجان في عُمان، وكانت على اتصال مع المواقع المشرقية. شملت

(1) Exposition Syro - Europeenne Margueron - D archeologie - Mari -1996

(2) في موقع ماري عُثرَ على هديةٍ مقدّمةٍ من مدينة أور إلى مدينة ماري:

«أهدى هذه الخرزة المغزلية، إلى الربة غال، ميزانيبادا ملك أور، عندما كان أنسود ملك معيرا / ماري»، كنز أور، جرة حوت على تمثال صغير من العاج لامرأة عارية، تمثال صغير من النحاس لإلهة عارية، على شعرها عصابة جبهية من الذهب، نسر برأس أسد تم نحته في لوحة سميكة من اللازورد، رأسه وجناحه من الذهب، تم تنزيل العينين بإتقان، ثم أساور من الفضة والنحاس، ثمانية مشابك من الفضة والبرونز والذهب وأشياء أخرى أهمها خرزة كبيرة من اللازورد متعددة الوجوه نقش عليها كتابة.

مواقع هذه الحقبة أيضاً مواقعَ موازيةً لماري وإبلا، وتختلفُ بدرجةٍ فاعليتها في تل براك (ناجار) وتل بيدر (نادابا) التابع لتل براك.

وثائق ماري زادت على 25000 رقيم، وقدمت إضاءةً شاملةً في عصرها الذهبي في الألف الثاني ق.م، وفي الحقبة الأمورية، وكذلك فترة سلاله أور الثالثة. التفاصيل الحياتية في الوثائق أذهلت الباحثين، ما دفع جان بوترو إلى القول مثلاً: «مثالٌ أُوردهُ بكل سرور، في ماري قرابة 1800 ق.م، وبين خمسة عشر أو عشرين ألفاً من الرقيمت والقطع، ورد في أرشيف طباخ القصر عدة مئاتٍ من الوثائق من جميع المقاسات، دونت عليها، يوماً بيوم، على مدى شهور وسنين، وبالتفصيل «أطعمة وكميات، تتغير باستمرار»، كلما ذهب رئيس المطبخ لطلبه من متجر الأغذية النباتية، لدينا أيضاً بعض الوثائق التي تهتم اللحام، ولكنها أقل بكثير من أجل تحضير وجبة الملك، ولست متأكداً من أننا نجد القدر نفسه عن أيام وسنين فرانسوا الأول أو هنري الرابع المطبخية».⁽¹⁾

إذاً فمشرق الألف الثالث ق.م ممالكٌ مدنٍ تتصارعُ حيناً وتتصالح حيناً آخر، والغاية مصلحة لا أكثر.

انفردت كيش كمدينة مركز، وهيأت الأسس لما سيأتي إلى جنوبها، وفي الجنوب الرافدي استطاع لوجال زاجيزي أن يضمَّ المدنَ إلى فاعلية أوما، وجعل عاصمته اوروك، وتمدد لمصلحة مملكته، وهناك إلى الشمال في كيش كان ثمة حضورٌ سيؤسس لمشرق جديد استند إلى معالم الالتحام الجنوبي الشمالي والعكس، وانبثق بحاصلٍ جديدٍ مع الفاعلية الأكديّة.

بقيت ملاحظة صغيرة تقول: إنَّ نهر الفرات لم يفصل بين الجناحين المشرقيين، وهذا لم يحصل إلا مع تحديد الإمبراطورية الرومانية حدودها الشرقية في نهر الفرات. ولعلَّ مقارنة عالم الملاحة والتفاعل مع الماء يقدم أدلة على تجاوز سكان المشرق للعامل النهري في العلاقة بين الجناحين؛ ففي الألف الأول قبل الميلاد عبّر أحد الملوك الآشوريين الفرات ما يقارب ثمان وعشرين مرة لملاحقة التواجد الآرامي مثلاً.

(1) مجموعة مؤلفين - الشرق القديم ونحن.

ثم يلحظُ الباحثُ في معالم التدين أنَّ هذه الظاهرة في الجناح المشرقي الشامي كانت أخفَّ وطأةً مما كانت عليه في الجنوب الرافدي، وربما يعود هذا إلى تأثير البيئة والوسط الحيوي، فالرافدي أكثر حدَّة، ما يعني التدين الأكثر خوفاً مقابل الاعتدال البيئي في الجناح الشامي الذي خلق توازناً دينياً؛ لأن الدين ظاهرة اجتماعية.⁽¹⁾

ساحل الجناح الشامي للمشرق وجنوبه في الألف الثالث ق.م:

قدَّر الجغرافيا أن تُوجدَ بعض الحضارات في بيئة طبيعية وحيوية وتضاريس تُقدِّم إمكانات التطور وفاعلية حضارية، كما كان الوضع في بلاد الرافدين والشمال الشامي ووسط الفرات، مقابل وجود حضارات فرُضتْ الجغرافيا نوعاً من الانكماش؛ كما في مواقع الجنوب الشامي في الأردن وفلسطين وكذلك لبنان نسبياً. والطبيعية الجغرافية لفلسطين لا تسمح بامتداد مديني بسبب التضاريس وكثرة الجبال.

كانت سوريا ولبنان وشرق الأردن تشكل امتداداً جغرافياً وطبيعياً وحياتياً لفلسطين، والاتصال المباشر مع قطب أقوى كان مع مصر، أما الرافدين فكان الاتصال أضعف بسبب البعد الجغرافي، ومع هذا كانت ثمة علاقات تجارية مباشرة بين إبلا ومواقع فلسطين، وبين ماري وحاصور.

تدلُّ التنقيبات ودراستها على أنَّ كلاً من جيبيل وأجاريت وحماة وبيت شان ومجدو وجزر وعاي وتل خويرة في الجزيرة الشامية وغيرها سكنها الكنعانيون تقريباً منذ منتصف الألف الثالث والألف الثاني ق.م.

أولُ الوثائق التي ذُكر فيها الكنعانيون كذكر جغرافي كان في إبلا، وذلك نحو منتصف الألف الثالث ق.م في النص ت. م 2367/75، ويُعتَقَدُ أنَّ منطقة كنعان كانت مجاورة إبلا. وفي وثائق مدينة ماري قرابة 1800 ق.م أيضاً، وبعد ثلاثة قرون تقريباً ظهرت في الوثائق المصرية، كما في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر ق.م. (كناخخي)، كذلك نجد ذكرهم في نقش ملك الالاح، «إدريمي».

(1) لم تعد المنظومة الدينية العائدة إلى الألف الثالث صالحَةً لعالم الألف الثاني قيل الميلاد، والأسباب هي التطورات الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية والروحية، ولكن بقي استخدام الآلهة استمراريةً تعبيريةً؛ فهذا هو حمورابي يكتب قوانينه التي يغلفها بتعاليم آنو وأنليل.

النصوص المسمارية ذكرت تسمية (ك ن خ ن) على كنعاني الساحل السوري، وفي نصوص آجارت وردت تسمية كنعان: (ك ن ع ن)، وكذلك في النصوص الفينيقية البونية، وفي المقابل النصوص التوراتية أطلقت اسم «ملك كنعان» على حاكم مدينة حاصور شمال فلسطين، كما وردت تسمية أرض كنعان في نصوص مدينة نوزي الرافدية (كناخي).

بصورة عامة حُدِّدَت حدود كنعان من وادي العريش بقطاع غزة في فلسطين جنوباً حتى شمال أعالي جبال لبنان شمالاً، وما بين البحر المتوسط غرباً وحفرة الانهدام، كسهل البقاع وجبال الجولان، وغرب الأردن والبحر الميت شرقاً (كفافي)، والأرض الكنعانية كانت تضم سوريا وفلسطين من الحدود المصرية حتى آجارت.

«فيليب حتي» يتابع انتشار المدن الكنعانية الأولى على طول الساحل من جبل كاشيوس حتى الكرمل في الجنوب، ويتَّهم تعرجات شاطئ المتوسط أنَّها سببُ قلة عددِ الموانئ. أهم المدن هنا ازدهرت في سفح جبل لبنان: طرابلس، وبوترس (البترون)، وجبيل، وبيرتيوس (بيروت)، وصيدا، وصور، وفي فلسطين: غزة، وعسقلان، وفي الداخل نجد جزر، ولاخيش، ومجدو، وحاصور، وشكيم، وأورشليم⁽¹⁾.

في وثائق تل العمارنة في القرن الرابع عشر ق.م يبدو أنَّ بلاد كنعان كانت تشمل المنطقة الجنوبية من بلاد الشام، فقد وُصِفَت على الساحل الشرقي الواقع في الجنوب وحوض نهر الكبير الجنوبي، ومملكة حاصور في سهل الحولة شمال فلسطين، كذلك من اسكندرون شمالاً إلى غزة جنوباً. والذي يبدو عامَّةً أنَّ الامتداد الكنعاني شمل معظم بلاد الشام، مع تركُّز مختلف بين منطقة وأخرى؛ ولكن يُشار هنا إلى المنطقة الساحلية الجنوبية وفلسطين خاصةً.

من هنا نقارب فهم مقولة: «إنَّ ممالك بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام الشمالية كانت أكبر وأهم من الممالك الجنوبية، ولا نبالغ إذا قلنا: إنَّ الأهمية تنقص كلما انتقلنا من الشمال إلى الجنوب»⁽²⁾.

(1) فيليب حتي - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين - ت: جورج حداد- عبد الكريم رافق- دار الثقافة- بيروت، 1982.
(2) د. علي أبو عساف- نشوء الممالك القديمة- مرجع سابق.

شيء آخر: لعبت حركة التاريخ لعبتها في بعدها الجغرافي، فالوجود التاريخي المصري الفاعل إلى جوار الجنوب الشامي وساحله دفع تلك المواقع المشرقية الشامية، التي هي في الأساس محدودة المساحة، إلى نوع من التبعية، وبتصور أخف: نوع من الممالة تجاه الأقوى.

«موسكاتي» يتطرق إلى فكرة مهمة في علاقات الأقطاب الأقوى (بلاد الرافدين، مصر) مع سوريا وفلسطين يقول: «الرافدين تحاول ما استطاعت تحقيق فتوحات دائمة، وحتى نفي جماعات ضخمة من الشعوب المغلوبة. المصريون يكتفون بفرض ضريبة على الأمراء المحليين، أو على الأكثر التحكم في نشاطهم عن طريق مقيمين مصريين وأهدافهم اقتصادية لا سياسية. مخططهم أقل صرامة إلى حد كبير»⁽¹⁾.

«ريدفورد» يتحدث أيضاً عن السياق نفسه من انخراط المصريين في شؤون فلسطين وسوريا بين 3100 و2700 ق.م.

وفي استعراض بسيط لمواقع الجنوب الشامي سنجد في لبنان: جبيل، ومنطقة سهل البقاع.

وفي فلسطين: تل المتسلم، وأريحا، وخربة اليرموك، وحرية الكرك، وبيان، وتل الفارعة الشمالية، وتل تعنك.

المعطيات العائدة إلى العصر البرونزي في فلسطين تمنح دلالة على أن مواقع فلسطين كانت تتمتع برخاء يماثل ما تمتعت به أيام الإمبراطورية الرومانية.

«دونالد ريدفورد» يُقدّر عدد السكان في فلسطين في العصر البرونزي بمئة وخمسين ألف نسمة، في حين أن عدد المستوطنات تسعمئة موقع، لكن التوصيف العام للمواقع ليس حصرياً بالمطلق، فأكبر المواقع لم تتجاوز مساحتها 16 هكتاراً، وهذا مثلاً يناقض مساحة مدن المشرق آنذاك؛ فأوروك مثلاً: بلغت 400 هكتار، وماري 200 هكتار. ويتابع الباحث: إن تجمعات تلك الحقبة لا تُعدُّ مدنًا بحالٍ من الأحوال، وفي رأينا هذا يُحسب على مواقع الأردن وجنوب الشام.

(1) سبتينو موسكاتي- الحضارات السامية القديمة- ت: د. السيد يعقوب بكر- دار الرقي- بيروت- 1986.

وفي فلسطين أيضاً يُلاحظُ أنَّ أعلى كثافة سكانية كانت في مناطق وادي الأردن ووادي جزريل والسهل الساحلي الشمالي، فقد تمركز تقريباً في عشرين بلدة كبيرة، نصف السكان، كل بلدة يحميها سورٌ وتتبعها عدة قرى، وبعض المواقع وصل عرضُ سورها إلى 10 أمتار، وكانت الأسوار مدعمةً بأبراج وبواباتٍ محصنة.⁽¹⁾

في جنوب الشام موقع خربة الأمباشي، وفي اللجاة موقع لبوة. يُعتقَدُ هنا أنَّ موقعَ خربة الأمباشي كان مركزَ تواصلٍ بين مواقع بلاد الشام ولا سيَّما في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، فهو يتوسطُ المسافةَ بين حوضِ الفرات الأوسط والأردن وفلسطين. في الأردن: خربة الزيرقون، تل السعيدية، وطبقة فحل، وخربة التبراوي، وتل العميري، والنميرة.

موقع خربة الزيرقون في الأردن يقعُ في شمال شرق أربد، يؤرخ بدايته منذ النصف الثاني من الألف الرابع ق.م، ومضى في التطور. يكشفُ الموقع عن سور عرضه أربعة أمتار وبوابتين، قدمت معطيات الموقع أيضاً معبدًا، ودمى صلصالية، ومنحوتات بازلتية، والمباني الإدارية تشي بوجود سلطة؛ وما يميز هذا الموقع وجودُ ثلاثة أنفاق بعمق 100م، أنشئت لغاية الحصول على المياه الجوفية.

الفخار يمنح دليلاً مهماً على علاقات مع مصر وفلسطين على التوالي، أيضاً ثمة طبقات أختام تضيء على علاقة ما مع الرافدين⁽²⁾. الاتصالات التجارية بين مصر ومواقع فلسطين، لا سيَّما، أريحا، وبيسان، وتل المتسلم، توضحت في الألف الثالث ق.م⁽³⁾. وطريق التجارة

(1) بعد ظهور الكتابة الهيروغليفية صار بالإمكان الإضاءة على التفاصيل الفلسطينية آنذاك قرابة 3000 ق.م، وهكذا وُصف سكانُ فلسطين أو نسبوا إلى «أزياء الجلود»، كونهم يرتدون مآزرًا من الجلد، «لابسو المئزر» وكذلك: «المئزرون»، كما أطلق عليهم اسم «القواسون»؛ لاستخدامهم المتقن للقوس والسهم، وكذلك «أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر من الرمال».

انظر: دونالد ريدفورد- مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة- ت: بيومي قنديل- المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة- 2004.

(2) زيدان كفاي- مصدر سابق.

(3) المنفذ الرئيس بين مصر وآسيا كان يتم عبر موقع فلسطين، وهذا ما جعل النفوذ المصري على فلسطين قوياً. تذكر الوثائق المصرية تصدي مصر لهجوم قبائل من فلسطين أدى إلى تهديد مصالح مصر في منتصف الألف الثالث ق.م. يشار هنا إلى قيام ملك مصر ببني الأول بحملة عسكرية لتأديب الآسيويين في الصحراء.

انظر: عز الدين غربية- العلاقات الحضارية بين فلسطين ومصر في عصر البرونز القديم- دراسات في تاريخ وآثار فلسطين 2/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- 1982.

عبر ساحل شبه جزيرة سيناء الشمالي على المتوسط إلى فلسطين، هذه الطريق استُخدمت في الصلة بين مصر والهلال الخصيب، وهو طريق بري، وثمة طريق ساحلي يصل بين مصر وموانئ الساحل المشرقي؛ حيث تشير الموانئ إلى أن السفن المصرية، منذ مطلع الألف الثالث ق.م، كانت تبحر بمحاذاة الساحل من ميناء إلى آخر، وذلك من الدلتا المصرية حتى مدينة جبيل أيضاً، كما كان لأجريت دورها في هذا الخط التجاري، وقد مثلت جبيل وأجريت دوراً تجارياً لجهة التفاعل التجاري بين مصر والمشرق وآسيا الصغرى، وكذلك كريت وجزر المتوسط الشرقية. ثمة أيضاً طريقاً تجاري بحري على البحر الأحمر، حيث مثل وادي عربة في جنوب فلسطين طريقاً بحرياً وبرياً، وامتاز هذا الطريق بسهولته ما بين بئر السبع وخليج العقبة على البحر الأحمر.⁽¹⁾

وفي إضاءة على مواقع فلسطين في الألف الثالث ق.م، بشكل مفصل نجد موقع مجدو: السويات 1-4/- وبيت شان 15-11/- وأريحا 3-7/⁽²⁾- وخربة الكرك 2-4/ عاي، ورأس العين، وتل الناصبة، ولاخيش، ورأس الناقورة، وتل الفرعة الشمالي، وتل عراد.

مع ملاحظة أن القدس سكنت في هذه الحقبة بعد كل هذا، فنحن في نهاية الألف الثالث ق.م ومع تغييرات كبيرة وهزات مناخية فديمغرافية سوف تودي بفلسطين مثلاً إلى دمار مواقعها في الألف الثالث؛ كأريحا وخربة الكرك وتل المتسلم ومدينة عاي (تل)، وكذلك سنجد موقع جبيل يُعبر عن هذا بدماره (السوية الرابعة).

الأموريون إياهم انساحوا من منطقة جبل بشري إلى مدن المشرق عامة؛ بل أشارت الوثائق إلى معاناة مصر من هؤلاء «التعساء».

أوصى الملك «خيتي» الثالث ابنه ووريثه «مريكارع»:

الآسيون التعساء سيئة هي البلد التي يعيشون فيها

غير مريحة فيما يتصل بالماء

غير عملية بسبب الأشجار الكبيرة

(1) المصدر السابق.

(2) موقع أريحا في الألف الثالث ق.م أبان عن أختام اسطوانية وطبعاتها، وتبين أنها تشبه ما في مواقع الرافدي المتزامنة.

طرقها سيئة بسبب الجبال

إنهم لا يستقرون في مكان واحد

لا يُغلبون ولا يُغلبون⁽¹⁾»

الدكتور سامي الأحمد يشير في كتابه «تاريخ فلسطين القديم» إلى نزوح بشري إلى فلسطين بدءاً منذ ما يقارب الثلث الأخير من الألف الثالث ق.م. ومعالم هذا النزوح وطبيعته تبيّن أنه على علاقة وثيقة مع المعالم الحضارية في جيبيل وجنوب الشام، ما يدلُّ على احتمال هجرتهم من الشمال عن طريق وادي الأردن إلى أريحا التي دخلوا منها البلاد. هنا يُذكرُ دخولُ سلميٍّ يحملُ معه تقاليدَ مستحدثةٍ في البناء وحياة المدينة. واستعمال الموجة الجديدة هذه للطابون دل على احتمال مجيئهم من الجزيرة الفراتية، لعلَّهم طلائعُ الأموريين⁽²⁾.

الملاحظة هنا هي أن غالبية المواقع الفلسطينية في عصر البرونز توضع في الشمال والوسط، عدا بعض المواقع في الجنوب⁽³⁾.

جيبيل (ببيلوس):

إلى الشمال من بيروت ما يقارب 60 كم، على الساحل الشرقي، قامت جيبيل موقِعاً صغيراً منذ 6000 ق.م، هذه القرية الصغيرة سوف تتطور تبعاً للزمن لتصبح مدينةً موروثَةً بامتياز، وقد حوى موقعها على اثنتي عشرة سوية أثرية، وفعاليتها التاريخية سنلاحظها فيما بين 3000 و2300 ق.م، هي ميناء شرقي امتلك علاقات وطيدة مع مصر؛ لهذا تُعدُّ من أهم موانئ المشرق آنذاك.

في عام 2800 ق.م أُحيطت المدينة بسور له بوابتان: واحدة من جهة البحر وأخرى من جهة البر، هنا ظنّت بعض الدراسات أن المدينة آنذاك أنشئت وفق مخططٍ سابقٍ.

(1) عز الدين غربية- مصدر سابق.

(2) سامي الأحمد- مصدر سابق.

(3) د. سامي الأحمد- مرجع سابق.

خلال هذه الألفية يبدو أنّ المدينة سيطرت على الساحل المشرقي، وعلى سلسلة الجبال إلى الشرق منها التي تمكّنها من الوصول إلى غابات الأرز التي تغطي سفوحها، وعلى غابات الأرز هنا عينان طامعتان: مصرية ورافدية.⁽¹⁾

وتبعاً للوضع الجغرافي إنّ معالم التأثير بالثقافة المصرية كانت أقوى من التأثير بالشرق، على عكس أجريت التي استطاعت مسكّ العصا من المنتصف في علاقاتها الحضارية والثقافية، وأطلق المصريون تسمية كبنة Kubna على مدينة جبيل، ومع كل هذا تباهتُ جبيل بأنَّ مؤسسها هو الإله «ايل».

تفقيبات المدينة أثبتت تأثراً بأساليبٍ معنية في فنّ البناء متماهية بالتقاليد المصرية العمرانية، والخط التجاري البحري بينهما كان ينطلق من دلتا النيل إلى جبيل.⁽²⁾ الصادرات الجبلية شملت النيذ وزيت الزيتون، بالإضافة إلى الخشب والزيوت والصمغ، وفي المقابل استوردت جبيل الذهب والمعادن، والبردي من أجل الكتابة. حيوية العلاقات التجارية لنحظها بقوة فيما بين 2700 و2200 ق.م، ولم تقف القصة عند ذلك؛ فُجبيل علّمتُ المصريين أساليبَ جديدة في صناعة السفن. قالت مصر: «لقد وهبتُ حتحور سيدة بيبيلوس مهارة صنع المجاذيف».

أطلقت مصر على أسطولها اسم «جبليت»، وستبادلها جبيل بالاعتراف: لقد جاءت المهارات التقنية من هناك (مصر)، حتى وصلتُ حيثما أقف الآن. في ذلك الوقت وهبَ فرعونُ مصر قرايينَ سخيةً لإله في أرض بعيدة يجعله شعبها، لعبت جبيل دورها في نقل حضارة الجناح الرافدي إلى مصر.

وصنعتُ المعادن، فالنحاس للأسلحة، والفضة لأدوات الزينة، الانتشار الجبيلي نجد آثاره في إنشائها هيكلًا للإله «باخوس» في الجهة الغربية من جزيرة قبرص، وكحال مدن المشرق شهد النظام السياسي وجودَ مجلسٍ للشيخ في جبيل.

(1) مصر فيما يقارب 2750 ق.م استوردت محمول الأرز من جبيل على أربعين سفينة من الخشب لغايات عمرانية، ولا سيما لبناء المقابر، كذلك نجد زيت الأرز والراتنج من مستوردات مصر من جبيل لاستخدامات التحنيط في مصر.

(2) هناك طريق بري أيضاً يبدأ من دلتا النيل بمحاذاة الشاطئ إلى سيناء، حيث تتفرع إلى عدة فروع: منها الشمالية على محاذاة شاطئ فلسطين نحو جنوب لبنان.

أرنولد توينبي يعتقد أن لغة جبيل كانت «سامية» حين بدأت صلاتها الحضارية مع مصر أول مرة، وذلك في الثلث الأول من الألف الثالث ق.م، فالوثائق الرافدية في أور، التي تعود إلى نهاية الألف الثالث ق.م، تذكر اسم «عبادي» حاكم جبيل.

ما يميز موقع المدينة في الألف الثالث معبدها المُسمَّى «معبد المسلات أو النُصب»، هذا المعبد حوى عدداً كثيراً من النُصب ارتفاعها يتراوح ما بين 25 سم و ثلاثة أمتار، وتنتشر من غير تناسق وترتيب، هذه النصب شكّلت تقليداً دينياً كونه «بيت ايل». والوقائع الدفنية وشعائرها كشفتها مقبرة تعود إلى 4000 - 3000 ق.م ذكرناها سابقاً.

في الثلث الأخير من الألف الثالث ق.م، ومع بوادر الانسياحات لطلائع الأموريين، وطّدت مصر علاقتها بجيل مصلحةً، والملك «أونيس» المصري تمكّن من أن يحافظ على جيل بأسطوله. الملك «بيبي» الأول أرسل «أوني» القائد العسكري، في أوائل عام 2300 ق.م، بحملة عسكرية إلى سوريا وفلسطين، حيث حارب «سكان الرمال»⁽¹⁾.

يبدو أن تلك المحاولات المصرية لم تعط ثمارها، فقد دُمرت جبيل قرابة 2300 ق.م. وبعد حين سوف تنشأ جبيل في الألف الثاني ق.م، معتمدة الحجارة القديمة لها، ويبدو أنها كانت تنتظر الفاعلية الأمورية الحضارية لتفعل فعلها المشرقيّ فالمصري أيضاً.⁽²⁾

(1) مع نهاية الألف الثالث ق.م يعاني النشاط التجاري المتوسطي بين مواقع المشرق ومصر من اضطرابات، وستعزى بالتأكيد إلى الانسياح الأموري وقبيله، وتضطرب مصر:

«لم يعد أحد اليوم يسافر شمالاً إلى جبيل

فما الذي سنفعله عوضاً عن الأرز اللازم لمومياتنا؟

فقد كان النبلاء يُحَنطون بالزيت الآتي من هناك،

وما هو أبعد منها حتى كفتو (كرت)

ولكن هذا لم يعد يأتي. (نص ايبور).

وفي موازاة هذا ومع تخلخل العلاقات التجارية المصرية والجيلية يبدو أن تجار الرافدين الذين كانوا في خدمة ملوك أور قد استطاعوا كسب موطئ قدم لهم في جبيل على حد ظن هورست كلينغل (تاريخ سوريا السياسي).

(2) استندنا إلى مراجع عديدة في تبيان ثقافة جبيل وموقعها: دراسات في تاريخ وآثار فلسطين، تاريخ فلسطين القديم. د. سامي الأحمد-

تاريخ لبنان الحضاري. يوسف السودا- تاريخ البشرية. أرنولد توينبي- تاريخ لبنان. فيليب حتي- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. فيليب حتي- عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام. زيدان كفاقي- علي أبو عساف- نشوء الممالك القديمة، تاريخ الحضارة الفينيقية. جان مازيل- مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة. دونالد ريدفورد.

أكد ابنة كيش:

لـ «ألفونسو آركي» قارئ محفوظات إبلا وجهة نظر تقول: «إنَّه من الواضح أنَّ كلاً من سوريا وشمال بلاد الرافدين وفلسطين، غالباً ما كانت مأهولةً من قبل شعوبٍ تتكلَّم اللغة ذاتها، وذلك -على الأرجح- منذ نهاية الألف الرابع ق. م.»⁽¹⁾

ناقشنا الواقع التاريخي والديمغرافي في الجناح الرافدي، والتمسنا التأثيرَ المشرقي غير السومري في الجنوب الرافدي بمدينة كيش الواقعة في شمال جنوب الرافدين الذي سُمي بالسومري في الألف الثالث ق. م.

يبدو من حركة التاريخ والمجال الديمغرافي أنَّ منطقةً وسط الرافدين إلى شماله وشمال الجناح الشامي إلى وسطه تقريباً شكَّلت ديمغرافياً متجانسةً واحدة، بعض الباحثين أطلق عليها الهوية الأكديّة قبل ولادة أكد.

نحن نعلمُ أنَّ كيش منذ مطلع الألف الثالث ق. م. مدّت فاعليتها إلى الجنوب المسمى سومرياً؛ بل صالحت مدناً وحكّمت فيما بينها، ثم امتلكت هذه المدينة مع فاعلية إبلا وماري في -الألف الثالث ق. م.- وموقع تل أبو صلابيخ، علاقات مميزة شبه اتحادية، وثقافية بامتياز.

من هنا نلاحظ أنَّ هذه الفاعلية الديمغرافية المشرقية تُشكّل بؤرة حضارية تتناسب مع الثقل الحضاري الجنوبي الرافدي؛ فهي أثرت فيه وتأثرت به، ويبدو أنَّ معالم هذا التمازج والتفاعل كلُّه بحاجةٍ إلى الكشف عن موقع مدينة أكد الغائب عن الأنظار.⁽²⁾

ونعتقدُ أنَّ ثمةً رابطاً توأصلياً ممتداً منذ مواقع الألف الرابع قبل الميلاد في شمال الجناح الشامي على الفرات ووسطه مع مواقع الفرات الأعلى والأسفل، ويستند في معظمه إلى الفاعلية الديمغرافية التي توصف بالالتحام السومري/ الأكدي أو السومري/ الأموري القديم، وهكذا.

ضمن هذا الناظم التاريخي كان على مدينة أكد أن تنشأ من رحم كيش المتعبّة. لم تنبثق الفاعلية الأكديّة انتقاماً من الجنوب الرافدي/ السومري، كما تشير بعض الآراء والأدبيات

(1) الحوليات الأثرية السورية عدد 47 - 48.

(2) المُعتَقَد أنَّ موقع أكد يقعُ بينَ بغداد والديوانية.

التاريخية. واللحظة التاريخية هنا قدّمت نفسها للأخذ بمعطى حضاريّ جديد مع قدّمه الديمغرافي. إنّ التعبّ الجنوبي في الرافدين، وحروب لوجال زاجيزي ومحاولاته لضمان المجال التاريخي لأوروك، كان قد بلغ ذروته، وكيش غير السومرية تعبت أيضاً.

دوماً نجد في تاريخ المشرق رافعةً حضاريةً استراتيجيةً تولّد في لحظة خلق جديد من أجل الاستمرارية الحضارية، هنا «أكد» وبعد موتها ستنبتق فاعلية «أور» جنوب الرافدين لتكمّل المهمةً بجناحين إن صحّ التعبير (سومري-أكدي).

هذا نجد توثيقه في قائمة الملوك السومرية التي وضّحت لنا تلك المتواليّة التاريخية في انتقال المُلْكِيّة من مدينة إلى أخرى: «أوروك سقطت بقوة السلاح، وانتقلت ملكيتها إلى أكد. وفي أكد شاروكين الذي كان ساقياً عند ملك كيش؛ أور- زبابا قد أصبح ملكاً وهو الذي بنى أكد وحكم لمدة 56 عاماً»⁽¹⁾.

تقول الحكاية: إنّ شاروكين حلّم بأنّ عشتار منحه رعايتها، وأنّ ملك كيش (أور- زبابا) الذي يخدمه شاروكين⁽²⁾، ستغرّفه عشتار في نهر من الدم. والطيبة الأكديّة هنا هي أنّ شاروكين قصّ الحُلْم على الملك الذي حاول التخلص منه بإرساله إلى ملك أوروك لوجال زاجيزي طالباً التخلص منه وقتله، وتنتهي الحكاية هنا بفقدان تمّة الألواح المسمارية لها،

(1) ربما انزلت قائمة الملوك هنا في ذكر أنّ شاروكين هو من بنى مدينة أكد، لكنّ نصوص ملك أوروك، العائدة إلى 2500 ق.م، تشير إلى أنّه احتل أكد وكيش ونيبور وخمازي، وسيطر على منطقة سومر قرابة 2350 ق.م. انظر: عيد مرعي- اللسان الأكادي.

(2) بالطبع اسم شاروكين صيغ بعد أن أصبح ملكاً، ولا يُعرف اسمه الحقيقي؛ لكنه ابن (لاني بوم)، حسب أسطورة رافدية. وربما امه هي من القدشتو (كاهنات المعبد) ومعنى الاسم: الملك الحقيقي. وُلد في مدينة «أزوبيرانو» الواقعة ربما عند مصبّ نهر الخابور أو البليخ على الفرات، حسب ولادة شاروكين، وقد ناقشنا أصل شاروكين والآراء المختلفة حول ذلك، وميلنا إلى أنه أموري، ولعلّ منطقة ولادته تشي بهذا أيضاً، يعتقد أنّ عمره حين قام بسعيه الملكي كان في العشرينات. والمعطيات هنا تشير إلى تحالف شاروكين في خطوته الملكية مع بؤر بشرية تنتمي إلى أصل واحد؛ لهذا حين ضمّ مواقع الجناح الشامي قال: إنه جعلها ذات «فم واحد». ونحن نعلم هنا أنّ المملكة الأكديّة امتدت بنواتها الحقيقية من الفرات إلى سواحل البحر المتوسط شاملة بلاد الرافدين. للاستزادة يمكن الرجوع إلى: عيد مرعي- تاريخ بلاد الرافدين- اللسان الأكادي.

توفيق سليمان- دراسات في حضارات غرب أسية القديمة.

فوزي رشيد- سرجون الأكادي.

علي أبو عساف- أثار الممالك القديمة في الجزيرة وطور عابدين.

A.K.Grayson, The Empire of Sargon of Akkad, 1974.

وما يعيننا هنا استطاعةُ شاروكين أخذَ المُلكية من ملك كيش، ومضى في تحقيق تطلعاته المشرقية.

إلى الجنوب كان ملك أوروک (لوجال زاجيزي) الذي أسس مملكة مُهمّةً، وكان والد هذا الملك أكدياً، وهذا ينفي أي صراع سومري-أكدي حَسَبَ التعابير الشائعة، ويُؤكد معالم الالتحام المشرقي بأروماته الاجتماعية كافةً.

الحيوية التاريخية للوجال زاجيزي منحتُه السيطرةَ تقريباً على خمسين ملكاً وحاكماً في المشرق، لا نعتقدُ أن سعيه كان توحيدياً أو اتحادياً؛ لكنه كما أشار توينبي إلى وحدة المصالح التي تستوجبُ قيامَ حالةٍ من التجانس ذات ركيزة سياسية.

صراعات المدن الضرائر: وهنا أصبحت الممالك الضرائر تخرج إلى العلن، لم يكن، كما يبدو، أن لم يحصل اتحاد بين مملكة لوجال زاجيزي ومملكة شاروكين بين طموح الرجلين، فإلى المعارك إذن، حيث تذكر الوثائق ما يقارب أربعة وثلاثين حرباً خاضها شاروكين ليضمَّ الجنوب الرافدي إلى تطلعاته الملكية.

أخيراً سقطت أوروک، وأُسِرَ ملكُها «زاجيزي» الذي رُبطَ من عنقه بطوق كلب، ووُضِعَ في قفصٍ للحيوان، واقتيدَ إلى مَعْبِدِ مدينة نيبور المقدسة، ولم يكتفِ شاروكين بذلك؛ فقد أغار على معظم مدن الجنوب، وهدم أسوارها مما يدلُّ على انتهاء سيادتها؛ لكنَّهُ احترم ديانات المدن الجنوبية ومعابدها.

أطلق على نفسه اسم «كاهن الإله انليل»، وهو من أحبته عشتار أيضاً، وها هي ابنته «إنخيدوأنَّا» تصبح كاهنةً للإله القمر «نانا» في مدينة أور، ويُلاحظُ هنا أن اسم ابنة شاروكين سومري، ويبدو أنها ورثت عن أمِّها هذه المرتبة الدينية.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كانت الظواهر الدينية وطقوسها أولويةً سومريةً أكثر من غيرها؟

بين النشوء التطوري والنشوء المكتمل:

الرمزية هنا في سوق الملك لوجال زاجيزي إلى معبد نيبور؛ إذ تحملُ خلفيةً فكريةً ينبغي الوقوفُ عليها، فليست القصة هنا حرباً فقط؛ بل قد تأخذنا إلى صراعٍ فكريٍّ فلسفيٍّ في قصة النشوء.

وإذا تأملنا مدرسة نيبور الفكرية نجد أنّها تؤمنُ بأنَّ خالقَ الكون هو الإله، والبشرُ ظهرُوا من الأرض مثلما يظهر الحشيش فيها؛ أي البشر من الطين والتراب، والبشر الأوائل ساروا على أربع، ولم يعرفوا الملابس ولا أكل الخبز؛ إنما تناولوا العشب وشربوا من السواقي. وهذه المدرسة ينتمي إليها شاروكين، نحن مع المدرسة التطورية إذًا.

في الطرف الآخر شكّلت مدرسة اريدو، المدينة الرافدية الجنوبية المقدسة أيضاً، خطأً فكرياً يعتقد أنّ الخالق هو الإله «إنكي» إله الماء والأرض والحكمة، أما الإنسان فخلق من الطين ولم يكن بُدائياً؛ بل كان يمتلك بعضاً من الحكمة الإلهية، ولوجال زاجيزي كان من أتباع هذه المدرسة ذات النشوء المكتمل. يبدو أنّ سوقَ تابعِ مدرسة النشوء المكتمل كان لغاية شاروكين؛ أنّ الإنسان ابن التطور لا الاكتمال في النشوء.⁽¹⁾

وكعادة الملوك المتدينين في المشرق عندما ضمَّ ما ضمَّ إلى مملكة كيش قال «راعي الشعب» شاروكين: إنّ الإله انليل أعطاه كلّ البلاد الواقعة بين البحر الأعلى (المتوسط والبحر الأدنى والخليج العربي)، ومضى إلى مدينة «أكد» ليجعلها عاصمةً لمملكته الجديدة.⁽²⁾

شملت الفاعلية الأكديّة مواقع الجناح الشامي: إبلا، وماري، وتوتول، ويرموتي، ويبدو أنّ شاروكين لم يلبجأ إلى أن يُفقد مدن الشام سيادتها؛ بل بقيت تحت الإشراف الأكدي من غير هدمها.

قام شاروكين بمهاجمة أماكن بؤر «الأموريين» إلى الغرب والشمال الغربي من مملكته، وهي التي تقطنها قبائل أمورية كانت متحالفةً معه في حروبه الجنوبية، ثم واجه عيلام جنوب شرق بلاد الرافدين، العدو التقليدي للرافدين، وقبائل الجبال في الشمال الشرقي؛ جبال زاغروس، وسيطر على سوبارتو (آشور).

أخيراً اكتمل المشهد الأكدي: شاروكين جعل سفناً من ميلوخا (باكستان) وسفنناً من ماجان (عمان) وسفنناً من ديلمون (البحرين) ترسو في ميناء أكد.⁽³⁾

(1) ربما لهذا السبب سوف نجد كتبة مدينة نيبور بين 1900 و1600 ق.م قاموا باستنساخ الكتابات الأكديّة الأصلية، وكان الكتبة من أتباع معبد انليل في المدينة.

(2) مع عدم العثور على موقع مدينة أكد إلى الآن الوثائق المتأخرة تشير إلى أنّ أكد كانت معروفة في منتصف الألف الأول ق.م.

(3) Ibid.S.37. ff.

قالت قائمة الملوك السومرية: ملك أكد حكم 56 عاماً، ومات ليستكمل الحكم وراثياً ممزوجاً مع تمرّد مدن المملكة الأكديّة، حتى إن «مانيشتوسو» ملك أكد واجه تحالفاً مكوناً من اثنين وثلاثين حاكماً في الشمال الغربي من سوريا وانتصر عليهم.

قالت الوثيقة: تجمعت لمحاربتة اثنتين وثلاثين مدينةً تقع على الجانب الآخر من البحر فهزمهم وأخضع مدنهم، وأصبحت البلاد كلها في قبضته حتى مناجم الفضة في جبال طوروس.⁽¹⁾

ابنا شاروكين خليفته: ريموش وأخاه مانيشتوسو، انتهى حكمهما بالاعتقال. وفي فترة نارام سين ابن مانيشتوسو يبدو أن المجد عاد إلى المملكة الأكديّة، حتى يُعتقد أن حدودها أصبحت أوسع من عهد جده، وكالعادة سوف تتزعم كيش حلفاً من عشرين حاكماً لمدن للتمرد على أكد، وسينيه نارام سين ويعيد السيطرة الأكديّة على الجناح الشامي؛ لكنه سيُنهي مدينة إبلا ويُدْمَرُها في وقت كان قد أنشأ فيه قصرًا له في ناجار (تل براك) فوق معبد قديم. ومع أن الترحيحات العلمية تنظر إلى هذا القصر موقعاً عسكرياً أو تجارياً يقوم بعمله على الطريق التجاري المؤدي إلى جنوب الأناضول، يبدو أنه كان لإبلا إرادة في توسيع مملكتها بما يؤثر في أكد، والذي يتبدى هنا أنهما تشكلان مدينتين ضرتين بامتياز.

ما يستوقفنا هنا أن نارام سين أله نفسه، وتشهد النقوش العائدة إليه على علامات الألوهية، بينما كان جده شاروكين قد أله بعد موته واستعملت عبارة: «شاروكين إلهي»⁽²⁾. مات نارام سين وخلفه ابنه شاركالي شاري، وفي عصره بدأت طلائع الانسيحات الأمورية تزعج مملكة أكد، فهاجم الملك جبل بسار (بشري). والقصة نفسها، فبعد حين سيقتل ملك أكد خادموه قرابة 2198 ق.م. وبموت شاركالي شاري عانت أكد الاضطرابات والضعف، وحكمها عدة ملوك، وفي 2195 ق.م قُضِيَ على أكد بهجوم الجوتيين من جبال زاغروس إلى الشرق.

(1) Op.Cit., P.108, J.bottero.

(2) للدكتور توفيق سليمان رأي آخر، فهو يرى أن شاروكين هو من مهّد الطريق للتأليه عندما أطلق على شخصه تسمية «شاروكين إلهي» ثم جرت هذه التسمية على خلفائه «ريموش إلهي»، وكان مانيشتوسو وشاركالي شاري يضعان الشارة أو علامة الألوهية قبل اسميهما في نصوصهما، ولكن هنا حسب سليمان: إن نارام سين كان أكثر تطرفاً عندما جعل علامة الألوهية لا تفارق اسمه «الألوهية المطلقة» أي إله أكد. انظر- دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة.

هنا لا يمكنُ العبورُ فوقَ قبرِ أكد دون أن نعاينَ الأسبابَ الحقيقيةَ الكامنة خلف الانسِيَاحِ الجوتي، مع ملاحظة الانسِيَاحِ من الغربِ الأموري بعد موت نارام سين على أقرب تقدير.

ذكرنا عبودية المدن والممالك والحضارات بسبب المناخ ومزاجه، وهنا أماًطَ هذا العدو اللثامَ عن دوره في إضعافِ أكد، ومن ثمَّ التهمها وقضى عليها الجوتيون الأدنى في السُّلْمِ الحضاري، وهذا ما سوف يتكرَّرُ في أور، فكأنَّ الأمرُ متتابع، تبادُ مدنٌ وتُنشأُ مدنٌ جديدة. والغريب هنا أنَّ أغلب المصادر التاريخية لم تنظرُ إلى دور المناخ في التبدلات الكبرى للحضارات؛ كالانهيارات الفجائية أو المرحلية، وحُصِرَ الأمرُ بصراعاتٍ بشرية، لا بصراعاتٍ تفوق قدرة الإنسان كالمناخ.

يعترف المناخ هنا بدوره أنَّ المملكة الأكديّة كانت أكثر استهدافاً للتغيرات المناخية المفاجئة، يتضح هذا اتضاحاً كاملاً أعلى التيار في الأماكن الأثرية بسهل الخابور، غرب الفرات في سوريا.

وفي تل ليلان شمال شرق سوريا ومنذ 2600 ق.م شكّل هذا الموقع مدينةً تتبّعها قرى عديدة، والإدارة هنا حوّلت الأراضي المحيطة بالمدينة إلى أراضٍ زراعية مُحكّمة الإنتاج ومُنظّمة بدقّة، مخازنُ الموقع المكتشفة تغطي مساحة 200م²، وجرات المخازن حوتُ بذوراً نباتية جرى درُسُها وغرِبلتها بعناية (بذور الشعير وقمح الإمر وقمح الحنطة الصلب)، وكانت البذور تُعالجُ في الحقول وتُسَلَّمُ فيما بعد إلى المدينة.⁽¹⁾

نحو 2300 ق.م بلغت مساحة الموقع 100 هكتار، ونعلم أنَّ نارام سين احتواها وبنى مركزاً أكدياً فيها، وبعد تدمير القرى والبلدات المجاورة للموقع ورثَ الأكديون النشاط الزراعي، وصار هناك فوائض ضخمة من الحبوب، وبعد مئة عام مزحَ المناخ، وكنا قد ذكرنا ثورة بركان جبل كوكب قرابة 2200 ق.م التي أدت إلى جفافٍ طويلٍ لمدة 278 عاماً، وأثر في منطقة المشرق عامةً، فرياح البحر المتوسط الغربية الرطبة صار يُشكُّ في أمرها.

المشهد في تل ليلان: حقولٌ صارت أحواضاً لغبار بركاني تتقاطعُ فيها قنواتُ ريٍّ مملوءةٍ بالطين، وزوابع حلزونية صغيرة تندفع بين براعم الشعير والقمح الذابلة، وماشيّةٌ بانَت

(1) فاغان-الصفيف الطويل.

عظاؤها. ويشير فاغان إلى انهيار مملكة أكد كالبناء الورقي عندما انهارت أراضيها الزراعية، شيئاً فشيئاً كان يتقلص نفوذ أكد حتى غدت عاصمةً تحيطُ بها منطقةٌ صغيرة.

من طرائف الوثائق هنا العثورُ على مجموعة مؤلفة من سبع وأربعين أعجوبة رافقت سقوط أكد، بعضها قال: رأسٌ مقطوعٌ صاحَ بصوتٍ عالٍ، وفرس ذات قرن في شمال جبينها، وفي بابل شجر نخيل مذكر حملَ ثمرًا، وأسد وضع وخنزير بريٌ دخلوا المدينة.⁽¹⁾

هنا في المنعطف المناخي الحاد تنسأح الشعوب والجماعات الجائعة نحو المدن المتهالكة، فتلك الجماعات لم تملك بعدُ من أدوات الحضارة ما يقيم أودها، والجوتيون من الشمال الشرقي للرافدين، والأموريون من الجناح الشامي (جبل بشري). ف«أكد» مدينة غدر بها المناخ، وقلَّب مملكتها إلى ضريح. ولنتنظر 300 عام تقريباً حتى يُعاد تشكيلُ مشرق جديد بأرومة بشرية لا تختلف عن الأكديين.

بعد موت أكد قالت قائمة الملوك السومريين: أكد ضُربت بالسلح وانتقلت الملكية إلى أوروك. وفيما بعد ستتحدث الأشعارُ والنصوص التنبؤية عن سر دمار أكد: الآلهة أقسموا على تدمير أكد وكلُّ أشكال الحياة فيها بسبب ارتكاب الملك نارام سين جريمةً دينيةً في مدينة نيبور المقدسة، حلت المجاعة أيضاً في البلاد وهجم الجوتيون.⁽²⁾

نبوءة موت أكد:

أعضاء الحيوانات التي كانت تُستخدَمُ للتنبؤ بالمستقبل توقعت هذه الفجيعة: ثورٌ يأكلُ ثوراً آخر في اللحظة نفسها التي كان فيها الملك يقدم الأضحية الحيوانية التي سيتم قراءة الطالع عن طريق النظر في أعضائها⁽³⁾. وأيضاً ظهرت النبوءة للملك شاركالي شاري: عدوك يظهرُ عليك وينهي السلام الذي أنت فيه.

قرناً ونصف قرن استغرقت حياة مملكة أكد مشابهةً زمن الحياة الإبلائية؛ ضرتان في زمن واحد. ففي المستوى الحضاري تُمثلُ الهجمة الجوتية حالة أدنى ثقافة من الثقافة الأكديّة، وحسب علوم الاجتماع سوف تسعى الثقافة الأدنى إلى أن تدمر الأرض ثقافياً إن لم تُهضم

(1) انظر: حضارة مدينة ماري-د. بشار خليف.

(2) J. Gadd, Op. Cit., P.456.

(3) Kubert Amelie, Op. Cit., P.49.

فيها، وهذا ما حصل بالفعل؛ إذ تذكر الوثائق: «ثعابين الجبال اختطفوا الزوجة من زوجها، الأطفال من آبائهم، نقلوا الملكية من سومر، وبكت البنات، المدن بسبب الجوتيين».

وثيقة أخرى: البلاد في أيدي أعداء قساة

سيقت الآلهة إلى الأسر

أثقل كاهل السكان بالضرائب

جفت الأقينة وشبكات الري

نهر دجلة أصبح غير صالح لعبور السفن

لم يعد بالإمكان ري الحقول

ولم تعط الحقول محاصيلها.⁽¹⁾

الجنوب الرافدي بقي في منأى عن الهجوم الجوتي، وهذا ما فسح المجال لانبعاث المشرق من جديد قرابة 2164 ق.م، في مدينة لاجاش في الجنوب الرافدي وإعادة تأسيس مدن مثل: أوروك، وأور، وإيسن، ولارسا وغيرها.

المُلاحَظُ هنا أنَّه في أثناء السيطرة الجوتية على أكد كان الانسحاق الأموري يُسيرُ تجاهَ أكد من الجهة الجنوبية الغربية. وفي 2112 ق.م تقريباً قامت أوروك بدورها الحضاري في طرد الجوتيين من المشرق بملكها «أوتوخينجال» الذي عيّن «أورنمو» حاكماً على أور؛ إذ تمرد عليه لتنتقل السلطة إلى أور تقريباً في 2110 ق.م. قالت الوثيقة: ضُربت أوروك بالسلاح وانتقلت الملكية منها إلى أور، وفي أور أصبح أورنمو ملكاً، وحكم 18 عاماً.

(1) د. بشار خليف- حضارة مدينة ماري- مرجع سابق.

وتذكر النصوص أيضاً الجوتيين كانوا يسرقون الحيوانات ولهم سمعة سيئة وتشبههم بالأفاعي وعقارب الجبال، الذين لا يعرفون قدسية للمعابد ويحطمون تماثيل الآلهة وينهبون الكنوز ولا يرحمون امرأة أو طفلاً. (Schmokol, Op., Cit., 5.-30)

مقاربات أكديّة:

تقليداً مشرقياً حضارياً: كلُّ ثقافة تأتي تجبُّ ما قبلها وتُطورُ وتبني على المنجز القديم، والثقافة الأكديّة امتلكت الأساس المادي والروحي للحضارة مع قلة زمنها، وهي لم تكن نقيض المنجز السومري بل مكملته له.

وشيء آخر يتعلق بمعالم فصل الدين عن الدولة، فنحن لم نَقعْ على وثيقة أو نصٍّ يشيرُ إلى هذا بوضوح؛ ولكنَّ الإشارات التي نقرأها، من أنَّ القصر كان يصادرُ أملاك المعبد إلى حد ما ليحتكر استثمار أراضيها وحقولها، فهذا يعطي انطباعاً أننا أمام سيطرة السلطة الزمنية على السلطة المعبدية ولكن لا انفصال بينهما، لا سيما حين ندرُكُ وقفة الملوك في المعابد أمام تماثيل الآلهة خشوعاً وطلباً للحماية والرضا:

شاروكين الملك حرّاً راعياً في توتول أمام الإله دجن وصلّى.

نصب النصر لنارام سين يظهر الملك المؤله (قرنان على خوذته).

«الإله نيرجال فتح الطريق لنارام القوي... بسلاح دجن... أخضع أرمان وإبلا...»

أيضاً كان شاروكين حسب النصوص «مفوض أنليل».

لم يفصل الأكديون الدين عن الدولة؛ لكنهم حجّموا المعبد إلى حد ما، بحيث لا يؤثر في القرار السياسي للدولة.⁽¹⁾

المفصل الثقافي المهم هنا هو كتابته اللغة الأكديّة بالمسمارية، وسبق أن تحدثنا عن ذلك، وقد شاع اللسان الأكدي على مدى المشرق وتواصل حتى الألف الثاني ق.م، مقابل انحسار السومرية شيئاً فشيئاً. وهنا في الألف الثاني ق.م سادت اللغة الأكديّة وأصبحت لغةً عالميةً وبقيت سائدةً حتى القرن الخامس قبل الميلاد مع انتشار اللغة الآرامية.

يشار هنا إلى أنَّ محفوظات ماري كُتبت بالأكديّة، وكذلك وثائق مكتبة آشور بنيعل في الألف الأول قبل الميلاد، والكثير من وثائق أجاريت على الساحل المشرقي.

(1) مقارنة الوثيقة هنا هي أن الدولة الأكديّة نقلت النشاط الاقتصادي والتجاري إلى القصر الملكي، وأصبح المعبد خاضعاً لإشراف القصر، ولا يدخل في دائرة الصراع بين سلطة وأخرى بقدر ما هو استجابة لمعالم التطور الذهني والثقافي والاعتقادي والاقتصادي والاجتماعي للمجتمع.

أما علاقة اللغة العربية بالأكدية فإنَّ جذور اللغة العربية موجودة في الأكدية، ومعظم التراكيب اللغوية والقواعدية ومصادر الأفعال وجذورها وتصاريف الأسماء والصفات الأكدية تشبه ما هو موجود في اللغة العربية.⁽¹⁾

الدكتور فيصل عبد الله يشير إلى الطابع الحضاري الأكدية الذي تلوَّن بألوان مدن الألف الثاني ق.م، وعلى رأسها حلب ماري وبابل وجبيل، هذا الطابع الذي ما يزال قائماً وسائداً إلى يومنا هذا.⁽²⁾

ونضيف إلى ذلك آشور وحاصور وقطنة وكركميش وغيرها، وفي النهاية مثَّلت الثقافة الأكدية ركيزةً وملمحاً أساسياً من ملامح الشخصية المشرقية وحضارتها، وبانتظار الإضافة الآرامية التي ستكمل دائرة الشخصية المجتمعية لهذا المشرق.

انبعاث المشرق:

دامت سيطرة الجوتيين 100 عام تقريباً، فالجنوب الرافدي لم يكن على اتصال مباشر مع الاحتلال الجوتي كأكد. يشير «زاماروفسكي» إلى «توصل مدن أوروك ولاجاش وأور إلى اتفاقات مع زعماء القبائل الجوتية، وحصلت بذلك على استقلالها». (انظر- السومريون 2015).

تمرد المشرق، لاجاش بقيادة ملكها «أور- بابا» نهض بالمدينة ثم خلفه «جوديا» صهره. بعد سنتين عاماً ستنهض أور عبر سلالتها الثالثة. الدراسات والأدبيات التاريخية ذكرت أن هذا هو عصر انبعاث سومري جديد بعد الفاعلية الأكدية، لكن استعراض أسماء ملوك السلالة يوضح ما يلي:

ملوك السلالة خمسة، خلف كل منهم أباه في الحكم (وراثية السلطة).

أول ملك هو أور- نمو ثم شولجي، وهما سومريا الاسم.

ثالث حاكم هو ابن شولجي (أمارسين أو بور- سين) يحمل اسماً أكدياً.⁽³⁾

(1) عيد مرعي- تاريخ بلاد الرافدين- مصدر سابق.

(2) فيصل عبد الله- الحوليات الأثرية السورية- عدد 43.

مقدمة في علم الأكاديات- دار الأبجدية.

(3) د. نائل حنون- حقيقة السومريين. ويذكر هنا أيضاً أنه حتى في سلالة شاروكين الأكدية نجد أسماء صيغتها سومرية لبعض ملوكها مثل: الملك الحادي عشر «شو - دورول» ونعتقد أن هذا الأمر يؤكد حال الالتحام السومري/ الأكدية، إن اعتبرنا أن المكون السومري يمثل شعباً خاصاً وهذا ما نستبعده.

الدكتور علي أبو عساف، في مؤلفه «آثار الممالك القديمة في سوريا» يعنون الفصل الخامس بـ«العصر السومري الأكدى الجديد» إشارةً إلى ما ورد سابقاً من اصطلاح النهضة السومرية، ويضيف: إنَّ النهضة السومرية/ الأكدية تمَّت بمساعدة الكنعانيين الأموريين.

الدكتور عيد مرعي في مؤلفه «تاريخ بلاد الرافدين» يشيرُ إلى أن مَظاهر الحضارة آنذاك تُظهرُ تأثيراً بالمظاهر الأكدية، ويُحسبُ هذا على مجمل أوجه الحيوية الحضارية من فنٍّ ودين ولغة؛ إذ إنَّ اللغة السومرية أخذت كثيراً من الكلمات الأكدية واستعارت استعمالاتٍ أدبيةً معينةً.

إذاً بالرؤية الشمولية لم يعدُ بإمكاننا الحديث عن نهضة سومرية، كما أوضحت الدراسات التاريخية، نحن الآن أمامَ معطى تراكميٍّ بدأ منذ الألف الرابع قبل الميلاد وتساعد متفاعلاً بالسلم والحروب، والتجارة وتفاعلاتها، وأساسه التحام سومري/ أكدى إن صحَّ القول.

على ذلك تُجمِعُ الدراساتُ الرصينة على نفي حصولِ صراعاتٍ إثنية بين مكونات المشرق بتنوعاته ومزيجه الديمغرافي. وكحال مدن المشرق الضرائر حين تواجه عدواً خارجياً فلا بُدَّ من الاتحاد قسرياً لمواجهة وجوديةً هنا.

في عام 2116 ق.م يقوم تحالفٌ بقيادة حاكم أوروك «أوتوخينجال» مع حكام مدن الجنوب الرافدي، ويُطردُ الجوتيون من المشرق. وفي عام 2111 ق.م يتمردُ أورنمو، حاكم أور الذي عينه ملك أوروك حاكماً عسكرياً، على حاكم أوروك في زمن قياسي غريب بين طردِ الجوتيين والانقلابِ عليه.

قالت قائمة الملوك السومرية: ضُربت أوروك بالسلاح... انتقلت الملكية منها إلى أور، في أور أصبح أورنمو ملكاً وحكم 18 عاماً، ومضت السلالة الوراثية في أور. رتبَّ أورنمو بيت الجنوب الرافدي وثمة أدلةٌ على ورودِ اسمه في موقع «تل براك» شمال شرق سوريا، تميزت فترة حكمه بصدور قوانينه التي مثلت أساساً لما سيأتي من قوانين مشرقية في تنظيم أحوال المجتمعات. نهضة عمرانية نجدها في بناء الزقورات في عدة مدن من مدن الجنوب الرافدي، كذلك نجدُ آثاره الفنية والاجتماعية، والاقتصادية والتجارية والأدبية.⁽¹⁾

(1) «زودن» يرى أن ملوك هذه السلالة لم يطمحوا إلى إنشاء مملكة كبرى، لكنهم ألَّهوا أنفسهم، مع الإشارة هنا إلى أن جوديا كان يحكمُ مستقلاً في مدينة لاجاش، في مقابل أنَّ المدن التي كانت تتبع أور، عمد الملك شولجي خليفة أورنمو ابنه إلى التقليل من صلاحيات حكامها. انظر- زودن- مدخل إلى حضارات الشرق القديم.

رابع ملك في سلالة أور كان «شو سين»، في زمنه 2036 - 2028 ق.م ، بدأ التدفق الأموري من الجناح الشامي يتزايد، ونعلم أنّ أحوال المناخ آنذاك منحت جفافاً نحو 300 سنة منذ نهاية أكد؛ فأنشأ الملك سوراً في منطقة الفرات الأوسط للحدّ من تدفق الأموريين إلى بلاد الرافدين.

قالت الوثيقة: «السنة التي بنى فيها شو سين الملك جدار مارتو الذي يبعد تيدانوم (اسم قبيلة أمورية).

وسرعان ما سنقع في فترة خليفته «إبي سين» على تراكم الأخطار من جهة الغرب الأموري والشرق العيلامي، حتى إنّ «إشبي إرا» الأموري من ماري استطاع الاستيلاء على مدينة «إسين» وجعلها عاصمة له⁽¹⁾، بينما كان نبلائوم الأموري يسيطر على مدينة «لارسا». شيئاً فشيئاً ضعّف المركز؛ فانفصلت المدن واحدة تلو الأخرى.

بينما كان المناخ قد ضرب أكد وتل ليلان؛ فحطّنا رحالهما في الجنوب الرافدي في أور، وسطّ خطرين ماحقين من الشرق والشمال الغربي. تمكن العيلاميون من أور؛ لكنّ «إشبي إرا» استطاع طردهم بعد سبع سنوات تقريباً. وقد مررنا على أحوال سقوط أور وراثتها؛ حيث يبدو أنّ الدافع الأساس لخرابها كان الجفاف الذي حلّ ثلاثمئة سنة والذي انفجرت أسبابه من جبل كوكب.

الأبحاث والمسوحات الأثرية في منطقة الخابور قدمت معطيات عن أرضٍ خلاء هُجرت مدةً وصلت إلى ثلاثة قرون. الانهيار في مواقع الشمال أدى بجفافه إلى فقدان المراعي، وتنقل الرعاة أسفل التيار بطول النهرين (دجلة والفرات) أدى ذلك إلى دخولهم في صراعات مباشرة مع المجتمعات والمدن المستقرة التي كانت تعاني نقص الغذاء. هذا التهديد هو ما دفع حاكم أور إلى بناء سور بطول 180 كم «طارد الأموريين»، والتوغل الأموري كان يستولي على نقلات الحبوب.

(1) ثمة مراسلات بين آخر ملك في أور إبي سين مع إشبي إرا الأموري، حيث يرغب الأموري من الملك أن يزوده بتفويض يجعله يقف في وجه (المارتو) الذين اخترقوا السور واحتلوا القلاع في البلاد، فيرفض الملك ما يدفع إشبي إرا إلى جعل نفسه حاكماً مستقلاً على مدينة إسين، ومن ثمّ سيحتل مدينة نيبور المقدسة، ما يعني حصوله على رعاية الإله انليل.

انظر: عيد مرعي - تاريخ بلاد الرافدين.

الدراسات تشير إلى زيادة السكان في مناطق الجنوب ثلاثة أضعاف بسبب الانسياحات البشرية، فقلّ تدفق المياه، والمزروعات تموت.

قالت الوثائق: إنَّ أور بلغَ بها الحالُ إلى أن صارت توزعُ الحبوبَ في حصصٍ ضئيلة، ثمَّ انهارَ اقتصادُ أور الزراعي، وهجم العيلاميون وقضوا عليها في 2003 ق.م.

سلالة أور الثالثة امتدت من بلاد الرافدين حتى سوريا في أعالي الفرات، وكان لها حكامُها في مدينة ماري على الفرات الأوسط (الشكاناكو)، وسيطرت على عيلام.

كتبتُ أور ورقةً نعوها: «أخذوا المُلْك من سومر، لم ينبت على ضفاف دجلة والفرات غير الطحالب، غطت الأشواك الحقولَ الخصبة وانقرضت البساتين، أنتنَّ الماء في الأقبية وتفسخ القصب في المستنقعات، لم يعد أحد يسير في الطرقات، لم يعد أحد يشتري أو يبيع، ما عادت الأم ترى طفلها، كفَّ الرجل عن مداعبة امرأته، وما عادت العروس تجد الحب بين ذراعي حبيبها، لقد تحولت المدن المأهولة إلى خرائب، وتم ذبح شعب الرؤوس السوداء في أرضه»⁽¹⁾.

انطفأت معالم الألف الثالث ق.م في المشرق، لتبدأ المتوالية التاريخية الجديدة مع عودة المناخ تدريجياً إلى سابق عهده بحلّة جديدة، المتوالية أصبحت مع الأموريين، ستجبُّ ما قبلها وتمضي في التطور وفقَ ناظمٍ ديمغرافي متجانسٍ شَمَلَ مدنَ المشرق كاملةً.

المظاهر الحضارية للمشرق في الألف الثالث ق.م:

لا يمكن النظر ومناقشة ثقافة الألف الثالث قبل الميلاد بمعزل عن واقع الألف الرابع قبل الميلاد، فثمة حالة تراكمية من البناء الحضاري، كمحاولات استقرار وفهم للواقع الطبيعي والتعامل معه مع أخذ الحذر من المناخ والظواهر الطبيعية التي لا ترحم.

رافقت الآلهة -مدعاة الطمأنينة- المجتمعات الأولى، أمدتها بالتوازن الروحي لتحقيق واقعها المادي وتتجاوزه. محاولات الفهم والاستقراء شملت النصف الأول من الألف الثالث ق.م؛ لهذا تخلو البلاد من صراعات وحروب، فالأوان أو أن استقرار مَدَنِيٍّ للمجتمعات وتأمين سلامها البيئي والطبيعي والحياتي. ومن الجنوب الرافدي نحو الفرات الأوسط حيث ماري، إلى الأعلى تل براك أيضاً، يلحظ المدقق أنَّ المدن آنذاك كانت تعي موضعها، ولم

(1) فوينك زاماروفسكي- في البدء كانت سومر- ت: أحمد حسان. وزارة التعليم العالي - دمشق - 2015.

يكن موضع ماري بالقرب من الفرات الأوسط محض مغامرة، فقد كان الأمر مدروساً بدقة، من المواد الخام والمعادن وخطوط التجارة، ومن أجل هذا سيطرت المدينة على مكانها وكيّفته من أجل جدواها الحضارية، كذلك في الجنوب الرافدي خُطت كلُّ مدينةٍ خطاها.

في التغلب على الطبيعة ومظاهرها البيئية كانت المعاناة تمشي كتفاً بكتفٍ مع مدن الجنوب، والظروف الطبيعية والجغرافية قدمت محرضاً قوياً لاستجابةٍ قويةٍ.

في تأمل الواقع البيئي / الطبيعي الرافدي نلاحظُ نهرَ دجلة كان يختلف عن نهر الفرات، فهو يتميز بشطآن مرتفعة صلبة، ويمتاز بغزارة مجراه؛ لهذا كان يغيرُ مجراهُ الأسفل باستمرار، وكان حظُّه من موضع المدن على شطآنه أقلَّ كثيراً من الفرات، ثم إنَّ ضفافه العالية لم تمنح الاستفادة من مياهه للسقي أو الشرب، وفي المقابل كان الفرات أقلَّ غزارةً.

فيضان النهرين كان يحصل في آذار ونيسان، وبين النهرين فاصل أسبوعين، ضفاف الفرات أقلُّ ارتفاعاً ومنتشرةً في السهول، لكنَّ طبيعة الأرض الرخوة وتداعي شواطئه في أثناء الطوفان جعلته عرضةً للتحويل عن مجراه.

المُشكِل الأساسي هنا هو أنَّ الفيضانات المتأخرة كانت تؤدي إلى ملوحة في التربة بسبب التبخر بفعل الحرارة المتزايدة، وهذا يؤدي إلى ضعف المحاصيل وتقلصها، وإصلاح هذه الحقول يحتاج إلى زمن، ما يدفع المستعجلين إلى مغادرة مواقعهم إلى مراكز جديدة، ثم إن الطين الذي يحمله الفيضان قليلُ الخصوبة في الفرات، وانسداد الأتنية أيضاً كان هماً رافدياً بامتياز، وهذا الذي دفع إلى تنظيفها أو إنشاء أتنية جديدة، الفيضان كان رعباً سنوياً، إلى حد ما، على السكان، ضفافٌ تغرق، زرع يُباد، سدودٌ تُهدم، وتحلُّ المجاعة.

ولبحر الخليج العربي لعنته على المدن المحاذية، فالرياح الموسمية تدفع المياه المالحة نحو الأهوار المستنقعية والبحيرات في جنوب الرافدين⁽¹⁾. معاناة حقيقةً مع واقع طبيعي مُتعب دفعت سكان الجنوب الرافدي لتشييد مدنهم على نهر الفرات بمنحدرات صناعية لتحاشي غضب الماء.

«توينبي» يستغرب واقع الحال: «إنه أمر يدعو إلى العجب أن تظهر أقدم [المدن] القائمة اقتصادياً على ترويض المستنقعات في الحوض الأدنى لدجلة والفرات، رأس المال الوحيد

(1) غولايف- مرجع سابق.

المحلي في الأرض التي روضوها وأخذوا لاستغلالها، هذه التربة الخصبة. لقد أظهروا حصافتهم في الألمعية التكنولوجية»⁽¹⁾.

الملاحظة هنا أنّ التجارة النهرية لم تكن بهذه السهولة، فكلا النهرين لا يمكن استخدامهما صعوداً من الجنوب إلى الشمال⁽²⁾، والقاعدة هي الهبوط مع التيار من الشمال إلى الجنوب، والحل هو استخدام الجهة الشمالية الغربية طريقاً برياً.

نقل البضائع الثقيلة من الشمال إلى الجنوب نهرياً يتم بأطواف، والبشر ينتقلون في قراقل مصنوعة من القصب مكسوة بالجلد، على الطرف الآخر كانت الحمير سيدة الموقف في النقل والمواصلات. وسط هذا المشهد الدرامي التاريخي نهض جنوب الرافدين بمدنه الأولى واستمر.

أول مدينة أُنشئت في الجنوب الرافدي كانت اريدو وهي جزيرة في الخليج العربي، يفصلها عن وادي الفرات صخرة من الحجر الرملي⁽³⁾. في حين أنّ أور وأوروك أُقيمتا على الطرف الجنوبي الغربي للمستنقع الكبير في جوار بلاد العرب (توينبي- تاريخ البشرية).

التواصلية الحضارية الإنشائية هنا التي بدأت منذ الألف الرابع ق.م سوف نجد استمراريتها حتى أواسط الألف الثاني ق.م بشبكة الألفية الرئيسية التي استمرت دون حصول تغييرات جذرية عليها⁽⁴⁾.

بيوت المدن أيضاً خشيت من الفيضان فبنيت فوق مرتفعات صناعية، وأنشئت من القصب والطيني. معالم التطور العمراني في البيوت نجدها في مساحة البيوت في لاجاش في منتصف الألف الثالث ق.م، كانت تتراوح ما بين 23.5م² و2م² و53م². وبعد ثلاثة قرون نجد في أور مساحة البيوت تتراوح ما بين 143 و225م². (انظر: جاك برين).

أعواد القصب الضخمة استخدمت في إقامة الملاجئ والسياجات وعمل الأقلام للكتابة، المعابد والقصور والأسوار، استعمل اللبن الطري في تشييدها وكذلك من القرميد المشوي المصنوع من الطين.

(1) توينبي- تاريخ البشرية- ج 1.

(2) يفتقد النهران إلى رياح جنوبية شرقية قد تسهم في التجارة النهرية من الجنوب إلى الشمال.

(3) جاك برين- الحضارة السومرية- ت: عزمي سكر- عالم الكتب- بيروت- 1999.

(4) غولايف- مصدر سابق.

وعت المجتمعات آنذاك أهمية الطين للبناء، والفن وصنع التماثيل والجرار، وبقي الطين حديث الحضارة الشرقية، وبعد حين سوف يكتبون استخدامه بالبناء: «ثم قام الأمير العظيم بتزويد المعزق بحبل، وأعدّ القلب الآجر، ثم قطعه وكأنه يقطع في السمن مساحات الصلصال المتين.

«كُلًّا» إله الآجر المُعدّ لبناء الأجرات المستخرجة من قلبها. إلى «كُلًّا» عهد «انكي» بهذه الصناعة، ثم عمد بعد ذلك إلى شد الحبل (البناء) وخطط أساسات مستقيمة، وتلبية لإرادة مجمع الآلهة رسم مخططاً مسكّن، ثم بعد ذلك قام الأمير العظيم بحفر الأساسات وبنى عليها جدران الآجر.

«إنه «موشدما» البناء العظيم، بناء إنليل إله فنّ البناء والعمارة إليه عهد إنكي بهذا الفن»⁽¹⁾. أيضاً صار الطين ورق كتابة ليغدو مشويماً كوثيقة تاريخية سوف نقرأها. من الصلصال المشوي أمكن لهم صنع أدوات زراعية (الدلفان، الطفّل)، وتُقارب المعادن بصلابتها.

ولتبيان تفاصيل التشكل المدنيّ درس ماك آدمس واقع أوروك، فلاحظ أنّه منذ أواخر الألف الخامس ق.م كان سبع عشرة مستوطنة وثلاث بلدات ومركز طقوسي إداري صغير هو أوروك نفسها. وفي أواخر الألف الرابع ق.م حصل انفجارٌ سكانيّ أدى إلى ازدياد كبير للسكان، حيث ازدادت أعداد المستوطنات نحو 3200 ق.م، وكان هناك مئة واثنتا عشرة مستوطنة وعشر بلدات ومدينة صغيرة واحدة هي أوروك. قرابة 3000 ق.م، اتسعت مساحة المدينة بسبب ازدياد عدد السكان، وربما ضمت أيضاً مستوطناتها، وأحيطت بسور ضخّم من اللبن. يلاحظ أنّ عدد المستوطنات الآن قد قلّ⁽²⁾.

التمدن بوصفه ظاهرة اجتماعية يُوضّح بوجود مبان عامة ومعابد وقصور وبيوت ومواصلات داخلية (شوارع) وشبكات صحية وأقنية، ويلاحظ أنه كلما ارتفع سور المدينة دلّ على جبروت المدينة وقوتها، وفخامة البوابات تدلّ على غناها أيضاً.

(1) قاسم الشواف- ديوان الأساطير- ج-2 دار الساقبي- 1999.

(2) غولايف- مصدر سابق.

زرعوا أيضاً:

لـ«بوترو» القول الفصل في أنه منذ نهاية الألف الخامس وبداية الألف الرابع ق.م اتخذت بلاد الرافدين شكلها الحالي؛ حوضاً شاسعاً منبسطاً من طمي شديد الخصوبة.⁽¹⁾

العالم الزراعي يمنح شكل الأمن الغذائي للمدن، والوثائق بعد تبلور الكتابة العائدة إلى 1700 ق.م تحكي عن أزمنة قديمة كالتالي نحن فيها.⁽²⁾

مئة وثمانية أسطر فيها نصائح وإرشادات من فلاح لابنه⁽³⁾: متى يسقي، متى ينقي ويذرو الحاصل المحصود في أشهر البذر (نيسان- أيار)، تطهير الحقول من الحشائش الضارة، إحاطة الحقل بسياج حماية وهكذا. أرّخت الوثيقة مضمونها في البداية: في الأزمان القديمة، زود فلاح ابنه بهذه الإرشادات.

الدقة العلمية الزراعية نقرأها: راقب من يبذر بذور الشعير بحيث يجعلها تتخلل الحرث بعمق إصبعين بوجه منتظم⁽⁴⁾، وبالدفقة نفسها: إذا ما انتهيت من حرث الخطوط المستقيمة فاحرث بعدئذ خطوطاً مائلة، وإذا أتممت هذه الخطوط المائلة فاحرث خطوطاً مستقيمة.

ثم يأتي الابتهاال للآلهة: في اليوم الذي تشق فيه البذور والأرض، يلزم الفلاح أن يقوم بالصلاة إلى الآلهة «نن- كليم»، الخاصة بجرذان الحقل وحشرات وديدانه، ولا ننسى إخافة الطيور الطامعة.

الحياة الزراعية آنذاك شملت إضافة إلى الحبوب، والخضراوات والأشجار المثمرة. وبعد كل هذا التأسيس الزراعي فاضت المحاصيل وخُزنت وتمّ الإتجار بها، المعابد هنا

(1) بوترو- الشرق القديم ونحن- مصدر سابق.

(2) صموئيل كريمير- من ألواح سومر.

(3) الطريف أن تنتهي هذه الوثيقة الزراعية بالإشارة إلى أن ما ذكر فيها ليس من قبل الفلاح (الآدمي) بل هي مبادئ الإله «نينورتا» الفلاح الحقيقي.

(4) زار العالم الطبيعي Olivier أوليفيه المشرق في مستهل القرن التاسع عشر الميلادي، فوجد الشعير والغلل والحنطة تنمو بريّة في قطعة أرض غير صالحة للزراعة تقع في الشمال الغربي من عانا (الفرات الأوسط) على الضفة اليمنى للفرات. ويشير الباحث أنّ هذه المنطقة هي الموطن الأصلي لهذه النباتات الثلاثة منذ أقدم الأزمنة، ومن هنا انتقلت إلى الجناح الشرقي للمشرق. يناقش أوليفيه: الشعير بوصفه الأساس الذي يقوم عليه غذاء الإنسان والحيوان، فهو في جميع عصور التاريخ يُعدّ أكثر النباتات انتشاراً، وهو العملة السارية التي يقدرها الجميع، والتي ظلّ إقراضها حتى نهاية مدينة بابل في الألف الأول ق.م أعلى من إقراض الفضة.

انظر: ل. ديلابورت- بلاد ما بين النهرين- وزارة الثقافة- القاهرة- 1997.

والإدارات الارستقراطية في المجتمعات مدتْ أياديها واستغلتْ أجراء المعابد في الأراضي التابعة لها.

رجال الدين كانوا الوسطاء بين المجتمع والآلهة في مجتمعات متدينة تديناً مفرطاً، فتمَّ الاستغلال وظهرت الفروقات الطبقيّة فاستوجب الإصلاح الاجتماعي بين الفينة والأخرى. قالت الوثائق: «أولاد لاجاش أنقذهم أوركاجينا» من المجاعة والسرقة والقتل، من أجلهم أعاد الحرية إلى نصابها.

بعد إصلاحات الملك تقول الوثائق أيضاً: «لم يعد ممكناً لرجال الدين أن يأتوا إلى حديقة امرأة فقيرة ويأخذوا منها خشباً أو أن يجبوا الأتاوة منها».

ولتبيان قوة المسحوقين تحكي وثائق أخرى: «إذا ولد لأحدهم حمار جميل، وقال له سيده أريد شراءه، فللرجل الحق برفض البيع، ويمكنه، إن وافق، أن يقول لسيده: ادفع ثمنه من الفضة بمقدار ما يحلّو لي وليتي».⁽¹⁾

وتاجروا:

عالم الرافدين يحتاج إلى الحجارة والخشب والمعادن، فتمَّ تأمينها:

الحجارة من عيلام وبلاد العرب وأرمينيا، والخشب من لبنان وجبال الأمانوس، والمعادن: فضة- نحاس- ذهب) من القوقاز وطوروس وهضاب إيران وبلاد العرب.

مارسوا التجارة القريبة والبعيدة، واستفاد الجنوب الرافدي من الخليج في علاقاته البعيدة، والفرات واسطة العبور من الشمال إلى الجنوب، والطريق البري إلى الشمال. ماري مارست دورها التجاري في ربط الشمال بالجنوب والبحر المتوسط بالرافدين.

طبيعة المجتمع آنذاك مصّاص معرفة بعد سيطرة لا بأس بها على بيئة صعبة. بعد أن كتبوا عادوا ليستذكروا ما نشأوا عليه من معارف توصلوا إليها:

جداول بأسماء معادن ونباتات وحيوانات.

شرّحوا أجسام الحيوانات للمعرفة والتنبؤ والحدس.

(1) جاك بيرين- مصدر سابق.

صنّعوا الأدوية من المواد النباتية والحيوانية والمعدنية.

حضرت مواد التجميل والعطور، دهنوا ودبغوا.

من يؤسس ويؤمّن جانبه المادي سوف تأخذه الروح إلى أمداء أبعد، فكّروا وكانت الأساطير بأنواعها، مناظرات فكرية ترقى إلى روح الفلسفة، جماليات الفن في العمارة والنحت والرسم الجدارية والتصاوير⁽¹⁾، كل هذا وسط جو موسيقي ابتكر القيثارات والطبول والزمامير.

قيل: أكثر من ثلاثين ألف بيت من الشعر قرئ في الألف الثالث ق.م.

بعد كل هذا يمضي النصف الأول من الألف الثالث ق.م؛ نصف باذخ في الحضارة مؤسّسة الحياة؛ لكن «توينبي» تحسّر قليلاً:، فالثمار التي جناها الإنسان من انتصار المجتمع البشري على الطبيعة قد تذهب هدراً، في حين استغل قوته العظيمة المشتركة، ليس في سبيل السيطرة على الطبيعة غير البشرية واستغلالها فحسب؛ بل في سبيل الحرب المبيدة بين قوى بشرية محلية جيدة التنظيم، وقوية العدة⁽²⁾، حصل ذلك في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، كما تحدثنا. حسناً، وعتّ المدن بيئتها وظواهرها الطبيعية، ومضت من المعاش إلى التطورات المتممة لجدوى الوجود (الفكر).

زمان المشرق:

لنا أن نتوقع وربما نشبت أنه منذ الاستقرار والزراعة مضى الإنسان في الربط بين الدنيوي والمقدس. وهذا الرابط خفي صاغه الإنسان وحده لدعم نفسي في مواجهة قسوة الحياة والبيئة والمناخ.

الزراعة وعوالمها ارتبطت بالعقل، فابتكر المشرقيون صياغة للزمن؛ التقويم الشمسي والتقويم القمري. يُعتقد أنّ التقويم القمري سبق الشمسي لارتباطه بعوالم الترحال والرعي، مقابل الشمسي الذي ربط الأرض بالسماء بواقعية، بينما الأول كان الرابط شاعرياً نوعاً ما. والتقويم القمري اعتمد تجليات القمر، ظهوره واختفائه وما بينهما من هلال وبدر. الظهور والقمر بدرأ مدعاةً لتقديم الأضاحي للإله سين، واختفائه يدفع إلى يوم حزن وبكاء وكآبة.

(1) توينبي - تاريخ البشرية.

(2) سوف نُقرّد فصلاً خاصاً عن تاريخ الفن في المشرق.

الاحتفالات القمرية المقدسة للمجتمع تتم بقداسة الرقم سبعة؛ اليوم الأول والسابع والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين. مارك كوهين يشير إلى أن الشرقيين يُعدُّون «القمر أباً للشمس».⁽¹⁾

اليوم تم ضبطه بحركة الشمس من الشروق إلى الغروب، يبدأ اليوم كما قالوا: بـ«نفخ شمس» أي شروقه.

التقويم القمري: للسنة 12 شهراً، كل شهر 29 أو 30 يوماً، يبدأ الشهر مع رؤية القمر هلالاً. وسُميت الأشهر بتواليها: الشهر الأول والثاني... إلخ.

ولتحقيق التوازن بين السنة القمرية والشمسية كانوا يضيفون شهراً من 30 يوماً إلى التقويم كل ثلاث سنوات أو عند الحاجة. هنا تتم الحاجة من أجل ضبط السنة مع فصولها، النظام الستيني استخدم في المشرق الرافدي، جاك بيرين يشير هنا إلى أنَّ النفوذ المصري في الجناح الشامي أضاف إلى هذا النظام النظام العشري.⁽²⁾

الدائرة قُسمت إلى ستة أجزاء متساوية، لكل قوس في الدائرة 60 درجة، والدائرة تصبح 360 درجة، وبدورها تُقسَّم كل درجة إلى 60 دقيقة، وكل دقيقة 60 ثانية، فالتعداد هنا على قاعدة المبدأ الستيني.

وحين سُميت الأشهر في بعض المدن نلاحظ ارتباطاً معظمها بفاعليات حياتية معاشة وزراعية ووظيفية وحرية أو سياسية، لنقرأ:

الشهر الأول: شهر ساكن المعبد

الثاني: شهر إخراج الثيران

الثالث: شهر صنع اللبن

الرابع: معناه غير واضح

الخامس: شهر إشعال النار

(1) قالت الوثيقة: «ناتاً (إله القمر)، هو الذي يحدد الشهور، والذي يكمل السنة. عيد مرعي - التقويم وحساب الزمن في حضارات الشرق القديم - 2006.

(2) جاك بيرين - الحضارة السومرية.

السادس: شهر مهرجان إنانا

السابع: شهر «دوكو» المقدس

الثامن: شهر فتح قنوات الريح

التاسع: شهر الحرث

العاشر: شهر أحد الاحتفالات الدينية

الحادي عشر: شهر البُرِّ (أحد أنواع القمح)

الثاني عشر: شهر الحبوب.⁽¹⁾

تأمل السماء أيضاً، وسّع مدارك الإنسان إلى تبيان موقعه في الكون، حيث لاحظوا بعد تأمل أن الأجرام الرئيسة تبلغ واحداً وسبعين جرمًا، مقسومة ثلاث مجموعات، يحكم كل منها أحد الآلهة الكبار؛ ثلاث وثلاثون يحكمها انليل، وثلاث وعشرون يحكمها أنو، وخمسون يحكمها إيا⁽²⁾، وأدركوا أن هناك خمسا وخمسين نجمة تتفق مع الشمس في الشروق والغروب.

الاهتمام العلمي هنا نلحظه في طلب ملك لاجاش «جوديا» أن يرسم عملاً تنظيمياً كبيراً لنسق متماسك في الموازين والمكاييل، موضوعاً على صلة بالروزنامة وقياس الدائرة، مُمسكاً فوق ركبتيه عياراً للموازين والمكاييل، يسمح بإصلاح كل النسق عبر شكل مسطرة مقسمة إلى درجات.⁽³⁾

لم يعرف المشرقيون الصفر؛ لكنهم عرفوا الجذور التكميلية والتريعية وقضايا الهندسة التطبيقية، والرياضيات، وتبينوا أقرب مساحة يدنو بها القمر من الأرض. ودائرة فلك البروج التي يؤلفها خط دوران الأرض حول الشمس أدركوا أنها موزعة على اثني عشر برجاً.

قالت الوثيقة بعد التأمل الكوني:

«صمم مروдох منصات للآلهة العظماء

(1) عيد مرعي - مصدر سابق.

(2) بلغت أجور الملاحظين الفلكيين 4 مينا في النهار، 2 مينا في الليل صيفاً، ابتداءً من 15 تموز إلى 15 الشهر التالي. و2 مينا نهاراً و4 ليلاً في بقية الشهور. انظر: ل. دبلابورت، مرجع سابق.

(3) جاك بيرين - مصدر سابق.

أما بالنسبة للنجوم، فقد وضع لكل منها

كوكباتٍ تقابلها

وعيّنَ السنةَ وحدد أقسامها

ووزع حصصاً من ثلاث أنجم لكل منها

الأشهر الاثني عشر

وبعد أن وضع خطأً لأيام السنة

أسس منصة نجم القطب (نبرو) ليحدد مسيرتها⁽¹⁾

الملاحظ هنا أنّ كل مدينة كانت تعتمد تقويمياً خاصاً بها، ففي زمن حمورابي في الثلث الأول من الألف الثاني ق.م، وحدّوا التقويمات في تقويم واحد، مستندين إلى تقويم مدينة نيبور المقدسة، وقرنوا أسماء الأشهر بالآلهة. أما أسماء الأيام فقد قرّنت بالكواكب المهمة المرتبطة بها:

الأحد: الشمس

الاثنين: القمر

الثلاثاء: المريخ

الأربعاء: عطارد

الخميس: المشتري

الجمعة: الزهرة

السبت: زحل⁽²⁾

(1) عيد مرعي - مصدر سابق.

(2) مرجع سابق.

وحدة الدعم النفسي: فيض الرموز في الألف الثالث قبل الميلاد:

نحو الوراثة؛ خمسة آلاف عام، حين استقرت الزراعة، وفاضت الرموز الطبيعية في العقل الإنساني حتى رمّزها، ورمّز ظواهرها، كأن الإنسان بدأ يدفع ثمن التحديق إلى أعلى.

حين صقّقنا لمُنَجَزِ الزراعة ومفاعيلها اللاحقة علمنا أنّ التطورَ الإنساني أخذَ منحىً جاداً لا رجوع عنه، فالمرأة حظيت بمكانة الأم الكبرى⁽¹⁾، والطبيعة امتلكت رموزها، لكن خلف الأفق حاكت الزراعة دسائسها: «التأثير الديني الأول للثورة الزراعية تحويل النباتات والحيوانات من أعضاء متساوين على طاولة مستديرة تضمهما مع الإنسان إلى ممتلكات من قبل الأخير.

قبل هذا كانت الكائنات تتواصل مع بعضها البعض مباشرة، وتتفاوض على القواعد التي تحكم مكان عيشها المشترك في المقابل. البشر المزارعون تملكوا النباتات والحيوانات وتلاعبوا بها، لم يذلوا أنفسهم بالتفاوض مع ممتلكات»⁽²⁾.

هذه فكرة «يوفال هراري» التي يمكن أن تقودنا إلى فيض الرموز المصلحة؛ ففي الزراعة ارتبطَ دنيويّ التراب والطين والماء، بعناصر السماء: الشمس، القمر، الرياح، وغيرها.

الخوف والخشية، والحذر الإنساني على منجزه واستقراره، دفع الكهنة إلى تأسيس عالم الخنوع البشري لما هو أعلى. القرابين والابتهالات والصلوات من أجل رضا الآلهة، والتمنّى عمرٌ مديد، وجسد سليم، ومدن مباركة محمية، إن بُنيت مدينةٌ فالآلهة أنشأتها، وإن دُمرت فغضب الآلهة حلَّ عليها؛ لأنها مدينة لم تقدر آلهتها ولم تستمع إلى كلمتها، وإن خلدت فهي في صون الآلهة.

صار الإنسان لعبة الآلهة التي ابتكرها الدماغ الإنساني، وفي نقطة أعمق في النفس البشرية، غدا الموت خاتمة السؤال البشري، ومضت المجتمعات بين زمنٍ خطيٍّ يمتلك البداية والنهاية، وزمنٍ دائريٍّ يعيدُ شرط الحياة وموتها.

(1) سرعان ما ستتراجع هذه المكانة مع نشوء المدن والسلطة الذكورية معها، وتحظى المرأة بدور الكومبارس في الحياة الإنسانية.

(2) يوفال هراري- العاقل- مصدر سابق.

ماذا يقول الدماغ؟

القسم الحوفي في الدماغ البشري اختص بالتدين والعاطفة والغيرية، والنصف الأيمن قام بدوره على أكمل وجه؛ هرمون الدوبامين ينتج في عمق الدماغ ويبدو أن النصف الأيمن أحد مستقراته، هذا الهرمون يرتبط بعواطف التدين. وفي الدراسات العصبية الدماغية الحديثة لُوْحِظَ أَنَّ التَلَفَ في النصف الأيمن يؤدي إلى ضعف التدين.⁽¹⁾

مقابل تمركز التدين بين القسم الحوفي أو الطرفي مع نصف المخ الأيمن يقف المُرْكَبُ الزواحفي الدماغية القديم الذي يُوصَفُ بالطقوسية والعدوانية. (انظر: كارل ساجان- تنانين عدن.

تجاه ذلك لعلَّ ما نحن عليه من فيض الرموز الماورائية منذ انبثاق الزراعة حتى نشوء المدن، وتراكم هذا المنحى في خطِّ ذهني قاده الكهَّان وتبادلوا أنخابه مع المجموع الخائف المذعور من مناخ وطبيعة وظواهرهما.

يتبدى الآن أنَّ تلك الثنائيات المتناقضة والمنسجمة في النور والظلام في الألوهية والشيطان، وفي الشمس والقمر، وفي الخير والشر، كانت ابتكاراً جدلياً للعقل الإنساني في مغزاه الحضاري.⁽²⁾

الذكاء الإنساني منذ الاستقرار والزراعة كان مصلحياً يرجو سلامة الحال للمجتمع والإنسان، استكان أمام رموز عالية ماورائية وتذلل إليها كرمى للبقاء، ثم تطورت التصورات لخلق قائد مايسترو لفاعليات السماء وظواهرها، فكان أنو.

إلى أي درجة يمكننا عدُّ هذا الذكاء المصلحي إيجابياً أو سلبياً، ندع الأمر لمزيد من التأمل والبحث.

ولكن ما تُرْفَعُ له القُبعة أن التدين ورموزه ورمزيته لم يكن في تاريخ المشرق عاملاً لتفسيخ اجتماعيٍّ بقدر ما كان عاملَ وحدة اجتماعية، هذا قبل الأديان السماوية. فيما بعد ستتذكر مركزية مدينة نيبور الرافدية وكيف كانت الضامنة للوحدة الدينية بين مدن الرافدين، وشكَّلت مزاراً دينياً وطنياً في الألف الثالث ق.م. فمع كلِّ الصراعات السياسية والعسكرية بين المدن

(1) مايكل ترايمبل- الروح في الدماغ- ت: أيهم أحمد- دار علاء الدين - دمشق 2011.

(2) د. بشار خليف- نشوء فكرة الألوهية 2011 - دمشق.

والممالك بقيت نيبور محجة المدن والملوك، وتذكر الآن أنَّ حمورابي في الثلث الأول من الألف الثاني ق.م أوجد التقويم الموحد بين مدن المشرق ولا سيما الرافدي مستنداً إلى تقويم مدينة نيبور.

المعابد بيوت الآلهة:

منذ منتصف الألف الخامس ق.م تظهر في المشرق في مواقع مختلفة معابد ضخمة، أهمها المعبد الذي أطلق عليه اسم مخطط ثلاثي الأجزاء Tripartite، نموذج هذا المعبد شكّل مخططاً عاماً للمعابد المشرقية اللاحقة.

أبعاد المعبد 10 × 20 م، مبني من اللبن الطويل، الجدران سميكة، وتسمية ثلاثي الأجزاء بسبب احتوائه على صالة كبيرة مستطيلة الشكل (حرم لممارسة الطقوس) وفي صدرها محراب، وثمة صفان من الأبنية يحيطان بالحرم من جانبيه، وجّهت زوايا المعبد حسب الجهات الأربعة.⁽¹⁾

استقرت الآلهة في معابدها شيئاً فشيئاً، التقليد العمراني عبر العصور، قصر فوق قصر، ومعبد فوق معبد. والمعابد في فترات نشوء المدن الأولى كانت مراكز دينية واقتصادية، استغلها أحياناً بعض الكهنة والملوك حتى إن بعض المعابد كانت تتبع لها أملاك وأراضٍ يجري استثمارها باسم الإله. الفكرة هنا: الإله هو المالك الحقيقي للأرض، والجمهور هو المستأجر، إذًا، على الكهنة أن يقوموا بواجبهم في تحصيل الضرائب وريع الأراضي. ولأنَّ أغلب المدن على خطوط التجارة فلا بُدَّ أن تتنوع آلهتها جنباً إلى جنب مع الآلهة الأصلية لكل مدينة.

سلك الكهانة له شروطٌ للانتماء إليه؛ فالمتقدم عليه أن يكون ذا ولادة شرعية، صحيح البدن، أن يتقن الكتابة، بعد تبلور منجزها، ثم يخضع لدورات تثقيفية ودراسة مدة طويلة في المعبد الذي يمثل مركزاً ثقافياً رئيساً في المدينة.

(1) يوحى معبد مدينة أريدو من مخططه أنه يمكن تحويله إلى حصن في أوقات الحرب. انظر: بوترو- بابل والكتاب المقدس.

قالت وثيقة: «لا يستطيع أن يكون كاهناً من كان أبوه غيرَ طاهر، أو كان غيرَ كامل الأطراف أو الملامح، وغيرَ سليم العينين والأسنان والأصابع، أو مَنْ كان يبدو عليه المرض أو به دمامل»⁽¹⁾.

المعطيات العائدة إلى منتصف الألف الثالث ق.م تمنح دليلاً على أن المعابد جمعت مكانَ العبادة والطقوس الاعتقادية ومركز الحياة الاقتصادية والقصر داخل بناء واحد، هذه الظاهرة سُميت بظاهرة القصر/ المعبد. مع الإشارة هنا إلى احتواء كلِّ مدينةٍ على معبد رئيسٍ يشير إلى معبودها الأساس.

نُذكر هنا بما قلنا سابقاً: في الحقبة الأولى من تشكل المدن كان حاكمُ المدينة يقوم بوظيفة مزدوجة، فهو الكاهن الأعلى أيضاً، وحين انفصل القصر عن المعبد فُصلَ المَلِكُ عن الكاهن، وصارَ بالإمكان الاستنادُ إلى مقولة: «ما للإله وللإله وما للملك للملك».

الملاحظة أيضاً في هذا المجال أنَّ الآلهة يمكن تصديرها بين المدن، فمدينة ماري في الألف الثالث ق.م حوت معابدَ لآلهة رافدية: «معبد نيني زازا، ونيهورساج»، كما أقيمت الزقورات فيها جنباً إلى جنب مع مكانة الآلهة الأصلية في ماري⁽²⁾. وربما قامت التجارة بدورها التديني أيضاً في نقل الآلهة بين المدن.

من النصوص الاعتقادية: (الليتورجيات، والأساطير، والطقوس)، سوف نلمس تديناً مفراطاً في الجناح الرافدي يفوق ما ألفناه في مدن الجناح الشامي.

لدى التقصي أمكنَّ تبيان دور البيئة والمناخ القاسيين في صياغة شخصية الجماعة، فكلما قسى المناخ واضطربت البيئة خلقت ردَّ فعلٍ طبيعي خائف يدفع إلى إيجاد توازن في المستوى النفسي الجمعي، فنشأ التدين المفرط الخائف، والإيجابي؛ إذ إنه لم يبلغ الآخر ومعتقداته.

كتبوا خوفهم

النصوص المشرقية تصوّرُ ذهنية التفكير المشرقي الاعتقادي بإخلاص.

(1) جورج كونتنو- الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور- بغداد- وزارة الثقافة 1986.

(2) جان كلود مارجرون يتحدث عن عدم إمكانية الحديث عن استقلالية سورية في مجال العمارة الدينية عن الرافدين. انظر: دليل معرض الآثار السوري- الأوروبي- 1996.

في البدء عندما خلقتُ الآلهة البشر

قدّرت الموت عليهم

واستأثرت هي بالخلود (ملحمة جلجامش)

إذاً، ثمّة مستويات أعلى وأدنى، وبدأت الحكاية.

توحيد مبكر لم يلحظه متابعو الديانات في نشوئها.

«أنو العظيم» يخلق السماء، إله متوار في السماء، قال كلمته الخالقة في البدء وتواري،

وترك المسرح لمتابعيه أو موظفيه: انليل، إيا، إنانا وغيرهم.

التصور الكوني الفلكي: المنطقة الوسطى من السماء تُعدُّ طريقاً لأنو، وتمر هذه المنطقة

منحرفةً عبر محور شمالي جنوبي، حيث فوقها طريق «انليل»، أما تحتها فطريق الإله «إيا».

كل النجوم في دنيا أنو.⁽¹⁾

في مناجاة وتضرع للملك «لوجال زاجيزي» يقول: «يا سيد البلاد انليل، انقل طلبي إلى

أبيك المحبوب أنو، بأن يطيل عمري، ويجعل أراضِي في مأمن من الأخطار».⁽²⁾

بعد ألف عام تقريباً من معالم الألف الثالث ق.م، سوف يكتبُ حمورابي في مستهلِّ

قوانينه الاجتماعية: «دعاني أنو، أنا حمورابي، إلى نشر العدالة في البلاد والقضاء على الشر

والأشرار، ومنع القوي من ظلم الضعيف»، الوسيط هنا الإله شمش سيد العدالة.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: لو أنه لم يدعُه أنو هل سيرتّب شؤونَ مجتمعه ومملكته

الاجتماعية!

إذاً، أنو تم تصوره في الفكر المشرقي بسيد الخلائق «كلمته هي السلطة العليا في مجمع

الآلهة الكبار».⁽³⁾

الفكر السائد الآن في حياتنا المعاصرة هو الإشادة بهذه التصورات والأفكار، وعدّها

مؤسّسةً عالمَ البشر الديني في مظاهره كافةً، هذا أمرٌ طبيعي؛ لكنّ استعادة الزمن الضائع

تدلُّ على خواء الزمن الحالي.

(1) سبتيو موسكاتي - الحضارات السامية القديمة - دار الرقي - بيروت - 1996.

(2) بورهارد برينتيس - نشوء الحضارات القديمة.

(3) د. بشار خليف - نشوء فكرة الألوهية.

في وصفٍ وثائقيٍّ لعالم الوحداية تنجدنا وثيقة مشرقية تقول: «هو الذي لم تلده امرأة، وإنما خلق نفسه بنفسه، خالق كل شيء، واهب الحياة، راعي البلاد- أبو السنين الخالد، خالق الخلائق، الحكيم، الطيب، سيد الرحمة، السيد الذي لا تتبدل مشيئته، أسرار جوهره التي تبقى خافية عن البشر»⁽¹⁾.

الشيء اللافت هو أنّ أنو كان إلهاً كونياً، حسبَ المشرقيين، واختصاص مدن المشرق بألّهة معينة مختلفة تتبع تواري أنو، مقابل حضور آلهة مدنية أدنى نشهداها في مختلف مدن المشرق ببانثيوناتها الاعتقادية.

إن خَلَقَ أنو الكون فهناك من ينظمه: انليل منظم الكون منذ البدء، يُنصب الحكام والملوك على عروشهم.

هذا الإله جسّد قوى الطبيعة بكلّ حيويتها الإيجابية والسلبية، ربما تعود إليه عوامل التدين المفرط والخائف، فلا يمكن نسيان أعاصيره وزوابعه وجنون طبيعته.

كتبوا: «العاصفة التي آتارها انليل الغاضب

العاصفة التي دمرت البلاد

غطّت أور كمنديل

لقّها كالكفن». (غولايف- المدن الأولى)

كل هذا كان يستوجب التضرع والاستعانة والصلاة لتحاشي غضب الإله:

«رهبته وخشيته تضاهيان السماء.

الأسياذ والأمراء يأخذون الهدايا والقرايين المقدسة

يقيمون الصلاة ويتلون الدعوات والتضرعات». (صموئيل كريم- هنا يبدأ التاريخ).

(1) السيد العالمي، إن كان أنو الرافدي أو ايل الشامي، هما نسخة بوجهين من جوهر الألوهة.

للمزيد: جرجي كنعان- تاريخ الله.

وُصِفَ أيضاً بالوسيط الإلهي بين آنو والبشر، يراقب سير القوانين، ويعاقب المذنبين ويقرر مصائرهم. قالت الكتابات: «انليل هو الذي يعلن اسم الملك ويعطيه صولجانه وينظر إليه بعين الرضا».⁽¹⁾

إذاً، مع انليل توضحت صورة البانثيون الرافدي، فهو الوسيط بين الإله الخالق والبشر، والقوة الفاعلة بين السماء والأرض، وبين إله عالٍ وإنسان ومجتمع. ثم سيحل الإله «انكي» سيد الأرض؛ إله الحكمة والتعويذات، وسيد المياه العذبة، ومانح الخصب ومفجر الينابيع، إن كان انليل يلعب في الهواء فإنَّ انكي يغوص في عمق الأرض، ومن الماء سيجعل كل شيء حيٍّ، ويخلق الإنسان.

قالت الإلهة الأم «نمو» لابنها «انكي»: «قم يا بني من فراشك، واعمل ما هو حكيم ولاثق، اصنع عبيداً للآلهة»
قام انكي:

«أماه! إنَّ المخلوقَ الذي نطقت باسمه موجود

فاربطي عليه صورة الآلهة

اعجنني لبَّ الطَّينِ الموجود في مياه العمق

وعليك أن توجدي له الأعضاء والجوارح

يا أماه! قدري مصيره.

إنه الإنسان».⁽²⁾

صرخ كاتب مشرقي بعد ذلك بقوله: «أيتها المدينة، تغسلك مياه لا تنضب، مياه قَدَّر مصيرها انكي، يا حرم أور، فلترتفع إلى السموات».⁽³⁾

اكتمل المشهد المعتقدى بثالوث مقدس، ثم رموز الطبيعة الزراعية تحضر، (شمس، وسين، ولا بُدَّ من الخصوبة مع إنانا (عشتار). ولعلَّ ما يصادفنا من أسماء إلهية في الوثائق ما

(1) التواطؤ بين الكاهن والملك (السلطان التاريخيان) نجده حين يمنح الكاهن الأكبر شارة المُلك للملك ممثلاً للإله انليل، ذلك في الحرم المقدس لمعبد المدينة الأكبر.

(2) صموئيل كريمير - من ألواح سومر.

(3) غولايف - مصدر سابق.

زيد على 2500 رمز لا تمنح دلالةً اعتقاديَّةً في مجال العبادة، بقدر ما هي رموزٌ تُعنى بتفاصيل الحياة اليومية، فلكل شيء روح والروح إليه، حتى في الفأس والقلم والشجر وهكذا.⁽¹⁾

المعتقد المشرقي يُقدم فلسفةً تُسقطُ على المجتمع، والمجتمعات الخائفة بحاجة إلى السلام من السماء كما في الأرض. الصرامة القانونية الإلهية (الإنسانية الاختراع)، نظمت مفهوم الثواب والعقاب الاجتماعي، إنها منظومة متكاملة من النواهي والتحذيرات لغاية السلام الفردي والاجتماعي والإنساني.

احترام الآلهة الوطنية وآلهة الآخر، واحترام المعابد الإنسانية، فالمنظور إنساني لم يتقبل إلغاء الآخر، وإن كان عدواً سياسياً، ولكن في المنحى الاعتقادي هنا تشكّل خطأ أحمر.

النصوص المشرقية الاعتقادية ذات المضامين الاجتماعية تفوق العُدَّ، تحضر المُثل لغاية سلام المجتمع، أكثر من مئتي حالة تؤدي بنا إلى غضب الآلهة فلننتبه، سنكتبها بتصرف هنا تبعاً للسياق:

«أن تتحدث بخلاف ما تعتقد

أن تثير فتنةً ضمن الأسرة

ألا تهتم بمحتاجٍ ومعوذ

أن تضرب الحيوانات بلا مبرر».

الحساب على الإثم كان يُحَيَّنُ، مع إطلالة كلِّ عامٍ جديد، والآلهة «نانشه» سوف تُحاسبُ البشرَ على الآثام التي اقترفوها في العام الماضي، إلى جانبها نجد الإله «ندابا» الكاتب والمُحاسب، وستتم المحاكمة الدنيوية لكل مَنْ

«سلك سبيلَ العدوان وَاغتصبت يدهُ ما ليس له

مَنْ نَقَضَ الْعَهْدَ وَالْعُقُودَ

مَنْ نَظَرَ نَظْرَةَ رِضَا إِلَى مَوَاطِنِ الشَّرِّ

مَنْ بَدَّلَ الْوِزْنَ الْكَبِيرَ بِالْوِزْنِ الصَّغِيرِ

(1) ثمة قصيدة مثلاً تصف خلق الفأس؛ لأن الأمر فعل إلهي. انظر: نشوء فكرة الألوهة- د. بشار خليف- ص 86.

مَنْ قَالَ: لَا أَكْلِنَ مَا حُرِّمَ

مَنْ قَالَ: لِأَشْرِبَنَّ مَا حُرِّمَ»⁽¹⁾

وفي المقابل حضرت المكافأة على فعل الخير.

نواظم اجتماعية بلبوس إلهي ابتكرها الإنسان ليستمر ويتوازن في حقيقته الاجتماعية.

هل قاربنا نواة الأديان فيما بعد؟

الناظم الأساس كتبه: «عظم إلهك كل يوم

أكرمه بما يليق بتقديم القرابين وإقامة الصلاة

احفظ قلبك نقياً أمام إلهك

الصلاة، الدعاء، الابتهاال

أقمها كل صباح

الخوف من الإله يؤلّد رضاه.⁽²⁾

الوحي كان حاضراً بقوة بين السماء والأرض، وبين الآلهة والبشر، والوسطاء كهنة وأحلام، وتضج المدن بالمتنبئين؛ لا سيما في اللحظات الوجودية الكبرى. «لكون الإله سيد المستقبل الذي يصنعه بكلمته ويوجهه بإرادته، يستطيع الكشف عن هذا المستقبل حسب مشيئته، فكانت العرافة عبر أحلام اليقظة أو الرؤى»⁽³⁾

(1) صوثيل كريمر- من ألواح سومر.

(2) د. بشار خليف- نشوء فكرة الألوهة.

(3) جان بوترو- بابل والكتاب المقدس. ويناقد فون زودن مسألة المتنبئين في ماري من وثائقها، فثمة نوع من المتنبئين يوصفون بأشخاص تعريضهم حالات من الانفعالات والاضطراب وهم يتلقون العلامات الخاصة بنبوءتهم أو ينطقون بالأجوبة عندما يُسألون، ويمكن أن يكونوا من غير حاشية المعبد وكهنته. انظر: فون زودن- مرجع سابق.

وبدوره «توينبي» يشير إلى المتنبئين الذين كانوا يربعون الملوك، ففي الألف الأول ق.م، شاعت في المجتمع السوري ظاهرة النبوءة أو المنذر، وهؤلاء كانوا يسببون رعباً للملوك، وإن النوبات التي تصيبهم نوبات صرع، بحسب الدراسات العصبية الدماغية المعاصرة. انظر: الروح في الدماغ- مايكل ترايمبل. تُعدُّ دلالة على أنهم يتلقون رسالة إلهية ومن ثم فإن الملك الذي كان يتحدى نبياً فإنه يجازف في احتمالات صعبة ضده. انظر: أرنولد توينبي- تاريخ البشرية ج 1.

من كل ما سبق يبدو أنّ عالم التشكّل الاعتقادي المشرقي الإنساني المُخترَع أُسقطَ على السماء كما كان في الأرض، وعاد إلى الأرض والمدن والمجتمعات بلبوس آهاتٍ عليا تفرضُ كلمتها الخالقة وأفعالها من أجل البشر، البشر عليهم أن يطيعوا ويصلوا لخيرهم وخير مجتمعاتهم.

ما يلاحظ عامةً أنّ التصورَ البشري مع نشوء الزراعة لعالم الرموز العليا كان أكثرَ نقاءً باندماجه مع الإيقاع الطبيعي، ومع نشوء المدن، وتعقّد الحياة واستشراء المصالح الاجتماعية والمدنية، فقد أصبحت الألوهة برموزها وسيلةً للحرب والتدمير والاحتلال.

أساء الإنسان إلى ما حَلَقَ.

الذهنية الاعتقادية سوف تستمرُّ مع التأسيس الأول إلى عالم الألف الثاني ق.م، حتى نهاية الألف الأول قبل الميلاد، بتصورات متطورة تتألف مع التطور الذهني والدماغي ومُجرّيات الحياة والتفاعل الروحي المادي.

الإشارة هنا أيضاً إلى استمرارية المعتقدات لما بعد الزراعة في الحياة المشرقية فظهرت الأديان السماوية، وهذا شكّل ديانات شعبية موازية للديانات الرسمية وهي مستمرة إلى يومنا هذا. (انظر: حوارات في الحضارة السورية- حوار مع د. حسني حداد).

مظاهر الثقافة الأكديّة:

بالحدس العلمي واستناداً إلى معطيات التاريخ وحركته لا يُمكنُ فصلَ الحالة الأكديّة، التي ليست هوية بأية حال، عن الجناح الشامي للمشرق. فكثير من الأدبيات والدراسات التاريخية تلمّحُ إلى صلة ما بين الأكديين والأموريين ولو بقليل من الحياء.

المعضلة هنا أنّ ما سُمّي بالهوية الأكديّة جاء رداً على الهوية السومرية من ناحية لغوية؛ إذ يبدو للقارئ والباحث أنّ ثمة صراعاً بين مكونين ديمغرافيين يأخذ أحياناً شكل التشفي العنصري؛ لكنّ الحقائق على أرض التاريخ، والآثارُ تدحضُ هذه الأفكارَ بعمق كما ذكرنا سابقاً.

«بوترو» أدلى بدلوه:

«في منتصف الألف الرابع ق.م، على أقل تقدير، التقى الجنوبيون بالشمالين (السومريون بالأكديين)، مع أن أكد لم تولد! ويضيف: «الأكديون كانوا يتلقون إمدادات ديمغرافية متواصلةً من المناطق السورية، ولاسيما الأمورية».⁽¹⁾

بالمعنى العام نحن أمام التحام جنوبي وشمالي منذ ما قبل نشوء المدن، الديمغرافيا الجنوبية السومرية؛ لأنها محليةٌ ومنتجٌ محليٌّ لم تكن لتأخذ إمدادات ديمغرافيةً من مصدرها إن كان غير محليٍّ، ولم تغادر المواقع إلى حيث كانت، فبقيت محصورةً في الجنوب الرافدي مع امتدادات ثقافية وتجارية؛ لهذا في نهاية الألف الثالث ق.م ذابت الديمغرافيا الرافدية الجنوبية في المزيج المشرقي الأرحب.

الالتحام الذي حصل بين الثقافتين استمرَّ بالرافعة الحضارية الأكديّة التي جبت المنجز السابق والتي أسهمت به أيضاً، ثم في فاعليتها السياسية أضافت عليه.

التجدد الأكدي ليس ابن ساعته، فمع استلام شاروكين السلطة يُظهر تشكيل الجيش الأكدي ووسائله وتقنيات تسليحه ووجود خبرات سابقة؛ لهذا كان النصر السريع حليفه على المكونات المدنية القديمة؛ لأنها تقليدية في منظومتها الحربية.

شاروكين أبعَدَ الأسلحة الثقيلة عن الاستخدام في جيشه، ومال نحو استخدام القوس والسهم. في فترة حفيده «نارام-سين»، وتدلُّ مسلة النصر على نوعية تسليح الجيش الأكدي، كذلك حضرت في المشهد طريقةً المبارزة بين خصمين، وعلى هذا ألغى نظام الكراديس (الراجمات) والمشهد الضخم للمعارك. دعم أفراد الجيش الأكدي تمَّ بمنح الجنود أراضٍ زراعية لاستثمارها أوقات السلم، وفي الحرب تكون أسرة الجندي هي المستثمرة أيضاً.⁽²⁾

الدولة الأكديّة امتازت بجهاز إداريٍّ ضخم من الموظفين، وهذا يتبع اتساع المملكة، والقصر كان مركز الحياة للمملكة بوجوهها كافةً حتى الاعتقادية منها.

مع الفاعلية الأكديّة خفَّت التدينُّ المُفرطُ لصالح دولة مدنية أكثر، نلمس آلهة مختلفة عما كان سائداً في الجنوب الرافدي. أنطون مورتكات يصف الاعتقاد السومري بالفلاحي لاعتماده رموزاً طبيعيةً أرضية لها علاقة بإيقاع الجوِّ الزراعي.⁽³⁾

(1) بوترو وآخرون- الشرق القديم ونحن- مصدر سابق.

(2) فوزي رشيد- سرجون الأكادي- مصدر سابق.

(3) أنطون مورتكات- تاريخ الشرق الأدنى القديم 1967 - دمشق.

ونعتقدُ أنَّ النمطَ المدنيَّ الأكدِيَّ فرضَ رموزه المختلفةَ عما كان سائداً في الجنوب، مع الملاحظة هنا أنَّه لم يكن هناك إلهٌ رئيسٌ لمدينة أكد. والحقيقة أنَّ تأثيراتِ التصوراتِ التدينية للجنوب الرافدي بقيتِ تفعلُ فعلها في العصر الأكدِي، «لعنة أكد»، النص الذي كُتِبَ قرابة 2100 ق.م يُعيدُ تدميرَ أكد إلى استخفاف نارام سين بالمكانة الإلهية لمدينة نيبور (مركز القداسة الرافدية). ونتيجة لذلك عُوقِبَ نارام سين بالعجز لمدة سبعة أعوام، وحين هجم الجوتيون كان ذلك نتيجة غضبِ الإله انليل من أكد.

يبدو أنَّ شاروكين كان أكثر توازناً بوصفه رجل دولة مقابل حفيده نارام سين الانفعاليِّ العسكري، ومع هذا فقد كلّف نارام سين ابنتيه بوظائفٍ دينية في مدينة ماري الواقعة تحت السيطرة الأكدية، وتذكر الوثائق شوماشاني ومكيبار كاهنتين في معبد شمش في ماري.⁽¹⁾

هنا يحتلُّ شمش وسين وعشتار سدة البانثيون الأكدِي، وهناك رموزُ العواصف والرياح والماء، البيئة صاغت نوع الآلهة، والتدين المفرط في الجنوب كان يعيدُ كلَّ أفعالِ البشر إلى الآلهة: إرادة الإله تسوق البشر، هنا وثائقُ شاروكين تدلُّ على أفعاله النابعة من إرادة سياسية وليس تنفيذاً لإرادة إله في مدينة أكد.

النصوص الأكدية في اشجالي قرب بغداد، وكاسو نوزي قرب كركوك، وآرال قرب تل سليمة، أوضحتُ الابتعاد عن سيطرة المعبد على مفاصل الحياة الأكدية. وفي الحالة الفكرية والاستراتيجية الشاروكينية لم يكن صدامياً مع الدين ورجاله، فها هي ابنته «إينخدوأتا» في معبد أور كبيرة الكاهنات، وبعد حين ستخلفها إحدى بنات نارام سين حفيده شاروكين.⁽²⁾

يبدو أنَّ التآليه الذي مارسه نارام سين ومن بعده في تأليه نفسيهما حجَمَ المعبدَ إلى إله بعيد؛ لهذا حضرت السلطة الزمنية في المشهد الأكدِي كدولة مدنية تنتمي إلى طبائع التدين في الجناح الشامي الأُخف وطأةً من جنوبِ الجناحِ الرافدي.

بعضُ الوثائق المتناثرة في مواقع الحقبة الأكدية تُبينُ نشاطاً حسابياً وتعليمياً وفلكياً. النقوش الملكية الأكدية في معظمها حَوَتْ تمجيدَ الملوك وانتصاراتهم، كُتبت بالسومرية والأكدية، ويبدو أنَّها كانت تمهيداً لتحولِ اللغة الأكدية إلى لغةٍ رسميةٍ.

(1) د. بشار خليف- حضارة مدينة ماري- مصدر سابق.

(2) اللات هنا أنَّ ابنة شاروكين كتبت ابتهالاتها باللغة السومرية وليس الأكدية.

المعطيات تشير إلى اعتماد شاروكين تقويمياً أكدياً لم يُعثَرُ عليه كاملاً، لكنّه كان تقويمياً قمرياً أمكنَ تحديدَ أسماء بعض الشهور: شهر صبيتوم - شهر خاني - شهر باخير اركوم - شهر ايقصوم.

انطلاقاً من اللغة كانت الثقافة الأكديّة المنعطف المهمّ الذي صبغَ المشرق بلونه الحضاري حتى عصرنا الحالي.

«مارجرون» يصف الجناح الشامي بأنه خرج من أزمت العصر الأكدي، ولا سيما فيما بعد نارام سين وحرابه، خرج ضعيفاً جداً وبحضارة مدنيّة متقهقرة.⁽¹⁾

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل بزوال أكد ومملكتها زالت الهويّة الأكديّة كما قُدمت لنا؟

ويبقى السؤال مطروحاً على كل حال في شأن هذه الهويّة الصامتة، فلم نعدُ نقرأ في أية وثيقة اسماً أكدياً، ما يمنح دليلاً على أنّ الأمر ليس هويّةً بقدر ما كان ثقافةً لديمغرافيا مشرقية متواصلة.

(1) Exposition Syro – Européenne d' archeologie. 1996.

مناخ الـڤمغرافيا

الألف الثاني قبل الميلاد:

ممالك «الذين يأكلون اللحم النيء، الذين لا يعرفون بيتاً طوال حياتهم، الذين لا يدفنون موتاهم بشكل صحيح.»

الغربيون/ الأموريون/ مارتو

طوال الألف الثالث ق.م، كما رأينا، كانَ الجناحُ الرافدي يُؤسِّسُ البنى الحضارية بالتحام سومري/ أكدي. وإن كان الجناح الشامي قد قام بواجبه؛ لكنَّهُ كانَ منفِعلاً أكثرَ من الفعل نفسه، وإن كانَ الجنوب الرافدي قد أخذَ زمامَ المبادرةِ الحضارية بثقل أقوى؛ لكنَّ الفاعلية الأكديّة- التي ليست سومرية حسب الاصطلاحات السائدة- أسهمت بالتحامها الحضاري لتُقدم ذاتها الحضارية، ولعلَّ هذه الأكديّة ليست من نتاج الجناح الرافدي بقدر ما انتمت ديمغرافياً إلى المثلث الحضاري: كيش، وإبلا، وماري.

التعب المدنيُّ في مدنِ المشرق وممالكة، الذي سبَّه بركان جبل كوكب، بصمَّ على مجرى التاريخ المشرقي آنذاك. وإذا تملينا وجهةَ نظرٍ علوم الاجتماع أدركنا أنَّ الظواهر البيئية والجيولوجية والمناخية التي سببت الجفاف فالمجاعات سوف تؤدي إلى انسياحاتٍ بشرية جائعةٍ نحو المدنِ المتهالكة.

جبل بشري، خزان الديمغرافيا الأمورية، الممتد من الفرات تجاهَ الغرب نحو تدمر، عانى ما عاناه، فكانَ هذا الانسياح الأموري نحو المدن.⁽¹⁾

قبل ذلك ذكرت نصوص تل فارا (شوروباك) الرافدي قرابة 2600 ق.م، المارتو هذا المصطلح السومري الذي يعني الغرب والغربيين، وسيتبعه الأكديون باصطلاح أمورو أيضاً.⁽²⁾

(1) جبل بشري ورد في الوثائق المشرقية باسم بَسْر أو بسالا، ويشير هالدار إلى أنَّ الأموريين يمثلونَ أحدثَ فرع كنعاني. مع إشارتنا هنا إلى أنَّ اصطلاح أموري يُمثِّلُ أساساً جغرافياً لا عرقياً أو عنصرياً.

(2) وثيقة مدينة فارا تتحدث عن شخص سومري اسمه «آه-سو-بو-أ.ج» يقبض راتباً من مزارع اسمه «انجار».

وحت الوثيقة على كلمة «مارتو».

إذاً، الحضور الأموري يعود إلى 2600 ق.م، لعلّه حضورٌ طبيعيٌّ فرديٌّ؛ فالحياة هائلةٌ آنذاك ولا مانع من أن ينتقل الأموريُّ إلى حيثُ يشاء، خصوصاً أنّ موقعَ مدينة ماري على الفرات الأوسط شكّل بوابةً للأموريين ومحطتهم الأولى وقيامتهم.

ثمّة نصٌّ كتَبَ في الثلث الأخير من الألف الثالث ق.م، يذكرُ حالَ ما قبل التاريخ، ملحمة انميركار:

«مرة عبر الزمان لم يكن هناك حيةٌ ولا عقرب

لم يكن هناك ضبعٌ ولا أسد

لم يكن هناك كلبٌ متوحّشٌ ولا ذئب

لا يوجد خوفٌ وفزع

لم يكن لدى الإنسانِ منافس

ومرةً عبر الزمن بلاد سومر وحامازي

كانت تتكلمُ السومرية، البلاد العظيمة

أوري، البلاد التي تملك كلَّ ما هو ملائم،

بلاد المارتو التي تعيش بسلام

كل العالم، الناس كلهم في وحدة»⁽¹⁾.

ها هو الشاعر يحيلنا إلى اللجنة المفترضة قبلاً، حيث السومريون ومارتو.

يمكنُ النظرُ إلى المساهمة الأمورية في حضارة المشرق بدورٍ مُتقدمٍ للجنح الشامي في الألف الثاني ق.م، وهو دورٌ متممٌ لما بُني عليه الواقع الحضاري في الألف الثالث ق.م. أيضاً يردُّ ذكرُ الأموريين فيما يقارب 2400 - 2350 ق.م، في نقشٍ على تمثالٍ لملك ماري (لمجي ماري).

(1) ألفرد هالدار- الأموريون- دار الأبجدية- دمشق.

ألفونسو آركي، كما ذكرنا سابقاً، يقول: إنَّ أُرشيف إبلا يزودنا تقريباً بثلاثين شاهداً على استعمال كلمة «مارتو»، وجميعها ترقى إلى عهدٍ أقدمٍ بقليلٍ من عهدِ السلالة الأكديّة، حيث تبيّن أنّ الأموريين عاشوا في منطقة أمورو جبل بشري منذ تلك الحقبة.

ويبدو أنّ إبلا أرسلت أقمشةً إلى ملك الأموريين، وأبانت تلك الوثائق على طبيعة البناء الاجتماعي الهرمي الأموري، فثمة ملك ومجلس كبار السن (أوغولا) يتألّف من ستة أشخاص. (ألفونسو آركي - الأموريين في نصوص إبلا - 1989).

الدكتور عيد مرعي يشيرُ إلى أنّه تقريباً منذ الألف الخامس ق.م بدأت بعض القبائل البدوية بالدخول إلى الجناح الرافدي قادمةً من الجناح الشامي وشبه الجزيرة العربية!⁽¹⁾

وقد نتج عن هذا التمازج بين القادمين والمقيمين أساسٌ خصبٌ جديد، يمكن أن يقال عنه: إنّه وضع حجر الأساس لأول حضارةٍ حقيقيةٍ عرفتها البشرية.⁽²⁾

ذكرنا أنّ مطلق حضارة تتميز بثلاثة جوانب اجتماعية: رعوية - زراعية - مدنية. وربما وجدت مجتمعات تجاوزت جانباً آخر.

ولعلّ النظرة الاجتماعية التاريخية إلى الأموريين تجعلنا نصنّفهم وفقّ هذا الناظم الاجتماعي؛ فمقابل نشاط قبلي رعوي سنجد، بحكم التفاعل والتطور مع الحواضر والبلدات والمدن، أنّ هناك تباديات مهمةٍ لجهة الانتقال من عالم الرعي والارتحال، مع ما يتضمّنه من وجوهٍ سلبية وإيجابية، إلى عالم نصف رعوي ونصف زراعي ونصف تجاري ونصف حرفي. ثم شيئاً فشيئاً سندرك أنّ التفاعل الاجتماعي والتمازج أدّى إلى صيغةٍ جديدةٍ مدنيّةٍ وزراعيةٍ تحتوي على عالمٍ رعويٍّ إيجابيٍّ منتمٍ إليها؛ لهذا حين وُصِفَ الأموري بالتخلف في وثائق المدن لم تكن النظرة عنصريةً أو عرقيةً بقدر ما كانت نظرةً اجتماعيةً وفقّ سلّم التطور الاجتماعيّ.

(1) لا نعتقد أنّ ثمة دور لهجرة من شبه الجزيرة العربية إلى الرافدين، بما يُذكر بالمقولة الميئة عن « هجرات سامية»، فالتواجد الديمغرافي المشرقي عبّر عن ذاته منذ الألف الثاني عشر قبل الميلاد واستمر حتى العصور اللاحقة، كما أنّ ليس ثمة وثيقة تاريخية أو معطى أثري يعود للألف الخامس ق.م، يُقدم معطيات هجرة من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال والشرق، ومع هذا، أشارت المعطيات إلى حركة جُولان لقبائل فيما بعد في الجغرافيا التاريخية من جنوب شبه الجزيرة العربية وحتى بادية الشام.

(2) عيد مرعي - تاريخ بلاد الرافدين.

قالت الحكاية المرمّزة: إنّ مارتو الأموري أراد الزواج من ابنة ملك مدينة إناب السومرية. قلنا: مرمزة؛ لأنّ الشاب الأموري أخذ صفة الإله «مارتو»، وتنتهي الحكاية بأن يقبل الملك زواج ابنته من الأموري على الرّغم من التحذيرات التي تلقتها أنّه متخلّف وكذا كما عنوتنا فصلنا.⁽¹⁾

مما سبق يتبين أن المشهدَ البانوراميَ المشرقي أصبح واضحاً؛ مدنٌ متعبّةٌ وشعبٌ جائعٌ يجتاحُ المدن.

حَمَلت القبائلُ الأموريةَ أسماءَ عديدةَ ورد ذكرها في الوثائق، وفي رصدٍ لتوضع هذه القبائل نجد:

قبيلة أمناثم قامت بين سيار وأوروك، ويحرّم في منطقة سيار.

بنويمين (أبناء اليمين أو الجنوب) في مناطق الجزيرة شمال مدينة ماري وغربها⁽²⁾

بنو شمال (أبناء الشمال): شمال حلب وشرقها.

ويبدو أن قبيلة بنويمين (البنياميين) كانت تقود تحالفاً من عدة قبائل: أبرابوم- يحررم- امنافوم- يارنخيوم.

وربما: رابوم- ديلانوم- ياماخوم.

في استيطان قبيلة يحررم نجد أنّها استقرت خارج أسوار مدينتي سيار وأوروك، وتفاعلت مع المدينتين، تاجرت واستقرت حولهما في مستوطنات ثابتة لتصبح بلداتٍ صغيرةٍ أُطلق عليها اسمُ سيار يحررم.⁽³⁾

(1) جاء في إسطورة الإله إنكي وتنظيم الكون «الذين لا يملكون مدناً ولا بيوتاً لبدو المارتو، وهبتُ أنا إنكي، حيوان السهول».

(2) قبيلة بنويمين لم تكن مستقرة، وكثيراً ما سببت القلاقل للمدن والخروج عن سلطتها وتمردتها كما أشارت وثائق ماري في بداية الألف الثاني ق.م.

(3) قبيلة يحررم، كان استقرارها في مناطق أعالي الفرات والخابور قرب مدينة إيكالاتوم (تل منباقة) على نهر الفرات. ويبدو أنّها هاجرت إلى مدينة سيار، واستقرت إلى جانب قبيلة الامنامم. الوثائق تذكر استنجد ملك أوروك بملك بابل «سن موبليط» لحمايته من يحررم وامنامم اللتان تخيمان قرب أوروك.

أيضاً، خشية المد الأموري قام ملك أور «شو سين» بإنشاء خط بري مائي دفاعي ضخماً، يشمل ما بين نهر الفرات ودجلة لمنع الأموريين من التسلل إلى المدينة، وسمي «سور مارتو» وطارد الأموريين لم يستفد.

«كولماير» يصف التدفق الأموري نحو الجناح الرافدي بأنه سبب كثيراً من فقد التوازن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأمني.⁽¹⁾

الانسيح الأموري وصل إلى أجريت أيضاً، كما أشارت وثائق إبلا قبل هلاكها. ومن حكايا هذا الانسيح البشري أن «إشبي إرا» القائد العسكري من مدينة ماري كان يعمل في خدمة مدينة أور، ويبدو أنه استغل المجاعة لينتزعَ سلاحيات واسعة لمقاومة المهاجمين، ثم يستقر في مدينة «إسين» الرافدية ويُنصب نفسه حاكماً عليها، مع ملاحظة أنه أموري يحاربُ أموريين، فهو المتطور والمتفاعل وهؤلاء على مستوى بدائي من الحضارة آنذاك⁽²⁾. ثم طرد العيلاميين من أور وضمها إلى حكمه.

في حين أسس نبلا تم الأموري أيضاً دويلة في لارسا عام 2025 ق.م، ودخلت في صراعٍ حربي مع إسين الأمورية مدة 200 عام، انتهى بقضاء الأولى على الثانية. (انظر: عيد مرعي- فاروق إسماعيل- الأموريون).

إذاً، ثمة فترة فقد التوازن، وثقافة أدنى تجتاح ثقافة أعلى من أجل العيش والحياة، والسبب هو ظواهر طبيعية حتمت صراع البقاء، ومع هذا أصبح بإمكاننا النظر إلى حالة فقد الاتزان بنتائجها على منحيين:

المنحى الأول: نشوء صيغ تفاعل اجتماعي بين ثقافتين مكملتين لبعضهما، البدوي السلميّ المقيم حول المدينة يمكن أن يحمي المدينة، ويتبادل بضائعه ومنتجاته مع المدينة والعكس. الصوف والجلود والحيوانات والأنسجة والحليب بمشتقاته، مقابل المنتجات الزراعية والحرفية المدنية، كذلك ثمة تفاعل اجتماعي سلبي في علاقة المدن المتحضرة بالبدو الرُحّل الأولين في الثقافة المعتمدة الغزو والسلب، ثم يكون البدوي الإيجابي

(1) كاي كولماير- الآثار السورية- 1982.

(2) سيطر الأموريون تدريجياً سياسياً وديمغرافياً على مدن الجنوب الرافدي: اسين- لارسا- أور- أوروك- نيبور- بابل، نلاحظ في وثائق أور في نهاية الألف الثالث ق.م، ازدياد احتوائها على أسماء أمورية. هنا ينبغي الوقوف على دور مدينة ماري في المحافظة على وحدة الجنوب الرافدي، حيث إن أشبي- إرا حاكم إيسين الأموري استمر حكمه وحكم خلفائه أربعة عقود، فقوى الوحدة الاجتماعية في الجنوب آنذاك.

اجتماعياً عضواً في جيش المدينة، كما يُشكّل دليلاً مهماً على الأبار في البادية، حتى يحصل الالتحام التام وفق تطور التفاعل الاجتماعي الذي سيؤدي إلى المنحى الثاني.

المنحى الثاني: سلالاتٌ أمورية حاكمة لمدن المشرق كافةً وفق انسجام ديمغرافي جبّ الديمغرافيا السابقة بمنجزاتها الحضارية كلّها وامتصّها، وسيضيف عليها ويمضي كما شاء المشرق.⁽¹⁾

ممالك المشرق الأمورية - الألف الثاني ق.م:

منذ البدء هنا نلاحظ أنّ السلالات الأمورية الحاكمة في مدن المشرق كانت مستلهمة العمق المشرقي الحضاري؛ لهذا لم تُعد ثقافةً أدنى الآن، وإنما تلقّفت المنجز الحضاري كلّهُ وبنّت عليه.

العامل السومري لم يتمّ الانتقام منه؛ بل كان مندمجاً في السياق الحضاري العام، والعامل الأكدي الذي صمّت بعد سقوط أكد عدا عن لغته، اندمج في البوتقة المشرقية؛ لهذا لم نلاحظ في وثائق المشرق ما يشير إلى صراعات إثنية أو عنصرية، حتى العامل الديني لم يكن عنصرَ تباعد اجتماعي أو حروب؛ بل كان الفكر الديني أكثر تطوراً مما نشأ فيه بعد شرعيةً وتعاطي الأديان السماوية، وحروبها المدمرة.

«أنطون مورتكات» يجد أنّ العلاقات بين مدن الممالك في الشرق في القرون الثلاثة الأولى من الألف الثاني ق.م، لم تكن إلا سلسلةً طويلةً من الدسائس والمؤامرات بين الحكام،⁽²⁾ وهذا سوف يدفع ثمنه المشرق بعد 500 عام تقريباً.

ويبدو أنّ السيناريو التاريخي للنصف الثاني من الألف الثالث ق.م عاد ليحضر الآن بين مدنٍ ضرائر تجمعها الديمغرافيا وتفرّقها المصالح، حتى إن الصراع الأموري أخذ منحيين:

(1) للمزيد من التفاصيل حول الأموريين وتحركهم، يمكن الرجوع إلى كتابنا: «نشوء فكرة الألوهة»، وكتابنا: مملكة ماري. وبحث للدكتور إبراهيم القيسي - الدور الحضاري لقبيلة اليخروم الأمورية. مرجع الكتروني. =

= في الصفحة 139 من كتاب «نشوء فكرة الإلوهة» قمنا بمقاربة حركة البداوة في المشرق، يمكن الاطلاع عليها؛ لأنها تشكّل الأساس في رأينا لطبيعة هذا النموذج الاجتماعي الذي سصادفه في نهاية الألف الثاني ق.م (الآرامي)، وكذلك مع الفاعلية النبطية المتطورة من البداوة إلى الزراعة والتمدن، كما في ثقافة تدمر منذ الحقبة السلوقية حتى الرومانية.

(2) مورتكات - تاريخ المشرق الأدنى القديم - مرجع سابق.

منحى سياسي: بين ممالك المدن الأمورية.

ومنحى اجتماعي: بين ممالك مدن متحضرة أمورية، وحركة أمورية بدوية ما زالت تمارس أعمالَ قطعِ الطرق والإغارة على المزروعات والمدن، والحقيقة هذا ما أتعب مدينة ماري طوال وجودها في الألف الثاني ق.م.

بالمعطى الأموري نحنُ أمامَ تجانسٍ ديمغرافي واضحٍ شَمَلَ المشرقَ كاملاً، مع تأكيدٍ عدمِ حصولِ وحدةٍ سياسيةٍ أو اتحادٍ شاملٍ يُعبِّرُ عن البيئة الاجتماعية المتجانسة، وهذا ما أفسح المجالَ لتدخلاتٍ تُذكرنا بمعطيات النصف الثاني من الألف الثالث ق.م.

الثقافة الأمورية استخدمت الكتابة المسمارية باللغة الأكديّة، ويُعتَقَدُ أَنَّهُم تكلّموا لغةً محكيةً أمورية. نلاحظ في طبيعة الشخصية الأمورية أَنّها معتدّةٌ بنفسها ولهجتها وشخصيتها.

من قبيلة (الأمنانوم) التي هي من أكبر قبائل تحالف البنياميين كان ملك أوروك «سن كاشد» يعملُ حاكماً لدى ملوكِ مدينة لارسا، ثم استقلَّ بأوروك وأسسَ سلالةً حاكمةً استمرت إلى ستين عاماً. تحالَفَ مع بابل وتزوج ابنة ملكها، ثم استطاع أحدُ زعماء هذه القبيلة أن يحكمَ بابل هو «سومو- ابوم» في 1894 - 1881 ق.م، وأسس سلالة أمورية، ثم أخذَ الحكم سومولثيل وأسس سلالةً حاكمةً كان حمورابي هو السادس منها، فحمورابي أموري من قبيلة الأمنانوم البنيامينية.

في مدينة كيش عُثِرَ على نقشٍ فيه أنّ حمورابي لَقَّبَ نفسه «لوجال مارتو»، وثمة نصٌّ آخر جاء فيه: «لوجال دجن كور مارتو» هو ملك كل الأموريين.

صموئيل هوك يقول: إنّ حمورابي كان فخوراً بلهجته الأمورية، لدرجة أنه ألغى أسماء العلم غير الأمورية من أسرته واستعاض عنها بلقب «أبو» أو «شيخ». (1) اللهجة الأمورية من حيث تراكيبها ومفرداتها ربما تتصل باللغة الكنعانية.

في المعتقد الأموري يحتلُّ الإله «ليم» مكانةً مهمة، وانحدرت من اسمه سلالاتٌ حاكمةٌ في ماري ويمحاض وإبلا. نتوقف عند ما ذكر في الأبحاث التاريخية من وجود إله للأموريين اسمه «أمورو»، وفي السومرية ورد «إله مارتو»، في حكاية زواج الأموري.

(1) توفيق سليمان- 1985.

لا نعتقد فلسفياً أنَّ الأموري جاء اسمُهُ من أموريته، فهو اصطلاح أكدي، وكذلك ثمة اصطلاح سومري «مارتو»، ويبدو أنَّ حكاية زواج الأموري السومرية رمزت الشاب الأموري وجعلته إلهاً؛ إذ إنَّ الحكاية أو الأسطورة هي تصوّر مشحونٌ بالانفعال بالرمز، وعليه فلا يمكن الاستناد إلى انفعال أسطوريّ تصوّريّ في جعل إلهٍ للأموريين باسم «أمورو» أو «مارتو»⁽¹⁾، وصار إلهاً للعاصفة كإنليل.

ويبدو أنَّه في نهاية الألف الثالث ق.م، وبسبب الاستيطان المتزايد للأموريين في الجنوب الرافدي، طُوبَّ «أمورو» إلهاً، وجُعِلَ ابناً لإله السماء السومري، وذلك سعياً إلى الالتحام الاجتماعي كما حصل في الالتحام السومري- الأكدي. فهو دليل إيجابي، وتأكيد لمعالم الاندماج الاجتماعي التاريخي.⁽²⁾

شيء آخر يمكن الوقوف عليه أنه مقابل حالة الصمت الديمغرافي الأكدي بعد زوال المملكة وأكد نجد أنَّ الديمغرافيا الأمورية استمرت في المشرق حتى بعد زوال ممالك مدن النصف الأول من الألف الثاني ق.م.

فنحن في منتصف الألف الثاني ق.م أمام مملكة أمورو الواقعة من سواحل بحر أمورو (المتوسط) إلى سهل حمص، وكانت تمتلك علاقات مهمة مع أجاريت، وبالانتقال إلى كتاب «العهد القديم»⁽³⁾ سنجد في سفر يوشع 10: 5 / 11 أن هناك ممالك أمورية في القدس والخليل ويرموت ولاخيش وعجلون. أيضاً سفر يوشع يذكر في 5: 1 / 11 أن الأموريين يسكنون في الغرب من نهر الأردن، في حين يسكن الكنعانيون على شاطئ المتوسط.⁽⁴⁾

في الألف الأول ق.م نلاحظ أيضاً استمرارية ذكر الأموريين في حقبة فاعلية آشور التاريخية، حيث إنَّ ملك آشور «شمش سوم أوكن 668 - 648 ق.م، وهو أخ آشور بنيبعل، حمل لقب ملك الأمانتوم وهي، كما ذكرنا، قبيلة أمورية، حتى إن آشور بنيبعل لُقّب

(1) الأساطير ونصوصها عامة لا يُعتدُّ بها كثيراً في الحقائق التاريخية وحتى التاريخ والأحداث، وإنما تعطي تصوراً لفكرة مشحونة بانفعالات وتهيؤات لا يمكن التوقف عليها. ومثالنا: أنَّ ملك أوروك جلعامش صُوِّرَ أسطورياً وملحمياً كإله وإنسان.

(2) انظر أيضاً: بحث فاروق إسماعيل وعبد مرعي- الأموريون.

(3) الحقيقة أننا لا نستطيع تسمية العهد القديم في محاولة جرت لجعل كتاب مقدس واحد يشمل العهد القديم والعهد الجديد (الانجيل)، وهذا حال سياسي ينتمي إلى أتباع المدارس التوراتية واللاهوتية في تهويد المسيحية.

(4) ألفرد هالدار- العموريون- مرجع سابق.

بملك «الأمناطوم». ونحن نذكر أنّ ملك أوروك في بداية الألف الثاني ق.م، «سن كاشد» لقب نفسه «ملك أوروك، ملك الأمناطوم».⁽¹⁾

السلالات الأمورية الحاكمة في مشرق الألف الثاني ق.م:

بضع مئات من السنين على الانسحاق الأموري المتحالف مع بركان جبل كوكب، يهدأ كلُّ شيءٍ، والحالة الأمورية الرعوية استقرت، وتفاعلت مع المعطيات المشرقية السابقة، وجبّت الثقافات ومضت في مدينتها، ومع هذا لم تشعر بعض المدن/ الممالك بالراحة من أبناء جلدتها المتخلفين ثقافياً، والذين بقوا على الحالة الأولية من الثقافة معتمدين قطع الطرق وسرقة القوافل والتعدي على الحقول وأطراف المدن، هذا كان حال ماري منذ سلالتها الأمورية الحاكمة، ويبدو أنها كانت تدفع ثمن موضعها على الفرات الأوسط، كعاصمة أمورية وبوابة للأموريين نحو الجناح الرافدي، فالانسحاق الأموري شمل معظم مدن المشرق بجنوبه الشامي أيضاً.

الكشوفات الأثرية في موقع أريحا مثلاً بينت مدافنها على وجود خمس طرق متباينة للدفن، ما يدل على تعدد القبائل ذات التقاليد الدفنية المختلفة، هذه المدافن تعود إلى نهاية الألف الثالث ق.م وبداية الألف الثاني ق.م. والأسماء هنا تُثبت أمورية الموتى، لقد حوت أسماءهم على ألقاب: (خالو، خال، عمو، عم، أبو، أب).

المعطيات أيضاً تتحدث عن تعرض فلسطين في نهاية الألف الثالث ق.م، إلى انسحاق غير سلميّ للأموريين عانتها مواقع فلسطين عدا موقع مجدو (تل المتسلم). وآثار التخريب الأموري في هذه الحقبة لوحظت في تل الفرعة الشمالي وخربة الكرك وبيت شان (بيسان) وبيت يراح، وتل الشوفة وأريحا وعاي.

د. سامي الأحمد يتحدث عن دخول الكنعانيين فلسطين قرابة 2000 ق.م، حاملين فخاراً جديداً وأسلحةً حديثة وطرق دفن غريبة، وحياءً مدنيةً متقدمة، مع ملاحظة أنّ اللغة الأمورية والكنعانية تقارب لغات المشرق الشمالية الغربية.

(1) إبراهيم القيسي - مرجع سابق.

بعد حين سيُدوّن سفرُ الخليفة في العهد القديم ليشيرَ إلى أنّ سكان فلسطين الأموريين هم من القبائل الكنعانية /10: 16، وفي السفر نفسه /15: 16/ سنقرأ أنّه في زمن انسياح الأموريين إلى فلسطين كان سكانها أموريين، هذا يعني في 1200 ق.م.⁽¹⁾

الأبحاث تشير إلى استقرار أموري في الأردن في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، بدأ أنّ ثقافة نصف بدوية جديدة حلّت محلّ الثقافة المدنية، ثم في مطلع الألف الثاني ق.م حصل تغييرٌ كبير على الحياة المادية في فلسطين والأرض نتيجة الاستيطان الأموري.⁽²⁾

المعطيات الأثرية والتاريخية تحدثت عن وصول هذا الانسياح إلى مصر: أمنحوتب الأول 1991 - 1962 ق.م، بنى القلاع والتحصينات في منطقة الدلتا المصرية لمنع تسرب «الآسيويين» غير الشرعيّ إلى مصر، كما عمد المصريون إلى بناء تحصينات لهم في جنوب بلاد الشام على امتداد خطوط التجارة⁽³⁾. ولم تكتفِ مصرٌ بالحالة الدفاعية، فالفرعون سوسرت الأول 1878 - 1842 ق.م، قام بحملة عسكرية في فلسطين، لا سيّما منطقة بلاطة قرب نابلس لرد الخطر عن مصر.⁽⁴⁾

الإيضاح هنا أنّ الأموريين في الجنوب الشامي بعد توطنهم كانوا وحداتٍ مستقلةً، وبحكم الجغرافيا والتضاريس لم يتوحدوا، ولن يتوحدوا؛ فمواقع ممالكهم الأم في المشرق لم تتوحد؛ بل بقيت ممالك ضرائر إلى حدّ بعيد.

وبما أنّ وجهتنا هي الجنوب الشامي والانسياح الأموري فيه فثمة نصوصٌ مصريةٌ هي «نصوص لعن»، ذكرت أسماء مدن ومواقع في فلسطين والأردن وسوريا سنستعرضها.

(1) يُعتقد أنّ الموجة الكنعانية هذه أتت من جيبيل، واستقرت إلى جانب جماعات الرعاة وأشباه البدو.

(2) كفاي - مصدر سابق.

(3) كمثال: تل المتسلم - مجدو، كان فيه مقر دائم لمندوب الفرعون المصري، وحوّت المدينة حاميةً عسكريةً مصريةً.

(4) منذ 2060 ق.م كان هناك عمليات عسكرية مصرية ضد الآسيويين في بلاد كنعان، هكذا تتحدث الوثائق المصرية، حملة عامو Amu في بلاد دجاتي.

ويبدو أنه بعد موت الفرعون «أمنحوتب الثاني» 2010 ق.م، استرجع الآسيويون نفوذهم في منطقة الدلتا المصرية، سبق لهذا الملك أن قام بحملاتٍ عسكرية للسيطرة على «العصاة الآسيويين» في «شخم» شمال القدس.

قالت الوثيقة: «كسر الآسيويين». انظر: سامي الأحمد - تاريخ فلسطين القديم.

في متحف برلين ثمة ممتا قطعة فخارية اكتشفت في مصر العليا. لماذا قطع وليست فخاريات متكاملة؟!

المصريون خطّوا على الفخاريات المكتملة أسماء أعداء التاج المصري خارج مصر، وفي طقس خاصّ سوف يتدخل فيه رجال الدين يحطمون هذه القطع المكتملة إلى حطام، كأنّ لسانّ حالهم يقول: تحطّم عدوك. هذه الشظايا الفخارية أدت مهمتها في أجمل كسر، حوت عشرين اسماً لمدينة آسيوية وثلاثين اسماً لحكام أو أفراد، وأرخت هذه القطع إلى 1900 ق.م.

الاستنتاجات هي أنّ جميع الأسماء تشبه الأسماء الشخصية في موقع مدينة ماري الأمورية، إذًا، نحن في حضرة الأموريين. في هذه الحقبة 1900 ق.م أصبحنا أمام حالات استقرار أموري وتوطن في فلسطين.

استنتاج آخر هو أنه كان هناك رئيسان لأورشليم، وأورشليم اسم أموري لمدينة القدس. الحكام هما يافر أمو، وشايزانو. أيضاً نحطى باسم مدينة عسقلان.

في زمن متقدم قليلاً نحو الأمام، وفي بروكسيل، احتفظ بنصوص لعن مصرية أخرى تعود إلى 1800 ق.م. نماذج طينية كثر فيها أسماء المدن المحصنة، أكثر من نصوص برلين، فثمة مئة عام كانت كفيلاً بالاستقرار والتمدن إلى حد ما للأموريين المُساحين.

هنا في بروكسل نعثر على أسماء قبائل ومناطق استوطنتها قبائل شبه بدوية؛ كعسقلان ويافا ومجدل وشخم وأبيقوم وحاصور وبيت شمش وشامور وعانو ومرج عيون في لبنان، حضرت باسم إيون. الملاحظ أيضاً أنّ غالبية المدن هنا كانت تحت قيادة حاكم، ويحضر الإله أد رمزاً اعتقادياً.⁽¹⁾

هناك في برلين نقرأ أيضاً أسماء مواقع في لبنان إضافةً إلى فلسطين، وفي خطّ مواز ألف الفرعون «أحتوي» سفر التعاليم، وختّمه بالحديث عن الآسيويين أيضاً قائلاً:

«الشرق غنيّ بقوآسيه، لتحدث عن الأرعن القواس، واعجباه! ذلك الآسيوي الخسيس يلحق السوء بالمطرح الذي يضمه، لا يستقرُّ في مكان واحد، يضطرُّ إلى التشرُّد بسبب العوز عابراً الأراضي سيراً على قدميه، يخوض الحروب دون أن يُنزَل الهزيمة بأحد. هو لا يعلن

(1) يشار هنا إلى أنّ الأسماء الأمورية في فلسطين حملت أسماء أرباب: أد، آنو، شمش، بعل.

الحرب ولا يحدد يوم القتال، مثله مثل اللصّ الخارج عن القانون في عصابة تمتهن الإجرام. الآسيويُّ لا يعدو كونهُ تمساحاً يتمدد على ضفة النهر».

أيضاً نقرأ نصّاً مصرياً زمن «أمنحوتب الأول» عُثر عليه في بلدة «دير البلاص» الواقعة إلى الشمال من طيبة، يتحدث عن «بلاد قديم»؛ أي سوريا الداخلية في سياق عسكري، «هينينو» مدير المراسم الملكية قال: «مولاي، أرسلني كي أعدّ جيشاً لنقمع أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر من الرمال». في وقت لاحقٍ سوف يُلمَحُ إلى شجر الأرز في لبنان.⁽¹⁾

ولا بُدَّ هنا من ذكر «حدوتة مصرية» بطلها هاربٌ من قصر الملك في مصر إلى بلاد الشام هو «سنوحي»، في النصف الثاني من القرن العشرين قبل الميلاد، الذي كتب حكايته بين الخيم والمضارب وحتى البلدات والمدن، لكنه لا يذكر سوى مدينة واحدة هي جيبيل في لبنان.

روى «سنوحي» جولاته في بلاد الشام (فلسطين، وسوريا الداخلية في وادي البقاع)، وأنه لم يصادف سوى مضارب لبدو رُحَّل يرعون قطعانهم ويقيمون في الخيام أو داخل أحواش مسورة، لكنهم يغزون بعضهم بعضاً، ويبدو أن ثقافتهم شبه بدوية، والدليل زراعتهم بفلاحة محدودة بعض المزروعات جنباً إلى جنب مع توفر الأغنام والماعز والحمير. لاحظ سنوحي أنهم كان لديهم خبرةٌ واسعة بتصنيع أسلحة عالية الجودة ولديهم ولعٌ بالحرب.

حين وصل إلى جيبيل أخذه شيخ الريتنو الأموري «عمي انشي»، وزوجه من ابنته الكبرى ومنحه أرضاً. ولاحظ سنوحي أيضاً أن مجتمع جيبيل آنذاك كان زراعياً متقدماً قليلاً، ويتحدث عن غزوات لأعداء البدو وسرقة البضائع.

الاستعلاءُ المصري التاريخي سوف نجده في الطرف الآتية:

حين عاد سنوحي إلى مصر وقابل الفرعون «سونسرت الأول» خراً الرحالة عند قدميه، فقال الفرعون لزوجته: انظري هذا سنوحي قد حضر إلينا آسيوياً من صنع البدو.⁽²⁾

نقطة أخيرة: كان المصريون يتعاملون مع مواقع مدن أو بلدات في بلاد الشام فتقدّم مصر لهم ضمانات تجارية وضمانات الحماية. وثمة إشارات إلى آسيويين عملوا في مناجم التعدين

(1) دونالد ريدفورد- مصر وكنعان وإسرائيل- مصدر سابق.

(2) انظر: دونالد ريدفورد وسامي الأحمد- مراجع سابقة.

في سيناء، فالأمر هنا تبعٌ لثقافة الأموري وتطور تفاعله وثقافته. كما كانت الوفود الأمورية تزور ملوك مصر، فهذا هو «أبيشا» الأموري يزور الملك المصري «سيزوستريس» مع أهله وحميره؛ بل جلبوا معهم الكحل هديةً للملك.

إذاً، نخلص إلى أن الانسياح الأموري خلخل الاستقرار المصري أيضاً ولم يقتصر على المشرق.

«ألفرد هالدار» يذكر أنه في المستعمرة المشرقية في كانيش بالأناضول عُثِرَ على نقش ختم «دومو- مار- تو» أي أن الفاعلية الأمورية كان لا بُدَّ أن تصل إلى امتداداتها المشرقية. الطريف هنا أن الاسم الذي يُذكر أولاً في النقش يحمل اسماً آشورياً منذ ولادته، لكنّه يختم النقش بأموريته: «آشور، طاب والد أدي أد- جد بوزو أنا». التمازج إياه.

وفي مقاربة للسلاطات الأمورية التي سيطرت على الحياة السياسية في مدن المشرق، نحن نعلم أن هذه السيطرة تمّت بعد هضم قيم ومعايير التفاعل الاجتماعي والحياتي مع ما كان من ثقافة مصرية، وهذا لم يكن وليد ساعته بقدر ما كان تفاعلاً امتدّ ربما منذ الألف الرابع سلمياً تفاعلياً؛ لكنّ جنون المناخ والظواهر الطبيعية؛ كبركان جبل كوكب، سبّب هذا الانسياح السلبيّ أولاً فالإيجابي تالياً.

«جورجيو بوتشيلاتي» يعتقد أن الأموريين هم في الأصل فلاحون من حوض الفرات الأوسط تحركوا بقطعانهم إلى مناطق السهوب بحثاً عن المراعي.

المعطيات الأثرية والتاريخية تقارب قبائل الأموريين التي شكّلت سلاطات حاكمة في مدن المشرق؛ كقبيلة الأمانتوم التي أسهمت في تأسيس سلاطات حاكمة في بابل مثل: سيار وأوروك، هذه القبائل من تحالف البنياميين⁽¹⁾. كما نجد أن قبيلة يحوروم استوطنت في سيار.

في المقابل إنَّ ملك آشور شمشي أدد يبدو أنه ينتمي إلى قبيلة الابرابوم، فتمّة رسالة من ابنه يسمع أدد (حاكم ماري) إلى أبيه: «إن أقاربك من قبيلة الابرابوم الموجودين على

(1) تحالف بنويمينا شمل تحالف قبائل عديدة: أوبرابوم- يحوروم- امناتوم- يارحوم- رابوم- يعلانوم- ياماخوم.

الجدير ذكره هنا أن إبان حكم زمري ليم لماري تحالف مع بني شمال لمواجهة البنياميين. والمعطيات تقدم معلومات أن البنياميين استُخدموا بين صراع المدن/ الممالك، نذكر اشنونا التي دعمت البنياميين ضد ماري فترة حكم زمري ليم، كما وقفت يححاض زمن سومو أبوخ، مؤسس السلالة الأمورية في يححاض مع البنياميين ضد يخدون ليم ملك ماري.

الجانب الآخر من نهر الفرات في بلاد يمحاض سوف يغضبون ولا يعودون إلى موطنهم الأصلي»⁽¹⁾.

وانتقالاً إلى ماري على الفرات الأوسط نجد أن السلالة الأمورية التي أسسها يجيد ليم كانت من بني شمال، وكذلك السلالة المحلية⁽²⁾. وكنا قد ذكرنا أن حمورابي بابل كان من سلالة بني يمين أيضاً.

ممالك المدن الأمورية في مطلع الألف الثاني ق.م إلى منتصفه:

نستطيع تصنيف مدن تلك الحقبة على قاعدة المدن المؤسسة والمدن الموروثة. فمقابل ماري وإبلا وترقا ومعظم مدن الجنوب الرافدي، حيث أمام مدن موروثة عن الألف الثالث ق.م، نلحظ نشوء مدن مؤسسة، وإن كان بعضها يعود إلى نهاية الألف الثالث ق.م؛ لكنه لم يكن يمتلك أي حضور تاريخي فاعل، هنا نجد يمحاض، آشور، بابل، حاصور، مجدو، قطنا، جبيل، إيمار، عسقلان، شكيم، القدس، الالاخ، كركميش ودان وغيرها.

ماري:

ذكرنا سابقاً أن زمن نشوئها يعود إلى مطلع الألف الثالث ق.م، وفي الألف الثاني ق.م أصبحت أمورية السلالة الحاكمة والديمغرافيا المؤلفة من مزيج شرقي، واستطاعت بمؤسسها «يجيد ليم» أن تضم مدينة ترقا إلى فاعليتها بعد طرد حاكمها «إلا ككابو»، والد ملك آشور القادم، وقد لجأ ككابو إلى بابل.

ثمّة رأي آخر هنا على أن «يجيد ليم» ليس من المؤكد أنه حكم ماري، فهو كان مقيماً بمدينة صوبوروم على الفرات إلى الغرب من مصب الخابور. وقد استطاع إخضاع مدينة ترقا لفاعليته وبسط سلطته على الجزء السفلي من الخابور، حيث مدينته التي يُرجح أنها مدينة دوركاتليمو (تل الشيخ حمد).

يُعتقد أن فترته كانت بين 1830 و1825 ق.م. يذكر شمسي أدد في وثيقة أن «يجيد ليم» تحالف مع والده «إلا ككابو»، ملك إيكالاتوم وأقسما على التعاون فيما بينهما؛ لكن الثاني

(1) إبراهيم القيسي - مرجع سابق.

(2) «ليم» هو إله عند بعض قبائل الأموريين، نجد حضوره في أسماء حكام ماري ويمحاض وإبلا.

السلالة الأمورية في إبلا بدأت مع الملك «إبيط ليم» أيضاً.

نكث بالعهد وهاجم صوبوروم فاحتلها مع مملكة ماري «يخدون ليم»، ربما حدث هذا عام 1825 ق.م.

ماري آنذاك كانت تحت سيادة «اشنونا»، فانتزعتها «يخدون ليم» منها، وهذا ما باركته «يمحاض» لإبعاد شبح «اشنونا» عنها، ورتّب وضع مملكته بحيث أصبحت ماري تمتد من الغرب مجاورة حدود ممالك خاشوم وأورشوم (عنتاب الحالية)، وكركميش ويمحاض. أما جهة الشرق فقد سادت ماري على حوض الخابور حتى رأس مثلثه وحوض جفجغ حتى كحات (تل بري) إلى الشمال الشرقي من الحسكة. (علي أبو عساف 2011).

غاية ماري كانت ضمان عيشها الغذائي والتجاري والأمني، كونها مدينةً تجاريةً بامتياز، بالإضافة إلى ممارستها التعدين صناعةً مهمة.

في فترة حكم يخدون ليم، لم تكن العلاقات حسنة دوماً مع آشور وكركميش وأورشوم وخاشوم ويمحاض، كما قالت الوثيقة. ويبدو أنّ كل مدينة كانت تؤسس مملكتها باحتكاك أو عدم احتكاك مع المدن الأخرى، والمعيار: سلامة خطوط التجارة والمواد الأولية والعالم الزراعي وهكذا.⁽¹⁾

يُعدُّ «يخدون ليم» المؤسسَ الفعليّ للفاعلية الحضارية لماري، لكنّ صعودَ الفاعلية الآشورية يبدو أنه كان من شروطه احتواء ماري، فيقتل يخدون ليم، ويحكم أخيه سومو يمام مدة سنتين⁽²⁾، ثم احتلت آشور مدينة ماري في 1795 ق.م، وتم تنصيب يسمع أدد ابن شمسي أدد حاكماً عليها.⁽³⁾

(1) يخدون ليم تزوج من أخت ملك يمحاض ياريم ليم، وأنجب منها زمري ليم، وثمة رأي نشرته «مارتا لوتشيانى» يقول: «في هذه الفترة كانت ماري تُحكم من قبل يسمع أدد ابن شمسي أدد، بعد حكم يخدون ليم، وحكمت بعد ذلك من قبل زمري ليم حفيد يخدون ليم».

انظر: وثائق الآثار السورية- مارتا لوتشيانى- حوض الخابور الأدنى في عصر البرونز الوسيط، وحضارة مدينة ماري- د. بشار خليف.

كما نشر السيد دومينيك شاربان عن ختم يذكر «زمري ليم بن خدني أدد»، هذا يعني أنّ زمري ليم هو ابن أخ يخدون ليم.

انظر: علم الدين أبو عاصي- اقتصاد مملكة ماري- وزارة الثقافة السورية 2002.

(2) ثمة وثيقة تعود إلى فترة يخدون ليم تذكر أن جيش آشور بلغ 60.000 من الجنود وقد «أحرق حصيد البلد».

(3) سيفرُ زمري ليم إلى يمحاض / حلب، وتؤسّر ابنتا يخدون ليم اللتان سيطلب شمسي أدد من ابنه أن يتم تعليمها الموسيقا.

ليس شمسي أدد ببعيد عما كان يُحَاكُّ في قصر ماري آنذاك، فقد كانت تحركات آشور واضحة، وثمّة رسالة من حاكم منطقة قريبة من كركميش إلى يخذون ليم يطلب فيها مساعدة عسكرية لمواجهة ملك آشور شمسي أدد.

ما يقف حول الصراع بين شمسي أدد ويخذون ليم قصة ناجار (تل براك). يوماً ما زار يخذون ليم شمسي أدد في عاصمته إيكالاتوم، وعقد معاهدةً تضمن عدم الاعتداء، وربما كان حلفاً. ويبدو أنّ صراع المصالح والتمدد بين الاثنين من أجل احتواء مدينة ناجار جعل شمسي أدد ينقض الاتفاق فوَقعت الحرب بينهما.

عند ناجار هُزم شمسي أدد، فحفّزه بعد مدة تقريباً في 1796 ق.م على القيام بمؤامرات أدّت إلى مقتل يخذون ليم، ثم إبعاد سمو يمام عن حكم ماري واحتلالها. (أبو عساف 2011).

استطاعت يمحاض أن توقّف الحيوية الآشورية آنذاك عند الغرب، كما أنّ اشنونا استطاعت إيقافها من جهة الجنوب. وبموت شمسي أدد قرابة 1782 ق.م ساعدت يمحاض زمري ليم للعودة إلى تسلّم حكم ماري التي سوف تعيدُ تشكيل مملكتها بتحالفات جديدة وفاعلية سوف تحكي عنها وثيقة إلى ما يقارب 25.000 من ضمنها وثائق الحكم الآشوري في ماري.

سعى زمري ليم إلى احتواء منطقة الخابور الأعلى الذي هو الأمن الغذائي لماري، وهذا سيولّد احتكاكاً مع يمحاض التي أعادته إلى سدة الحكم، وهكذا تكون منطقة الفرات الأوسط تحت منظار العين الحليية والمارية.

الواقع السياسي في المشرق آنذاك يُظهر مدناً تسعى إلى اكتمال ممالكها بعد موت الفاعلية الآشورية، فقد قالت الوثيقة: «لا يوجد ملك واحد قوي بمفرده، ثمّة 10 أو 15 ملكاً يسيرون في ركاب حمورابي ملك بابل، ومثلهم في ركاب ريم سين ملك لارسا، ومثلهم في ركاب إيبال بي- ايل ملك اشنونا، ومثلهم في ركاب أموت. بي. ايل ملك قطنا، وعشرون ملكاً يتبعون ياريم ليم ملك حلب».⁽¹⁾ الوثيقة هذه تثبت تشرذم المشرق بممالك ضرائر.

كما يشار إلى أن اشمي دجن ابن شمسي أدد وُضِعَ حاكماً على مدينة إيكالاتوم الواقعة على نهر دجلة على بعد 60 كم من آشور.

(1) أندريه بارو- ماري- وزارة الثقافة السورية- 1979.

إذاً، مشرقٌ مُجزّأً، مدنٌ سعت إلى مملكتها وماتت، مدنٌ سوف تسعى وتموت، لا تسعى وحدوي أو اتحادي سوى بعض التحالفات المصلحية المؤقتة، كل هذا يُنذر باضمحلال المدن الممالك كالدومينو في لعبة التاريخ القديم.

زمري ليم عبّر عن وصفه بوصفه رجل دولة، وأمن المجال الحيوي لمملكته، سعى إلى احتواء المرتحلين البنيامين الذين قطعوا الطرقات وأسأؤوا إلى التجارة الدولية ومعالم الحياة، حتى إنّه أرّخ سنين حكمه بأحداث القضاء عليهم، فمن فترة يخذون ليم نقراً: «في السنة التي ذهب فيها يخذون ليم إلى معسكر الليمينيين وأمسكت يده بمناطق بني اليامينا».

ثم ستقول وثائق زمري ليم: السنة التي قتلوا فيها شيوخ قبائل داويدوم من بني يامينا عند مدينة ساجاراتم، وبعد سنة سوف يؤرّخ أيضاً: «السنة الثانية بعد التي قتل فيها زمري ليم داويدوم بني يمين»⁽¹⁾

المُلاحَظُ هنا أنّ مدناً المشرق الضرائر لم تكثف بصراعات فيما بينها على شكل تحالفات وهكذا، لكن كان يتّم الاستعانة بغير المشرقيين للهجوم على مدن مشرقية أخرى. فماري مثلاً: واجهت اشنونا المتحالفة مع عيلام، واستطاعت بإنشاء تحالف مع يمحاض وبابل من صد الهجوم، كل هذا أنّي وليس بعداً استراتيجياً ومبدأً مشرقياً جامعاً.

دومينيك شاربان يحكي عن معاهدة تحالف بين حمورابي بابل وزمري ليم، حيث تعهد الطرفان بمحاربة عيلام، ويجب عدم تفرد أيّ منهما بعقد الصلح معه.⁽²⁾

وسط كل هذا مكّن زمري ليم من احتواء منطقة مثلث الخابور وضم الإمارات فيها إلى فاعلية ماري. «كولماير»، يشير إلى أنّ الأراضي الزراعية المحيطة بماري شكّلت قاعدة اقتصادية زراعية لها.

مقابل وصول يخذون ليم إلى ساحل البحر المتوسط لم تشهد ماري في عصر زمري ليم أيّ ميول توسعية، فقد اكتفى هذا الملك بترتيب مملكته وتحسينها حداً أقصى، واتجه في

(1) إبراهيم القيسي - مرجع سابق.

(2) انظر: المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية، 1989.

زيارة أجاريت دون حملة عسكرية، فقط كان يقدم العون لحمورابي بابل حين الحاجة وفقاً للتحالف.

امتلكت ماري علاقات جيدةً نسبياً مع يمحاض وكركميش، وبابل، فقبل طموحات حمورابي بابل كانت ماري تنجذبُ بابل بجيشها وبجيش يمحاض⁽¹⁾، كما امتلكت علاقات جيدة مع حاصور شمال فلسطين وقطنا وأجاريت وجبيل.

وفي علاقة ماري بإيمار كانت العلاقة متذبذبة، ولعل مساهمة إيمار في إزعاج القوافل بالبدو قاطعي الطريق دفع يمحاض وكركميش وماري إلى فرض حصار عليها.

إنَّ النظر إلى ماري الأمورية ونهضتها يعيدنا إلى ماري في الثلث الأخير من الألف الثالث ق.م، فقد كانت هناك المرتكزات التي سوف يُبنى عليها الفن والعمران والحياة التجارية والاقتصادية وغيرها.

كثُرَ الحديثُ عن قصر زمري ليم الذي أنشئ منذ ما قبل زمري قرابة ثلاثمئة عام وتم إكماله في عصره، ويشبه قصور الجناح الرافدي القديمة بحسب قول د. أبو عساف.

معابد ماري شهدت رموزها: عشتار، دجن، شمش، وغيرها وثمة زقورة أيضاً. حياة ماري الاقتصادية اعتمدت التعدين وتربية المواشي والحيوانات أكثر من الزراعة، كما أن دورها التجاري ليس بخاف على أحد تبعاً لموقعها الاستراتيجي، فامتلكت الجهات الأربع في عالمها التجاري: يمحاض، وأجاريت، وقطنا إلى الغرب، وحاصور، وجبيل إلى الغرب والجنوب، وكركميش إلى الشمال، وبابل إلى الشرق، وإبلا وإيمار. ونحو الأبعد شاركت ماري في التجارة الدولية، فقد ورد في نقوش ماري آنذاك أسماء كريت وقبرص.

«هورست كلينغل» يشير إلى أن تجار ماري كانوا يلتقون في أجاريت مع تجار من جزيرتي كريت وقبرص بحضور مترجمين لعقد صفقات تجارية. (انظر: د. بشار خليف 2018).

القصدير صدرته ماري تُجاه أجاريت فعالم المتوسط، واستوردت النحاس من قبرص عن طريق أجاريت⁽²⁾. ولا يغيب عن البال هنا طريق التجارة الدولي آنذاك الذي يبدأ من

(1) أيضاً ثمة معطيات على أن بابل قدمت المساعدة العسكرية لماري مع أن نقل القوات العسكرية من ماري إلى بابل كان أسهل من نقلها من بابل إلى ماري، تبعاً لمجرى نهر الفرات.

(2) كانت حاصور أيضاً تصدّر القصدير المهم في صنع البرونز، كما كانت ماري تستورد القصدير من شمال غرب إيران وعيلام، والرصاص من الأناضول.

الصين وأفغانستان وينتهي إلى حلب والالاخ، حيث يتابع إلى بحر إيجه والأناضول حاملاً أهم سلعة هي القصدير.⁽¹⁾

حفّلت ماري بمراكز جمركية وامتلاكها أسطولاً نهرياً وطرقاً تجاريتها تنوعت وفق المراكز التجارية، فمع الساحل المشرقي نجد طريقاً ينطلق من ماري نحو ترقا، فغرباً نحو السخنة ثم تدمر فقطنا ليصل إلى جبيل وحاصور، وهذا يعدُّ أهم طريق.

يُذكر هنا أنّ ماري قامت بدور الوسيط التجاري ما بين الجناح الرافدي وعالم البحر المتوسط في المنطقة الممتدة من كركميش شمالاً حتى مدن شمال فلسطين جنوباً. والإشارة هنا إلى أن ماري لم تكن بعلاقات قوية وواضحة مع مصر خلافاً للإبلا.

بابل وموت ماري:

بالعودة إلى الورا قليلاً؛ أي قبل نهاية ماري تقريباً عشرة أعوام، ارتاح المشرق قليلاً من معاركه وصراعات مدنه الضرائر. زمري ليم بعد عام 1770 ق.م قام برحلة تُعدُّ عرساً مشرقياً، حيث اتجه نحو المتوسط في شهور عدة. وتذكر الوثائق انطلاق الرحلة المشرقية من ماري نحو ترقا وسكاراتم وزلخان وقردخان وباكلتوم وخابولان ويابوخوم وزلباخ وياكولوم وتوتول.

عند مشارف حلب استقبله ملكها ياريم ليم وزوجته جاشيدا وولي العهد، حمورابي حلب، الذين رافقوه في تجواله في بعض المدن التابعة ليمحاض: موزونم، ولاباشوم، وخازا (اعزاز)، حتى وصل أجاريت.

عدة ملوك وحكام احتفوا بهذه الزيارة المشرقية هم: ملك صور، «إيلان»، وملك خايوم «ياومي إبلا»، وملك ربوم «دادي طادون»، وملك أورشو (عنتاب) «شنام»، وملك كركميش «إبلا خندا»، وملك قطنا «أمود في ايل»، وملك جبلا (جبيل) «يتتين خمّو»، وملك حاصور «أبي أدد».

في أثناء هذه الرحلة انتهى إليه خبر احتلال اشنونا من قبل العيلاميين وتقديمهم حتى جبل سنجار ومثلث الخابور، فعاد زمري ليم سريعاً وعقد حلفاً مع حمورابي بابل واستطاع أن

(1) فيصل عبد الله- دور السلالة الحلبية- الحوليات الأثرية السورية- مجلد 43 - 1999.

يهزما عيلام على أبواب بابل، واستعيد استقلال اشنونا. يُذكر هنا أن زمري ليم اشترى مدينة الالاح من مملكة يمحاض، وثمة وثائق تذكر ذلك.⁽¹⁾

لماذا كان علينا ذكر هذه الحادثة الآن قبل موت ماري بعشرة أعوام تقريباً؟

بعد صد عدوان عيلام ظهرت خصومة بين بابل ولارسا، اصطفت مدن المشرق آنذاك كلاً حسب مصلحتها في هذا الصراع، ويمحاض أرسلت جيشاً لمساعدة حمورابي بابل، وقطنا أرسلت دعماً للارسا، في حين كان ملك ايكلاتوم «اشمي دجن» يثير القلاقل في وجه ماري.

انتصر حمورابي بابل على لارسا وضمها لفاعلية بابل وسيطر على أور وآشور، بابل التي بدأت من جديد، وأغرقت اشنونا بالمياه بتدمير سدودها⁽²⁾. كأن الساعة بابلية، والموت لماري.

تفاعل زمري ليم مع حمورابي بابل بحذر بعد تمده وضمه مدناً عديدة في المشرق، رسل ماري إلى بابل عوملوا بعدم احترام ذكرته الوثائق. حذاء جميل من كريت أهده زمري ليم إلى حمورابي يعيده إليه، وماري تتعرض لمجاعة، سعى حمورابي إلى تقديم المساعدة، وحذر زمري ليم دفعه إلى رفضها واشترى من إيمار ما يُريد. نلاحظ هنا أن موت شمسي أدد أفسح المجال لصعود فاعلية بابل، وكما عانت ماري من آشور، فهي تتقبل الصفة البابلية، فجيش بابل يتابع نحو الشمال، ويحتل بلاد «يموت بعل»، ويهاجم ماري.

المعطيات تشير إلى مقتل زمري ليم، واحتلال جيش بابل ماري دون تدميرها، إلى أن انتفضت بعد سنتين، فدفع بابل إلى تدميرها، وفي المقابل ثمة معطيات تقول: إن زمري ليم بقي يحكم ماري تحت سلطة بابل حتى هاجمها الكاشيون ودمروها⁽³⁾، ونحن نستبعد هذا

(1) يمكن الرجوع إلى «حضارة مدينة ماري»- د. بشار خليف لمزيد من التفاصيل.

(2) أبو عساف- آثار الممالك القديمة في الجزيرة وطور عابدين.

قالت الوثائق: إن حمورابي ونتيجة الحكمة التي حباه بها مردوخ، دمر «توليباش» بكميات هائلة من المياه!

أيضاً نلاحظ هنا أن وثائق ماري في تلك الحقبة تتحدث عن تبعية ملوك لارسا وشنونا وقطنا لحمورابي بابل.

(3) انظر: ألفرد هالدار- الأموريون.

السيناريو الثاني؛ لأن عالم الوثائق يعاني اختفاء زمري ليم عن ساحة الحياة في ماري منذ احتلالها، ولم يعد ثمة ذكر له.

قالت وثائق بابل: «بأمر آنو وإنليل دمّر حمورابي سور ماري» كان ذلك في 1760 ق.م تقريباً. وحسب المتواليّة المشرقية ماتت ماري واكتملت بابل.⁽¹⁾

آشور:

منذ مطلع الألف الثاني ق.م كانت تحكمها سلالةٌ تشير أسماؤها إلى أكديتها: (بوزور آشور، شاليم أخوم... إلخ)، وأحد حكام هذه السلالة «إريشوم الأول» 1900 ق.م، أنشأ مستوطنات تجارية آشورية في آسيا الصغرى أهمها «كاروم كانيش» قرب كول تبة (القيصرية).

بعد صراعٍ يجيد ليم مع إلا كيكابو انتقل إلا كيكابو إلى بابل، ثم انتقل ابنه شمسي أدد إلى مدينة إيكالاتوم، واستطاع تجنيد جماعات بدوية والاستيلاء على مدينة آشور، حيث بدأ مشروعهُ لإكمال المملكة في 1815 ق.م.

عام 1795 ق.م احتلّ ماري ومضى في إنشاء مملكة واسعة تمتد من جبال زاغروس حتى الفرات، مع أخذه لموقع تل ليلان عاصمةً ثانية له تدعى «شوباوانليل»؛ أي مقام الإله انليل، لمراقبة خطوط التجارة وأحوال مملكته على الفرات وأعالیه.

الفكر الاستراتيجي لهذا الملك جعله يمالئ مملكة قطنا الواقعة على تخوم مملكة يمحاض جنوباً؛ لدرء المخاطر عن المملكة من قبل يمحاض التي لم تكن على علاقات جيدة بأشور.⁽²⁾

فزوج ابنه «يسمع أدد» حاكم ماري من ابنة ملك قطنا⁽³⁾، كما وضع ابنه «اشمي دجن» حاكماً على مدينة إيكالاتوم لمراقبة تحركات القبائل في زاغروس وعيناً أخرى على اشنونا.

(1) نلاحظ في سياق حياة ماري وتعرضها إلى هجمة رافدية بقيادة لوجال زاغيزي في منتصف الألف الثالث ق.م، وثم احتواؤها في الفاعلية الأكديّة، ثم احتواؤها في فاعلية أور بعد موت أكد، ثم فاعلية آشور وأخيراً بابل التي أنهت حياتها.

(2) ثمة وثائق تتحدث عن وجود تحالف بين آشور وماري وقطنا وكرميش وأورشوم وخارشوم ضد مملكة يمحاض في فترة «سومو أبوخ» ولم يدخل الجانبان في حروب دائمة؛ وإنما مناوشات تحذيرية بينهما ولكليهما. العلاقة السلبية بين آشور ويمحاض تُعبّر عنها وثيقة من ماري؛ حيث إن يسمع أدد حين أراد السفر إلى قطنا من ماري، لم يأخذ الطريق إلى إيمار فحلب ثم قطنا؛ بل مضى من ماري نحو تدمر فقطنا تحاشياً من يمحاض.

(3) ملك قطنا آنذاك «اشخي أدد» والعروس «بيلتوم».

امتلكت آشور خطوط التجارة تبعاً لامتدادات مملكتها، وكان الميّل التجاريّ نحو الجناح الشامي أكثرَ من الجناح الرافدي. نتابع الخط التجاري الذي يتبع حوض الفرات الأعلى فتدمر وقطنا، أو الرصافة ثم السعن - السلمية فقطنا، بالإضافة إلى خط التجارة الأوسط الأقرب إلى ماري.

حدود المملكة الآشورية بلغت زمن حكم شمشي أدد معظم الجزيرة الشامية حتى سفوح زاغروس في الشرق وطوروس في الشمال، والأراضي من ماري حتى أعالي الجزيرة الشمالية وشرقها قُسمت بين ابني الملك.⁽¹⁾

يعيننا أن نشير هنا إلى حضور الحصان في المشرق، حيث ورد في وثائق ماري منذ القرن الثامن عشر ق.م، وقد أسهم وجوده واستئناسه إلى تطور أدوات المعارك بالإضافة إلى قيادة المركبات، وتذكر الوثائق اهتماماً به في مدن ماري وأجاريت وقطنا وآشور وغيرها.⁽²⁾

وبعد، مات شمشي أدد قرابة 1782 ق.م، وفرطَ عقد المملكة ليعود زمري ليم إلى ماري وتعيش نساء يسمع أدد في كنف زمري ليم، كما عاشت ابتنا يخدون ليم الموسيقيتان في كنف شمشي أدد. وكعادة سقوط المدن والممالك ها هي اشنونا تحشدُ همّتها لتتقضَّ على جنوب المملكة الآشورية، وها هو نجم بابل في طور اللمعان.

بابل:

في نهاية الألف الثالث ق.م كانت بابل مدينةً صغيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات جنوباً. ففي السومرية ورد اسمها «كا- دينجير- را»، وفي الأكديّة «باب- ايليم». استطاع سومو ابوم تجميع قرى وبلدات على شكل اتحاد ثم تبعه خلفاء في السلالة مدة سبعين عاماً استطاعوا فيها زيادة حجم المدينة.

في عهد «سن مبللط» والد حمورابي، قرابة 1792 ق.م، كانت بابل مملكة متواضعة الحجم قياساً مع الممالك المشرقية الأخرى.

قالت الوثيقة: من شمشي أدد إلى يسمع أدد: «أريد أن آخذ لك ابنة اشخي أدد. السلالة الحاكمة في قطنا لها اسم كبير والسلالة الحاكمة في ماري لها اسم كبير أيضاً». عيد مرعي 1991.

(1) د. بشار خليف - 2018.

(2) فيصل عبد الله- دراسات تاريخية 35 - 36 - 1990 - دمشق.

«كلينغل» يشير إلى أن المناطق التي ورثها ابنه حمورابي محدودة، مع وجود سور للموقع وسدود ربما يعودان إلى زمن انهيار فاعلية أور في نهاية الألف الثالث ق.م.

ومع بداية صعود بابل في حكم حمورابي كانت دائرة نفوذه لا تزيد على 80 كم حول بابل، ويبدو أنه كان على خلاف مع آشور⁽¹⁾ دون أن يخضع لها.

يبدو أن توسع مملكة بابل في عهد حمورابي كان دعماً من آشور تحت حكم شمسي أدد، وحين مات شمسي أدد بقي أمام حمورابي أن يحقق مملكته؛ مملكة لارسا القوية التي ارتبطت بابل معها بعلاقات جيدة؛ لكن ساعة بابل دقت وضمت لارسا إلى فاعلية بابل عام 1763 ق.م، ثم احتل اشنونا التي كثر تحالفها مع عيلام، وبسبب ضعف آشور بعد موت شمسي أدد أمكن إخضاعها لنفوذ بابل. اكتمل المشهد البابلي إذًا، وسيكتمل أكثر بضمه إلى الفرات الأوسط وسيدته ماري.

بعد موت حمورابي عانت مملكته تمردات في الجنوب ومن الشرق، ما أدى إلى سقوط بابل تحت ضربات الحثيين عام 1595 ق.م، ثم انسحب الحثيون فسيطر عليها الكاشيون.

توسع مملكة بابل زمن حمورابي، وكثرة مجتمعاتها دفعه إلى سنّ قوانين على جري التقاليد المشرقية، فنحن نعلم أنه كلما تعقدت واتسعت أحوال المجتمع وعلاقاته وما ينبثق عن ذلك من فساد وتعقيدات اجتماعية واقتصادية وحياتية، أصبحت الحاجة ملحة إلى قوانين جديدة تتناسب مع التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

في الألف الثالث ق.م نتذكر إصلاحات أوركا جينا في لاجاش، ومجموعة قوانين أورنمو في أور، وقوانين ليبيت عشتار في اسين، وسوف نجد أيضاً قوانين اشنونا في بداية القرن الثامن عشر ق.م. إذًا، ثمة مخزونٌ حقوقي وقانوني كبير، وما قوانين حمورابي سوى استجابة لحالة التطور البابلية.⁽²⁾

(1) هورست كلينغل - حمورابي ملك بابل وعصره - وزارة الثقافة - بغداد - 1982.

(2) يُلاحظ في قوانين حمورابي أنه لا عقاب في الآخرة على فعل دنيوي، فكل العقوبات دنيوية، ويبدو أن حمورابي كان لاعباً ماهراً في لعبة السلطة الزمنية والدينية؛ فقد حلّ في عهده الإله مردوخ مما صادر النشاط الديني للآلهة الأخرى التي كانت سائدة، وبهذا يبدو أنه صادر القرار الديني للمصلحة السياسية.

والحنكة السياسية عند حمورابي أنه في مستهل قوانينه استخدم العبادة الدينية والإلهية وديج: «عندما حدد آنو العظيم، وانليل... لمردوخ... وسموا بابل باسمه وجعلوها بارزة في أنحاء العالم. في ذلك الزمن أنا حمورابي الأمير الورع عابد الآلهة، من أجل العدل في البلاد جعلوني مرثياً ظاهراً، لأمحق السيء والمفسد، لكيلا يؤذى الضعيف... آنو وإنليل نادوا باسمي من أجل سعادة البشر». كأننا والحال أمام نبي جديد!

يشارُ هنا إلى أنَّ الثقافةَ الكتابيةَ شملت ازدواجيةً في اللغة، وكنا أمامَ نصوصٍ أدبيةٍ كُتِبَتْ بالسومرية والأكدية، كما وُضعتُ قوائمٌ ثنائيةٌ للغة لأسماء حيوانات وأحجار وآلهة ونباتات. والشيء الآخر الذي لا بُدَّ من ذكره هنا أنَّ أسطورةَ الخلق البابلية (إنوما إيليش) ظهرت في هذه الحقبة. (عيد مرعي 1991).

ذكرنا سابقاً فخرَ حمورابي بلهجةِ الأمورية؛ فقد ألغى أسماء العلم غير الأمورية في أسرته واستعاض عنها بلقب «أبو» أو «شيخ»، فلا هوية بابلية هنا، ولا هوية آشورية. وشهدت بابل في هذه الحقبة حركة ترجمة للأدبيات الرافدية القديمة عن السومرية، كملحمة جلجامش وهبوط عشتار إلى العالم السفلي.

المملكة البابلية أيام حمورابي امتدت من بابل حتى الخابور فحوض البليخ وشملت حوض نهر دياللي ووادي دجلة الأعلى.

وفي الشأن التجاري استوردت بابل النحاسَ من قبرص والدمون، والقصديرَ من شمال إيران، ويبدو أنَّها مارست تجارةَ القصدير بنقله إلى مدن الجناح الشامي. والوثائق تشير إلى نقل قصدير من بابل إلى إيمار وحلب، كما استوردت بابل من الجناح الشامي الأخشاب والنبيد والخيول وزيت الزيتون والعسل.

الجنوب الشامي في عصر السلالات الأمورية:

كما أشرنا سابقاً إلى معالم الانسياح الأموري إلى جهة الجنوب الشامي ومدنه منذ نهاية الألف الثالث ق.م، حيث تكشفُ الوقائع الأثرية تحوُّل المجتمعات إلى حالة بدوية، وشيئاً فشيئاً تنبثق معالمُ الاستقرار في مطلع الألف الثاني ق.م، فنجدُ مواقعَ في فلسطين محصنة مثل: تل وقاص (حاصور) وتل المتسلم وتل بلاطة وتل السلطان وغيرها.

موقع تل المتسلم (مجدو) كان موقعاً استراتيجياً يعود إلى الألف السابع ق.م، وبقي استيطانه حتى الاحتلال اليوناني، وامتلك طرق التجارة الداخلية والخارجية من بلاد الشام إلى مصر والعكس. والموقع أُشيرَ إليه في الوثائق المصرية، وكان مقراً لمندوب الملك المصري، وكحال القدر الجغرافي في الألف الثاني ق.م عُثر في المدينة على آثار ضخمة لثلاثة معابد.

تقع مجدو عند مدخل سلسلة جبال الكرمل الذي يمر فيها الطريق الذي يصل مصر بسهل مرج بن عامر متجهاً نحو الأردن فسوريا. وكحال القدر الجغرافي كانت مواقع الجنوب عُرضةً للنفوذ المصري، تشهد على ذلك مسلاتٌ وتماثيلٌ مصرية عُثِرَ عليها في عدة مواقع شامية كبيروت ورأس شمرا وتل الجزر وتل المتسلم وغزة⁽¹⁾. أما في الأردن فنحن في هذه الحقبة واقعون على موقعي جادة وطبقة فحل.

الدراسات الأثرية عامةً وصلت إلى نتيجة مفادها أنّ المواقع الأثرية الجنوبية في الشام لم تكن مساويةً لمواقع الشمال الشامي، ومع هذا فإنّ المدن الساحلية تطوّرت أكثر من تطوّر مدن الداخل.

في شمال السويداء نجد موقع دبه، وفي درعا تل الأشعري (تل عشيرة)، كما في درعا نفسها. وفي لبنان نجد مواقع بيروت وبعلبك وعرقه وكامد اللوز وجبيل، مع الإشارة هنا إلى أنّ موقع كامد اللوز في البقاع اللبناني كان حلقة وصلٍ تجارية بين جنوب بلاد الشام ومصر من جهة، وبين شمالي المشرق والأناضول من جهة ثانية. الدراسات تتحدث هنا عن ثقافةٍ متماثلة تمتد من رأس شمرة حتى تل العجول جنوب فلسطين.

في الأبحاث المختصة بالفخار لوحظ أنّ فخار موقع مجدو المتميز بنقوش الأحزمة الملونة يشبه ما عُثِرَ عليه في أجاريت وقطنا في سوريا. الأباريق في مجدو أيضاً لها ما يماثلها في أجاريت وتل العجول ورأس العين في فلسطين وجبيل في لبنان.

الاعتقاد الآن أنّ سكان مجدو، استدلالاً من فخارها، قدِموا من شمال سوريا إلى فلسطين، وهذا ما يُطلَقُ عليه الثقافة الكنعانية⁽²⁾. وزاد من هذا الاعتقاد العثور على أسلحة برونزية كنعانية في تل العجول وأريحا ومجدو وجزر. أيضاً تُقدّم المعطيات الأثرية مساحةً الموقع فيما يقارب 1800 ق.م، فنجد مع أريحا 7 ايكرات، ومجدو 13، وحاصور 18، وكانت كلها ذات أسوار.⁽³⁾

(1) كفاي - مرجع سابق.

(2) يذكر. د. سامي الأحمد أنّ موجة كنعانية ربما أتت من جبيل واستقرت في فلسطين إلى جانب جماعات رعاة وأنصاف بدو. كان الدخول سليماً.

(3) لوحظ أنّ موقع أريحا دُمِّرَ وحُرِّقَ في 2000 ق.م، ثم أعيد تعمير السور من اللين ثلاث مرات بين 2000 و1800 ق.م. سامي الأحمد - مرجع سابق.

يقدم موقع مدينة حاصور شمال فلسطين معطيات عن بوابة ضخمة ومعابد ربما هي قصر ملكي ومبان رسمية. وقد كان لهذه المدينة علاقات تجارية مهمة مع مدن الفرات الأوسط ولا سيما ماري وبابل.⁽¹⁾

وانتقالاً إلى جبيل فقد كان لها في الألف الثاني ق.م علاقات تجارية مع مدن المشرق على الفرات، وكانت قطنا محطة عبور إلى ماري والعكس. يشير «هورست كلينغل» إلى أنّ المدينة حكمتها في الألف الثاني ق.م سلالة أمورية، دلّ على ذلك أسماءُ أعلامها، واستناداً إلى نقوش هيروغليفية وجدت في جبيل.

تميزت جبيل بمعابدها وصناعاتها التعدينية، والمعطيات الوثائقية تذكر تلقي ملك ماري زمري ليم هديةً من جبيل هي إناء من الذهب. وتذكر استيراد ماري الملابس من جبيل واستقبال ملك ماري مبعوثاً من جبيل حاملاً ثوباً هديةً.

الجدير ذكره هنا أنّ الخط التجاري من ماري إلى كلتا المدينتين: حاصور وجبيل كان يتبع محورين:

المحور الأول: ينطلق من ماري بمحاذاة الفرات حتى إيمار نحو حلب فساحل المشرق حيث أجاريت وجبيل ومواقع فلسطين.

والمحور الثاني: من ماري عبر البادية إلى قطنا فالساحل المشرقي، وقد ينعطف عند تدمر تجاه الجنوب الغربي إلى القريتين نحو دمشق فإلى فلسطين، ويبدو أنّ الطريق الثاني كان أكثر مسلكاً. وثمة طريقٌ ينطلق من حلب نحو حاصور مروراً بقطنا. (د. بشار خليف 2018).

(1) ذكرت وثائق ماري في الألف الثاني ق.م وجود تجار من حاصور ويمحاض وإيمار، وصدّرت ماري القصدير إلى حاصور.

كما تذكر الوثائق أيضاً: سرقة قافلة لتاجر حاصوري في إيمار، وطلب ملك ماري زمري ليم من ملك يمحاض أن يقبض على الجاني وتُسترد المسروقات، وكانت إيمار تابعة لفاعلية يمحاض، وثمة معلومات عن إرسال كميات من الذهب والفضة والأحجار الكريمة من حاصور إلى ماري، ربما استوردت من مصر. أيضاً تذكر وثائق ماري إرساليات لمبعوثين من حاصور وجبيل.

للمزيد انظر: حضارة مدينة ماري- د. بشار خليف.

تل القدح: حاصور تقع في منطقة الجليل الأعلى إلى الشمال من بحيرة طبرية نحو 14 كم. يكشف موقعها على منطقتين عليا وسفلى. العليا مساحتها 120 دونماً، بينما السفلى 700 × 1000. فاعليتها الديمغرافية بين 1800 و1300 ق.م

المواقع الجنوبية في بلاد الشام عامةً كانت تحت التأثير المصري الذي يقوى حيناً ويضعف حيناً آخر، والمدن التي حظيت بنسبةٍ من الاستقلالية؛ كحاصور وجبيل، أمكن لها أن تمارس سيادتها التجارية ونشاطها التجاري بين مدن المشرق ومصر؛ ولكن الأرومة الديمغرافية هنا الآن كنعانية/ أمورية.

وانتقالاً من الجنوب إلى عمق المشرق وشماله، فسوف توضعُ مدن امتازت بأهمية تجارية كقطنا وحران وإبلا، ومدن امتلكت السيادة على إقليمها كيمحاض، ولا بأس هنا من استعراض أجوائها.

قطنا - تل المشرفة:

ترقى في وجودها إلى الألف الثالث ق.م، وربما الألف الرابع ق.م؛ لكن فاعليتها التاريخية أُكِّدت تقريباً في عام 1800 ق.م. تبعد عن حمص نحو 18 كم شمال شرق. مساحة الموقع 110 هكتارات، مدينة مسورة أمورية بأربع بوابات وشكلها مربع، قصرها الملكي يشبه في مخططه قصر ماري الملكي. شكَّلت المدينة وسيطاً تجارياً بين الجنوب والشمال وبين الرافدين والمتوسط. الذي ميَّز مكتشفاتها هو المقبرة الملكية التي كشفت عن كنز مهم، وتوايبت لملوك السلالة الحاكمة. والمواقع المحيطة بقطنا من الجهة الخلفية ينوف عددها عن أربعة وعشرين موقعاً، ما سمح بوجود كثافةٍ سكانية ما بين 3000 و1200 ق.م.

منطقة الموقع تربط بين بيئات مختلفة، بين زراعية وشبه جرداء. ولدى البحث عن حال البيئة والمناخ أظهرت الدراسات وجود بحيرات صغيرة في المنطقة؛ لوقوعها بين وديان وثلاثة جداول تتجه شمالاً وتشكل روافدَ لنهر العاصي. ويبدو أن مصادر المياه المتوفرة امتدت طوال هذه المدة، وهذا أمرٌ استمراريتهَا. وتُظهِر الدراسات الجيومورفولوجية انخفاضاً في مخازن المياه بدءاً من 1200 ق.م، وهذا سببٌ هجرَ الموقع.

البحيرة علّة وجود قطنا، فقد كان جزء صغير منها محجوزاً داخل المدينة، يغذّيه نبع مياه عذبة موجود عند القاعدة الشمالية للأكروبول، والجزء الأكبر كان خزاناً مائياً في أعلى المدينة. البحيرتان استُخدمتا لتأمين المياه وريّ الأراضي وهكذا.

ثمّة قصرٌ صغيرٌ يجاورُ القصر الملكي يعود إلى الألف الثاني ق.م، تدلُّ خصائصه المعمارية على تشابهٍ بمواقع الاالاخ ورأس شمرا.

لوَحِظَ في الطرف الشمالي للأكروبول وجودُ قبور عديدة لبالغين مع قبور لأطفال حديثي الولادة مدفونين في الجرار، كما عُثِرَ في الطرف الشمالي من المدينة المنخفضة على ثلاثة مدافن مكونة من غرف، وثمة غرفة رئيسة تتصل بغرفتين أو أكثر.

المرفقات الجنائزية من أوان فخارية ودبابيس وزينة وأسلحة برونزية أشارت إلى مدفون يحظى بمقام عال، كما عُثِرَ على مقبرة كبيرة تضمُّ مدافنَ فخمة لأفراد مهمين من قطنا، وإلى جانبها قبورٌ متواضعة جماعية لعامة الناس، وجرار تحوي أطفالاً حديثي الولادة. أيضاً عُثِرَ في الموقع على قصر آرامي يعودُ إلى الألف الأول قبل الميلاد⁽¹⁾، كما عُثِرَ تقريباً على ثلاث وسبعين وثيقة مسمارية تعود إلى 1355 - 1320 ق.م.

استقبلت قطنا القصدير من ماري واستقبلت أيضاً النحاس من قبرص، ومن ثمَّ تُنقَلُ السلع والبضائع شرقاً وغرباً. واشتهرت قطنا بتربية الخيول البيضاء وتاجرت بهم.

يُعدُّ «إشخي ادد» مؤسسَ السلالة الأمورية في قطنا، عاصر ملك آشور شمشي أدد وتحالف معه ضدَّ سومو أبوخ وابنه ياريم ليم ملكي يمحاض. وذكرنا عمقَ التحالف الآشوري القطناوي حين زوّج ملك آشور ابنه يسمع أدد حاكم ماري من ابنة ملك قطنا. قوّة قطنا ذُكرت في وثيقة أشارت إلى أنّ ملكها أموت بيل في القرن الثالث عشر ق.م كان يتبعه خمسة عشر ملكاً أو حاكماً.

تعرضت قطنا للتدمير على يد الحثيين، وهُجِرَ سكانها إلى بلاد خاتي في آسيا الصغرى.⁽²⁾

حِران:

تقع في أعالي الجناح الشرقي عند منبع نهر البليخ، وتقع الآن جنوب شرق تركيا، وهي على أحد روافد الفرات. تميز الموقع بخصوبة أراضيها، وتعود إلى نهاية الألف الثالث ق.م، وبداية الألف الثاني ق.م.

المعطيات تشير إلى ارتباطها مع أور، على بعد 1000 كم، بعلاقة تجارية مهمة؛ فقد كان كهنة الإله سين في حِران وأور يتبادلون السلع والبضائع⁽³⁾. إضافةً إلى ذلك كانت ترتبط

(1) عاصمة العاصي - فنون آثار مملكة قطنا القديمة - 2005 - دمشق.

(2) عيد مرعي - تاريخ سوريا القديم - 2010.

(3) الطريق التجاري بين أور وحِران ينطلق من أور نحو ماري ثم بمحاذاة البليخ إلى حِران. الرحلة آنذاك تستغرق شهرين في الأحوال الطبيعية. كفافى 2004 - مصدر سابق.

بغرب بلاد الشام وجنوبها بموقع قرب كركميش، وبجانب حلب إلى منخفض العاصي، حيث تتفرع منه طريقٌ إلى دمشق والجنوبِ الشامي، أو طريق آخر نحو الساحل المشرقي.

يمحاض / حلب:

ذُكرت في وثائق إبلا فيما بعد منتصف الألف الثالث ق.م، دكتور كفافي يذكر ورود اسم «حلب» في وثائق إبلا، في كتابه «بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ»، وفي المقابل الدكتور عيد مرعي يذكر في كتابه «تاريخ سوريا القديم» أنه لا يردُّ في نصوص إبلا ذكرٌ لاسم يمحاض أو حلب.

ويبدو أنها كانت مرتبطة بها؛ لكنَّ فاعليَّتها التاريخية وُضِّحت في عصر الممالك الأمورية في مطلع الألف الثاني ق.م. ويرد ذكرها في وثائق ماري حين قام يخدون ليم بحملته على ساحل البحر المتوسط، حيث قام سومو أبوخ ملك يمحاض بدعم قبائل البنيامين حين مهاجمتهم جيشَ ماري.

استمرَّ حكم ملك حلب منذ ما قبل 1809 ق.م حتى 1780 ق.م⁽¹⁾. ويُعتَقَدُ أنَّ مملكته امتدت من الشرق عند توتول إلى الغرب حتى نهر العاصي، وجنوباً حتى منطقة قطنا، كما امتدَّ نفوذها إلى مناطق دجلة (مدينة دير ودينيكوم).

المعطيات تشير إلى امتلاك ياريم ليم أسطولاً على الفرات، يتألف من خمسمئة سفينة تجارية، فيمحاض استوعبت حركة التجارة الدولية عبرها من أعماق الغرب حتى قبرص، وعبر ايجه إلى أعماق الشرق حتى إيران. (دونالد ريدفورد- مرجع سابق).

ولعدم الكشف بعد عن آثار المملكة جاءت أخبارها من وثائق الالاخ وماري وحاتوشا عاصمة الحثيين.

امتلكت يمحاض في فاعليتها علاقات جيدة مع ماري وأجاريت، ويبدو أنَّ أجاريت كانت تابعةً ليمحاض وبابل، مقابل علاقات سيئة وحذرة مع مملكة آشور، وبقيت العلاقة معها بين مدٍّ وجزرٍ إلى حين وفاة شمسي أدد ملك آشور. وحال المدن الضرائر هنا هو نفسه، حالات اصطفاف للممالك في حروب المصالح المدنية.

(1) هورست كلينغل- تاريخ سوريا القديم- مرجع سابق.

ياريم ليم ملك حلب في حرب مع شمشي أدد ملك آشور، وممالك المشرق كأشوننا وبابل ووقت إلى جانب يمحاض، في حين ووقت قطنا مع آشور، حتى إنَّ يسمع أدد حاكم ماري الآشوري وصل إلى إيماز تابعة يمحاض.

نقرأ وثيقة من يمسون إلى زمري ليم: «بقي أربعة ملوك أقوياء: حمورابي ملك بابل، وريم سين ملك لارسا، وأموت في إيل ملك قطنا، وياريم ليم ملك يمحاض».⁽¹⁾

توالى على حكم يمحاض بعد سومو أبوخ تسعة ملوك تقريباً حتى 1600 ق.م. في زمن حكم ياريم ليم 1780 - 1765 ق.م، امتلكت يمحاض علاقات مهمة مع حاصور شمال فلسطين في عهد ملكها «إبني أدد»، كما تذكره وثيقة ماري مع زوجته جاشيرا وابنه حمورابي إلى جانب حاكم جبيل نيتين خمو.⁽²⁾

لم يدم خلاف يمحاض مع قطنا طويلاً، ففي عهد ياريم ليم ثمة وسيط بينهما هو ملك ماري زمري ليم. قال ياريم ليم رداً على محاولة زمري ليم الصلحية: «أموت بيل ملك قطنا، يجب أن يأتي إلى حلب، سنصنع أسس علاقات ممتازة بيني وبينه بعد أن نقسم يمين الإله ونعقد معاهدة قوية».⁽³⁾

الملاحظ في الفاعلية اليمحاضية تأسيسها لمملكته وممارسة أقل حد من الحروب والتوسعات، ولم تكن مائلة إلى كذب جيشها في حروب لا طائل منها، ومع أنها ساعدت بابل بإرسال كتائب عسكرية بواسطة ماري، غير أن سقوط ماري بفعل حمورابي بابل لم يدفعها إلى الدفاع عنها؛ لكنها ساعدت من قبل زمري ليم لاسترداد عرش ماري من يسمع أدد الآشوري بعد وفاة والده. شيء آخر نلاحظه في فاعلية يمحاض هو اختلاف نفوذها بين ملك وآخر، فلا استقرار في حدود دائمة.

ها هو زمن حكم ملكها «أبائيل» في منتصف القرن الثامن عشر ق.م، تظهر امتداداً نحو إيماز وكركميش، وقمعه لتمررد في مدينة «إيرتي» شرق نهر الفرات التي كان يحكمها أخاه ياريم ليم، ويظهر أنه عوضه عن مدينته هذه بمنحه الألاخ وبعض القرى المجاورة لها⁽⁴⁾؛ إذ اعترف ياريم ليم وابنه أميتاقوم بسيادة حلب عليها.

(1) علي أبو عساف 2011.

(2) عيد مرعي 2010.

(3) Ibid. P.51

(4) موقع مدينة الألاخ (تل عطشانه) يقع بالقرب من مدينة أنطاكية في لواء اسكندرون. تبين أن الموقع يتضمن 17 سوية أثرية تمتد من أواخر الألف الرابع ق.م حتى بداية القرن الثاني عشر ق.م، دمرتها غزوات شعوب البحر.

بصمود الفاعلية الحثية وسط بلاد الأناضول والتعبير عن حيوتها، كما هو حال تطور الممالك والمدن، يقوم حاتوشيلي الأول 1650 - 1620 ق.م، بحملة عسكرية على شمال سوريا، وقد قادت حلب آنذاك مقاومةً ضده، وتمكن من هزيمتها دون إخضاعها. وفي عهد خليفته مورشيلي الأول تم إخضاع يحاض ومن ثم بابل.⁽¹⁾

مع ظهور الفاعلية الحورية الميتانية في الجزيرة الشامية وامتداداتها منذ أواخر القرن السادس عشر إلى بداية الخامس عشر ق.م، يذكر نقش «أدريمي» ملك الالاح ذكر تمرد في مقر حكم أبيه في حلب، ما دفع أخوته إلى الهرب إلى مدينة إيمار، حيث يقيم أخواله ثم غادرها نحو بلاد كنعان ليقوم مدة سبع سنوات لدى جماعات الخابيرو، ثم عاد إلى حكم الالاح ملكاً تابعاً للمملكة الحورية الميتانية مدة ثلاثين عاماً.⁽²⁾

إبلا:

بالمطلق، مدن الألف الثاني ق.م في المشرق لم تكن مساوية المدن في الألف الثالث ق.م، نخص هنا: المدن الموروثة لا المؤسسة. وضمن هذه الرؤية تقع إبلا في الألف الثاني ق.م. فبعد أن دمرها الأكدي نجد ذكراً لها في نهاية الألف الثاني في وثائق ملك سلاله إيسين «إشبي إرا»: 2017 - 1985 ق.م. فثمة أكياس جلدية تحوي رُفماً لأشخاص جاءوا إيسين من ماري وإبلا.

النصوص الآشورية القديمة في مستوطنة كاروم كانيش في كبادوكيا تخبرنا بوصول عدد من الإبلايين محملين بالفضة الأمورية ليحصلوا على النحاس.

(1) ثمة تهئية نفسية استعملها حاتوشيلي الأول حين نقل تمثال الإله أدد (الإله الوطني لحلب) من مدينة خاشو إلى معابد مملكته.

القصد من ذلك: التحضير النفسي بالآلهة لاحتلال حلب فيما بعد، هورست كلينغل يناقش هذه التهئية بقوله: «إن دمج العبادة المحلية المختلفة واسعة الانتشار الخاصة بإله الطقس الحلبي في الحياة الدينية الرسمية للحثيين، يمكن أن تستخدم كحجة للتدخل السياسي لهم في سوريا». كلينغل - تاريخ سوريا السياسي؛ لهذا نقرأ في معاهدة لاحقة أن: حاتوشيلي الأول «أنهى» مملكة حلب العظمى، طبعاً في مستوى التهئية النفسية الدينية فالسياسة.

(2) لوائح الأسماء في الالاح خلال القرن الثامن عشر ق.م، كشفت عن 524 اسماً أمورياً وبعض الأسماء الحورية النسائية.

في القرن الخامس عشر ق.م، أصبحت الأسماء الحورية أكثر عدداً من الأمورية.

نهاية القرن الثامن عشر ق.م وبداية القرن الذي يليه، تخبرنا نصوص الالاخ عن تزويج ملك الالاخ «عمي- تاتو» لابنه من ابنة حاكم إبلا، وثمة إشارات إلى رحلات ملك الالاخ أو سعاته إلى إبلا. ويُعدُّ «إبيط ليم» مؤسس السلالة الأمورية في إبلا.

استبدل حكام إبلا بالقصور المدمرة في الألف الثالث ق.م قصوراً جديدة، وأحيطت المدينة بسور ضخمة اختلطت قطعه بقطع فخارية تعود إلى يوم تدميرها السابق، وتميز السور بأربع بوابات، يُقدم نموذج ما عُرفت ببوابة رَسْب (رشف)، مشابهة لها في مواقع الالاخ وقطنا وإيمار كركميش وحاصور وأريحا ومجدو، كما حوت المدينة معابد عديدة، أهمها معبد (P2) الضخم، الذي يشبه في مخططة معابد فلسطين وتوتول. كما عُمرت القصور التي حوت بعض الأختام الأسطوانية ورقم مسمارية. وتحت القصر الغربي عُثر على مقبرة ملكية تحوي كهوفاً ومغاور تضم بعض المدافن، وما يدفع إلى التساؤل أن رقم ماري لا تشير إلى إبلا في الألف الثاني ق.م التي تعرضت للدمار بالفعل الحثي المتصاعد.⁽¹⁾

بعد هذا الاستعراض التاريخي للنصف الأول من الألف الثاني ق.م، استنتجنا أن المشرق بممالكه المتجانسة ديمغرافياً بقي يتميز بالمدن الضرائر؛ حروب مصالح، وحروب حدودية، والبقاء للأقوى، مدن تُؤسس ومدن تموت. والمُلاحظ هنا أن الصراع المدني بين ديمغرافيا بدأت بدوية قبلية في المدن، لم تحمل تقاليد ثأرية بين قبائل مختلفة، ولا سيما بين بني شمال وبنو يمين، وهذا ما يستدعي الوقوف عليه.

أمر آخر جدير بالاهتمام: انعدام الصراع الديني بين المكونات الأمورية، وشيئاً فشيئاً أخذ التراكم الديني مكانة في المدن تجاه ذوبان الثقافة البدوية الأولية والمتطورة. مع الإشارة هنا إلى أن الثقافة الأمورية لم تكن بمستوى الثقافة الأكديّة؛ لهذا تبني الأموريون اللغة السومرية والأكديّة، ولم نجد لغةً أو لهجةً أمورية لغةً رسمية في السجلات والوثائق، ثمة تعبيرات أمورية حضرت وكذلك أسماء العلم فقط.

في مقارنة مواقع بلاد الشام الجنوبية والساحلية، تحتل مواقع فلسطين ولبنان وسوريا أهمية في التجارة بين المشرق ومصر، كما المشرق مع مواقع المتوسط كقبرص وبحر إيجه.

(1) عيد مرعي - إبلا 1996.

النفوذ المصري يتضح جلياً على تلك المواقع الفلسطينية واللبنانية مع استقلالية لبعض المدن كجبيل وحاصور إلى حد ما، هذا النفوذ سيُوضَّح ويشتد لاحقاً مع ضعف مدن العمق المشرقي وانهيار بعضها لتخلو الساحة المشرقية لصراعات مصرية- حورية ميثانية، مصرية- حثية، يكون فيها الجناح الشامى تحديداً بدور التابع والواقع في صراع بين الأقوياء إلى حين انبعث آشور، وحين نشوء الانسحاق الآرامى في المشرق مع مطلع الألف الأول ق.م، ثم بالنهوض الآشورى والبابلي والكلداني في الجناح الرافدى.

المظاهر الحضارية في النصف الأول من الألف الثاني ق.م:

كملاحظة تجارية تحمل أبعادها، وفي مفارقة للجغرافيا التجارية في الألف الثالث ق.م، إننا الآن مع الألف الثاني أمام متغيرات في المواقع والمحطات التجارية الدولية، فالمواقع الإيرانية خبا دورها كما كانت من قبل، كذلك مواقع وادي السند، بالإضافة إلى موقع الديلمون (البحرين).

حضرَ القصدير سلعةً تجاريةً مهمة في النشاط التجاري⁽¹⁾، وأسهمت التجارة بين مواقع المشرق ومواقع البحر المتوسط وليس ساحله فقط بدور مهم في ربط المشرق بجزر بحر إيجه وقبرص وكريت، جزيرتا قبرص وكريت تحولتا إلى شريكين في التجارة مع المشرق. النشاط التجاري أيضاً أدى إلى ازدهار المدن بالضرائب التي تُفرض على السلع التجارية، ففي مدن المشرق حظيت غرف التجارة (كاروم) بأهمية للحفاظ على الشفافية التجارية، أيضاً كان من واجب كل مدينة حماية طرق تجارتها، وهذا ما كانت تستفيد منه القبائل الموجودة في مجال المدينة التاريخي.

ذكرنا سابقاً أنَّ ماري وكركميش ويمحاض حاصروا مدينة إيمار بسبب تعرض القوافل التجارية في أراضيها إلى قطاع الطرق، هكذا تتحمل المدينة عواقب استهتارها بأمن القوافل وسلامتها. وكان استيفاء الجمارك على السلع التجارية يتم بالفضة أو بعينات من المواد المتاجر بها.

بعض المدن اختصت بصنع القوارب والسفن كماري وتوتول⁽²⁾، ويُذكرُ هنا أنَّ طرق التجارة النهرية كانت أكثر أماناً من الطرق البرية.

(1) كذلك الأنسجة والزيوت والخيول والأحجار الكريمة والذهب والأخشاب والنحاس والحبوب والنبذ.
(2) ثمة وثيقة رسالة من شمشي أدد إلى ابنه حاكم ماري يتحدث فيها عن ضرورة بناء سفن لنقل الحبوب: «ابن ستين سفينة... في توتول، يجب عدم التهاون من أجل السفن» Arm I 102.

الباحث كلينغل يصف الواقع التجاري في الألف الثاني ق.م بين المشرق ومصر وجزر المتوسط أسباباً ونتائج:

- التطور في التجارة البحرية الكريتية.

- أهمية النحاس القبرصي الذي التقى في المشرق بالنحاس المستورد من مناطق الخليج العربي.

- ظهور مملكة يمحاض (حلب)، والطلب على السلع الكمالية المعدنية.

- ظهور النشاط التجاري المصري في استيراد المواد الخام من أفريقيا وزيادة الطلب المصري للمصنوعات المستوردة من المشرق والعالم الايجي.

- التغيير الذي طرأ على وجهة التجارة في الجنوب الرافدي تجاه الجناح الشامي وعالم المتوسط⁽¹⁾.

في الحياة الدينية والمعتقدية:

نلاحظ افتراقاً مهماً عما كان سائداً في المشرق قبل الفاعلية الأكديّة، فهنا هدأت عواطف التدين المفرط وأمكن لجم تدخل رجال الدين والكهنة في اقتصاد المدن، وجرى احتواء اقتصاد المعابد في اقتصاد القصر.

خفّت الحدة في الرمزية الإلهية، فأصبحنا أقرب إلى إله وطني واحد لكل مدينة، حتى اشتركت عدة مدن في عبادة إله واحد كدجن وأدد، وبقي لبعض المدن إلهها الوطني الخاص كأشور/ آشور، وبابل/ مردوخ⁽²⁾. معالم الانصهار الاجتماعي هي التي وحدت المدينة في إله واحد، مع الإشارة إلى الإله ايل المشرقي سيد السنين المتواري.

وتشترك مدن المشرق في أعيادها السنوية (السنة الجديدة)، بالطواف بتماثيل الآلهة في المدن الدينية، وهذا ما كان يجري في نيبور وترقا، وسوف تستمر هذه الظاهرة حتى الألف الأول بُعيد الميلاد كما سنرى في تدمر.

(1) انظر: هورست كلينغل - التجارة في بلدان الشرق القديم والتفاعل مع جزيرة كريت في الألف الثالث ق.م - 1989. وكذلك: التجارة ووسائل العيش في فجر العصور التاريخية - وثائق الآثار السورية، وكذلك: تاريخ سوريا السياسي والحوليات الأثرية السورية 34.

(2) طبعاً لا يمنع هذا مثلاً من أن يُجبر حمورابي قوانينه إلى الإله أنو وانليل، فما زالاً ينتميان إلى المجال الديني المشرقي البابلي ولكن بوصفهما نوعاً من استيراد رموز تُعدُّ مرتكزات لعالم الألوهة المشرقية.

«فون زودن» يصف معتقدات الألف الثاني ق.م، وكيف قادت للاقتراب من التوحيد، حيث شاع التفكير بإله واحد في هيئات متعددة، لكن هذا لم تتم صياغته في عقيدة راسخة.⁽¹⁾ المعتقدات الكنعانية، بالأنصاب والأحجار المخروطية شكّلت رمزية للإله ايل، فهذه الأشياء تُعدُّ بيت الإله (بيت إيلو)، وهذا نجده أيضاً في الألف الثالث ق.م في موقع مدينة جبيل. وفي مقاربة للعمارة المعبدية نجد تضاؤلاً الأبهة العمرانية والبذخ الديني ببذخ من نوع آخر في إنشاء القصور الملكية.

لا يمكن إغفال ما أورثته الحضارة المشرقية عامةً، منذ الألف الثالث إلى الألف الأول قبل الميلاد، ما سيكون الوضع عليه في المشرق والمحيط الإقليمي حتى ظهور الأديان السماوية، مع أنه ليس من معالم التأثير، بل التأثر بالثقافات الأخرى كذلك؛ فالتاريخ مثاقفة.

حياة مجتمعات المشرق:

بسوية نداء الحياة وتفاعلاتها المختلفة في السلب والإيجاب عبّرت المجتمعات عن حيويتها، وأثرت تلك الحيوية في نظم اجتماعية وتقاليد وعادات وأعراف أسهمت في اتزان المجتمعات.

نفهم الآن مثلاً أنّ النشاط التجاري سيؤكّد عنه بنى ناظمة له في الاستيراد والتصدير، وفي صون التجارة، وفي حفظ حقوق المتاجرين، وفي التمدد التوسعي أيضاً لطمع تجاري في سياق المادة.

«كاروم» جمعية تُعنى بالنظام التجاري كاملاً، فنلاحظ هنا كلمة الكار في اللغة العربية أيضاً.

الوثائق في ماري تشير إلى وجود تقسيمات لبعض الحرف على شكل قطاعات.

قطاع «زابينوم» يضم ثلاثة عشر حداداً.

قطاع «موت راما» يضم أربعة صنّاع للباد.

قطاع يضم اثنا عشر صانع معدن.

قطاع «أنا- إيا- تلاكو» يضم ستة نجارين.

(1) ف. فون. زودن- مرجع سابق.

قطاع «يدين- تبور- مير» يضمُّ ثلاثةَ عمال لصناعة البيرة. (د. بشار خليف 2018).
«موشكينوم» جمعية تعنى بتنظيم شؤون البسطاء، ونعلم من طبيعة الكلمة أنها تعني
المساكين.

في مقاربتنا هنا الحياة اليومية للمجتمعات تتداخل المعالم اليومية بطبيعة التواصل
التاريخي والاجتماعي منذ الألف الثالث حتى الألف الأول ق.م. فالخطُّ التطوريُّ
الاجتماعيُّ متواصلٌ لا انقطاع فيه، وربما تنجدنا وثائق الألف الثاني بما كان في الألف
الثالث ق.م، وكذلك الألف الأول مع الاحتفاظ بخصوصيات البيئة المحلية بين جناح
وآخر، أو بين مدينة وأخرى، لكنَّ الخطَّ التطوريَّ بدأ ولم ينتهِ.

الفاعليات الموسيقية التي أنبأنا بها الوثائق تمنحنا فكرة وجود مؤسسة تنظم هذه الفاعلية
على أكمل وجه، كاختيار الموسيقيين وتعليمهم وصناعة الأدوات، والحفلات الموسيقية
الدينية والاجتماعية، وهذا سوف نناقشه بفصل فنون المشرق، لكنَّ المؤسسات قائمة.

القصور الملكية امتلكت مؤسساتها أيضاً، والسفراء والمخبرين والاقتصاديين
والمستشارين والمؤسسات العسكرية. وللمزارعين مؤسساتهم التي تُعنى بأحوال القحط
والبجوحة والوفرة، بالسدود والأقنية، بوسائل الري والموانئ وبالزراعة ومجرباتها.⁽¹⁾

في العلاقات الاجتماعية الخاطب يسكب العطور على خطيبته في يوم الخطبة، ويكون
مُحملاً بالهدايا والأطياب من الأطعمة، يتزوجها فيضع غطاءً على رأسها، «كتموم» في تفريق
عن غير المتزوجة، يُطلقها فينزح معطف زوجته أو يمزقه أمام الشهود.

(1) وثائق ماري تقدم معطيات عن وجود تنظيم مركزي في القصر الملكي يتعلّق بالعمل الاقتصادي،
فلأنسجة مسؤولها، كما للزيوت، وكذلك النيذ، وأعمال التعدين والجلود والزيوت والزينة الاصطناعية.
المسؤول عن ذلك اسمه «موكانيشوم» الذي كان أيضاً مسؤولاً في الإشراف على أعمال السجينات من النساء.

ثمة وثائق في ماري الألف الثاني ق.م تشير إلى طلب الملك زمري ليم من زوجته شيبتيو أن تحتفظ بالأسيرات
كعاملات نسيج، مع استثناء الأجمال منهن. جان ماري دوران- الحياة في ماري- La vie a Mari.

وثمة شخص يدعى «ياسيم- سومو» كان مفتشاً في القصر وقصور المملكة. «تيشي- ماما»، مسؤول عن المعادن
وعالمها، «زيكراتوم»: مسؤول عن الأمور المالية من صرف ونقد. «نجدى - ليم»: مسؤول القصر في غياب
الملك. هذا الأمر ينسحب أيضاً على مدن الألف الثاني ق.م المشرقية، على قاعدة التفاعلات والعلاقات بين
المدن والممالك.

نحن نعلمُ أنَّ ثَمَّةَ زيجاتٍ سياسيةٍ كانت تجري بين حكام ممالك المدن في المشرق، ليست لغاياتٍ حيَّةٍ بقدر ما كانت لغاياتٍ سياسيةٍ، لكن ثَمَّةَ زواجٍ يبدو أنَّه استند إلى علاقة حب جمعت بين زمري ليم في لجوءه إلى حلب والأميرة الحلبية شيبتو ابنة الملك ياريم ليم. الطريفُ أنَّه بعد عودة زمري ليم إلى عرش ماري طلب يد حبيبته بوفد ملكي إلى حلب، (زواج بالوكالة).

مراسيم الزواج تمَّت في حلب. «شيمروم» وزير البلاط الحلبي، يبدو أنَّه أحبَّ مغنيَّةً من ماري ربما كانت ترافق الوفد، اسمها «كراناتوم»؛ فأعلن للبعثة الماريَّة: «امرأة مقابل امرأة». ويمكن من أجل معرفة تفاصيل الحدث الرجوع إلى كتاب «حضارة مدينة ماري». ولكن كانت الزوجة تحظى بالعصمة أحياناً.⁽¹⁾

وللأب سلطةٌ كاملة في قضية زواج ابنته، وللأسرة حقُّ تبني أولاد آخرين، ويحصلون على حق الإرث كالأبناء، لكن شرطاً ألا يؤدي ذلك إلى الإساءة والضرر بالأولاد الأصليين. ينبغي هنا ملاحظة أنَّ الطفل في ماري لم يكن يعرف اسمه منذ ولادته؛ إذ يبقى على اسم أمه حتى يقف على قدميه فيمنحُ اسماً، ووفق تقليد يختصُّ بترسيم الأطفال فيلبسونهم ثياباً جميلة أول مرة في حياتهم، ولم نعثر على وثائق رافدية تؤكد شمول هذا الأمر مع المدن الأخرى. مع الإشارة إلى أنَّه لا أفضلية بين إناث وذكور في المشرق حين الولادة. التبني يتمُّ بحضور الشهود ويحقُّ للمتبني أن يلغيه ويُعيدَ الولدَ إلى أهله.

العبودية كانت سائدةً في المدن المشرقية، والمعطيات تشير إلى أن العبدَ يتم تمييزه اجتماعياً بوضع لوحٍ طينيٍّ صغيرٍ في عنقه يحملُ اسمه واسمَ مالكه. ويبدو أنَّه سادت في مدة ما، طريقة وسم العبد بقطعة حديدٍ محمية على جلده، وهذا ما دفع حمورابي بابل في الثلث الأول من الألف الثاني ق.م، إلى معاقبة من يقوم بهذا الفعل بقطع يديه، وإذا ما اقترفه جهالة بتحرير من طرف ثالث فإن الأخير يعاقب بالموت.⁽²⁾

الملاحظة هنا أنَّ سعر العبد، كما تخبرنا وثائق ماري، كان يتراوح بين 9 و11 مثقالاً من الفضة.

(1) فيصل عبد الله- المرأة في محاضرات - دراسات تاريخية - دمشق - عدد 28 - 27.

(2) جورج كونتينو- الحياة اليومية في بلاد بابل وأشور- 1986 بغداد.

طرائف الوثائق هنا تعود إلى الألف الأول ق.م، فبعدُ يستأجر بيتاً من امرأة حرة مدة أربع سنوات ببدل إيجار سنوي مقداره اثنتا عشرة وجبة طعام كاملة في السنة مع شاقل من الفضة.

استخدام الحيوان:

استخدم الحمار الوحشي خلال الألف الثالث ق.م في أغراض عسكرية، والخيول التي تعرّف إليها المشرق جاءت من الشمال والشمال الشرقي، أُطلقَ عليها اسم «حمار الشمال الشرقي» أو «الحمار الجبلي»⁽¹⁾

ومنذ عام 1800 ق.م حلَّ الحصان ضعيفاً في وسائل النقل محلَّ الحمار البطيء، وذكرنا أنّ قطنا كانت مشهورة بتجارة الخيول البيضاء، ومن حديث الطرائف هنا أنّ حاكم مدينة «إيكالاتوم» «إشمي دجن» أرسلَ إلى «اشخي أدد» حاكم قطنا يطلب حصانين.

ملك قطنا أرسل إليه، والملك الآخر استلم وأرسل الثمن، فأنبَّ ملك قطنا صديقه ملك إيكالاتوم: «ليس هذا الكلام للبوخ، ولكن دعني أبخ به وأروح عن قلبي. أنت ملك عظيم، لقد طلبت مني حصانين فقد أرسلتهما إليك، وها أنت ترسل مقابلهما 20 مينا من القصدير! تُلحّ عليّ في الطلب دون مساومة؟ ألم تستلمهما دون تردد؟ ثم ترسل إليّ هذه الكمية الزهيدة من القصدير... طبعاً مرضَ قلبي، فثمنها عندنا هو 600 شاقل فضة، وأنت ترسل 20 مينا قصدير... أنت لست ملكاً عظيماً... لماذا فعلتَ ذلك؟!».

طرفة أخيرة: كان سعر الحصان في ماري أعلى من سعر المرأة ويعادلُ مثقالين من الفضة تقريباً 17 غ⁽²⁾. وبلغت أسعار الحيوانات تقريباً 30 شاقلاً للثور، كبش أو معزة شاقلين، والحمار 30 شاقلاً.

الملاحظة هنا أيضاً أنّ أسود المشرق كانت أصغر من أسود إفريقيا، لكنها تتمتع بالخطورة نفسها. والملوك الطامحون كانوا يستوردون الأسود من إفريقيا لا سيما في الألف الأول قبل الميلاد.

الظرافة هنا في الظن المشرقي أنه حين كان يُصطاد حيوانٌ ما فخطره وهو ميّتٌ أكثر مما هو حيٌّ؛ لهذا يعمد الصياد، وكذلك الملك الهاوي، بعد قتل الحيوان إلى سكب الماء

(1) ليس في اللغة السومرية اسمٌ للحصان، لعدم توفره آنذاك في النصف الأول من الألف الثالث ق.م.

(2) نعتقد أنّ هذا لا ينطبق على المرأة الحرة؛ بل على غير الحرة.

المقدس عليه تكفيراً عن الأذى الذي سببه له، فروح الحيوان المقتول الغاضبة قد تتعقب الصياد وتتقم منه؛ لعل هذا الأمر يدل على وحدة وجود ظنها المشرق بين الأرض والسماء كما بين كائنات الأرض أيضاً.

الجمل أُطْلِقَ عليه اسم «حمار البحر» أو «حمار الجنوب»⁽¹⁾.

بالذهاب إلى صراعات الألف الأول قبل الميلاد: شن الآشوريون حملات عسكرية على العرب في البادية الشامية، وأمكن لهم التعرف على الجمل مباشرةً فمكّنهم من الاستيلاء على أعداد كبيرة منها، يقال بعد ذلك: إن أسعارها هبطت في الأسواق على قاعدة العرض والطلب، وحين نوى ملوك آشور غزو مصر استعانوا بالعرب الذين تعهدوا بما لديهم من إبل لتجهيز الجيش بالموءن والماء، فالطريق طويلةً من آشور إلى مصر عبر فلسطين.

الطرائف تقول أيضاً: إذا سُرقت نعجة موسومة بنجمة وهي من ممتلكات المعبد فعلى السارق إعادتها إلى الإلهة «بلت»؛ فالنعجة للآلهة وليست لكهان المعبد!

تجاوزت بعض الحيوانات دورها الحيواني إلى ما يزيد على واقعها في ذهن المشرقي، ونحن نعلم أن الثور منه ما هو مجنحٌ وكذلك الأسد وهكذا، كذلك نجد في المقابر الملكية في أور كيف صُوِّرَ عددٌ من الحيوانات في مواقف بشرية، فهذا هو الحمار يُصوَّر بصفة موسيقار، وغزال صغير يمسك إبريق نبيذ وقدح. (كونتينو).

في المقابل هناك استباحة تحضر في المشرق لجهة البيئة الطبيعية والوسط الحيوي، ولعل ما عانته البيئة وكائناتها سبب دماراً من نوع آخر.

معظم ملوك المشرق وحكامه وملوك مصر أيضاً تباهاوا بصيد الحيوانات: الأسود، والثيران وغيرها، فأفرغ البيئة الحيوية من إمكاناتها المهمة للتوازن الطبيعي.

(1) جواد علي في مؤلفه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، يشير إلى ورود اسم الجمل في الكتابات الأكديّة باسم «جملو» و«كلمو». ومصدره «بلاد الشام». ومنذ 1300 ق.م بدأ الجمل يحتل دوره في الفضاء المشرقي الممتد حتى شمال شبه الجزيرة العربية. المعطيات تشير إلى حملة قام بها جمالون من شبه الجزيرة العربية إلى سوريا تعود إلى ما يقارب 1100 ق.م.

(أرنولد توينبي) يشير إلى أن احتلال الجمل للساحة الجغرافية بين شبه الجزيرة العربية والمشرق جعل بدو السهوب أشدّ خطراً على جيرانهم المتحضرين (تاريخ البشرية - ج1).

وفي وثيقة تعود إلى الألف الأول ق.م يتباهى «أشور نببعل» بعدد الحيوانات التي قتلها: «30 فيلاً، 257 حيواناً قتلت بالعربة، 370 أسداً قتلت برماح الصيد».

وعلى المنوال نفسه تشير المعطيات التاريخية إلى معاناة طبيعية لأشجار الصنوبر والأرز في الجناح الشامي، فشراهة الرافدين ومصر للأخشاب أدت إلى تجريد لبنان وجباله من احتياطي الخشب، حتى يقال: إنه في الألف الأول ق.م يمكن تعداد الأشجار بأحاد وأزواج فقط. (كونتينو- مرجع سابق).

وشربوا:

عالم المشروبات المشرقية غني بكؤوسه وفخارياته، وربما اختلف المنتج بحسب البيئة الطبيعية بين مدينة وأخرى، ولكن السائد خبرتنا عنه الوثائق.

مشروب النخيل:

يُشق أعلى جذع النخلة، ويُجمَع العصير المتساقط منها، فيُخَمَّر ويصبح مُسكرًا جداً بعد يومين أو ثلاثة. والسُّكَّر كان علاجه وصفة تتألف من أحد عشر دواءً طبيعياً، تُمزجُ بالزيت والخمر عند اقتراب الآلهة «غولا»؛ آلهة الصحة في المساء، أما في الصباح وقبل أن تشرق الشمس وأن يقوم أحد بتقبيل المريض، ندعه يتناول المزيج فيُشفى.

اختبروا السُّكَّر فقالوا: اضطراب الرأس ونسيان الكلمات والحديث هذراً، وشذوذ الأفكار، وتزجيج العينين. ملكة ماري مثلاً كانت ذواقة النبيذ الوارد إلى القصر الملكي.

نبيذ العنب يبدو أن ثمة أسبقيةً للجناح الشامي على الرافدي بمعرفته وصناعته، وثمة خمر من السمسَم أيضاً «كونتينو» يُعتَقَدُ أنَّ العنب وكرومه لم يكونوا قد تأقلموا تماماً في شمال الرافدين حتى الألف الأول قبل الميلاد، وشجرة الكرم نُقِلت من الجناح الشامي إلى الرافدي.

ملحمة جلجامش ذكرت وصولَ جلجامش إلى الساحل المشرقي الذي تنمو فيه الكروم، ومرَّ جلجامش بكروم من العنب الأسود.

في ماري حضر النبيذ في وثائقها، ويبدو أن البيئة لم تسعفها في زراعة الكروم؛ لهذا استوردته من كركميش ويمحاض.

ها هو ملك كركميش يرسل إلى حاكم ماري الآشوري يسمع أدد: «إني أرسل لك نبيذاً ممتازاً لتشربه... إذا لم يكن لديك نبيذ جيد لشرابك اكتب إليّ وسأرسل نبيذاً ممتازاً لشرابك». (1)

أنواع النبيذ في وثائق ماري: العادي، والأحمر بمواصفات جيدة، والمُعْتَق، والوردِيّ المُعْتَق، ونبيذ المزاعتمار. (2)

سعر النبيذ كما أشارت إليه وثائق المدينة أنه كان أعلى بعشرة أضعاف من سعر القمح وأقل مرتين من سعر الزيت. أيضاً ثمة تسعة أنواع من البيرة أهمها: البيرة المستخرجة من الشعير.

الزيوت حضرت أيضاً في مدن المشرق، والغاية طقسية واعتقادية كما في الطعام والإضاءة والتداوي.

في ماري الوثائق ذكرت قرابة أحد عشر نوعاً من الزيوت: زيت الزيتون، الزيت الممتاز، زيت الزعفران، زيت السرو، زيت تامريوم، زيت الأرز، وزيت اللبان. كما نجد في مدن عديدة زيت السمسم، زيت الكتان، والسرو، والعرعر والممزوج والمضغوط والمعشب.

يلفتنا نصٌّ مشرقى يشير إلى مبعث الطهارة في المسح بالزيت «آشور بنبيعل» حين تغلب على قبيلة قيذار العربية طَهَّرَ القبيلة من آثامها بسكب الزيت.

قال: «أقسمتم بالمنضدة المحملة وبشربكم من الكأس، وبإيقاد النار بالماء والزيت وبلمس أحدكم صدر الآخر. عساهم أن يُدخِلوا هذا القسَمَ في لحمكم ولحم أخوتكم وأبنائكم وبناتكم، تماماً مثلما يدخل هذا الزيت لحممكم». (3)

إنَّ هذا النص العائد إلى الألف الأول ق.م لا يختلف عما أرسل به ملك يمحاض إلى ملك ماري «زمري ليم» حين خاطبه: «لقد مسحك بزيت انتصاري». كما لا يختلف عن ذكر وثائق ماري ل: «11 ليتراً من زيت درجة أولى لمسح الرسل القادمين من إشمي دجن إلى يسمع أدد».

(1) Arm V 5,6,13.

(2) علم الدين أبو عاصي - اقتصاد مملكة ماري.

(3) Ibid, P155.

وفي الانتقال إلى منتج آخر، أمكن معاينة صناعة الصابون منذ نهاية الألف الثالث ق.م، وتطورت صعوداً مع الزمن. نوع من نبات الحلفاء، إن أُحرقَ رمادُه بالصودا والبوتاس، يُمزجُ هذا الرماد بالطين والزيت فيؤدي إلى إنتاج الصابون.

متفرقات مشرقية يومية:

الحلاق: اسمه في السومرية «اليد العليا» Gallabu، والأجمل هنا هو أن حلاقة الكهنة تتم بطريقة تنصُّ عليها القوانين وربما الأعراف الدينية.

حين كان الرجل يغادر بيته يربط الباب إلى صاريته بحبل يلصق عليه قطعة صغيرة من الطين يختمها بختمه. والأبواب المصنوعة من خشب النخيل تُعدُّ ضعيفةً لكنَّ أيَّ انفكاكٍ في الحبل أو تغيير في قطعة الطين يدلُّ على أنَّ زائراً ما جاء في أثناء غيابه.

ثم من يصنع الدروع والخوذ كان يتسلمُ مقداراً معيناً من المعدن والجلود والصوف لقاء عدد من الخوذ مثلاً، وإن أنجز عمله المطلوب وبقي لديه مواد أولية فهذه تُعدُّ أجراً له. وثقَّ هذا الأمر منذ الفاعلية الأكديّة. «كونتينو» في كتابه «الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور» يشيرُ إلى أنَّ النصَّ الذي يسجلُ هذه المعاملة يجعلُ بالإمكان احتسابَ وزن الخوذة الواحدة آنذاك، والحكمُ بأنه كان وزن الخوذة نفسها التي بقي الفرسان يرتدونها حتى وقت متأخر.

مراقبو العمل والعمال ورد اسمهم «الرجل ذو العصا»، ويبدو أنَّ في الألف الثالث عانت هذه المهنة الفسادَ، فدفع الملك أوركاجينا في إصلاحاته، وذلك بأن ألغى هذه الوظيفة، وشَمَلَ ذلك مراقبي السفن، ومراقبي قطعان الماشية في لاجاش. والطرافة هنا أنَّه كان هناك مراقبون لطيران الطيور.

في مجال العملة والنقد تأخر الأمرُ عن المشرق حتى اخترعت العملة في ليديا في آسيا الصغرى. واستخدمَ الشعير أداةً للمبادلة والتقييم والمقايضة، وتدرجياً احتلت الفضة مكانه، وتقدر بالوزن لا بالعملة.

في الألف الأول ق.م سنقرأ لسنحاريب أنَّه صكَّ النقود: «أمرتُ بصنع قلب من الطين وأن يُصَبَّ البرونز فيه لصنع قطعة من فئة نصف شاقل»⁽¹⁾، كان وزن الشاقل يعادل 25 سنتاً أميركياً حسب قول كونتينو.

(1) كونتينو- مرجع سابق.

سنجد من المهن أيضاً مهنة صانع الأغاني، إن كانت دنيوية أو مقدسة:
غنوا أغنيةً: «لقد برز إله النار، سيدُ المعارك. أواه يا سيدي.

إنَّ حَبَّكَ أشبه بشذا عودِ الأرز

تعال إلى حديقة الملك فهي ملأى بأشجارِ الأرز

لقد شهدت في الشوارع عاهرتين»⁽¹⁾.

والرقص رافقَ بعض الأغنيات، واللقي الفنية تُظهر استخدام الراقصين لعصي الرقص، وثمة مشهد يُظهر رجلين يضربان طبلاً كبيراً بالتزامن مع حركات ملاكمين، وثمة صنوج مرافقة، فالحماس الرياضي هنا ممزوجٌ بالموسيقا.

وللتنجيم حكايته:

التدين المفرط في الألف الثالث ق.م ثم الأكثر اعتدالاً في الألف الثاني والأول ق.م، سيجعلنا في عالم التنجيم والعرافين والكهنة، فالقرايين كانت عنصراً دفاعياً أولاً ضد ذلك الغامض، كما كانت شكراً واعترافاً بجميل الآلهة.

راقب المشرقون الأجرام السماوية، فالمشترى: مذكر وحاد وفاعل خير، ويبعث على فكرة العدل والدين، ومسؤول عن الناس طوال القامة وخصوصاً ذوي الشعر الأحمر المائل إلى الغامق والسمر. يتعادل مع مهن القضاة وأصحاب الأعمال العامة ورجال الدين، وله علاقة بأمراض الكبد وخفقان القلب.

الحمل: علاقته الأصلية بكبش السماء، مذكر مرتبط بالنار، ومسؤول عن الأشخاص الصريحين والمنبسطين والمستقلين، ذوي الشعر الأسمر والقامات المربعة. يتحكم في الرأس والوجه والأمراض التي تصيبها. لونه أحمر، ويومه الثلاثاء، حجارتة نوع من الياقوت الأزرق.

هناك تناقض صريح في أحوال المعارك وشنّ الحروب، فالملوك ليسوا هم من يعلنون الحرب؛ بل هي أوامر الإله، وعلى هذا فالملك يحظى بدور نائب الإله في الحرب وبطله

(1) المرجع سابق.

المختار؛ لكنَّ هذا لا يمنع في لحظة دنيوية أن نعلم أنه لا يمكن أن يتحرك الجيش إلا بعد قراءة الطالع ورؤيا الكهَّان وهكذا.⁽¹⁾

وثائق ماري هنا تضيء على وجود مستجيبين أو ملبين ينقلون رسائل الإله إلى الملك. فالإله أدد، وإله يمحاظ طلب من الملك زمري ليم ملك ماري ألا ينطلق في حملة عسكرية دون أن يطلب استخارة كاهن أدد.⁽²⁾

ومع بأس الملوك وجبروتهم، لا بدَّ من العثور على ما يؤكد أخطاءهم وانزلاقاتهم التي ينبغي الإشارة إليها. فكبير موظفي الملك سنحاريب في الألف الأول ق.م يتهم الملك بأنه عكسَ قوانين وراثه العرش حين جعل ابنه الأصغر آشور بنيبعل على عرش بلاد آشور، وابنه الأكبر على عرش بلاد بابل:

«لقد فعل الملك، ربي على الأرض، فعلةً لم يسبق أن فعلها أحد حتى في السماء، وقد جعلتنا شهوداً لها، إن ما فعله الملك تجاه ابنه ليس في صالح بلاد آشور... إن الملك، ربي نفذ خطة شريرة، لذلك صرتَ ضعيفاً في هذه البلاد».⁽³⁾

وأخيراً صخب اليوميات المشرقية يُختم بالحذر والتنبيه، حين يقف تائب أمام الكاهن الذي يحذره من أفعال خطأ:

- هل رافقت أحد المسحورين أو نمت في سريره أو جلست في مقعده أو أكلت من صحنه أو شربت من قدحه؟

- ماذا فعلت أثناء مشيك في الشارع؟

- هل تخطيت فوق الماء المقدس المسكوب؟

- هل دست ماءً قدراً؟

(1) وثائق ماري تتحدث عن «نبو» أو المتنبئ، الذي كان ينقل رؤياه للملك في معاركه، ثم رسالة من شبيتو زوجته تخبره بنتائج تنبؤ من الكاهن: «الإله وملائكته مصممون على حماية ماري، وأدد لا يستطيع المساس بها. (حضارة مدينة ماري).

(2) الجميل هنا أن الصلة بين الإله أدد الحلبي وبين زمري ليم كانت عبر ملك يمحاظ ياريم ليم الذي تلقى الوحي من الإله وأخبر ملك ماري بمقتضيات التصرف. (نشوء فكرة الألوهة- د. بشار خليف). رؤية الإله في الحلم كانت تعني رؤيته حقيقة في الحياة.

(3) كوتينو- مرجع سابق.

- هل نظرت مرتباً إلى الماء المستعمل لغسل الأيدي؟

- هل لمست امرأة بيدين غير نظيفتين⁽¹⁾.

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا كانت تماثيل الملوك توضع في المعابد؟

الإجابة هنا: إنَّ الملك على هذا الحال يقول: إنه بين يدي الإله يصلي وفي كل الأوقات والدليل اسم الملك على تمثاله وبعض صلوات وابتهالات وأدعية في حضرة الرب.⁽²⁾ واستثناءً لذلك لا بُدَّ أن يضع الملوك بناتهم في سلك الكهنوت، كما ذكرنا، ابنة شاروكين الأكدي في معبد أور، وابتتي نارام سين في معبد شمش في ماري.

ملوك البلاد الأجنبية يجتاحون مصر Hekau Khasut:

قدرُ مصر، التي لم تعانِ احتلالاً في تاريخها، أن تحتلَّ هجوم الهكسوس منذ 1720 - 1575 ق.م تقريباً. صحيحٌ أننا ذكرنا قبلاً انسياح الأموريين إليها، ولكن هذا الانسياح لم يأخذ شكلَ احتلال يُقَدِّمُ مصرَ سيادتها عليها. وأطلق مؤرخٌ مصريٌّ عاش في القرن الثالث ق.م اسم «الملوك الرعاة» على الهكسوس، يبدو أنَّ الأدقَّ هنا هو «حكام البلاد الأجنبية».⁽³⁾ هيك: قد تعني حاكم أو ملك عند الهكسوس بدليل أن أحد ملوكهم أطلق على نفسه هذا اللقب وهو الملك خيان.⁽⁴⁾

سوس بالكنعانية: تعني حصان، وبناءً على هذا ربما كانت التسمية ملوك الخيل. هنا تتوافق التسمية مع الخصائص الثقافية للهكسوس، فهم أوَّل من أدخل الحصان إلى مصر، هذا أولاً، ثم إنهم أول من أدخل العربات القتالية التي تجرُّها الأحصنة في المعارك ثانياً. في أصولهم يبدو أنَّهم يرجعون إلى آسيا الصغرى جالين الأحصنة والعربات وأسلحة مصنوعة من البرونز والحديد، هذا يشير إلى أنَّ أصولهم إما من أرمينيا أو من طوروس.

(1) المرجع سابق.

(2) في ماري مثلاً نعث على تماثيل: الملك «لمحي ماري» في معبد عشتار- الملك إيكو- شاما- كان» في معبد نيني زازا، كما تمثال المغنية أور- ناشه، الذي نقش على ظهره اسم الملك ابلول- ايل (حضارة مدينة ماري).

(3) «مانيتون» مؤرخ مصري كتب عن الهكسوس متأخراً، وهو الذي وضع تقسيماً للتاريخ المصري إلى ثلاثين أسرة، ما زال متبعاً حتى الآن.

(4) محمد العزب موسى- هزيمة الهكسوس- مطابع الدار- القاهرة.

«حقا خاسوت» أو «هكا خاسوت» كان لقباً مصرياً قديماً، أُطلقَ سابقاً على القبائل الآسيوية التي دخلت مصر قبل الهكسوس.

في عودة إلى زيارة زعيم «العامو» المدعو «إبشا» أو «اشاي» الذي زارَ مصر في عهد الأسرة الثانية عشرة لُقِّب «إبشا» بلقب «حقا خاسوت»؛ أي زعيم البلد الأجنبي.

هذا يوصلنا إلى استنتاج أنَّ الهكسوس ليسوا عنصراً؛ بل حالة اجتماعية انساحت تبعاً لظروف تاريخية نحو المشرق من الشمال، وربما اندمجت فيها ديمغرافيات أخرى غير محسوبة على مدن وممالك، وشكّلوا جميعهم ظاهرة مسلحة سنجد مآسيها.

ونعتقد أنَّ إضاءةً على واقع المشرق التاريخي ستوضح هذا الانسحاق والانساحات الأخرى التي عاناها المشرق بعد حمورابي وضعف الدولة البابلية، سيدة المشرق آنذاك.⁽¹⁾

تقدم الوثائق التاريخية عن انسياحات سلمية لمجموعات هندو أوروبية إلى بابل في منتصف القرن الثامن عشر ق.م، قادمةً من مناطق جبال زاغروس في الشمال الشرقي: الكاشيون.

طبيعة الهجرات لم تكن احتلالاً بقدر ما كانت تأميناً لفرص عمل لهؤلاء الكاشيين في جني المحاصيل والفاعليات المختلفة. وملوك بابل بعد حمورابي قاموا بصد هذه الانسياحات؛ ولكن يبدو أنَّ العنصر الكاشي تمكّن من الثبات في مجتمع بابل حتى بلغ بعضهم مناصب مهمة، وعلى الفرات الأوسط ربما توطّنت مجموعات كاشية في خانا، وأحد أمرائها حمل اسماً كاشياً.

استمر الحضور الكاشي في بابل إلى حين سقوطها بفعل الحثيين عام 1595 ق.م، وتتوارد المعطيات عن مساعدة الكاشيين لهم في سقوطها، وبعد انسحاب مورشيلي الأول

(1) نلاحظ هنا ظاهرة ملفتة في المشرق، نجد أصداء لها في التاريخ الإنساني أيضاً، عنيت «الكاريزما الشخصية للحكام».

فنحن منذ استعراضنا ملوك الممالك وحكامها نجد إضاءات شخصية لملوك بصموا في مجرى التاريخ، سلباً أو إيجابياً، أو كلاهما معاً: جلجامش - لوجال زاغيزي - شاروكين الأكدي - نارام سين - أور كاجينا - أورنمو - شمسي أدد - حمورابي بابل - زمري ليم - ياريم ليم وغيرهم. ونلاحظ باستمرار أن موت الملك يدفع تجاه ضعف المملكة وربما انهيارها.

الكاريزما الشخصية للحكام، إن وعث دورها بلا أمراض السلطة، وكانت سلطة للمجتمع وليس العكس، هي من تستطيع دفع التطور الإنساني قُدماً، على عكس الكاريزما المرّضية التي عاناها التاريخ الإنساني.

الحيثي منها تسلّم الكاشيون حكم بابل، «أجوم الثاني» الملك الكاشي لقب نفسه «ملك الكاشيين والأكديين وملك بابل».⁽¹⁾

حاول الكاشيون مهاجمة بابل مرتين وفشلوا، ويبدو أنّهم نجحوا في المرة الثالثة، ربما بعد الهجوم الحيثي.

وفي موازاة ذلك ومنذ أواخر مدة الفاعلية الأكديّة في القرن الثاني والعشرين ق.م، انساحت جماعات أخرى من شرقي هضبة الأناضول واستوطنت في شرق نهر دجلة هم الحوريون.

تشير المعطيات الأثرية والتاريخية إلى تأسيس هؤلاء إمارةً في منطقة الخابور الأعلى بين القامشلي وعامودا في شمال شرق سوريا، في تل موزان، وهي «أوركيش»، ذات المساحة 130 هكتاراً.

ملك هذه الإمارة «أتال شين» لقب نفسه «ملك أوركيش ونوار»، نوار (تل براك. والدراسات تعتقد أنّ أوركيش كانت مزدهرةً أواخر الألف الثالث ق.م، وكان عدد سكانها 10-20 ألف نسمة.

في مدة الفاعلية الأمورية في ماري تبعت أوركيش فاعلية ماري، وانتهت في منتصف الألف الثاني ق.م.⁽²⁾ يشار هنا إلى أنّ الملك «توبكيش» تزوّج من ابنة ملك أكد «نارام سين».

شيء آخر يخصّ الفاعلية الحورية هو أنّه بسقوط ماري انتشر الحوريون بين مناطق الفرات الأوسط ووادي البليخ حتى وادي العاصي. ووصلت نسبة الحوريين في الاخ ما بين 1670 و1620 ق.م، إلى ما يقارب 30% من السكان، وقد ساعد تدمير يمحاض وخانا في انتشارهم في الغرب.

الحيثيون مكوّن آخر بدأت طلائعه تظهر في مطلع الألف الثاني ق.م في المشرق، ويبدو أنّ أسلاف الحيثيين يعودون إلى السهوب الجنوبية في آسيا ولم يظهروا على هضبة الأناضول إلا ما بين أواسط الألف الثالث ق.م وأواخره.

(1) عيد مرعي - تاريخ بلاد الرافدين - مرجع سابق.

(2) المرجع السابق.

في مطلع الألف الثاني ق.م استولوا على إحدى المدن في أعالي الإقليم ودمروها ثم أعادوا بناءها وأطلقوا عليها اسم هاتوشا، حاتوشا، Hattusas، التي أصبحت عاصمة لهم. ظهروا في الأعوام الأخيرة لاحتلال الهكسوس مصر.

الحيوية الحثية المتصاعدة سببت دمارَ مدن الا لاخ وأورشو شمال كركميش، ثم يحاض وبابل. إذاً هكذا بدا المشرق بعد موت حمورابي وسقوط بابل ثم سقوط الممالك الكبرى.

«فرسان آريون» اختلطوا بالهوريين والكاشيين ورافقوهم في زحفهم وانتشارهم في المشرق، لا سيما في الجناح الشامي، حتى أصبحوا في بلاد كنعان أيضاً؛ سوريا الجنوبية وفلسطين.⁽¹⁾

يشير «نيكولا جريمال» في كتابه «تاريخ مصر القديمة» إلى أنَّ الهكسوس بعد أن طردوا من مواطنهم الأصلية هاجروا نحو بلاد الشام، ويبدو أنَّهم امتزجوا مع بعض الجماعات البدوية والعسكرية الجواله، وشكّلوا تحالفاً واتجهوا إلى جهة الحدود المصرية وتسربوا ببطء ثم كانت هجمتهم التي أدت إلى ضعف الدولة المصرية. والجدير ذكره: أنهم عبروا نحو مصر من فلسطين.

سنكون هنا أمامَ منعطف حاد في المشرق منذ الآن واتجاهاً إلى منتصف الألف الثاني ق.م حتى نهايته.

من هذه الوقائع التاريخية والفراغ المشرقي من ممالك قوية ومهمة، تولد مزيج الهكسوس من عدة أرومات معظمها آرية وربما كان فيها بعض الأموريين البدو الذين لم يتمدّنوا ويتحضروا.

وَفَقَّ هذا المُعطى لا نكونَ أمامَ انسياحٍ شرقي أو سوري نحو مصر؛ بل كانت سوريا هنا معبراً لهذه الجماعة نحو مصر، فلا نواة مدنية أو مملكة تدعمهم في المشرق، صحيحٌ أنَّ عاصمتهم في الدلتا المصرية كانت أقرب ما تكون إلى الشرق والمشرق، لكنهم حين اندحروا من مصر فرّوا نحو «شاروهين» في جنوب فلسطين، جنوبي غزة.⁽²⁾

(1) عيد مرعي - مرجع سابق.

(2) بحسب الوثائق المصرية هرب الهكسوس إلى «رتينو» فلسطين وسوريا، بحسب التسمية المصرية.

انظر: إريك اتش كلاين- انهيار الحضارة 1177 ق.م 2020 مؤسسة هندواي- المملكة المتحدة.

الواضح هنا أنّ تواجد هؤلاء الفرسان في سوريا مدةً وجيزة جعلهم يهضمون نسبةً من الثقافة الشامية والكنعانية، ثم في حضورهم في مصر وبعد مدة أصبحوا يستلهمون الثقافة المصرية أيضاً.

«ريدفورد» يشيرُ إلى أنّ التنقيبات الأثرية في المواقع التي تعود إلى الهكسوس في مصر في تل الضبعة وتل المسخوطة، كشفت عن ثقافة مُقحمةً على ثقافة المصريين، لا يختلف خزفها وسائر عاداتها في أي وجهٍ من الوجوه عن الثقافة المعاصرة، سواء لفلسطين أو فينيقيا عند مستوى الحقبة MdIib.

وفي مجال الأسماء الشخصية للهكسوس بدا من الأختام ونصوص التدشين أنها تنتمي إلى إحدى اللهجات «السامية» الغربية، فكلُّ هذه الأسماء، عدا اثنين، تكشفُ عن اشتقاقٍ من لهجةٍ «سامية» غربية.⁽¹⁾

شيء آخر يضاف إلى معالم الهكسوس اللغوية: ثمة إلهان يردان في اسميهما، لا سيما «عات» المعروفة جيداً في وثائق أجاريت، وظهرت في عدد من جعارين الهكسوس حاملة لقب «سيدة الشجرتين»، وظهرت شبيهة للإلهة «حتحور» المصرية. الإله هنا أيضاً يشار إليه بلقب «هر»، أي رب الجبل في استرجاعٍ لذكرى بعل.

حسناً، فرسان لا يجمعهم سوى حاجة وسلاح انساحوا من شمال الجناح الشامي وربما الرافدي وسط ضعفٍ مشرقي، وبقوا مدةً واستلهموا بعض ثقافة المشرق ثم انساحوا من فلسطين إلى مصر، فارتحالات بسيطة أولاً، ثم هجوم عسكري مباغت استغلَّ تهافت الإدارة المصرية وضعفها وصراعاتها فيما بينها.

نُخمن أن أسباب انسياح هؤلاء الفرسان من مواطنهم الأصلية تعود إلى المناخ والجوع الاجتماعي المعيشي، ولا يبدو أنّ بلاد الشام قدمت لهم ما يجعلهم في ذوبان في ثقافة المشرق، ما دفعهم إلى البلد المتماusk تاريخياً هناك في الشمال الأفريقي على خطا الأموريين سابقاً.

العذراء السمراء «تثن تحت وطأة الوباء»:

منذ النصف الثاني من الألف الثالث ق.م كانت مصر تخشى حدودها الشرقية؛ لهذا استبق ملوكها القدماء «سكان الرمال» وباغتوهم في مراكزهم.

(1) ريدفورد- مرجع سابق.

تذكر المعطيات قيام الملوك «زوس» و«سنفرو» و«خوفو» بحملات ضد البدو والغازين في منطقة شمال شبه الجزيرة العربية وجنوب فلسطين. والوثائق ذكرت: «مدينة العدو نيديا» ومدينة العدو «عين كا».

ومنذ الانسياحات الأمورية «العامو» بنى الملوك تحصينات على حدود الصحراء، وقالوا: «حائط الحاكم الذي أقيم لصد الآسيويين وسحق المسافرين في الرمال». حتى إن الملك «خيتي» الرابع حذر ابنه «مريكا رع» من أن «الآسيوي لا يستقر في مكان واحد... إن ساقيه قد صُنعتا كي تتجولا به بعيداً... إنه يحارب منذ أيام حورس، منذ الأزل»⁽¹⁾.

وبما أننا أصبحنا في الأزل فإنَّ الوثائق المصرية تضيء على معالم الانكماش المصري الذي تتصفُّ به الحضارة المصرية المكتفية بنفسها، وهذا ما خلق لديهم «عقدة الهكسوس»، كأول من هتَكَ الستر المصري في الكنز المدفون.⁽²⁾

في أفكار النشوء والتكوين لدى المصريين تستوقفنا وصايا لقطب من جدلٍ فكري هو «ماعت» رمز العدل والحق مقابل «إزفت» رمز الفوضى والسوء وهكذا.

قال ماعت مخاطباً مصر:

«إنَّ الأبواب الموجودة عليك تستوي ثابتة

إنها لا تفتح لسكان الغرب

إنها لا تفتح لسكان الشرق

إنها لا تفتح لسكان الشمال

إنها لا تفتح لسكان الجنوب

إنها لا تفتح للقاطنين وسط الأرض»⁽³⁾.

إذاً نحن في قمة التضاد بين عالمين: ثقافة أولية تشربت بعضاً من الثقافة الشامية والمشرقية، ودولة متماسكة تخشى الغريب فأغلقت أبوابها على أهرامات الجيزة التي تعود

(1) محمد الغزب موسى - مرجع سابق.

(2) نجد في المؤلفات المعاصرة لبعض الكتاب المصريين تضخم العقدة هذه، حتى يتبدى أن كل اضطراب سياسي أو اجتماعي قمين بتفجير محتويات العقدة الهكسوسية. كمثال: كتاب نكبة الهكسوس لافتكار النبداوي.

(3) جيمس بريستيد - تطور الفكر والدين في مصر القديمة.

إلى ألف عام خلت. والحقيقة أنَّ قبل اجتياح الآسيويين لم تكن مصر على ما يرام، وهذا ما أفسح المجال لاحتلالها. فالاضطرابات السياسية والاجتماعية أدت إلى اعتلاء عرش مصر لحكام ليسوا مصريين مثل الملك «نحسي» (زنجي)، وهذا تزامن اعتلاؤه العرش المصري مع استقرار الهكسوس في مشرق الدلتا.

حتى إنَّ الوثائق تشيرُ إلى ملك آخر اسمه «خنجر» من أصل بابلي، والإشارات التاريخية تقدم بعضَ حكام لم يحكموا سوى ثلاثة أيام فقط. فالبؤس هنا هو أنه خلال مئة وخمسين عاماً اعتلى عرش المصريين مئة وثمانون ملكاً.⁽¹⁾

لم نجد للاضطرابات المصرية الوجودية سبباً منذ انسياح الأموريين فالهكسوس، سوى المناخ. فالمعطيات المناخية تشير إلى أنه تقريباً في 2184 ق.م زمن الانسياح الأموري إلى مصر، والمشرق من قبل، حدثت فيضانات منخفضة في النيل على نحو كارثي طوال مئة وخمسين عاماً جلبت المجاعة إلى مصر، وانهارت الحكومة المركزية، وتتابع الملوك واحداً تلو الآخر في مدينة «ممفيس». يقول «فاغان»: كأنهم يُلْفُ بهم بابٌ دوار.

تفككت الدولة إلى ولايات مكونة لها، وبعد قرن وَحَدَّ الملك أمنحوتب الأول مصر في عام 2046 ق.م، فأعاد التوازن إلى المجتمع المصري، وبعد قرنين تقريباً انهارت المملكة الوسطى في مصر وبدأت الانسياحات الأمورية والهكسوسية بالتتالي.

نلاحظ هنا في فترة الانهيار ظهورُ أسماء وألهة مشرقية في الكتابات المصرية: شمش، وأدد، وإيل. والملاحظ أنَّ مصر في ضعفها لجأت إلى السحر والتعاويذ لدرء المخاطر وقمع أعدائها، فقد ذكرنا نصوص اللعن الفخارية، وسنذكر الآن تلك التماثيل الصغيرة من الطين التي تمثلُ شيوخَ المدن المعادية مصر، منها «شاروهين» وغزة التي كانت مركزاً هكسوسياً بامتياز. سوف يعمد المصريون للانتقام عبر تحطيم التماثيل وإلقاءها في النار، ولكن، لم يمت الأعداء وكذلك المدن.

مجريات الأحداث:

«إيبورور» الحكيم المصري المعاصر هجومَ الهكسوس قال: بعد أن كَثُرَ المستوطنون «تخربت الأقاليم... توافدت قبائل قواسة غريبة إلى مصر، منذ وصلوا لم يستقر المصريون

(1) محمد العزب موسى - مرجع سابق.

في أي مكان... أصبح الأجنب مصريين في كل مكان وأولئك الذين كانوا مصريين أصبحوا أغراباً وأهملوا جانباً.⁽¹⁾

«الهكسوس = وباء، طاعون، همج» هذا ما صرحت به الوثائق المصرية.

«ريدفورد» يذكر أن بعض الكتابات المصرية ذكرت الآسيويين الذين دمروا البلاد تدفقوا من بلاد الآسيويين، زعيمهم شيخ سوري، لقد اجتاحوا مصر.⁽²⁾

الجموع الهكسوسية امتلكت تكنولوجيا عسكرية مهمة؛ كنوعية الأسلحة والعربات، وأقواس مركبة تطلق سهاماً تصل إلى مسافات أبعد من الأقواس التقليدية؛ لهذا كانت لها الغلبة.

يعتقد أنطون مورتكات أن حكام الهكسوس ربما ينحدرون من أصل حوري. (تاريخ الشرق الأدنى القديم). وفي المقابل يتبنى د. حمدان طه اعتقاداً بأن الحكام الأوائل للهكسوس كانوا يحملون أسماء أمورية.⁽³⁾

في تل الضبعة أنشأوا مدينتهم المحصنة شرق الدلتا لتكون قريبة من بلاد الشام. المدينة عرفت باسم «حت وعرة»، واليونانيون أسموها فيما بعد «أفارس أو أواريس».

حكم الهكسوس الذي امتد منذ 1720 - 1575 ق.م⁽⁴⁾ لم يكن ملحقاً بأي بلد خارجي؛ بل حكموا مصر من الداخل فقط، وشكلوا أسرتين حاكمتين في تاريخ مصر: هما الأسرة الخامسة عشرة والأسرة السادسة عشرة - الأسرة السابعة عشرة في مدينة طيبة، وأسرة مصرية لكن أول زمنها حكمها ملوك برضا الهكسوس وتحت ولائهم، ولكن في نهايات هذه الأسرة بدأت معالم التمرد تتبلور في عهد الملوك؛ سقن رع - كامس - أحمس، في حين كان نفوذ المصريين قد تراجع نحو الوجه القبلي من بعد المنيا وانحصروا بين المنيا وأسوان.

(1) عبد العزيز صالح- الشرق الأدنى القديم- 1973 - القاهرة- مكتبة أنجلو.

(2) ربما نستطيع مقارنة الحالة الهكسوسية بالحال الداعشية في وقتنا الحاضر، فالجامع بين الجماعة هناك ربما العوز والجوع، وهنا الادعاء الديني المشوه؛ لهذا لا مكان لتحديد جنسية لتجمعات لحظية أو زمنية كهذه تفعل فعلتها وتموت. يشير محمد العزب الموسى إلى أن مجيء الهكسوس إلى مصر، صاحبه هجرة متعددة الأجناس. فيما يخص مقولة ريدفورد: يمكن الرجوع إلى كتابة المذكور في قائمة المراجع.

(3) العلاقات بين مصر وكنعان في العصر البرونزي- وقائع المؤتمر الوحيدة الحضارية للوطن العربي- 2000م.

(4) حسب بردية «تورين» وهي قائمة تسجل أسماء ملوك مصر، تذكر بقاء الهكسوس في مصر قرابة مئة وثمانية أعوام.

امتدَّ الهكسوس إلى شمال شرق مصر تدريجاً، فشمّل مواقع: فرعشة وتل الصحابة، وبوباستس وإنشاص وتل اليهودية، وسيطروا على مناجم سيناء والمناجم الحجرية حتى المنيا، كما تحكّموا في طرق التجارة مع بلاد الشام. ومن أسماء ملوكهم: أبو فيس، وكان عهده الأقوى في فاعلية الهكسوس، وخيان، وساليتس، ويعقوب، وشيشي، وإيبي.⁽¹⁾

حكم أبو فيس تقريباً منذ 1615 - 1575 ق.م، وجاء على لسانه بما وصف به كاموس المصري: «أنا السيد دون نظير من الأشمونيين، (مدينة جنوبية مصرية في الوجه القبلي)، حتى (بي-حتحور)، وكذلك أباريس» وعلى ضفاف النهرين الدلتا بفرعيه الأوسط والغربي للنيل. يبدو أنه يحدد انتشار سيطرته على مصر.

خلال مراحل احتلالهم لمصر استطاع الهكسوس التحكّم بمدينة طيبة، وهذا توثق في إقامة نصب تذكاري هائل في «جبلين» إلى الجنوب من مدينة طيبة.

ادعى أبو فيس القراءة والكتابة باللغة الهيروغليفية، وادعى التبحر في أسرارها وولعه بالآداب المصرية، وقد أطلق على نفسه اسم «كاتب الإله رع»، (ريدفورد).

الجدير ذكره أنّ الحضورَ الهكسوسي في مراحلهِ الأولى كان قاسياً وبقوة السلاح وقسوته، فسبّب تدميرَ المعابد والتماثيل والمنشآت المصرية، وكحال بلاد الشام حين أمّها المهاجرون ذوو الثقافة الأولية فاستلهموا منها بعضاً من تأثيرات بحكم التفاعل. وهنا في مصر أخذ الهكسوس في المرحلة اللاحقة يتأثرون بالثقافة المصرية، واللقى الفنية المصرية (الجعارين) حملت اسم الهكسوس لمجرد أنهم كانوا في مصر، ويبدو أنّها من صنعهم ونقوشهم بحيث جمعت بين موتيفات آسيوية وأخرى مصرية.

تنقيبات موقع تل الضبعة (أفارس) أظهرت ست طبقات الواحدة منها متميزة من الأخرى، وثمة مؤشرات ثقافية كنعانية طابعها محليٌّ وشعائريٌّ لا يدين بشيء للثقافة المصرية.

«ريدفورد» يشير إلى أنّ هذا الطابع خاضعٌ للتأثير الشمالي القادم من المشرق، ويتابع: «ثمة مستوطنة كبيرة أقامها الغزاة على وجه التقريب كمقر حكامها ومستقر لجشّهم، المقابر

(1) حَمَلُ بعض الأسماء الهكسوسية لأسماء من المشرق والشام قد يشير إلى تواجد أموريين قد يكونوا من بقايا البنياميين الجوالين في المشرق الذين انضوا تحت جناح الموجة الغازية.

حول المعابد، الموتى دفنوا مع أسلحتهم، الأضاحي أغنام، وثمة زوجان من الحمير مدفونان أمام باب المقبرة»⁽¹⁾.

العبادات الدينية للهكسوس طوال مدة احتلالهم كانت تلك التي رافقتهم من آسيا، لكن النفاق السياسي هنا هو أن ألقاب بعض الملوك كانوا يضمنونها اسم الإله المصري «رع»⁽²⁾.

النهاية: «ثم أسلمت أفاريس للنهب والسلب»

الزمن: السنوات العشر الأخيرة من القرن السابع عشر ق.م، أفاريس مرتاحة في استقرارها الهكسوسي، وضامنة لطيبة المصرية تابعة لها. سلالة في طيبة يؤسسها «تاعو» برضى «أبو فيس» الهكسوسي، ومع هذا فالحذر والريبة حاضران.

في العصر الحديث عُثر على مومياء «تاعو» المصري، مومياء مثخنة بالجراح من السهام والخناجر والحراب والبلطات، حتى تحنيط الجثة كان أقل من عادي. جرى البحث في طبيعة الأسلحة التي قتلت تاعو دون رحمة، وتبين أنها كانت معروفة ومستعملة بين الآسيويين في ذلك الوقت.

ويبدو أن ثمة عصياناً وتمرداً مصرياً بدأ في طيبة ضد احتلال الهكسوس دفع ثمنه أولاً «تاعو»، وثانياً حاول خليفته «كاموس» أن يزحف بجيشه ويصل إلى مشارف مدينة أفاريس لكنه قُتل أيضاً⁽³⁾، فخلفه أخوه «أحمس». وكاموس في طريقه من طيبة إلى أفاريس عاقب تابعاً لـ «أبو فيس» في «نفروسي» في المنيا، كان هذا واسمه «تيتي بن بيبي» يتبع الأمر الهكسوسي.

قراءة 1550 ق.م يكتب كاموس: «أبحرت شمالاً بجبروتي لطرده الآسيويين، وجيشي المغوار أمامي مثل شعلة نار، ورماة الأسهم في أعلى صواري القتال ليدمروا مواقعهم، أمضيت الليل في سفيتي منشرح الصدر»⁽⁴⁾. وعندما انبلج الفجر هجمت عليه كالصقر، وعندما جاء وقت الإفطار كنت قد أطحت به (أبو فيس) بعد أن دمرت أسواره وذبحت قومه

(1) ريدفورد- مرجع سابق.

(2) مع ذلك بقي الملوك الهكسوس في نظر المصريين حكاماً أجنب، وحسب الوثائق «أمراء ريتينو».

(3) ريدفورد يشير إلى أن كاموس دخل عاصمة الهكسوس فعلاً ودمرها ثم عاد إلى طيبة.

(4) تفوق المصريون في حروبهم على الهكسوس باستخدام السفن والملاحة النهرية التي لم يعتمدوا الهكسوس كثيراً.

وجعلت زوجته تنزل إلى ضفة النهر، وتصرف جيشي كالأسود حين تنقض على الفريسة، فأخذوا العبيد والماشية والدهن والعسل، وقسموا غنائمهم»⁽¹⁾.

يبدو أنّ كاموس قُتِلَ في معاركه مع الهكسوس، والكتبة ذكروا وقوع ثلاث معارك مع الهكسوس إلى الجنوب من أفارس.

أخذ أحمس العرش في طيبة وبدأ يعد النهاية للحضور الآسيوي في الشمال، فتحالف مع كريت في حربه ضد الهكسوس، في حين كانت ثمة محاولات من الهكسوس لإشغال المصريين في الجنوب بالنوبيين؛ لكنهم لم ينجحوا في ذلك. زحف من طيبة ووصل إلى «أون» هيليو بوليس، تجاوز أفارس ليستولي على قلعة حدودية على مشارف سيناء، وبدا قطع أي خطّ امتداد يأتي من آسيا، ثم حاصر أفارس ودخلها فدمّرها وحرّقها. قال سجل الكتبة: «ثم أسلمت أفارس للنهب والسلب».

ومن نجا من الآسيويين هرب من سيناء، وتمركز جميعهم في شاروهين جنوبي غزة على ساحل المتوسط الفلسطيني. لاحق أحمس فلول الآسيويين حتى شاروهين ودمرها.⁽²⁾

«أما أفارس فدمرتها وبددت سكانها ودمرت بلداتهم وأحرقت بيوتهم حتى صارت كومة أنقاض محمرة للأبد، بسبب الدمار الذي كانوا قد ألحقوه بوسط مصر، أولئك الذين كانوا قد سمحوا لأنفسهم بالإصغاء إلى دعوة الآسيويين الذين تخلوا عن مصر سيدتهم». ليُعاد بعد ذلك تعمير أفارس ويطلق عليها اسم «بيرو نفر».⁽³⁾

ماتت أفارس؛ لكنّ هذا الاحتلال وسَّعَ الرؤية للوقائع الجغرافية والتاريخية والأمنية، فقد كانت مصر تكثفي بتأثيراتها واحتوائها ما يحقق تأمين طرق تجارتها وحدودها خصوصاً مع بلاد كنعان، ولكن الذي يُوَضِّحُ الآن أنّ هذا لم يعد يكفي بعد درسين قاسيين من الأموريين ثم الهكسوس خاصةً، وهذا ما سوف يدفع أحمس أن يوسع ملاحقته الآسيويين ليس في كنعان فحسب؛ بل وصل حتى شمال سوريا، قالت الوثيقة المصرية: أحمس وصل إلى

(1) إريك اتش كلاين- 1177 انهيار الحضارة- 2010.

(2) حاصر أحمس مدينة شاروهين في «با- كا- نا- نا» كنعان، مدة ثلاث سنوات. (هزيمة الهكسوس).

(3) في حكم الملكة حشبسوت في الأسرة الثامنة عشرة قالت: «لقد أصلحت ما تخرب وأقمت ما كان قد أصبح حطاماً عندما كان الآسيويون يقيمون في أفارس، وكان يقيم بينهم الأفاقون الذين يحطمون ما كان قائماً (هزيمة الهكسوس).

مكان يدعى «زاهي» هناك⁽¹⁾؛ لتبدأ حقبة جديدة في المشرق المتهالك بين حوريين ميثانيين وحثيين ومصريين وممالك تابعة للأقوى.

المشرق المحتل بين كلابتين:

هكذا أحوال المشرق الذي دفع ثمن صراعات مدنه الضرائر، يتصور المتأمل لو أنَّ حمورابي مثلاً لم يقضِ على ماري، أو أن نارام سين لم يدمر إبلا، ولم تكن الصراعات الحذرة قائمة بين يمحاظ وآشور، لكنَّ قدر المشرق التاريخي والسياسي هو في امتلاكه أدوات تفككه وضعفه، وستبدو جليةً في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، حيث ستدفع المدن ثمن صراعها لتتدلل للقوى الأكبر وتُمثلُ تابعاً مُخلصاً لها.

تحضر هنا فكرة «جيمس بريستد» القائلة بما معناه: إنَّ لم تكن بلاد الشام خاضعةً لنير الأجنبي، تُصبح مقسمةً دويلات، وهذه الدويلات إما متصارعة وإما متحالفة وقت الخطر. (العصور القديمة).

الشعوب الجبلية الفتية استباحت المشرق، كما ذكرنا، وأصبحت تقود سياسة المشرق، كلُّ شعبٍ استقر في مكان منفصلاً عن الآخر، وتفككت عرى المشرق.

بالمختصر التاريخي:

حوريون غرب نهر دجلة سرعان ما انتشروا في الجناح الشامي، وأصبح الميثانيون بمثابة الدولة الحورية الرئيسة منذ 1530 ق.م. وبينت المعطيات أنَّ الانتشار الحوري وصل حتى فلسطين، ففي عام 1450 ق.م كان الحوريون والهندو- آريين يشكلون نسبةً تصل إلى 37% من مجموع سكان فلسطين، كذلك نجد حضوراً لافتاً لهم في أجاريت.

الجددير بالذكر أنَّ أمنحوتب الثاني ملك مصر أطلق على فلسطين اسم «بلاد خارو». ويبدو من وثائق تل العمارنة أنَّه في نهاية القرن الخامس عشر ق.م كان هناك عددٌ كبير إلى

(1) محمد العزب موسى - مرجع سابق.

تشير المعطيات أيضاً إلى أن أحمس في مدة حكمه اثنين وعشرين عاماً قاد حملة حتى الفرات في سابقة تاريخية لمصر في الوصول إلى نهر الفرات. جيريمال- تاريخ مصرية القديمة.

حدّ مذهل من العائلات الملكية في مدن فلسطين وأواسط سوريا، تكشف عن أسماء هندو-أوربية، مع أنّ الحقيقة تقول: إن حامليها كانوا يتحدثون الكنعانية.⁽¹⁾

كاشيون في منطقة بابل، وفرسان آريون يختلطون مع من سبق لينتشروا في غرب سوريا وفلسطين، وحثيون سيقضون على يمحاض وبابل.

في عام 1460 ق.م المشهد: ممالك مدن في المشرق⁽²⁾ وسيطرٌ مصري وعى أنّ أهمية أمنه وسلامة طرق تجارته يكمنُ في المشرق.

أحوال المشرق الثقافية والاجتماعية: سكانُ الريف المستقرون منذ القدم، ووجود رعويين وأشباه الرعويين، وفي المدن كانت الحِرْفُ والصناعاتُ والنشاطُ التجاري.

اللغة المنطوقة كنعانية والمراسلات الدولية بالأكديّة، وفي بابل وأشور تحلُّ الأكديّة بلهجتها البابلية والآشورية، وفي العمق الشامي تحضر الأمورية. لم يكن هناك فصل بين المجتمعات على أساس لغوي.⁽³⁾

ما بين 1500 و1200 ق.م سادت ظاهرة اقتطاع أراضي من قبل الملوك المحتلين ومنحها لمرتزقتهم ليستغلوها بأنفسهم؛ فأدى ذلك إلى فقدان المشرقيين أراضيهم وممتلكاتهم، ما جعل منهم أجزاء وتابعين لا مالكين أصليين.

الملاحظة هنا أنّ كلّ الشعوبِ المحتلة للمشرق آنذاك لم تشكل مجموعاتٍ بشريةً متكاملةً، بل كانت وحداتٍ نشأت تدريجياً من اتحاد فئاتٍ بشرية متباينة، ولكن استمرت إلى جانب هؤلاء من وراء الستار، الطاقات الشعبية والسياسية لسكان البلاد الأصليين.

الجنوب الرافدي آنذاك كان تحت حكم ملوك محليين، أطلقوا على أنفسهم ألقاب سومرية قديمة طنّانة ورنانة، يقول أنطون مورتكات: «في الواقع لا يمكن اعتبارها سوى مهزلة تاريخية».⁽⁴⁾

(1) دونالد ريدفورد- مرجع سابق.

(2) مملكة حوري- ميتاني - مملكة بابل الكاشية- المملكة الحثية.

(3) حرب فرزات- عيد مرعي- دول وحضارات في الشرق القديم- دار طلاس- 1990.

(4) أنطون مورتكات- الشرق الأدنى القديم.

مصر التي جُرحت ثم وعت مضت في تأكيد وجودها في الجناح الشامي من المشرق، وهذا ما دفع إلى اصطدامها بالحموريين الميتانيين والحثيين.

علاقات مضطربة شملت الجميع في بلاد الشام من تحالفات وخلافات، ومدّ وجزر لتحقيق المصالح لكل مملكة؛ بل شهدت الأحوال آنذاك مصاهرات بين حكام الممالك.

ستخبرنا الوثائق بزواج أمنحوتب الرابع (أخناتون) من إحدى بنات الملك الميتاني «توشراتا»، والغاية المصرية ضمان مصالحتها عبر المصاهرة؛ لكن الغاية الميتانية كانت الحصول على الذهب.

«من «توشراتا» إلى ملك مصر «أمنحوتب الثالث: إلى «نيموريا» أمنحوتب الثالث ملك مصر، أخي، صهري الذي أحبه والذي يحبني أقول: هكذا يتكلم توشراتا ملك بلاد ميتاني، عمك الذي يحبك، أخوك.. أرجو أن تجعلني أخي غنياً في عيون سكان دولتي، أرجو ألا يُحزَن أخي قلبي.

لقد تمنيتُ من أخي تمثلاً من الذهب لابنتي، أنا أعرف بأن أخي يحبني كثيراً، وأعرف أيضاً بأن الذهب موجودٌ بكثرة في بلاد أخي، كما أريد من أخي تمثلاً من العاج»⁽¹⁾.

يُعتَقَدُ أنَّ الرسالة أُرسِلت مع العروس الأميرة «تاتو خيبا» / نفرت- تي / نفرتيتي. وتُذكر أيضاً مصاهرات بين السلالة الحاكمة الميتانية ومصر، في عهد أمينوفيس الثالث.

الملك الميتاني «شوتارنا» يبعث بصورة الربة عشتار إلهة نينوى إلى ملك مصر ليتبارك بها وتجلب إليه الصحة والعافية.

وفي موازاة ذلك إنَّ ملوك الكاشيين المستقرين في منطقة بابل كانوا في علاقات جيدة بمصر، حتى إنَّ رسائل ملوكهم لملوك مصر تحملُ صفةً المخاطبة للملك المصري بـ «أخ» «مورتكات» يتهم الملوك الكاشيين بأنهم كانوا يرسلون بناتهم إلى دار حرم ملك مصر مقابل الحصول على الذهب أيضاً، وتمضي سنين عديدة لهن في مصر دون معرفة أي خبر عنهن.⁽²⁾

(1) حرب فرزات- عيد مرعي- مرجع سابق- الحقيقة أنه منذ عهد أمنحوتب الثالث وقَّعت مصر مع منطقة إيجيه في البحر المتوسط على معاهدة بدت أنها معادية للحثيين، حيث كانت الفاعلية الحثية تتصاعد مسببة قلقاً مصرياً متزايداً. (انهيار الحضارة 1117 ق.م).

(2) مورتكات- مرجع سابق.

في كل هذا الاضطراب السياسي كانت مصر تحاول إيجاد موطئ قدم لها في الجناح الشامي للمشرق، وها هو «تُحتمس الأول» يقوم بحملة عسكرية استعراضية لا حرب فيها، ويصل إلى الفرات عند مدينة كركميش، حيث أقام حداً للنفوذ المصري، فقال تحتمس: «إنها تمتد من قرن الأرض في الجنوب إلى أطراف المياه المعكوسة في الشمال»، والطريف هنا أن الفرات الذي يسير من الشمال إلى الجنوب رآه المصريون معكوساً عكس نيلهم، فقالوا إن مياه الفرات تجعل المبحر يُقبل (تجعل الطالع نازلاً).⁽¹⁾

فرغ تحتمس من استعراضه ليعود إلى منطقة «نيا» في منطقة وادي الغاب، حيث سيصطاد الفيلة، ولن يترك أية حامية عسكرية له في بلاد الشام.

ما بين 1468 و1436 ق.م قاد تحتمس الثالث حملات عسكرية في المشرق بمعدل كل عام تقريباً. المعطيات تشير إلى أن عدد الحملات بلغ ست عشرة حملة، ووسط هذا كان في موقع تل النبي مند مدينة قادش تقع جنوب غرب حمص 25 كم، تراقب الاستعراض المصري، وأمير قادش ينشئ تحالفاً دعمته مملكة حوري/ ميتاني.⁽²⁾

في شمال السودان عُثِرَ على نقش برقل الذي قال: إن تحالفاً من ثلاثمائة وثلاثين أميراً بقيادة أمير قادش تجمع في مدينة مجدو/ تل المتسلم، بعد وفاة ملكة مصر «حشبسوت» في استغلال لفراغ السدة الملكية في مصر.

معركة الاحرب/ مجدو:

الزمن: 1468 ق.م، خليفة حشبسوت تحتمس الثالث. مضى على رأس جيش قوامه خمسة عشرة ألف جندي أغلبهم من المشاة، لمواجهة قوات التحالف السوري. وبعد تسعة أيام وصل الجيش المصري إلى غزة، وبعد اثنا عشر يوماً وصل إلى مشارف جبل الكرمل دون أدنى حرب أو مواجهة. وجيش التحالف يتنظر المصريين دون دراسة للواقع الجغرافي المحيط، فباغت الجيش المصري الجيش السوري من طريق غير متوقعة قرب مدينة

(1) عيد مرعي- تاريخ سوريا القديم.

(2) حدود هذه المملكة امتدت من منطقة الجزيرة السورية في الشرق إلى ساحل البحر المتوسط شاملة القسم الشمالي من سوريا. (المرجع السابق)، في عهد ملكها «ساوشتار» احتل آشور وتوسعت المملكة شرقاً حتى جبال زاغروس.

مجدو. ولّى جيش التحالف الأدبار تاركاً أسلحته وعتاده ومركباته، واحتفى خلف أسوار مدينة مجدو.

حصار سبعة أشهر كان كفيلاً بأن تنهار الممانعة السورية لتسقط المدينة. قال تحتمس الثالث المنتصر: «قام هذا الخسيس أمير قادش والزعماء الذين معه بإحضار أبناءهم أمام جلالتي، وكل خيولهم بعدتها وعرباتهم العظيمة المطعمة بالذهب والفضة، عندئذ أمرهم جلالتي أن يرددوا هذا القَسَمَ قائلين: لن نفعَل بعد ذلك مطلقاً شراً ضد تحتمس، له الحياة إلى الأبد، فليتكرم علينا فقط بنسيم الحياة طبقاً لمشيئته. عندئذ سمحت لهم بأن يعودوا إلى مدنهم، وعادوا جميعاً راكبين الحمير؛ لأنني أخذت خيولهم، كما حملت إلى مصر جميع ممتلكاتهم»⁽¹⁾.

عاد أمير قادش على حماره تحت عباءة الحماية الحورية الميتانية، وعاد تحتمس الثالث في حملته السادسة على بلاد الشام ليهاجم قادش ويتنصر، ليأخذ أمراء المدن السورية الصغار وديعةً.

قال تحتمس: «استحضر جلالته أولاد الأمراء وإخوتهم ليكونوا ودائع على أرض مصر، حتى إذا ما توفي أحد الأمراء عين جلالته ولده في منصبه، وكان عددهم في هذا العام 36 فرداً ومعهم الخدم والجواري 188 فرداً»⁽²⁾.

ثم واجه تحتمس الجيش الحوري/ الميتاني في حملته الثامنة إلى شمالي بلاد الشام، لينتصر عليه في تل العرعر غرب حلب، حتى إنه لاحقَ فلول الحوريين الميتانيين حتى كركميش. من الفرات بسفن جُلبت له من مدينة جبيل، وقال المنتصر: «بعد ذلك سارت جلالتي إلى نهايات آسيا، جعلت سفناً تبنى من خشب الأرز في جبال الإله بحضور سيدة جبيل. هم ساروا أمام جلالتي، السفن على عربات لعبور ذلك النهر الكبير (الفرات) الذي يقع بين هذه البلاد وبين نهارينا مملكة حوري ميتاني. والجدير ذكره هنا أن الملك الحوري الميتاني فرَّ من المعركة»⁽³⁾.

المشهد الآن ومنذ 1438 ق.م سوريا مقسمة إلى منطقتي نفوذ:

(1) عبد العزيز صالح- المشرق الأدنى القديم- مصر والعراق 1967.

(2) عيد مرعي- مرجع سابق.

(3) المرجع سابق.

- شمالية: تمتد من قطنا وتتبع النفوذ الحوري الميثاني.

- جنوبية: تمتد من المتوسط حتى أجاريت وتتبع الفاعلية المصرية.

منطقة النفوذ المصري الشامية قسمت إلى ثلاث مقاطعات:

- مقاطعة أمورو: مركزها مدينة «صوروم»، وتل الكزل الواقع جنوب مدينة طرطوس.

- مقاطعة أوبي: مركزها مدينة «كومدي»/ كامد اللوز في البقاع اللبناني، حيث تبعت لها

منطقة دمشق.

- مقاطعة كنعان: مركزها غزة.⁽¹⁾

في كل مقاطعة كان يقيم «مراقب البلاد الأجنبية الشمالية» حَسَبَ المصطلح المصري آنذاك، وبقي هذا التوازن قائماً حتى بداية القرن الرابع عشر ق.م.

فكرة مهمة يطرحها الباحث مورتكات، عن دور المواقع الكنعانية الساحلية وأشور في الحفاظ على الطابع المشرقي تُجاه كلِّ المؤثرات الأجنبية، يقول: «في أجاريت واللاخ نجد تيارات حورية وإيجية، حيث تتقابل وتتشابك مع المصرية والمشرقية الشرقية، إلا أنَّ سكان الساحل المشرقي حافظوا على طابعهم الخاص حتى بعد أن احتلَّ الحيثيون مدينة أجاريت وشمال بلاد الشام. بقي هذا الطابع الثقافي أحد الصروح الصخرية القليلة الشاهقة التي وقفت سداً منيعاً في مقاومتها للشعوب الجبلية الغازية». كما استطاع المشرقيون الغربيون الصمود والمحافظة على عنصرهم الشعبي وعلى لغتهم الخاصة، كذلك كان أمر المشرقيين الشرقيين في بلاد آشور.⁽²⁾

وللحيثيين جولتهم في المشرق:

«لابارانا» يُعدُّ المؤسس الحقيقي للفاعلية الحثية؛ لكنَّ ابنه «حاتوشيلي الأول» هو مَنْ أخرج الحثيين من الإطار المحلي الضيق في آسيا الصغرى إلى المجال المشرقي والاحتكاك مع القوى القائمة ومصر.

(1) عيد مرعي - مرجع سابق.

(2) مورتكات - مرجع سابق. سيكون لآشور جولتها في انبعاث المشرق بعد حين، حيث بقيت خلال الفاعلية الحورية الميثانية تابعة لها خصوصاً ما بين 1450 و1375 ق.م. كان حاكم آشور مثلاً: «إربا - أدد»، بصفة أمير كاهن لآشور ويتبع الملك توشراتا الميثاني.

نحن نتذكر مورشيلي ابن حاتوشيلي حين أسقطَ بابل ثمَّ أصبحت بيد الكاشيين قبل ذلك، وفي أثناء زحف حاتوشيلي الأب على حلب، يبدو أنه تعرضَ لأذية سببت موته. ابنه مورشيلي بعد إسقاط بابل كانت نيته الانتقام من حلب ثاراً لأبيه.

في القرن الرابع عشر ق.م ظهرت القوة الحثية مع عهد «شوبيلوليوما»؛ حيث قضى على الفاعلية الميتانية، وأسس الوضع السياسي ما يزيد على مئتي عام قادم. وحين قضى الملك الحثي على الملك الميتاني وضع ابنه «متي - وازا»، ملكاً على المملكة الميتانية، وزوجه من ابنته، فتبعت المملكة الحثيين، وضمَّ الملك التابع إلى الأسرة الملكية الحثية.

قال «متي - وازا»: «عندما ذهبت إلى الملك الكبير، كان بحوزتي من المُلْك فقط ثلاث عربات، رجلان حوريان ومرافقان، كانوا بصحبتني، لم يكن عندي سوى ثوب واحد كان عليّ، ولا أكثر من ذلك. لقد أشفق الملك الكبير على حالي؛ فأعطاني عربة مغطاة بالذهب وأحصنة وحوائج مطبخ، إبريقين من الفضة والذهب مع كؤوسهما من الفضة والذهب أيضاً، وثوباً ثميناً، أعطاني كل هذا وقطع مجوهرات وكل ما يخطر على بال»⁽¹⁾.

الجدير ذكره أنَّ العلاقة بين الحثيين والحوريين الميتانيين كانت كالأواني المستطرقة، فإن ضعف الحثيون قوي نفوذ الآخرين.

بالعودة إلى السيطرة الحثية على حلب ندرُكُ فعله حاتوشيلي حين أخذ تمثال الإله أدد الحلبي ونقله إلى خاتني؛ أي أن العين الحثية على حلب. ووثائق حثية تذكرُ أنَّ حاتوشيلي لن يُضَيِّعَ فرصة تدمير مدن كحلب وخاشو وزلبا، تلك المدن التي رفضت شروط الحثيين، وأخيراً سوف يتمكن حاتوشيلي من التعامل مع حلب.⁽²⁾

الوثيقة الحثية تشيرُ إلى مورشيلي الأول «أنَّهُ ذهب إلى حلب وانتقم لدم والده، الآن حاتوشيلي كلّف ابنه بتدمير حلب، وعاقب ملك حلب، ودمر كل المدن السورية»⁽³⁾. وفي بداية القرن السادس عشر ق.م يوردُ النصُّ مهاجمة مورشيلي بابل.

(1) مورتكات - مرجع سابق.

(2) عبر حاتوشيلي جبال طوروس واستولى أولاً على مدينة زلبار ثم أورشو واتجه نحو حلب.

عمار عبد الرحمن - مملكة الاالاخ - المديرية العامة للآثار والمتاحف - 2008.

هورست كلينغل - تاريخ سوريا السياسي.

(3) بموت مورشيلي - تستعيد حلب استقلالها وفعاليتها.

الإشارات الوثائقية تشيرُ إلى تحالف الحوريين مع حلب في صد الهجوم الحثي. وبظهور هذه الفاعلية الحثية أمكنَ لمدينة آشور أن تخرجَ عن السيطرة الحورية تدريجياً؛ لتحتلَّ مصرُ سلِّمَ أوليات الاهتمام الحثي.

الفاعليةُ الآشورية التي عادت إلى سابق عهدها، نوعاً من استنهاض المشرق بعد كبوته⁽¹⁾، جعلت الحثيين يؤسسون مملكة ميثانية على حدود آشور لتفصل آشور عنهم، وفيما بعد قضى شلما نصر الأول ملك آشور على الدولة الميثانية وضمَّها إلى بلاد آشور.

العين الحثية كانت على شمال بلاد الشام ولا مانعَ من مواقع ساحلية على المتوسط؛ لذا تمكن «شوبيلوليوما»، مؤسسُ الإمبراطورية الحثية، من انتهاز ضعف الدولة المصرية في عصر أخناتون، فضمَّ شمال بلاد الشام حتى الحدود اللبنانية.

ثُبِّتَ حدودُ الإمبراطورية الحثية من جهة لبنان أمام مصر، بثلاث دويلات: أمورو⁽²⁾، وكينزا، ونوحاشي. الشمال الشامي قُسم إلى منطقة حلب (حلبا)، وكرميش.

القوة الحثية والكاريزما التي تمتع بها الملك الحثي دفعت أرملة توت عنخ آمون، ملك مصر المتوفي، إلى أن ترسل إليه رسالةً: «لقد مات زوجي وليس لدي ابن لي ويتحدث المرء عن أبنائك الكثيرين، لو تقدم على إرسال أحد أبنائك لي لاتخذتُ منه زوجاً لي وفي مصر يكون ملكاً»⁽³⁾.

لم يكن الملك الحثي مرتاحاً من رسالة المرأة المصرية «عنخ إسن آمون»، فلم يتوقع أن أرملة توت عنخ آمون تطلب ذلك وتعرض العرش المصري المتعالي على الحثيين، فأرسل «شوبيلوليوما»، وفداً وتبين من صحة الرسالة المرسله واستقبل وفداً مصرياً من قبل السيدة.

حزم الملك الحثي أمره وأرسل العريس «زانانزا» ولده، وفي الطريق نحو مصر تعرض الموكب إلى كمين وقُتل الأمير الحثي، ويُظنُّ أنَّ المصريين المناهضين لفكرة أن يحكمهم رجل حثي هم وراء هذا الكمين.

(1) لم تستطع المراكز الشرقية الساحلية استنهاض المشرق؛ لأنها بقيت تحت النفوذ المصري كجيل، وأجارت بقيت في الوسط بين تجارتها ووجودها ولا تمتلك الأدوات من أجل استنهاض مشرق جديد لوجهها البحري الفاقد العمق الذي يجب.

(2) مملكة أمورو كانت موضع صراع بين الحثيين والمصريين.

(3) مورتكات- مرجع سابق.

صرخ شوبيلوليوما: «أيتها الآلهة، أنا لم أقترب إثماً أو شراً، ومع ذلك فعل قوم مصر هذا معي، كما أنهم هاجموا حدود بلادي». فأرسل جيشه ضد القوات المصرية ومدن تابعة لها في سوريا، وأسر جنوداً مصريين، والطريف هنا أنّ منهم من كان مصاباً بالطاعون، والوباء الذي قتل الملك الحثي إياه.

الفاعلية الحثية في القرن الثالث عشر بلغت قمّتها، فالصراع الحثي المصري على مناطق النفوذ الشامية أوقعت ملك أمورو «بنيتشينا» في حيرة التبعية، ومالت كِفْتَه نحو مصر فكان اختياراً خاطئاً.

تحصل معركة قادش التي هزم بها المصريون، «مواتالي» ملك الحثيين، بمواجهة رعمسيس الثاني ملك مصر. تنتهي المعركة بتقاسم مناطق نفوذ لكليهما وفق معاهدة شمال بلاد الشام للحثيين بدءاً من قادش، القسم الجنوبي من بلاد الشام تحت النفوذ المصري. ويبدو أنّه بعد معركة قادش أدرك الخصمان استحالة حسم وإنهاء أحدهما الآخر، فأدى بعد خمسة عشر عاماً إلى توقيع هذه المعاهدة في نهاية 1259 ق.م. بين حاتوشيلي الثالث ورعمسيس الثاني؛ إذ إن مواتالي الزعيم الحثي بطل قادش مات بعد عامين من المعركة. وهناك أسباب أخرى لهذه المعاهدة سنذكرها لاحقاً.

النفوذ المصري في بلاد الشام استمر أكثر من أربعمئة سنة، بدأ في 1550 وانتهى في 1130 ق.م بموجب المعاهدة الحثية/ المصرية عام 1267 ق.م.

لا يخلو الأمر من طرائف هنا: رعمسيس يعود إلى مصر ليديج أخبار انتصاراته، في مقابل المصادر الحثية التي حكّت عن مطاردة العدو الهارب حتى دمشق. والخيال العلمي لرعمسيس حضر قوياً، فثمة رواية منقوشة على جدران معبد مصري تصف معركة رعمسيس ضد الحثيين:

«ثم ركب جلالته مسرعاً واندسّ في أعماق الأعداء من خاتي، وكان بمفرده وليس معه أحد... ووجد 2500 عربة حربية تُضيق الخناق عليه من الخلف، يقودها جميع أنواع المحاربين الخاسئين من خاتي وكذلك من البلاد الأجنبية الكثيرة التي كانت معهم».

ثم تنعطف الرواية بخيال علمي قلّ نظيره لتستكمل على لسان الملك المصري: لقد ناديتك يا آمون. وجدت آمون قد أتى عندما دعوته، مدّ لي يده وحينها ابتهجت. كل ما فعلته كان مصيره النجاح. كنت أشد قوسي بيميني وأحارب بيساري. وجدت 2500 عربة

التي كنت وسطها ممدداً أمام حصاني ولم يكن بمقدور أيّ منهم أن يمدّ يده ليقاتل بها... جعلتهم يتساقطون في الماء تماماً كما تسقط التماسيح، وقد خرُّوا على وجوههم الواحد فوق الآخر وأعملت القتل فيهم كما شئت». انظر: (1177 انهيار الحضارة).

مصير ملك أمورو المتحالف مع مصر توضّح باستبداله بـ «زاييلي». الأحداث تبين أنّ أخ الملك «مواتالي» هو «حاتوشيلي» كان حاكماً على المدينة المقدسة «نيريك»؛ لكنه كان يقيم علاقات سريةً مع ملك أمورو «بنيتشينا» حتى قبل خلعه، وحين خُلع منحه حاتوشيلي حقّ اللجوء في نيريك.⁽¹⁾

الفاعلية الآشورية الناهضة أدركتها الدولة الحثية وخشيت منها، لكنّها تحاشت الاصطدام معها، ولم تقم حرب بين الفاعليتين، ومع أنّ الاهتمام الآشوري بالجنح الشامي بدأ منذ عهد «توكولتي نينورتا الأول» غير أنّ ثمة توازناً بالإمكان أن نجد في العقد الأخير من القرن الثالث عشر ق.م بين الدولتين.

ولتبيان مدى الانزعاج الحثي من تصاعد الحضور الآشوري تشير الوثائق إلى رسالة من ملك آشور إلى حاتوشيلي تصفه بالأخ، ما يعني مساواة ملك آشور بملك حثي، لكنّ الجواب الحثي قال: «هل وُلدنا -نحن الاثنين- من أمّ واحدة؟».⁽²⁾

وقد حاولت آشور في عهد «توكولتي نينورتا الأول» أن تضمّ بابل الكاشية لها؛ لكنّ هذا الضم لم يستمرّ؛ فقد حصل تمرد في بابل وثورة أدت إلى إخراج الآشوريين منها، حتى إنّ بابل استطاعت وضع آشور تحت حمايتها في عهد الملك أدد-شوما-أوصّر في 1218 - 1189 ق.م، وبقي النزاع قائماً بين المدينتين حتى ضعفت بابل ليُجهز عليها العيلاميون عام 1160 ق.م.

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق. كذلك نعلم أن القضاء على الفاعلية الحورية الميثانية حثياً هو الذي هيا لصعود آشور وانبعاثها، فملك آشور «آشور-أبليط» قام بحروب عديدة ضد الملك الميثاني «إرتاتاما» حتى استطاع القضاء عليه. القوة الآشورية المتصاعدة جعلت ملك مصر يرسل هديةً للملك الآشوري «آشور-نادين-أخي» عشرين وزنة من الذهب علماً أنّ «آشور-أبليط» ملك آشور أرسل إلى أخناتون ملك مصر رسالتين: الأولى تصف نفسه «ملك بلاد آشور»، وفي الرسالة الثانية خاطب أخناتون بتعبير «أخ فرعون». (مورتكات).

وكعادة المشرق بتقاليد المتواليه المدنية التاريخية تنهض مدينة إيسين ما بين 1158 و1027 ق.م، ومن أبرز ملوكها «نبوخذ نصر الأول» الذي حاول توحيد البلاد حين بدأ التغلغل الآرامي القادم من العمق الشامي. 1126 - 1105 ق.م.

في مطلع القرن الثاني عشر ق.م ثمة مركزان قويان: بابل ومصر، وقد كان على الحثيين أن ينتظروا شعوب البحر. وما يجدر ذكره هنا: أن الحثيين منذ بدء فاعليتهم كانوا يعرفون الحديد وصنعتة في حيز الأسلحة والتماثيل الإلهية، وقد حاول ملوك مصر الحصول عليه مقابل الذهب.

مشاهدات من النصف الثاني للألف الثاني ق.م:

تختلف المعطيات بين فئات الشعوب الجبلية الغازية للمشرق، فالحوريون امتلكوا أدوات التفاعل إلى حد ما، وبقوا، بحضورهم في الجزيرة السورية، على اتصال بقبائلهم إلى الشرق من القوقاز والجبال المحاذية لهضبة الأناضول من الشرق. يهاجرون إليها عندما يجدون الفرصة المناسبة، حتى أسسوا مملكتهم في القرن السادس عشر ق.م، وأطلقوا عليها مملكة ميتاني بعاصمتها واشوكاني قرب منابع الخابور⁽¹⁾.

الدراسات تنظر إلى دور الحوريين في الوساطة في نقل الحضارة إلى الشمال وإلى غرب الشرق الأدنى، حتى إنه في عصر «زمرى ليم» ملك ماري عُثِرَ على نصوص مشرقية مترجمة إلى الحورية بهدف استعمالها من قبل الحوريين، وذكرت وثائق ماري وجود دويلات حورية شمال سوريا (أورشوم- خاشوم) وشمال الرافدين أيضاً، وفي منطقة شرق دجلة وجبال زاغروس. كما قدمت لُقى العاصمة الحثية «حاتوشا» رقماً طينية لملحمة جلجامش مترجمة إلى اللغة الحورية.⁽²⁾

قدّم الحضور الحوري إلى الألف الثالث ق.م نجده في أخبار الملك «شولجي» ملك أور 2094 - 2047 ق.م حين شنّ حملات عسكرية إلى مناطق شمال شرق نهر دجلة، ومن نتائجها: نقل أسرى حوريين إلى الجنوب الرافدي.

(1) علي أبو عساف- آثار الممالك القديمة في الجزيرة وطور عابدين- 2011.

(2) مورثكات- مرجع سابق.

مضامين التفاعل والنشاط الحوري نجدها في مدينة الالاخ؛ إذ حوى أرشيف السوية السابعة أسماء أشهر باللغة الحورية وكذلك أسماء أعلام كثيرة.

قيادات الحوريين في البداية كانت من طبقة الأشراف الذين يقاتلون على العربات «فرسان الخيول»، واشتهرت هذه الطبقة بتربية الخيول.

المعطيات في هذه الحقبة تختلط بين مفهومي «حوري» و«ميتاني»، والفاعلية الميتانية ركزت في القرن الخامس عشر والرابع عشر ق.م، وأشارت إلى دولة واسعة الأطراف تمتد من زاغروس إلى البحر المتوسط، ومن بحر وان إلى «آشور وأراشا» الواقعة إلى الشرق من نهر دجلة، كما تبين أن ملوك ميتاني كانوا يحملون أسماء غير حورية، وبعضهم حمل أسماء هندو أوروبية.

يذكر مورتكات أن المملكة الميتانية كانت مركز الدولة الحورية في شمال ما بين النهرين وانضمت تحت لوائها الدويلات الصغيرة الأخرى من الشرق والغرب.

اللغة الحورية نجدها في نصوص أجازيت إلى جانب لغات أخرى. والمقاربة للثقافة الكاشية بائسة نوعاً ما، فلغتهم وصلت بفهرس مع ترجمة للأكدية، تشير إلى قرابة مع اللغات القوقازية، كما أن أسماء آلهتهم تؤكد العلاقة مع منطقة القوقاز.⁽¹⁾

الثقافة الأولية للكاشيين نجدها في الضحالة الأثرية لوجودهم في بلاد بابل، ويبدو أن الطغيان الكاسح للثقافة البابلية، بحسب وجهة نظر «مورتكات»، أفقد الكاشيين التطور والتطوير في الأدب والتاريخ والدين.

الحضور الكاشي في بابل اتسم بالتشج والخمول والركود، ولا تقدم المعطيات أي إنجاز مهم لأي ملك منهم. يشد عن هذا الاعتقاد فقط إنشاء الملك «كارنيداش» الكاشي معبداً متواضعاً في منتصف القرن الخامس عشر ق.م في مدينة أوروك، أهدها إلى الربة «إنانا». حضوراً أربعمئة عام ويبدو أنهم أخذوا أكثر بكثير مما أعطوا.

وثمة ملاحظة ينبغي الوقوف عليها، تختص بقيم التفاعل الثقافي والديني لدى المجموعات ذات الثقافة الأولية غير المتطورة، سنلاحظ أن الكهنة في العصر الكاشي

(1) الإله «كاشو» هو إلههم القومي، وكان موطنهم الجبلي يسمى «بلاد الإله كاشو»، بلاد منطقة لورستان، واسم إلههم له علاقة باسم بحر قزوين.

حذفوا الصفات البشرية للآلهة من الملاحم والأساطير المشرقية؛ لذا فيما أبقوه من ضحالة ثقافية نجد أنهم يُبرزون آلهتهم بالرموز المجردة بدلاً من الشكل البشري، ففقدوا في ثقافتهم «أسنة الآلهة»، وهذا ما نجده في أحجار الحدود (الكودورو). ومن وجهة نظر بابل، نعلم أنّ الحكمَ الأجنبيَّ عليها مثلَ عصرِ يقظةٍ وحراكٍ للبابليين على مصيرهم المُحزن⁽¹⁾.
الثقافة الحثية كانت أكثر تطوراً وحضارةً من الحورية والكاشية، بل امتلكت منظومةً مهمةً من الفعل الحضاري، وهذا ما أثر في القوة الحثية في 1380 - 1340 ق.م.

في عصر الملك القوي «شويلوليوما» لم يلجأ الحثيون إلى استعمال الكتابة المسمارية المقتبسة عن المشرق في التعبير عن أسماء الملوك مثلاً، بل استعملوا كتابتهم التصويرية الخاصة؛ لهذا نجد شمساً مجنحة ترفرف فوق رمزين كتابيين يحويان معنى كلمة «ملك» وكذلك اسم الملك نفسه⁽²⁾.

شيءٌ آخر يختصُّ بالخصوصية الحضارية الحثية، أنهم إذا استعملوا الكتابة المسمارية المشرقية فإنهم لم يقتبسوا طريقة الأختام الأسطوانية، بل استعملوا الأختام المسطحة على شكل محدب أو مستدير وكذلك أشكال أخرى⁽³⁾.

ولن ننسى، كما ذكرنا، أنهم أتوا بالحديد المُصنَّع قبل أن يدخل المشرق عصر الحديد، ما يعني التفوق في المجال العسكري كما في المجال الفني في صنع التماثيل. وفي مقارنة بين القوانين الحثية والآشورية سنلاحظ اختلافاً وافتراقاً في الموقف والتحليل بين الفكرين القانونيين.

نتائج:

عانى المشرق خلال أربعمئة عام من الغزوات والشعوب المنساحة، وفقدت مدنه وممالكه سيادتها، حضرتُ التبعية بتألقها السلبي لمن هو أقوى، هذا في المنحى السياسي والعسكري والسيادي. وفي المقابل، إنّ الحالة الشعبية المشرقية بقيت الضامنة لقيامه المشرق من جديد بانبعث مدن أو شكت على الموت، وتحمل نواة استمراريتها الحضارية،

(1) مورتكات - مرجع سابق.

(2) مورتكات - مرجع سابق.

(3) المواقع المشرقية الواقعة على دجلة والفرات حافظت على الأختام الأسطوانية القديمة إلى جانب الرُّقم الطينية والكتابات المسمارية، وفي المقابل مواقع بلاد الشمال الشمالية ومواقع الحثيين استعملت الأختام المسطحة.

وفي مقابل غياب مدن أخرى، وموازة هذا بقيت مدن الساحل الشرقي تتبع الأقوى مع حفاظها على مشرقيتها مع وجهها البحري المتناقف.

كانت الغاية أن نستعرض أهم مواقع المدن في هذه الحقبة؛ لكن الإضاءة على عالم المراسلات بين حكام المدن الشرقية لا سيما الشامية مع الأقطاب الأقوى آنذاك، وستوضح معالم التفكك والتبعية آنذاك، والمستند بعمق إلى ظاهرة المدن الضرائر، ويبدو أن المشرق لم يع أن التبعية ابنة التفكك الداخلي والصراع بين الممالك والمدن الأنانية في مصالحها. وفي الجهة الأخرى «أخت آتون»، جنوب المينا المصرية، أمر أمنحوتب الرابع «أخناتون» بإنشاء مدينة لتكون عاصمته الجديدة 1352 - 1330 ق.م. تُعرف الآن بموقع تل العمارنة الذي حوى ثلاثمئة واثنين وثمانين رقيماً. ولغة الرقيم بابلية وسيطة، والكتابة مسمارية في مصر الهيروغليفية⁽¹⁾.

تؤرخ المراسلات في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مدة حكم ملوك مصر أمنحوتب الثالث وأمنحوتب الرابع توت عنخ آمون.

مواضيع الرقيم هي مراسلات بين ملوك مصر وملوك الحثيين والميتانيين والآشيا (قبرص) وأرزارو وبابل وأشور، كذلك حكام مدن بلاد الشام.

القسم الأكبر من الوثائق يعود إلى حقبة حكم أمنحوتب الثالث حين كان في عاصمته طيبة، مع خليفته أخناتون تم نقلها إلى أخت آتون العاصمة الجديدة. وإن عدد الرسائل ثلاثمئة وخمسين تقريباً، معظمها وارد إلى البلاط المصري، وعشرة صادرة عن ملوك مصر. نجد أيضاً رسائل لمندوبيين ملكيين مصريين متنقلين بين بلاد الشام ومصر. سنلاحظ أن رسائل ملوك مصر كانت قليلة إلى حكام بلاد الشام، وحظيت بابل، تحت حكم الكاشيين، بثلاث رسائل مقابل رسالة واحدة إلى قادش وواحدة إلى أمورو، كذلك لمدن جزري وأشقلونا وأكشاب وغيرها.

الواقع السياسي في المشرق المتشردم باحتلالات أجنبية، وغياب دولة مركزية قوية جعل التبعية للنفوذ المصري أمراً بدهياً، بل أصبحنا أمام ظاهرة تحريض مدن شامية للمصريين

(1) قوة الكتابة المسمارية أكدت حضورها في مصر المعتزة بهيروغليفيتها، «ريدفورد» يقول: كيف وجد المصريون أنفسهم مضطرين إلى استعارة كثير من الأفكار الشرقية ونبد أفكار أخرى، وفوق كل ذلك تعاملوا مع البلدان الأجنبية بصفتهن، أي المصريون أعضاء في مجتمع دولي وليس بصفتهن جنساً معزولاً اصطفاها الخالق.

على مدن شامية أخرى، وكان ثمة تسابقٌ بين حكام المدن الشامية لنيلِ رضى الممالك الأقوى إن كانت ميثانية أو حثية أو مصرية.

اندبت مصر نفسها على بلاد الشام وقسمتها ثلاث ولايات:

- ولاية أمورو (صُم) في الشمال.

- ولاية خزة (غزة) في الجنوب.

- ولاية كومد (كامد اللوز) في الوسط.

وثمة مندوبٌ ملكيٌّ مصريٌّ في المدن المنتدبة، إلى جانب حاكم محلي يعترف به من البلاط المصري.

وفي نهاية حكم أمنحوتب الثالث أهملت مدن بلاد الشام الواقعة تحت النفوذ المصري، واستشرى الفساد، والفوضى عمت في مصر. لحظات الحضارة حين تكبو مؤلمة؛ لهذا نجد تراكم الحضور لمجموعات الخيرو (العفيرين) في الجناح الشامي، وأولئك الحثيون المترقبون بالمرصاد لمد فاعليتهم إلى بلاد الشام بحضور كاشي وميتاني.

وبمجيء أخناتون لم يتغير الإهمال المصري، بل زاد هذا الأمر بانقلاب أخناتون، فقد كان أخناتون حالماً بدين شمسيّ جديد⁽¹⁾، استبدل بعبادة «آمون» عبادة «آتون» وحلّ شيءٌ من الفوضى في الانسيابية المصرية التاريخية استغلها موظفو البلاط المصري والمندوبون الملكيون. والترنح المصري هنا جعل موظفي البلاط يفكرون بالتخلص من أمنحوتب الرابع كحال «توتو» الذي ربطته علاقة مهمة بحاكم «أمورو» و«عزيرو». حلم اليقظة الديني لدى أخناتون دفع أمه «تي» إلى زيارته ومطالبته بتخفيف حدة الدين الشمسي الجديد من أجل سلامة المملكة، وزوجة الملك «نفرتي» تُعبر عن استيائها من تدخل الأم الملكة⁽²⁾، يبدو أن ممالأة الملك لأمه سبب هجران الملك وزوجته لبعضهما. عزل أخناتون نفسه، وسلّم العرش لزوج ابنته «سمنخ كارع» الذي أصبح شريكاً في حكم مصر عام 1336 ق.م.

(1) حين استلم أمنحوتب الرابع أخناتون حكم مصر كان عمره خمسة عشر عاماً، ويعتقد أن أمه هي من أدارت الحكم حتى بلوغه السن القانوني للحكم.

(2) المعتقد هنا أن أخناتون تأثر بمعتقدات زوجته نفرتي ذات المنبت المشرقي، وإن انتمت إلى الديمغرافيا الميثانية لهذا صعب الأمر عليها. الملاحظ أن أخناتون لم يكن يشير في رسائله إلى إيمانه الجديد وإلهه الجديد، أكتفى بنفسه وبمملكته. وأن بموته وعودة مجاري الحياة المصرية إلى طبيعتها دُمّرَ وخطّم كل ما يدل على آثار هذا الملك، وهجرت مدينته وحرم الحديث عنها أو ذكر اسم صاحبها، ووضعت نصوص جديدة تحط من شأن أخناتون المارق والكافر الأعظم.

بعد موت أختاتون حاول كهنة طيبة التقليديون تطويب الشريك ملكاً، ونفرتيتي نصّبت «توت عنخ آمون» زوجَ ثالث بناتها ملكاً في أخت آتون.

المعتقد أنّ مراسلات العمارة في زمن أختاتون كانت من اختصاص موظفي البلاط، فهم من يستلمون البريد الوارد من مدن الشام، وثمة شبكة علاقات ذات مصلحة تربط أولئك الموظفين بالمندوبين الملكيين المصريين في مدن الشام.

هذا التخبط المصري تجلّى في ضعفها وانهايار مكانتها الدولية بدءاً من 1341 ق.م، في وقت كان الملك الحثي «شوبيلوليوما» 1343 - 1322 ق.م يُعدُّ العُدَّة لضمّ شمال بلاد الشام للفاعلية الحثية مع وقوف المملكة الميتانية وحيدة إزاء المدّ الحثي. وفي شرق المشرق كانت آشور تُبشّر بصعود فاعليتها.

تصاعد المدّ الحثي، وواجه الميتانيين في عاصمتهم «واشوكاني»، سيطر عليها في حين كانت عاصمتهم الثانية في «تئيد» مدعومة من الآشوريين. استمرت حروب الحثيين وامتداداتهم حتى وصلوا إلى بلاد «أب» (دمشق)، وكذلك جبال لبنان.

«تئيد» تسيطر على «واشوكاني» بمساعدة الآشوريين، والزخم الحثي والآشوري أدى إلى انهيار الميتانيين أواخر القرن الثالث عشر ق.م. القوة الحثية دفعت بعض المدن الشامية إلى نقل موالاتها من مصر إلى الحثيين، تحضّر هنا كنزاً «قادش»⁽¹⁾.

(1) المدن الشامية التي سيطر عليها الحثيون رضخت للفاعلية الحثية وقبلت بالشروط الجائرة التي حوتها المعاهدات، وإلى حد ما كانت أجاريت تمسك العصا من المنتصف إلى حد ما وسط القوتين المصرية والحثية، لكن مدن فلسطين بقيت في منأى عن الفاعلية الحثية. وفي المقابل تبعية «سيانو» المملكة الصغيرة إلى الحثيين بعد انفصالها عن أجاريت بدعم حثي، أما مملكة «أمورو»، فتبعت مصر، وكانت تسعى إلى محاولات لضم مدن شامية لفاعليتها وأتهمت بازدواجية الولاء بين مصر والحثيين من بعض مدن الشام. جبيل (جبلا)، تبعت مصر، كذلك «بيروتا» (بيروت)، وصور (صور) وأرواد.

مملكة نُحْشِي بين أطراف حلب وحماة كما بين الفرات والعاصي، تبعت المملكة الحورية الميتانية ثم الحثية. مدن كنعان الجنوبية تابعة لمصر، في حين كانت «قطنا» تتبع الميتانيين وأصبحت فيما بعد معبراً للحملات المصرية نحو الفرات، وخضعت للحثيين وكان لهم حاكمٌ تابعٌ لهم فيها، وحين تحالفت مع مصر في عهد أختاتون لم تلقَ اهتماماً، وألحقت بفاعلية الحثيين.

«كنزا» بعاصمتها قادش (قديشا) قرب بلدة القصير في حمص خضعت للميتانيين ثم لمصر ثم الحثيين، وملكها «إتيكما» قاد تحالفاً ضد مصر والموالين لها في الشام ورسم مناطق نفوذه. انظر: فاروق إسماعيل - «مراسلات العمارة الدولية».

مراسلات قُجْلة:

«خادمك، طين قدميك، كلب بيت الملك، لقد جثوتُ لدى قدمي الملك سيدي سبعاً فسبعاً»⁽¹⁾

كما أنّ للمقدمات نتائج، فإنّ ما تبدى بعد سقوط بابل بواسطة الحثيين ثم سيطرة الكاشيين عليها، وكما تبع ذلك سقوط مملكة يمحاض، جعل الفراغ المشرقي ضحيةً لمنظومات حُكم قبلية سادت المدن، ومع تفوقها في المنجز الإنساني افتقدت معالم التوحد أو الاتحاد، فأفسح المجال لتناول كل مدينة أو مملكة لقمةً لقمة.

الكاريزما التي كان يتمتع بها بعض ملوك المشرق لم تُسهم إلا بأعوام تُثبتُ الذات المشرقية، ومع هذا سلاحظ أنّ إثبات الذات هذا لم يتعدّ حدود المملكة، وإنّ سعى ملكٌ ما إلى النظر إلى مدن الساحل المشرقي فالغاية في الوصول استعراضية لا أكثر، ومن ثم لولا احتضان يمحاض أجاريت في النصف الأول من الألف الثاني ق.م لما وجدنا لهذه فاعليةً نحو العمق الشامي أو المشرقي كاملةً إلا مصلحةً تجاريةً.

قلنا: مقدمات؛ لأنّ النصف الثاني من الألف الثالث ق.م شهد صراعَ الممالك الضرائ واستمر هذا مع التجانس الديمغرافي المشرقي بالفاعلية الأمرية، فقد وجدنا كل مملكة بملكها معجبة ولا مانع لديها من علاقات بالمدن الأخرى أو الممالك لغاية ذات مصلحة لا أكثر. والنتائج نلتمسها ونقرأها في مراسلات حكام المدن الشامية مع ملوك مصر في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. مدن وممالك لا حول لها ولا قوة يتناهبها الغرباء.

الأموريون بانسياحهم إلى مصر في مطلع الألف الثاني ق.م، والهكسوس بعدهم، وسّعوا دائرة الوعي المصري إلى أنّ أمن مصر يكمن في المشرق من جنوبه إلى فراته، ما دفع مصر إلى تأمين أمنها بالنفوذ القوي على مدن بلاد الشام، ولا سيما بعد معاهدة قادش مع الحثيين، ثم كان على مدن المشرق الشامي الوقوع بين صراع الأقوياء، ولتنجو زحفت وتمرغت، ولم تكتفِ بذلك، بل تُظهرُ المراسلات تحريضاً للمصريين على مدينة شامية من قبل مدينة شامية أخرى، ولا مانع من معالم «القلقلة» بين الأقوياء وتغيير التبعية تبعاً

(1) رسالة من ملك أمورو «عبدي أشيرة» إلى ملك مصر «أمنحوتب الثالث». انظر: فاروق إسماعيل- مراسلات العمارة الدولية- 2010.

سنعتمد هذا المؤلف في مناقشتنا لرسائل العمارة.

للمصلحة الوجودية. ومن كل مدن المشرق تميّزت آشور بأنها لم تتهاك أو تتهاقت على مصر، فإنها في أول تصاعد لفاعليتها يخاطب ملك آشور ملك مصر بـ«أخي»، أي هناك ندية ومساواة بينهما.

ما استوقفنا في كتاب د. فاروق إسماعيل، «مراسلات العمارنة الدولية»، هو إطلاقه صفة البابلي على ملوك كاشيين حكموا بابل، وهذا برأينا يجافي الحقيقة العلمية، فهم ليسوا بابليين ولا ينتمون إلى النسيج الديمغرافي المشرقي.

في مقدمة المراسلات نجد رسالة ملك آشور «آشور أبليط» 1353 - 1318 ق.م، عن الندية بين الطرفين الآشوري والمصري:

إلى أمنحوتب الرابع أخناتون:

«قل لملك بلاد مصر: هكذا يقول آشور أبليط ملك بلاد آشور»

وفي رسالة أخرى: «قل لـ«نبحرُيا» ملك بلاد مصر، أخي

هكذا يقول... ملك بلاد آشور، الملك العظيم، أخوك».

في الرسالة يدافع ملك آشور عن رسله إلى أخناتون: «لماذا يظل رُسلي واقفين تحت حرارة الشمس؟! إنهم بحرارة الشمس يموتون! إن كان الوقوف تحت حرارة الشمس فيه فائدة للملك، فليقفوا تحتها وليموتوا، لتحقق الفائدة للملك، وإن لم تكن فيه فائدة فلماذا يموتون بسبب الشمس؟».

ولتبيان السيطرة الأجنبية على المشرق سنقرأ للملك الكاشي حاكم بابل «بوراً بورياش» إلى أخناتون: «الآن، الآشوريون التابعون لي لم أرسلهم أنا إليك... لماذا جاءوا إلى بلادك بقرارهم؟ إن كنت تحبني لا تدعهم يمارسون أية تجارة... أرسلهم إلي فارغي الأيدي».

أجارت في مراسلاتها مع أمنحوتب الرابع لم تخرج عن مألوف التبعية والخنوع إلى حد ما، فهذا هو ملك أجارت أميشترو الأول 1390 - 1354 ق.م يرسل إلى ملك مصر:

«قل لملك الشمس، سيدي: هكذا يقول أميشترو خادمك:

/لقد جثوتُ أمام قدميك سبعاً فسبعاً.

أرسل رسولي إلى حضرة الشمس،

أنا خادم الشمس سيدي، حقاً.

ليته يهيني حياة روعي، وليت فمه ينطق بحياة روعي». وفي رسالة أجاريتية أخرى للملك نفسه وإلى الملك نفسه، فيها تجاهل أختاتون رسائله: «هل أعامل بشكل يتناسب مع وفاء قلبي؟»

ولم تشذ زوجات الملوك الأوجاريتين عن اللازمة تلك، فها هي «خبا» زوجة ملك أجاريت «نقماذو» الثاني تكتب إلى نفرتيتي زوجة أختاتون:

«سيدتي. هكذا تقول.. خبا أمتك:

لقد جثوت أمام قدمي سيدتي».

تبدو هنا محاولات تأصيل الخنوع كما نقرأ في رسالة أميشتمرى الأولى إلى أختاتون: «آبائي خدموا لدى آبائك والآن أنا أيضاً خادم لدى الملك، الشمس سيدي حقاً.

حكام معظم مدن المشرق الشامي خاطبوا ملك مصر باللازمة الخنوعية تلك، ملك نخشي ملك قطنا وغيرها. أحياناً تفيضُ مشاعر الدونية نوعاً من التبعية الأنانية، كأن يقول «أكيزي» حاكم قطنا لأختاتون:

«لقد جثوت أمام قدمي سيدي سبعاً فسبعاً. أنا خادم سيدي وحده في ربوع بلاد الإله» تشوب» كيف لي أن أذهب إلى طرف ملك بلاد الحثيين «يوالي الحثيين» وأنا خادم الملك سيدي ملك مصر؟ يا سيدي، حالما ترتمي مدينة دمشق في بلاد أب بين قدميك، فإنَّ مدينة قطنا سترتمي بين قدميك أيضاً».

نلاحظ هنا تمنيات ملك قطنا بسقوط بلاد أب بعاصمتها دمشق تحت النير المصري ومن ثمَّ سقوط قطنا تحت قدمي الملك المصري.

ثمّة رسالة أخرى من «أكيزي» القطناوي إلى أختاتون تُفصح عن ذاتها دون شرح: «هذه البلاد بلادك، منذ أن كان أسلافي من خدمك، قطنا مدينتك وأنا من يتبعون سيدي. سيدي، البلاد كلها تخاف من مواجهة قواتك وعرباتك، فإذا كان سيدي يريد أن يحتلَّ هذه البلاد لتصيرَ بلاده، فليرسل سيدي خلال هذه السنة قواته وعرباته، ولتأتِ إلى هنا كي تصير بلاد نخشي كلها تابعة لسيدي... إذا ما ظهرت القوات -يا سيدي- واستقرت لهذا الغرض ستة أيام فقط فإنها ستقبض على عزيزو ملك أمورو بالتأكيد».

وفي بؤس آخر: مدينة تونيب أرسلت على مدى عشرين عاماً رسائل إلى البلاط المصري ولم يأتها الجواب، فها هم سكانها يرسلون إلى أختاتون متوسلين ضد مملكة أمورو التابعة للحثيين:

«إن عزيزو ملك أمورو سيفعل بنا كما فعل بمدينة نبا... ها هي مدينة تونيب مدينتك تبكي ودموعها تسيل ولا وسيلة لإبقائها في يدنا، لقد ظللنا نكتب إلى الملك سيدنا، ملك بلاد مصر باستمرار منذ عشرين عاماً ولم تصلنا كلمة واحدة من سيدنا!». وها هو ملك أمورو «عبدي أشيرة» يرسل إلى أمنحوتب الثالث:

«هكذا يقول عبدي أشيرة خادمك غبار قدميك، لقد جثوت لدى قدم الملك سيدي سبعاً فسبعاً. انظر أنا خادم الملك وكلب بيته، وبلاد أمورو أحميها من أجل الملك، سيدي، إنني أحمي محصول الحبوب الخاص بمدينة صُمر وكل البلدان، من أجل الملك الشمس، سيدي».

ما يستوقفنا هنا وجود إضافات على اللازمة بقوله: غبار قدميك، كلب بيته، كذلك هو وسيلة بيد ملك مصر بمملكته وبلدانه ومحاصيلها التي يبدو أنها ليست له. وفي رسالة أخرى يؤكد عبدي أشيرة أنه «خادمك وطين قدميك وكلب بيت الملك».

الملاحظ هنا أنه لم يقتصر الخنوع على مراسلات ملوك مصر، بل كان يُرسل أيضاً إلى مندوب الملك المصري في مدن الشام، فها هو عبدي أشيرة يرسل إلى مندوب ملك مصر حين كان في زيارة مصر: «إلى بخناني سيدي، هكذا يقول أشيرة خادمك: لقد جثوت لدى قدمي سيدي، لماذا يكذب حكام المدن أمامك وأنت تصغي إليهم؟» يقصد حكام مدن الشامية الأخرى.

إذاً، المشهد جليٌّ؛ جناح شامي مشرقى يدفع ثمن منظومة سلطة في ممالكه قامت على المصلحة المدنية دون سعي إلى الوحدة كمصر التي ثبتت بنيلها سلطة مركزية.

في رسالة أكثر تطوراً نكتشف طلب أختاتون من حاكم مدينة «قلتو» الواقعة جنوب غرب القدس، لعشر نساء: قال «عبدي عشترت»:

«سأكون جاثياً لدى قدمي الملك، سيدي، نعم، لدى قدمي الملك، سيدي، سبع مرات». والآن هنا سبع مرات، وذلك على البطن والظهر. «لقد أصغيتُ إلى جميع أوامر الملك، سيدي. ها هي ذي عشر نساء».

من جهة «رب إدا» ملك جبلا (جبيل) يرسل إلى أختاتون موضحاً مواقف مملكة أمورو المتذبذبة تجاه مصر التي تلعب على «الميلين»، فبعد أن جثا سبعاً فسبعاً يخبره أن أمورو تُظهرُ الولاء لمصر؛ لكنها تتصل سرّاً بالحثيين وتستعمل الخابيرو (العفيرين) لتشكيل خطراً على جبيل⁽¹⁾، ويختم رسالته بقوله:

«الحرب علينا قوية جداً من أمورو، فليت الملك لا يهمل مدنه». وثمة رسالة من عزيزو وحاكم أمورو إلى أختاتون: «يا سيدي، لا تصغِ إلى الواشين الذين يغتابونني أمام الملك سيدي، فأنا خادمك».

الطريف في أمر المراسلات تلك الحالة الشعرية التي تنتاب الحكام، فحاكم جبيل «رب إدا»، يرسل إلى أختاتون واصفاً الاعتداء من أمورو على جبيل:

«حقلي بات مماثلاً لزوجة لا زوج لها؛ لأنه بلا حراثة. ليت الملك السيد يعلم أن مدينة جبلا الأمة الوفية للملك، منذ أيام آبائه بخير».

وحين يطفح الكيل بملك جبيل يرسل إلى أختاتون: «أيها الملك، أصغِ إلي وأرسل قوات محاربة لتحتل بلاد أمورو».

يبدو أن الملك المصري لم يكلف مصر عناء إرسال قواته، لكنه يوعز إلى حكام بيروتا (بيروت)، وصيدونا (صيدا)، وصورى (صور)، بدعم جبيل ضد أمورو. والحكام لم يستجيبوا لأوامر أختاتون.

وفي تصفح سريع للوثائق نعر على مناجاة لأهالي مدينة «إرقاتا» الشامية لملك مصر: «ليت أنفاسَ الملك لا تبتعد عنا سنسد بوابة المدينة حتى وصول أنفاس الملك إلينا».

(1) الخبيرو (العفيرين) مكون بشري لا أصل عرقي له، ويبدو أنه كان يرفض السيادة المصرية على مدن ساحل بلاد الشام. واستخدموا من قبل مملكة أمورو في إزعاج المدن الشامية الأخرى ومهاجمتها. كانوا يعيشون على الارتزاق وقطع الطرق ونهب القوافل. انظر: فاروق إسماعيل - المرجع السابق.

ويبدو أنّ حاكم جبيل «رب إدا» كان يستشعر الخطر المُحدق بمدينته من مدينة أمورو، وهذا ما دفعه إلى فائض مشاعر التبعية والخنوع للملك أخناتون. قال الحاكم:

«أنا خادمٌ وفِيٌّ للملك، وليس هناك خادمٌ مثلي لدى الملك. في الماضي لدى رؤية رجل من بلاد مصر كان ملوك بلاد كنعان⁽¹⁾ يفرون من أمامه، ولكنّ الآن أبناء عبدي أشيرة ملك أمورو يجعلون رجال بلاد مصر ينتقلون خلسة كالكلاب. الموت لي أفضل مما أراه».

وحين هجمت أمورو على جبيل أرسلَ حاكم جبيل رسالة إلى أخناتون: «من هو هذا الخادم الكلب حتى يقوم باحتلال مدن الملك نفسه، ويقتل الحكام؟! ليت الملك يهتم بحماية مدينته».

تُبدى تطورات الأحداث حالةً من اليأس انتابت «رب إدا»؛ ليرسل إلى أخناتون: «إذا كان الملك كارهاً مدينته فليتنخّل عنها، أما إذا كان الملك كارهاً إياي، أنا العجوز فليعزلني، أرسل أحد رجالك ليحميها».

ولعل المشاعر الجياشة لدى حاكم بيروتا (بيروت) تُجاه أخناتون توثقها رسالة تقول:

«قل للملك سيدي، شمسي، إلهي، هواء حياتي، هكذا يقول «عمونيرا» حاكم مدينة بيروتا خادمك وغبار قدميك، سيدي. لقد جثوت لدى قدمي الملك، سيدي، ألهتي، هواء حياتي سبعاً فسبعاً، أمر آخر، لقد أصغيت إلى كلمات رقيم الملك، سيدي، شمسي، ألهتي، هواء حياتي، وقد ابتهج قلب خادمك وغبار قدمي الملك، سيدي، شمسي، وألهتي، هواء حياتي، جداً جداً، عندما هبت أنفاس الملك سيدي، شمسي، ألهتي على خادمه وغبار قدميه». ويختم حاكم بيروتا رسالته: «ها أنا خادم الملك، سيدي ومسند قدميه».

وعلى النمط نفسه يُعبرُ حاكم صوري (صور) أبي ملكي لأخناتون: «أنا غبار من أسفل قدمي وحذاء الملك سيدي». ويبدو أن الشاعرية إياها فاضت من هذا الحاكم تجاه الملك المصري:

(1) المقصود ببلاد كنعان في مراسلات العمارة المنطقة الممتدة من خليج اسكندرون حتى غزة وبين وادي الأردن والبحر المتوسط.

(فاروق إسماعيل - 2010).

«هبت الأنفاس العذبة من فم الملك سيدي على خادمه فتحرّكت أنفاسه. قبل وصول رسول الملك، سيدي، ما كانت الأنفاس تتحرّك، مسدوداً كان أنفي، من لا يصغ إلى كلمات الملك سيدي فإن مدينته مدمرة، لن يكون له اسم في البلاد كلها إلى الأبد».

الحاكم «مايرزانا» حاكم مدينة خازي، جنوب غربي بعلبك، يرسل إلى أخناتون: «إن نُمْتُ، إن نحيا سنكون أسفل قدمي الملك، سيدي، شمسي، إلهي».

حاكم قادش «إيتكمّا» يقارن نفسه بحاكم دمشق «بيرياوازا»، في رسالة: «بيريا واذا تسبب في دمار بلادك كلها... أما أنا فخادمك إلى الأبد».

حاكم دمشق «بيرياوازا» يرسل إلى أخناتون خنوعه: «هكذا يقول خادمك غبار قدميك، موضع وطئك، كرسي جلوسك، مسند قدميك». وفي رسالة أخرى يقول: «من أنا؟، غاييتي الوحيدة هي أن أكون خادماً، كل شيء لدي يعود للملك».

واتجاهاً إلى شمال فلسطين نجد أنّ ملك حاصور يزغرد حين سمع نبأ زيارة أخناتون لبلاد كنعان: «عندما علمتُ بأن روح إله الشمس ستأتي إليّ... رحّت أبتهج أتفكر، وزغاريدي تنطلق وأقول لنفسي: حلّ الخير، والآلهة تطلعتُ إليّ».

وعلى الحال نفسه واللازمة الخنوعية نفسها يُعبر حاكم عكا ومجدو، لكن حاكم القدس «أورو سليم» «عبيدي خيا» يرسل إلى أخناتون: «أنا لست حاكماً؛ بل رجل مجند لدى الملك سيدي...».

وفي غرب مدينة القدس ثمة مدينة «جزري» حاكمها «أدا دانو» يرسل إلى أخناتون: «نظرتُ إلى هذه الجهة، ونظرتُ إلى تلك الجهة، فلم يكن نور، ثم نظرتُ إلى جهة الملك سيدي، فكان نور... قد تتحرّك آجرة من أسفل مثلتها الموضوعة فوقها وأنا لا أتحرّك من أسفل قدمي الملك سيدي».

وثمة حاكم لإحدى المدن الفلسطينية الجنوبية اسمه «يختيرو» يقول لأخناتون: «ها أنا ذا الآن أضع نير الملك، سيدي على عنقي وأجرّه». ونصل إلى حاكم مدينة «يورصا» «بو بعل»: «هكذا يقول بو بعل خادمك المشرف على حظيرة أحصنتك من هو الكلب الذي يتجاهل أمر الملك».

وأخيراً، ثمّة رسالة من أختاتون المتجاهل لمعظم رسائل مدن الشام إلى حاكم مدينة جزري يقول فيها: «أرسل ساقيات جميلات جداً، لا يكون في داخلهن علة، ليقول لك الملك سيدك: هن جميلات، وحسب الطلب الذي أرسله إليك».

مملكة أجاريت - رأس الشمرة⁽¹⁾:

من بين المدن الشامية في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م تبدو أجاريت على الساحل المشرقي، وربما هي الوحيدة التي حفظت ماء وجهها إلى حد ما، مع أن بعض رسائل الملك الحثي كانت تخاطب ملك أجاريت بالأمر كما في طلبه نجدة مدينة أور من مجاعتها وإرسال المؤمن لها.

صحيح أن بعض الرسائل إلى ملوك الممالك قوية الأقطاب الإقليمية كانت تحمل اللازمة السباعية من الانبطاح والتذلل، لكننا هنا مع مملكة مارست مسكّ العصا من المنتصف بما تقدر عليه وتبعاً للظروف السياسية والدولية آنذاك⁽²⁾.

(1) اعتمدنا في بحثنا عن أجاريت على مراجع ومصادر عديدة منها:

- دراسات أجاريتية- مجموعة مؤلفين- دمشق- 1988.
 - علي أبو عساف- نصوص أدبية من أجاريت - 2018 - وزارة الثقافة السورية.
 - صفية سعادة- أجاريت- 1982 - دار فكر- لبنان.
 - قاسم شواف- أخبار أجاريتية- 1999 - دار طلاس- دمشق.
 - اسحق شيفمان- ثقافة أجاريت.
 - مجتمع أجاريت 1988 - الأبيدية- دمشق.
 - بلاندين كير- أيوب- فيلا. النساء في أغاريت- 1990 - الأبيدية- دمشق.
 - مملكة أجاريت- مجموعة مؤلفين- 2018 - وزارة الثقافة السورية.
 - Ugartica- دورية تعنى بالدراسات الأجاريتية.
 - الحوليات الأثرية السورية 29 - 30 عدد خاص عن أجاريت.
 - عيد مرعي- تاريخ سوريا القديم.
 - هورست كلينغل- تاريخ سوريا السياسي.
 - مراجع أخرى.
- (2) صفية سعادة تذكر أنه من مجمل رسائل تل العمارنة، جاء ذكر أجاريت ست مرات فقط.

المدن ذات الوجه البحري دوماً يخلق الأفق لها مجالات الطموح والاستكشاف؛ كأنّ قدميها في الرمال وجسدها يراود الآفاق. كذلك موقعها يخلق تنوعاً إيجابياً وسلبياً، إن كان لجهة الاستراتيجية أو لهجة التجارة وتفاعلاتها الرحبية. وفق هذه المعطيات يمكن النظر إلى حضارة أجاريت التي استغرقت نحو مئتي عام وذوت.

في الأساس الوجودي للموقع: قدم الألف الثامن والسابع ق.م أدلة على استيطان بشري في عصر الزراعة، ويبدو أنه استمر صاعداً ونازلاً حتى فاعليتها التاريخية مع النصف الثاني من الألف الثاني ق.م. فأجاريت لم تصبح مدينة إلا في هذه الحقبة، والعوامل الدولية والمناخية والاقتصادية والتجارية هيأت لانبثاقها.

المزارعون الأوائل استقروا على تلة صخرية مليئة بأشجار الصنوبر، ترك المستقرون قطعاً صوانية، وأسته يُعتَقَد أنها من مدينة جبيل، ومقاشط وأجزاء من مناجل وطاسات من الحجر المصقول بالإضافة إلى آثار مشاغل للصوان. زرعوا آنذاك القمح النشوي والعدس والحمص والكتان، قطفوا الفستق الحلبي واللوز والتين والزيتون، وثمة دلالات على تربية البقر والغنم والماعز. والصيد حضر أيضاً كصيد الغزال والأيل الأسمر واليحمور والخنزير البري.

استقروا لتنبئنا معطياتهم عن بناء بيوت تتألف من غرفة واحدة، فالأرضية مغطاة بالكلس والجدران من حجر، وهناك زرائب للحيوانات. صنعوا الأواني من الكلس وصحوناً خزفية متقنة التقنية، الأوعية مشبعة بالكربون ومدهونة باللون الأحمر. تفننوا بصنع تماثيل صغيرة من الطين المشوي. وازدادت زراعة الشعير، واستؤنس نوع جديد من الماعز، وحضر الكلب مرافقاً. ونحو -4500 4000 ق.م استعملوا النحاس وصنعوا به مناقشاً ودبابيس، فتطورات التفاعل أثبتت نفسها، وأثبتت صلاتٍ مع مواقع أخرى. الفخار المكتشف ما بين 3000 و2000 ق.م يدل على علاقات مع وادي العاصي وفلسطين.⁽¹⁾

بلدة أجاريت في مطلع الفاعلية الأمورية وما قبلها بقليل، تحدثت وثائق إبلا في الثلث الأخير من الألف الثالث ق.م، عن هجرة قبائل أمورية من جبل بشري نحو مدن الرافدين والشام والساحل المشرقي. وكان اسم أجاريت آنذاك «ديدانو» يشير إلى اسم جبال أمورو.

(1) شيفمان، يشير إلى أن الاعتقاد الآن هو ظهور الفخار وتصنيعه في أجاريت يعود إلى الألف الخامس ق.م.

امتزج السابق باللاحق وامتلكت تلك البلدة الكبيرة علاقات مهمة مع يحاض خاصة مع ماري. والمنفذ التجاري لمدن العمق المشرقي كانت أجاريت الواصلة إلى جزر المتوسط آسيا/ كريت، وكذلك مع مصر وجبيل. مترجمون من ماري في أجاريت لعقد الصفقات وتبادل السلع مع كريت وجزر المتوسط، وزيارات لملوك وحكام منهم زمري ليم ملك ماري.

الحقبة الأمورية كانت عمقاً مهماً لأجاريت، كما كانت عنصراً مهماً للمصالح التجارية. وقبل ذلك حين كان ملوك المشرق يصلون إلى بحر أمورو بجيوشهم ويغسلون أسلحتهم فيه، كان الاستعراض على أشده، فقيل: إن شاروكين الأكدي اصطاد الدلافين في البحر. ووحده زمري ليم على خلاف يخدمون ليم وصل إلى الساحل المشرقي وأجاريت خاصة في مهرجان عاطفي مشرقي رافقه فيه ملوك المدن الشامية وحكامها.

طلّاع المدينة الأمورية كشفت وجود سور لها، والنسيج المعماري يمنح دلالة مهمة على تطور أخذ في التبلور. وتقنيات جديدة في صناعة المعادن مع الحالة الأمورية. حاكم أجاريت مؤسس السلالة الحاكمة «يقارو»، ثم ابنه «نقم أدد»، تقريباً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ق.م، والنصف الأول من القرن السابع عشر ق.م. ختم هذه السلالة استعمله ملوك أجاريت في عصرها الذهبي. والفاعلية الأجاريتية في منتصف الألف الثاني ق.م حلّت محلّ فاعلية جبيل في النشاط التجاري والمركزي. الدراسات تشير إلى أن الوجود في تل رأس الشمرة لم يكن منظماً بوصفه مدينة بل عاصمة، مركز سلطة تفرض سيطرتها على المحيط.

«صوفي كلوزان»، تتحدث عن أختام أسطوانية تعود إلى القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م، مصنعة من الهيماتيت في أجاريت، ولاحظت ارتباطها بالعالم السوري الشمالي، فنحن أمام مجموعة متجانسة تقنياً وأسلوبياً. وما تصل إليه هو أنّ ثمة سيطرة لمشغل حلب، أو أنّ ثمة أوغارتيين يعملون في حلب. الأختام في هذه الحقبة تمنح دلائل قوية على ارتباط بممالك المشرق وعلى منحنى منفتح وتطوري أجاريتي.

وفي نصف الألفية الثانية ق.م نلاحظ أنّ المدينة تميزت بكثافة في عملية البناء والإنشاء، فهناك بيوت متلاصقة جنباً إلى جنب لتكون أحياء تخترقها شوارع مستقيمة متوازية تتقاطع عمودياً مع شوارع رئيسة عريضة.

الجدير ذكره هنا أنّ أطلال أجاريت الحالية تعود إلى 1400 - 1200 ق.م، وأن ما استكشف من موقع هذه المدينة إلى الآن لا يتجاوز سدس مساحته. فمساحة مملكة أجاريت ما بين 3000 و3500 كم²، فيها قرابة مئتي بلدة وقرية، وتشيرُ بعض الدراسات إلى ثلاثمئة وخمسين قرية. وعدد سكانها في القرن الرابع عشر ق.م يزيد على خمس وعشرين ألف نسمة، ودراسات أخرى تقدر عددها بأربعين ألف نسمة⁽¹⁾.

«إيف كالفيه» و«كورين كاستل» يعتقدان أنّ عدد سكان المدينة من ستة آلاف إلى ثمانية آلاف نسمة حسب النصوص، وما عثر عليه من وثائق مسمارية يقدر بستة آلاف نص، منها ألف مدوّن بالمسمارية الأبجدية.

حياة أجاريت- الواقع السياسي:

قدر أجاريت منذ بدء فاعليتها أنّ تقع بين قوى كبرى؛ كالحوريين الميتانيين ثم الحثيين بالإضافة إلى مصر. وكلما خفّت حدة الصراعات بين القوى الإقليمية شرقاً وغرباً ازدهرت أجاريت، ولهذا نجد ازدهار أجاريت يتحقق عندما يحلّ السلام بين القوى المتصارعة، إن كانت حورية ميتانية مصرية أو حثية مصرية. يشهد على ذلك ما بعد توقيع معاهدات سلام بينهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بقيت مدن الجناح الشامي على تصارع مصالح فيما بينها، وقد عالجتنا هذا الوضع بالإضاءة على وثائق تل العمارنة.

استهلكت ممالك مدن الشام نفسها في صراعاتها وتبعياتها وتقلّتها بين الأقطاب الأقوى، وهذا ما أثر في العلاقات فيما بينها. أمكن تحديد ملوك أجاريت منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، حتى نهاية المملكة: «يقارو» مؤسس السلالة وابنه «نقم أدد الأول أو نقمادو» في مطلع الألف الثاني ق.م.⁽²⁾

عم اشتمرو الأول/ عم ثتمر/ عم استمري/ استمري الشعب 1370 ق.م.

(1) مملكة أجاريت كانت تعادل مساحة اللاذقية حالياً حدّها البحر غرباً، وجبل صفون (الأقرع) شمالاً، وسلسلة الجبال السورية شرقاً، ونهر السن جنوباً. ميّز الموقع وجود جدولين يمران من قرب التل: الشيبب في الشمال والدلية في الجنوب، يلتقيان غربي التل ليشكلا ساقية الفيض التي تصب في مدينة البيضا (مرفاً أجاريت). ترتبط مياه الجدولين بمعدل سقوط الأمطار. وساقية الفيض شكلت شاطئاً رملياً خفيف الانحدار يتيح سحب المراكب الشراعية والقوارب بسهولة.

(2) بينما يذكر قاسم الشواف في كتابه «أخبار أجاريتيه» أنّ يقارو هو ابن نقمادو الأول، نجد الدكتور علي أبو عساف في كتابه «نصوص أدبية من أجاريت» يذكر أنّ نقمادو هو ابن يقارو.

| | |
|------------------|---------------------------------|
| نقمد الثاني | 1370 - 1335 ق.م. |
| أرخلبا (أرهلبا) | 1335 - 1332 ق.م. ⁽¹⁾ |
| نَقَم عفا | 1332 - 1260 ق.م. |
| عم اشتمرو الثاني | 1260 - 1230 ق.م. |
| إبيرانو | 1230 - 1210 ق.م. |
| نقمد الثالث | 1210 - 1200 ق.م. |
| حمورابي | 1200 - 1185 ق.م. ⁽²⁾ |

التأثير العسكري لمملكة حوري ميتاني، لم يصل إلى أجاريت؛ إذ إنها منذ بداية عهدهما تقريباً في 1400 ق.م تزامنت مع معاهدة السلام بين حوري وميتاني ومصر، وهذا ما جعلها تزدهر وسط حضور حوري مهم فيها، دلت على ذلك الكتابات والنصوص.⁽³⁾

(1) أرخلبا حسب «بلاندين كير فيلا- أيوب»، حَكَمَ بين 1345 - 1330 ق.م، وتشير إلى أنه ذو أصل حثي مؤكد في كتابها «النساء في أجاريت»، ويشير «هورست كلينغل» في كتابه «تاريخ سوريا السياسي» إلى أنه لا أهمية خاصة للاسم الحوري لهذا الملك ضمن سلسلة الأسماء «السامية» الغربية لحكام أجاريت. كان هذا الملك يُكنى العداء للحثيين، ويبدو أنه رفض الزيارات السنوية لبيت الطاعة الحثية محملاً بالمال الواجب دفعه والهدايا. «أرخلبا» كان موالياً للمصريين، وهذا ما دفع الحثيين إلى إقصائه بأخيه «نقميا» الذي أصبح ملك أجاريت وموالياً للحثيين. قالت الوثيقة: «هكذا تكلم الملك الشمس مورشيلي، الملك الكبير، ملك حثي، أما فيما يختص بك، نقميا، ربما يختص ببلدك، فلقد أعدتكَ وأجلستك كملك على عرش أبيك البلد التي أعدتكَ إليها، وأنت نقميا وبلدك خدامي؛ لذا من الآن فصاعداً ستكون مخلصاً يا نقميا لملك الحثيين رئيسك».

- معطيات أخرى تقول: إنه بموت الملك شوبيلوليوما الحثي شجعت مصر على تمرد أجاريت على الحثيين، وتعرض أرخلبا للخطر فقام نقميا أخاه بقمع التمرد وخلفه بالحكم ووقع معاهدة مع الحثيين.
(2) قاسم الشواف- مرجع سابق.

بعض الدراسات تشير إلى أن تاريخ انتهاء حكم حمورابي بدمار أجاريت هو 1192 ق.م، وليس كما هو وارد في مؤلف الشواف.

(3) فيما يقارب 1370 - 1360 ق.م، نحن أمام كارثة حقيقة لأجاريت حين ضربها زلزال قوي، وملك جبيل «ربب أدو» يبلغ أمنحوتب الثالث ملك مصر بالخبر: «لقد دمرت النار قصر أجاريت، لقد دمرت نصفه، إذأ فقد زال نصفه». والمعطيات تشير إلى زلزال مدمر حمل معه موجة بحرية مرتفعة غطت مرفأ أجاريت (مينة البيضاء) وعلى إثره اندلعت النار في المدينة.

ملك صور أرسل أيضاً إلى ملك مصر: «النار قد ابتلعت أجاريت، مدينة الملك، نصف المدينة ابتلعتها النيران، النصف الآخر لم يمس».

استعملت اللغة الحورية في مجالاتٍ نوعيةٍ جداً كالتوليفات الموسيقية والمقاطع الغنائية في طقوس أجاريت، ودخلت في تراكيب كتابات ثنائية اللغة لمجموعة من الحكم الأكدية/ الحورية أو شعائر قرايين أجاريتية/ حورية. «جاك واليزابيث لاغارس»، يشيران إلى وجود شخصيات مهمة في بلاط أجاريت كانت تحمل أسماء حورية، ويعتقدان أن الحورية كانت لغة قسم من سكان أجاريت. (مملكة أجاريت- 2018).

الأهم هنا هو موقع أجاريت بين القطبين الحثي والمصري، رغم الضرورة الأجاريتية حين كانت تفصل الميتانيين عن مصر، ثم انضمت إلى الثورة السورية ضد مصر. وإثر معاهدة قادش بقيت أجاريت خارج مناطق النفوذ الحثية والمصرية، كلا القطبين كانا يسعيان إلى احتواء أجاريت، وكان الأكثر سعياً الحثيون، فاقترح هؤلاء في عهد نقمد أن تلحق أجاريت بالفاعلية الحثية لكن أجاريت عبرت عن حياديتها وتفكيرها بالأمر. كان الملك الحثي شوبيلوليوما حريصاً على احتواء أجاريت، لا سيما أن ثمة محاولات تمرد من قبل المدن الشامية ضده، فكتب إلى ملك أجاريت «نقمد الثاني»:

«إذا ما أصغيت أنت يا نقمد لكلمات الملك الكبير سيدك وبقيت أميناً له فإنك بذلك ستعرف النعمة التي سيغدقها عليك الملك العظيم سيدك».

وقعت أجاريت تحت النفوذ المصري في النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م، وابتداءً من النصف الثاني من القرن إياه وما بعده والت الحثيين.

بالمعنى العسكري الواضح لم تكن أجاريت تملك قوةً عسكريةً معتبرة، بل كانت مكتفية بجيش كما يقال: «على قدها»، ليس ثمة أسطولاً عسكرياً لها، مع أن بعض الوثائق تشير إلى نشاطات عسكرية لعدد من السفن تحدد الوثائق وجود حوالي 100 سفينة تجارية. ربما نميل إلى أنها تملك جيشاً محلياً لهذا حين تعرضها لمناوشات واعتداءات جيرانها الموالين لمصر، وعرض «شوبيلوليوما» ملك الحثيين لمعاهدة مع أجاريت التي لم تتردد في ذلك.

«شوبيلوليوما» ملك حثي يرسل إلى نقمد الثاني ملك أجاريت: «هكذا يتكلم الملك الشمس، قل لنقمد: بالرغم من أن نحاش وموكيش يحاربونني، أنت نقمد لا تخافهما ولتكن ثقتك بنفسك».

حافظت أجاريت وفق هذه المعاهدة على استقلاليتها، فامتلكت علاقات بمصر أيضاً ولكن دون معاهدة، بل اقتصرت على العلاقات التجارية. والدليل على العلاقات الحسنة

بمصر زواجٌ نقمد ملك أجاريت بامرأةٍ مصرية من أصل نبيل وليست من سلالة ملكية. ووُثِّقَ الزواج بقطعة فنية لإناء مصنوع من المرمر عُثِرَ عليه في أجاريت، النقوش تصف مراسم الزواج وثمة كتابات هيروغليفية.

الدلائل التي حتمت توقيع معاهدة السلام بين الحثيين والمصريين هي نتيجة بروز القوة الآشورية في الجناح الرافدي، بالإضافة إلى وجود طلائع شعوب البحر في معركة قادش تحارب الجيش الحثي، حين ذكرت قبائل لوقش / قشقش / يشويش، كل هؤلاء قطنوا آسيا الصغرى ماكرين / بابل مقابل الحماية الحثية لأجاريت، ووجبَ على الثانية أن تدفع سنوياً خمسمئة شاقل للحثيين⁽¹⁾، وعلى ملك أجاريت القيام بزيارة طاعة سنوية للملك الحثي محملاً بالهدايا.

توقيع الاتفاق الحثي / الأجاريتي، دفع أجاريت إلى اكتساب أراضيها التي احتلتها المدن الشامية المجاورة، حيث تم تعيين الحدود من جديد بإشراف حثي. الواجبات المفروضة أيضاً أن ترسل أجاريت الدعم والإعانات المالية في حالة الحرب، والأغذية وسواها في حالة المجاعة وتسليم المطلوبين.

الجدير ذكره هنا أن انسحاب مملكتي سيانو وأشناتو من التحالف مع أجاريت أساء إلى ازدهار الثانية، ما دفعها إلى طلب تخفيف الضريبة السنوية التي يجب دفعها للحثيين، حيث تم تخفيضها من خمسمئة إلى ثلاثمئة وخمسين شاقلاً، وكان ذلك في عهد مورشيلي الثاني ونقميا. وُقعت المعاهدة وبعد حين هجمت قوات مدينة موكيش ونيعي ونحاشي على أجاريت، وأُسرَ أتباع نقمد الملك. والوثيقة الحثية تقول: «هكذا يتكلم شوبيلوليوما الملك الكبير الملك الشمس ملك الحثيين، البطل: إيطورور ملك موكش وأدد نيراري ملك نحاش وأخيتشوب ملك نيعي جمعوا جندوهم ودخلوا أجاريت، وأسروا أتباع نقمد ملك أجاريت وفوضوا المدينة، فأتى نقمد ملك أجاريت إلى شوبيلوليوما يطلب مساعدته: «ليخلصني الملك الشمس الملك الكبير سيدي من أيدي الأعداء».

(1) كانت مملكة «أمورو» تدفع ثلاثمئة شاقل فقط. فكان على أجاريت أن تؤمّنَ هذا المبلغ الكبير بإنشاء ضريبة خاصة على جميع بلدات وقرى المملكة.

في المقابل: «نقصد ملك أجاريت شَكَرَ أبناء الملك والأمراء ووهبهم الفضة والذهب والنحاس ثم وصل إلى الاياخ أمام الملك الشمس، الملك الكبير سيده»⁽¹⁾.

المُلاحَظُ في تاريخ العلاقات الحثية الأجاريتية تذبذبُ الحالِ بين مدٍّ وجزرٍ لقرب الحثيين من أجاريت، وهذا ما دفع أجاريت إلى لعب لعبتها التاريخية في المحافظة على استقلاليتها.

موقفان لأجاريت يوضحان طبيعةَ هذه العلاقة، فحين قامت مملكة نخشي بثورة على الحثيين في زمن مورشيلي الثاني لم تهب أجاريت لدعم الحثيين بل التزمت الحياد، فعوقبت أجاريت بعد حين؛ إذ فصل الحثيون مملكة سيانو عنها وألحقت بكرميش. وموقف أجاريت الثاني تجاه الحثيين حين طلب الحثيون منها في زمن حكم ملكها «إيبيرانو» دعماً عسكرياً من أجل مقاومة الهجوم الآشوري، فتلكأ ملك أجاريت في إرسال الدعم.

وحين توسّع «سلمنصر الأول» في 1273 - 1224 ق.م، واصطدم بالحثيين اكتفت أجاريت بإرسال مساعدة مالية لا أكثر. وثمة موقف آخر، حين طلب ملك كركميش مندوب الملك الحثي من ملك أجاريت إرسال اللازورد إليه، فأرسلَ ملك أجاريت لازورداً مزيفاً (مسحوق مزجج). فغضب ملك كركميش على موظفه القائم على عملية الاستلام اسمه «طاغولينو» وطالبه بحسن سير هذه المبادرة.

يلاحظ هنا أنه بعد سنوات أصبح هذا الموظف الكركميشي الحثي في خدمة ملوك أجاريت، فقد حصل على ألقاب رفيعة ومركز مهم. سياق الوثائق يذكر رسالة من سفير أجاريت إلى ملكه:

«قلب الملك غَضِبَ بشدة وعليّ أنا وقع جام غضبه، عبّر عن غضبه موجهاً إلي هذه الكلمات: ألم يسخر مني هذا الرجل لقد جمع من سطح الأرض أحجار كامًا وجعلها تُحمل إليّ رجاء يجب ألا تفعل ذلك وألا تجمع أحجار الكاما وترسلها هكذا؛ لأنّ قلب الملك سوف يغضب عليك... وإذا ما جلبت اللازورد للملك سوف ترى أنّ الملك يصنع من أجلك أشياء حسنة».

(1) تمتع «شوبيلولوما» بكاريما خاصة مكنت التقييم من اعتباره رجل دولة مهم في حياة المملكة الحثية.

العلاقات السيئة بين مدن المشرق آنذاك مع ضعف القوة العسكرية لأجارت جعل أجارت توقع معاهدة حماية مع مملكة أمورو القوية⁽¹⁾، فالعلاقات بينهما كانت تشهد توترات حاسمة، وأجارت كانت تعاني عداء مملكة سيانو تجاهها، فاضطرت إلى دفع مبلغ سنوي لأمورو لقاء حمايتها.

د. سعادة، تشير إلى أنَّ الواقع السياسي فيما بين 1400 و1200 ق.م شهد مناوشات وعداوات بين مدن المشرق الشامية، فكانت كل مدينة تسعى إلى السيطرة على الآخرين محاولةً يائسةً لأجل البقاء، خصوصاً في عهد شوبيلوليوما الحثي، وهذا ما دفع الملك الحثي إلى توقيع معاهدات مع الحكام السوريين. «لم تفكر هذه المدن أبداً بالاتحاد أو تكوين إمبراطورية كبرى، وذلك يعود جزئياً إلى العالم الجغرافي؛ أي بمعنى آخر صعوبة الاتصالات بسبب عوائق الجبال. أما العامل الرئيسي الآخر فهو الرغبة التقليدية في الاستقلال، تلك الرغبة التي حافظت عليها هذه المدن طوال تاريخها. هذه المدن كانت بحاجة للحماية من بعضها البعض أولاً ومن ثم من القوى الخارجية التي سعت دائماً للسيطرة عليها»⁽²⁾.

عمق الثقافة الأجاريتية:

«لا تكن غير مبالي، اكشف له سرٌّ من الكتابة»⁽³⁾

القاع الثقافي لأجارت استندت إلى حيوتها التفاعلية الممتدة حتى أوائل الألف الثاني ق.م، بالعمق المشرقي ثم بعصرها الذهبي إلى مئتي عام في مجالها الحيوي التجاري، بوصفها مدينةً امتلكت وجهاً بحرياً يحملُ آفاق رحبية من التفاعل، ونحن نعلم دور التجارة في انتقال الأفكار وتفاعلها.

يلاحظُ «بيير بورديه» أنَّ أساطير أجارت بإقامتها معادلةً مدهشةً بين اهتمامات الفلاحين ومربي الماشية وأهل البحر، كل هذا أسهم في تعزيز هوية وطنية؛ لهذا قلنا: إنَّ فرادة أجارت في عصر تهالك مدن المشرق تحت أقدام الأقوياء، كان مقبولاً إلى حد ما، إلى حين بروز مركز مشرقي يعيد للمشرق تألقه وألقه.

(1) مملكة أمورو بعاصمتها سيميرا امتدت من طوروس شمالاً إلى طرابلس جنوباً، في فترة حكم ملكها «أزيرو» امتد نفوذها على الساحل المشرقي من جبيل إلى أجارت وسيانو.

(2) صفة سعادة - أجارت - مرجع سابق.

(3) تضرع من «لوجال لبيلا» صاحب مكتبة المثقف في أجارت، للإله من أجل تلميذ يتعلّم.

الفاعلية التجارية لأجارت بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب: مصر، وقبرص والعالم الإيجي، والحثيون. ومدن المشرق: موكيش، وأشناتو، وسيانو، وأمورو، وجبيل، وبيروت، وصور، وصيدا، والالاح، وقادش، وكركميش. كل هذا قدّم عوامل تفاعل يُذكَر بالمدن التجارية وخصائصها وشخصيتها، وهذا التبادل التجاري نجد صداه في تلك اللغات الثمانية التي حوتها وثائقُ أجارت:

لغات ولهجات مشرقية: السومرية- الأكديّة- الأجاريتية- الآشورية.

ولغات غير مشرقية: حورية- لوفية- مصرية- قبرصية مينيونية.

السومرية تظهر في الوثائق مرجعاً ثقافياً، استخدامها يُعبّر عن مستوى عالٍ لكتابها المؤهل جيداً. والأكديّة لغة المراسلات الدولية آنذاك، فنصف وثائق أجارت بالأكديّة لكنها لا تدلُّ على مكانتها في الحياة اليومية. والرسائل المكتوبة بالأكديّة البابلية تتجاوز مئة وخمسين نصاً، وتعدُّ ذات طابع رسمي.

الأكديّة كانت لغة القانون آنذاك في المشرق، فقد لوحظ أنّ ثمة رسائل لأشخاص ينتمون إلى أسرة واحدة مكتوبة بالأكديّة. الطريف هنا أنّ الأجاريتي الذي يكون خارج بلاده يلجأ إلى الكتابة بالأكديّة. التعبير بها أيضاً كان دليلاً على ثقافة وإطلاع رفيع. الأجاريتية لغة المراسلات المحلية والنتاج الثقافي الديني⁽¹⁾. ورسائل أجارت المكتوبة بلغتها قرابة مئة وثيقة، تشكل مراسلات خاصة محلية. والنصوصُ الدينيّة كتبت بالأجاريتية أيضاً: ميثولوجيا ونصوص سلوكية. والهيروغليفية لا تدلُّ على استخدام محليّ في أجارت لكنها استُعملت تعبيراً لهدايا مرسلّة، مئة من اللقى الأثرية حملت كتابة هيروغليفية.

الحثية قليلة الوجود في وثائق أجارت، ففيها أقل من عشرة نصوص. والحورية ذكرنا استعمالها في مجالات نوعية كتوليفات موسيقية ومقاطع غنائية في الطقوس الأجاريتية. القبرصية المينيونية قليلة وعددُ نصوصها لا يزيد على عشر وثائق مكتوبة بحروف خطية. واللوفية قليلة التمثيل في الوثائق.⁽²⁾

(1) اللهجة الأجاريتية تخلو من الحركات فيما عدا الهمزة (الفتح- الكسر- الضم)؛ لهذا كان على قارئ اللغة أو اللهجة هذه أن يعتمد رياضةً ذهنية للوصول إلى التشكيل اللازم في أثناء القراءة.

(2) نجد أن تعقد الوضع الألسني هنا يوازيه تنوع الكتابات مع نسبتها المتراوحة بين الكثرة والقلّة.

ما يلفت النظر والدهشة وجودُ نصوص ثنائية اللغة تنبئ عن مرونة الكاتب في إتقان الانتقال بين لغة ولغة أو كتابة وكتابة. والمشاهدات الثاقبة تشير إلى النتاج الفكري المحلي؛ كتب بالأجارية الأبجدية، كلائحة أسماء المدن والآلهة والحرف.

التقليد الميثولوجي الأجاريتي أساسه محلي⁽¹⁾. لا نُصدَم إنْ أطلقنا على أجاريت «مدينة الثقافة»، تشهد على ذلك مكاتبها وأرشفتها المتعددة، نحن أمام: مكتبة رفانسو ومكتبة المثقف لوجال لبيلا ومحفوظات رشف وأبو ومكتبة حي الخندق الجنوبي ومكتبتين إلى الجنوب من الأوروبول ومكتبة الكاهن الأكبر في حي المعابد.

تحضر في أجاريت أيضاً القواميس متعددة اللغات، والقواميس هذه شكلت أدوات أساسية لفك اللغات غير المفهومة. العمق المشرقي الثقافي نلتمسه في الثقافة الأجاريتية أيضاً، وكتب التنجيم تشابه التقليد المشرقي العام الذي يُعدُّ ميراثاً مشتركاً، الأبحاث تشير إلى انغماس كتبة أجاريت في التعليم الكتابي المشرقي الأقدم، بيد أنهم اهتموا بتأكيد الشخصية الأجاريتية.

في عهد نغمد الثاني 1370 - 1335 ق.م، شهدت أجاريت نهوضاً كتابياً وثقافياً مهماً، فالقواميس متعددة اللغات مثلاً نُسخَت منها نماذج مشرقية قديمة من السومرية أو البابلية، ويضاف عمود ترجمة بالأجاريتية والهورية. وثمة قطع عُثِرَ عليها تشمل أجزاء من الموسوعة البابلية الكبيرة باللغتين السومرية والأكدية، مصنفة في أربع وعشرين مجلداً تدعى «حار-را: هوبولو» مهياً وجاهزاً مع اسم الكاتب. هذه الموسوعة تضمنت تبويماً للأشجار والأشياء الخشبية والأدوات والأسلحة والسلال والأواني والمعادن والحيوانات وأجزاء الجسم، وكذلك المدن والنجوم ومجاري المياه والبيرة والفواكه والخضار ومنتجات الحليب.

الأصالة الأجاريتية في أنها تقاسمت مع مجموع المشرق القديم الثقافة المسمارية. وتعتقد بعض الدراسات أن انتشار الثقافة المشرقية الرافدية في أجاريت أسهم فيه قدوم كتبة بابلين وأشوريين إلى أجاريت. وكتبة أجاريت، حين إنهاء دراستهم، كان ينبغي عليهم أن يقوموا بدراسة النصوص الكبرى من الأدبيات المشرقية القديمة لا سيما الرافدية منها،

(1) نحن أمام ذهنية أجاريتية متميزة في مجالها الميثولوجي؛ إذ يكفي أن نرصد أساطير وآداب المملكة: «ولادة الآلهة»، قصيدة عرس القمر، قصائد بعل، بعل ويم، بعل وعناة، بعل وموت، بعل والعجل، بعل والحيوانات النهمة، نص رفائيم يختص بأرواح الموتى وغير مكتمل، ربما يذكر باستمرارياً للأرواحية من عصور أقدم. (ملحمة دانيال- كرت).

ثم يقومون بتأليف قطع مختارة حول الموضوعات الكبرى المعالجة في هذه المؤلفات: هشاشة المصير الإنساني والعظمة الإلهية ومقتطفات من ملحمة جلجامش وتقويم فلكي لأيام الحظ وأيام النحس بنبوءات تعتمد فحص أحشاء الحيوانات، وعثر على أكباد تنجيم مصنوعة من العاج ومكتوب عليها بالأجارية مقتطفات من أبحاث طبية.

ثمّة مقاطع أدبية أجارية أيضاً هي ترجمات أجارية لنصوص رافدية تؤكد أنّ الإرث المشرقي الرافدي لا يقتصر على مجرد استخدام لغة فقط؛ بل يشير من جهة أخرى إلى خلفية ثقافية مشرقية شامية، وفي هذا الشأن يمكن تتبع «النشيد الغنائي لأبطال العهود الغابرة» الأجاتية.

التراث الأجاتية يُناقش بأهميته من جانبين أيضاً: الجانب الأول: في المشابهات التوراتية التي انتحلت الإرث الأجاتية⁽¹⁾، كذلك في أنّ الذهنية الاعتقادية الأجاتية ألفت الضوء على الأساس الثقافي للديانات التوحيدية الحالية.⁽²⁾

الأبجدية الأجاتية التي توقفت عن التطور:

«الكتابة المسمارية شبه الأبجدية الأجاتية انتشرت خارج حدود أجات في فلسطين على وجه الخصوص، لم تصمد أمام منافسة الكتابة الفينيقية الخطية (جيبيل) لها فأزاحتها»⁽³⁾، ويتقاطع هذا الاعتقاد لإسحق شيفمان مع مقولة د. محمد محفل في أنّ هجوم شعوب البحر أوقف عملية تطور كتابة الأبجدية المسمارية الشمالية لمدينة أجات⁽⁴⁾. «التراكم الكمي يؤدي إلى التراكم النوعي والكيفي»، ومركز في مناقشة الانتقال نحو الكتابة الأبجدية المسمارية في أجات. وقد أشرنا إلى ضخامة العالم الكتابي فيها⁽⁵⁾، ومجمل هذه التفاعلات والتراكمات والخبرات ستؤدي حتماً إلى طفرة معرفية تؤدي إلى منعطف حضاري جديد.

(1) نفتح هنا كتابي الباحث إسحق شيفمان «ثقافة أجات» و«مجتمع أجات»، كذلك كتاب زينون كاسيدوفسكي: «الواقع والأسطورة في التورات» 1990 - دار الأبجدية- دمشق.

(2) انظر: بيير بودريه- هيدويج روييار نريزان- آرنو سيراندور- مملكة أجات- مرجع سابق.

(3) إسحق شيفمان- ثقافة أجات- ص 31.

(4) انظر: د. محمد محفل- دراسة «العربية لغة وكتابة».

(5) كان العالم الكتابي الأجاتية يعتمد نقل الخبرات والمعلومات والمعارف عبر الأجيال.

إبداع الأبجدية الأجاريتية آنذاك كان من نتاج أحد الكتبة الألمعيين حين تبنى إشارات مسمارية ليُعبرَ عن كلِّ صوتٍ من الأصوات التي تشكلُ الكلمات المتداولة في لغته. 29 إشارة صوتية مع تمييز الهمزة بالضم والفتح والكسر أضاءت الأبجدية طريق الثقافة الكتابية، وثمة اختصار للرموز المسمارية من 500 إلى 29 رمزاً. بعضهم يشير إلى 30 رمزاً. (د. عدنان البني - 2001).

نقدم الثاني ملك أجاريت يُكرِّم المبدع الأجاويتي مخترع الألفباء، ويطلب منه افتتاح مدرسة لتعليمها في عام 1365 ق.م، ويأمر بكتابة الملاحم الدينية بواسطة النظام الأبجدي الجديد، وأن يُعمِّمه.⁽¹⁾

الباحث «أبو عساف» يشير إلى أنَّ هذه الأبجدية الكنعانية كانت معروفةً في جميع أرجاء بلاد الشام، فقد عُثِرَ على عدَّةِ نصوص غير مهمةٍ في مدينة قادش وتل النبي مند، وفي كوميد (كامد اللوز في البقاع اللبناني، وطعنك وبيت شمس في فلسطين). والفارق الوحيد بين الخط الأجاويتي وخط هذه المدن أنَّ الكتابة الأجاريتية من اليسار إلى اليمين باستثناء بعض الرُّقم التي كتبت من اليمين إلى اليسار، أمَّا المواقع الأخرى فمن اليمين إلى اليسار.

أولُ نصٍّ أبجديٍّ معروفٍ في أجاريت أُخِذَ من فوقِ درجِ باب الدخول إلى القصر الملكي في أثناء التنقيبات. الأبجدية الأجاريتية أجاريتية النشأة والاستعمال، ثم استعملت في فلسطين. اكتشِفَ إلى جانب النص الأبجدي هذا، ونصٌّ آخر أبجدي يختلف ترتيب حروفه عن ترتيب حروف العربية الشمالية، ويتبع ترتيب الأبجدية العربية الجنوبية.⁽²⁾

إنَّ تأمل هذا المنعطف الحضاري الكتابي كان ينتظر بقاء أجاريت على قيد الحياة لاستكشاف الأبعاد الجديدة لتطور الأبجدية المسمارية؛ لكن بعد انتهاء أجاريت، كحال التقليد المشرقي في متوالياته الإبداعية، انبثقت أبجدية جبيل الخطية بعد مئتي عام تقريباً من موت أجاريت. هذه المولودة الجديدة (الأبجدية الفينيقية- جبيل) هي التي تلقَّفتها الإغريق واللاتين، ووُثِّقَ الأمرُ في أسطورة أوروبا قدموس.

(1) قاسم الشواف- مرجع سابق.

(2) قبل ذلك عشر على رقيم أجاويتي في بيت شمس في فلسطين يتضمن أبجدية مرتبة وفق العربية الجنوبية (الها لاهم. ومع هذا لم يُكتشَفَ في أجاريت أية كتابة عربية جنوبية.

عرّفنا أجاريت على النظام الأبجدي بالأبجدية الكنعانية الفينيقية التي اشتقت منه الأبجديات اليونانية ثم اللاتينية»⁽¹⁾.

أخيراً، تُعدُّ لغةً، أو لهجة أجاريت أقرب إلى اللغة العربية من شقيقاتها اللهجات الأخرى.⁽²⁾

يوميات أجاريّة:

نتوقع هنا حيويةً مدينةً شكلت عاصمةً لمملكة مهمة، ومارست التجارة بحدها الأقصى، والزراعة وفق إمكانات البيئة الطبيعية، فعلت وانفعلت، تفاعلت وتفاعلت مستندةً إلى عمق حضاريّ ضارب في الأصل. إنَّ استعراض محتويات الوثائق الأجاريّة ومعاينة اللقى يُقدِّمُ موسوعاتٍ معرفيةً لمجتمعٍ هضم ما يعترضه من عوائقٍ وحقق الوجود بغايته الحقيقية.

الحياة الحرفية امتلأت بالفخارين، والفخار المحلي في المملكة يشكل 99% من الفخار المكتشف، وثمة فخارٌ مستوردٌ من آسيا (قبرص) ومن اليونان المسيانية، وكمية قليلة من طروادة على الساحل الغربي للأناضول، كما نعث على فخار فلسطيني، فالمثاقفة دفعت حرفيي أجاريت إلى التفتن في تقليد فخاريات قبرص وإيجة المتطورة والتميزة.

«جان ايف مونشابير» يستعرض أحوال الفخار الأجاريتي: «مظهره الخارجي غير متقن بسبب النوعية الوضيعة للمواد المستخدمة، ولنقص نسبي في عناية فخاريي أجاريت الذين لم يسهروا على إخفاء العيوب التي يسببها احتواء الصلصال على نسبة عالية من المعادن، نلاحظ سطوحاً خشنة تحوي تعرجات كثيرة بسبب تركها خاماً أو لأنها مطبّنة بإمرار اليد الرطبة. أيضاً، الكؤوس والصحون مشوهة ومتعرجة، لا يمنع هذا طبعاً من وجود بعض القطع المعالجة بعناية أكبر لا سيما تلك الأواني المرسومة، بناءً عليه يمكن تصنيف القسم الأكبر من فخار أجاريت التشكيلي والنمطي في الفهرس المشرقي العائد لعصر البرونز الحديث، لا سيما الفهرس الكنعاني الشمالي الذي يميز المواقع المشرقية الواقعة على طول الساحل اللبناني الحالي وبشكل خاص جبيل، صور، صيدا، كذلك في السهل الساحلي شمال الكرمل وفي تلال الجليل حتى مجدو في الجنوب.

(1) مارغريت يون- مملكة أجاريت- مرجع سابق. تشير هذه المنقبة أيضاً إلى أنّ العالم التوراتي أخذ من الحضارة الكنعانية قسماً كبيراً من جذوره وأساطيره وأدبه الشعري استناداً إلى نصوص أجاريت.

(2) انظر: قاسم الشواف- مرجع سابق. علي أبو عساف- 2018.

بعض الأواني الخزفية التي حملت زخرفة مرسومة ومعقدة تشي بوجود مدرسة أجاجرية فنية بعيدة جداً عن الخط المفضل لدى رسامي الخزف المشرقيين⁽¹⁾. لفاليري ماتوايان وجهة نظر تتحدث عن الأشياء المصنوعة من الخزف ومن الزجاج ومن الفخار المدهون والأزرق المصري، تُشكل مجموعة استثنائية من عشرين ألف قطعة.⁽²⁾

الجدير ذكره هنا أنّ الخمر والزيت كانا يُخزنان في جرار فخارية تسمى الكنعانية⁽³⁾. وحتوت بعض الأوعية والأدوات نماذج فنية لأشكال ثيران تتصل بعبادة بعل، وتحتوي أحياناً أشكالاً أسود تدلُّ على صلة بالآلهة الحرب. والملاحظ أيضاً أنّ النشاطات الحرفية الملوثة كالدباغات والمصابع ومشاكل الفخار والتعدين التي تتطلب كثيراً من الماء، جاورت الأنهار والسواقي التي تحاذي التل من الشمال والجنوب، والأفضلية أنّ تكون تلك المشاغل في الجنوب الشرقي؛ إذ إنّ الريح الآتية من الغرب تسوق الأذخنة والروائح الكريهة نحو الريف.

في مجال المعادن استعملت المملكة النحاس والرصاص والذهب والإيلكتروم وهو مزيج طبيعي من الفضة والذهب، وكذلك الفضة والحديد. والحديد هنا حلّ محلّ البرونز في نهاية الألف الثاني ق.م⁽⁴⁾، وفي بداياته استعمل في الأشياء الدالة على الأبهة ثم خاض مجال الأدوات والسلاح. والبرونز الأجاجري كان يتركب من النحاس والقصدير والرصاص، فأطلق عليه الأجاجريون «الثلاثي / tlt». والنحاس المستورد من قبرص كان يُصنع في رأس ابن هاني، «بيروتي = الآبار»، كذلك حوى هذا الموقع مشاغل للعلاج⁽⁵⁾.

ومع أنّ مجتمع أجاجري ليس عسكرياً إلا أنّ الدفاع المحليّ عن المملكة استوجب تصنيع الأسلحة؛ كالرماح والسيوف والخناجر؛ فالمشهد الحرفي الأجاجري يقدم مجتمعاً

(1) جان ايف مونشايير - مملكة أجاجري - مرجع سابق.

(2) فاليري ماتوايان - المرجع السابق.

(3) خزن المواد في أجاجريت كالماء والزيت والنبذ والحبوب والدقيق ومشتقات الحليب، يتم في جرار كبيرة مصفوفة في مكان بارد أرضي وأحياناً مطمورة جزئياً في الأرض. انظر: آني كوبيه - المرجع السابق.

(4) كاتي كوب تحدثت عن عينات من الحديد المحضر بالصهر من خام الحديد، ربما كانت تنتج بالرافدين وشمال سوريا عام 3000 ق.م. (إبداعات النار).

(5) موقع رأس ابن هاني بيروتي يبعد عن أجاجريت 5 كم، أسسته أجاجريت للبلاط الأجاجريتي. احتوى على قصرين: شمالي وجنوبي، القصر الجنوبي كان يملك رصد النقل البحري لعلّوه، كذلك يتم الاتصال مع قصر أجاجريت بالإشارات. كان الموقع مقراً صيفياً لملوك أجاجريت. اكتُشِف فيه قالبٌ لصبّ سبائك النحاس. اجتاحت الموقع مع نهاية أجاجريت شعوب البحر، والمعطيات تشير إلى نشوء مجتمع سكاني صغير فيه استعمل فخاراً من النمط الميسيني. المدعو «سيناراتو» كان أجاجريتياً نشطاً في تجارة النحاس.

نشطاً ومبدعاً، «حرفيون يحولون المواد الخام المحلية أو المستوردة من بعيد: العاج من أفريقيا عن طريق مصر، النحاس من الأناضول وقبرص، الأحجار الكريمة من الهند»، إلى أشياء من أجل مجتمع المملكة أو لغاية التصدير إلى الخارج.⁽¹⁾

تقنيات العالم القديم حضرت هنا: المعادن الثقيلة والصياغة وتحويل المواد الشبيهة بالزجاج والنسيج والعاج والخشب. ووثائق المدينة تذكر: الفخارين وسباكي البرونز وصانعي القوس والسهم وبنائي البيوت وصانعي العجلات وسباكي الفضة وبناء السفن وصانعي الآلات الموسيقية ونساجين ودباغين⁽²⁾. إذاً، نحن مع أجاريت في واقع مدينة مُحصَّنة مسورة وبوابات وقصور ومعابد وأحياء سكنية ومناطق حرفية وأسواق.

وسكنوا:

إذا أراد الإنسان في أجاريت أن يغدو سعيداً ينبغي عليه أن يمتلك بيتاً خاصاً كحال المدن والبلدات جميعاً، وتتوقع في كل مدينة حالةً طبقيةً في نوعية البيوت السكنية وحجمها وتصميمها. وأجاريت لم تشدَّ عن هذه القاعدة المدنية الاجتماعية الاقتصادية. «إيف كالفيه» و«كورين كاستل» يتحدثان عن بيوت أجاريت التي هي كما أحيائها من الخليط الاجتماعي لسكانها⁽³⁾، فثمة بيوت كبيرة يرتبط سكانها بالسلطة الملكية والقصر، أيضاً هناك بيوت بلغت مساحتها 50 م²، حتى 350 - 400 م².

البيوت الكبيرة عامةً تتألف من طابق أرضي وطابق فوقه، وأحجار المدينة التي استعملت في إنشاء البيوت المتميزة جُلبت من مقلع «مقاة» الواقع في شمال شرقي التل. الطابق الأرضي مُصمَّمٌ وفق مبدأ الضوء والتهوية، وثمة بيوت لها باحة داخلية أو باحتان إذا كان البيت كبيراً، غرف هذا الطابق تُستعمل للتخزين، في حين أن الغرف التي إضاءتها أفضل تضمُّ نشاطاتٍ حرفيةً أو بيتيةً متنوعة. الفسحات الصغيرة التي تكون مكشوفةً تحوي بئراً

(1) الملاحظ أنَّ استيراد أجاريت عموماً اقتصرَ على الكماليات فحسب. فهناك كهрман البلطيق ولازورد بادكشان من أفغانستان الشرقية وعاج الفيلة من أفريقيا أو الهند. مع ملاحظة أنَّ واردات المدينة من الجناح الرافي كانت ذات طابع ثقافي. الخط التجاري مع العمق الشامي إلى الرافدين كاد ينطلق من وادي النهر الكبير (نهر رحبانو) ليعبر ممراً جبلياً يصل إلى وادي العاصي ثم سهل الفرات. وكانت إيمار محطةً للقوافل التجارية. في محاضرة للدكتور عدنان النبي ذكر أنه كان لأجاريت مراكب على نهر الفرات أيضاً. مع أنَّ صناعة العاج ازدهرت في زمن فاعلية أجاريت كما في مواقع شامية أخرى بما فيها مواقع فلسطين.

(2) اسحق شيفمان - مرجع سابق.

(3) إيف كالفيه - كورين كاستل - مملكة أجاريت - مرجع سابق.

أحياناً، وربما هناك جرن كذلك. بعض البيوت مُزوَّدة بأماكن للأكل والشرب، وكذلك حوت بعضها معاصرَ للزيت وحجارة طحن وهوواين. بعضُ الفسحات في البيت لوحظَ أنَّها مسورةٌ لغاية زربِ القطيع من حيواناتٍ أو البط. والجدران الخارجية للبيوت عامةً مكسوَّةٌ بطبقة ترابية. الطابق العلوي كثيراً ما يحتوي على غرف الطعام والنوم والاجتماعات الأسرية، وقد نجد مشغلاً حرفياً صغيراً أو نولَ حياكة. ويُفرَّشُ هذا الطابق ببسطٍ وفرشٍ ومخداتٍ وحُصر، وقد يحوي أيضاً صندوقاً وطاوله وبعضَ الكراسي.

سطوح هذه المنازل كانت فسحات للحياة، ويُعتَقَدُ أنَّ الناس كانوا ينامون في الصيف عليها ولتجفيف الأغذية ونشر الغسيل عليها. سقوف البيوت وغطاءاتها عُمِّرت من الخشب المغطى بالقصب والتراب المدكوك، والغطاء الطيني يُسوَّى بانتظام ويُجعل كتيماً بمدحلة اكتشفت عدة نماذج منها. وليصل الأجاريتي إلى الطابق الأعلى يمرُّ برواق المدخل الذي يقع إلى جانبه درج، ولوحظَ أنَّ هذا الدرج غالباً ما تعلوه غرفة صغيرة تستعمل مرحاضاً فيها بالوعة، وتُصرفُ المياه المستعملة في المنزل إلى الشوارع عبر أفنية أو مجارٍ تصبُّ مباشرة في الطريق العام أو في بالوعات. (ايف كالفيه- كورين كاستل - مملكة أجاريت).

بعض البيوت فيها أقبية جنازية تحت الأرض، نقول: بعض؛ لأنَّ ثمة موتى كانوا يُدفنون في مقابر خارج المدينة. الملاحظة هنا أنَّ الأقبية الجنازية يجبُ أن تنشأ مع تدمير البيت، حيث يقع القبر تحت غرفتين تتوسطان البناء، والغرفة الجنازية تُوضَع تحت أرضية غرفة واسعة حيث النشاطات المنزلية، وثمة دهليز تحت الغرفة يسمحُ بالوصول إلى القبر⁽¹⁾. مثل هكذا أقبية جنازية تُستعملُ لعدة أجيال، قال المشهد: يُفتح القبرُ وتدفعُ بقايا المدفون السابقة إلى قعر الغرفة الجنازية ليؤمَّنَ مكانٌ للميت الجديد الذي يُلَفُّ جثمانه بكفنٍ ويُوضَعُ مباشرةً على أرض الغرفة مع مرفقاته الجنازية⁽²⁾. مع الإشارة إلى مؤسسة «المرزح/ مرزيحو التي تُعنى بالطقوس عبر أخوية، تلك الطقوس الواقعة بين الحياة الدينية والحياة الخاصة»،

(1) لا بُدَّ من ذكر تقليد أجاريتي حين دفن الميت، فمن يكون مقتدرًا يستطيع استئجار نواحين ونواحات للبقاء وشد الشعر وتمزيق الثياب وإنشاد المراثيات على الفقيد.

(2) نصوص أجاريت منحتنا فكرة وجود تقديسٍ ما للملوك المتوفيين (نص رابيوما).

نحن نعلم أنَّ الكلمات المسبوقة بإشارة ان تدل على صفة الألوهة للاسم الذي يتبعها، ونعلم أنَّ الملك في أجاريت، كما في مدن المشرق، كان يُعدُّ وسيطاً بين الشعب وعالم الألوهة، وثمة طقوس ملكية مكرسة لاستمرار الحياة وخصوبة الأرض وضمان العدالة.

الأفكار الماورائية تصفُ استقبال الملك فيما وراء الحياة من قبل أجداده المباشرين الذين أصبحوا آلهة.

والأعضاء الدائمون في مرزicho هم اثنا عشر شخصاً. فالمشهد هنا اجتماعٌ طقسي تحت رعاية أحد الآلهة، حيث يُراقُ النيذُ على شرفِ الإله.

مجالات أخرى:

الثلاثية النباتية: الزيتون والكرمة والحبوب، هي ميزة للعالم المتوسطي ومنه أجاريت؛ لهذا يغلبُ وجود معاصر الزيت في المملكة، بدا أن لكلَّ 10 - 15 بيتاً معصرةً زيت. شكّل الزيت في حضارة المشرق خصوصاً الشامي ثم الرافدي، منتجاً طقسياً وشفائياً وغذائياً للإنارة والتداوي، كما أُعد للتصدير، والمعطيات تشير إلى أنّ سعرَ الزيت في أجاريت كان أعلى من سعر النيذ.

العالم الغذائي للأجاريتيين شمل لحوم الغنم والبقر والماعز، ولم يأكلوا لحم الخنزير. كانت الحيوانات الفتية تؤكَلُ وكذلك حيوانات ما قبل البلوغ بقليل. «ايمانويلا فيلا» تؤكد أنّ عدم العثور على عظام حيوانات بالغة أو معمرة؛ أي صالحة للتكاثر، يدلُّ على أنّ الحيوانات كانت تُربى في مزارع خارج المدينة⁽¹⁾. كذلك مارسوا خصي الثيران الفتية، والملاحظُ أيضاً بقايا أسماك قليلة ولم يعمدوا إلى صيد الطيور كثيراً.

نتائج الدراسات توصلت إلى 7000 قطعة من بقايا عظام الحيوانات في أجاريت، منها للأغنام والماعز، لكن الأبقار أكثر، والحمير والأحصنة قليلة جداً⁽²⁾ وعظام الكلاب نادرة، ولا أدلة على وجود خنازير. الوسط الطبيعي الأجاريتي حوى: الأيل الأسمر والخنزير البري والأسود والدببة والغرير والنمس وفرس النهر.⁽³⁾

التحليل العلمية والعملية تدلنا على استعمال السكان جلود الحمير والأحصنة في الدباغة والتجارة، كما استعملَ بعض أجزاء الحيوانات العظمية في الصناعات الحرفية كالتذكارات مثلاً، وتلمس هذا في قرون الأيائل وعظام أرجل وفكي الأسد، في حين حضر جلد الدبِّ للتباهي. وفي السياق، كانت القرابين تشتملُ على خراف وثيران وطيور، ونحن نعلم أنّ الأضحى في معتقد المشرقيين هي طعام الآلهة، هنا في أجاريت الكمية الكبيرة من الأضحى كانت تُوزعُ على السكان أيضاً. المشهد هنا: ملك أجاريت محاطٌ بالكهنة لتقديم

(1) انظر: ايمانويلا فيلا لمزيد من الأفكار. مملكة أجاريت- مرجع سابق.

(2) بعض المصادر تشير إلى أن تربية الخيول والمتاجرة بها كانت رائجة رغم ذلك، وكانت الأحصنة غالية الثمن.

(3) الدلائل تتحدث عن اصطيد فرس النهر قرب المدينة للمتاجرة بعاجه.

القرايين للآلهة في الأعياد الدينية ورأس السنة بالحثم⁽¹⁾. الملك لا تتسَخُّ يده بالدم فهي مهمة الكهان؛ لكن الملك يُلوِّحُ بسكين الذبح مُطلقاً لحظةً بداية الطقس المُقدَّس.

في منحى آخر عامَّةُ الناس الأجاريتيين استعملوا القدور والطناجر الطينية للطبخ، والأثرياء هم فقط الذين استعملوا أدوات طبخ معدنية. حضور الزيت في مصابيحهم أثار ليلهم، والمصابيح هنا كؤوسٌ صغيرة من الفخار المحليّ تقصُّ حروفه قبل الشئ لتشكّل منقاراً يمر منه الفتيل.

نام الأجاريتيون وأكلوا على الأرض، ونعتقد أنَّ بيوت الأثرياء اشتملت على طاولات وكراسي. كاتب أجاريتي كان يعمل لدى البلاط القبرصي يطلب هذا الكاتب من ملك أجاريت الإيعاز بإرسال طولة وأربعة مقاعد من نوعية جيدة، هذا الأمر يدل على استعمال هذه الأدوات والتجهيزات في أجاريت.

وشوشة أخيرة عن يوميات أجاريت: كان ختانُ الذكور شائعاً ويتم من قبل الآباء. أما الابن العاق المحروم من الميراث فينبغي أن يغادرَ منزل أهله خالي الوفاض بعد أن ينزع ملابسه «ويضع جلبابه على القفل ويذهب في الشارع». (النساء في أجاريت). ومن جماليات أدب المراسلة حين ترسلُ الملكة الحثية «بودوحبا» رسالةً إلى ملك أجاريت:

« إِنَّ الآلهة تسأل عن صحة بلدك».

استنتاجات حضارية:

تميز الجناح الشامي من الشرق بالبُعد المتوسطي المدتيрани، لاشتماله على ساحل بحري يربطه بعوالم أخرى، هذا الأمر وشَّح بلاد الشام بصفة مدتيرافية، بالإضافة إلى المدن

(1) غالباً ما تُقدِّم الأضحاحي في الشهر القمري خصوصاً حين يصير القمر بداراً وهلالاً. الاحتفالات تدوم إلى أسبوع، ويحلُّ الطواف بين معابد المدينة معبداً إثر معبد، خصوصاً معبد بعل ومعبد دجن. النصوص الميثولوجية الأجاريتية تعتقد أنَّ الآلهة تحتفل أيضاً بالأعياد، حيث تكون جالسة إلى طاولات الولائم، وتمتلك من أجل الليل أسرةً قابلة للتفكك. (آني كوييه- مملكة أجاريت). المشهد يحمل أجواءً موسيقية وإراقة النبيذ واستعمال الزيوت العطرة والبخور، وعلى هامش الأضحاحي الأدبيات التاريخية تتحدث عن تقديم أضحاحيات بشرية كبرى وقت الملمات والشدائد والأخطار الكبرى. «دونني باردية» يتحدث عن نص من أجاريت يشير إلى تقديم أضحاحية بشرية: «حينما يهاجم قوتي بوابتك، ويهاجم محارب أسوارك، ترفع عينيك نحو بعل لتقول: يا بعل! عهد أن تطرد القوي عن بابنا والمحارب عن أسوارنا، فسوف نقدم لك أضحاحية ثوراً ونذراً يا بعل، سوف ننفذ، وأول مولود سوف نُقرَّب». (مملكة أجاريت).

الساحلية الأخرى، نجد أدوات تفاعلها لاحقاً في الحقبة اليونانية والرومانية خاصة، هذا أولاً، والشيء الآخر التوافقية الحضارية عبر العصور حتى الآن في المشرق. هنا في أجاريت استطاع الباحث جبرائيل سعادة أن يرصد أسماء بلدات وقُرى في محافظة اللاذقية ما زالت تحمل أسماءها الواردة في رقم أجاريت، حيث تمكَّن من تحديد 1263 مدينة وقرية ومزرعة موجودة في محافظة اللاذقية حالياً، وردت أسماءها في رقم أجاريت آخذين بعين الاعتبار بعض التحويلات في اللهجات تبعاً لدخول اللسان العربي بعد اللسان الكنعاني والآرامي.⁽¹⁾

| الاسم الوارد في نصوص رأس الشمرة | الاسم الحديث |
|---------------------------------|--|
| 1 (مغريت) | (مغريط) 4 كم شرقي رأس الشمرة. |
| 2 (خر صبع) | (خرصبو) 6 كم شرقي رأس الشمرة. |
| 3 (شاميا) | (شامية) 5 كم شمالي رأس الشمرة. |
| 4 (جنائنا) | (جنائنا) 4 كم جنوبي شرقي رأس الشمرة. |
| 5 (لبنا) | (عين اللبن) 9 كم شرقي رأس الشمرة. |
| 6 (دامات) | (الدامات) 12 كم شرقي رأس الشمرة، أو (الضامات) على الساحل 15 كم، شمالي رأس الشمرة وبالقرب من تل أثري يحمل اسم تل الضامات. |
| 7 (زارين) | (زغرين) 18 كم شمالي شرقي رأس الشمرة. |
| 8 (شراشر) | (شرشار) 10 كم جنوبي شرقي رأس الشمرة، أو (شراشير) 4 كم شمالي شرقي جبله. |
| 9 (فيدي) | (فديو) 13 كم جنوبي شرقي رأس الشمرة، يوجد في القرية تل أثري. |
| 10 (قمي) | (قمين) منطقة الحفة. |
| 11 (سكنا) | (سكانيو) 11 كم شمالي شرقي جبله، أو (سكينة) 10 كم شرقي جبله. |

(1) الحوليات الأثرية السورية 29-30.

| | | |
|----|-------------|--|
| 12 | (متن) | (المتن) 17 كم شمال شرقي جبلة، أو (المتن) 5 كم غرب الحفة. |
| 13 | (غانبي) | (الغينو) منطقة القرداحة. |
| 14 | (عمرته) | (عمرته) 10 كم شمال شرقي جبلة. |
| 15 | (قرط) | (قريطو) منطقة جبلة. |
| 16 | (بلي) | (بيلة) منطقة جبلة. |
| 17 | (ملكو) | (عرب الملك) على الساحل جنوب جبلة، في القرية تل أثري. |
| 18 | (معر) | (معرين) منطقة جبلة. |
| 19 | (خفّو) | الحفة. |
| 20 | (مصب) | (مصبايا) منطقة الحفة. |
| 21 | (يرث) | (يرته) منطقة القرداحة. |
| 22 | (عنكي) | (العناقية) منطقة الحفة. |
| 23 | (بير) | (بيرين) منطقة الحفة أو (البور) منطقة القرداحة. |
| 24 | (حبش) | (حبيس) منطقة الحفة. |
| 25 | (كنفي) | (كنفة) منطقة الحفة |
| 26 | (آر) | (آره) منطقة الحفة. |
| 27 | (بصر) | (وادي باصور) منطقة الحفة، أو (باشورة) منطقة الحفة. |
| 28 | (قمند) | (بيت قمند) منطقة اللاذقية. |
| 29 | (بقعة) | (بقعة) منطقة الحفة. |
| 30 | (شلمي) | (سلمي) منطقة الحفة، أو (عين سليمو) منطقة الحفة. |
| 31 | (خنرو ريدا) | (عين الخنزير) منطقة الحفة. |
| 32 | (خيمولو) | (همتلي) قرب البدروسية على الساحل. |

أخيراً، اللفظ الأدق لأجاريث: «وَجَرَّتْ» أو «أَجَرَتْ». (قاسم الشواف 1999).

موت أجاريت. 21 كانون الثاني 1192 ق.م!

تشابكت المعطيات وتداخلت حول موت أجاريت المفاجئ، والمشهد المحتمل والمتوقع ضربته مناخ بعيدة فاجتياحٌ غريب وزلزلاً أثروا في الطبيعة المناسبة للحياة الأجاريتية. في الإقليم الشرق أوسطي كان الوضع مؤسفاً في احتضار المملكة الحثية بفعل المناخ الجاف مما دفعها إلى تسول القمح من مصر ومدن سوريّة، فالقضية قضية حياة أو موت.⁽¹⁾

وصفت أجاريت ما حدث: غَضِبَ بعل صفون، وفتح لأمطاره نوافذ السماء. المياه تجرف كل ما يعترضها حتى القصر الملكي، نهرا المدينة خرجا بعنف عن مجرييهما وغمرا الحقول المزروعة، اقتحمت المياه الأحياء والأسواق، وأهالي المدينة يتضرعون لایل كي يكبح جماح بعل: «رجاءً إلى ايل، إلى تمثال ايل، ايل اسرع، ايل تعال لإعانتنا! بعل صفون اجتاح كل شيء».⁽²⁾

نطالع رسالةً من ملك مصر «مرنتاح» عُثر عليها في مكتبة «أورتينو» الأجاريتية: «شحنات من الحبوب المرسلّة من مصر للتخفيف من المجاعة في أجاريت». أيضاً ثمة رسالةً من أحد ملوك أجاريت ورد فيها: «معي هنا الوفرة تحولت إلى مجاعة».

الأبحاث الحديثة والمعاصرة لأحوال المناخ في المواقع الشامية تثبت حصول جفافٍ حادٍّ كانت أسبابه كامنةً في الصحراء الكبرى وتجاه الريح نحو الشمال.⁽³⁾

(1) تقع حاتوشا العاصمة المقدسة للحثيين على المنحني الكبير لنهر هاليس، مشهد عام من الغابات والممرات العميقة. ليس ثمة أراضٍ مهمة للزراعة، هذا ما يعزوه بعضهم إلى سبب التوسع الحثي نحو سورية. «براين فاغان» يشير إلى أن سورية كانت سلة خبز الحثيين. بصرف النظر عن طرقها التجارية المربحة، وجفاف عام 1200 ق.م ضرب الأناضول ووصلت ملامحه وتأثيراته حتى بابل وأشور وإن كانت بمأساة أقل، وأجاريت عانت أيضاً ولكن أقل من الأناضول.

(2) أخبار أجاريتية- مرجع سابق.

(3) الأبحاث المعاصرة أيضاً قدمت أدلة على تعرض اليونان ومنطقة بحر إيجه وشرق المتوسط لسلسلة من الزلازل، بدأت في 1225 - 1175 ق.م. أطلق على هذه الظاهرة اسم «عاصفة الزلازل». الأخبار آنذاك من مناطق إيجه تواردت عن خراب في معظم مدن المنطقة، والنشاط الزلزالي إياه انسحب على مناطق شرق المتوسط في مواقع عديدة: طروادة وحاتوشا وأجاريت ومجدو وأشدود وعكا وإنكومي في قبرص، حتى إن وثائق مكتبة «أورتينو» أشارت في إحدى الرسائل إلى مجاعة اجتاحت مدينة إيمار على الفرات الأوسط في الوقت الذي دمرت فيه 1185 ق.م.

شخص في إيمار يعمل في شركة «أورتينو» التجارية يرسل إليه: «يوجد مجاعة في منزلك [يقصد منزلنا] وسنموت جميعاً جوعاً، إذا لم تصل إلى هنا سريعاً فسنموت نحن أنفسنا من الجوع، لن ترى نفساً حية في بلادك».

«ديفيد كانيوسكي» و«إليز فان كامبو» و«هارفي وايس» أجروا أبحاثاً في تل تويني شمال سورية (جيبالا القديمة)، فدرسوا حبوب لقاح مأخوذة من رواسب طمي بالقرب من الموقع، وكانت النتيجة أدلة على فترة جفاف شديد وانعدام الاستقرار في المناخ.

الظروف المناخية الأكثر جفافاً في الحزام المتوسطي السوري حدثت في أواخر الألف الثالث عشر، وأوائل الألف الثاني عشر ق.م، واستمرت حتى القرن التاسع ق.م. ولتوسيع الدائرة مضى «كانيوسكي» إلى قبرص نحو نظام البحيرات الشاطئية هناك، فحصل على حبوب اللقاح، وبالمعالجة والدراسة أمكن تمييز تغيرات بيئية كبرى وقعت فيما بين 1200 و850 ق.م.⁽¹⁾

التصورات المبنية على الدراسات تقول: 300 سنة من الجفاف سببت تلفاً وندرة في المحاصيل، وحلت المجاعة، وُيبي على ذلك جملة من الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية، وحركات انسياح بشري إقليمي في المثلث الايجي الأناضولي الشامي، والشمال الأفريقي أيضاً.

التأثيرات المناخية في فلسطين نقاربهها في أبحاث «براندون دريك»، الباحث قام بدراسة الرواسب المعدنية (الترسبات الكهفية) داخل مغارة سوريك في شمال فلسطين.

والنتائج هي معدل مطري سنوي منخفض في فترة الانتقال من العصر البرونزي الأخير إلى عصر الحديد. «إسرائيل فنكلشتاين» و«دافنا لانجوت» و«توماس ليت» اختبروا أيضاً جسيمات حبوب اللقاح الأحفوري من عينة لب بطول 20 متراً استخرجت من رواسب في قاع بحر الجليل، والنتيجة هي جفاف شديد بدأ نحو 1250 ق.م، جنوب الشام وانتهت في 1100 ق.م. يذكر «كلاين» أن نصاً أجاريتياً يذكر مجاعة حلت مع الجفاف جعلت الناس يتضورون جوعاً وحدثت اضطرابات مع صورة موجات نزوح وأعمال تمرد وغزو.

إلى الشمال عند حاتوشا يقوم حاكم جنوب الأناضول «كورونتا» باقتطاع ممتلكاته من الدولة الحثية، وجراء ذلك تفقد حاتوشا ميناءها الرئيس للقمح في «أورا» عند كليكيا. فحين استنجد الحثيون بمصر أرسل «مرنتاح» ملك مصر شحنة حبوب «لتبقى بلاد خاتي على قيد

(1) انظر: كلاين- انهيار الحضارة 1177 ق.م.

الحياة». والملك الحثي طلب من ملك أجاريت إرسال شحنة كبيرة من الحبوب تعادل 200 مكيال / ما يقارب 450 من الأطنان المترية.⁽¹⁾

نتيجة التنقيبات في مدينة البيضا في ميناء أجاريت عُثر على 80 جرة تخزين كنعانية على حالها، كذلك طلب سفن أجاريت من أجل حمولة قمح من مدينة موكيش إلى الحثيين. هنا نفهم: لماذا يقوم ملك أجاريت حمورابي بزيارة الطاعة والولاء السنوية للملك الحثي محملاً بالأموال والهدايا.

الجوع جراء الجفاف دفع شعوب البحر الجائعة نحو الأناضول والساحل المشرقي وعمقه قليلاً، ومصر وبقايا الجيوش الحثية المنهكة صدت الغزو أولاً، لكن الجائع لا يقاوم، فماتت حاتوشا بعد أن طلبت سفناً لنقل الجنود والحاشية الملكية بعيداً عن المكان. إذاً، التوازن الإقليمي اختلَّ وعمَّ اضطراب وجودي في مواقع الساحل المشرقي ومدن الشام ومصر وقبرص.

ملك الآشيا (قبرص) يكتب إلى حمورابي ملك أجاريت: «شوهدت سفن في البحر، حتى لو لم يكن ذلك صحيحاً، ابقَ حازماً فيما يختص بك. أين هم جنودك وعرباتك؟ أليست بالقرب منك؟ إن لم يكن الأمر كذلك فمن الذي يجعلك تعدو خلف العدو، احم مدنك بالأسوار، أدخل إليها جنودك وعرباتك وانتظر العدو بحذر».

كان ملك قبرص أيضاً قد عبّر عن امتعاضه من بحارة أجاريتيين راسين في قبرص، فسلموا أنفسهم إلى عدو. محفوظات «أرتينو» الأجاريتية ضمت رسالة من مسؤول في كركميش تقول: إن ملك كركميش كان في طريقه نحو أجاريت ومعه تعزيزات، وأن الأشخاص المتعددين المذكورين في الرسالة ومن ضمنهم أرتينو وشيوخ المدينة ينبغي لهم أن يحاولوا الصمود حتى يصلوا.⁽²⁾

(1) هذا الرقيم عثر عليه في فون الوثائق الأجاريتية؛ أي أنه لم يُؤرشف، وربما لم يصل إلى ملك أجاريت بعد. ملك أجاريت هنا يرسل السفن وجنوده وعرباته دون أن يذهب، يبدو أن ثمة خطأ اقترفه في إرسال تلك السفن. كما في رسالة أخرى قال الملك الحثي لحمورابي أجاريت: سفنك وأنت عليها، تعال لمقابلة الشمس سيدك، يعتقد لمواجهة الغزو البري والبحري لشعوب البحر.

(2) كلاين - مرجع سابق.

حين اقتربت سفن شعوب البحر من أجاريت حاولت أجاريت صدّهم⁽¹⁾، يقول حمورابي لملك قبرص: ها هي سفن العدو قد وصلت وأحرقت النارُ مدينتي، خرّيت وارتكبت سوءاً في بلدي، أبي لا يعلم أنّ جنودي وعرباتي في بلاد الحثي وجميع سفني في منطقة ليسيا ولم تعد إليّ حتى الآن. وهكذا فإن البلد متروك لمصيره، فليعلم ذلك أبي من الآن فصاعداً. نعم، سبع سفن عدوّة أتت وقامت بالتخريب، وإذا ما كانت هناك سفن عدوة أخرى في الأفق أعلمني بذلك بطريقة ما.⁽²⁾

قامت قيامة المدينة، والمشهد الاجتماعي الأخير اضطراباتٌ وفرغٌ من شعوبٍ جائعة متوحشة⁽³⁾، ابتهلتُ أجاريت:

« نذراً يا بعل

سوف نقدم ثوراً ذكراً

وذبيحة يا بعل، سوف نقدم

وليمة نذرية، أي بعل

إلى مقر بعل سوف نصعد

ويستجيب بعل لصلاتكم

إنه سيبعد القوي عن أبوابكم

والمقدّم عن أسواركم»

يذكر «كلاين» أنّ آخر الاتصالات الآتية من أجاريت تقول: «عندما وصل رسولك كان الجيش قد تعرض للإذلال ونُهبت المدينة، أُحرقَ طعامنا الذي كان في البيادر ودُمّرت أيضاً بساتينُ الكروم. لقد نُهبَت مدينتنا، أرجو أن تعرفَ ذلك، أرجو أن تعرفَ ذلك».

(1) الهجوم الأول لشعوب البحر قاومته أجاريت ودمرت أنساقيه الأولى وأحرقت سفنه أبو عساف - 2018.

(2) أخبار أجاريتية - مرجع سابق.

ريدفورد يشير إلى أنّ الأرشيفات الأخيرة لأجاريت تحكي عن اشتباك القوات الأجاريتية في القتال ضدّ عدو مجهول الاسم في جبال طوروس كحلفاء للحثيين.

(3) يشير «شيفمان» إلى أنّ «مرنتاح» ملك مصر أرسل إلى أجاريت حامية عسكرية للدفاع عنها ضد هجوم شعوب البحر، في محاولات لكسب احتوائها. انظر: ثقافة أجاريت.

والجدير ذكره أنّ من اختصَّ بمهاجمة أجاريت من شعوب البحر كان سبطاً «الشيكليش». وتتحدث «مرغريت يون» عن وجود عدة رؤوسٍ من السهام المنتشرة في أنحاء أطلال المدينة المدمرة والمهجورة.

يجدر الذكر هنا أنّ موجات شعوب البحر توالى، ويُعتَقَدُ أنّ رسالة حمورابي الأجاريتي إلى ملك قبرص تخصُّ الموجة الأولى وليس الثانية نحو 1177 ق.م، التي هاجمت مصر عام 1207 ق.م حين واجها «مرنتاح» ملك مصر. واللافت للنظر أنّ تاريخ سقوط أجاريت المفترض نحو 1192 - 1193 ق.م. أتى قبل مواجهة رعمسيس الثالث لشعوب البحر عام 1177 ق.م؛ ربما لهذا تخلو الوثيقة المصرية التي ذكرت المدن التي دمرتها شعوب البحر من اسم أجاريت.

مشهدٌ آخر: رقيم لم يصل إلى ملك أجاريت، عثر عليه عام 1946 بعد 3000 عام مكسراً إلى كسرتين. محتوى الرقيم يتحدث عن ظاهرة فلكية مهمة وربما نادرة. ويُعتَقَدُ أنّ الأجاريتيين الفرعين لجأوا إلى الحاكم ليسألوه عما سيحدث للمدينة جراء تلك الظاهرة الفلكية التي ربما تكون كسوفاً للشمس، ففحص المنجمون كبداً أعدَّ لهذه الغاية.

مجموعتان من المنجمين قاموا بالتنبؤ والتقصي، فوصلتا إلى أنّه سوف يحصلُ خطرٌ ماحقٌ للمدينة، وقرروا نقل الخبر للملك، فوقع الهجوم على أجاريت⁽¹⁾، ولم يصل الرقيم للملك؛ بل سقط عند بوابة القصر محطماً إلى كسرتين.

قال الرقيم:

«سادس يوم للهِلال

خير اسم شهر عربت كسفت

الشمس تغرها غابت واختفتُ

رشف الوباء، حل

(1) أطاحت غزوات شعوب البحر بمدن: الالاح وقادش وأمورو ورأس البسيط ورأس ابن هانى وكركميش وحاتوشا. وثيقة رعمسيس الثالث تقول: دمر هؤلاء - شعوب البحر - الأناضول وقبرص وشمال سورية وشواطئ الفرات واجتمع عسكريهم في بقعة واحدة بأرض أمورو، وجاء بعضهم براً على عربات تجرها الثيران ومعهم نساؤهم وأطفالهم، وجاء بعضهم الآخر على سفن حربية ووصلوا إلى دلتا النيل وقهرهم المصريون. لم تُذكر أجاريت.

الوجه الخلفي للرقيم:

فتحلن، استطلعت

سكن حالة، نار.

يشرح د. أبو عساف الرقيم: بعد غروب الشمس حل وباء أو ظاهرة فلكية، كسوف كَلِّي يوضح أن كارثة ستحل بالمدينة. العالمان «ديترش» و«لورتز» تحدثا عن كارثة حلت بأجارت يوم 21 كانون الثاني 1192 ق.م.⁽¹⁾

استنتاجات:

لم يحصل تدمير شامل لأجارت من هجوم شعوب البحر، بل حصل تدمير جزئي، ويبدو أن أجارت استطاعت استيعاب الهجوم بتسوية الأمور مع الغزاة، ربما بدفع مبلغ معين من المال وعدم مهاجمتهم. والحقيقة في رأينا أن هزة أرضية قوية أنهت أجارت وجودياً، بدليل أن تلك الشعوب الغازية لو استوطنت أجارت لتركت آثارها خصوصاً الفخار، كما ذكرنا في موقع بيروتي/ رأس ابن هانئ⁽²⁾، لعلَّ الرقيم السابق يوحي بظاهرة فلكية تبعثها هزة أرضية قضت على أجارت. لم تقم قائمة للمدينة بعد ذلك، كان الغزاة أكثر استقراراً في أمور، ومنها هجموا على مصر، إضافة إلى الإمدادات الجديدة من البحر لهم.

هنا تستوقفنا فكرة للباحث «رينهار جنج» مفادها أنه قبل الدمار واحتلال أمور من قبل شعوب البحر، وصلت مجموعات صغيرة من الناس بالسفن إلى تل الكزل واستقرت مع السكان المحليين، فقد تم التعرف على أوان فخارية ميسينية محلية الصنع، وتعرف المنقبون على دلائل لسكان جدد من منطقة إيجه وغربي المتوسط. (انظر: كلاين).

حين ضربَ المناخ - شعوب البحر 1200 ق.م:

ليسَ هناك شعب منذ التاريخ هاجر من تلقاء نفسه، وفي مناقشة أحوال المدن المهاجرة، يؤكد «فاغان» أن المدينة كيان دائم غير قابل للانتقال، ويقع بالكامل تحت رحمة الفيضان أو الجفاف، تحت رحمة ما كان السكان يعتقدون بأنه غضب الآلهة، وما نعرف نحن الآن أنه جزءٌ من سيمفونية لا نهائية لمناخ الكوكب.

(1) أبو عساف - 2018 - مرجع سابق.

(2) يشير اسحق شيفمان في كتابه «ثقافة أجارت» إلى تعرض أجارت لجفاف قاسٍ بسبب تعرضها لهزة أرضية.

في اللحظة التي ينتقل فيها الناس إلى المدن والبلدات، وإلى المستوطنات الأكبر التي لا يستطيعون الانتقال منها، والتي تعتمد على أراضٍ زراعية يديرها البشر، في هذه اللحظة يكون البشر قد عبروا عتبة تؤدي إلى استهداف مخاطر التغير المفاجئ في المناخ؛ أي الصيف الطويل.

حين نقارب تفاصيل غزوات شعوب البحر سنتلمس هجرات مسلحة مع عائلات وأطفال، قبل ذلك كنا أمام قبائل انساحت أو استقرت في الأناضول فاستثمرتها المملكة الحثية في حروبها خصوصاً مع المصريين في قادش.

ومنذ أيام ملك مصر «رعمسيس الثاني» ذكرت الوثائق صده لهجوم إحدى قبائل تلك الشعوب «شروانا»، ثم ما لبث أن ضمَّ مفرزة منهم قاتلت إلى جانب المصريين في قادش.⁽¹⁾ معظم ممالك العالم القديم القوية كانت تعتمد شراذم اجتماعية مقاتلة في جيوشها كدول العالم المعاصر، لكنَّ المُعطى العام أنَّ هذه الشعوب تألفت من تجمعات قبلية تحالفت لتتساح. والانسياح نجده سلمياً في البدايات على بلاد الحثيين خاصةً، لكنه، فيما بعد، أخذ طابع اجتياح عسكري أدى إلى موت حقبة تاريخية في الأناضول ومصر، على الرغم من انتصارها، والمشرق لتبدأ حقبة جديدة فيما بعد.

المشهد في عام 1200 ق.م تقريباً، هو عالمٌ من الانهيارات وفقد توازن دولي، فالدولة الحثية تنهار، والحضارة الميسينية تتفجر من الداخل، والمشرق يعاني أوقاتاً مؤلمة؛ آشور وبابل ومدن الشام، لكن المأساة تشهد عليها استغاثات المملكة الحثية لقضية حياة أو موت. لعبَ المناخ لعبته وهياً المشهد الدرامي جيداً، تحولت رياح الصحراء الكبرى نحو الشمال، أدى ذلك إلى قحط وجفاف في موطن الميسينيين وكريت والأناضول، ولم تنجُ مواقع المشرق إنما بتأثير أقل.⁽²⁾

جفافٌ خرَّب الزراعة الميسينية والحثية، ذكرنا بيئة حاتوشا التي تفتقد الأرض الواسعة الصالحة للزراعة، وهناك في الجزر الإيجية كما على الساحل الأيونني أرض وعرة ذات

(1) ريدفورد- مرجع سابق.

أيضاً، نحن نعلم تقنية التعدين المتقدمة جداً في كريت وغيرها من جزر إيجة، وهذا بدوره شكّل ميزة عسكرية مهمة في تسليحهم سواءً السيوف الطويلة أو التروس أو الخوذ أو الدروع الواقية للجسم.

(2) فاغان- مرجع سابق.

زراعات محدودة تطوقهما، الواقع الطبيعي المعاش في مواقع بحر إيجة يستطيع تحمّل عاماً من جفاف لكن الجفاف لأعوام عديدة يؤدي إلى انهيار كامل. الصادرات شبه معدومة مع الجفاف، فلا نبيذ ولا زيت الزيتون ولا أحشاب وفخاريات، حتى استيراد الحبوب خفّ، وإن كان ثمة مخازن، فقد نضبت. هُجرت الأماكن وتبعثر القوم في قرى صغيرة تصارع قدرها. تقول المعطيات: إن أربعة قرون حلّت كالوباء على تلك المدن والمواقع، وبقيت الذاكرة تتوارث تراجيدياً الانهيار. «ثيو سايدس» جنرال أثيني يكتب في القرن الخامس ق.م عن بلاد الإغريق الغابرة:

«بلا تجارة، بلا مواصلات في الأرض أو البحر، تزرع مساحة أرض لا تزيد عما تتطلبه ضرورات الحياة، محرومة من عاصمة لا تبني أي مدن كبيرة ولا تنجز أياً من أشكال العظمة»⁽¹⁾.

الجفاف الميسيني والكريتي هو ما سبّب أيضاً الدمار الحثي. مجتمعات اعتمدت الصيد وشنّ الغارات البحرية، ونشاط القراصنة هذا كان دائماً عبر الأزمنة ضد المدن الغنية والمواقع التي تنبأها بسفنها التجارية المملأى بالحبوب والأطعمة.

عانت تلك المواقع في مصر والساحل المشرقي حالات من القرصنة؛ لكنّها لم تكن أخذت بعد شكل اجتياح عسكري وعائلي، ولم تعان مصر احتلالاً بقدر ما عانته بلاد الشام. المناخ الذي حلّ جوع الحثيين فاستغاثوا، وقد ذكرنا ذلك سابقاً أنه قدّم الجائعون ليكملوا مهمة الإنهاء هم البليسييت والتكرو والشيكليلش والدانو والراشوش وغيرهم. واحتل صدارة تلك القبائل الغازية شعب البليسييت.

أصل الحكاية أنّه في عودة إلى نهايات القرن الثالث عشر ق.م كان ثمة ائتلاف شارك في إنهاء طروادة. طروادة تلك كانت قد تزعمت تحالفاً أيونياً ضد الحثيين. وحين ماتت طروادة جرت محاولات لإعادة توحيد التجمع الميسيني المتداعي تحت قيادة «كاريا» ليشكلوا تحالفاً فضفاضاً، فما لبث أن تحرك تجاه الشرق، وعلى امتداد الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، كانوا يصطحبون أسرهم باحثين عن ملجأ استقرار في سهول «سيليسيا» وشمال سورية. هذا التحالف الفضفاض أنهى الفاعلية الحثية وقبرص ومواقع في بلاد الشام⁽²⁾.

(1) فاغان- مرجع سابق.

(2) ريدفورد- مرجع سابق.

الوثيقة المصرية تقول: «عقدت البلاد الأجنبية اجتماعاً في جزرها، ثم انفجروا في كل اتجاه وانتشروا يصطرون مع كل البلدان في نفس الوقت، ولم يستطع أي بلد أن يصمد أمام أسلحتهم، بدءاً من خاتيا ثم قود وكركميش وأرزاوا وآشيا.. قضى عليها كلها في ضربة واحدة، وقد نصّب معسكراً في مكان ما في أمور و قاموا بإهلاك الشعب والأرض».

الجفاف إياه شَمَلَ ليبيا أيضاً، فتداخلت شعوب البحر مع الليبيين في محاولات غزو مصر، ورعميس الثالث ملك مصر يصد هجوماً بل الهجومات المتعددة، وجاء في الوثائق المصرية: «أكوام من الأيادي مقطوعة أمام الملك، تم إحصاء أعداد القتلى بما يزيد على ألفين، ثم تمَّ إحصاء من قُطعت أعضاؤهم الذكورية»⁽¹⁾.

بعد سيطرة شعوب البحر على أجاريت استقرَّ بعضهم في أمور، هنا شكَّلت المدينة معسكراً لتوسعهم وهجومهم. ويشار إلى أنَّ «رعميس الثالث» سمحَ باستيطان البليسيث في ساحل المشرق الجنوبي بين يافا وغزة، ربما أراد بذلك حماية مصر من غزوات أو أعداء جدد.

استوطن البليسيث في غزة وعسقلان واشدود وعقرون وجت، وبمرور مئة وخمسين عاماً كانوا قد اندمجوا في الواقع الكنعاني. وقبيلة «التكرو» استوطنت في الجنوب من جبل الكرمل الذي شكَّل حاجزاً بين كنعاني الشمال وهؤلاء، وبهذا أُخرج الساحل الفلسطيني إلى الجنوب من الكرمل من فينيقيا، وأطلق عليه اسم «فلسطين» نسبة إلى البليسيث. وباحتلال الرومان بلاد الشام، أُطلِّقت تسمية فلسطين على قسم من بلاد كنعان.

تأثيرات إضافية:

بفعل الاجتياح هذا فرغت بلاد الشام من تأثيرات القوى الإقليمية عليها، إلى الشرق في الجناح الرافدي تهيأ آشور للإمساك بمقود التاريخ المشرقي، وكانت قد وصلت بفعاليتها إلى كركميش سابقاً. محفوظات «أورتينو» في أجاريت فيها رسالة من آشور، ربما من «توكولتي نينورتا الأولى» إلى ملك أجاريت، تتعلق بالمعركة التي هزم فيها ملك آشور «توداليا الرابع» ملك الحثيين. كانت العلاقة بين آشور الصاعدة وأجاريت علاقات متبادلة، فقد صدرت

(1) فاغان- مرجع سابق.

أجارت إلى آشور الصوف المصبوغ والملبوسات المصنوعة من الكتان والزيت والرصاص والنحاس وأغراض مصنعة من البرونز.

في وصف الحالة السورية الشامية يقول «توينبي»: «لقد نكبت سوريا بسبب انسياح الشعوب نحو 1250 - 950 ق.م بدرجة القسوة نفسها التي نُكبت بها آسيا الصغرى وحوض البحر الإيجي، فالكارثة من حيثُ الدمارُ الماديُّ والتبديلُ في تركيب السكان لم يكن هناك أخف من هنا. وعلى كلِّ حال فقد عادت الحياة إلى سوريا الخراب المشترك الذي ألمَّ بالجميع بأسرع مما حدث في تينك المنطقتين، فقد كانت المدنية تضربُ جذوراً أعمق في سوريا قبل أن يصيبها انسياح الشعوب، وسوريا حتى قبل الثوران الذي عمَّ المشرق نحو عام 1250 ق.م بدأت تُظهرُ قدرتها الوطنية على الخلق»⁽¹⁾. مصر المنتصرة على الاجتياح تضعف شيئاً فشيئاً، تقريباً قبل عشر سنوات من الآن.

في عام 2012م فَحِصَت مومياء قاتل شعوب البحر «رعيميس الثالث»، وتبيَّن أنَّ حلقة قد قُطِعَ بسكين حاد أحدث جرحاً، وغرز في عنقه تحت حنجرته مباشرة نزولاً حتى الفقرات العنقية محدثاً قطعاً في القصبة الهوائية، وممزقاً كل النسج الرخوة في تلك المنطقة. «مؤامرة الحريم» في القصر أدت إلى اغتياله لتأمين العرش لابن شخصية نسائية ثانوية. ورُفِعَت قضية قانونية، وحوكم المتآمرون والمتآمرات فقتلوا، ولم يسعف الوقت «رعيميس الثالث» لمتابعة القضية، حُظ ودُفِن وإلى جانبه شاب مهمل الدفن يبدو أنه القاتل.

خرابٌ في مصر ناتج عن فيضانات، ونقص في المحاصيل، واضطرابات اجتماعية، وفساد يستشري، ومقابر ملكية تُنهب عن بكرة أبيها، فنقلوا الجثامين الملكية إلى مناطق آمنة.

نضبت إمدادات الذهب النوبي من الجنوب، فكانت ضربةً قاصمةً للاقتصاد المصري. ونحو 1087 ق.م، انقسمت مصر دولتين: دولةٌ عاصمتها طيبة، وأخرى عاصمتها تينس عند الزاوية الشمالية الشرقية لدلتا.⁽²⁾

«وين أمون» مُرسلٌ من طيبة إلى جبيل لجلب الأخشاب إلى مصر، فعامله ملك جبيل باحتقار ورفض أن يمنحه الأخشاب قبل أن يدفع الثمن ويطلب موافقة ملك تينس أيضاً،

(1) أرنولد توينبي - تاريخ البشرية - ج1.

(2) أرنولد توينبي - مرجع سابق.

فخاب وين آمون هذا الذي سبقته الخيبة في طريقه إلى جيبيل، حين مرَّ في مدينة «دور» الواقعة في جنوب جبل الكرمل، حيث سرق «التكرو» الذهب الذي معه.⁽¹⁾

في منتصف القرن العاشر ق.م قامت الأسرة الثانية والعشرون في مصر التي أسسها ملكٌ ليبيٌّ، سُمي زعماء هذه الأسرة بزعماء المشوش، ربما كانوا من بقايا الليبيين الذين استقروا في مصر إبان محاولات غزو شعوب البحر مصر أو قبلها.

انطوت صفحةٌ من التاريخ المشرقي محملةً بالمآسي والتراكمات الحضارية الإيجابية، والمناخ الذي ساد أفرعَ المُدُن من قوتها، وفراغ المدن سيحتم انسياحات جديدة مع معالم الهبوط المدني.

الآراميون انساحوا من منطقة جبل بشري وليس من شبه الجزيرة العربية واستقروا في بلاد الشام تدريجياً، والقبائل العربية من شمال شبه الجزيرة العربية على شكل جَوْلان ما يلبث أن يستقر رويداً رويداً في البادية ومحيط المدن الشامية رغم الضغط الآشوري على المكونين، في حين كان العبرانيون قد استقروا في بعض مواقع فلسطين، وإليكم القصة:

العبرانيون في المشرق:

«الستارة القديمة لا تصنع مسرحية جديدة»⁽²⁾

على الفرات الأوسط في موقع مدينة «دورا أوروبوس» نُقِشَ في معبد يهودي: «بني هذا المعبد في سنة خمسمئة وست وخمسين سلوقية تقابل السنة الثانية من تولي الإمبراطور فيليب»⁽³⁾

كتابةُ النقشِ آراميةٌ، هذا المعبد كان من سلسلة معابد أُنشئت في مدينة تجارية وعسكرية، ثمانية عشر معبداً لمعتقدات مختلفة؛ معبد يهودي، وكنيسة مسيحية، ومعبد مجوسي، ومعابد لرموز اعتقادية مشرقية أيضاً. نعتقدُ هنا أننا لأمسنا جوهرَ القضية، مشرقٌ متفاعلٌ لا تشهدُ وثائقُه على صراعاتٍ إثنية أو دينية، هذا المعبد الذي أقامه تجار يهود يدلُّ على

(1) الأنكى من ذلك أنَّ هذا المرسل المنحوس بعد خيبتين وعند عودته إلى مصر، تحطمت سفينته على ساحل قبرص عام 1075 ق.م تقريباً.

(2) المؤلف.

(3) فيليب ابن شهبأ في الجنوب الشامي، تولى العرش الروماني من 244 - 249م.

الخاصية الحضارية المنفتحة للمشرق، جاء تقريباً بعد 800 عام مما قيل: إنه سببُ مشرقِ رافديٍّ ليهود أو عبرانيين.

لم يعد ثمة جدوى من فتح الدفاتر والأوراق القديمة بعد الكشوفات الأثرية في مواقع المشرق، فوثائق المليون رقيم كفيلاً بحلّ المشكلة المعرفية، والكتب الدينية ليست تاريخاً، بل هي قصص عبرٍ ومواعظ، مع أنّ تلك الأسفار التوراتية التاريخية التي تُعدُّ ورقاً في تاريخ الخيال العلمي إلى حد ما.

من أين؟ إلى أين؟

منذ فجائع الثلث الأخير من الألف الثاني قبل الميلاد وحلول الفراغ المدني كان من الطبيعي أن يشهد المشرق تحولات دراماتيكية، منها ما خصّ الديمغرافيا، والقبائل المقيمة في البوادي في محيط المدن المتهالكة هبّت رباحها لتغتمها، والوافدون من شعوب البحر منهم من قُتل، ومنهم من عاد أدراجه ومنهم من استوطن كحال البليسيث في بلاد كنعان.

ضمن هذا الضباب التاريخي كان طروء العبرانيين إلى بلاد كنعان، التصورات هنا تراوحت بين المزاح العلمي والتخيلات، فبعضهم قال: إنهم جاءوا من شبه الجزيرة العربية، وآخرون اخترعوا قصة فصيل كنعاني تمرّد على منظومة مدن كنعانية واستقل في مناطق مرتفعة، وجاء من اعتمد النسق اللغوي القاتل في الدراسات التاريخية ليومئ برأسه أنّ العاييرو هم الخاييرو.⁽¹⁾

التوراة في سفر تكوينها أعادت كل شيء إلى مطلع الألف الثاني ق.م، إلى ابراهام/ إبراهيم الخليل الذي لم تسعفه الوثائق المشرقية ولا المصرية الغزيرة آنذاك بحقيقة وجوده، وبقي أمره طي الكتمان.⁽²⁾

(1) الباحث «ماك إيندي جونز» توصل بأبحاثه إلى أنّ عددَ العبرانيين الذين طرأوا إلى بلاد كنعان كان لا يزيد على عشرة آلاف شخص، في حين أنّ سكان مصر مثلاً كان عددهم يزيد على ثلاثة ملايين نسمة، وعدد سكان المشرق كاملاً نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة.

انظر: توفيق سليمان- مرجع سابق.

(2) معظم المعطيات تشير إلى أنّ إبراهيم ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، والحقيقة أنّ منذ ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد بقليل أصبحت الهوية الاجتماعية الحضارية في المشرق أمورية بالكامل ظهرت بعدة تسميات حسب المدن آنذاك (بابل، آشور، أكد، ماري، إبلا... إلخ) وعليه فنحن نعتقد أنّ إبراهيم عموري ونستند في ذلك إلى أن تارح والده من مدينة أور التي شهدت في نهاية الألف الثالث انهيار سلالتها السومرية لصالح الفاعلية

ثم تتابع قصص الخيال العلمي في سفر الخروج من مصر بقيادة «موسى»!، فوثائق تلك الحقبة غزيرة في مصر، ولم تذكر شيئاً عن ملحمة صحراء سيناء، وملك مصري يلاحق قاتلاً هرب مع قومه وتاهوا أربعين عاماً، ولم يدخل موسى بلاد كنعان.

الأمورية المنتشرة فيها وفي محيطها. ويشير الدكتور أحمد سوسة في مؤلفه «العرب واليهود في التاريخ» إلى أنّ أسماء أبرام ويعقوب ويوسف وحتى تسمية إسرائيل التي تعني يعقوب هي أسماء كنعانية/ عمورية أصيلة تعود إلى ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد، وهي أسماء روحانية مقدسة.

وكون أن مدينة ماري كانت العاصمة الحقيقية للأموريين في استقرارهم وارتحالهم في الألف الثاني قبل الميلاد وما قبله، فقد شملت مملكتها مدينة حران أيضاً. وقد أبانت وثائق ماري عن اكتشافات قلبت المعارف السائدة لجهة التسميات التوراتية لعصر الآباء، فقد حوت ووثائقها أسماء وردت في التوراة مثل: ناحور، تاراحي، ساروخي، تاليكي، وهذه الأسماء تتشابه بأسماء أقارب إبراهيم: ناحور، تارح، سيروح، تاليك. كما أن وثائق ماري تحدثت عن قبائل أيام/ رام، يعقوب- ادبل، وعن قبيلة تدعى بنيامين (بنو يمين) التي كانت تسبب القلاقل لماري واستطاعت ماري في النهاية أن تجذّ التفاهم معها طبقاً لمصالحها. ويبدو أنّ أسماء الآباء الأوائل الواردة في التوراة ليست إلا أسماء قبائل ومدن أسستها هذه القبائل، وأنّ إبراهيم نفسه وحفيده يعقوب وأصغر أبناء هذا الأخير بنيامين لهم علاقة مباشرة بأسماء هذه القبائل. ويشير كاسيدوفسكي، في كتابه «الواقع والأسطورة في التوراة» إلى أن القبائل التي سكنت أرض الكنعانيين في أيام إبراهيم تنتسب في أكثرها إلى الساميين الغربيين الأموريين.

هذا ما يمكن استعراضه من الوثائق الأثرية التي تختص بسيرة إبراهيم الخليل التي لم تقدم سوى رؤيا إيجابية عن شخصيته أساسها الرؤيا التوحيدية. لكن ما قدمه كتاب التوراة (الأسفار الخمسة الأولى) من معلومات تختص بعصر الآباء وإبراهيم بالذات يدفعنا إلى الوقوف بحذر تجاه تلك المعلومات التي جرى تحويرها وتشويه بعضها بما يناسب رغبة الأحرار اليهود وهدفهم الذين كتبوا التوراة في فترة السبي البابلي وما بعدها نحو منتصف الألف الأول قبل الميلاد. ويشير كاسيدوفسكي، إلى أنّ التوراة ظهرت في وقت متأخر من زمن إبراهيم وذلك بعد عودة اليهود من السبي البابلي، أي في الحقبة الواقعة بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد. وانطلاقاً من دوافع الأحرار الدينية عمدوا إلى تغيير التراث التاريخي التقليدي فحذفوا منه كل ما لم يتفق مع مصالحهم ورؤياهم وأضافوا إليه أفكارهم الخاصة، فالأحرار لم يكونوا المؤلفين الأصليين بل هم محررون اقتبسوا النصوص القديمة. وقد بين التحليل العميق للتوراة أن نصوصه تضم ثلاث طبقات واضحة، أول قسم منها كتب في القرن التاسع قبل الميلاد، وسمته الرئيسة هي أن مؤلفيه استعملوا كلمة الوهيم للدلالة على الله، بينما استعملت في النصوص التي ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد كلمة يهوه، وفي القرن السابع دمج القسمان في نص واحد، حيث نجد أنّ مؤلفي النص الجديد قد استعملوا كلمة الوهيم ويهوه بالتناوب. ويختم بالقول: لقد تناقل اليهود هذا التراث من لسان إلى لسان ومن جيل إلى جيل وأسهم الطابع الفولكلوري في نقل الروايات الحقيقية وتطعيمها بكثير من الخرافات والأساطير والأمثال. ويبدو أنّ الأحرار في فترة السبي الفالقيدين للأرض والمعانين عقدة السبي عمدوا إلى استعارة قصة إبراهيم الأموري وألصقوها بتاريخهم محققين بذلك هدفين:

الأول: إعادة تاريخهم إلى حقبة مطلع الألف الثاني قبل الميلاد بالانتماء إلى سلالة إبراهيم.

الثاني: ربط الأرض الموعودة فلسطين بوعد إلهي من يهوه لإبراهيم.

الثالث: الشخصية الإبراهيمية في التوراة شخصية لا تنتمي إلى روحية الأنبياء، حيث جرى إظهارها بمظهر سلبى لا يليق بنبي، وهذا يذكر بما قدمته التوراة عن شخصية نوح السكرية أيضاً.

طروء العبرانيين يؤرخ فيما يقارب 1250 ق.م، والتوصيف: «بدو رحل يخافون شياطين الهواء، يعبدون الصخور والماشية وأرواح الكهوف والجبال»⁽¹⁾. العقل العلمي الغربي بعد فكه الوثائق المشرقية تنبّه إلى أهمية الحقيقة العلمية، وهذا ما أرجع المرويات التوراتية إلى الرفوف لتحلّ محلها الوثائق التي كَشَفَتْ في النهاية أن المكوّن العبراني بطروئه في بلاد كنعان استلهم التراث الكنعاني ولغته وكتابته، وكل ألوان ثقافته وتقاليده؛ لأنه مكون بسيط ومتجول ينتمي إلى الثقافة البدوية.

وثائق أجاريت في أدبياتها وملاحمها وأساطيرها دلّت على مبلغ الانتحال العبراني من التراث الكنعاني، ثم يجيء أوان الحروب الآشورية والبابلية، والتقليد آنذاك سبي المهارات المهمة إلى بابل وأشور ونيوى، ويقال: إن أكثر من خمسين أرومة تعرضت لهذا السبي، وليس العبرانيين وحدهم، عقدة السبي هنا ضخمها العبرانيون لغايات أخرى. هنا اطّلع على التراث الرافدي الضارب في العمق الحضاري، وعمد الكُتّاب إلى تدوين توراتهم في أسفارها الخمس الأولى.

الصورة الآن وضحت، وكل ما في هذا يختص بعبرانيي المشرق، وليس بواقع سياسي حالي في فلسطين، فهنا شأن آخر يدخل في نطاق السياسية الدولية في تنظيم الكيانات وُقُوق مصالحها ومصالح إدارات غربية.

قلنا: العقل الغربي، فثمة جموح علمي مهمّ عما كان سائداً وُقُوق النظر بعين التاريخ التوراتي، ولم يعد بالإمكان العودة إلى الوراء، ماتت التفاصيل القديمة تحت أقدام وثائقٍ مشرقيةٍ.

لنستعرض إذًا:

«توماس طوسون»: «عندما يستقصي المرء تاريخ فلسطين بشكلٍ مستقلٍّ عن الرواية الكتابية (التوراتية) للماضي، فإنّ هذه الفترة تشي بدليل واهٍ عن نشوء إسرائيل الكتابية»⁽²⁾.

المعطى الأدق لدخول العبرانيين هو استيطانهم في الأماكن الفارغة خصوصاً الهضاب المركزية في فلسطين.

(1) ول ديورانت- قصة الحضارة ج 2+1.

(2) توماس طومسون- الماضي الخرافي - دار قدمس 2003 - دمشق.

«ألبرت ألت» يقارب استيطانهم: «هذه المناطق تقع في الهضاب البعيدة عن المدن الكنعانية المهمة في الجليل ووادي يزرعيل وسهل شقلح وفيلسطينا»، ثم يصف مدن كنعان آنذاك على أنها «مدنٌ زراعية وثيقة العلامة بالعالم السوري»⁽¹⁾

الحال الآن حالٌ ثقافة رعوية في المساق الاجتماعي، وسط ثقافة مدنية زراعية تجارية ضاربة في العمق الحضاري، وتتوقع تفاعلات مهمة مع الأرضية الكنعانية، وقد ذكرنا أن المكون البليستي اندمج مع الطبيعة المشرقية تقريباً بعد مئة وخمسين عاماً، لكن الأمر كان مغايراً ولكل مغاير أسباب.

«جان بوترو» يصف الواقع التاريخي آنذاك: «الإسرائيليون ذلك الشعب المجهري بالمقارنة مع عملاق المشرق الذين لم يكن لهم وجود يُذكر على المسرح السياسي؛ إذ لم ينتصروا ولو مرة واحدة في معارك كبرى، وعلى المستوى الثقافي كان الإسرائيليون مدينين بالكثير الكثير لسابقيهم وجيرانهم، حيث إنهم لم يخترعوا شيئاً، كما لم يقدموا للعالم شيئاً في مجالي التقنية والعلوم»⁽²⁾. بوترو قلب الطاولة.

«جان لوي برنار» يشير إلى مكمن المأساة العبرانية بقوله: «إننا نتحسس كل التحسس أن أحبار اليهود قد اقتبسوا من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها بعض الحكايات فعبروا كل المعلومات. ولكن لماذا هذه اللصوصية؟ إن الغرض منها تليق أكذب تاريخ للعالم يثير أعظم ضجة فيه وكل ذلك اختراع ملفقة الشعب اليهودي المختار»⁽³⁾.

«بوترو» في اطلاعه على عالم الوثائق المشرقية يصل إلى فكرة مهمة مفادها: «يعطينا علم الوثائق المشرقية عن التوراة ليس إدراكاً مباشراً، بل إدراكاً قياسيًّا وغير مباشر. يقدم لنا معطيات في حالة أخرى وصياغة أخرى وإعداد آخر، اجترها تاريخ إسرائيل ومؤلفو التوراة على نحو عميق وتمثلوها بعد أن علموا بأمرها، وربما حملوها وقضوا بأنها مفيدة بمجرد تألفها مع رؤيتهم وحساسيتهم الخاصة». (بابل والكتاب المقدس.

الدونية الاجتماعية ستولد حالات استعلاء وانغلاق، ضرباً يفهمه أتباع علم نفس المجتمعات. «كاسيدوفسكي» يشير إلى أن السعي إلى العزلة التامة عن الشعوب أثر تأثيراً

(1)Albrecht Alt, Essayson old Tastament History and Religion – New York. 1908.

(2) جان بوترو- ولادة إله التوراة والمؤرخ- دار الكلمة- دمشق- 1990.

(3) أحمد سوسة- العرب واليهود في التاريخ- دار العربي- دمشق.

قوياً في الديانة اليهودية، فقد غدت أداة تعصب شوفيني، وجداراً منع اليهود أن يتلقوا تأثيرات الشعوب المحيطة بهم، (الواقع والأسطورة في التوراة)؛ لهذا كانت طريقة الانتحال وسرقة التراث المشرقي أخفّ وطأةً، ومن ثم معالجتها لتطابق المنظومة النفسية الاجتماعية الدينية لهم.

في علم النفس الاجتماعي تستوقفنا ظاهرة استيطان العبرانيين في الهضاب المركزية بعيداً عن المدن الكنعانية، فثمة خوف إذاء، هذا الخوف سيُعبّر عنه بموقف تعويضي من أجل التوازن الجمعي، هنا النواة التي تحكمت بالاضطراب الاجتماعي والتاريخي لهذا المكوّن في المشرق: رفض التفاعل.⁽¹⁾

الضرب التعويضي الآخر الذي مارسته مؤسسة الكهنوت العبرانية هي في شحن الجموع بالأصالة المزيفة تاريخياً، وإرجاع اللحظة الوجودية إلى إبراهيم الخليل، المعجزات والحروب الحاسمة، والتراث العبراني المنحول من تراث المشرق وهكذا.

رفض التفاعل والاندماج هنا ليس خصيصة اجتماعية في الشخصية العبرانية، فثمة مؤسسة كهنوتية كانت تملكها هستريا الانعزال والتفوق كثقافة الغيتو، وخوفٌ من الذوبان في بوتقة حضارية مشرقية. والدليل هنا بأنقى صورته أنه حين عاد بعض اليهود من السبي البابلي عمدَ «عزرا» الكاهن إلى الدعوة لتطبيق كلِّ عبراني تزوج من امرأة غير عبرانية للحفاظ على نقاء العنصر والدين.⁽²⁾

قال «فيليب حتي»: «العبرانيون كانوا الشعبَ الوحيدَ من الشعوب القديمة الذي أنشأ شعوراً قومياً متطرفاً»⁽³⁾. إذاء، جرى هضمُ المنجز الكنعاني من قِبَلِ القادة المثقفين والدينيين للعبرانيين، تم انتحاله جيداً شيئاً فشيئاً، ولضرورات تجارية مالية يتقنها العبرانيون تفاعلوا مع المحيط وفقاً لمصالحهم، وثمة وجود لهم في مناطق كالسامرة.

(1) للمزيد انظر: العبرانيون في تاريخ المشرق العربي القديم - د. بشار خليف 2004 - دار الرائي.

والواقع والأسطورة في التوراة- زينون كاسيدوفسكي 1990 - دار الأبجدية.

وبابل والكتاب المقدس - جان بوترو - 2000 - دار كنعان.

(2) انظر: سفر عزرا- كتاب التوراة (العهد القديم).

(3) فيليب حتي - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين 1982 - دار الثقافة.

التجمعات العبرانية لم تتعدَّ مشيخات قبلية دونَ آثار مادية تُعبّر عن تطور حضاري، والكشوفات الأثرية مخجلةٌ في هذا المجال. وفي القرن الثامن قبل الميلاد نجد المملكة الآشورية في تصاعدها الوجودي، والفاعلية المصرية ضعيفة نسبياً، تحاول كعادتها سابقاً استيعابَ المواقع الكنعانية الجنوبية خطَّ دفاعٍ ضدَّ الفاعلية الآشورية بامتداداتها. والمدن التي لم تدفع المستحقات تجاه آشور تُعاقب «كأئنةً من تكون»، شاروكين الآشوري 722 ق.م عاقب المدن السورية المتأخرة عن السداد، وهاجم المدن منها السامرة حيث سبى قسماً كبيراً من سكانها الذين لم يكونوا فقط من العبرانيين، كذلك دفعت حماة الثمن.

قال شاروكين: «حاصرت السامرة وفتحتها وسبيت 27290 فرداً من سكانها، وجهزت من بينهم فصيلةً من 50 عربة ألحقتها بفيلقي الملكي. أما المدينة فقد أعدت بناءها، فصارت أفضل مما كانت عليه، وأسكنت فيها شعوباً من المناطق الأخرى التي قهرتها.⁽¹⁾

تقليد السبي الرافيدي للشعوب لم يكن ذا أساسٍ عنصري، بل لأسباب سياسية اقتصادية. فبعد أقل من مئة عام، مضى «أسر حدون»، ملك آشور إلى استباحة عسكرية تصل إلى مصر، وقال: «دعوتُ إليّ ملوك حاتي، مناطق غرب الفرات، وهم «بعلو» ملك صور، و«منسي» ملك يهوذا، و«قوش حبري»، وملك ادوم، و«موسوري»، وملك موآب، و«سبليل» ملك غزة، و«ميتيني» ملك أشقلون، و«إيكو» ملك عقرون، و«ملكيا شبا» ملك بيت عمون، و«أبي ملكي» ملك أشدود. كما يضيف أسماء ملوك من جزر وشواطئ قرطاج وكريت وقبرص، ثم يقول: «كل هؤلاء أرسلتهم إلى نينوى مقر ملكي وجعلتهم يتقلون تحت أقرسى الظروف مواداً لبناء قصرِي»⁽²⁾

في عام 586 ق.م، نكون مع السبي الأساسي عبر «نبوخذ نصر» ملك بابل، فالمعطيات تشير إلى تمنع زعيم عشيرة «صدقيا» العبراني من دفع الضريبة السنوية لبابل عدة أعوام، في السيادة على المواقع الكنعانية الجنوبية. «نبوخذ نصر» في ريلة قرب حمص استدعى صدقياً: «أيها الوغد الشرير لماذا نكثت بالوعد؟».

هوجمت مواقع العشيرة العبرانية وسُبوا إلى بابل. والمعطيات تقول: إنه بعد وفاة نبوخذ نصر أعيدت إليهم الحرية الشخصية تدريجياً، وسكنوا في أطراف بابل ومارسوا الزراعة، ثم

(1) Leo oppenheim. Op. Cit. P. 284.

(2) المرجع السابق.

تشير الوثائق إلى ممارسة بعضهم الأعمال التجارية والمالية، وجنوا الأرباح الهائلة، وشغل بعضهم مناصباً في جهاز الدولة والقصر الملكي. فأحدى وثائق مدينة نيبور تؤرخ نحو 450 ق.م، تخصُّ دار العمل لأسرة «ماروشو» العبراني.⁽¹⁾

وثيقة بابليةٌ يرُدُّ فيها شرحٌ للمؤن التي كانت تصرف يومياً إلى مختلف القطاعات التي كان يحولها الملك، ومن هذه القطاعات يرُدُّ اسم «يهوياكين» وأسماء خمسة من أبنائه وثمانية من الخدم.

بابل آنذاك كانت مركزَ العالم القديم، وحضارةً وثقافةً وانفتاحاً، إحدى الوثائق البابلية/ الآشورية العائدة إلى الملك الآشوري، آشور نبيعل 668 - 626 ق.م⁽²⁾ تحوي أقولاً للملك في مواطني بابل المتنوعين ديمغرافياً: «إنَّ بابل قلب المعمورة، وكل من يدخل إليها يحصل على امتيازات معينة، حتى الكلب الداخل إلى بابل يُمنَع قتله»⁽³⁾.

في فترة السبي الأخيرة هذه كَتَبَ الأسفار الخمسة الأولى للتوراة الكاهن «عزرا» ومساعدته «زرو بابل»، وباحتلال قورش الفارسي لبابل عاد السبايا إلى أوطانهم، المعطيات تشير إلى أنَّ أصحاب الأموال والعقارات والتجار وكبار الموظفين لم يتحمسوا للعودة وفضلوا البقاء في بابل، ومن عاد كان من الفقراء، ربما بلغ عددهم خمسة آلاف شخص بما فيهم النساء والأطفال.⁽⁴⁾

منَحَّ قورش زعيم المغادرين العبرانيين لبابل «شيشبصر» لقبَ الوالي على مقاطعة اورشليم التي شملت مناطق محدودة، وهي الامتدادات الشمالية لمرتفعات يهوذا مع بعض الاستيطان، اتجهاً إلى غور الأردن إلى الشرق نحو سهل شقلم إلى الغرب. بعد ذلك تلت بعضُ الهجرات العبرانية وكان على رأس بعضها عزرا الكاهن وفي أخرى نحميا.

(1) ماروشو امتلك مؤسسة مصرفية حملت اسم «ماروشو وأولاده» من الوثائق، وتبين أنَّ مقدارَ الفائدة التي تتقاضاه المؤسسة لقاء أعمال السمسرة التجارية تصل إلى 20 % نسبةً تُعدُّ عالية في ذلك العصر.

(2) كانت بابل آنذاك تتبع آشور.

(3) الجديد حول الشرق القديم - دار التقدم موسكو - 1988.

المؤرخ «انداماييف»، قال إن السمة الرئيسية للوضع الديني في بابل كانت تكمن في عدم غرس روح التعصب تجاه معتقدات الشعوب الأخرى / انظر: الجديد حول المشرق القديم.

(4) يشير الباحث «ويلز» في كتابه «معالم الإنسانية» إلى أنَّ اليهود ذهبوا إلى بابل همجاً وعادوا متمدين، ذهبوا وليس لهم أدب معروف وعادوا ومعهم الشطر الأكبر من مادة التوراة بعد أن عاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي.

الدلائل الأثرية هنا تشير إلى استيطان امتدّ من موقع تل النصبة إلى الشمال حتى موقع بيت زور جنوباً، ومن أريحا شرقاً إلى جازر غرباً. وفيما يقارب 400 ق.م لم يعد ثمة مصادرٍ عبرانيةٍ تتحدث عن وقائعٍ تاريخيةٍ.

فترة السبي هذه أطلعت نخبة العبرانيين على الحضارة الرافدية وراثتها الثقافي بما سنجد آثاره حين كتابة التوراة.⁽¹⁾

إذاً، الطروء إلى بلاد كنعان تأسيسٌ عدم تفاعل اجتماعي مع المحيط بقيادة الأبحار، ومحاولات اللعب السياسي بين القطبين الأقوى آشور ومصر، والثقافة الأولية أدت إلى انتحال أساطير وأدبيات وتاريخيات المشرق وتحويرها بما يلائم هدف الأبحار.

يوجز «توماس طومسون» المسألة بقوله: «لا يوجد متسع لمملكة متحدة تاريخية أو لملوك كأولئك الذين جرى تقديمهم في القصص الكتابية لشاؤول وداود وسليمان. إنَّ إسرائيل التاريخية الوحيدة التي يمكن الحديث عنها هي شعب دولة المرتفعات الصغيرة التي فقدت حكمها الذاتي السياسي في الربع الأخير من القرن الثامن قبل الميلاد». (الماضي الخرافي).

في الاختصار التاريخي العلمي لا تسعفنا الأدلة إلا على حضور هزيل للعبرانيين دولةً أو مشيخةً إلا فيما بين 1040 و932 ق.م، ثم في الحقبة التي ما بعد السبي 142 - 63 ق.م، وابتداءً من عام 135م انتهت دولة العبرانيين في فلسطين⁽²⁾. القول هنا: أساء الأبحارُ إلى مجاميعهم العبرانية.

إضاءات عابرة:

من بين معظم المكونات الديمغرافية في المشرق نجدُ المكوّنَ العبراني تعرض لتأديب قوى عديدة مختلفة المشارب أحياناً، فنهاية الألف الثاني ق.م، أدبهم المصريون، ثم تعرضوا لتأديب الكنعانيين والفلسطينيين والآراميين والآشوريين والكلدانيين، حتى في عصر الانفتاح والعولمة الإيجابية المتسامحة أدبهم السلوقيون، ثم الرومان الذين دمّروا هيكلهم فَسْتَتُوا في المحيط التاريخي.

(1) الأمانة التاريخية كانت غريبة على كتاب التوراة، حيث استخدموا الأساطير التي تتوارثها الأجيال شفهاً في المشرق، ولم يستطع الكهنة أن يكونوا منطقيين في عملهم التحريضي والتحويري كما يقول كاسيدوفسكي.

(2) هناك مؤلفات كثيرة لباحثين أجانب تجاوزوا المدرسة التوراتية في قراءة تاريخ المشرق وتاريخ العبرانيين فيه، منهم جان بوترو وزينون كاسيدوفسكي. كيث وايتلام- توماس طومسون وغيرهم.

ماذا أيضاً؟

عنواننا كان «ستارة قديمة ومسرحية جديدة». اليهود المشرقيون الذين قاربنا حياتهم في المشرق، والذين وقعوا تحت نير كهنة وأحبار أودوا بهم إلى التهلكة، برفض قيم التفاعل والانفتاح مع المحيط التاريخي خشية الذوبان كما جرى للبليستي.

العبرانيون هم الذي بقيَ منهم بعد أن دَمَّرَ الرومان الهيكل البسيط فتشتتوا، وأخبار تدمير تذكر بعد حين وجود عائلة يهودية، وتجار يهودٍ يشيدون معبداً في «دورا أوروبوس»⁽¹⁾، ومن بقي في فلسطين كان ضمن الدولة السائدة آنذاك وعبر الواقع السياسي الماضي في الزمن. في النظر إلى محاولات ربط أولئك العبرانيين بيهود الآن في «إسرائيل»، ومن ثمَّ تحقيق الرابط الشرعي في الوجود في أرض الميعاد المُختلفة، ينبغي لنا الإشارة هنا إلى معطى مهمٍّ يعود إلى القرن الثامن ميلادي تقريباً والمنطقة جنوب روسيا. مملكة وثنية تسمى مملكة الخزر تقع جوار نهر الفولغا في بحر قزوين.

الأدبيات التاريخية تتحدث عن ملك وثنيٍّ لمملكة تعود قبائلها إلى أصول تركية مغولية. والعالم آنذاك مقسومٌ سياسياً بين إمبراطوريتين: إسلامية ومسيحية، والاتجاه السائد عالمياً أن الوثنية حالة «بربرية»⁽²⁾، وأنَّ الأديان تحقق معنى الوجود الإنساني الحضاري، وبذا كان على ملك الخزر أن يختارَ إحدى الديانتين أو السياستين، فرفضهما وأعلن اليهودية فتبعه شعبه.

التهود هنا لم يكن عقائدياً دينياً بقدر ما كان ثقافياً سطحياً لغايات استقلالية عن قطبين قويين؛ لهذا لم يأخذ الملك الخزري بالتعصب والخصائص «النفسية اليهودية المعروفة»⁽³⁾ ولم يشرَّع الختان.

أدبيات الخزر أعادت أصل الخزرين المتهودين إلى يافث بن نوح وليس «سام». فبعد قرابة 150 عاماً اجتاحت الجيش الروسي المملكة وهاجر الشعب الخزري إلى روسيا وأوروبا،

(1) من ذكرياتي الشخصية: حين كانت والدتي ترسلني إلى تاجر أقمشة في منطقة الشعلان في دمشق لجلب أقمشة أوصت عليها، كانت تقول لي: «أذهب لعند اليهودي لجلب كذا وكذا». لم أكن أفهم بعد قصة اليهود، لكنه كان يمتلك لساناً دمشقياً تجارياً لا يختلف عن اللسان الدمشقي ودمائة تنتمي إلى عالم البيع والشراء.

(2) نرفض مصطلح أو تسمية «بربرية»؛ لأنه لازم صفة دونية في التقييم الاجتماعي، مع أن البربر في الشمال الأفريقي لديهم حضارة مهمة.

(3) آرثر كوستلر - إمبراطورية الخزر وميراثها - 1985 - دار الجليل - دمشق.

وحطّ من هؤلاء في فلسطين بعد اغتصابها ليعلنَ يهوديته مشروعاً سياسياً يرتبط بحق تاريخيٍّ مزعوم.

«دويتشر» يقول: «إنّ دولة إسرائيل هي قبل كل شيء من صنع يهود أوروبا الشرقية ولا سيما يهود روسيا وبولونيا وليتوانيا، وعندما أعلنت الدولة الإسرائيلية عام 1948 كان الإسرائيليون الروسيون والبولونيون يشكلون نسبةً تقارب نصف السكان.⁽¹⁾»

«كوستلر» يشير إلى أنّ الغالبية العظمى من اليهود الباقين في العالم هم من أصل أوروبي مشرقي والأساسيون من أصل خزري. هذا يعني أنّ أسلافهم لم يأتوا من وادي الأردن وإنما من الفولغا، ولم ينحدروا من كنعان بل من القوقاز، ويصير من الحقيقة أنهم يمثلون بدايات الجنس الآري، وأنهم أوثق انتماءً وراثياً إلى قبائل الهون المغول. وعليه يمكن القول: إنّ الرسالة العرقية التاريخية اليهودية تستند إلى الوهم والخداع.

من طرائف «إسرائيل» الآن أن تلجأ إلى تقديم خمسة وعشرين اسماً لموقع فلسطينيٍّ إلى اليونسكو لتسجيلها كمواقع أثرية إسرائيلية ضمن التراث الإنساني الواجب حمايتها! ومن الطرائف أيضاً أن تقدم طلب تسجيل موقع «تل القاضي» بوصفه موقعاً إسرائيلياً وتعهد إلى الجولان بأنار الجولان السوري في معارض عالمية على أنها آثار إسرائيل القديمة!

المسمار الأخير:

منذ 1872/12/3 حين وقف جورج سميث أمام جمعية الآثار التوراتية في لندن ليعلن أن «التوراة لم يعد هذا الكتاب الذي يختلف عن بقية الكتب... وليس الكتاب الذي أملاه الله أو كتبه بنفسه»، منذ تلك اللحظة بدأ التداعي للمدرسة التوراتية في قراءة تاريخ المشرق، ومع أنّ الاستمرارية لمراكزها حتى الآن بما يحفظ ماء الوجه، إلا أنّ الحقيقة الدافعة وضّحت في محاولات العقل الغربي في فتح ثقب في بدهيّات خادعة لهذه المدرسة.

تعرّض أصحاب الحقيقة التاريخية العلمية للمضايقات والتهميش وما زال، حتى تصل إلى محاولات منع عملهم الأثاري في المواقع المشرقية، ويحاربون بحقد وتهميش، ونعلم ما جرى لجان بوترو وتوماس طومسون وغيرهم. ويبدو أنّ أوان الخديعة وصل إلى حدّ الهاوية، وحين انتاب الملل الأيديولوجي والديني المؤرخين الإسرائيليين، والخيبة الأثرية

(1) اسحق دويتشر - من هو اليهودي - 1967 - دمشق.

في العثور على دلائل تعيد ماء الوجه إلى تاريخهم بسبب الإحباط، فالإعلان عن ذلك منذ الثلث الأخير من القرن العشرين.

بدا لهؤلاء الذين يعملون في حقل التنقيب والبحث الأثري أن كل ما سبق وأن ما تلقنوه من أمجاد إسرائيل القديمة في فلسطين قد أخذ يتهاوى بسبب انعدام الأدلة الأثرية انعداماً قطعياً وجازماً، فأثار المملكة الموحدة لداود وسليمان لا أثر لها، وهيكل سليمان المزعوم على المساق نفسه لا أثر له.

ولذا مال الباحثون إلى الحقائق العلمية والموضوعية مبتعدين عما قامت عليه الطروحات المؤدلجة التي تغذي بالمال والإمكانيات دوائر البحث الأثري التوراتي، ليس في فلسطين فحسب بل في العالم أيضاً. وقد نشر هؤلاء بحوثهم المستندة إلى الحقائق العلمية الأثرية، وهذا ما أدى إلى تعرية طروحات المدرسة التوراتية بما سيؤدي إلى تعرضهم للهجوم من الدوائر ذاتها.

وقد لُخصَ مبتغاهم في أن غاية أبحاثهم هي إظهار الحقائق العلمية وليس إثبات صحة النظريات التوراتية، ولذلك فقد اصطدموا بالسياسات الساعية إلى تهويد كل أثر في «إسرائيل» ولو كان كنعانياً، ثم اصطدموا مع المرويات التوراتية والتلمود.

1 - إسرائيل فنكلشتاين:

يقول إسرائيل فنكلشتاين، وهو رئيس المعهد الأركيولوجي في جامعة تل أبيب، ويُعدُّ من رواد هذا التيار:

«أثبت البحث الأركيولوجي في السنوات الأخيرة، أنه لم يكن هناك شريحة من اليهود يعرفون القراءة والكتابة، ومن يقول اليوم بالاعتماد على الوثائق فإنه يخدع نفسه، فلا توجد مواد مكتوبة من فترات التاريخ القديم، وما وقع من أحداث هناك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد - طروء العبرانيين إلى بلاد كنعان - كتبت بعد 500 سنة من وقوعها وضمت لكثير من القصص الوهمية».

إذاً، ثمة نفي منه لقصص الخروج التوراتية ولسفر يشوع. وفي معرض نقده للمملكة الموحدة، مملكة داود وسليمان، يقول في كتابه: THE BIBLE UNCARTHED الصادر في عام 2001:

«في القرن العاشر قبل الميلاد كانت أورشليم على حالة متواضعة؛ حيث لم يزد فيها عدد القرى على عشرين قرية صغيرة، لا يزيد عدد سكانها على بضعة آلاف نسمة غالبيتهم من الرعاة المرتحلين. ومن هنا، فإنَّ الاحتمال ضعيف جداً في أن تكون قرية أورشليم الصغيرة هذه ومن ورائها إقليم يهوذا الخالي تقريباً من السكان، قد صارت مركزاً لإمبراطورية امتدت من البحر الأحمر جنوباً إلى العمق السوري في الشمال».

يضيف أيضاً: «استناداً إلى فهمي، ليس هناك أي دليل على الإطلاق يثبت وجود مملكة موحدة عظيمة حكمت من القدس أقاليم ضخمة، إنَّ قدس الملك داود لم تكن أكثر من قرية فقيرة في ذلك الوقت».

وفي مواجهة بين ما يمثله من تيار علمي جديد مقابل التيار المحافظ التوراتي يقول: «إنَّ التاريخ التوراتي منذ عهد ليس ببعيد كان يملي مسار البحث والتنقيب الذي استخدم ليثبت الرواية التقليدية؛ ونتيجة لذلك اتخذ علم الآثار المقعد الخلفي كتخصص علمي، وأعتقد أنَّ الوقت قد حان لكي نضع علم الآثار في المقدمة».

ويبدو أنَّ هذا الطرح جاء رداً غير مباشر على ثنائية الكنيس والثكنة، وشهدت اهتماماً من رجال حرب إسرائيل في الآثار التي تخص فلسطين، والذين منهم موشي دايان والجنرال إيغال يادين الذي كان يقول: «البحث عن الآثار بمجراف في يد، وتوراة في اليد الأخرى».

وعلى جري هذا السياق يُعبّر فنكلشتاين عن رأيه في نقد التوراة بقوله: «لقد بينت الحفائر أنَّ إسرائيل القديمة قد نشأت من السكان المحليين للعصر الكنعاني البرونزي، ولم يُظهر التنقيب أيَّ أثر مادي يؤكد رواية التوراة عن الخروج، وليس ما يثبت توهان الإسرائيليين في صحراء سيناء».

وفي موقف حاسم وواضح من أنَّ التوراة كتابٌ تاريخيٌّ خصوصاً في أسفاره الخمسة الأولى يقول فنكلشتاين:

«لقد فقد كتاب التوراة أهميته بوصفه مصدراً تاريخياً، وخصوصاً فيما يتعلق بأصول إسرائيل ومسألة المملكة الموحدة، فهذا الكتاب وثيقة متأخرة جداً كُتبت فصولها الأولى في القرن السابع ق.م وَفَقَّ أبكر التقديرات وبمنظور لاهوتي وإيديولوجي وسياسي. ومن ثمَّ فإنَّ البحث عن الأساس التاريخي الكامن وراء الرواية التوراتية مهمةٌ صعبةٌ للغاية، إنَّ لم تكن عملية مستحيلة».

وفي نقده رواية قصص الآباء وأصول إسرائيل الواردة في سفر التكوين التي أعادت
العبرانيين إلى إبراهيم التوراتي في مدينة أور الرافدية قرابة 1900 ق.م يقول:

«إن المصدر التوراتي الذي تحكّم بماضي البحث في أصول إسرائيل، قد تراجعت أهميته
إلى حد بعيد في الوقت الحاضر ولم يعد من المصادر الرئيسية المباشرة. فكما هو معلوم
أن أسفار التوراة ذات الصلة دونت في وقت متأخر وكانت تحمل طابعاً لاهوتياً وإيديولوجياً
مما يجعلها منحاذاة؛ لذا فإن البحث عن بذور تاريخية في روايتها لأصول إسرائيل يشكّل
علمية سيزيفية متعبة، بالإضافة إلى عدم إمكانية حصولها من حيث الأساس».

أيضاً يؤكد هذا الباحث نفيّاً تاماً لقدوم العبرانيين إلى بلاد كنعان بالشكل الذي تمّ تقديمه
في التوراة، حيث إنّ «الفترة الانتقالية بين البرونز الأخير وعصر الحديد الأول لم تشهد
قدوم أي جماعات جديدة معروفة باسم العبرانيين». وهذا ما يؤكد مقولة التغلغل السلمي
لجماعات مرتحلة يسيرة العدد وهزيلة الثقافة لوسط حضاري موغل في القدم، عيّنتُ
الحضارة الكنعانية في شقها الجنوبي.

2 - البروفسور الإسرائيلي زئيف هرتزوغ:

يبدو أنّ هذا الباحث يعاني آثار كل ما تلقنه سابقاً من ذهنية ومعارف المدرسة التوراتية
الأثرية؛ لهذا نجده أكثر صدامية وهجومية على تلك المدرسة. ولتتابع أقواله:

«هناك شرحٌ في رواية التوراة للتاريخ القديم كشفته الأبحاث والحفريات الأثرية. والعلم
الحديث كما تعلمون لا يعتمد الروايات المكتوبة بل الآثار في الأساس. وبات علم الآثار
علماً مستقلاً، وما يحصل لنا في إسرائيل هو أننا لا نريده علماً مستقلاً، نريد للآثار أن تثبت
الرواية التاريخية التوراتية، وهذا معاكس ليس للعلم فقط بل للحقيقة التاريخية أيضاً. وإذا
أردنا أن يكون لنا مكان محترم في الأكاديمية الدولية فعلينا أن نلتزم بأحكام العلم لا بأحكام
السياسة والإيديولوجيا».

ويرفض هذا الباحث قصة هجرة العبرانيين وحضورهم في مصر، كما ينفي تماماً سفر
يشوع الذي يروي قصة حروب وهمية لدخول بلاد كنعان. وفي خطوة حاسمة لجهة نفي
التوراة في أسفاره الخمسة الأولى يقول:

«إنَّ التنقيبات الأثرية المكثفة في أرض إسرائيل خلال القرن العشرين قد أوصلتنا إلى نتائج محببة، فكل شيء مختلف. لم نعر على شيء يتفق والرواية التوراتية. إن قصص الآباء إبراهيم ويعقوب وإسحق في سفر التكوين هي مجرد أساطير.

نحن لم نهبط إلى مصر ولم نخرج بالتالي منها.
لم نته في صحراء سيناء.

لم ندخل فلسطين بحملة عسكرية واجتياح.
إنَّ مملكة داود وسليمان التي توصف في التوراة بأنها دولة عظمى كانت في أفضل أحوالها مملكة قبلية صغيرة. ويصل إلى الاعتراف: «إنني أدرك، باعتباري واحداً من أبناء الشعب اليهودي وتلميذاً للمدرسة التوراتية، مدى الإحباط الناجم عن الهوة بين آمالنا في إثبات تاريخية التوراة، وبين الحقائق الأثرية التي تتكشف على أرض الواقع».

3 - الباحث الإسرائيلي مازار:

يقول في نقده لسفر يشوع: «إنها غاية في الصعوبة أن نميز الثقافة الإسرائيلية في عصر الحديد تمييزاً واضحاً».

وفي نقده للمملكة الموحدة التوراتية يقول: «ليس ثمة بنى معمارية وعمرانية ضخمة أو منشآت هامة يمكن أن نصفها بكل ثقة بالداوودية. إنَّ البقايا المادية في أرض إسرائيل فقيرة ومتواضعة إلى حد كبير، خصوصاً إذا ما جرى مقارنتها بما أنتجتته الحضارات الكنعانية والبابلية والآرامية والمصرية».

4 - الباحث الإسرائيلي ناخاي:

أيضاً في معرض نقده ثقافة الجماعات العبرانية المرحلة الطارئة على بلاد كنعان يقول: «إنَّ المخلفات المادية لمواقع عصر الحديد الأول في الهضاب المركزية في فلسطين تُظهر أنَّ أهلها كانوا على الديانة الكنعانية، وما من أثر يدل بشكل مباشر أو غير مباشر على وجود بذور للمعتقد التوراتي ولو بشكله الجنيني».

5 - الباحث الإسرائيلي أوسيشكن:

يقول: «إنه ليصعب على روعي الرومانسية أن تقبل بهذه الوقائع -الوقائع التوراتية لرؤية مملكة داود وسليمان- أرجو من الملك سليمان أن يسامحني».

جاء قول هذا الباحث بعدما جرت التنقيبات الأثرية في موقع مجدو الفلسطيني، حيث تبين أنه لا ينتمي إلى عصر سليمان التوراتي في القرن العاشر ق.م بل إلى القرن التاسع.

6 - الباحث الإسرائيلي أمنون بن تور:

نقب هذا الباحث في موقع مدينة حاصور الفلسطينية فتوصل البحث إلى نتيجة تقول: «إنَّ فريقاً من الباحثين لا يكتفي بوصف إنجازات داود وسليمان على أنها نوع من المبالغات النصية في كتاب التوراة؛ فهؤلاء الملوك كانوا شخصيات خيالية أو على أحسن تقدير مشايخ قبليين محليين».

7 - الباحث الإسرائيلي نادفا:

يقول: «إنَّ قصة سليمان في سفر الملوك الأول هي قصة غير تاريخية في معظم تفاصيلها، وإنَّ مملكة سليمان ليست أكثر من مشيخة صغيرة».

نصل من كل هذا، وهو غيظ من فيض، إلى أنَّ الحقائق التاريخية آخذةٌ بإنهاء مفاعيل المدرسة التوراتية في الآثار، خصوصاً أنه وفي هذه المرة بالذات يأتي الأمر من داخل إسرائيل وليس من خارجها.⁽¹⁾

ذات يوم خاطب الكاتب اليهودي الألماني «هينريخ هايني» أحدَ رجال الدين اليهود: «يبدو لي أنني حتى في أحسن عصوركم، في ظل ملككم داود، وفي عصركم الذهبي، كنتُ سافرٌ منكم لأركض نحو هياكل آشور وبابل التي كانت ملأى بالحب ومرح الحياة»⁽²⁾

انتهت المسرحية.

(1) معظم آراء هؤلاء المؤرخين الجدد أخذت عن مجلة BIBLICAL ARCHAEOLOGY REVIEW من أعداد سنة 1999 - 2000.

(2) المرجع السابق.

حين قامت آشور على عكازتين- الألف الأول ق.م:

سقطَ مَنْ سقطَ بفعل الأحداث التي رافقت أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. «كلاين» يصفُ واقع الحال آنذاك: «استغرق الأمر عقوداً لتشكيل حياة جديدة من خلال الظلام الذي حل. شرق المتوسط، من ناحية القراءة والكتابة، أجاريت التي بنهايتها حلت أيضاً نهاية الكتابة المسمارية واستبدل بها أنظمة كتابة أخرى ربما أكثر نفعاً وملائمة. عالم ما بعد شعوب البحر انهارت شبكات اتصاله ونقله وتجارته ودبلوماسيته، سلسلة معقدة من الأحداث قادت إلى انهيار النظام العالمي آنذاك بكامله»⁽¹⁾، زوال حثي واضمحلال مصري، وما بينهما جناح شامي تابع للأقوى، والقادم قادم لا محال. قال أحدهم: «كلُّ الحضارات تتعرض في نهاية الأمر لإعادة هيكلة عنيفة للحقائق المادية والأيدولوجية من قبيل التدمير أو إعادة التشكيل»⁽²⁾.

الكوارث الطبيعية فالمجاعات فالغزوات الغريبة للجناح الشامي المشرقي. والفراغ السياسي وفق قواعد علوم الاجتماع يُحفز لانسياحات بشرية جديدة، آشور خرجت من حيز الكوارث بأقل الخسائر، وحلَّ قيامها، مدن المشرق الساحلية حافظت على استمراريتها، وبدأ نهوضها بعد موت أجاريت؛ لتحضر فاعلية صور وثقافة جيل. العصر عصر انتقالٍ ماديٍّ من البرونز إلى الحديد⁽³⁾، هذا يعني حروباً بتقنية من نوع آخر.

(1) انهيار الحضارة -1177 مرجع سابق.

(2) المرجع سابق.

(3) ذُكر الحديد في السومرية باسم «المعدن من السماء»، وأول استعمال له كان بشكله الطبيعي، وصل إلى الأرض من النيازك؛ لهذا نفهم التسمية السومرية له. بعد التعرف عليه صُهرت خاماته، هذه العملية أصعب من عملية استخلاص النحاس؛ لهذا لم يحلَّ اكتشافه باكراً. الدلائل الأثرية على استعماله العملي الأول نلتسمها في قطعة حديد من أداة ربما ظلت عالقة في أحد الأهرامات المصرية تعود إلى 2500 ق.م. في منتصف الألف الثاني ق.م استعمله الحثيون على نطاق واسع، فممكناات البيئة الطبيعية وقرته. الاستعمال الأمثل للحديد، تم في سبيكته الفولاذ تقريباً في 1000 ق.م، والفولاذ صنع في الهند وبقي مادة خاصة ذات استعمال محدود، ففي تصنيعه يحتاج الحديد إلى حرارة عالية في كل مرحلة من مراحلها، في تعدينه بصهر خاماته وفي تصنيعه، ومن ثم في عملية إنتاج سبيكته الفولاذ. يحتاج الحديد في انصهاره -تقريباً في 1500 درجة مئوية- أعلى من 500 درجة مئوية من درجة انصهار النحاس. وسبيكة الفولاذ هي حديدٌ أضيف إليه نسبة واحد في المئة من الكربون أو أقل. ففي صناعة السيوف مثلاً الدقة المطلوبة والعناية المطلقة في نسبة الكربون في الفولاذ. والسيف يتطلب نقيضين: مرونة وصلابة، لأجل هذا كان يتم تقطيع الكتلة الفولاذية قسمين ينضدان فوق بعضها، ثم يجمعان ويترقان، وهكذا تتكرر العملية للحصول على عدة سطوح داخلية. بعد ذلك يغطى السياف بالطين بسماكات متباينة بحيث إذا أحمي ثم غمر بالماء فسيبرد بسرعات متفاوتة. وحين يُحمى السياف يجب أن يتوهج بلون شمس الصباح. ولو حظ أنه إذا سُقيَ الفولاذ وأطفئَ بالماء والزيت فسوف يمنح السياف صلابة مهمة. انظر: ارتقاء الإنسان- مرجع سابق.

الجناح المشرقي الداخلي بفراغ مدنه سياسياً على الأقل، حفز على انسياحات مشرقية جديدة تُذكر بالانسياح الأموري، ومن النقطة نفسها جبل بشري ومناطقه. هبت رياح الآراميين إذًا، وإلى الجنوب كان جُولان القبائل العربية بين شمال شبه الجزيرة العربية والبادية الشامية قائم على قدم وساق. مصر المتعَبّة تلملم تمزقها السياسي صعوداً أو نزولاً، ووحدها آشور، وفيما بعد بابل، كان عليها أن تملأ المشرق بمركزيتها القاسية وسط مكونات بدوية مرتحلة عنيفة ومدمرة نسبياً. والحقيقة أنّ ما بعد غزوات شعوب البحر حلّ غموض أركيولوجي ووثائقي حتى استطاع جميعهم استرداد أنفاسهم لحياة جديدة⁽¹⁾. يذكر «كلينغل» أنه حتى الآن ليس هناك شواهد مكتوبة من القرنين الأخيرين من الألف الثاني ق.م (العصر المظلم).⁽²⁾

آشور:

من بين المدن الموروثة المشرقية تحلّ آشور مدينةً متميزة منذ ولادتها في نهاية الألف الثالث ق.م إلى فاعليتها مع اعتلاء عرشها شمسي أدد في 1815 ق.م.

الانسياح ثم الاستيطان الأموري فعَلَّ الحضور الآشوري الذي بقي مستمراً حتى 612 ق.م (سقوط نينوى). ثمّة رقيم يعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد يحوي أسماء ما لا يقل عن مئة وسبعة ملوك آشوريين).

«أندره بارو» يشير إلى أنه منذ ولادة آشور وحتى سقوطها اعتلى عرشها بالتعاقب مئة وستة عشر ملكاً مقارنة مثلاً بأحد عشر ملكاً في أكد، وخمسة ملوك في سلالة أور الثالثة وأحد عشر ملكاً من سلالة بابل الأولى.⁽³⁾

الحِدَّة الآشورية في الألف الأول قبل الميلاد سترجعها إلى عوامل عديدة أسهمت في تبلورها، فنحن أمام معالم الكوارث الطبيعية التي ارتدت في بعضها على مدن الرافدين كالمجاعة والجفاف، إضافة إلى العنف وحروب شعوب البحر، وفراغ القوى الكبرى من قوتها كالحثيين والمصريين، ثم انسياح الآراميين الكثيف في الجناح الشامي تجاه الرافدين،

قيل: السيف: مرونة المطاط وصلابة الزجاج. أداة قتل متطورة تُلبي احتياجات الحروب والموت.

(1) مع حضور المكونات الآرامية الأولية لا شيء يدل على احتكاك بين شعوب البحر والآراميين الجوالين، وهذا يعني استهداف شعوب البحر للمدن.

(2) كلينغل - تاريخ سورية السياسي - مرجع سابق.

(3) أندره بارو - بلاد آشور - وزارة الإعلام العراقية - 1980.

وكذلك الحضور العربي الذي أخذ بالتصاعد، كلُّ هذا حمَّل آشور مسؤوليةً صيانة حدودها الغربية، غرب الفرات، وعوامل أخرى أيضاً من تصاعد فاعليات جديدة محيطة بالمشرق.

«جورجيو بوتشيلاتي» أشار إلى الرابط التاريخي بين انطلاق الآراميين من البادية السورية، خصوصاً في المناطق الواقعة بين تدمر وجبل بشري في نهاية الألف الثاني ق.م، وبين انطلاق الأموريين قبل أكثر من ألف عام من ذلك نحو شمال سوريا وحوض الفرات من المنطقة نفسها.

فاعلية آشور التي تمّت على يد الملك «آشور أباليط» الأول في 1365 - 1330 ق.م، ثم تصاعدت في عهد «أدد نيراري» الأول ثم «شلما نصر» الأول و«توكولتي نينورتا» الأول، حتى توسعت حدود المملكة شمالاً وشرقاً وجنوباً.⁽¹⁾

بعد هذا التصاعد الحيوي في الفاعلية الآشورية ستعود إلى كمونها حتى يعيد «تجلات فلاصر» الأول 1117 - 1077 ق.م، الحيوية التاريخية لها حيث سيصل إلى جبال الساحل المشرقي.

مدن الساحل المشرقي هنا لم تكلف نفسها عناء مواجهة المد الآشوري القوي، وهي المدن ذات الوجه البحري، فأعلنت الولاء لآشور مقدّمة الهدايا والأموال. وقال ملك آشور آنذاك:

«بأمر من أنو وأدد الآلهة الكبرى سادتي، سرت إلى جبال لبنان، وتابعت المسير إلى أمورو... تلقيت الضريبة -ضريبة الولاء - من جبيل وصيدا وأرواد، وسرت على سفن من أرواد في أمورو، من أرواد الواقعة في وسط البحر حتى صُمّر في أمورو وأنجزت كل شيء بنجاح. قتلت ناخيرو [نوع من الحيتان]... في طريق عودتي أخضعت بلاد الحثيين كركميش بكاملها»⁽²⁾.

هذه الحيوية سوف تهددها الانسياحات الآرامية المنتشرة في فضاء المشرق من لبنان حتى البادية الشامية ومنطقة الفرات الأوسط.⁽³⁾

(1) شكّل موقع مدينة «دور كتليمو» تل الشيخ حمد، الواقع على الضفة الشرقية لمجرى نهر الخابور الأسفل، مركزاً آشورياً يعني بالقسم الجنوبي الغربي من مملكة آشور، وذلك في القرن الثالث عشر ق.م.

(2) عيد مرعي - تاريخ سوريا القديم - مرجع سابق.

(3) الحقيقة أن المكون الآرامي بدأ يزعم الممالك والمدن في الإقليم منذ القرن الثالث عشر ق.م. فثمة رسالة من

قال تجلات فلاصر الأول:

«ثمان وعشرون مرة عبرت الفرات خلف الأخلامو الآراميين حتى كركميش، مرتين في سنة واحدة، من سفوح لبنان ومن تدمر في أمورو، ومن عانا حتى رابيقو في بلاد بابل، ألحقت بهم الهزيمة، وأخذت غنائمهم وممتلكاتهم»⁽¹⁾

الآراميون:

الموطن الأساسي للآراميين يقع في مناطق جبل بشري «بَسْر»، وليس في شبه الجزيرة العربية. إذا كان تاريخ حضور الآراميين في الهلال الخصيب اتَّفَقَ عليه وَفَّقَ المعطيات الأركيولوجية على أنه يعود تقريباً إلى 1400 ق.م، في بدايته ثم فاعليته بدءاً من مطلع الألف الأول بتأسيس الممالك الآرامية، فإنَّ الوثائق تعيد ذكر الآراميين إلى الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد. فقد ورد في نقشٍ يعود إلى نارام- سين الأكدي اسم آرام أو الآراميين، حيث كان حضورهم في الجزء الأعلى من الجناح الرافدي، ويُعدُّ هذا أولَ ذكر للآراميين في الوثائق حتى الآن. كما ورد ذكرهم أيضاً في وثائق ترجع إلى 2000 قبل الميلاد تقريباً، حيث تقدم المعطيات عن وجود مدينة أو تجمع آرامي قرب مدينة أشنونا الرافدية.

وبعد هذا التاريخ بعدة سنوات يظهر الاسم أيضاً في نص جديد على شكل «آرام» اسم علم لشخص، كما حوت وثائق مملكة ماري معطيات تؤكد وجود الآراميين.

وانتقالاً إلى نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد، نجد ذكرهم في وثائق الملك الآشوري «أرك- دين- ايل»، حيث يتحدث عن انتصاراته على جماعات «الأخلامو». ويبدو أنهم كانوا على حالة شبه بدوية، حيث كانوا يتجولون في المنطقة الواسعة الممتدة غرب الفرات الأوسط حتى تدمر.⁽²⁾

الملك الحثي «حاتوشيلي» الثالث، إلى ملك بابل الكاشي يذكر فيها أنَّ الأخلامو أصبحوا خطراً على الطريق بين المملكتين.

انظر: فاروق إسماعيل- اللغة الآرامية القديمة- 1997 - جامعة حلب.

(1) الملاحظ هنا أنَّ هذا الملك قضى في سنوات حكمه الأربعين، ثلاثين عاماً في ملاحقة الآراميين.

(2) كلينغل- تاريخ سورية السياسي- مرجع سابق.

في تأمل الانسحاق الآرامي، من وجهة نظر الاجتماع البشري، نلاحظ مرحلة الصدام مع المدن والممالك كاجتياح مرتحل ذي ثقافة أولية استغلّ فراغاً سياسياً ومركزياً فحلّ في فضائه أو حاول الحلول فيه.

شيئاً فشيئاً ستهدأ عاصفة إثبات الحضور والوجود، اعتماداً توازن القوى الديمغرافية العسكرية مع تفاعلات مرئية وغير مرئية، وسرعان ما يمكن تلمسها في الظواهر الاجتماعية والحضارية. هنا سوف نلاحظ مثلاً أنّ القبائل الآرامية تقريباً في 1025 ق.م، قد استباحت مدينة بابل ونهبته، وسوف يمرّ عدّة قرون فنجد اعتلاء آرامي لعرش بابل كما سنرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، التفاعل الاجتماعي بعد إثبات الحضور والوجود سيُعبّر عنه بتأسيس مدن ومن ثم ممالك⁽¹⁾، حينها تتشكل ثقافة آرامية مُعبّرة عن ذاتها، إلى جانب الثقافة الآشورية والكنعانية الساحلية.⁽²⁾

الممالك الآرامية في الجناح الشامي⁽³⁾:

- «بيت أجوشي» عاصمتها «أرفاد»، نشأت في مطلع القرن التاسع ق.م. حدودها امتدت من مملكة بيت عديني شرقاً إلى مملكة حماة ولعش جنوباً وغرباً إلى مملكة شمال والسهل الكيليكى شمالاً، وكانت حلب آنذاك مدينة دينية فيها.

- مملكة شمال (يأدي) تقع في الشمال، في زنجيرلي في تركيا الآن. تاخمت مملكة بيت أجوشي في الجنوب والجنوب الشرقي، وربما أجزاء من ملكة حماة ولعش. والتّ المملكة الآشورية، ولم تدخل في تحالفات ضدها.⁽⁴⁾

التنقيبات في الموقع أعطت منحوتات حجرية لملوك وآلهة وغيرها. ثمة أيضاً نقوش مدونة بالخط الفينيقي الآرامي بعدة لغات. الإشارة هنا إلى أنّ هذا الموقع كان مأهولاً منذ مطلع الألف الثاني ق.م، وخضع لفاعلية الحثيين ثم الحوريين الميتانيين، وحال

(1) في عهد «آشور دان» الثاني 934 - 912 ق.م، تذكر الوثائق قيامه بحملة ضد الآراميين في مناطق كانت في الأصل آشورية لكنها صارت آرامية في عهد أسلافه.

(2) في مطلع القرن العاشر ق.م بدأت تظهر الكيانات السياسية الآرامية في مناطق الجزيرة السورية، ثم في جميع مناطق الجناح الشامي، هذه الكيانات كانت خطراً على مملكة آشور في حدودها الغربية.

(3) استندنا إلى كتاب: د. فاروق إسماعيل - اللغة الآرامية القديمة 1997 في استعراض ممالك المشرق الآرامية، وكتاب: أبو عساف - الآراميون. وكتاب: دويون سومير - الآراميون.

(4) أحد ملوك شمال اللاحقين يصف ملك شمال «فتمّوا» الأول: «بفضل حكمته وإخلاصه فقد أخذ بحفاة رداء سيده ملك آشور».

المدن والممالك الضرائر، فهنا تحضر المدن الآرامية بتحالفاتها المصلحية ثم بصراعاتها المصلحية أيضاً.

في عهد ملك آشور «أدد نيراري» الثالث 810 - 783 ق.م، تميزت مملكة حماه سياسياً، وكانت توالي الآشوريين، قوتها كانت خطراً على الممالك الآرامية الأخرى، فتحالفت ضدها مجموعة من الممالك كان من ضمنها شمال⁽¹⁾.

أيضاً سوف نكون مع ملك شمال «فَنَمَوا» الثاني الذي خلف والده المقتول، فقدّم هذا الملك التسهيلات للجيوش الآشورية وقدّم لها المحاربيين وشارك في حملاتهم ضد الممالك الآرامية الشقيقة. حين هجم تجلات فلاصر الثالث على مملكة دمشق 733 - 732 ق.م قتل فنموا الثاني في تلك المعارك.

قال «بر راکب» ابنه: «بكيه سيده تجلات فلاصر ملك آشور، بكيه أخوته الملوك، وبكته حملة سيده ملك آشور كلها، وأخذ سيده ملك آشور... روحه وأقام له تمثالاً في الطريق، وسار بأبي من دمشق إلى آشور».

ومن الجدير ذكره أنه بعد انهيار المملكة الآشورية بقيت شمال مستقلة.
ممالك وسط سوريا وجنوبها.

مملكة حماة ولعش: عاصمتها مدينة حماة. امتدّت بين مملكتي بيت أجوشي ودمشق وأطراف البادية والجبال الساحلية. يُعتقَدُ أنّ سلالة حثية حكمت حماة في القرن التاسع ق.م، ثم في مطلع القرن الثامن ق.م استلم «زكّور» الآرامي الأصل حكمها.

حين قويت ضمت مملكة «لعش» المجاورة إليها، ما دفع الممالك الآرامية لتشكّل حلفاً ضدها بقيادة «بر أدد» الثالث ملك دمشق، ضمّ الحلف ستة عشر ملكاً آرامياً. واجهت آشور في معركة قرقر الأولى 853 ق.م، بتحالف كبير، كذلك قادت تحالفاً ضد آشور في معركة قرقر الثانية 720 ق.م.

مملكة دمشق⁽²⁾: مركزها دمشق، تبلورت في أواخر الألف العاشر ق.م، وكانت من أقوى الممالك الآرامية. حاول ملكها «بر أدد» الثاني توحيد الكيانات الآرامية في سوريا الداخلية،

(1) انظر: نقش آفس. انظر: فصل الكتابة العربية لاحقاً.

(2) دمشق ومنطقتها في النصوص المصرية وردت باسم: «إ ب و م» في الثلث الأول من الألف الثاني ق.م.

في النصوص الحثية العائدة إلى القرن 13 ق.م وردت باسم «أبينا».

وقاد تحالفاً آرامياً ضد آخاب ملك السامرة، حين برز الخطر الآشوري، تصالحا. وقاد تحالفاً ضد آشور في معركة قرقر الأولى.

آخر ملك في دمشق هو «رَدَّين» 740 - 739 ق.م، حاول تشكيل تحالف ضد الآشوريين ضمَّ مدن السامرة وصور وعسقلان، كما حاول تنصيب زعيم آرامي على القدس. احتلَّ تجلات فلاصر الثالث، في 732 ق.م دمشق، دمرها وأعدم ملكها وقسمها إلى أربع مقاطعات.

مدينة دمشق وردت في نصوص الكرنك في منتصف الألف الثاني ق.م بلفظة «تمسق». وفي نقش آفس ورد اسم مملكة دمشق بأرام.

الطريف هنا أنه في النصوص الآشورية العائدة إلى القرن التاسع ق.م جاءت تسمية وصفية لدمشق: مات شار إمريش (البلاد الشهيرة بحميرها).

ثمة أيضاً نقش مسماري عثر عليه في موقع تل سكا قرب دمشق، ويُعدُّ هذا النقش أول نص مسماري يعثر عليه في منطقة دمشق. تاريخ النقش عائد إلى السوية الرابعة في الموقع التي تعود إلى 1800 - 1600 ق.م، لغة النص بابلية- مارية قديمة، والرقم مهشماً عدا الأسطر العشرة الأخيرة، تقنية صناعته تماثلُ تقنية صناعة الرقم في ماري، ربما يشير النص إلى علاقة بين هذا الموقع ومدينة ماري، والرسالة موجهة من «كنخيليشو» حاكم سكا إلى زمري ليم ملك ماري، جاء في النص:

«إلى أخي زمري ليم»

قل: «هكذا قال كنخيليشو أخوك

إله الشمس، ودجن ولمدار الأيام أخي

لبعيش

من جهتي... سليم

من جهة أخي ليسلم

سمعت أن الأعداء هاجموا بلاد أخي

أخي أخباره ليرسل

الشيوخ... ربما... جاءوا

... أمام...

قواتنا

إلى أخي...»

اسم كنخي ليشو، ربما يدل على الكنعانيين وربما هو أمير كنعاني مقيم في دمشق أي في سكا، دل على أن دمشق كانت مملكة أمورية الثقافة واللغة من مطلع الأولى الثاني ق.م.

انظر: د. فيصل عبد الله- اكتشاف أول نص مسماري في دمشق- مجلة جامعة دمشق- 2011.

من الممالك الأخرى في الجناح الشامي، الجزيرة الفراتية،: تيمانا- بيت بخياني- بيت زماني- بيت عديني- إمارات الفرات الأوسط. الدكتور أبو عساف يشير إلى أن الآراميين لم يبرحوا المناطق الممتدة إلى الشرق من نهر الأردن والممتدة من نهر الزرقاء جنوباً إلى منابع الأردن شمالاً.

كشفت تنقيات موقع «دير علا» شمال مصب نهر الزرقاء عن نصوص آرامية مهمة. القبائل الآرامية في بلاد الشام كانت منتشرة من سهول حمص شمالاً إلى سهول حوران جنوباً ومن البقاع غرباً إلى البادية شرقاً.⁽¹⁾

آراميو منطقة الجزيرة السورية وطور عابدين:

تقدم الوثائق الآشورية العائدة إلى ملك آشور «أدد نيراري» الثاني أدلةً على استقرار قبائل آرامية في منطقة جبال طور عابدين، وضواحي نصيبين، ثمّة ثلاثة أمراء آراميين: «نور أدد» في نصيبين، و«ماملو» ملك خوميرنيا، سلطان تبه إلى الشمال من حران، و«موقورو» ملك جدارة إلى الجنوب الغربي من ماردين، واسم الإمارة «راداماتا».

بيت زماني: شمال طور عابدين على ضفاف دجلة، مدينة «اميدي» ديار بكر الحالية كانت عاصمتها. وملك هذه الإمارة «عمي بعل» تمرد على الآشوريين بعد فترة من الخضوع لهم، وتحالف مع أمير مدينة سينابو «بوررا ماتو» ضد آشور. قضى ناصر بعل الثاني في 879 ق.م على تمرد، صلب أمير سينابو وخلع ملك بيت زماني واستبدل به أخيه «إيلاننو».

بيت بخياني: جوار منابع الخابور اتخذت من «جوزن» (تل حلف)، عاصمةً لها منذ أواخر القرن الثاني عشر ق.م. سيطرت على جزء كبير من حوض الخابور الأعلى، وجاورتها مملكة نصيبين من الشرق وبيت عديني من الغرب. عثر في موقع المدينة على قصور ومعابد ومنحوتات ونص آشوري.

بلاد لاقى: تشمل الجزء الجنوبي من حوض الخابور وحوض الفرات، عاصمتها «سورو» (تل صوار. أقامت عدة عشائر فيها منها عشيرة حديفة).

أيضاً نفع على دلائل تشير إلى استقرار الآراميين على ضفاف الفرات بين العشارة وبلدة العبيدي في العراق، وبلاد سوحى ومقرها عانا الحالية. والمُعطى العام للكر والفر الآشوري

(1) علي أبو عساف- الآراميون- 1988.

على الآراميين وإماراتهم، أنه في البدء كان رفضاً لمكون ارتحالي بدوي يملك أسباباً سلبية في التفاعل مع الحالة الزراعية والتجارية والمدنية، ثم مع معالم الاستقرار الآرامي والتفاعل صار بالإمكان أن يحتويهم الآشوريون لغايات السياسة والاقتصاد والتجارة. نلاحظ في تطور تلك العلاقة التدرج من رفض الآراميين إلى الاعتراف باستقرارهم ولكن تحت السيادة الآشورية.

بيت عديني: عاصمتها مدينة تل برسيب، وربما اسمها «كتك»، امتدت على حوض الفرات من كركميش وبلاد لاقبي ووصلت حدودها الشرقية إلى نهر البليخ، أما حدودها الشرقية تحت بلدتي الباب واخترنن.

بيت أجوشي: تقع في سهل العمق وحوض عفرين إلى الشرق منها تقع إمارة بيت عديني.⁽¹⁾

واتجاهاً إلى جنوب بلاد الشام نلاحظ في منطقة سهل الزرقاء في الأردن وجوداً آشورياً مباشراً في مواقع تل الرميث وتل أربد وأبو الخرز وتل السعيدية وتل علا الذي يبدو أنها كانت جزءاً من مملكة دمشق الآرامية وخضعت للآشوريين.

وفي المقابل نجد أن الممالك العمونية والمؤابية والإدومية كانت تدفع ضريبة الولاء للآشوريين، لكنها لم تخضع لاحتلال عسكري مباشر.

مملكة عمون: حدودها متغيرة بحسب الواقع السياسي والعسكري بالإجمال، يمكن تحديدها ما بين وادي الزرقاء شمالاً ووادي الموجب جنوباً. عاصمتها ربة عمون، جبل القلعة في عمان حالياً، واستمرت هذه المملكة من نهاية الألف الثاني ق.م، إلى منتصف الألف الأول ق.م، تركزت فاعليتها التاريخية في القرنين السابع والسادس ق.م.

لُقى الموقع: أختام، كتابات أهمها نقشٌ على آنية معدنية كُتِبَ عليها أسماء ثلاثة أجيال من الملوك العمونيين. وفي القرن الثامن ق.م تأثرت الكتابة العمونية بالفينيقية والعبرية، وخلال السيطرة الآشورية استخدموا الخط الآرامي. الرموز الدينية متنوعة تبعاً لتفاعلاتها لكننا نجد رموز المشرق: عناة وعشتاروت وبعل ودجن وأدد وإيل وشمش. (كفافي 2011).

(1) انظر - الآراميون - علي أبو عساف - مرجع سابق.

الآراميون - دويون سومير - دار أماني - 1988.

آراميو الجناح الرافدي:

استغل الآراميون في أثناء تغلغلهم ما أحاق بلاد آشور وبابل من جفاف وقحط وهبت رياحهم، حتى صار الاعتقاد أنّ انسياحهم القوي كان سبباً في نهاية حكم ملك آشور «تجلات فلاصر» الأول، حين احتلوا نينوى ثم هاجموا بلاد بابل حتى أخذوا عرشها بواسطة «أدد أبلا إدنيا» 1068 - 1047 ق.م.

يُلاحَظُ أنّ الحضور الآرامي في الجناح الرافدي كان أكثر حضوراً من جنوب بابل حتى الخليج العربي، ويبدو أنّ الحضور في الشمال كان أقلّ. الوثائق الآشورية لسلالة شاروكين قدّمت معارف عن ثلاث قبائل شكلت إمارات/ بيوت آرامية:

- الكلديون (كلد): توضعوا وسط بابل على ضفتي الفرات حيث نجد إمارات: بيت ذكوري جنوب بابل، وبيت شاكى قرب نيبور، وبيت أموكاني في أوروك، وبيت يكييني على ساحل الخليج العربي. ويشارُ إلى أن عشيرة كلدو كانت أقوى القبائل؛ إذ استطاعت حكم بابل ما بين 626 - 539 ق.م.

- الفقوديون (فقودو): إمارة جمبولو على ضفاف دجلة متاخمة لمملكة عيلام.

إمارة بلاد البحر الشمالية، مركزها مدينة نجيتو، تقع جنوب شرق إمارة جمبولو.

- الجوراسيميون (جوراسيمو) ومركزها مدينة أور. وثمة أسماء لقبائل آرامية أخرى صغيرة هي ربوع وروعا وأبودو وخلم وبلات وخندارو ورأساني وغيرها.

وتبعاً لقواعد الاجتماع البشري في التفاعل، فالمرونة هنا تتجلى في استيطانات آرامية سلمية اندمجت في بلاد بابل وآشور مع الديمغرافيا الأصلية، فنجد قبائل راهيقو وهاكارانو وكرامايا وإيتوع.

المعطيات التاريخية تشير إلى قوة الحضور الآرامي في الجنوب الرافدي في القرن التاسع ق.م، حين كان الانشغال الآشوري على أشده في محاربة آراميي الجناح الشامي. أيضاً نميز الفاعلية الآرامية الرافدية انطلقت متزامنة مع نهاية الممالك والإمارات الآرامية الشامية. «نابو أوكين زييري» تمكن من حكم بابل وهو آرامي من بيت أموكاني لكن تجلات فلاصر الثالث قضى عليه.

«أبلا إدينا» شيخ بيت يكييني الآرامي، حكم بابل في 721 - 710 ق.م، ساعده العيلاميون للوصول إلى سدة الحكم. والطريف هنا أنه حين عاد الملك «شاروكين الثاني» من معركة قرقر الثانية في الجناح الشامي عاد إلى بابل واستعادها من أبلا إدينا، هذا الذي فرَّ إلى بلاد البحر الجنوبية.

في زمن سنحاريب عاد الآرامي لحكم بابل؛ لكن الملك الآشوري هاجمه ففرَّ أيضاً. وانشغل الملك الآشوري بحروبه في سوريا فحاول الآرامي إياه الوصول إلى حكم بابل في 700 ق.م فأخفق. الجدير ذكره أن الآراميين في الجنوب الرافدي كانوا يتطلبون وعياً لقصة الملاحة والحروب البحرية، وهذا ما دفع سنحاريب إلى اعتماد المهجرين من مناطق الساحل المشرقي للقيام بالمهمة.

تقول الأخبار: بنى الكنعانيون الساحليون السفن وقادوها في نهر دجلة، ثم نقلت برّاً إلى نهر الفرات ثم تابعت إلى الأهوار ليسيّط سنحاريب على الآراميين المستقرين.⁽¹⁾ «أبلا إدينا» هنا فرَّ للمرة الرابعة ولكن نحو عيلام.

ومن طرائف الصراع الآشوري الآرامي أنّ شخصاً كلدياً آرامياً تمكن من حكم بابل في 692 ق.م، أما اسمه فهو «موشيزيب مردوك» (تارك/ هاجر/ الإله مردوك)، كان اعتقاده أنه يكره الإله البابلي الأساسي.

لجأ هذا الملك إلى إنشاء تحالف من شعوب جبال زاغروس والعيلاميين وقبائل آرامية ووواجه جيش سنحاريب عام 691 ق.م، والنتيجة كما تبدو تعادل بخسائر كبيرة للطرفين. وفي عام 689 ق.م ينتقم سنحاريب بتدمير بابل، وقيل: وجّه ماء الفرات ليغرقها.⁽²⁾

(1) منطقة الجنوب الرافدي كانت متعبّة للجيش من أجل الوصول إليها، يذكر الملك شاروكين الثاني في حملته على آراميي جنوب الرافدين: «السييل المؤدي إلى بابل كان سلوكه متعذراً وطريقه صعبة في التنقلات ومسالكه مغطاة بنباتات شوكية وعليقات كثيفة. وكانت الأسود والشعالب ترتاده وتراقص فيه والحملان.

أما الآراميون فقد عاثوا فساداً في الأراضي الزراعية... فقطعتُ العليقات الكثيفة وأحرقت الأشواك والأدغال، وبسلاحي صرعت الآراميين، أبناء قطع الطرق وأجريت مجزرة للأسود والذئاب».

انظر: فؤاد قرانجي - الآراميون والكلديون ودورهم في بلاد بابل.

(2) انظر: فاروق إسماعيل 1997.

عرب الألف الأول ق.م:

في عام 853 ق.م قال «شلما نصر» الثالث: «في السنة السادسة من حكمي، خرجت من نينوى واقتربت من مدن منطقة البليخ، سرتُ من منطقة البليخ وعبرت الفرات فترة فيضانه، تسلمت ضريبة الولاء من ملوك بلاد الحثيين (كركميش)⁽¹⁾، وانطلقت من بلاد الحثيين صوب مدينة خلمان (حلب)... خرجت من خلمان واقتربت من قرقر، كان «أدد عزر» من دمشق و«أرخوليني» من بلاد حماة، واثنا عشر ملكاً من ملوك شاطئ البحر المتوسط قد ساروا لمواجهتي... اشتبكت معهم وأرديت خمسة وعشرين ألفاً من محاربيهم بقوة السلاح، وسلبتهم عرباتهم الحربية وخيولهم وعتادهم الحربي، وكى ينقدوا حياتهم ولّوا هاربين»⁽²⁾.

عدة نقاط تستوقفنا في هذه النصوص، فالمعلوم أنّ الملوك الآشوريين يلجؤون إلى المبالغة في نتائج معاركهم، والمعطيات التاريخية لا تشير إلى غلبة أحد على الآخر. فيبدو أنّ المعركة أساءت إلى الطرفين وانتهت كما بدأت.

اعتراض آرامي شامي على التمدد الآشوري، وفي المقابل محاولات إثبات الذات الآشورية في الجناح الشامي. النقطة الأخرى التي تهمننا هنا هي ذكر جنديبو العربي الذي جاء بألف جمل، أي أننا أمام أعداد مهمة من المحاربين العرب من راكبين ومشاة وهكذا.

(1) بعد زوال المملكة الحثية بفعل شعوب البحر، يبدو أنّ تحركات حثية بشرية هاربة استوطنت في شمال سوريا واختلطت مع الآراميين، فلا يمكن النظر إلى ذلك على أنه فاعلية ديمغرافية حثية فقط.
(2) فاروق إسماعيل - اللغة الآرامية القديمة. وفي المقابل ثمة نص ورد في كتاب: د. عيد مرعي في مؤلفه «تاريخ سورية القديم»: «انطلقت من الفرات واقتربت من حلب. خافوا من القتال معي، وتجمعوا عند قدمي. تلقيت فضة وذهباً ضريبة ولاء منهم. قدمت أضاحي للإله ادد الحلبي. انطلقت من حلب واقتربت من مدن إرخوليني ملك حماة. وأخضعت مدنه أدينو وبرغا وأرغانا، واستوليت على ممتلكاته وغنائه وموجودات قصوره، وأضمرت النار في قصوره. انطلقت من أرغانا واقتربت من قرقوا.

دمرت قرقوا عاصمته وخربتها وأحرقتها بالنار ألف ومئتا عربية حربية، وألف ومئتا حصان ركوب، وعشرين ألف رجل لأدد عزيز (ملك) بلاد الحمير (دمشق)، وسبعمئة عربية حربية وسبعمئة حصان ركوب، وعشرة آلاف رجل لإرخوليني (ملك) حماة، وألفي عربية حربية، وعشرة آلاف رجل لأخاب ملك إسرائيل، وعشرة عربات حربية من إرقاتا/ تل عرقا شمال شرقي طرابلس لبنان، ومئتا رجل لماتينو بعلي ملك أرواد، ومئتا رجل من أوشانتو قرب جبلة، وثلاثون عربية حربية وعشرة آلاف رجل لأدونو بعلي ملك سيانو قرب جبلة، وألف جمل للعربي جنديبو، وعشرة آلاف رجل لبعشا العموني. هؤلاء الملوك الاثنا عشر استعان بهم للمساعدة ملك حماة. وقد خرجوا إلى المعركة ضدي. أرديت بالسلاح أربعة عشر ألفاً من محاربيهم، وجعل الإله أدد عاصفة تهب عليهم. ونثرت جثثهم بعيداً وجعلت فرقتهم الكثيرة تنتشر في السهول. وجعلت دمهم يسيل بالأسلحة. لم تكف السهول لدفنتهم وأقمت بجثثهم سداً على العاصي وكأنه جسر...» ص 262.

ربما كانت تقع مناطق قبيلة أو عشيرة جنديبو العربي على أطراف البادية الشامية، لكن آخرون يشيرون إلى أنها تقع في جنوب مملكة دمشق الآرامية. ونحن نعلم أن ذكر العرب هنا هو أول ذكر موثق في الوثائق، وأن يكون هناك حضور عربي بهذه الضخامة، فهذا يعني مرور وقت على تكوينهم وتأسيس جيش مهم، في وقت كانت تؤسس الممالك الآرامية. ليس ثمّة صراع عربي آرامي حينها، فالوثائق لا تذكر أي صدام بين المكونين ذي الأصل الواحد. في ذكر العرب في المشرق تحدثت وثائق «نارام سين»، في نهاية الألف الثالث ق.م، عن استيلائه على أرض متصلة بأرض بابل كان سكانها من العرب Araba -Ariba. ربما هذا المكون العربي في الجناح الرافدي أساسه عرب شرق شبه الجزيرة العربية وانسيابهم بالتجارة والتفاعل، فنحن نعلم أن شاروكين الأكدي جدّ نارام سين حارب قبائل عربية في ماجان على سواحل عُمان في الخليج العربي. كما ذكرت معطيات القرن الحادي عشر ق.م، حملة بدوية قام بها جمّالون من شبه الجزيرة العربية إلى سوريا.⁽¹⁾

القوافل العربية آنذاك كانت تأتي إلى المشرق محملة بالبخور والعطور واللبان من اليمن، كما كان العرب يتاجرون بالصوف المصبوغ بالأرجوان في بابل وآشور، حيث كانوا يشترونها من مصر وربما من الساحل المشرقي. وطرق التجارة آنذاك كانت تنطلق من البحر الأحمر إلى الجناح الرافدي مجتازة الجناح الشامي ومدنه، ما يقارب مسافة 1000 كيلومتر. وبعد أن تعرفوا على طريق دمشق/ تدمر/ الفرات، استطاعوا اختصار الطريق إلى أقل من النصف. وثمّة طريق آخر يخرج من البحر الأحمر إلى تيماء فدومة الجندل حتى بلاد بابل، كذلك الطريق من البحر الأحمر إلى يثرب فحائل إلى أور جنوب الرافدين.⁽²⁾

هنا تحرينا الجانب الحضري العربي في تفاعلاته التجارية، لكنّ للقصة حبكةٌ أخرى في معالجات علم الاجتماع البشري. فالعرب لم يكونوا في تجوالهم تجاريين فقط، فثمّة مكونات مترحلة أولية الثقافة، كما حال البدء لدى الأموريين والآراميين، هذه المكونات أثّرت في حركة التجارة الدولية آنذاك عبر قطعها الطرق لغزو القوافل التجارية ونهبها. الوثائق

(1) في 1300 ق.م، أصبح الجمّل وسيلة مهمة في التجارة بدل الحمير. والعرب هنا سباقون على المشرقيين في منجز النقل هذا. الجمّل يشرب مئة وثلاثين ليترًا من الماء مرة واحدة، ويستطيع البقاء دون ماء مدة سبعة عشر يوماً في طقس تبلغ درجة حرارته 57 درجة مئوية. «أرنولد توينبي» يشير إلى أن استئناس الجمّل جعل بدو السهوب العربية أشد خطراً على جيرانهم المتحضرين من ذي قبل. تاريخ البشرية.

(2) انظر: د. بشار خليف، 2011.

الآشورية عبّرت عن مدى انزعاج آشور من الحضور العربي البدوي غير المتحضر، لكنها تعاملت مع الأماكن الحضارية العربية كما تعاملت مع مدن الأموريين وغيرهم والأساس في ضريبة الولاة.

المكونات المترحلة وقوتها تتناسب طردياً مع ضعف المراكز الحضارية والمدنية، فكلما ضعفت آشور مثلاً، زاد الحضور العربي وتوغل في مناطق جديدة⁽¹⁾. وحروب الآشوريين مع العرب لدرء مخاطرتهم عن آشور وحدودها الغربية، ولحفظ حركة التجارة أعتبتهم؛ لهذا لا نستغرب أن قصر «آشور بنيعل» الآشوري احتوى على منحوتات جدارية تظهر أهمية الحروب الآشورية ضد العرب. والمواجهات الآشورية هنا تركزت في معظمها في بلاد الشام وشمال شبه الجزيرة العربية، وسوف نفصل ذلك في فقرة الصراع الآشوري العربي.

التمدن الآرامي سبق «التمشرق» لعرب سوريا؛ إذ كان لا بد من حروب وتفاعلات سلبية وإيجابية حتى يتم تمشرق العرب ودخولهم في العباءة الديمغرافية الأمورية/ الآرامية، بحيث يبطل التمييز بين هذه المكونات ذات الأصل الواحد⁽²⁾، لكن البيئة الطبيعية أثرت في الشخصية الجماعية للمكون، فكلما كانت البيئة قاحلة وغير متنوعة وغير حيوية، فإن هذا مدعاة لإطالة وقت التفاعل والتحضر في بيئة حيوية ومتنوعة، وهذا ما حصل للعرب في سوريا؛ لهذا سوف نتظر احتواءهم في النسيج المشرقي حتى القرون الميلادية الأولى ولا سيما القرن الثالث الميلادي على أقرب توقع.

«جواد علي» يقارب الجغرافيا العربية في وثائق آشور ومن جاء بعدها، فلفظة الأعراب وباديتهم جاءت من: Arabae- Arabae وهي شبه جزيرة العرب وامتدادها الذي يكون بادية الشام حتى نهايتها عند اقتراب الفرات من أرض بلاد الشام، فالفرات هو حدها الشرقي، أما حدها الغربي فأرض الحضر، وتدخل في العربية بادية فلسطين وطور سيناء إلى شواطئ

(1) «تويني» يتحدث عن معاناة شبه الجزيرة العربية في القرن الثامن ق.م، كتفجر سكاني أدى إلى ارتحالات وانسياحات نحو المناطق الخصيبة (تاريخ البشرية)، كضربة حظ. ومن لائمه الحضور استوطن فتمشرق ومن لم يلائمه عاد إلى مراكزه العربية.

(2) «رونه دوسو» يشير إلى الشريط الأرضي الذي يشكل الساحل السوري الممتد من الجنوب إلى الشمال بين البحر المتوسط والبادية السورية بدءاً من البحر الأحمر إلى جبال طوروس، يشكل جزءاً مكماً لشبه الجزيرة العربية، بحيث إن الوحدة الحضارية مميزة إلى حد أننا لا نندش من تشكل وحدة عرقية على هذه الأرض هي «السامية». انظر: الديانات السورية القديمة.

النيل⁽¹⁾. ففي النصوص الآشورية ترد لفظة «أربي»، وفي النصوص البابلية: «ماتو أربي»: أرض العرب. وفي الآرامية «بيت عربايا».

الفاعلية الآشورية قضت قرابة ثلاثة قرون ابتداءً من القرن التاسع ق.م، لإخضاع العرب وحفظ طرق التجارة، وهذا ما سبب عداً وكرهاً للآشوريين من قبل العرب، لا سيما سلبو الحالة الاجتماعية التفاعلية. ويُشارُ هنا إلى أنه بعد حروب الآشوريين ضد العرب لا سيما الملك سنحاريب، حيث جاء هيرودوتس ليصفَ هذا الملك «ملك العرب والآشوريين» إجمالاً الحضورَ العربي في البادية الشامية حتى ضفة الفرات الغربية، ومن ثم حركة الارتحالات العربية من شمال شبه الجزيرة العربية، كانا في مرصد العين الآشورية، وهذا ما نتلمسه، كما في الفعل الآشوري، بالاعتراف بالأمر الواقع التاريخي للآراميين حين أسسوا مدناً وممالك، لكن كان على الآشوريين التمدد نحو منبع الارتحالات في شبه الجزيرة العربية لسيطروا ويأخذوا ضريبة الولاء من الممالك العربية المتمكنة.⁽²⁾

حروب آشور وأرام- إله وشيخ:

المقاربة هنا بين مكونين من أصل واحد هو جبل بشري ومناطقه، أموريون ثم آراميون، والآشوريون أبناء أموريي الألف الثاني ق.م، والآراميين أبناء زمنهم الحالي في نهاية الألف الثاني ق.م.

مكوّن أخذ اسمه من اسم إلهه «آشور»، وآخر سُمّي على اسم الشيخ الكبير «أرام»، والنتيجة واحدة هي سيطرة عسكرية آشورية وامتداد ثقافي آرامي سيغّب النزعة العسكرية الآشورية ولو انتهت سيادته السياسية. والمتتبع لوثائق تل العمارنة المذكورة آنفاً، يلحظ أنه منذ زمن أمنحوتب الرابع (أخناتون)، وتمكّن المكون الآرامي من فاعليته في الحضور مسبباً تجريد مصر من السيادة على الجناح الشامي إلى حد ما⁽³⁾. حتى إنّ الأخلامو سببوا إزعاجاً

(1) جواد علي- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام.

(2) «الهلال الخصيب امتداد طبيعي لشبه الجزيرة العربية جغرافياً، وليس ثمة فاصل طبيعي بينهما، فالعرب لم يكونوا يتجهون دوماً إلى غزو الأقاليم الحضرية فقط، بل للإقامة فيها، وليسوا فقط سكان شبه الجزيرة العربية وإنما البدو الذين يجوبون وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها وكل بادية الشام». الديانات السورية القديمة- رونو دوسو.

(3) جورج رو- العراق القديم- بغداد 1984.

لمملكة «دلمون» (البحرين)، وها هي رسالة تعود إلى القرن الرابع عشر ق.م يذكر فيها حاكمُ المملكة أنَّ الأخلامو نهبوا تمور بلاده.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: هل هؤلاء أسلاف الكلدانيين في الجنوب الرافدي؟

المعطيات تمنح دلالةً على أن الآراميين سيطروا باجتياحهم على جزء من الجناح الرافدي وعلى شمال سوريا ووسطها خلال القرن الرابع عشر والثالث عشر ق.م، وكان لهم مساهمة في طرد الحثيين والهوريين من بلاد الشام.⁽¹⁾

إنَّ تمعُّنا في الوثائق قصة تجلات فلاصر الأول في مطاردة الآراميين المنساحين: «ثمان وعشرين مرة عبرت الفرات خلف الأخلامو الآراميين...» وإن كان ثمة مبالغة أم لا فهذا يشير إلى حيوية بشرية في حال أولية من الثقافة تجتاح الجناح الشامي وتهدد التصاعد الآشوري. ويبدو أنَّ كل المحاولات الآشورية باءت بالإخفاق، حتى حين بلغ الصراع بين المكونين ذروته في 740 ق.م، ولم تنج آشور من الثقافة الآرامية بكافة مناحيها.

نحن نذكر كيف أنَّ بابل ثارت على آشور بزعامة ملك آرامي، ونعلم أنَّ تجلات فلاصر الثالث أنهى التمرد عام 729 ق.م، وأعلن نفسه ملكاً عليها، فقبل ذلك بخمسمئة عام تقريباً كان الآراميون المنساحون بثقافة أولية قد نهبوا بابل عام 1025 ق.م.

ومع بدء تأسيس الكيانات السياسية الآرامية في مطلع القرن العاشر ق.م في مناطق الجزيرة الشامية ثم مناطق الجناح الشامي، تغيرت معادلة الصراع الآشوري/الآرامي، وصار بالإمكان النظر إليه بوصفه صراعاً مدن وممالك.

استقر الآراميون سياسياً، وصار التمللم واضحاً من تدخلات آشور حين السبات المصري النسبي. تحالفت المدن بمن حضر في معركة قرقر الأولى ضد الآشوريين عام 853 ق.م، ثم في معركة قرقر الثانية 720 ق.م.

كان «شلما نصر الثالث»، 858 - 824 ق.م، ملك آشور قضى سنين حكمه في مهاجمة الممالك الآرامية، وقال: «في سنة حكمي الحادية والعشرين عبرت الفرات للمرة الحادية

(1) د. حسن جواد- حكمة الكلدانيين- بغداد 2001.

والعشرين، وزحفت على مدن حزائيل في دمشق، وسيطرت على أربع من مدنه، تلقيت ضريبة الولاء من الصوريين والصيداويين والجبيليين⁽¹⁾.

مع استلام تجلات فلاصر الثالث العرش في آشور، 745 - 727 ق.م، بدأت حملة جديدة في الجناح الشامي، وتمردات وتحالفات ضد آشور؛ كدمشق والسامرة وعسقلان وغزة امتنعت عن دفع ضريبة الولاء. فتمردت صيدا وصور بسبب قيود فرضها الآشوريون على تصدير الأخشاب إلى مصر، ونشأ تحالف بين ممالك فلسطين وشرق الأردن قاده حكام عسقلان وغزة ضد آشور.

ملك آشور يجتاح الجناح الشامي، فأخضع مدن الساحل المشرقي الكنعاني وقسمها إلى ست مقاطعات عسكرية، هاجم عسقلان وغزة وسيطر عليهما. ومدن أرواد وعمون وأدوم ومؤاب ويهوذا وشمسي (ملكة العرب) شمال شبه الجزيرة العربية، دفعت ضريبة الولاء والخضوع. وفي النهاية احتل دمشق عام 732 ق.م، أقوى الممالك الآرامية، ونفى ثمانية آلاف من سكانها إلى آشور وحولت إلى مقاطعة آشورية. هنا في هذه المعركة قُتل ملك شمال الموالي للآشوريين «فموا» الثاني⁽²⁾. وسيطرت آشور على الجناح الشامي كاملاً.

ثم تمردت المدن الشامية في عهد شاروكين الثاني ملك آشور 722 - 705 ق.م، تحالف شامي بدعم بسيط من مصر، قال شاروكين:

«حاصرت السامرة وأخضعتها. وهجرت 27290 من سكانها... أما الباقون فقد جعلتهم يمارسون حرفهم ونصبت قائداً والياً عليهم... حانونو ملك غزة، وريئي القائد العسكري من مصر خرجوا عند رفع لخوض معركة ضدي. ألحقت بهم الهزيمة.

خاف ريئي من صخب أسلحتي فهرب، ولم يعثر على مكان إقامة له... من ملك مصر، ومن شمسي ملكة العرب، ومن إتامرا السبئي تلقيت ضريبة الولاء من الذهب غبار جباله، وخيولاً وجمالاً... يوبيدي ملك حماة، الحقيير الذي لا يستحق العرش، الحثي السيء، الذي ركز تفكيره على ملكية حماة، حرّض أرباد وضمّر ودمشق والسامرة ضدي وشجعها علي، وسلح نفسه للمعركة⁽³⁾، حاصرته مع قواته واستوليت عليها. أحرقت قرقرو بالنار. أما هو فقد سلخت جلده».

(1) Op Cit 363.

(2) عيد مرعي - 2010 - مرجع سابق.

(3) مرجع سابق.

في عصر سنحاريب عادت بعض المدن للتمرد، ها هو ملك صيدا وكذلك عسقلان وغيرها، ربما بتحريض من مصر، هاجم سنحاريب، ملك صيدا يفرّ مع أسرته إلى قبرص، وسنحاريب صورَ ذلك على نحت بارز في قصره في نينوى. وسيطر الآشوريون ثانية وثالثة على التململ الشامي، والتحريض المصري أيضاً.

«أسر حدون» في 680 - 669 ق.م أرسل جيشه في حملة ضد مغتصب عربي لعرش دمشق، وفي صيدا تمرد ملكها مدعوماً من ملك كليزيا ضد آشور، فُقطِعَ رأسه ورأس داعمه، وهَجَرَ سكان صيدا إلى بلاد آشور ثم احتل مصر.⁽¹⁾

(1) الحذر المصري من الفاعلية الآشورية ظهر في محاولة دعم التحالف الشامي ضد آشور في معركة قرقر الثانية، الآشوريون كانوا ينظرون إلى مصر كياناً على وشك الانهيار؛ لهذا استطاع الملك تجلات فلاصر الثالث أن يستخدمَ عرب فلسطين وسيناء في مواجهة المصريين. عام 732 ق.م، يعين شيخ إحدى القبائل العربية جنوبي غزة في منصب خاص: «خفير بوابة مصر»، ثم يتقدم إلى دلتا مصر.

كان قدر العرب هناك أن يكونوا وسيطاً مهماً ليشهدوا المواجهة المصرية الآشورية. يذكر «ريدفورد»، أن مصر أيضاً حافظت على قبائل سكان «عربة»، ليس فقط من أجل تشغيل المناجم المواد الخام في مناطقهم ولكن من أجل السيطرة على تجارة البخور.

الاستقرار العربي كان مركزاً حول موقع تل ماسوس، من قبل عامو- ليك، هذه التسمية حرّفها الإخباريون العرب إلى العماليق.

نلاحظ اهتمام أسر حدون بالدعم المصري لتمردات المدن الشامية كصيدا وصور، وهذا ما جعل العين الآشورية حمراء على مصر. وعمد هنا إلى تأسيس عديد من القواعد في الجنوب ضد مصر، كما استولى على جنوب النقب وأقام حاميات عسكرية تمتد من رفح حتى بئر السبع. بعد اثنا عشر عاماً من اعتلاء أسر حدون العرش الآشوري. كانت قوات آشور تتحرك بحرية في شمال سيناء، أما الموالون من العرب لمصر فتشير الأحداث إلى اعتقال شيخ عربي قيّد بالأغلال وأرسل إلى آشور. وباستقراء منهج أسر حدون يتضح أنه كان يميل إلى ضم مصر للفاعلية الآشورية. فقد أشارت إحدى الوثائق إلى هجوم قوات آشور عبر شمال سيناء فرّدت على أعقابها، وكان ذلك مطلع ربيع 674 ق.م «في شهر أدارو، في اليوم الخامس انهزم الجيش الآشوري في معركة دموية أمام أعتاب مصر». لم ييأس أسر حدون، فها هو في معبد حران عام 671 ق.م يصلي ويضع تاجين فوق رأسه، إشارة إلى ضم التاج المصري إلى رأس آشور. والكسوف الشمسي آنذاك في تموز أشار إلى أن الفأل سيء لإعلان الحرب. مع هذا هجمت آشور حتى رفح. تحدثت الوثائق عن أراض رهيبة عبرها بجيشه، والثعابين ذات الرأسين، والكائنات الخضراء الطائرة التي توجب أن يتغلب عليها. تلقى جيش آشور العون من القبائل العربية المحلية، جيش آشور في دلتا مصر، جُرِحَ ملك مصر «طاهركا» خمس مرات، وهرب فاحتلّت مدينة «منف»، وأسرت عائلة الملك المصري أيضاً. في السنة التي تلت أعاد ملك مصر الهجوم واستعاد «منف»، الوقت وقت آشور بني بعل ابن اسر حدون، في 666 عادت آشور إلى مصر، ووصل جيشها إلى النوبة جنوباً، سقطت «طيبة» ونُهبت. وفي 663 ق.م عاد جيش آشور إلى بلاده، ومصر تبعت عرش نينوى. وفي قلعة «منف» بقيت حامية آشورية. الحرب العيلامية- الآشورية أدت فيما بعد إلى طرد الحامية الآشورية من مصر. انظر: ريدفورد- مرجع سابق.

وفي النصف الأول من الألف السابع ق.م استطاعت آشور أن تقيم سلاماً آشورياً على المنطقة الممتدة من زاغروس حتى البحر المتوسط بالقوة العسكرية. الإشارة هنا، التي تعني أهمية حضارية، إلى أن آشور أصبحت منذ القرن السابع ق.م دولة مزدوجة؛ فاللغة: أكديّة وآرامية، والثقافة: آشورية وبابلية.

ولأسر حدون قصة عرش، فبعد أن اغتال سنحاريب والدّه، ولأن زوجة سنحاريب الآشوري الأخيرة كانت من أصل آرامي، وتدعى «تقيا»، حصل تصارع على السلطة بين أبناء الملك المتوفى. «تقيا»، من جهتها سعت إلى أن يكون أسر حدون ابنها ملكاً على آشور. فتدخل الكهنة ورفضوا. وأبناء سنحاريب من غير «تقيا» كانوا يريدون «آشورياً» من بينهم للعرش، ووسط هذا الصراع اختفى أسر حدون في الجزيرة السورية ويقال ربما كليسيا.

عام 680 ق.م عاد أسر حدون إلى نينوى ملكاً، وأعاد بناء بابل مملكةً واحدة موحدة، فقد كان والده قد أغرقها بماء الفرات. ثم أبعده آرامي بابل من التعامل مع العيلاميين. الملاحظ أن عهد أسر حدون كان خالياً من الصراعات الآشورية/ الآرامية، 680 - 669 ق.م بموت الملك، جاء ابنه آشور بني بعل ملكاً، في حين حكم بابل ابنه الآخر «شمش شوم أوكين».

عام 652 ق.م وبعد وئام لمدة سبعة عشر عاماً بين الأخوين حاكمي آشور وبابل، تمرد ملك بابل على أخيه وتحالف مع عيلام والقبائل الآرامية وحكام المدن الشامية. وهاجم بابل وصد قوات عيلام في الجنوب، وسيطر على القبائل الآرامية جنوباً. بعد ثلاثة أعوام أشعل ملك بابل النار في قصره الملكي وألقى بنفسه فيها عام 648 ق.م. لم يقف آشور بني بعل هنا، بل ضم عيلام إلى آشور، وحين ثارت عيلام بعد سبعة أعوام عاد ودمرها عام 639 ق.م.

مات آشور بني بعل، فضعفت فاعلية آشور في وقت تصاعدت الفاعلية الميدية في الشمال، وتصاعدت فاعلية الكلدانيين الآراميين في الجنوب الرافدي بقيادة «نابوبو لصر» الذي أرغم آخر ملك آشوري على الاعتراف باستقلال الآراميين ومد نفوذه شمالاً وحكم عرش بابل عام 629 ق.م، وأسس مملكة كلدية/ آرامية فيها.⁽¹⁾

عام 614 ق.م انحدر الميديون من جبال زاغروس نحو آشور، فدمروها واحتلوها. والتقى الملك الكلداني الآرامي «نابوبو لصر» بالملك الميدي عند آشور، فعقدوا معاهدة صداقة

(1) فاروق إسماعيل - اللغة الآرامية القديمة - مرجع سابق.

وتعاون، وتصاهرا مصاهرة ملكية، فتزوج ابن نابوبو لصر «نبوخذ نصر»، ابنة ملكة ميديا «كيا كسريس» «أمّتيس».

في عام 612 ق.م التحالف الميدي/ الكلدي/ الآرامي يقضي على نينوى آخر معاقل الآشوريين. فرَّ بعض الآشوريين إلى مدينة حران على نهر البليخ، فأعلن «آشور أبلط» نفسه ملكاً على آشور في المنفى، ومضى التحالف الميدي/ الكلداني/ الآرامي نحو حران عام 610 ق.م، في حين قدمت مصر مساعدة عسكرية للملك الآشوري المنفي. فهُزم الآشوري، وحين حاول بعد عام استعادة حران فشل؛ فتقاسم الميديون والكلدانيون مناطق النفوذ كالاتي:

الميتانيون: المناطق الشمالية شرق دجلة.

الكلدانيون: المناطق الوسطى والجنوبية ومناطق غرب دجلة من الشمال.

في عام 607 ق.م كلف «نابوبو لصر» ابنه «نبوخذ نصر» بمهام عسكرية لطرد المصريين من سوريا، فنقذ الأمر.

في عام 605 ق.م، استعاد الجناح الشامي، وحين أراد أن يمضي إلى مصر تُوفِّي والده.

في عام 601 ق.م شنَّ حملة على مصر، فكان التعادل دون رابح أو خاسر.

في عام 589 ق.م حاربَ قبيلة قيثار العربية المتحالفة مع مصر.

في عام 587 ق.م احتل مملكة يهوذا لتحالفها مع مصر، فقتل ملكها وعيَّن «صدقيا» ملكاً عليها، وسبى ثلاثة آلاف شخص إلى بابل، فسُمي ذلك السبي الأول.

بعد حين تعاون «صدقيا» مع المصريين، ونبوخذ نصر احتل أورشليم عام 586 ق.م، وحاول صدقيا الفرار فقتل. وهُجّرَ تقريباً أربعون ألفاً من سكان أورشليم إلى بابل، فسُمي ذلك السبي الثاني.

التدخلات المصرية في شؤون المدن السورية وتحريضها ضد بابل دفعت نبوخذ نصر إلى مهاجمة مصر. بعد نبوخذ نصر وعدة ملوك من بعده، اعتلى نابونيد عرش بابل في 556 - 539 ق.م، وهو ابن شيخ قبيلة آرامية، وعلى عادة الرافدي مضى بحملاته إلى بلاد الشام وكذلك شمال غربي شبه الجزيرة العربية.⁽¹⁾

(1) فاروق إسماعيل - مرجع سابق.

حروب آشور والعرب:

لا يمكننا التغاضي عن المأساة المناخية في نهاية الألف الثاني ق.م، وما أحدثته من انهيار منظومة العالم القديم، وإلى انسياحات جديدة حاولت ملء الفراغ السياسي في مدن المشرق. قلنا: الآراميون المشرقيون، وما هم العرب الذين جالوا بين شبه الجزيرة العربية والمشرق، ربما بسبب تفجر سكاني ونقص الموارد؛ لذا سوف نتبع أخبارهم في الحوليات الآشورية منذ القرن التاسع قبل الميلاد. فهذا هو شلما نصر الثالث في 853 ق.م، يواجه التحالف الآرامي ومنه جنديبو العربي المسلح بألف جمل.

المكون العربي آنذاك كان على حال الارتحال يقيم أولاً يقيم، والأدنى ثقافة يُمثّل حالات غزو وقطع الطرق ونهب القوافل التجارية، وإذا كان بين مراكز قوى فربما يميل إلى جهةٍ ضد جهةٍ ليؤمّن مصالحه. الامتداد الجغرافي الطبيعي بين شمال شبه الجزيرة العربية وبادية الشام جعل هذا الحيز الجغرافي متاحاً أمام الجولان العربي للقبائل، وإن تزامن مع الحضور الآرامي، لكنه لم يشكل عقبة للفاعلية الآرامية، فربما كان التحالف هو المنتصر.

من شمال شبه الجزيرة العربية فبادية الشام حتى ضفاف الفرات حضر العرب ليلا مسوا الحدود الجنوبية الغربية للمملكة الآشورية. في توصيف الحال للحضور العربي وتبعاً للتنوع الاجتماعي، فمقابل مجموعات مرتحلة سلبية هناك قبائل استوطنت وامتلكت مقاتليها لشؤون دفاعية وتجارية. ذكرنا حملة تجارية في 1100 ق.م يقودها جمّالون نحو بلاد الشام، يبدو أنها تعود إلى مركز عربي في شمال شبه الجزيرة العربية، كما في دومة الجندل وتيماء وديدان في وادي العلا.

طرق التجارة حتمت الحضور العربي أيضاً في المشرق، سبق أن ذكرنا ذلك، التجار العرب كانوا يدفعون المكوس إذا مروا في أراضي المملكة الآشورية، هذا ربما يفسر الحضور العربي في بلاد بابل منذ القرن الثامن قبل الميلاد؛ فلعل المجموعات المسلحة بدوية الطابع والمرحلة أتعبت الأماكن الحضرية والمدن، وهؤلاء وصفهم الآشوريون في وثائقهم ليظهروا غرابة حياتهم وتفاصيل عاداتهم.

المتأمل في قصر ملك آشور، آشور بني بعل في نينوى سيلحظ منحوتاتٍ جداريةً تروي حروب آشور ضدهم. ومنذ نهاية القرن الثامن قبل الميلاد وسّع العرب محور ارتحالهم

نحو دمشق وتدمر وشرق الأردن⁽¹⁾، توصف الحال هنا بأنها عميقة التجذر، وفي التاريخ نفسه وبسبب التوسع الآشوري في الجناح الشامي نلاحظ زيادة ذكر العرب في النصوص الآشورية.

أدرك الآشوريون أيضاً أهمية خطوط التجارة الجنوبية؛ لذا سعوا إلى السيطرة على التجمعات العربية في شمال شبه الجزيرة العربية. ثمة ممالك عربية هي مشيخات دفعت ضرائب الولاء إلى الآشوريين؛ الملكة زيبية، والملكة شمسي، وامتد التأثير الآشوري إلى تيماء وسبأ وحيافة وخطي وغيرها. «شاروكين الثاني» ملك آشور يذكر انتصاره على ثمود وغيرها.

في عهد سنحاريب عندما تمردت بابل على آشور بدعم من عيلام ونصّب «ميروداخ بالدان» الثاني نفسه على عرش بابل، قضى ملك آشور على التمرد وأسر شقيق ملكة العرب «ياتيبي»⁽²⁾، ثم طارد أعراب البادية بقيادة «خزلع» ملك قيذار وملكة العرب من دومة الجندل «أدماتو». كذلك نجد حملات آشور بني بعل كانت تستهدف بعمق تدمر وجنوب دمشق⁽³⁾. هذا الملك طلب من شيخ قيذار واسمه «يوتح» أن يتكفل بحفظ الأمن في بادية الشام في شرق الأردن لصالح الآشوريين.⁽⁴⁾

الوثائق تقول: إن آشور نبينعل طهرّ قبيلة قيذار من آتامها بسكب الزيت وعقد معاهدة صلح معها: «أقسمتم بالمنزدة المحملة وبشربكم من الكأس، وبإيقاد النار بالماء والزيت ولبمس أحدكم صدر الآخر عساهم أن يدخلوا هذا القسّم في لحمكم ولحم إختوكم وأبنائكم وبناتكم، تماماً مثلما يدخل هذا الزيت لحكمكم».

الوثائق الآشورية تذكر أنه في 738 ق.م دفعت «زيبية» ملكة العرب ضريبة الولاء لآشور، كما قمع الآشوريون تمرداً من قبل «إديبي إلو» وهو شيخ عربي. قالت وثيقة آشورية:

«شمسي ملكة العرب.. كانت قد نكثت بعهدا الذي أقسمت أمام الإله شمش، وتحالفت ضد الآشوريين مع صور ودمشق وإسرائيل، وقد هربت ناجية بنفسها بعد انتصار

(1) يبدو أن الآشوريين كانوا ينظرون إلى المكون العربي آنذاك مكوناً عابراً، غير واعين أن ثمة استيطانات تحدث.

(2) كان من قادة التمرد ذاك «باسقانو» شقيق «ياتيبي» ملكة العرب.

(3) د. صباح الناصري- العرب وبلاد ما بين النهرين في الألف الأول قبل الميلاد- مرجع إلكتروني.

(4) تذكر الوثائق قيام ملك العرب «أبي يثع» مع قوات نبطية في هجمات على تدمر ودمشق في عهد آشور بني بعل. ردّ الآشوريون بإخضاع عشائر العرب بشكل كامل لآشور.

الجيش الآشوري على التحالف أما شمسي ملكة العرب في تل سقوري، فقد قتلت 9400 من مقاتليها وأسرت مئة ألف من رجالها! وأخذت ثلاثين ألفاً من جمالها وعشرين ألف رأس من قطعانها و5000 حِق مليئة بالتوابل، وأخذت آلهتها وممتلكاتها، ولكي تنجو بنفسها هربت إلى البادية مثل أتان، وأشعلت النار في خيامها.

وشمسي التي ارتبعت من قوة ساحي جاءت إلى آشور، ووقفت بين يديّ وجلبت لي معها البعران والنوق وصغار الإبل، وعينت مسؤولاً ليشرّف عليها وجاء عشرة آلاف مقاتل.

يركعون أمامي ويقبلون قدمي:

أقوام مسع وتيماء وسبأ وحيافة وبدانو وخطي وإربا إيلون

البلاد التي تغرب عليها الشمس».

الملاحظ أنّ ملك آشور أبقى على شمسي ملكة على العرب تحت إشراف مسؤول آشوري. وذكرنا سابقاً: كيف أنّ ملك آشور عيّن شيخاً عربياً خفياً على بوابة مصر. شاروكين الثاني أيضاً انتصر على أقوام ثمود وعباديدي ودمّر سيماني وعفة، وهم عرب يسكنون أماكن بعيدة عن البادية، فقد نفى من نجا منهم إلى فلسطين.

المكون العربي تتصدره قبائل قيذار في بادية الشام وشمال الجزيرة العربية. وقبائل ثمود وبنوت ومسع كانت مضاربتها بين تيماء ودومة الجندل. «نسيكو» كان شيخاً عربياً مسؤولاً عن وادي العريش، وبدو سيناء تحت الرعاية الآشورية. تخبرنا مسلة في موقع نمرود عن «ناس مصر والعرب، الذين ارتعبوا عندما سمعوا بانتصارات ملك آشور شاروكين الثاني».

في عصر سنحاريب طارد الآشوريون أعراب البادية الذين قادهم «خزعل» ملك قيذار و«تعلهُون» ملكة العرب. وطُردوا حتى شمال شبه الجزيرة العربية في دومة الجندل وانتصر عليهم، حيث أبقى «خزعل» حاكماً تحت السيادة الآشورية وأخذ تعلهُون إلى آشور، وأنشأ قواتاً من العرب ألحقها بجيشه.

كان ثمة تقليد آشوري يفرض على المدن التي احتلها بأن يأخذ أبناء الحكام إلى آشور ليعيد تأهيلهم وليكونوا رهائن دبلوماسيين لضرورة التعهد في الولاء. هنا مع العرب نجد أسر حدون في شهر أيار من عام 676 ق.م يفرض إحدى السيدات التي تربت في بلاط نينوى واسمها «تبوعة» ملكة على العرب، حيث أعيدت إلى دومة الجندل مع تماثيل الآلهة العربية المصادرة سابقاً من معارك معهم.

ضريبة الولاء على القبائل العربية لآشور كان مقدارها عشرة أرتال من الذهب وألف حجر، ربما كريم، وألف كيس من التوابل وخمسين جملاً. كذلك نجد توغل ملك آشور في أعماق بادية العرب ليسيّط على «بازو» (باصو) وهي على بعد 1500 كم. قيل: إنها «فلاة قاحلة تغطيها الأملاح، لا ماء فيها». ونحن علمنا كيف غزا أسر حدون مصر عام 671 ق.م. وقيل: أول آسيوي يخترق البحر الأحمر نحو أفريقيا. عرب ما وراء وادي العريش ساعدوا جيش آشور بناءً على طلبه لاختراق صحراء سيناء، قال النقش: «عندما أوحى ربي آشور لعرافة أن يجيب على طلبي، لغزو مصر، ابتهج فؤادي، ومدني كل ملوك العرب بجمال حملت عليها قرب الماء».

يبدو أنّ وعي آشور للحضور العربي أدركه متأخراً، حيث لم يأت هؤلاء للغزو والسلب فقط، بل كانوا قبائل كاملة تتقدم في الأراضي، وتسبقهم ثلة كبيرة من المحاربين ليشقوا لها الطريق. وفي المُجمل تمكن الآشوريون من السيطرة على العرب من منبعهم إلى مصبهم، قيل: أفسدوا عليهم طريقة حياتهم وعيشتهم حتى أصبحت البادية خلاءً لا يسكنها أحد إلا القليل، وأصبحت فلات تحمي حدود الدولة الآشورية. وعقب سقوط بابل تقريباً في منتصف القرن السادس ق.م أخذت القبائل العربية بالاستيلاء على المناطق الخصبة، ولا سيما شرق الأردن ومناطق أخرى في المشرق.⁽¹⁾

«توينبي» أشار إلى أثر المدينة السورية الذي انتشر بتأنيس الجمل من بلاد العرب إلى المرتفعات الخصبة الواقعة في الزاوية الجنوبية من شبه الجزيرة العربية.⁽²⁾

استنتاجات في أوانها:

قراءة نصف ألفية وأكثر، عاشت آشور كأنها مُعسكر مؤقت، صحيح أنّ ثمة ثقافة آشورية وملوكاً مثقفين ضمت مكتباتهم أرشيفاً ضخماً؛ لكنّ الحدة الآشورية انبثقت من معالم عالم مضطرب بعد انهيار العالم القديم. وزاد في الأمر انسياب بدويّ آراميّ مضى فيما بعد إلى التحضر وتأسيس كيانات سياسية، مع حضور عربيّ أولي بثقافة غزو وسلب إلى مكونات لم تصر كيانات سياسية بعد في المشرق. وما زال المشرق في هذه الحقبة عرضةً لتحالفات

(1) للاستزادة: مبحث د. صباح الناصري- مرجع سابق.

(2) توينبي- تاريخ البشرية- مرجع سابق. للتوسع أكثر يمكن العودة إلى كتابنا «نشوء فكرة الألوهة» لمقاربة أكثر للمكون العربي وطبيعته وتفاعلاته السلبية والإيجابية في المشرق.

مريضة كالتفاعل الآرامي الكلداني مع الميديين للقضاء على فاعلية آشور في نينوى وإنهاء آشور إلى الأبد. والنتيجة: ولّت آشور، وبقي الآراميون والعرب.

حال مدن ضرائر حتى ضمن المدن والممالك الآرامية، التي لم يوحدّها شيء سوى المصالح في تحالفات مؤقتة، كحال مدن الساحل الكنعاني الضرائر أيضاً، فقدّر المشرق أن تُعبّر المتواليّة التاريخيّة عن نفسها بصعود بابل الكلدانية/ الآرامية.

بابل الكلدانية الآرامية: «حتى الكلب الداخل إلى بابل يمنع قتله»⁽¹⁾

لمّا قضت المملكة الآشورية قرابة نصف ألفية في مقارعة الآراميين والعرب والتمدد حتى مصر، كانت الفاعلية الآرامية تأخذ أبعادها واستقرارها أكثر، ويبدو أنّ انتهاء الفاعلية السياسيّة للمدن الآرامية في الجناح الشامي عوّضها آراميو الجناح الرافدي.

كان «نابوبو لصر» الكلداني الآرامي زعيم منطقة بلاد البحر الجنوبيّة الرافدية إلى الجنوب من بلاد بابل، يسعى منذ أيام الفاعلية الآشورية إلى فعل ما يؤكّد فيه الحضور الوجودي للكلديين الآراميين.

الوثائق تذكر امتداده إلى مدينة أوروك ونهبها بدعم من عيلام، عيلام الحاضرة في تاريخ الجناح الرافدي واللاعبة على تناقضات ممالكه ومصالحها. الحاكم الكلداني الآرامي، امتدّ إلى مدينة سيبان أيضاً، نأواه الآشوريون آنذاك وهاجموه وانتصروا عليه. الاعتزاز بمن سبق مهم هنا؛ لهذا أطلق على نفسه اسم «ملك أكد». وفي عام 625 ق.م أخذ عرش بابل، وكما ذكرنا، تحالف مع الميديين وقضى على نينوى الآشورية.⁽²⁾

باختفاء الفاعلية السياسيّة الآشورية، حلّت فاعلية كلدة وآرام لتجبّ كل ما سبق وتبني عليه وتمضي مدة لا تتعدى مئة عام، لكنها أسست لمشرق جديد ثقافياً وحضارياً وتفاعلات إنسانية سبقت معالم الانفتاح الهلنستي. والجناح الشامي ومصر سيكونان في مرمى النظر البابلي الكلداني الآرامي. «نابوبو لصر» كلف ابنه «نبوخذ نصر» بمعارك غايتها تثبيت الوجود التاريخي لمملكة بابل، والابن قضى على احتلال مصر لكركميش ولاحق الجيش المصري الهارب حتى حماة وألحق الهزيمة به، كان هذا في عام 605 ق.م.

(1) آشور بنيعل في مخاطبته لأهل بابل حين وقوعها تحت الفاعلية الآشورية.

(2) الميديون هنا استولوا على كنوز نينوى الفاخرة وأرسلوها إلى بلادهم.

قالت الوثيقة:

«نبوخذ نصر حشد قوات أكد/ بابل، وسار على رأس قواته إلى كركميش...
عبرَ نهر الفرات ضد القوات المصرية... هاجما بعضهم بعضاً.
تراجعت القوات المصرية أمامه وألحق بها الهزيمة وسحقها...
بقايا القوات المصرية التي نجت من المعركة...»

أدركتها قوات أكد في منطقة حماة وألحقت الهزيمة بها، لم يعد أيُّ رجل إلى بلاده...»⁽¹⁾
بموت «نابوبو لصر» بعد عشرين عاماً من توطيد أركان الفاعلية الكلدانية الآرامية اعتلى
العرش «نبوخذ نصر» في 605 ق.م. والهمُّ الشاميَّ حاضر بقوة، ومن ورائه مصر، العرب
بحضورهم صاروا أمراً واقعاً ويتطور. التدخلات المصرية في الجناح الشامي أزعجت بابل،
فكان لا بُدَّ من مواجهة كلدانية آرامية لمصر عام 601 ق.م، قالت الوثيقة:

«جمعَ ملكُ أكد نبوخذ نصر قواته وسارَ إلى بلاد الحثيين (سوريا) وعبر بلاد الحثيين
منتصراً في شهر كيسليمو (كانون الأول)، خرج على رأس قواته وسار إلى مصر... في معركة
هاجموا بعضهم بعضاً وألحقوا بأنفسهم خسائر فادحة، وعاد ملكُ أكد وقواته إلى بابل»⁽²⁾.

بعد عامين من ذلك حتمت التطورات السياسية تحركَ الجيش من بابل نحو الجناح
الشامي، حاربَ القبائل العربية المعادية، وأورشليم اللاعبة على المصالح بين بابل ومصر
يجب تأديبها، وفي عام 587 ق.م، احتلَّ نبوخذ نصر أورشليم⁽³⁾ تنبيهاً منها على ألا تقفَ
في وجه المصالح المشرقية مع مصر، وعندما لم ينفذ التأديب عاد في عام 586 ق.م واحتل
أورشليم وسبى الآلاف من سكانها إلى بابل.

في 582 ق.م سيطر نبوخذ نصر على عمون ومؤاب، ومدينة صور القوية آنذاك التي
تربطها علاقة جيدة بمصر، حاصرها ثلاثة عشر عاماً ولم يتمكن من دخولها بسبب دعم
مصري.

فاكتفى ملك بابل بالاعتراف باستقلالية صور، وهي اعترفت بالسيادة الكلدانية عليها.

(1) عيد مرعي - تاريخ الرافدين - مرجع سابق.

(2) مرجع سابق.

(3) يعمد نبوخذ نصر إلى استبدال حاكم أورشليم بأخر هو «صدقيا» حتى يضمن ولاء أورشليم لبابل.

عام 562 ق.م مات نبوخذ نصر، وحكم بابل عدة ملوك لا يملكون أهمية تُذكر، حتى تميل الكفة السياسية لبونيد الذي اعتلى عرش بابل ثم انتهت بابل وفعاليتها على يديه 556 - 539 ق.م⁽¹⁾.

في بداية عهده حاول نبونيد ترتيب أحوال المشرق، فأعاد تنصيب «بعل عزر» ملكاً على صور التي ارتبطت منذ عهد نبوخذ نصر بتفاهم يعترف به أحدهم بالآخر. أم نبونيد كانت كاهنة معبد «سين» إله القمر في حران، ثم لجأت إلى بابل.

حكى نبونيد قصته:

«أنا نبونيد، ابن وحيد ليس له أحد. لم يكن في ذهنه استلام العرش الملكي. الآلهة والإلهات صلوا من أجلي، وسين دعاني لاستلام الحكم. في الليل جعلني أرى حلمًا قال لي فيه ما يلي: معبد سين في حران سيُدهُ بسرعة. أريد أن أعطيك كل البلاد في يدك.

الناس، سكان بابل وبارسيا ونيبور وأور وأوروك ولارسا، الكهنة، أناس مناطق سكن في أكاد، أخطأوا في حق ألوهيته الكبرى وارتكبوا إثماً في عدم معرفة الغضب المخيف لملك نَّار «سين». نسوا طقوسهم وتكلموا كذباً وزوراً، ككلاب افترسوا بعضهم.

جعلت الآلهة مرضاً وجوعاً ينتشر بينهم. هو «سين» أنقص سكان البلاد، أما أنا فقد جعلني أهرب من مدينتي بابل، وسلكت الطريق إلى تيماء، دادانو، ياداكو، خيراء، ياديخو حتى إلى يتربو (يثرب). عشر سنوات تجولت بينهم ولم أدخل مدينتي بابل».

الصراع بين الكهنة -كهنة مردوخ- والملك الجديد دفعه إلى مغادرة بابل بعد أن وضع ابنه ولياً للعهد وذلك في السنة السادسة من حكمه. التأثر بالمعتقد القمري لديه كان بتأثير أمه الكاهنة التي كتبتُ مرثيةً للإله سين⁽²⁾.

(1) يحظى الملك نبونيد بأهمية تجاري أهمية أختاتون في مصر، فالتهيؤات الدينية سيطرت على كليهما وسببتُ صراعاً بين الكهنة والسلطة الزمنية بما أودى إلى الفاجعة، كأن نبونيد أختاتون المشرق.

(2) «أنا (أدو - كبي) أم (نبونيد) ملك بابل، ونصيرة الإله سين... إنه إلهي وأنا معه، لقد كنت ألوذ به دائماً منذ طفولتي؛ فأنا التي حينما غضب الإله سين ملك جميع الآلهة على مدينة حران في السنة السادسة عشر من حكم نابوبو لصر، ملك بابل، وذهب صاعداً إلى السماء، رغم خوف المدينة وأهلها، ذهبت إلى المزارات المقدسة للإله سين، الموجودة في المدينة وترهدت له، وأنا التي تمسكت بأهداب ثوب سين ملك جميع الآلهة واتخذت من ألوهيته العظيمة ملاذاً في كل يوم وليلة، وأنا التي واصلت الولاء بخشوع في توصياتي إلى الإله سين وشمش وعشتار وأدد في السماء وفي العالم السفلي.

كنت متمسكة بأهداب ثوب الإله سين... وكانت عيناى تتطلعان إليه كل يوم وليلة، ولما كنت أمامه خاشعة متضرعة،

في الطرف الآخر كان ثمة فاعلية تصعد وحل أوانها الفرس الأخمينيون الذين بدأوا يهددون الحدود الشرقية لمملكة بابل⁽¹⁾. والطرافة الاعتقادية السياسية هنا أنّ وثيقة تتحدث عن التحرك الفارسي الأخميني إلى بابل لأن مردوخ إله بابل هو الذي أمر قورش بالتوجه إلى بلاد بابل للتخلص من نبونيد الذي خان مردوخ، وكهنة مردوخ فتحو أبواب بابل للجيش الفارسي «دخل قورش إلى بابل... أعلن سلاماً لكل بابل». نبونيد العائد إلى بابل هرب، وحين عاد أُسر. ثانية وثالثة فرغَ المشرق من رافعة حضارية، إلى عصرنا الحاضر.⁽²⁾

كنت أتضرع للآلهة في كل حين، ولم يغب عن ذهني التسبيح لإلهي الشخصي وآلهتي؛ إذ أدت لها كل الخدمات ولم أبخل عليها بكل ما هو نفيس.

طوال هذه الأعوام الخامسة والتسعين كنت أتردد إلى المعبد القدسي العظيم للإله سين، ملك جميع الآلهة في السماء، وفي العالم السفلي، وكان يعطف على كل أعماله الورعة الصادقة، ويصغي إلى صلواتي ويتقبل نذوري.

وأخيراً هدأ قلبه الغاضب فأصبح راضياً على معبده في حران والمقام المقدس الذي يبتهج في قلبه، ونظر إلى نبونيد ولدي الوحيد للملوكية، واتمّنه على حكم بلاد سومر وأكد، وحينئذ رفعت يدي إلى الإله سين وتضرعت إليه بخشوع وإيمان، أما أنا التي تعبدت للإله سين، وتمسكت بأهداب ثوبه فقد أعطاني ما لم يعطه أحداً غيري».

أضف إلى عمري أياماً عديدة وسنيماً من السعادة وحفظ لي الحياة.

لقد قضيت مئة وأربع سنوات سعيدة بالتقوى التي عمّر بها الإله سين قلبي. وكان بصري قوياً إلى آخر عمري، وسمعي جيداً، ويدي سليمتين، وكذلك قدمي، وكانت كلماتي منتقاة وكل الطعام والشراب ملائمان لي، وصحتي جيدة وبالي مرتاح، وأنا متمتعة بوافر الصحة والعمر الطويل وإني أتوكل عليك أيها الإله سين.

انظر: د. بشار خليف- 2018.

(1) أحست بابل ومصر بصعود الفاعلية الفارسية الأخمينية فلجأتا إلى عقد معاهدة سلام وتعاون بينهما عام 546 ق.م.

(2) في محاولات للموائمة بين الدخول الإسلامي العربي وغير العربي، إلى المشرق، الأبحاث العربية تتجه إلى اعتماد العنصر في إيجاد استمرارية ما للديمقراطية السامية، حيث إنّ مكونات المشرق ذات أصل واحد مع المكون العربي. وربما هذه الموائمة تصلح إذا أبعدا أبحاث علوم الاجتماع عن مطارحتنا التاريخية، لكن الحقيقة العلمية تستوجب مقارنة من نوع آخر، فالتطور البيئي الاجتماعي من بداوة إلى الثقافة الزراعية فالمدينة الطبيعي ضمن البيئة الطبيعية الواحدة. لكن اختلاف البيئات الطبيعية لا تحتمّ انسيابية تاريخية اجتماعية تعتمد العنصر وأصله، فنحن نعلم تأثر البيئة الاجتماعية بالبيئة الطبيعية وظهور شخصية الجماعة المتكيفة مع بيئتها الطبيعية.

من هنا النظر إلى الدخول الإسلامي إلى المشرق باعتقادنا ينبغي أن يقارب خصائص الجماعات الاجتماعية، ولعل مقارنة حضارة المشرق بنشوء زراعته ثم مدنه فكتابته فجملة المنظومات القيمية والرمزية والمعارية مع واقع شبه الجزيرة العربية التاريخي، يمنح دلالة على دخول مكوّن وإن كان من أصل واحد مع مكونات المشرق، لكن للبيئة الطبيعية دورها، فاختلاف البيئتين بين شمال وجنوب سيخلق حالة تضاد ثقافي ربما يشمل أيضاً الواقع الديني؛ لذا فنحن نرى أنّ الدخول الإسلامي للمشرق ينبغي مقارنته وفق قواعد علوم الاجتماع لا التاريخ فقط.

مقاربة لشخصية نبونيد (أخناتون المشرق):

«نبونيد شاء لاعتبارات عديدة إحلل إله القمر (سين) محلَّ الإله مردوخ، وإن كان مردوخ يمتلك أهمية وقيمة أكبر من سين، وفق السياق الرمزي المعتقدى والمجمعي أيضاً، غير أنَّ إله القمر كان يرتبط بإيقاع المجتمع وفق ظهوراته المتعددة، وعموماً كانت السنة عند الشرقيين وتقديم الطقوس المعتقدية المرتبطة بها مرتبطين بدورة القمر من حالة الهلال إلى حالة البدر.

كان إله القمر يمثل بهلال أو بهلال مع صورة على هيئة بشر واشتهر بالحكمة، ويشترك مع إله الشمس في شؤون العدالة. وكان خسوف القمر يُعدُّ من الحوادث المهمة والخطيرة في حياة المدن المشرقية، حيث يتطهر سكانها ويصلون ويقدمون القرابين حتى يعود القمر من خسوفه، وقد أعطاه الآراميون والعرب اهتماماً اعتقادياً.

ونحن نعلم أنَّ اعتبار القمر يعود إلى المشرقيين منذ الألف الثالث قبل الميلاد وسموه آنذاك «ننا» أو «نار»، ومعناه رجل السماء، كما سمَّاه الآراميون «شهر»، وعرب الجنوب أطلقوا عليه اسم «وَدَّ».

وانعكست ظاهرة الخسوف في الأساطير المشرقية حيث إنَّ السيدَ العالي «أنو» يرسل ملائكته الشريرة السبعة «سيتو» لمحاربة إله القمر، وعندما يتغلبون عليه ويصرعوه يعتم وجهه. هكذا تصورت الذهنية المشرقية آنذاك حركة خسوف القمر.

ويعزو الدكتور حسن فاضل جواد تركيز الملك الكلدني نبونيد على عبادة إله القمر إلى أنه كان تعبيراً عن نزعة اكتنفت مؤسسة الدولة؛ للرد على الجمود المعتقدى الذي كانت

وسوف نناقش هذا الموضوع في معالم الألف الأول ق.م، لاحقاً. مثال واحد ربما يوضح فكرتنا: إنَّ تحريم الثقافة الإسلامية النحت مثلاً أدى إلى تدمير منجز النحت المشرقي في تطوره الذي كان فناً قائماً بحد ذاته، نابغاً من عمق الشخصية المشرقية، ولا نجد مثلاً أن منحوتات مدافن تدمر المحتوية على شخوص واقعية تدخل في نطاق المعبودات، كان هذا الفن شعبياً كما في التصوير الفوتوغرافي حالياً. وبذا نجد أن فن النحت منذ ذلك الوقت دُفن لصالح الفريسكات ذات المظاهر الطبيعية لا المجسدة لكائنات. وهذا ينسحب أيضاً على المنظومة الفكرية المشرقية من الأسطورة صعوداً إلى الفلسفة. الدين هنا كان جواباً فلا داع للسؤال الفلسفي، كأن نقول: حلَّت قطيعة بين ماضي المشرق وحاضره. وأسهم في ذلك بالأساس سقوط بابل في 539 ق.م، ثم التفاعلات المدتيرائية المتوسطة في العصر الهليني فالهلنستي التي عبَّر المشرق من خلالها عن روحيته المنفتحة، ثم سبقى القاع الثقافي المشرقي فاعلاً مع الاحتلالات الرومانية والبيزنطية وصولاً إلى الدخول الإسلامي إلى المشرق.

تعيّشه معابد بابل ذات التقاليد القديمة، وذلك بإجراء تجديد شامل لجوهر المعتقد وشكله في آن واحد، حيث نجد ذلك في استبدال مردوخ بسين والإله الذي كان يعبد في سوريا شمالاً وشبه الجزيرة العربية جنوباً، ويبدو من وثيقة نبونيد أنه هرب بدفع من الإله سين إلى تيماء؛ حيث بقي هناك عشرة أعوام، ويبدو أنه ذهب مع حملة عسكرية؛ إذ يخبرنا نقش عُثْرَ عليه في حران يعود إلى نبونيد:

«لما ترك بابل وجاء إلى تيماء أخضع أهلها ثم ذهب إلى «ديدان» باداكو(فدك) وخيبرا (خيبر)، حتى بلغ يثربو (يثرب/ المدينة)» وكذلك يديخو (يديع).

ثم تحدّث عن صلح مع مصر وميديا والعرب Matara.bi.u. وقد ختم النقش بما يفهم على أن العرب المذكورين قد أرسلوا إليه الرسل واستسلموا له.

وفي مقاربة لخطوة الملك نبونيد نحو شبه الجزيرة العربية فإنّ ثمة أمرين مهمين دفعاه إلى ذلك:

الأول: كونها مركز مهم لعبادة إله القمر آنذاك خصوصاً أنه ترعرع وتشرب من أمه طقوس عبادته.

الثاني: هو البعد الاستراتيجي التجاري في تأمين خطوط التجارة؛ حيث إن السيطرة على تلك المنطقة تجعل التجارة الكلدانية تمتلك أقصر طريق برية للتجارة تربط بلاد الشام بالجنوب العربي.

ونحن نميل هنا إلى أنّ إقامة نبونيد في تيماء تأخذ بعداً معتقدياً/ سيكولوجياً أكثر من الأسباب التجارية، فالمعلوم تاريخياً ومن استقراء معالم التاريخ أنّ المحافظة على خطوط التجارة لا تتطلب وجود ملك في المحطة التجارية المستهدفة بل يكفي وجود محمية عسكرية تؤمن الخط التجاري، كما أنّ ما ورد في وثيقته يشير إلى تعبير «جعلني أهرب» أي أنّ الإله سين دفعه إلى الهرب إلى تيماء وهذه نقطة ينبغي الوقوف عندها.

على أنّ إقامة هذا الملك مع حاشيته ومعتقداته وطقوسه لا بدّ أن تُمدّد بقيم تفاعلية بين عرب الجزيرة العربية وبين الثقافة الكلدانية، خصوصاً أنّ امتداد هذه الفاعلية شمل حتى مدينة يثرب، وهذه خطوة متقدمة في التفاعل بين المشرقين والعرب في شبه الجزيرة العربية، فهنا حلّ المشرقيون على العرب وليس العكس.

ويبدو أنَّ انتشار اللغة والكتابة الآرامية عبر هذه الفاعلية الكلدانية قد عبّر عن نفسه في
واحة تيماء، حيث عُثِرَ هناك على أنصاب تحمل كتابات آرامية.

وقد عُثِرَ أيضاً على كتابة ثمودية تقول «رمح ملك بابل» ربما قصد كاتبها الملك نبونيد في
سيطرته على تيماء ومواقع شبه جزيرة العرب.

ويشير الدكتور جواد علي إلى أنَّ السنوات العشر التي قضاها الملك الكلداني في
الجزيرة العربية أبانت من الوثائق أنَّ يثرب كانت عامرة وقديمة، حيث أُحِقَّتْ بالمملكة
الكلدانية.

وكان نبونيد يتنقل مدة عشر سنوات في الجزيرة العربية، حيث يراجع أهلها وينزل بين
قبائلها ويختلط بهم، ثم يعود إلى عاصمته تيماء. ويظهر أنَّه تطَّع خلال إقامته ببعض طباع
العرب واقتبس بعض مصطلحاتهم حيث وردت في وثائقه.

ويعتقد بعضهم أنه جاءَ بأناس من الرافدين وأسكنهم في المناطق الحجازية وربما نقل
بعض اليهود المسيبين في بابل إلى يثرب، الذين أصبحوا يهود يثرب. وقد عثر على مسلة
للملك نبونيد في بابل تشابه مسلته في مدينة حران كما في مدينة تيماء.⁽¹⁾

(1) للاستزادة: د. بشار خليف- نشوء فكرة الألوهة- مرجع سابق.

فراغ سياسي مشرقي خرافي |

الحاجة المؤلمة - الفرس الأخمينيون:

مع احتلال الفرس الأخمينيون بابل لم يعد ثمة متوالية تاريخية في الموت والانبعاث لمدن أو ممالك، ماتت أسطورة تموز وأدون؛ لذا فإنّ السلام الذي حلّ بمجيئهم كان يحتاجه المشرق لاستعادة نفس حضاري إن أمكن. لم يعد ثمة وجود سياسي يُعتد به، سنجد فقط قيامة مشرقية/ مقدونية مع العهد السلوقي بعد الإسكندر المقدوني، ثم محاولات نهوض فاشلة لتدمر في وجه الإمبراطورية الرومانية. مع سقوط بابل انتهى العصر المشرقي وبدأ عصر هندو/ أوروبي، بحسب قول فيليب حتي.

حين حلت ساعة قيامة الفرس الأخمينيين كان أختاتون المشرق نبونيد في لطائفه القمرية، والكهنة في معبد مردوخ يحسبون ممتلكاتهم ووارداتهم، لا سلطة زمنية مهياة، وهذا ما اعترف به نبونيد بأنه لم يكن يفكر في حكم وسلطة. ولا سلطة دينية تملأ الفراغ السياسي إلا لمصالحها، التقت مصالح الكهنة مع صعود نجم الفرس الأخمينيين.⁽¹⁾

عام 555 ق.م سوف يحصل اتحاد بين مملكتي ليديا في شمال إيران، ومملكة فارس في جنوبها، وبمصاهرة ملكية بين المملكتين، يولد «قورش الثاني» 559 - 530 ق.م وهو المؤسس للمملكة المتحدة الفارسية الأخمينية.

«تويني» يعود إلى الورا قليلاً ليرى أن المستفيد من تدمير آشور بني بعل مملكة عيلام هم الإيرانيون الجبليون الذين يقطنون وراء عيلام، والذين استفادوا بذلك مباشرة هم الفرس الذين كانوا في المنطقة المعروفة باسم فارس/ لورستان. حسناً، بابل عاصمة المملكة الكلدية الآرامية مفتوحة الأبواب من قبل الكهنة للفرس الأخمينيين.

(1) الفرس من القبائل الهندو أوروبية، والمعطيات تشير إلى هجرتهم من جنوب روسيا هروباً من المناخ الصقيعي والمتجلد فيما يقارب بداية 800 ق.م. وسبق هؤلاء انسياح بشري للميديين في مطلع الألف الأول ق.م. في 700 ق.م تقريباً بدأ استقرار الأخمينيين في القسم الجنوبي الغربي من إيران، وأسسوا دولتهم الأولى، كان اسمها «بارسوماش». حتى 714 ق.م خضعت للأشوريين. وفي أواخر القرن الثامن ق.م، اتحدت بعض القبائل الفارسية تحت زعامة «أخمينس». فيما بين الربع الأخير من القرن الثامن وبداية السابع قبل الميلاد أقاموا في سهول جبال بختاري وخضعوا لعيلام، ويبدو أنهم استوطنوا في بعض أجزاء منها، وتمردوا على السلطة الآشورية، وبعد وفاة ملك فارس «جيشبش» انقسمت المملكة بين ولديه: قورش الأول الذي حكم المناطق الغربية من المملكة على امتداد حدود المملكة العيلامية، و«آريا رامنس» الذي حكم منطقة فارس 640 - 590 ق.م. وسيطر الميديون على فارس، وتحصل مصاهرة ملكية، حيث تزوج «قمبيز» ملك فارس من ابنة الملك الميدي «مندانة» فأتى أقوى ملك من هذا الزواج هو «قورش» الكبير. انظر: د. أسامة يحيى - أبحاث في تاريخ المشرق الأدنى القديم- 2014 - آشور بنبعل للكتاب الإلكتروني - بغداد.

دخل الفرس بسلام -في العصر الحديث نقول: دون طلقة نار واحدة- فلم يلجأ قورش إلى الحرب، وثمة تسامح نحو الأديان الأخرى، قال «توينبي»: «كان هنا أكثر تشريفاً وروعة»، وعدَّ أهل بابل بترميم المعابد، وسمح بعودة اليهود المسيبين إلى أورشليم. والجنح الشامي بدوره، الخارج من صراعات مؤلمة نسبياً، استسلمت مدنه للغازي الجديد.

وأبقى ملك الفرس الحكام السوريين في مناصبهم، لكنه وضع قائداً عسكرياً «مرزبان» لبابل وسوريا. الوثائق الفارسية التي استعارت الكتابة الآرامية وصفت سوريا «البلاد على الجانب الآخر من النهر».

نحو 330 ق.م كانت أكثر الوثائق الفارسية الخاصة بالإمبراطورية الفارسية تُكتب باللغة والكتابة الآراميتين. «توينبي» يتحدث عن اختراع ألفباء فارسية معتمدة حروفاً مختارة من المجموعة السومرية/ الأكديّة.

يقول: جانبَ الحظّ الألفباء الفارسية المسمارية في أن تحتفظَ بنفسها أمام ألفباء مستخرجة من كتابة فينيقيا (جبل) ومؤلفة من حروف أبسط وأوضح. (تاريخ البشرية ج2). قورش لم يدخل بلاد الشام، لكن خليفته «قمبيز» فعلها من أجل الوصول إلى مصر. رافدين هناك ومصر هنا، وما بينهما جناح شامي بقاؤه للأقوى.

مدن الساحل المشرقي الفينيقية خضعت للفرس، وكان لغزة فقط حديث آخر؛ لهذا شنَّ الفرس حرباً عليها وخضعت. السيطرة الفارسية الأخمينية على مدن ساحل المشرق منحت التجار مجالاً أرضياً قارياً واسعاً في البحر المتوسط بدعم فارسي سيزاحم النشاط التجاري الإغريقي.

«عكا» أصبحت قاعدة لسفن فارس من أجل الحملة على مصر، والمدن الساحلية الكنعانية دعمت جيش قمبيز بسفنها وأساطيلها عن طيب خاطر؛ لكنّها رفضت تقديم أساطيلها ومحاربيها حين فكرَ بغزو قرطاجّة.

صرفَ قمبيز النظر عن فينيقيي غرب المتوسط هناك، ومدن الساحل المشرقي حظيت باستقلال ذاتي آنذاك، وكان الأسطول الفينيقي عماد البحرية الفارسية في هجومها على اليونان.

485 - 465 ق.م. الإضاءة هنا أنَّ الإمبراطورية الأخمينية امتدت من بلاد النوبة في جنوب مصر حتى آسيا الوسطى وشمال غربي الهند.

في عام 525 ق.م سقطت مصر بقبضة فارس، وضمّت إلى الإمبراطورية الفارسية الأخمينية. السفن الفينيقية قدمت العون لجيش قمبيز.

أما عرب شبه الجزيرة العربية لا سيما في شمالها، فقد قدّموا الجمال لزيادة فرق المشاة بالدعم اللازم في الصحراء بين فلسطين ومصر، التقديم هنا كان على شكل استئجار للجمال.

في بابل استبدلَ بالحكام الكلدانيين الآراميين حكامٌ عسكريون من الفرس.⁽¹⁾ مرزابانات عشرون شكّلت جغرافية هذه الإمبراطورية، المرزبانة الخامسة شملت المشرق بأكمله ومصر وقبرص، شكّلت دمشق عاصمتها.

والملاحظُ أنَّ النقوش الرسمية للملوك الفرس لم تهتم كثيراً بالمسائل السورية على حدّ قول «كلينغل»، ويبدو أنَّ هناك اعتباراً لبلاد الشام كواسطة جغرافية استراتيجية لا بُدَّ منها للوصول إلى مصر، وضمن عدم تدخلها عبر هذه البلاد بشؤون المملكة الفارسية.

«كلينغل» يتحدث عن نصوص «النيرب» أنها أكدت الانطباع على أنَّ انتقال الحكم من نبونيد إلى قورش الثاني فقمبيز الثاني، لم يترك أثراً عميقة في سوريا.⁽²⁾

في فترة الرضوخ المشرقي الشامي للفرس كانت صيدا من أكثر المدن أهمية في الساحل المشرقي، خصوصاً أنَّ استقلال قرطاجة أثر سلباً في المكانة السياسية للمدينة الأم «صور». منذ القرن السادس ق.م، وضعت كل المُعمّرات الفينيقية نفسها تحت قيادة قرطاجة.

الكنعانيون الساحليون وكنعانيو غرب المتوسط احتفظوا بمراكز استراتيجية للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط. وقد استطاعوا تحقيق سبق على الهلنيين وأوقفوا بذلك توسعهم.

المؤشرات تتحدث عن امتداد إلى شواطئ مضيق جبل طارق الذي تمّتع بالسيطرة على الطريق البحري الواصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.

(1) عيد مرعي - تاريخ سورية القديم - مرجع سابق.

(2) كلينغل - مرجع سابق.

كذلك كانوا يسيطرون على كلا الشاطئين الواقعين بين النقطة الشمالية الشرقية من إفريقيا الشمالية الغربية والطرف الغربي من جزيرة صقلية، كما سيطروا على ساحل سردينيا الجنوبي.

وانتقالاً إلى جنوب بلاد الشام أيضاً نجد خضوع فلسطين والأردن للفرس، فقد عُثِرَ على ثلاث طبعات لأختام مطبوعة على جرار فخارية في موقع تل العميري تدل على أن «عمون» كانت مقاطعة فارسية وسط أدلة على استقلالية ما لعمون ومؤاب عن الفرس.⁽¹⁾ «ديفيد غراف» يعتقد أنَّ الفرس شكّلوا مقاطعة إدوميا في القرن الرابع ق.م.⁽²⁾

على الرغم من سلمية المشرق تستوقفنا ثورات وتمردات على الاحتلال الفارسي، في بابل عام 522 و484 ق.م تثور على فارس، ولكن يُخمد التمرد مع بعض الخسائر. يعزى فيما بعد إعادة ترميم وبناء معابد بابل التي دمرها «احشوروش» الفارسي إلى الاسكندر المقدوني.

في القرن الرابع ق.م وُحِدَت المدن صور وصيدا وأرواد في ظاهرة غريبة على المشرق، وأعلنت مركزاً جديداً لاتحادها في إنشاء مدينة طرابلس «تريبوليس = Tripolis» المدن الثلاث». «فطرابلس نشأت من اندماج ثلاث مدن منفصلة أقامها سكان صيدا وصور وأرواد».⁽³⁾

عام 351 ق.م تمردت صيدا على الفرس، وتزعمت هذا التمرد الذي انتشر في كل مدن الساحل المشرقي بدعم مصري. تسع مدن مشرقية ساحلية طردت الفرس منها فأعلنت استقلالها، واستأجرت هذه المدن أيضاً مرتزقةً من الإغريق. يشار هنا إلى امتداد الثورة لقبصر. ملك فارس «ارتحشتا» سار بجيش قوامه ثلاثون ألفاً من المشاة وثلاثون ألف

(1) زيدان كفاقي - مرجع سابق.

الباحث يشير إلى أن عمون ومؤاب ازدهرتا في العصر الفارسي، وقد دل على ذلك إنشاء طريق الملوك الطريق السلطاني الذي كان يعبر الأردن من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، والمعطيات تشير هنا إلى نشاط التجارة لهذين الموقعين مع الإغريق ومواقع ساحل المشرق.

(2) المرجع السابق. ثمة اعتقاد هنا إلى أن قبيلة قيذار الغربية كانت موجودة في إدوم ميناء تل خليفة، حيث شكلت طريقاً تجارية ربط بين مواقع شمال شبه الجزيرة العربية ومواقع بلاد الشام.

(3) عيد مرعي - مرجع سابق.

فارس، ملك صيدا «تنيس» هرب من صيدا⁽¹⁾، وسكان المدينة أحرقوا المراكب لثلا يهرب أحد.

هجم الفرس، وأحرقوا صيدا بسكانها فدمرت، نحو أربعين ألف إنسان لقوا حتفهم حرقاً وقتلاً، ثم أخضعت المدن الثائرة بعد عشرين عاماً، وفي إسوس 333 ق.م، انتصر الإسكندر المقدوني على «داريوس» الثالث ملك الفرس الأخمينيين، ويأمر بتأسيس مدينة جديدة تخلد انتصاره في موقع «مرياندروس» الفينيقي القديم القريب من إسوس، أطلق على المدينة اسم «اسكندرونة».

ملاحظة أخيرة هنا: عصر فارس في المشرق كان شحيح الوثائق، ومع هذا فإن القرنين اللذين خضعت فيهما بابل للفرس لم يبعدها عن تقاليدھا المحلية واستمرت القاع الثقافية والحضارية تفعل فعلها كما في مدن المشرق، هنا القاع المشرقية تتضمن أوجه النشاط الفكري والحياتي المحلي والإنساني الذي سيتبدى في مجالات عديدة سوف نقاربها في ثقافة الألف الأول ق.م في المشرق لاحقاً.

الهاليونيون في المشرق:

الإسكندر المقدوني 356 - 323 ق.م /Homo Noia/ وحدة البشرية:

في بلاد الإغريق (اليونان)، في أقصى الشمال الشرقي منها تقع مقاطعة مقدونيا، وهي سهلٌ فسيح يسكنه شعب خليط من سلالات متعددة كالتراقية والإليرية (الألبانية)، اللغة التي يتكلمون بها من اللغات الهندو الأوروبية.⁽²⁾

بين 480 و 360 ق.م دخلت بلاد الإغريق في حروب ونزاعات داخلية حتى تمكن فيليب الثاني من السيطرة على كل المدن الإغريقية الأوروبية التي تقع في الشرق من مضيق «أوترانتو» باستثناء إيروس وإسبارطة وبيزنطة.⁽³⁾

وحلّ سلام إغريقي بحلف كورنثة الذي قاده مقدونيا. المعطيات تشير آنذاك إلى تحول الإغريق من شعب رعوي بسيط إلى مزارعين بدأوا بالاستقرار والتمدن حيث زادت أعداد السكان كما يلاحظ.

(1) «ديودور الصقلي» يحكي عن اتصال ملك صيدا «تنيس» مع ملك فارس ووعده الأخير بمكاسب إن سيطر على صيدا، مما دفع ملك صيدا إلى تسهيل تسليم المدينة، ولاحقاً أعدم تنيس من قبل الفرس.

(2) يُعدّ المقدونيون أغارقة لكنهم ليسوا هلينيين.

(3) توينبي - مرجع سابق.

التفكير الإغريقي بمواجهة التمدد الفارسي الأخميني بدأ في أواخر عهد فيليب الثاني. «ولبانك» يشير إلى أنه عند اغتيال الملك فيليب كان ثمة فرقة عسكرية تبلغ قرابة عشرة آلاف رجل قد عبرت الدردنيل في بدء الحرب ضد الفرس، وحين تولى الإسكندر الحكم وجد الحرب بدأت نصفها.⁽¹⁾

في المقاربة لأحوال الفرس آنذاك، وصلت الإمبراطورية الأخمينية إلى حالة قليلة الترابط ومفككة؛ ما دفع مصر إلى الانفصال عنها وثوران الحكام المحليين ضدها، القبائل الجبلية خرجت عن سيطرة الحكومة الإمبراطورية. فيليب الثاني كان يدرك هذا؛ لذا وضع الفرس نصب عينه بعد أن تكاملت فاعلية الإغريق نسبياً.

الاغتيال المفاجئ وضع الإسكندر وجهاً لوجه مع مهمة ملحة يبدو أنها لاقت ترددات إيجابية فيه، كونه نشأ على أفكار معلّمه «أرسطو»، ويبدو أن البارانونيا التي كان عليها خلقت هالة وكاريزما خاصة به عبّر عنها خلال ثلاثة عشر عاماً 336 - 323 ق.م.

في عشرين عاماً من العمر قاد اليونان إلى غزو العالم القديم، ثمة مشروع يختلط فيه الدم بالاحتلال والجنون وعلم أيضاً وحيوية حياة. المتأمل في شخصية هذا الرجل سيقع على مشهد من يوقد النار ليُفجّر طاقة أو طاقات إنسانية خبيثة سوف نجدها في مطلق التفاعلات والحيويات المعاشة خلال وجوده وبعد موته لقرون عديدة.

رجل أدار ظهره لمعلّمه الذي لقّنه أن كل من ليس إغريقياً فهو عبد لهم، لحظة الرؤية كانت متقدة في ظلمة الفلسفة. تغلّب إنسان الإسكندر، مع حروبه وجموحه، على انفصال وحدة البشرية التي سعى إليها معلّمه.

قال أرسطو: الهلينيون وُلدوا ليكونوا أسياداً وغير الهلنيين يجب أن يكونوا عبيداً. وفي البدء رتب الإسكندر حدود دولته الشمالية، في تراقيا وإليريا، وقضى على الثورة في بلاده. في 334 ق.م، جهز جيشاً مكوناً من خمسين ألف محارب ليعبر الدردنيل نحو آسيا الصغرى، ولا بدّ له من استعراض وطني مهم؛ إذ إنه قام بزيارة رومانية إلى طروادة ليؤكد الوحدة الهلينية لمشروعه الأوسع، فلم تكن ثمة إشارات لمقدونيين حتى. إلى الضريح

(1) فرانك ولبانك - العالم الهلنستي - المركز القومي للترجمة - القاهرة - 2009.

التقليدي «لأخيل» سوف يتجه وطافَ عارياً حوله، ثم وهب درعه للربة أثينا واستبدله بدرع لأحد أبطال الإغريق الأقدمين⁽¹⁾.

ومضى نحو آسيا ووصل أنقرة ثم كليكيا، وفي «إسوس»، التقى جيش الفرس بجيش الإغريق 333 ق.م، هربَ داريوس الفارسي منهزماً وأصيب الإسكندر، ومع هذا أنشأ مدينة «الإسكندرونة» قرب إسوس لتخليد انتصار الهلينية على الفارسية. والدقة هنا أنه لم ينشئ مدينة جديدة بقدر ما أعاد تأسيس مدينة «مرياندروس» الفينيقية.

بهزيمة الفرس فُتحت أبواب الجناح الشامي للمشرق، التعارف السوري/ الإغريقي لم يكن هنا، فخلال أربعة قرون سبقت احتلال الإسكندر، كانت أجيال مبكرة من الهلنيين قد ترددت إلى سوريا ومصر تجاراً، كما كان منهم من خدم في جيوش مصر وبابل مرتزقة وكذلك في مجمل جيش فارس.

من إسوس انعطف الإسكندر جنوباً ومضى على طول وادي العاصي فسهل عكار وحتى ساحل المتوسط. ملك أرواد حارب مع الأسطول الفارسي، لكن ابنه الآن خضع بأرواد للإسكندر، «إستراتون» نائب ملك أرواد استقبل الإسكندر في «ماراثوس عمريت»: «وقدم له تاجاً من الذهب في دلالة على أن أرواد وعمريت أصبحتا للإسكندر.

كرّت سلسلة الخضوع له،، تُسلم دمشق، لم يذهب إلى دمشق، وكلفَ بارمينيون بها ثم جبيل وصيدا.

ولصور حكاية أخرى واجهها الإسكندر بالحصار سبعة أشهر، ساعدت صيدا جيش الإسكندر بمقاتلين وأسهمت سفنها في الحصار الإغريقي عليها، وأُجليَ قرابة ألف وخمسمئة من الصوريين إلى صيدا نساءً وعجائز وأطفال، كما قيل: إن صور أرسلت قسماً منهم أيضاً إلى قرطاجة قبل الحصار. انضمت أرواد وجبيل للجيش الإغريقي في الحصار، وكذلك مدن أخرى ساحلية وسفن من قبرص. وبعد سبعة أشهر استُوليَ على صور ولم تُدمر.⁽²⁾

(1) د. أسامة عدنان يحيى 2014 - مرجع سابق.

(2) كلينغل - مرجع سابق.

عندما استسلمت وسقطت مدن الساحل المشرقي ما عدا صور، هربت سفن هذه المدن في بحر إيجه التي كانت في خدمة الفرس وعادت إلى أوطانها. وفي مقابل اعتقاد «هورست كلينغل» أن صور لم تدمر، وهذا أمر صعب التصديق بعد حصار سبعة أشهر، يشير د. أسامة عدنان يحيى في بحثه إلى دمار صور، حيث قتل جيش الإسكندر ثمانية آلاف من السوريين، كما أعدم ألفين من سكانها وباع أكثر من ثلاثين ألفاً عبيداً، واحتفل في معبد ملقارت في صور بنصره، حيث أقام الألعاب والشعائر الدينية وقدم الأضاحي.

الملاحظ حول صور أنها حوصرت مدة خمس أعوام من قبل شلما نصر، وأمام نبوخذ نصر حوصرت ثلاثة عشر عاماً. ثم اتجه جيش الإغريق نحو فلسطين.

وغزة التي ناوت الإسكندر خضعت بعد شهرين من الحصار⁽¹⁾، هنا أصيب الإسكندر ثانية. وفي النهاية في عام 332 ق.م أصبحت بلاد الشام تحت الاحتلال الإغريقي.

ثم عبر الإسكندر نحو مصر ليحتلها ويمارس تفاعل الاعتقاد والتدين مع الديانة المصرية والإله آمون ويؤسس مدينة الإسكندرية⁽²⁾.

وعاد إلى صور في 331 ق.م ليقوم قليلاً وعينه على الفرات والجناح الرافدي والفرس أيضاً. كان قد عين حاكماً على ولاية سوريا يسمى «ستراب» وهو مقدوني، وعاونه مسؤول مالي كما عين حاكماً على دمشق. في حين أرسل أحد رجاله من حرسه الخاص إلى مدن الساحل المشرقي ليتولى الإشراف على المواصلات البحرية بين ساحل المشرق وأوروبا.

صيف عام 331 ق.م وخلف نهر دجلة قرب نينوى واجه الإسكندر جيش الفرس بقيادة «داريوس»، فهزم الفرس، واحتل بابل، قيل: إن بابل استقبلته استقبال الفاتحين⁽³⁾ وفرّ «داريوس».

(1) يذكر فيليب حتى أن حامية غزة التي قاومت الجيش الإغريقي كانت تضم كثيراً من العرب. انظر: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين.

(2) استصبح الإسكندرية في العصر الهلنستي بعد الإسكندر مقرأً أساسياً للثقافة الهلينستية والوريثة الشرقية لأثينا، حتى إنها أصبحت ثقافياً الثانية بعد روما في العصر الروماني.

(3) ثمة رواية ذكرها «أريانوس» تشير إلى أن الإسكندر حين عبر نهر دجلة متجهاً نحو بابل استقبله كهنة بابل ورجوه أن يتوقف عن زحفه إلى المدينة، وأعلموه وحيداً أن الإله بل أوحى إليهم أن دخول بابل في ذلك الوقت بعينه ليس في صالحه. انظر: أسامة يحيى 2014. ربما هذه الحادثة تعود حين عاد إلى بابل قبل موته وليس حين احتلالها. أبدى الإسكندر في بابل احترامه للمعتقدات كافة. حاكم بابل الفارسي سلم المدينة للإسكندر الذي عين قائداً عسكرياً لمقدونيا (ستراب) ومسؤولاً مالياً. وقيل: إنه في بابل أخذ بيد الإله مردوخ وقدم القرابين واتخذ الألقاب

«مازايوس» الخضم الفارسي للإسكندر في المعركة عيّنه الثاني والياً على بابل إلى جانب قائد مقدوني. وبعد سقوط بابل مضى الإسكندر نحو «سوزا» المقر الصيفي لحكام فارس، ثم إلى «برسيوليس» حيث نهبها وأشعل النار في قصرها الملكي انتقاماً على تدمير المعابد في أثينا من قبل أحشويروش الفارسي. توغل في بلاد فارس وتابع حتى جنوب بحر قزوين. وأطلق على نفسه حينها «سيد آسيا». عند البنجاب والسند كان يريد أن يتوغّل شرقاً بأكثر من ذلك، تَعَبَ الجيش وتمردَ فعاد إلى بابل.⁽¹⁾

الجدير ذكره هنا أنّ جيش الإسكندر في بداية انطلاقه كان عدده من أربعين إلى خمسين ألفاً، وحين وصل إلى مشارف السند كان عدده قرابة مئة وعشرين ألفاً.

وفي بابل عام 323 ق.م، فاجأ الموت الإسكندر في قصر نبوخذ نصر بعد ليلة حافلة بما يشاء من الحياة، وفي أثناء احتضاره سُئِلَ عمن يخلفه، فقال: أعظمكم قوة⁽²⁾.

الملكية. وأمر بإعادة ترميم المعابد وبنائها التي دمرها احشويروش الفارسي حين تمردت بابل. والظريف هنا أنه بعد شهرين من العمل بعشرة آلاف عامل لم يتم إزالة الأتربة عن آثار المعبد؛ لذا فإنّ إحياء المباني وتعميرها لم يكن في حياة الإسكندر. كما أمر بإزالة السدود الاصطناعية التي شيدها الفرس لمنع الملاحه إلى أعالي نهري دجلة والفرات خشية هجوم خارجي. قيل أيضاً: إنّه حفر مرفأ في بابل يتسع لألف سفينة حربية وأرسل مبعوثيه إلى مدن الساحل الشرقي لتجنيد مقاتلين وخبراء في الملاحه وشؤون البحر لغاية احتلال شبه الجزيرة العربية، حيث نقل قطعاً بالسفن الكبيرة من الساحل الشرقي إلى بلاد بابل. والملاحظة هنا أنّ مدينة أريدو كانت بوابة الرافدين للحركة التجارية آنذاك. (أسامة يحيى - 2014).

(1) عام 326 ق.م، وحين طلب الإسكندر من جيشه عبور نهر الهندوس نحو الهند رفض القادة الأمر لعدم اقتناعهم بجذواه العسكرية. غادر الإسكندر الاجتماع واختلى بنفسه أو حردَ لمدة ثلاثة أيام آملاً تغييرَ موقفهم، لكنّ القادة أصروا على رفض الأمر. بعد ذلك استدعاهم إلى اجتماع وقسمهم إلى اثنتي عشرة فرقة وأمر بإقامة اثني عشر مذبحاً لتقديم القرابين للآلهة. شكراً على النصر، ثم أقام احتفالاً ضخماً احتفل فيه الإغريق والفرس معاً وصلى الإسكندر من أجل وحدة البشرية. وفي عام 324 ق.م سرحَ الإسكندر الجنود القدامى من المقدونيين لإعادتهم إلى الوطن، واتهم بأنّه تخلى عمن نصره واستبدل بهم الأعداء أنفسهم الذين هزمهم الفرس. (الإسكندر والفكر الشرقي).

في المقابل يذكر د. العابد أنّ الجيش الإغريقي ثار على الإسكندر حين أراد إعادة المحاربين المقدونيين القدامى إلى مقدونيا، ما دفع الإسكندر إلى الاعتكاف ثم دعا زعماء الفرس وطلب مساعدتهم على إنشاء جيش من الفرس بشكل أساسي يتبع القواعد والنظام المقدوني. وبسبب ذلك تراجع جيش الإغريق عن رفضه وطلب الغفران والسماح وأقيم احتفال اختتم بالصلاة مع تمنيات الحب والوئام بين الفرس والمقدونيين وجميع عناصر الإمبراطورية. وبعد الحفل أمر الإسكندر بعودة عشرة محاربين قدامى إلى مقدونيا وبلاد الإغريق محملين بالهدايا. (2) تقول الروايات أيضاً: إنّه في احتضاره خلع خاتمه ووضعه في إصبع أحد قواده من الأصدقاء وقال بما معناه: للأقوى.

وظنَّ حُلُفاؤه أنَّ كل واحد قوي بما يكفي لخلافته، واحتدم الصراع لتبيان من الأقوى 323-281 ق.م، لكن الحاصل اقتسام الإمبراطورية، لنكونَ أمام إمبراطوريات أصغر؛ المقدونية في اليونان، البطلمية في مصر، السلوقية في سوريا.

في موطنه «مقدونيا» رفعت دول جنوب بلاد اليونان السلاح ضد مقدونيا. المعطيات أشارت إلى أنَّه خلال سبعين عاماً بعد وفاة الإسكندر تقاطر الإغريق إلى المستوطنات الجديدة، فمَنهم من أصبح مرتزقاً في جيوشها أيضاً.

تأملات شخصية في شخصية الإسكندر المقدوني 323 - 336 ق.م:

تدفع إلى الدهشة طراوة عود الإسكندر حين مضى في مشروعه متبعاً طريق أبيه العسكري. والمفارقة هنا نجدها في أنه مغامرٌ وطموح أقرب إلى الجنون الإيجابي، لكن الذي يخفى ويختبئ خلف كل هذا هو نموه ونشوؤه على مغامرة عقل قبل مغامرة الحرب.

العالمُ الفلسفي قدّم السؤال على طبق من عقل لهذا الشاب، لو أنه نشأ على الجواب لكان محدوداً، حتى في حروبه، وهي صفة ملازمة لمحدودية الإنسان العاقل، بقي سؤالاً يُطرح بين حرب وأخرى أو بين مدينة وأخرى، كما بين دين وآخر.

الوحدة الإنسانية التي شاء تحقيقها والتي بصمتُ بصمتها في العصور اللاحقة ودفعت السؤال إلى أفق أرحب لم تكتمل؛ لأنه رجل حرب يهوى السؤال، وليس رجل فلسفة يحارب الجواب اليقين.

نحن نعلم أنَّ الطفرات الكبرى في الحضارة الإنسانية قامت على طفرات بيولوجية/ عقلية/ جسدية، هنا كان الإسكندر طفرة وصلت مفاعليها إلى العالم المعاصر، إذا كان في اندماج الفلسفات والشعوب والأديان والاعتقادات، مروراً بتفجير طاقة إنسانية تفاعلية خلاقة، أدت إلى البدء بتفكير جدي بالتوحيد بالديانتين المسيحية والإسلامية، إذ إن ربهما إنساني وليس قومياً.

في عصر ما بعد الإسكندر، حيث العبور من الهليني إلى الهلنستي، نجد أنَّ ما هياً له الإسكندر قد حان أو انقطع، في الظاهر حروب وصراعات سياسية وما وراء الظاهر عالم من التفاعلات والاندماجات والمناقشات؛ فأفسح للفكر الإنساني ليتجه إلى الوحدة والتماثل.

المهيات هنا في زمن استغرق اثني عشر عاماً وثمانية أشهر، والبقية هلنستية بإخلاص. نرى أن العولمة الأولى في التاريخ البشري كان مؤسسها الإسكندر، واستمرار الشعلة منيرة كان بعد موته.⁽¹⁾

أحوال الطفرة ما قبل الهلنستية:

إن متتبع جهودية الإسكندر العسكرية يلحظ نواة الجيش الغازي قرابة خمسين ألفاً، وأصبحت تقريباً بعد اثني عشر عاماً مئة وعشرين ألفاً. هي حكاية أقاليم جديدة بشرها وجنودها؛ لكن الأهم هذا المخفي بين العتاد والجيوش والفرق، فثمة ظاهرة نجدتها في احتواء جيش الإغريق على عدد كبير من العلماء والمفكرين والأدباء والمتخصصين بشؤون العلوم والمعرفة، هذا غير العرافين ومجانين الجيوش. المعطيات تقدم جيشاً موازياً من العلماء⁽²⁾

(1) بين العولمة الهلنستية والعولمة المعاصرة- مقارنة نحن نعلم مدى التفاعل والاندخال والانسجام الذي حصل بعد موت الإسكندر المقدوني، حيث إن أفكاره الانسانية المخالفة لرأي معلمه أرسطو هيأت المناخ الحضاري آنذاك إلى مزيد من التفاعل والاحتكاك، بحيث أصبحنا أمام معطى إنساني جديد تجاوز شرط الوطن والقوم إلى الشرط الإنساني الأرحب؛ لهذا نلحظ في أدبيات هذه الحقبة مسألة الاعتراف بالآخر والتفاعل معه بندية ومساواة، هذا ما نلتمسه في المثلث الحضاري آنذاك (اليوناني- المشرقي- المصري) بل نجد تبادل الرموز الاعتقادية والدينية وخفوت للنعنعات الدينية والوطنية ومسائل الافتخار والتعالي والاستعلاء... وفي المقابل، في العولمة المعاصرة نلاحظ أن الوسائط والميديا أسهمت في شذمة الوعي الإنساني بين الشعوب، وتم عبر تلك الوسائط تبادل الأمراض اللانسانية من البطولات والفخر والاستعلاء، بحيث أحسنا هنا أننا أمام جنود محتمين بمتاريسهم ويقذفون الآخرين بوابل الأفكار المريضة في الوطنية والقومية والفخر والتعالي. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا حققت العولمة الهلنستية حقيقة إنسانية ووعياً إنسانياً مقابل عولمة الآن؟ سنتلمس الإجابة مع بعض التخمينات والاحتمالات. في العولمة الهلنستية كنا أمام مثلث حضاري متوسطي شكّل مركزاً إضافة إلى إيران، لكن عمق التداخل البشري المحقق في التجارة وهي رافعة الفكر والدين نحو الانتشار، بالإضافة إلى معالم الاحتكاك الهائلة بين الشعوب بشكل مباشر، دفع إلى عولمة شاملة إنسانية ناهيك عن التزاوج بين الشعوب منذ أن عمد الإسكندر إلى افتتاح هذا التقليد الإنساني. الشعوب آنذاك اكتشفت باحتكاكها المباشر، وليس الإلكتروني، أن الآخر شبيهها له طقوسه وأفكاره التي يجب احترامها والامثال بها، لا ننسى الأطقم المرافقة لجيش الإسكندر من علماء وفلاسفة ورجال علم... الخ، هو شأن الاعتراف بالآخر الإنساني وهذا أمر افتقرت إليه العولمة الإلكترونية بغياب الاحتكاك المباشر والاستعاضة عنه بالمجال الإلكتروني؛ ما أدى إلى إحكام العولمة - وهي هنا نتاج رأسمالي عالمي - قبضتها على معالم «لا إنسانية الشعوب» طالما أن الدافع مادي بالأساس... رأسمال واقتصاد وتجارة. وبالمناسبة هنا يمكن إجراء مقارنة للفكر النازي المعاكس تماماً للحالة الهلنستية مع تطور العقل الإنساني وأدواته؛ ما يمنح نتيجة مؤداها أن الزمن يمكن أن يسير متعاكساً مع الشرط الإنساني.

(2) جيش احتوى على عدد كبير من العلماء والمتخصصين في الفكر والمعرفة منهم:

المعلومات تشير إلى تأسيسه قرابة عشرين مدينة، أغلبها شرق دجلة إضافة إلى اسكندرونة والإسكندرية، الغاية من ذلك استراتيجية تُعنى بالواقع التجاري أو السكاني أو الزراعي. البعد التفاعلي الاعتقادي نجده في شخصية الإسكندر في معبد مصر وإقامة الطقوس الدينية المصرية بنفسٍ مقدوني، ثم في معبد ملقارت قبل ذلك، وكذلك حين أخذ بيد الإله مردوخ في بابل وكذلك في فارس.

قيل: حين كان في حملته عند السند على مشارف الهند أرسل إلى وكيل المالية في بابل يطلب مسرحيات سوفوكليس ويوريبيوس وغيرها من الكتب.

مُعلّمه «أرسطو» الذي حصل افتراق فكري عنه كان يخصص له ثمانمئة وزنة لمساعدته في بحوثه ودراساته، وفرز له رجالاً لجمع النماذج الحيوية والنباتية والمعدنية في البلاد التي غزاها. افتراقاً فكرياً ولم تصل علاقتهما حدّ الإساءة أو القطيعة. أحد مؤرخي الإسكندر وفق مشاهداته يقول: إنه يمعن في «تمشقه» كلما ابتعد عن اليونان... التمشق هنا يعود إلى الشرق وليس المشرق. يبدو أنّ الإسكندر كان بحاجة إلى الشرق ليُشرق.

«غوروس» مهندس في المناجم.

«بيتون وديوجنيت» مهندسان في مسح الطرق وضبط المسافات وحملها على الخرائط.

«أرخياس وأندروستين» الجغرافيين.

«أخلاوس» لجمع المعلومات الطبيعية عن البلاد ووصف مدنها وعادات أهلها.

«أريستوبول» مهندس ومؤرخ.

«ديميتريوس وديا» صانع الآلات الحربية.

مهندسون لصناعة المراكب من سوريا وقبرص ومصر.

علماء النبات والحيوان

صباغة ونقاشون/ نقش العملة.

نحاتون ومصورون.

ممثلون وفرقهم التمثيلية.

في السند هبط الإسكندر بجيشه في نهر السند مع ألفي مركب ليصل إلى البحر، ويتقدم عميقاً ليثبت أبعاد البحر، وهل ثمة أرض تحيط به؟

وتذكر المعطيات أنه بعد احتلاله مصر أرسل بعثة علمية إلى السودان لمعرفة سبب فيضان نهر النيل، وفي بابل أرسل بعثة استكشافية من أجل إثبات أن بحر قزوين لم يكن إلا بحيرة كبيرة كما يقول معلمه أرسطو، أو أن بحر قزوين ليس إلا خليجاً ناتئاً في المحيط. الإشارة هنا إلى أنه ربما كانت هذه البعثات العلمية طلباً من أرسطو.

في حياته الشخصية تزوج من فارسيات، ففي احتفال زواج بين الشرق والغرب، تزوج من «بارسين» ابنة «داريوس» الكبرى، و«باريستس» الابنة الصغرى لأوخوس الفارسي. فقلده ضباطه وتزوجوا فارسيات أيضاً⁽¹⁾. الأخبار تناقلت أنه في يوم واحد تزوج تسعة آلاف جندي مقدوني من نساء آسيويات، وتزوج ثمانون قائداً من قاداته وعشرة آلاف محارب من نساء آسيويات، برعاية رجال دين فرس ويونانيين. «عيد التوفيق» احتفال أقامه الإسكندر لدعم ومكافأة أولئك الذين تزوجوا زواجاً مختلطاً.⁽²⁾

في الاتجاه نحو العصر الهلنستي سوف نتبع ونرصد آثار تلك الطفرة المقدونية على مجمل حيوية العالم القديم آنذاك.

ثلاثة قرون في نهاية الألف الأول قبل الميلاد تقريباً، سوف ترسم ملامح إنسانية عميقة، على الرغم من الاجتياح الروماني المُعاكس للعلومة.

تلك الطفرة مزجت الأديان والرموز والقصائد والفلسفات والعلوم في حيوية إنسانية جديدة أعادت الإنسانية إلى ما قبل خديعة الحدود والانقسامات الأفقية والعمودية.

حَصَرَ التجانس والتفاعل الإنساني الخلاق ليس في مجاري السياسة بالحتم، ولكن في منحى المجتمعات الإنسانية التي تجاوزت أول مرة في التاريخ حدود محدوديتها في التملك والاستئثار.

قال «ملياجر» الشاعر السوري في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل الميلاد: «لا تظنوني غريباً، فكلنا من وطن واحد هو العالم». تلك بصمة الإسكندر.

(1) طلقوهن بعد موت الإسكندر ماعدا سلوقس.

(2) عدة مؤلفات استندنا إليها في مقاربتنا لعالم الإسكندر:

العالم الهلنستي - ولبانك - مرجع سابق.

تاريخ البشرية - أرنولد توينبي - مرجع سابق.

أبحاث في تاريخ الشرق الأدنى - أسامة يحيى - مرجع سابق.

الإسكندر - ديمتري زهيراتي - دار طلاس 1999.

الإسكندر الأكبر - عن دراستين د فوكس وبيرن - دار مطابع المستقبل - إسكندرية.

سورية في عصر السلوقيين - مفيد رائف العابد 1993 - دمشق - دار شمال.

تقاسم الكعكة:

مؤتمر في بابل لتنظيم أحوال الإمبراطورية ما بعد الإسكندر، لم تفلح التوصيات في التوصل إلى ناظم لتوازن سياسي، فالوضع في أقاليم الإمبراطورية مضطرب خصوصاً في مقدونية حين تزعمت أثينا ثورة ضد الهيمنة المقدونية.

حصل مؤتمر «تريبارادوس» في 320 ق.م، ومن نتائجه: أصبح سلوقس والياً على بابل، وبطليموس والياً على مصر وليبيا وأراضي العرب المتاخمة لمصر.

الإمبراطورية السلوقية:

التسمية هنا نسبة إلى عائلة ملكية، ولم يكن في أوانها ما يستخدم على دلالة للسلوقيين، حينها المصادر الإغريقية تطلق مسميات مثل: الملك أنطوخ «أنطيوخوس» وليس ملك سوريا، في حين أن المسمى في الوثائق المسمارية كان «ملك بابل»⁽¹⁾.

والجدير ذكره أن الأسرة الملكية السلوقية كانت مقدونية الدم والعادات والتقاليد، وكانت اللغة اليونانية هي لغة الدولة. «ولبانك» يشير إلى أن السلوقيين حكموا بمساعدة أصدقائهم الإغريق والمقدونيين، وعند تحليل الطبقة الحاكمة نكتشف حقيقة أن السوريين والفرس والرافديين استثنوا تماماً على مدى جيلين، حتى بعد ذلك كانت نسبتهم لم تبلغ أكثر من 2,5% من المجموع الكلي.

وهذا العدد القليل ظهر فيه قادة لمجموعات قوات وطنية عسكرية.

الباحث في الواقع السياسي والعسكري للحقبة الهلنستية يصاب بالخيبة من تراكم الحروب والصراعات والدماء. فقد كان في نية كل خلفاء الإسكندر أن يعيدوا مجده بنوع من التماهي، لكن الشروط غير صحيحة، والإمبراطورية الأولى التي شيدها الإسكندر على نار ليست هادئة تفككت إلى ممالك متصارعة تارة، ومتحالفة تارة أخرى، فكل مملكة تظن أنها ستكون الإمبراطورية المقدونية الأولى.

أخفق جميعهم واكتفى كل منهم باقتطاع مقاطعته وسعى إلى التمدد على حساب الآخر، وكأن الإسكندر لم يكن.

(1) ي- بيكرمان- الدولة السلوقية 1993 - دار الأبجدية- دمشق.

ولا مجال هنا لذكر الحروب والصراعات بتفاصيلها ومسبباتها المعروفة وغير المعروفة؛ لأن المتابع سوف يغلق الكتاب ويمضي إلى حاضره، ولذا اقتصرنا على الخطوط العريضة المهمة في الواقع السياسي والعسكري للمالك الهلنستية.

الشيء الذي يُذكر هنا أنه وسط كل هذا هو الواقع الصراعي الهلنستي، كان ثمة حياة تمضي عبر الحاضنة الهلنستية الثقافية والاجتماعية، أمر يعاكس سلبية الحروب بتكريس الوحدة الإنسانية، وهذا ما سوف نناقشه في المعطى الهلنستي لاحقاً.

مجريات الأحداث عامةً، أنه بعد اقتسام الكعكة الإسكندرانية، نسبة إلى الإسكندر، سعى كلُّ ملك إلى تأكيد وجوده ومملكته.

إن كان سلوقس تربع على مملكته⁽¹⁾، فإن أنتيجونس ملك آسيا الصغرى كان يملك مشروعه التوسعي. فقد هاجم سلوقس في عاصمته بابل؛ وهذا ما دفع الأخير إلى الهروب إلى مصر حيث بطليموس.

وبعد أربعة أعوام واجه أنتيجونس مع سلوقس في غزة، وغلب الأخير الأول واستعاد بابل، وذلك بمساعدة بطليموس لسلوقس، لم تنتهِ الحكاية بعد، ها هو بطليموس يقطع فلسطين لصالح مصر.⁽²⁾

الشيء بالشيء يُذكر، ها هو سلوقس يمضي إلى آسيا الصغرى يواجه أنتيجونس من جديد ويقتله. شيئاً فشيئاً تتبلور مملكة سلوقس، وسوف يضم معظم آسيا الصغرى وبلاد الشام إلى بابل، نُقِصَ في الأمر فلسطين التي ستبقى جزءاً من جوف سوريا الذي يؤدي إلى حروب سلوقية/ بطلمية، ومعظم أسبابها تكمن هنا.

التماهي نفسه بشخصية الإسكندر حاضر بقوة لدى سلوقس، إذ؛ ما المانع من مواجهة «أنتيباتروس» حاكم مقدونيا المتمرس منذ الملك فيليب إلى ولده الإسكندر.

يُقتل سلوقس غدرًا بعد أربعين عاماً من تأسيس ووراثة القسم الشرقي من إمبراطورية الإسكندر⁽³⁾، كان ذلك في قرابة 281 ق.م.

(1) كان ذلك في 321 ق.م.

(2) عبر تاريخه شكّل الجنوب الشامي مشكلة أمنية لمصر، رأينا ذلك منذ الانسحاق الأموري فالهكسوس.

(3) في 1 نيسان عام 311 ق.م، في عهد سلوقس المؤسس للملكة السلوقية اعتمدَ التقويم السلوقي في المشرق. والشيء الذي يذكر هنا أن المملكة تحولت إلى إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت من حدود الهند إلى مشارف

يعزى إلى سلوقس إنشاء مدينة أنطاكية على موقع مدينة أقدم منها، ثم انتقل المركز السياسي للمملكة إلى أنطاكية، وفقدَ الجناح الشرقي ريادته في هذا المجال.

يعزى إلى سلوقس تأسيس ما يقارب ست عشرة مدينة، تسمى كل منها أنطاكية، ومنها «القدس»، وتسع مدن سميت كل منها سلوقية، وست مدن أطلق عليها اسم لاوديكا وثلاث تحمل اسم أفاميا (أباميا). العاصمة أنطاكية، وأفاميا المركز العسكري المهم لجيوش الإمبراطورية ثم المملكة).

الواقع التجاري ونشاطاته تحقق في سلوقية على مصب نهر العاصي، واللاذقية على البحر المتوسط. في عهد خليفة سلوقس أنطيوخوس الأول 281-261 ق.م، أنشئت سلوقية ميناء على نهر دجلة، وإلى الجنوب كانت مدينة خاراكس التي أسسها الإسكندر، وكان على السلوقيين أن يجددوها، هذا الميناء كان مهماً للتجارة مع الهند والشرق الأقصى.

قلنا في الحاشية: إن ما كان ينقص الإمبراطورية السلوقية هو هذا التماسك وإحكام القبضة الإدارية والعسكرية والسياسية على ما ورثته أو سيطرت عليه.

في مطلع القرن الثالث ق.م انساحت قبائل من الفرثيين والسكيتيين من سهوب روسيا الجنوبية وغرب البحر الأسود إلى شمال فارس أو إيران⁽¹⁾، بعد منتصف القرن الثالث ق.م، استطاع الفرثيون الانتصار على السلوقيين، وأنشأوا سلالة حاكمة استمرت في حكم فارس زهاء خمسة قرون، فصار الجناح الرافدي تحت الاحتلال الفرثي ولم يتجاوز هذا الاحتلال الفرات غرباً؛ وبذا سيطر الفرثيون على الطرق التجارية بين آسيا والغرب.⁽²⁾

وبدأ التحول السلوقي من إمبراطورية إلى مملكة أخذت بالتقلص في القرنين الثالث والثاني ق.م، والسبب:

- استقلال الأجزاء الشرقية النائية منذ أواسط القرن الثالث ق.م؛ لانعدام التماسك الإداري السلوقي.

مصر، ومن سواحل الخليج العربي إلى البحر الأسود. لم يستمر هذا المد الإمبراطوري فقد كان ينقصهم التماسك والقوة المسيطرة على الجغرافيا المديدة.

(1) كان حضورها في موطنها الأصلي يعود إلى القرن الثامن ق.م.

(2) عبد الله الحلو- صراع الممالك- مرجع سابق.

- احتفاظ البطالمة بالجزء الجنوبي الغربي من بلاد الشام، من جنوب خط دمشق إلى أرواد.⁽¹⁾ ومعظم القرن الثالث ق.م - حرب المئة عام - كان مسرحاً للحروب السلوقية/ البطلمية الست. وجوف سوريا السبب الأساسي، وإضافة إلى أهميته الدفاعية لمصر امتلك جوانب اقتصادية وتجارية مهمة لها، فهو يقدم الأخشاب والزيت وبعض المعادن، كما يشكل حلقة وصل تجارية من المتوسط إلى الخليج العربي وإيران. حين فقدت مصر سوريا المجوفة اعتمدت الطريق الجنوبي لتجارة الشرق الأقصى.

- كانت الفاعلية الرومانية آخذة بالتشكل آنذاك، فدفعها ذلك إلى أخذ القسم الأكبر من آسيا الصغرى من السلوقيين عام 189 ق.م.⁽²⁾

على الساحل الغربي لآسيا الصغرى تجاه اليونان، تقع «مغيزيا»، وفي عام 190 ق.م، واجه الجيش الروماني السلوقيين وانتصر عليهم، وجراء الخسارة السلوقية تفرّمت الفاعلية السلوقية وأسرت، فقد فُرض نزع سلاح على السلوقيين الذين كانت الفيلة العمود الفقري لجيشهم، فأعدِم مئة وتسعون فيلاً⁽³⁾.

وفيما بعد استخدم أنطيوخوس الرابع الفيلة في حملته على مصر، فعلم الرومان بذلك قُضيَ عليها.⁽⁴⁾

الصراع البطلمي مع السلوقيين كان مؤلماً، معظمه بتحريض بطلمي، والملوك السلوقيون لم يكونوا ميالين إلى الحروب والصراعات، ففي النصف الأول من القرن الثالث ق.م استطاع البطالمة القضاء على الأسر الملكية الحاكمة في مدن الساحل الشرقي، وأقاموا عوضاً عنها أنظمة حكم ديمقراطية تنتمي إلى الفكر السياسي الهليني. في السلالة السلوقية الحاكمة

(1) بعد عام 200 ق.م، استعيد جوف سوريا هذا إلى المملكة السلوقية بعد حروب عديدة مع مصر.

(2) نقولاً زيادة- الحكم السلوقي في بلاد الشام 1981- الفكر العربي- لبنان.

(3) كان الرومان في حروبهم مع حنابعل قد عانوا هذا السلاح المدمر.

(4) قال سترابون في وصفه لمدينة أفاميا:

«مدينة محصنة جداً... فيها فيلة السلوقيين، وخمسون ألف فرس، وثلاثمئة حصان من النوع الممتاز». ويشار هنا إلى أن أفاميا سيطرت على منطقة الفرات من موقع زيوجما. والحقيقة أن سلاح الفيلة استخدم في معارك الإسكندر المقدوني. فالسلوقيون كانوا يأتون بالفيلة من الهند. والبطالمة من الصومال. تذكر المشاهدات أنه في معركة رفح بين البطالمة والسلوقيين اشتركت الفيلة عند الجانبين، وقيل: معظم فيلة بطليموس رفضت النزال لعدم قدرتها على تحمل رائحة ونفير الفيلة الهندية ونفيرها وخوفها منها. كانت الفيلة الإفريقية تدير ذيلها وتهرب. انظر: ولبانك- مرجع سابق.

يشار بالبنان إلى ملوك مهمين إضافة إلى المؤسس سلوقس نيكاتور، فهناك أنطيوخوس الثالث 223 - 187 ق.م، وأنطيوخوس الرابع 175 - 163 ق.م.

والخط العام للصراع السلوقي/ البطلمي يُوضَّح بست حروب.

الحرب الأولى: بين بطليموس الثاني وأنطيوخوس الأول، غايتها دفاع السلوقيين عن المدن الساحلية في آسيا الصغرى وسوريا. حصلت بدءاً من 280 ق.م، وتجددت في 276 ق.م واستمرت حتى 271 ق.م.

الثانية: 260 - 252 ق.م. بين أنطيوخوس الثاني وبتليموس الثاني وخسر البطالمة.

الثالثة: 246 - 241 ق.م أسباب عائلية سياسية لمصاهرات بين البطالمة والسلوقيين.

استولى بطليموس الثالث على المشرق، ثم تراجع وبقيت مدينة سلوقية تحت رعايته.

في هذه المعركة القتالية يبدو أنَّ الولايات الشرقية السلوقية سيطر عليها الفرثيون، ثم أخذت ولاية باكتريا استقلالها عن السلوقيين وتمردت كبادوكيا وأرمينيا عليهم.

بعد هذه الحرب سنكون مع صراعات في العائلة السلوقية الحاكمة منذ 235 ق.م، التي من نتائجها جوانب مؤثرة في الديمغرافيا الشرقية بالإضافة إلى تقزُّم الفاعلية السلوقية وشللها.

الحرب الرابعة: 219 - 217 ق.م

أخفق أنطيوخوس الثالث في الانتصار على مصر في معركة رفح⁽¹⁾، فاتجه إلى آسيا واستعاد الأناضول ووضع حداً للفرثيين وملوك بكتريا الإغريق. والكتابات الإغريقية عدته الإسكندر الثاني.

الحرب الخامسة: 202 - 200 ق.م

استعاد فيها أنطيوخوس الثالث جوف سوريا. ولضعف الفاعلية البطلمية جرى اتفاق سري بين فيليب ملك الإغريق وأنطيوخوس الثالث، يتضمن الاتفاق اقتسام النفوذ في

(1) في معركة رفح مدَّ العرب جيش السلوقيين بعشرة آلاف محارب، كانوا إلى جانب عشرين ألف محارب سلوقي. حين علمت مصر باشتراك العرب أرسلت القوات المصرية المرابطة في فيلادلفيا عمَّان لمعاينة القبائل العربية، هذا الأمر دفع السلوقيين إلى مهاجمة فيلادلفيا والاستيلاء عليها.

العالم الهلنستي بما فيه الأملاك المصرية البطلمية خارج مصر. لم يرق الأمر لروما، من تحالفات وتفاهمات ومحاولات استقواء للممالك الهلنستية، حتى إن الكاريزما التي تمتع بها أنطيوخوس الثالث سببت قلقاً لروما.

بعد أن حدثت روما من قوة الإغريق⁽¹⁾ واجهت السلوقيين بقيادة أنطيوخوس الثالث في 193 ق.م، خسر السلوقيون وتمت معاهدة أفاميا التي قصت أطراف الفاعلية السلوقية إلى حد ما. وبناءً على ذلك استُبعد السلوقيون من غرب آسيا الصغرى، وفرضت روما على السلوقيين غرامات ضخمة لصالح حلفائها، لا سيما ملك بوجاموم حليف روما في آسيا الصغرى. وعلى السلوقيين تقديم كمية ضخمة من القمح سنوياً لروما.

وحرمت امتلاك أسطول في المستقبل⁽²⁾ أو أفيال للقتال، ثم تسليم المطلوبين من أعداء روما، لا سيما هانيبعل الهارب من قرطاج، وبذا عُرِزَت سوريا عن العالم الهلنستي والتمهلين.⁽³⁾

الحرب السادسة: 170 – 168 ق.م

العين السلوقية لأنطيوخوس الرابع ركزت على ضم مصر، ففي عام 169 ق.م وصل بجيشه إلى ممفيس ثم الإسكندرية التي لم يدخلها. تدخل في ترتيب البيت البطلمي، حيث كان يدافع عن حق بطليموس السادس ابن اخت أنطيوخوس في مواجهة بطليموس الثامن، ووافق بطليموس الثامن على ارتقاء أخيه إلى جانبه على العرش.

بعد عام عاد أنطيوخوس الرابع إلى مصر، وقابل بطليموس السادس الذي شكره على موقفه في العام الفائت، وأنه على وئام مع أخيه ولا يحتاج إلى أدنى مساعدة، والملك السلوقي تجاهل ما حصل وتوجه إلى ممفيس، وأعلن نفسه ملكاً على مصر، ثم أقام بجيشه على مشارف الإسكندرية.

روما الصاعدة بقوة التي أسهمت في تعكير الأجواء المصرية/ السورية، كما تدخلت في صراعات العائلة السلوقية، بالإضافة إلى تحريض اليهود على الدولة السلوقية، كانت تراقب الأجواء بما يحقق سيطرتها فيما بعد. ويصل مبعوث روماني إلى أنطيوخوس الرابع ويطلبه

(1) عام 145 ق.م، أنهت روما الوجود المستقل لبلاد الإغريق بما فيها مقدونيا لصالحها.

(2) اختفاء الأسطول السلوقي دفع لنمو القرصنة وقطع الطرق آنذاك.

(3) د. فوزي مكايوي- الشرق الأدنى القديم في العصرين الهلنستي والروماني- 1999 - القاهرة.

بضرورة مغادرة مصر وإنهاء العراك والاحتلال، فطلب الملك السلوقي وقتاً للتشاور مع المستشارين والأصدقاء، والمبعوث الروماني رسمَ دائرة بعضا كان يحملها حول أنطيوخوس لأخذ القرار فوراً، فَهَمَّ السلوقي الإشارة والمغزى، ووافق على الانسحاب وخرج.

ومنذ ذلك مارس الرومان المتطلعون إلى السيادة العالمية إثارة الفوضى لإضعاف السلوقيين، وهذا ما حصل بعد موت أنطيوخوس الرابع من حروب استمرت حتى زوال المملكة.

بعد أن انقسمت إلى مملكتين: شمالية وجنوبية، تقلّصت الفاعلية السلوقية مع الصراعات الأهلية وحروب العائلة الحاكمة، ولم تعد المملكة في حيزها الجغرافي تمتلك سوى بلاد الشام مع تمردات قام بها اليهود، فقد تمردَ اليهود واستمر قرناً وانتهى باستقلال مملكة يهودية.

وسبب هذا التمرد هو أنَّ السلوقيين كانوا قد فرضوا الأسلوب الإغريقي والمتهلين على اليهود فقاوموه.

ما يمنح دلالة عمقُ التهافت السلوقي في الأسرة الحاكمة وصراعاتها، فقد حاول إسكندر بالاس أن يجد ملجأً ليهرب إليه، فكان أن قتل لزيد يل العربي، الشيخ العربي ووضع ابنه الذي سيصبح أنطيوخوس السادس تحت وصاية شيخ آخر يدعى «يمبليخ».

عام 120 ق.م، أمكن لصور وصيدا ولاوديكية وسلوقية وأنطاكية أن تتزع امتياز إعلان مدينة حرّة من قبل الملوك السلوقيين الضعفاء. كذلك سلوقية وعسقلان.

هذا الأمر حيّد هذه المدن عن تقديم العون والرجال لبقايا المملكة الضعيفة. العجز السلوقي دفع أنطاكية إلى استدعاء ملك أرمينيا «تيجران» لحمايتها في عام 84 ق.م. كما استنجدت دمشق بالأنباط في عهد الحارث الثالث من أجل حمايتها.

عام 83 ق.م سيطر ملك أرمينيا على الجناح الرافدي ثم أنطاكية ومعظم سوريا الشمالية وكيليكيا، لم يواجه مقاومة تذكر. وفي عام 69 ق.م فرض سيطرته على الساحل الشرقي واستولى على عكا.

مع اقتراب الجيوش الرومانية من سوريا القادمة من القوقاز تراجع تيجران إلى الشمال. «بومبيوس» القائد الروماني أرسل نائبين إلى سوريا حتى يصلان إلى دمشق عام 65 ق.م، وبعد عام يلحق بهما 64 ق.م، فقد أعلن ضمّ المملكة السلوقية إلى الإمبراطورية الرومانية

باسم مقاطعة سوريا. عسكرت في سوريا أربع فرق عسكرية رومانية دائماً، فبدأت مرحلة جديدة وانعطافة ربما أضعفت الروح الهلنستية ولم تُمتها.⁽¹⁾

عالم هلنستي: «ليس من عادتنا أن نبيع الفلاسفة».⁽²⁾

الإطار الفكري العام للعالم الهلنستي يُوضَّح بعدة أمور، فمنذ مجيء الإسكندر المقدوني بمفكره وفلاسفته وعلمائه الخارجين من أرضية فكرية فلسفية، تمثلت بالعالم الفلسفي الناشط في اليونان منذ ما قبل وجود الإسكندر.

في بلاد الشام كانت الحالة الفكرية والدينية قد مرَّ عليها آلاف السنين من التشكل، مع الأخذ بعين الاعتبار بُعدها المتوسطي، وفي الجناح الرافدي استطاعت الفاعلية الآشورية ثم الكلدانية الآرامية جبَّ كل المنجزات السابقة، وأضافت عليها تبعاً للتفاعلات الديمغرافية والعقلية والفكرية، حتى غدت بابل مدينة كونية عالمية ضمَّت المعتقدات المختلفة والمتناقضة أحياناً، هذا التنوع جدير بالتطور، فنحن نعلم أن التوقع والانعزال واللون الواحد تكون نسبة إبداعه صفرأ على أكثر تقدير، وفي فارس الأخمينية نشط المذهب الزرادشتي.

كل هذه التفاعلات والحيويات دفعت العقل الإنساني إلى خطوة واحدة تجاه التماثل الخلاق سوف نلاحظه جيداً، خصوصاً أنَّ هذا العصر الذي نحن فيه شهد تراجع اليقين وأفكاره ومحدوديته لصالح الأسئلة الأعلى، والآن صار حال الدين وشعائره حالة تقليدية جامدة لا تناسب معايير الحياة الجديدة.

المقاربة هنا أنه منذ القرن الخامس ق.م وما بعده انتشرت الفلسفة السفسطائية التي خلقت حالة شك في المعتقدات. وهذا ينسحب فلسفياً على اليونان، كما على المشرق في تطوره الذهني والاعتقادي الطبيعيين اللذين لم يقاربا التفلسف اليوناني مقاربة واضحة بعد. الآلهة التقليدية اشتركت مع عبادة الأفكار المجردة كالصدقة والسلام والديمقراطية.

(1) استندنا إلى مراجع عديدة في بحثنا هذا منها: سورية في العصور الكلاسيكية- موريس سارتر

سورية في عصر السلوقيين- د. مفيق رائف العابد. العالم الهلنستي- مرجع سابق. الدولة السلوقية- ي- بيكرمان- مرجع سابق. الحكم السلوقي في بلاد الشام- نقولاً زيادة. صراع الممالك- عبد الله الحلو. الشرق الأدنى القديم في العصرين الهلنستي والروماني- فوزي مكاوي.

(2) أحد الأمراء الهنود جاء إلى الملك السلوقي «أنطيوخوس» وطلب أن يبيعه تيناً مجففاً وخمراً جديداً وفيلسوفاً، فقال له الملك: ليس من عادتنا أن نبيع الفلاسفة. بيكرمان.

قالت الفلسفة: «الحياة بالنسبة للإنسان هي التوافق مع العقل -الإدراك الصرف- هذا الجوهر هو في حقيقته جوهر الإنسان ووجوده».

«ولبانك» يشير في مؤلفه «العالم الهلنستي» إلى شعور الإنسان بوطأة حتى وضع معتقدات جديدة، وهذا ما أفسح المجال لظهور أشكال جديدة من الممارسات الدينية.⁽¹⁾ فالانفتاح بين المجتمعات على الرموز الدينية والأفكار دفع إلى خلق صورة من البلبلة والتغيير في الألوان الجميلة في الصورة، فأدى إلى صعوبة تجمعها في بؤرة واحدة.

الطفرة الرمزية هنا أنّ الآلهة جميعها أصبحت في الواقع واحدة، كأن الذي جرى إنسانياً هو توحيد الرمز السماوي وفق قواعد الاقتراب والتفاعل.

ها هم الإغريق استوعبوا الآلهة المصرية والمشرقية كذلك، وجرت المطابقة بين الرموز لغاية الوحدة الإنسانية: «أتارجاتيس» المشرقية طابقوها بأفروديت، وأدد بزيوس، وميلقارت طابقوه بهرقل، وها هي عشتروت تظهر كأفروديت وأدونيس. المشرق هنا بادل المطابقة تلك بأحسن منها.

تحدث المعطيات عامةً عن استمرار أساطير المشرق القديم في العصر اليوناني والروماني، لكن التدوينات اليونانية والمشرقية خلّت منها. فقد عُثِرَ على ترنيمة في معبد الفيوم في مصر تعود إلى كاهن مصري في القرن الأول ق.م، يصف فيها الآلهة المصرية إيزيس قائلاً: «يُطلق عليها السوريون عشتروت - أرتيميس - نانايا... قام الإغريق بتعظيم كل من هيرا وأفروديت. فأنتِ التي تجمعين في أقنومك كل الرباب الأخريات اللاتي تسميها الشعوب».⁽²⁾

شيء آخر نقاربه في العصر الهلنستي هو موت النصوص الميثولوجية التي عهدناها قبلاً. لا ننسى هنا دور التجارة الهلنستية وتبادلات الشعوب والمجتمعات والتوطن البشري المتبادل في الأماكن المختلفة، إضافة إلى الجيوش، ما عدا المرتزقة بالطبع، كلُّ هذا أسهم في غليان التفاعل إلى حدّه الأقصى.

(1) ولبانك- مرجع سابق.

(2) مرجع سابق.

سنلاحظ أيضاً أنّ العبادات المحلية لدى المشرقيين، لا سيما في الجناح الشامي، أُفْلِمَت مع الديانة والميثولوجيا الإغريقية. ونحن نعلم أنّ فنّ الفسيفساء المحلي أخذ بالأساطير والقصص الإغريقية مواضع للوحاته وأعماله. للمزيد انظر: تيكسيديور وكانفيه- الحياة الدينية في سوريا قبل الإسلام.

الحياة الهلنستية استطاعت أن تقلص الاختلافات والفواصل بين المجتمعات بامتياز. وفي مقاربة بسيطة للحال السلوقية في حكامها الذين لم تخلُ جلساتهم من المناقشات الفلسفية والفكرية حتى في استضافة الفلاسفة أيضاً:

أنطيوخوس الثاني أقام في قصره صاحب مدرسة فلسفة أرسطو.
أنطيوخوس الرابع وقع في جدل فلسفي من كره الفلسفة الأبيقورية حتى عدل رأيه بها نحو الإعجاب فيما بعد.

إسكندر بالاس كان يميل إلى الرواقية، فامتلات ولأئمه بالفلاسفة والمفكرين، كما أن أنطيوخوس الأول أشرك الفيلسوف أراتوس في مجلسه الملكي وكلفه بإصدار نسخة جديدة من الأوديسا، وعاش الفيلسوف يوفوريون أيضاً في بلاط أنطيوخوس الثالث حيث نظم المكتبة العامة في أنطاكية ومات فيها، فلم يخلُ قصر أنطاكية من الاتجاهات الفلسفية.⁽¹⁾
مدن الساحل المشرقي خفتت روحها الوطنية بسبب الصراعات والحروب السابقة، عالم البحر يخلق شعوراً أبعد من مدن الداخل في الشعور الوطني أو المدني. أدمجت الرموز في الثقافة الفينيقية هنا: صور، صيدا، لاوديكية، أرواد، أخذت في سك النقود بكتابة يونانية إلى جانب الفينيقية.

المعطيات تنظر إلى مفكرين وكتاب فينقيين كتبوا باليونانية لا سيما من صيدا وصور. زينون الرواقي مولود المعمرة الفينيقية في قبرص «كيتيوم».

333 - 261 ق.م، أصبح صديقاً لملك مقدونيا، وعلم مذهبه في أثينا.

الفلسفة الرواقية تعبر بإخلاص عن الروح الهلنستية.

قالت شاهده: «إن كانت بلادك الأصلية في فينقيا فهل يضيرك شيء؟ ألم يأت قدموس من هناك الذي أعطى لليونان كتبها وفن كتابتها؟»⁽²⁾

المشاء «ديودورس» قرابة 110 ق.م، من صور إلى أثينا ترأس مدرسة فلسفية هناك.

وطبيعة التلاحق والمناقشات تخلق حالاتها، ها هو أنطيوخوس العسقلاني حاول توحيد آراء الأفلطونيين والرواقيين.

(1) بيكرمان- الدولة السلوقية- مرجع سابق.

(2) فيليب حتي- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين- مرجع سابق.

فأسس أكاديميته السورية وكذلك أكاديمية في الإسكندرية وكذلك في أثينا وكان «شيشرون» يحضر دروسه. الخلاصة هنا أنّ الشرق تهلين ظاهرياً، لكن تمشرق العالم الهليني كان أقوى.

الجدير ذكره هنا أنّ تأثير الفلسفة الرواقية بقي حتى ظهور المسيحية، «فيليب حتي» يحكي على أنّ أول وسيط بين المسيحية والفلسفة الرواقية كان بولص الرسول، وأنّ كثيراً من مضامين رسائله والأسلوب الذي يُعبر به عن ذلك المضمون هو تفكير رواقى إلى حد بعيد، ولا سيما رسائله إلى أهل كورنثة ورومية وكولوسي وكورنثوس.

وفي بداية القرن الثالث الميلادي نجحت المسيحية في التوفيق بينها وبين الرواقية⁽¹⁾. المعلوم أن هذه الفلسفة أصبحت أكثر الفلسفات شعبية في العصر الروماني ولا سيما في القرنين الأوّلين.

موت المعجزات الحديثة:

شكّلت مقولة «المعجزة اليونانية» معلماً مهماً في الدراسات التاريخية حتى المعاصرة، تبدّى فيها كأنّ الإغريق هم أصحاب الحضارة الإنسانية بقديمها وحديثها. المكتشفات الأثرية بددت هذه المعجزة بإخلاص، كحال المدرسة التوراتية في قراءة تاريخ المنطقة الشرقية.

نحن نعلم أنّ التشكّل الإغريقي لم يتعدّ منتصف الألف الأول قبل الميلاد. على الطرف الآخر من جغرافيا العالم القديم يقف المشرق ومصر عنوانين بارزين في العمق الحضاري الضارب في الزمن. وهذا الحال يُسقط أيضاً على الفاعلية الرومانية في نشأتها كاليونان.

الخصائص الشرقية الحضارية عبّرت عن نفسها في مليون وثيقة مسمارية، ثم ما بعد المسمارية، إضافة إلى مختلف الفنون والعمائر وهكذا.

سنعود إلى بابل قبل الإسكندر نحو أربعة قرون، وسوف نقارب الواقع البابلي الذي هو اختصار للشخصية الشرقية، ولا سيما بين القرن السابع والخامس قبل الميلاد.

(1) المرجع السابق.

الواقع الديمغرافي يُعبّر عن اشتداد عمليات الاختلاط الإثني، فثمة تعددية ثقافية مهمة، وحضرت البيانات المختلفة حتى المتناقضة، عالم من رموز وتفاعلات تُذكر بعالمنا الهلنستي، ولكن هنا قبله.

فمثلاً: «دار العمل» لموروشو اليهودي الذي يُفترض أنه مسيحي مغلوب على أمره، تُقدم وثائق نيبور وضواحيها العائدة إلى الدار في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد على أنّ ثلث أسماء الأشخاص المتعاقدين والشهود غير بابلية.

وبين هؤلاء مصريون وفرس وعيلاميون وليديون وأرمن وعرب وهنود وغيرهم، الواقع المتنوع هذا خلق واقعاً اجتماعياً موازياً أساسه التنوع والتفاعل، وثائق بابل تُقدم أحد العيلاميين الذي زوج ابنته إلى مصري عام 511 ق.م، لتتابع الشهود: فرس، بابليون، آراميون، وثمة عدد من الأشخاص من ممثلي الشعوب الأخرى.

«داندامايف» دارس الوثائق البابلية يشير إلى أنّ «السمة الأساسية للوضع الديني في بابل كانت تكمن في عدم غرس روح التعصب تجاه المعتقدات الأخرى للشعوب.

والمشرق القديم لم يعرف الموقف العدائي من عادات وتقاليد وثقافات الشعوب المجاورة والبعيدة.⁽¹⁾

وبعيداً عن مطابقات الرموز في العصر الهلنستي، فقد شهد مجتمع بابل آنذاك ظاهرة أنه حتى بعض الأسماء البابلية دخلت فيها مسميات لآلهة غير بابلية مثل: «متريدات»؛ أي عطية الرب «متر».

حتى إنّ الغرباء في بابل أخذوا أسماء ورموز بابلية هي: نذنتو بعل (هبة الإله بعل). كما أنهم راحوا يؤمنون بالآلهة البابلية التقليدية دون أن يرغبهم أحد على ذلك؛ لهذا إن استرجعنا مقولة الملك الآشوري آشور بني بعل في حديثه لمواطني بابل، حين كانت تحت الفاعلية الآشورية، نكون قد قاربنا الفهم الآشوري للمسألة أيضاً، مع الحضور الآشوري التاريخي المُقاتل: «إن بابل قلب المعمورة، وكل من يدخل إليها يحصل على امتيازات معينة، حتى الكلب الداخل إلى بابل يمنع قتله».

تقول الدراسات الرصينة: الشرق القديم لم يعرف الخلافات والصراعات القائمة على أساس إثني أو الحقد العرقي والشعور بتفوق شعب على شعوب أخرى.

(1) الجديد حول المجتمع البابلي - بونغارد ليفين - الجديد حول الشرق القديم - موسكو.

نذكر الآن: السلام السومري/ الأكدى أو الأموري، كما نذكر الاندماج الآشوري/ الآرامي، وكذلك الآرامي/ العربي المتمشرق.

في مقارنة للنظام الإداري البابلي آنذاك حظي المجلس الشعبي، في الجناح الرافدي من المشرق على جدارته وحيويته وقدرته على التلاؤم والتكيف. هذا الأمر عاصر مجتمع بابل مع ملوك الفرس الأخمينيين ومع الإسكندر المقدوني، حتى هيئات الإدارة المحلية للأقليات الإثنية في بابل تذكر بنظام «بوليتيغما» في العصر الهلنستي الذي كان قائماً إلى جانب المجالس المحلية الشعبية للمدن البابلية.

«داندامايف» يشير إلى أن هذه «البوليتيغما» التي يُعدها علماء التاريخ مؤسسة هلنستية بحتة، كانت قد ظهرت في الواقع قبل وقت طويل من احتلال الإسكندر بلاد الرافدين. ويصل إلى القول: «الاتصالات الإثنية النشيطة التي ساعدت على النشوء التدريجي للحضارة المادية الروحية الجديدة كانت قد جرت قبل قدوم الإسكندر المقدوني بفترة طويلة مما سهّل فيما بعد انتصار الهلنستية».⁽¹⁾

حتى في الحقبة الأخمينية من الاحتلال لبلاد الرافدين لم تقطع بابل تقاليدھا المحلية، واستمرت الحضارة البابلية القديمة في تطورها حتى بعد احتلال المقدونيين بلاد الرافدين، وهذا يُحسب أيضاً على مجمل المدن المشرقية، وهو ما أطلقنا عليه تعبير «القاع الثقافية» التي تفعل فعلها، بصرف النظر عن الظروف السياسية والعسكرية السائدة، لعله نداء الأصالة في الحياة، ومن ثم التطور في الزمن.

ستخيل الآن تلك المرونة المشرقية التي وسمت الحضارة المشرقية: السيطرة الآشورية مثلاً لم تمنع الإدارة الآشورية من استخدام الآرامية، فها هو قصر الملك الآشوري سنحاريب حوى لوحةً لرجلين آشوري وآرامي، الأول يكتب على لوح من الطين بقلم مسماري، والآرامي يكتب على ورق البردي.

تكاملت الرؤية هنا، فالعالم الهلنستي بعلمه وفنونه وآدابه وفلسفاته وأفكاره ودياناته ورموزه لا يرتبط بظاهرة «تهلين» المشرق بقدر ما كان حالة تفاعلية بين مشرق منفتح وإنساني مع طروحات الإسكندر المقدوني في الوحدة الإنسانية. وبالعودة إلى عالمنا الهلنستي فقد

(1) المرجع السابق.

كان للإسكندرية زعامة في الحياة الفكرية، لا سيما في أثناء حكم البطالمة الثلاثة الأوائل 323-221 ق.م.

هنا سوف يُؤسَّسُ متحف باسم «محراب ربات الفنون»، وكذلك مكتبة الإسكندرية، ضمت هذه المكتبة نصف مليون لفافة بردية.

التفاعلات الثقافية نجدها مثلاً في زيارة «ثيوكريتوسوس» السيراكوزي، وهو شاعرٌ رعوي كتب عن نساء سيراكوز بأسلوب حوارٍ بين سيدتين من المدينة تلك، تقيمان في الإسكندرية، حيث خرجتا في أحد الأيام لمشاهدة احتفال أدونيس.⁽¹⁾

العقل الهلنستي قال: ينبغي أن نفعل كل شيء بهدف العيش بأسمى جوهر يوجد بداخلنا هو العقل. فهو على الرغم من صغر حجمه لكنه كبير في قوته وفي قيمته النفسية؛ لأنه يفوق كل شيء آخر.

للهولة الأولى نعتقد أن مؤسس الهلنستية هو «زينون الرواقي»⁽²⁾.

فمعطيات الواقع السلوقي تشير إلى ازدحام المهاجرين في المدن السلوقية من مختلف العالم الهلنستي، كلٌّ يحمل مضامينه وحاجاته الروحية والمادية وآلهته وتجارته ربما وفنونه أيضاً، وليبدأ التفاعل والاندماج.

«ولبانك» يشير إلى أنه بعد موت الإسكندر شهد القرنان التاليان تدفقاً للدراسات العلمية التي لم يتم التوافق عليها إلا في عصر النهضة العلمية الحديثة.⁽³⁾

(1) ولبانك- المرجع السابق.

(2) الحقيقة التي تستوقفنا هنا أنه بسقوط بابل وما حُسيب في ذلك على المشرق، انقطع خط التواصل الذهني العقلي في الشخصية المشرقية. فالأسطورة ستنجب الفلسفة، لكن سقوط بابل قطع خط التطور الذهني، ومع مجيء الإسكندر كان الإغريق على موعد للاطلاع على المنجز الأسطوري المشرقي الذي أعادوا صياغة بعضه في الثقافة اليونانية، حتى بدأنا نتلمس بعد الإسكندر ظهور فلسفات تحمل طابعاً مشرقياً ذهنياً. المشرق لم يخلق فلسفة، والتعبير الأوضح كان في الفلسفة الرواقية المستندة إلى عمق ذهني مشرق في العصر الهلنستي. بعد ذلك صار المشرق وجهاً لوجه مع أديان توحيدية دون أساس فلسفي.

(3) العالم الهلنستي كان عصر إدراك عقلي حققته العلوم والفنون المعمارية وتخطيط المدن التي أصبحت طليعة لعصر النهضة وأوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. (ولبانك).

الإغريق سابقاً اهتموا بالعلوم القديمة التي اطلعوا عليها من الكلدانيين، ثم ترجمات للأعمال القديمة إلى اليونانية. المعطيات تشير إلى أن جماعة من الفلكيين والرياضيين من بابل والإغريق توصلت في حسابها للسنة الشمسية بفارق خطأ مقداره 4 دقائق و32 ثانية.

الأهم من كل هذا، ومع حروب الحقبة الهلنستية بين الممالك والإمبراطوريات نلاحظ خلو الأدب الهلنستي من المشاعر الوطنية والحماسة القومية، وتجييش العواطف الانتمائية للوطن الصغير مقابل تلك الوحدة الإنسانية المتدفقة.

وفي السياق شهد العصر الهلنستي نشاطاً مسرحياً وتمثلياً، وعمت التراجيديات؛ حيث نقع على أكثر من ستين اسماً لكتّابها، فلا بأس من وجود مسرحية «الفينيقيات» ليوربيدس حتى قبل الزمن الهلنستي وهكذا.⁽¹⁾

معرفة اللغة اليونانية وكتابتها كانت مهمة للهلنستيين من العلماء والأدباء والكتّاب. المدن السلوقية كانت تأخذ طابعاً هلنياً، لكنّ الريف بقي في منأى عن الهلينة وبقي آرامياً، في حين تفاعلت مدن الساحل مع المعطى التفاعلي الهليني أكثر. والمُعطى العام هنا هو أنّ الهلنستية في المشرق وجدت تربةً صالحة وريادية؛ لأن هذا المشرق يحمل في خصائص شخصيته الحضارية قيم الانفتاح والتفاعل، والمدن الفينيقية حافظت على استعمال لغتها المحلية وكتابتها؛ لكن الشأن التفاعلي حضر باستعمال اليونانية إلى جانب الفينيقية.

المنظومة المعرفية والعلمية والفلسفية التي تأسست في العصر الهلنستي أسست لعالم جديد، وسوف يبقى تأثيره حتى العصور الحديثة والنهضة العلمية الحديثة.⁽²⁾

«بيروسوس» كاهن مردوخ في بابل، وضع باليونانية كتابات في البابليات، وهي مزيج من الفلك والروايات التاريخية، أهداها لأنطيوخوس الثاني، ملك السلوقيين.

(1) تُرُفَع القبعة للعصر الهلنستي لخلوه من التعقيم والرقابة على الفكر. فقد تمتّع جميعهم بحرية المعتقد والأفكار، وطرح الأفكار، ثلاث فلسفات عبّرت عن نفسها: الرواقية، الأبيقورية، الكلبيّة، كان لها تأثير مهم في تطور الفلسفة وتاريخها.

(2) في جلسة فكرية جمعني مع مثقفين مهمين في سوريا ذكرتُ أنّ تأثير الإسكندر استمر حتى في نشوء الديانات التوحيدية وظهورها، عدا اليهودية.

التراكم الإنساني الذي أكده العصر الهلنستي ومن ثم مجريات التفاعلات الإنسانية والسياسية أدت إلى متغيرات مهمة لا سيما بعد سقوط تدمر وانفتاح عالم شبه لجزيرة العربية أمام التيارات الثقافية والدينية والفكرية المشرقية عبر طرق التجارة، التي أسهم في بعضها الحضور والانتشار النبطي، وهذا ما دفع المؤرخ «توينبي» إلى القول: قبل أيام محمد منذ ألفي سنة «أصبحت الجزيرة العربية مما يمكن اجتيازه من مكان إلى آخر. وقد أخذت الآراء والتنظيمات تتغلغل إلى شبه الجزيرة العربية من الهلال الخصيب الذي يحاذيها في الشمال، وهذا التغلغل كان أثره تراكمياً. وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في شبه الجزيرة العربية على وشك الانفجار. وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب؛ إذ تلقى هذه الشحنة فأحسن استعمالها وذلك برويته النيرة وتصميمه وحكمته». تاريخ البشرية.

الآرامية شكّلت من جهةٍ سداً منيعاً لمحاولات الاختراق اليوناني، وحافظت على أصالة لغوية في المشرق استمرت حتى حلول الحقبة الإسلامية، كانت رافعة حضارية للمشرق.

الآن ووفق المنظور، لا يبدو أنّ الواقع الإنسانيّ قد حظي بفرصة خلاقة للانبعث التطوري والأخلاقي والقيمي إلا مع هدير الإسكندر المقدوني الذي تلقفته مجتمعاتٌ جائعةٌ للوحدة ضد الحدود والمحدودية.

ختاماً: مقابل كل التهافت العسكري والسياسي للممالك الهلنستية في إدارتها وسلطاتها نجد أنّ القاع الاجتماعي والثقافي والديني والبشري استمرّ أخذاً بمعطى الوحدة الإنسانية المتجاوزة أفعال السلطة، وهنا تكمن الحقيقة الهلنستية.

عالم المشرق . الألف الأول ق.م:

الديمغرافيا والثقافة:

مشرق الألف الأول قبل الميلاد يمنح واقعاً ديمغرافياً واضحاً؛ أموريون مندمجون بالديمغرافيا الآرامية، وآشور الألف الأول أمورية مستمرة من الألف الثاني ق.م، كذلك بابل، مع سلسلة تفاعلات ديمغرافية هضمتها مدن المشرق.

ومع زوال الفاعلية السياسية الآشورية وُضِحَ الحضورُ الآرامي على الرغم من زوال ممالكه سياسياً، فحدث تمازج آشوري آرامي، بابل مع الفاعلية الكلدية الآرامية توضحت هويتها، وساد الآراميون بقوة اللغة والكتابة والثقافة في أنحاء المشرق كافةً، وشكلوا أصالة اجتماعية حفظت هوية المشرق في وجه الدخلاء؛ لكنها اتسمت بالمرونة والانفتاح والتفاعل.

العرب تبادى حضورهم أقوى وأميز عما قبل، فقد خرجوا من الحال المترحلة إلى تأسيس مشيخات ودول، هذا الأمر يُناقش وَفَقَّ خطُّ التفاعل الاجتماعي؛ وبذا نكون أمام عرب تفاعلوا مع البيئة الاجتماعية والطبيعية للمشرق فتمشروا؛ لأنَّ إرادة العيش لديهم كانت في مُعطى الانتماء للمشرق، ومن ثمَّ احتواؤهم في الديمغرافيا المتفاعلة.

يمكن الرجوع هنا إلى كتابنا «نشوء فكرة الإلوهة» لتبيان المنظومات التاريخية المتحكمة في التفاعل التجاري والثقافي والاعتقادي قبل الإسلام. وفي العلاقة بين المسيحية والعصر الهلنستي المستند إلى وحدة البشرية التي طرحها الإسكندر المقدوني، فالمقاربة بين الرواقية والمسيحية مهمة، كما أنّ الانفتاح الهلنستي والتسامح والمعايير الإنسانية أسست لبُعد إنساني مهم في المسيحية فرفضت المحدودية والانغلاق والتحجر بكافة أشكاله.

سنورد مثلاً مهماً حول آلية التفاعل تلك بعد أن نُحدِّدَ الحضورَ العربي في المشرق وعوامله، لا سيما في الجناح الشامي.

ففي زمن الاحتلال الفارسي الأحميني للمشرق أمّنت الصداقة الفارسية مع العرب الطمأنينة لهم، ما أدى إلى تجمع القبائل الحاضرة في المشرق، حيث شكلت وحدات وطنية، هذه الوحدات تضاعفت تضاعفاً مهماً في نهاية القرن الثالث ق.م.

المعطيات تشير أيضاً إلى أنه عقب سقوط بابل أخذت القبائل العربية تستولي على المناطق الخصبة في شرقي الأردن.

نذكر مشاركة هؤلاء مع السلوقيين في معركتهم ضد البطالمة في ربح عام 217 ق.م، ونذكر إخفاق أنطيوخوس الثالث عشر السلوقي في حربه ضد «عزيز» الشيخ العربي في شمال سوريا، مما يدل على قوة مشيخته آنذاك.

قوة الحضور العربي في مدة النهايات السلوقية توضحها الحكاية الآتية:

أنطيوخوس الثالث عشر نقم عليه الأنطاكيون، ورُشِّح «فيليب» لأخذ العرش، عزيز العربي دعم المرشح للعرش السلوقي.

وأنطيوخوس في بحثه عن حليف وجد «شامسيجراموس» العربي أمير حمص والرستن.⁽¹⁾ حلّ هذا ضيفاً على الأول في مشارف أنطاكية. الحمصي كان قد اتفق مع عزيز سراً على أن يتخلصا من مرشحيهما ويتقاسمان الغنائم. وشمسي جرام أسر أنطيوخوس؛ لكن فيليب هرب من عزيز وتحصن في أنطاكية.

دخل الرومان سوريا، فقتل شمسي جرام أنطيوخوس الثالث عشر. واختفي ذكر السلوقيين فيما بعد⁽²⁾.

وغير الصداقة التي ربطت العرب بالأحمينيين كان ثمة عامل مهم آخر أسهم في قوة العربي، فقد كانت الدولة السلوقية في منأى عن البادية الشامية؛ لذا فلم تأخذ تدمر مثلاً اهتمام السلوقيين، والفراغ السلوقي هنا مكّن العرب من أن يستوطنوا ويتفاعلوا ويقبوا.

(1) يقترح «موريس سارتر» أن قبيلة الحمصيين جاءت من شمال شرق ما بين النهرين الأعلى وأقامت حول أرثودا (الرستن) وأسست مدينة جديدة هي أميسا (حمص).

(2) رائف العابد- مرجع سابق.

إضافة إلى النزاعات الأهلية السلوقية التي أضعفت مركزية الدولة؛ فجعل العربي يتدخل بالشؤون السلوقية.⁽¹⁾

المكونات العربية في الجناح الشامي⁽²⁾:

الأبجيريون حكموا مدينة أديسا منذ القرن الثاني ق.م.

إلى الجنوب من سلسلة جبال طوروس وفي منطقة أنطاكية كان هناك مجموعة عربية يقودها عزيز الذي كان له شأنٌ مهمٌ في آخر أسرتين سلوقية.

في خلقيس إلى الجنوب من حلب ثمة أمراء عرب: ألكايدامنس وغامباروس وثيرميسلا. في حمص والرستن حكمت مجموعة عربية تحت سلطة شمسي جراموس الذي تحالف مع عزيز في زمن آخر أسرتين سلوقية.

يشير د. عرفان شهيد في مؤلفه المهم «روما والعرب» إلى أنّ أربعاً من تلك المجموعات كانت تمتلك قسماً كبيراً؛ فسميت سوريا السلوقية.

كما ضم المشرق في قسمه التابع للبطالمة مجموعات عربية:

الأتوريون: عرب حكموا لبنان «عنجر» والبلاد المجاورة إلى الشرق وتوسعوا لاحتلال باتانيا واللجاة وحوران. وهؤلاء عُرفوا منذ زمن الإسكندر.

(1) «بيكرمان» يشير إلى أنّ انحلال الإمبراطورية السلوقية في القرن الثاني ق.م دفع بعض قادة المرتزقة أيضاً إلى تثبيت سلطتهم في عدد من مدن سوريا، وما إن حلّ القرن الأول الميلادي حتى غدت سوريا تعج بالمستبدين. الأمر الذي سهّل مهمة بومبيوس الروماني.

ويشير إلى أنّ المنطقة المحاذية للصحراء كانت مقسمة إلى بطون يحكمها شيوخ أطلق عليهم الإغريق اسم «زعماء القبائل». انتهزت القبائل العربية الفرصة لتستولي على الطرق التجارية وتتوطن في المدن الضعيفة. والإشارة هنا إلى أنّها في نهاية القرن الثاني ق.م وبداية القرن الأول ق.م، ونتيجة الصراعات السلالة السلوقية، أمكن لتدمير أن ترث دور سلوقية دجلة (الميناء السلوقي المهم)، وهذا ما أدى إلى سيطرة تدمرية على الطريق التجاري قرابة أربعة قرون.

(2) الباحث «روبرت هيلند» يتحدث في كتابه «تاريخ العرب في جزيرة العرب» عن أنّه ليس هناك دليل يؤكد صفتهم العربية أو يدحضها، لكن وجود هذه الكيانات على حافة البلدان مستقرة السكان يجعل من المحتمل أن سكانها، وإن كانوا أصلاً من منشأ عربي، جرى استيعابهم سريعاً في الثقافة الإغريقية- الآرامية السائدة، ومن المحتمل أنهم كوّنوا مجتمعات مدنية وأدركوا التباين الملحوظ بينهم وبين شعوب البادية. انظر: روبرت هيلند- دار قدس- دمشق- 2010.

إلى الجنوب نجد الأنباط في البتراء، حيث امتد نفوذهم على أرض شاسعة ضمت الأردن وشبه جزيرة وسيناء، واحتلوا دمشق في القرن الأول ق.م.⁽¹⁾

الآدوميون: في جنوب فلسطين إلى الغرب من البحر الميت.

كل هذه المجموعات كان لها دور في الصراعات القائمة، إن كان بين السلوقيين والبطالمة أو في المراحل الأخيرة من الصراعات داخل الأسرة السلوقية.

المكون الثالث في الجناح الشامي نجدُه في كنعاني الساحل الشرقي. إنَّه استمرارية ديمغرافية حضارية منذ الألف الثالث ق.م لبعض المدن كجيبيل مثلاً، تراوحت فاعلية مدن الساحل تبعاً للظروف السياسية والعسكرية، هذه المدن تمتعت بذكاء التجار ودهائهم لحفظ مصالحها. وحضرت مدينة صور هنا كمدينة قوية يحسب حسابها.

نقطة مضيئةٌ أنارت في تاريخها باتحاد المدن الثلاث كما رأينا، لكنها لم تُقصر بحق بعضها أحياناً. والجدير ذكره هنا أنَّ إطلاق اسم الفينيقيين عليهم كان من اختراع هوميروس في القرن التاسع ق.م.⁽²⁾

القديس أوغسطين 354 - 430 م كان يعيش في شمال إفريقيا وينحدر من أصل كنعاني قال: «يجيب أبناء بلدنا حين يُسألون عن أصلهم بلهجة قرطاجية: نحن كنعانيون»⁽³⁾.

تمركز الحضور الكنعاني الساحلي بقوة بين جبال الأمانوس شمالاً حتى جبل الكرمل جنوباً، وعبر عن ذاته بحضور مدني تجلّى في جيبيل، أجاريت، صور، صيدا، بيروت، عكا، حيفا وغيرها. تميزت جيبيل بالفاعلية التاريخية منذ الألف الرابع ق.م، فهي مركز الأخشاب لمدينة المشرق ومصر⁽⁴⁾.

وفي القرن السادس ق.م أصبحت مركزاً مهماً لتجارة البردي المصري.

حوى موقع المدينة تابوتاً حجرياً للملك «أحيرام» قرابة 1000 ق.م، الكتابة المنقوشة عليه عدّت إلى الآن أطول كتابة كنعانية ساحلية وأقدمها. «التابوت الذي صنعه إتو بعل بن أحيرام ملك جيبيل لأبيه عندما وضعه في الأبدية». دلت هذه الكتابة على وجود أبجدية

(1) ثمّة من ينظرُ إلى أصل الأنباط مكوناً محلياً كانت مطارحه الأولى في شبه جزيرة سيناء.

(2) عيد مرعي - تاريخ سورية القديم.

(3) الحضارة الفينيقية - سبتينو موسكاتي.

(4) في مصر كان يسمى الجيبيليون بقاطعي الأخشاب. عيد مرعي - 2010.

كنعانية تتألف من اثنين وعشرين حرفاً ساكناً: «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت»، تكتب من اليمين إلى اليسار وتلائمُ ورق البردي والحجر.

مناقشات الأبجدية الكنعانية:

حين أطلقت الأبحاث التاريخية على الأبجدية الكنعانية اسم «أبجدية جبيل»، أوحى بأن جبيل هي من أوجدتها أو اخترعتها، لكنَّ الحقائق العلمية تقدم احتمالات مغايرة حول التسمية؛ فآثار هذه الكتابة كما بدت على تابوت أحيرام تعود إلى قرون عديدة قبل 1000 ق.م.

وثمة عشر مخطوطات قصيرة من الألف الثاني ق.م عُثِرَ عليها في أنحاء فلسطين تدعى كتابات فلسطين البدائية. كذلك إن كتابة أجاريت المسمارية بالمبدأ الألفبائي تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م. ثم هناك كتابات سينائية في سيناء، بعض الدراسات تظهرها أحد أصول الكتابة الكنعانية.⁽¹⁾

الباحث «أندريه لومير»، في بحثه «أصل الأبجدية السامية الغربية وكتابتها» يناقش أول دليل للكتابة الأبجدية في إقليمين متجاورين هما: شمال سيناء وفلسطين.

وثمة أربعون نقشاً من الخطوط السينائية المبكرة يعود تاريخها منذ 1850 - 1500 ق.م، نقشت على صخور وألواح حجرية، بعضها جاء بعد نقوش مكتوبة بالهيراوغليفية. والنقوش الفلسطينية تعود إلى ما قبل القرن السابع عشر والرابع عشر ق.م، وهي شذرات لا أكثر.

أما «لومير» فهو مقتنع بأنَّ الخطَّ الأبجدي الأول ظهر؛ لأنَّ القبائل السامية في ذلك الإقليم كثيراً ما كانت تواجهها الهيراوغليفية المصرية، وعليه فإنَّ العلامة السابعة والعشرين، أو نحوها من العلامات الأبجدية المستخدمة في نقوش سيناء الباكرا مستلهمة استلهاماً واضحاً من الهيراوغليفية.⁽²⁾

الأبحاث تشير أيضاً إلى أنَّ هناك نماذج كتابية عُرِفَت باسم «الكنعانية التمهيدية» تعود إلى ما بين القرن الثامن عشر والثالث عشر ق.م، وهي على الأرجح أبجدية كما يعتقد الدكتور عدنان البني.⁽³⁾

(1) د. أحمد هبو- الأبجدية- 1984.

(2) تاريخ الكتابة- مكتبة الإسكندرية- 2005.

(3) في أماكن متفرقة من الساحل الكنعاني وفلسطين (جبيل، بيت شمس، تل الدوير، لاكيش، تل جزر وغيرها) انظر: عدنان البني- المدخل إلى قصة الكتابة في الشرق العربي القديم- 2001 - دمشق.

يعتقد الباحثان ألبرايت وكروس بوجود صلة بين الكتابة الكنعانية التمهيدية في جبيل والهيروغليفية المزعومة والسينائية.

ويقارب الدكتور محمد محفل الأبجدية الكنعانية هنا بقوله: «عندما نقول أبجدية جبيل فهذا لا يعني مطلقاً أنها خاصة بمدينة جبيل، ولأننا عثرنا على أقدم نقش فيها أطلقنا اسم المدينة عليها»⁽¹⁾.

انتشار الأبجدية الكنعانية هذه شمل بلاد الشام، وانتقلت إلى الإغريق، ثم تكونت الكتابة اللاتينية انطلاقاً من اليونانية والأتروسكية ذات المنبت المشرقي.

بعد ذلك انتقلت إلى السلاف (أوروبا الشرقية)، كما نشرها الآراميون أبناء عمومة الكنعانيين في الشرق، حتى عمّت العالم القديم. (محمد محفل - 2000).

في المقابل أخذ الآراميون المشاركة في الجناح الشامي عن الأبجدية الكنعانية كتابتهم، فقد كتبوا نصوصهم الأولى بها. ثم طوروا الكتابة منذ القرن السادس ق.م لتصبح كتابة خاصة بهم.⁽²⁾

هذا شأن معرفي وحضاري مهم في اعتبار الأبجدية الكنعانية معطى إنسانياً شمل أنحاء العالم القديم آنذاك.

أرواد:

جزيرة قبالة الساحل السوري، ذكرتها وثائق إبلا، وهي تجارية بامتياز، أسهمت مع الحثيين في معركة قادش ضد المصريين.

في الألف الأول ق.م لم تستوعب فاعليتها مساحتها فاستطاعت احتواء عمريت وبانياس وطرطوس وجبله.

كانت إلى جانب الفرس الأخمينيين في معاركهم البحرية ضد الإغريق في 480 ق.م.⁽³⁾

(1) للمزيد انظر: العربية لغة وكتابة - د. محمد محفل.

(2) الآراميون في الجناح الشامي استعملوا في بادئ الأمر الأبجدية الكنعانية، لكن آراميي الجناح الرافدي اقتبسوا كتابتهم من الكتابة المسمارية الرافدية، ثم تطورت لدى الطرفين كتابة آرامية موحدة.

(3) عيد مرعي - مرجع سابق.

المدى الآرامي:

كحال الواقع التجاري الذي يفرض نفسه انطلاقاً من الموقع الجغرافي، مارس الآراميون نشاطاتهم التجارية بفاعليتهم السياسية حتى بعد زوال تلك الممالك والمدن. وبدءاً من القرن الثامن ق.م نافست الحروف الهجائية الآرامية، والكنعانية ذات العلامات المسمارية. حتى أخذ يتناقص استعمال الكتابة المسمارية في الألف الأول ق.م. وفي مجال اللغة أصبحت اللغة الآرامية لغةً المشرق عامةً ثم لغةً رسمية للعالم القديم شرق المشرق. منذ منتصف الأول ق.م أصبحت «الآرامية الإمبراطورية» اللغة السائدة في مختلف أصقاع العالم العربي القديم، بعد تغلبها على اللهجات الشقيقة من بابلية وآشورية، وكنعانية ومصرية.

يقارب «فيليب حتي» الحيوية اللغوية الآرامية بقوله: «انتقال حرف الهجاء الكنعاني شرقاً إلى الآراميين، حيث تم نقله عبرهم إلى الفرس، وبذا أصبحت اللغة الآرامية لغة رسمية عندهم، كما أخذه العرب ليكتبوا به لغة القرآن... ثم انتقل إلى شعوب آسيوية أخرى. وقد حصل الفرس والأرمن والهنود على أبجديتهم من مصادر آرامية. وحروف البهلوية والسنسكريتية هي من أصل آرامي»⁽¹⁾.

الإمبراطورية الفارسية الأخمينية كانت سنداً للغة الآرامية وكتابتها؛ كونها استعملتها وأصبحت لغة دبلوماسية دولية. فقد أصبحت اللغة الآرامية لغة الحكم والإدارة إلى جانب الفارسية في مختلف الأصقاع الإمبراطورية، وذلك منذ القرن السادس حتى الربع الأخير من القرن الرابع ق.م.

مع انهيار الإمبراطورية الفارسية بسبب الفاعلية اليونانية فقدت الآرامية سندها الذي جعلها لغة رسمية موحدة ذات لهجة متماسكة في مختلف ولايات الإمبراطورية وراحت تفقد نقاوتها نسبياً، وانكشفت قليلاً أمام اللغة اليونانية، ولا سيما في ميادين الحكم والإدارة. فتكونت عدة لهجات وكتابات آرامية محلية مشتقة من الآرامية الأم، وأصبحنا في القرن الأول ق.م أمام لهجات وكتابات آرامية مشرقية متعددة في مجموعتين:

الشرقية: وتضم السريانية بفرعيها النسطوري واليعقوبي.

المنداعية في جنوب الرافدين

(1) فيليب حتي - مرجع سابق.

الحرانية شمال بلاد الرافدين

الغربية: وتضم الآرامية الفلسطينية، تحوي بعض الكتابات المسيحية الأولى من أناجيل وغيرها، كذلك كتابات تلمود اورشليم.

النبطية: تطور القلم النبطي من القرن الثالث الميلادي حتى نهاية القرن الرابع، كان له دور مهم في الكتابة السريانية في نشوء الخط العربي الحجازي.

التدمرية: نقوش تدمر في مملكتها ومحيطها وفارس، حيث وصلت الفاعلية التجارية والعسكرية إلى تدمر.⁽¹⁾

تأملات رافدية في الألف الأول ق.م:

مقاربة الفاعلية الآشورية في الألف الأول ق.م تدفعنا إلى استعراض الحيوية المجتمعية بصرف النظر عما أظهره الآشوريون من بأس في حروبهم حتى سقوط آشور ونيوى، والقوة الضاربة لآشور اعتمدت التسليح ونوعيته، العلاقات التجارية بين الحثيين والآشوريين مكّنت آشور من الحصول على الحديد الذي أدخلته في صنع الأسلحة.⁽²⁾

تناسب العمارة الآشورية مع البأس الذي أظهره. «بريستد» يتحدث عن القناطر الثلاثية التي شيدها الآشوريون عند مداخل قصورهم، حيث صنّعت من الآجر الملون المرصع بالمينا، هذا الإنشاء استمده الرومان لاحقاً لبناء أقواس نصرهم.

أخذت آشور عن المصريين صناعة تلوين الآجر وأضافت عليه الذائقة الآشورية ليؤسّس لصناعة اشتهرت بها آسيا الغربية وبلاد الفرس. الحرفيون والصّناع الكنعانيون من الساحل المشرقي صنعوا في نيوى أطباقاً منقوشة من البرونز. «سنحاريب» أتى بزراعة القطن من الهند، واستنبتته في حدائق نيوى. وفي الحياة الحقوقية حصل تطور مهم عبر تجاوز القانون البابلي «العين بالعين والسن بالسن» أي اتسعت الرؤية الفكرية والاجتماعية في هذا المجال.

الشيء الآخر هو تساوي كل شيء أمام القانون، أمراء وأناساً عاديين.

(1) للاستزادة يمكن الرجوع إلى بحث: د. محمد محفل - العربية لغة وكتابة.

(2) قصر شاروكين عثر فيه على ما يزيد على مئتي طن من الأدوات الحديدية.

والمجتمع يُنبئ بذكوريته كحال مجتمعات المدن المشرقية القديمة، إذ يحقُّ للزوج طلاق زوجته متى شاء، والنساء من الفئات المهمة كان يجبُ عليهن وضع غطاء على الرأس نوعاً من التمييز والوقار.

وعلى قدر العنجهية الآشورية مارس كُتابهم كتابة التاريخ بمبالغات وبطولات وأحياناً بمصادقية.

كان «آشور بنيعل» يتباهى بأنَّ أباه علّمه الكتابة على الآجر، يبدو أنَّ هذا الأمر أثار في شخصيته حين أصبح ملكاً. المنقبون عثروا في مكتبته ذائعة الصيت على اثنين وعشرين ألف لوح مسماري مطروحة على أرض المكتبة، تحتوي على مواضيع علمية وأدبية ودينية وما إلى ذلك.⁽¹⁾

واتجاهاً إلى الجنوب نحو بابل الكلدية الآرامية، في حيز مخطط المدينة نجدها مقسمة إلى عدة مستطيلات بممرات واسعة للمواكب والمارين والسلع والقوافل.

والشوارع يُطلَق عليها أسماء آلهة، فشوارع مردوخ وزبابا تلتقي في زوايا صحيحة مع شوارع الإله سين وانليل، هذا على الضفة اليسرى من نهر الفرات، وعلى الضفة اليمنى نجد تقاطعاً لشارع أدد مع شارع شمش.⁽²⁾

«كونتينو» في مقاربه العمرانية يتحدث عن الطراز البابلي في مدينة بابل، حيث إنَّ الشوارع السكنية فيها تتشابه بمشيلاتها في الشرق الأدنى في العصر الحاضر، التي يكون لها جدار صوري على أي جانبٍ من جوانبها؛ فهي تستمد حياتها ونشاطها من المارة فيها ليس إلا.

وعلى الفرات شيدت بابل جسراً استقر على خمس قناطر. الإشارة هنا إلى خلوها من أمور الصرف الصحي⁽³⁾، وانعدام التبليط في شوارعها. وقد حمى المدينة سوران دفاعيان بينهما مسافة قليلة، والغاية أنه إذا اخترق مُعتد السور الخارجي فسيقعُ في الفخ ومن ثمَّ يسهل القضاء عليه؛ إذ إنَّ وراء السور الخارجي خندقاً فيه ماء.⁽⁴⁾

(1) جيمس بريستيد- العصور القديمة.

(2) جورج كونتينو- مرجع سابق.

(3) قبل 2500 سنة تقريباً من بابل، حوت مدينة ماري نظامَ تصريف صحي أنقذ موقعها فيما بعد من الأمطار.

(4) كونتينو- مرجع سابق.

بابل الكلدية الآرامية جبّت حضارياً وفكرياً وثقافياً كلّ مخزون المشرق الحضاري كآشور، ومظاهر الثقافة الكلدية نجدها في علوم وأفكار ومعتقدات وحقائق أغرقت المشرق بتفاصيلها وشكّلت أرضية ثقافية مهمّة بصورةٍ عامة.

الملاحظُ في المنحى الفكري وتطوراتهِ أنّ الثقافة الكلدية تخلصت من الماورائيات الأسطورية غير المنطقية والبعيدة عن الواقع ومجرباته، فبدت الحياة الاجتماعية أقرب إلى تبسيط المقدس بما يلائم التطورات في الفكر، والممارسات الفلكية الكلدية تمثلت في المزج بين المبادئ العلمية المعروفة آنذاك مع الحكايا ذات التعبير الاعتقادي.

مُورِخٌ مُتَهَكِّمٌ وَحَكِيمٌ:

التاريخ ليس حروباً فقط، والتاريخ أيضاً ليس حبراً من دماءٍ تسيل، ثمّة خلف ستارة الحروب مجتمعاتٌ تفعل فعلها، تتفاعل، تكتشف، تستقرئ، تُجرب، تفكر، وتخترع، تحاربت آشور مع الممالك الآرامية في وقت كانت هذه تطور كتابتها ولغتها، أجاريت صممت أبجديتها المسمارية وقت الصراعات الحثية المصرية وتأثرها بالواقع السياسي والعسكري آنذاك. والأمثلة على ذلك لا تُعدّ، فالحالة الفكرية هي صورةٌ لحيوية المجتمعات وشخصياتها، والتاريخ فكرة أيضاً ولو كان من حبر لونه أحمر، والأجمل في كل هذا أنّ الفكرة لم تصل إلى الجواب، فبقي السؤال حاضراً، وهنا تكمن الدهشة!

من ثلاثة مواقع في المشرق سنعين مناحي التفكير المشرقي الذي ينتمي إلى أحوال عالم الألف الأول قبل الميلاد وما بعده بقليل، فسيرة القصور والملوك مملة أحياناً، ثمّة نبض آخر جدير بالانتباه.

مُورِخٌ أو كاتب لأدبيات تاريخية عاش بين 64-141 م، كتب في «التاريخ الفينيقي»، سِفرًا لأساطير الفينيقيين وتقاليدهم، ضاع المؤلف ووصلت شذرات منه بعد قرون، لكن يستفيد منه مُورِخٌ بيروتي⁽¹⁾ عاش في القرن السادس ق.م، هو «سنخو نياتون».

متكهم آخر من مدينة سميساط، كتب ما رآه حين تجوّل في مدينة هيرابوليس (منبج ومعاينها)، هو لوقيانوس السميساطي 120-180 م.

(1) الدكتور عيد مرعي يشير إلى أنّ معجم سودا Sudas Lexicon; وصف سنخو نياتون بأنه من صور وعاش خلال حرب طراودة. انظر: فيلون الجبيلي - مرعي - 1993 - دار الأبيدية - دمشق. في حين يشير فيليب حتي في مؤلفه تاريخ لبنان إلى أنه وُلد في بيروت.

التاريخ الميلادي لا يعني زمنًا بحاله، فنحن مع استمرارية حضارية؛ لهذا فعالم الألفيات التاريخية يتداخل.

ونحن نعلم فعل الثقافة الهلنستية حتى في العصر الروماني اللاحق لها. كتب لوقيانوس كتابه «الآلهة السورية» (LA Deesse Syrienn). مشاهدات اجتماعية طقسية تعبدية في زمن متواصل منذ ما قبل الميلاد إلى ما بعده.

وحكيم حُرْم من الذرية فامتلك الحكمة هو «أحيقار» الآرامي الذي عاش في زمن الملك الآشوري سنحاريب وابنه أسر حدون 704-669 ق.م. أحيقار العالم بعلم الاجتماع آنذاك، قال بما معناه: لا ترسل ابن البحر إلى الصحراء ولا ابن الصحراء إلى البحر، ثلاثة أقاليم عقلية تُعبّر عن حيوية المشرق.

فيلون المؤرخ⁽¹⁾ «تاريخ عالمي يبدأ بأصل محلي»

ما تبقى من مؤلفه «التاريخ الفينيقي» يشكل أساساً جيداً مع صغر حجمه، للاطلاع على كنعانيي الساحل المشرقي وحضارتهم. هذا المؤلف هو تحقيق لمصدر أصلي كتبه مؤرخ بيروتي هو سنخو نياتون. يُصرّح فيلون بأنه اعتمد تقارير الكهان الفينيقيين.

ومضى البحث في محاولة استكشاف مصادر سنخو نياتون في مؤلفه، يقول أحد الفلاسفة نقلاً عن آخر: إنَّ سنخو نياتون حصل على مصادره المعرفية من كاهن إيو «هيروم بلوس» وقد أهدى تاريخه إلى ملك بيروت «أبي بلوس» حيث قُبِل الكتاب من قبل الملك. قيل أيضاً: سنخو نياتون كان محباً للحقيقة، جمع وكتب وأتم باللغة الفينيقية التاريخ القديم من سجلات كل مدينة ومن النصوص في المعابد.

قال فيلون: «سنخو نياتون ذو علم غزير، محبٌ للاطلاع، رغب في أن يعرف من كل إنسان ما حدث منذ البداية»⁽²⁾.

تبين إذاً أنَّ مصادره تعود إلى التقاليد الفينيقية الأصلية. والجدير ذكره أنَّ ما كتبه سنخو نياتون هنا لم يصل بنصه الأصلي بل مترجماً إلى لغة غير فينيقية ومحققاً من قبل فيلون

(1) اعتمدنا تحقيق د. عيد مرعي- فيلون الجبيلي في مقاربتنا لهذا المؤرخ.
(2) اكتشافات محفوظات أجازيت أظهرت صحة المعلومات التي أوردها فيلون في كتابه نقلاً عن سنخو نياتون. (مرعي وفيليب حتي).

الجبيلي؛ لذا نجد اصطلاحات كتاب فيلون تحمل طابعاً إغريقياً، كما يُشار هنا إلى أنّ طبيعة المؤلف تعود إلى العصر الهلنستي؛ «فتاريخ فيلون الفينيقي تاريخ عالمي يبدأ بأصل محلي». وسط الثقافة الإغريقية السائدة كان على فيلون تأكيد «وطنته الفينيقية»؛ لهذا فقد أعاد في تحقيقه معظم المنجز الحضاري الإنساني إلى الدور الفينيقي كالزراعة، الصيد، العمارة، المراكب، وتفاصيل أخرى.

وَيُصْرَحُ بَأَنَّ الإِغْرِيْقَ لَمْ يَكُونُوا مَبْدَعِينَ بَلْ مَقْلِدِينَ بَلْ مَقْلِدِينَ سَيِّئِينَ.

مقتطفات فيلون «التاريخ الفينيقي»:

«رغبنا أن نعرف التاريخ الفينيقي بدقة وفحصنا مواداً كثيرة، ليست تلك المحفوظة لدى الكتاب الإغريق؛ لأنها غير ثابتة، وأُلفت من قبل بعض الناس بهدف الخصام أكثر من الحقيقة. وبعد أن رأينا عدم التوافق بين الإغريق أصبحت لدينا القناعة بأنّ الأمور كانت كما كتب هو سنخو نياتون. فقد كتب حول هذا الموضوع في عملٍ مؤلفٍ من ثلاث مجلدات تحمل عنوان «التاريخ غير التقليدي».

لنتأمل هنا مقولة فيلون: «الفينيقيون والمصريون الذين أخذت عنهم بقية البشرية أفكارها، عدّوا آلهة كبرى أولئك الذين اكتشفوا أشياء مفيدة للحياة، أولئك الذين أفادوا شعوبهم بطريقة ما، عدّوهم خيرين ومصادر للكثير من البركات، فعبدوهم كآلهة، وبنوا لهم بعد وفاتهم معابد وأقاموا لهم نصباً ومسلات بأسمائهم. وقد عظّمهم الفينيقيون كثيراً وأقاموا أعياداً كبرى على شرفهم. وأطلقوا أسماء منتقاة من أسماء ملوكهم على عناصر الكون وعلى بعض الآلهة المعترف بها.

ومن بين قوى الطبيعة عدّوا آلهة فقط الشمس والقمر والكواكب الأخرى والعناصر والأشياء المرتبطة بها. وهكذا أصبح لديهم بهذه الطريقة بعض الآلهة البشرية وبعض الآلهة غير البشرية؛ ولكن هؤلاء البشر الأوائل قدّسوا الأشياء التي تنبت من الأرض وعدّوها آلهة.

وعبدو تلك الأشياء بالطرق التي حافظوا عليها هم وكل أسلافهم وأحفادهم وقدموا أضاحي من الخمر والبخور، وأقاموا طقوساً من البكاء والنحيب والعيويل للأعشاب عندما تبدأ بالنمو من الأرض، ولولادة الحيوانات، وللأصل الأول للأشياء الحية من الأرض، ولأصولها من بعضها البعض، ولموتها عندما ترحل من الحياة»

يقصد فيلون على ما يبدو بمقولته البشر الأوائل غير الفينيقيين والمصريين، وقد أطلق عليهم اسم «البرابرة القدماء جداً» ثم يصفهم بطقوسهم الأرضية كما أسلفنا: «تعزى مبادئ العبادة هذه إلى ضعفهم الخاص وخوفهم الروحي». وما سبق من أقوال لفيلون كانت مقدمة كتابه ثم يعرض ترجمات لسنخو نياتون:

في اللاهوت الفينيقي وعالم النشوء والتكوين:

«عندما عشقت الرياح عناصرها الأولى نتج عن ذلك مزيج، دعي ذلك الاتحاد بوثوس (رغبة، إثارة). كان هذا بداية تكوين كل شيء لكن الرغبة لم تعرف تكوينها الخاص بها.

ومن اتصالها مع الرياح وُلِدَ للرياح موت. بعضها يُسمَّى هذا طين ويسميه بعضهم عفونة المزيج الرطب. نشأت من هذه المادة كلُّ بذور الخلق وأصول كل شيء. كانت هناك مخلوقات حية دون إحساس تولدت منها مخلوقات ذكية دُعيت زوفاسمين؛ أي مراقبو السماوات. وتشكلوا على هيئة بيضة تقريباً. هكذا ظهر موت مع الشمس والقمر والنجوم والكواكب الضخمة».

يتابع تخيلاته الجميلة: «ونتيجة لصوت الرعد استيقظت المخلوقات الذكية... وأصبحت خائفة نتيجة الضجيج، وبدأت المخلوقات المذكورة والمؤنثة بالتحرك على البر وفي البحر».

«ووُلِدَ من الريح كوليبا وزوجته باو ليلة أيون وبروتوجونوس، وأطلق عليهم اسم مخلوقات بشرية؛ أي مخلوقات تموت، واكتشف أيون ثمار الأشجار وأطلق على الأولاد الذين وُلِدُوا منهم جينوس وجينيا وأقاموا في فينيقية، وعندما كان يحدث جذب كانوا يرفعون أيديهم إلى السماء تجاه الشمس؛ حيث عدّوها سيد السماء الإله الوحيد ودعوه بل شمين الذي كان يعني سيد السماء للفينيقيين وزيوس الإغريق».

ويستمر تطور الخلق الأسطوري، يكتب فيلون:

«من جينوس بن أيون وبروتو جونوس وُلِدَ أولاد بشر آخرون، أسماؤهم فوس (ضوء) وبر (نار) وفلوكس (شعلة). هؤلاء اكتشفوا النار عن طريق احتكاك أعواد الخشب مع بعضها البعض وعلموا استخدامها. وقد أنجبوا أولاداً فاقوهم في الكبر والقوام والذين أُطلقت أسماؤهم على الجبال التي كانوا يحكمونها. وهكذا سمي بأسمائهم كاسيوس ولبنان ومقابل لبنان جبال لبنان الشرقية وجبل برثي... وُلِدَ من هؤلاء سميروموس الذي دعي

هيسورابوس وأوسوس... أقام هيسورانوس في صور واخترع الأكواخ المبنية من القصب والحلفاء والبردي، وتشاجر مع أخيه أوسوس الذي كان أول من اكتشف كيف يصنع دثاراً للجسم من جلود الحيوانات التي كانت لديه المقدره على اصطيادها».

يصف بعد ذلك الرياح التي أدت إلى إحراق الغابات، وكيف أن أوسوس عرّى شجرة من أغصانها و«كان الأول الذي تجرأ على السفر في البحر» وأقام نصيبين للنار والريح وعبدهما، وعندما مات هؤلاء الرجال (الأخوين) بنى لهما الأحياء قبوراً وعبدوا النصب وأقاموا المهرجانات على شرفهم كل سنة».

ويستعرض فيلون ولادة صياد السمك والصيد العادي ثم ولادة أخوين يكتشفان الحديد وطريقة سبكه، ثم ولادة الحرفة والبناء: «أوجد تيختيس وجينوس «طريقة صنع اللبن بخلط القش مع الطين ثم تجفيفه تحت أشعة الشمس... اخترع السقوف». ويستمر في ملحمة النشوء والارتقاء الفينيقية وتكويناتها البدئية:

«وُلد أمينوس وماجوس، اللذان علّما تأسيس القرى واقتناء قطعان الأغنام، ووُلد من ميسور توثوس الذي اخترع الكتابة الأبجدية».

ثم يشير إلى آخرين اكتشفوا استخدام الأعشاب ومعالجة عضات الحيوانات والتعاويد. هكذا نحن أمام حالة ذهنية كنعانية ساحلية تُذكر بمطالع الفكر الميثولوجي في الجناح الرافدي مع اختلاف في البيئة الطبيعية والرموز، ومع وجود بُعد متوسطي في الأدب الميثولوجي الفينيقي.

لوقيانوس: «لم أره بنفسي ويقال إنه واسع ويرجع لزمن سحيق»⁽¹⁾ من بلاغي القرن الثاني الميلادي، 120 - 180م، تميز بتهكمه وسخريته مع مشاهداته الطريفة وحوارياته، وربما تبع المذهب السفسطائي في الفلسفة، ذهب إلى أثينا وتلفس، عهدت إليه روما بوظيفة حكومية في مصر.

ونحن نعلم أنه منذ العصر الهلنستي تراجعت الروحية الاعتقادية والدينية، واحتلت الرموز الدينية مقاعد خلفية في الاهتمام الفكري، وهذا ما نجده في عصر لوقيانوس لا سيما

(1) المادة العلمية هنا أفادنا بها كتاب La deesse Syrienne - Lucien de smosate وقد عرّبه موسى الخوري - دار الأبجدية 1992. كذلك كتاب لوقيانوس السميساطي - ترجمة سعد صائب - مفيد عنونق. 1987

في مؤلفه «الآلهة السورية» الذي وصف فيه مختلف مشارب الحياة الدينية في سوريا آنذاك في المدن ومعابدها وفنونها المعاشة.

د. رائف العابد يشير إلى سخرية لوقيانوس من الآلهة، كما سخر ممن كتبوا عنها قبله. كتب لوقيانوس السميساطي باليونانية لكنه كان يتكلم الآرامية، ومخزونه الثقافي قرابة ثمانين كتاباً. قيل: السخرية الريادية لديه أثرت بعد ترجمة أعماله في كتاب وأدباء عالميين: توماس مور، سويفت، سيرنو دو برجراك، رابليه، رينان، فولتير، أناتول فرانس وبرنارد شو.

مقاربتنا لكتابه «الآلهة السورية» تضيء عالم الطقوس الشعبية والاجتماعية ومعابدها وتفصيلها التي تناولها الكاتب بعين البصر والبصيرة، وروح نقدية متميزة.

يصف «ماريو مونييه» كتاب «الآلهة السورية» بالنفيس والنادر من الناحية الوثائقية العائدة لزمته. والأجمل هنا أنّ ما كتبه لوقيانوس لا يظهر أي تأويل عميق واهتمام بأي علم مقدس، فهو هدف إلى عرض الطقوس والعبادات وكأنه خارجها، ومن منظور موضوعي بحت.

إذاً، لوقيانوس هنا يتصف بالحياد وهذا ما أضفى حيوية للمخيلة أكثر من الأسباب الكهنوتية.

هنا اجتمعت في شخصه معالم الذكاء والفضول والسخرية والشك، ربما لأنه سفسطائي. وقد شكَّ بعضهم في مصداقية الكتاب والكاتب، لكن في رأينا أنّ الاطلاع على كتابات لوقيانوس ربما تقارب التصديق، لا سيما كتابه «حوارات الموتى» الذي استحضر فيه الفلاسفة وسخر بطريقته من طريق السؤال هذا.

«مونييه»، يشير إلى أن هذا المؤلف هو الوحيد القادر على رفع جانب من الحجاب الذي لا يُخترق والذي يغطي السر المكفّن للأوابد الدينية في سوريا.

فعبادة الآلهة التي يحدثنا عنها لوقيانوس كان لها زمانها المتألق، فقد انتشرت من بلاد الرافدين إلى ديلوس ومن روما حتى بروتوني والتخوم الشمالية للإمبراطورية الرومانية.

«جورج بيرّو» يتحدث عن عبادات هييرابوليس كما في جيبل وإريكس فهي الطاقة الهدامة والمخصبة للطبيعة، والمشغولة أبداً بالهدم والخلق، وبتعويض الخسائر التي يكبدها الموت للحياة باتحاد الجنسين وبالإنجاب المستمر.⁽¹⁾

(1) الآلهة السورية- مرجع سابق.

كتب لوقيانوس: «تقوم في سوريا مدينة تدعى هيرا، وهي غير بعيدة كثيراً عن نهر الفرات ومكرسة في الواقع لهيرا الآشورية... سأحدث عن المدينة وعن كل ما حوته، وعن القوانين التي تحكم الطقس المقدس. ما سأرويهِ شاهدت جزءاً منه بعيني ونقل الكهنة إليّ الجزء الآخر، وهو يتعلق بكل ما سأعرضه من وقائع سبقت عصري... توجد في سوريا معابد لا تقل بقدّمها كثيراً عن المعابد التي تُرى في مصر، لقد زرت بنفسِي معظمها وبخاصة معبد هيراقليس في صور، وهو غير هيراقليس الذي يحتفل به اليونان، إنما أتحدث عن آخر أقدم منه بكثير وهو بطل صور...»⁽¹⁾

في فينيقيا معبد كبير للصيدونيين، وهو بحسب ما يقولون، مكرسٌ لعشروت. أحد الكهنة شرح لي أنه مكرس لأوروبا أخت قديموس، فعندما توارت أوروبا عن عيون الفينيقيين أقاموا لها معبداً تكريماً لها، ومع ذلك فإنّ الفينيقيين لا يتفقون أبداً كلهم على أنّ هذا المعبد مكرسٌ لأوروبا.

وقد رأيت أيضاً في جبيل معبداً مكرساً لأفروديت جبيل، وفيه تحيا طقوسٌ تكريماً لأدونيس. إنّ الجبيليين يقولون: إنّ الحادث الذي وقع لأدونيس بسبب خنزير جرى في بلادهم. وهكذا نراهم في ذكرى هذا الحادث من كل عام يضربون أجسامهم، ويتألّمون نائحين، ويحيون طقوساً تهتكية في حين يعم بلادهم كلها حزن عظيم.

وعندما يكفون عن ضرب أنفسهم وعن البكاء يقومون بإحياء ماتم أدونيس وكأنه مات من جديد، ثم يعلنون في اليوم التالي أنه حي، ويصعدونه إلى السماء⁽²⁾ ويحلقون شعر رؤوسهم. أما النساء اللواتي لا يقبلن مطلقاً حلق شعورهن فكن يعوضن عن ذلك بغرامة يجمعنها على هذا النحو: يمسين مستعدات خلال يوم كامل لجني الفائدة من جمالهن، ولم يكن يُسمح بالوصول إلى الساحة التي يتجمعن فيها إلا للغرباء، وما كن يجمعنه يصبح تقدمة «لأفروديت».⁽³⁾

(1) منذ العصر الهلنستي جرت مطابقات بين آلهة مدن ومراكز العالم القديم، ولا سيما في المثلث الحضاري المتوسطي المشرقي/ المصري/ اليوناني، ويبدو أنّ هيراقليس هو مطابقة صورية مع الإله اليوناني.
(2) هذه الطقوس نجد أحداثها في المشرق منذ طقوس تموز في الجناح الرافدي، وقد استمرت نوعاً من العبادات الخصبية وصولاً إلى العصر الحديث، لكننا هنا أمام طقوس دينية جُردت من أسطورتها ودخلت نطاق الدين التوحيدي.

(3) يُذكر هذا بالقدستو، نساء المعبد المقدسات المنذورات للآلهة في الجناح الرافدي وربما الشامي أيضاً.

نقطة وعي أو علم يذكرها لوقيانوس في تلون نهر أدونيس في لبنان، ففي جبيل يتلون النهر كل عام بلون الدم. ويقال: إنَّ هذا الدم من جراح أدونيس الأسطوري؛ لكن رجلاً من جبيل استوقفَ لوقيانوس وحدثه:

«إنَّ نهر أدونيس، الغريب يجتاز جبل لبنان، وأرض جبل لبنان صهباء اللون إلى أقصى حد. وهكذا فإنَّ الرياح القوية التي تهب في مثل هذه الأيام تحمل إلى النهر هذا التراب الذي ليس في معظمه إلا مغرة زنجارية اللون، وهذا التراب يعطي للنهر لون الدم. فليس الدم إذًا، كما يقال سبب الظاهرة، بل التربة».

يُعقَّب لوقيانوس: إنَّ التوافقَ بين الريح والحادث لا يبدو لي أقل ألوهية في أروع مظهر لها».

سيصعد بعد ذلك لوقيانوس جبل لبنان، بعد يوم كامل سيصل معبداً قديماً حقاً، يقول:
أكبر وأقدم المعابد الموجودة في سوريا، ليمضي في مشاهداته وأقواله:
«هذا المعبد هو أغنى المعابد التي أعرفها. فالثروات التي تأتيه من الجزيرة العربية ومن الفينيقيين ومن البابليين لا تحصى، كما يأتيه الكثير منها من كبادوكيا، إضافة إلى الكيليكين والآشوريين».

الطوفان الفينيقي:

«يزعم الناس أن دوكاليون⁽¹⁾ السيثي هو الذي أسس المعبد، وأنَّ دوكاليون هذا نفسه الذي حدث الطوفان الكبير في عهده، وقد سمعت قصة دوكاليون عند اليونان كما يرونها اليونان أنفسهم. وهاكم الأسطورة.» يورد لوقيانوس أحداث الأسطورة بما يشابه قصة الطوفان المشرقية ويستكمل محلياً:

«يروي سكان هيرا بوليس أسطورة مفاجئة تماماً تقول: إنَّ فجوة كبيرة انفتحت في أرضهم فغارت المياه كلها فيها، أما دوكاليون فقد شاد المذابح إثر هذه الأحداث وبنى فوق هذه الفجوة معبداً مكرساً لهيرا. ولقد رأيت هذه الفجوة أيضاً». يراود الشك لوقيانوس حين وجد الفجوة الصغيرة جداً تحت المعبد يستفسر مشككاً:

(1) دوكاليون هنا يعادل أوتناشتم ونوح.

«ترى هل كان هذا الثقب الصغير جداً كبيراً في الماضي؟ لست أدري، وما أعرفه أنه صغير». ثم يصف طقس التحيين للحدث الأسطوري:

«في ذكرى هذه الأسطورة تقام الطقوس التالية مرتين في السنة. تُجلب مياه البحر للمعبد، وليس الكهنة وحدهم الذين يقومون بهذا العمل، أعدادٌ كبيرة من الناس تشارك في ذلك وتمضي إلى البحر من سوريا وشبه الجزيرة العربية، ومما وراء نهر الفرات.

كلهم يجلبون المياه، وهم يفرغونها أولاً في المعبد، ثم تغور المياه في الثقب.. يزعم الناس أنهم بعملهم هذا يتبعون عادةً أسسها دوكاليون في هذا المعبد لكي تكون ذكرى للمصيبة وللنعمة في آن واحد، غير أن آخرين يعتقدون أن سميراميس البابلية هي مؤسِّسة هذا المعبد أيضاً».

يدخل لوقيانوس المعبد ويرى: «إلى يسارنا ونحن داخلون نرى عرشاً مخصصاً للشمس، لكن وجه الإله غير موجود عليه. فالشمس والقمر هما الإلهان الوحيدان اللذان لا يعطيها السوريون شكلاً محدداً، فهم يزعمون أنه من القداسة إقامة التماثيل للآلهة الأخرى لأن مظاهرها لا تتجلى لعيون الناس أجمعين.

إلا أن الشمس والقمر يتألقان أمام أعين الجميع، والعالم كله يراهما. فلماذا نصب إذن تماثيل لآلهة تُظهر نفسها في السماء».

الطقوس:

«باحة المعبد ترعى بحرية ثيران كبيرة وخيولاً ونسوراً ودببةً وأسوداً. وهي لا تؤذي أبداً الناس، بل إنَّها كلها مقدسة وأليفة في الوقت نفسه. ويُقبل عندهم عدد كبير من الكهنة، فبعضهم يذبح الأضاحي، وآخرون يريقون الخمر، وغيرهم يُدعون بحملة النار، كما ويدعى عدد منهم بمعاوني إعداد المذابح. وقد بلغ عدد الذين حضروا للمشاركة في الذبيحة بحضوري أكثر من ثلاثمئة كاهن.

وكانت ثيابهم كلها بيضاء، وقد وضعوا على رؤوسهم طاقية من اللبد. وكل سنة تأتي بكاهن أكبر جديد وهو وحده الذي يرتدي الثوب الأرجواني ويضع التاج الذهبي، وثمة أيضاً عدد كبير من الأشخاص المرتبطين بطقس العبادة، وبينهم عازفو الناي والشبابة، والغال ونساء مهتاجات كأن بهن مسٌ من الجنون.

يتم تقديم الذبيحة مرتين في اليوم، ويشارك فيها الجميع. وتقدم ذبيحة زيوس في صمت دون أي غناء أو عزف على الناي، ولكن ما إن يبدأ تكريم هيرا حتى يبدأ الغناء والعزف على الناي وتحريك الأجراس».

عيد المحرقة/ عيد المشاعل:

«إلا أن أروع الأعياد وأكثرها احتفالية من بين التي حضرتها هو العيد الذي يقيمه السوريون عند بداية الربيع.

ويسميه بعضهم «عيد المحرقة.. ويطلق عليه آخرون «عيد المشاعل»، وهاكم الأضحى التي يقدمونها.. بعد أن يقطعوا أشجاراً كبيرة ينصبونها في الباحة، ثم يحضرون الماعز والنعاج ورؤوساً أخرى من الماشية الحية ويعلقونها على الأشجار.

إذا انتهوا من هذه التحضيرات حملوا التماثيل المقدسة وصقوها حول الأشجار، ثم أضرموا النار في المحرقة فلا تلبث أن تضطرم بكل ما فيها.

يحضر هذا الاحتفال جمهور عظيم يأتي من كل أنحاء سوريا ومن كافة البلاد المجاورة لها. ويجلب كل شعب معه تماثيله المقدسة والتمثيلات التي يصنعها مقلداً أشكالها».

عادات:

«إذا رأى أحدهم ميتاً فإنه لا يدخل المعبد في ذلك اليوم، لكنه يستطيع في الغد دخوله بعد أن يكون قد تطهر. أما أهل الميت فلا يدخلون المعبد طوال ثلاثين يوماً، ويحلقون رؤوسهم، ولا يدخلونه إلا بعد انقضاء المدة... يضحون بالثيران والماعز والشيء ولا يستنون سوى الخنازير؛ إذ لا يضحون بها ولا يأكلونها... الحمامة من بين الطيور كافة الأكثر قداسة، فهم يمتنعون عن لمسها، وإذا لمسوها صدفةً فإنهم يُعتبرون غير طاهرين طوال ذلك اليوم؛ ولهذا أصبحت هذه الطيور أئيسة معهم وباتت تدخل بيوتهم وتتغذى من طعامهم».

وعادة الوشم منتشرة بينهم جميعاً، فمنهم من يرسمه على معصمه، وآخرون يضعونه على الرقبة... جميع السوريين يحملون وشماً على أجسادهم.

الختام:

«سنوا شريعة للعذارى والشباب تمنعهم من الزواج قبل قص شعورهم تكريماً لهيبوليت، وهم يخضعون لها كلهم. الشباب يُقدمون باكورة شعر اللحية، أما الأطفال فتترك ضفائرهم لتطول منذ ولادتهم، وهي تعد مقدسة منذ ذلك الحين، وعندما يذهبون بهم إلى المعبد يقصونها لهم، ويضعونها في آنية فضية أو ذهبية ويثبتها في المعبد، وقبل أن يذهبوا يولون

عناية فائقة لتدوين اسم كل طفل . عندما كنت لا أزال صبيّاً أتممت بنفسى هذا الطقس ولما يزل اسمى وظيفرتى فى المعبد».

أحيقار/ أبو - نينو - دارى - «حاملًا لختم سنحاريب ملك آشور»⁽¹⁾

فى أوائل القرن العشرين عُثِرَ على النص الآرامى لقصة أحيقار وحكمته فى جزيرة الفيلة بمصر⁽²⁾.

فى مقارباتنا للمشرق فى الألف الأول ق.م، لا سيما الصراع الآشورى/ الآرامى، كنا نعلم أن تحت طبقة الحروب والمماحكات السياسية هناك الفعل الشعبى والاجتماعى الذى لا يبالى كثيراً بتلك الصراعات، خصوصاً إذا كانت بين أرومات ديمغرافية متقاربة وذات أصل واحد. الالتحام والتفاعل يفعل فعله دونما قرار رسمى، حتى إنَّ هذا الأمر نجده فى تلك الحقبة بضياغ التمييز تماماً بين آشورى أو بابليّ أو كلدى آرامى وحتى عربى .

كانت تلك الحاضنة الاجتماعية الأساسية فى حضارة المشرق؛ وعلى الرغم من الجبروت الآشورى احتلت الآرامية آنذاك لغة عالم الوثائق والكتابة واللسان.

ونقارب كثيراً وجود أسماء آرامية فى الوثائق الآشورية؛ فليس من باب الاستغراب أن يتخذ ملوك آشور وزراءً وكتّاباً من الآراميين، أليس أحيقار نفسه آرامياً على حد قول سهيل قاشا، أو على الأقل من المتضلعين من الآرامية؟ كذلك سنجد نصوصاً آشورية رفدت إليها نصوص آرامية.

«جيمس بريستيد» فى مؤلفه «العصور القديمة» تحدث عن التاجر الآرامى الذى إذا وجد لوحاً مكتوباً بالمسمارية تناول قلمه وعلق عليه بالآرامية. حتى إنَّه اكتشف فى محفوظات الملك آشور بنى بعل ألواحاً كثيرة نقشت عليها الحواشى الآرامية إلى جانب النص الآشورى.

ذكرنا أن أحيقار عاش زمن الملكين سنحاريب وأسر حدون فىكون التاريخ تقريباً 704 - 669 ق.م. وهى مدة الحاكمين فى آشور. ومختصر القصة هنا: أن هذا كان مستشاراً

(1) نقارب شخصية أحيقار من كتاب سهيل قاشا- أحيقار- دار بيسان- 2005 - بيروت.

وكتاب حكمة الكلدانيين - د. حسن فاضل جواد- بغداد- 2000.

(2) أُلّفَ النص من إحدى عشر صفحة، ثلاثة منها تحوي كل منها عمودين، والصفحات الأربع الأولى تحوي قصة أحيقار، والباقية عشر صفحات وعشرة أعمدة تتناول حكم أحيقار. النص خال من التاريخ وأمكن بالبحث والتقصى إعادته إلى القرن الخامس ق.م.

للملك سنحاريب لم ينجب أولاداً مع أنه تزوج من عدة نساء. وذات يوم أناه صوت الرب⁽¹⁾ فقال له: خذ «نادان» ابن أختك واجعله وريثك، علّمه علمك ولقنه حكمتك.

كَبُرَ نادان على العلم والمعرفة والحكمة، شاخَ أحيقار، والملك أسر حدون يريد منه أن يختار من يخلفه مستشاراً له، فيختار نادان ويوافق الملك.⁽²⁾

غدر ابن الأخت بخاله وسبب له مشكلات عند الملك فهرب إلى مصر، ثم عاد وانتقم من ابن أخته. الذي اعتقد أن قصة أحيقار كُتبت في الأصل بالآشورية، ثم دُوِّنت بالآرامية.

المعطيات تشير إلى انتقال هذه القصة إلى العالم القديم آنذاك، ويُعتقد أن «ديموقريطس» الفيلسوف الفينيقي الأصل، واليوناني اللغة، نقلها إلى اليونان. ويُعتقد حسب الدراسات والمتابعات أن نصَّ أحيقار كُتب قبل وفاة الملك أسر حدون عام 669 ق.م.

حكمة أحيقار (مقتطفات):

كلمتان جميلتان والثالثة يحبها شمش، أن تشرب الخمرة وتسربها فتصون حكمتك.

تسمع الكلمة فلا تفشيها فذلك عزيز لدى شمش.

لا تدع كل كلمة ولا تفش كل أمر.

أعظم ما تراقب راقب فمك.

دمار الفم أشد خطراً من دمار الحرب.

لا يوجد أكثر مرارة من الفقر.

احصِ أقوال فمك.

إذا كان العرش مؤسساً على الكذب فإن الكذب سيذله أخيراً.

لا تفش أسرارك لصديقك؛ لأن اسمك لن يبقى محترماً لديه.

كيف تستطيع شفاه الناس أن تلعن عندما الآلهة لا تلعن؟

العيون الصالحة لن تظلم، الأذان الصالحة لن تُصم.

(1) المصادر السريانية تشير إلى أنه لم يكن وثنياً بل اتبع إلهاً واحداً! ص 32 قاشا.

(2) أحيقار كان مستشاراً لسنحاريب ومع استلام أسر حدون الحكم أصبح نادان مستشاراً للملك، جاء في القصة:

«إني خدمت الملك سنحاريب أباك الذي كان ملكاً قبلك... والآن دونك...».

إذا الإنسان الشرير قبض على تلايب ثوبك فاتركه بين يديه واتصل بشمس فإنه يأخذ ثوبه ويعطيك إياه.

أعدائي سيموتون ولكن ليس بسيفي

لا تُرِ البدوي البحر ولا الصيدوني الصحراء؛ لأن عملهما مختلف

الذي يعصر الخمرة هو الذي يذوقها.

لو كان المرء يستطيع أن يبني بيتاً بالصوت العالي المرتفع لبنى الحمار بيتين في يوم واحد.

ارم حجارة على الكلب الذي ترك صاحبه وتبعك.

لا تدع صاحبك يدوس على قدمك لئلا يدوس رقبتك.

إذا لقيت لقية أمام صنم فقدم له منها حصته.

ما يلفت النظر والفكر مقولة أنه كان غير وثني ويعبد إلهاً واحداً بحسب المصادر السريانية فيما بعد. ولعلّ المقاربة هنا تفسح المجال لاعتبار العصر الهلنستي كما ذكرنا، كان عصر انفكاك العقل عن تصوراته الغيبية إلى حد ما، وصار أمام احتمالات عديدة لتحقيق توازنه الروحي والروحاني.

الملل من المعتقدات والأساطير القديمة شأنٌ طبيعيٌّ في مسار التطور العقلي والذهني للمجتمعات، وذكرنا أنه حتى البحث عن معتقدات جديدة كان أكثرَ وطأةً، وهذا الجانب برأينا هو الذي هيأ الأجواء لظهور المسيحية، فالأمر ذهني اجتماعي ولا يدخل في نطاق الماورائيات وما إلى ذلك. نحن نعلم أن الدين ظاهرة اجتماعية نفسية.

كل المؤشرات العقلية تؤدي إلى وجود تراكم وتلمل تجاه المعتقدات القديمة ورموزها، وإن بقيت في حيز التقاليد، وهنا مع ظهور المسيحية حصل رد فعل وثني، ونبت الاختلافات والصراعات بين الوثنيين والمسيحيين، وصار على هذا الدين التوحيدي الجديد أن ينتظر حاضنةً سياسية لانتشاره، تلك الحاضنة كانت في روما.

الأنباط - من الكتابة الآرامية إلى القلم العربي 587 ق.م - 106م:

قبل سقوط بابل وإنهاء فاعليتها السياسية كان يجري في الجنوب الشامي حضور متميز في الصحراء الجنوبية للأردن، اختلف الباحثون في أصوله إن كانت عربية أو محلية أو من سيناء.

تُعَدُّ الفاعلية النبطية أكثر تميزاً وحضوراً وثباتاً لجهة المنجز الحضاري ومعالم التفاعل مع البيئة الطبيعية، والوسط الحيوي والبيئة الاجتماعية المشرقية.

ويبدو أنَّ هذا عائدٌ إلى امتلاك الأنباط لأدوات التفاعل الحقيقية، بالإضافة إلى وعي المكان والبيئة وحركة التاريخ آنذاك وحركة المجتمعات الاقتصادية والتجارية.

ولعلَّ معالم التمازج العربي النبطي / الآرامي تأخذ مداها في فاعلية الأنباط. الفاعلية الديمغرافية النبطية تعود في بدايتها إلى القرن السادس ق.م، وشيئاً فشيئاً أخذت معالم هذه الفاعلية الديمغرافية تمتلك أدوات التفاعل مع البيئة الاجتماعية والبيئة الطبيعية المشرقية حتى أمكن لها في النهاية أن تشكل فاعلية سياسية تجارية زراعية مهمة بدأت تتبلور في حدود نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وقد ذكرهم «ديودور الصقلي» ووصفهم بأنهم كانوا بدايةً في بدء استيطانهم.⁽¹⁾

(1) ديودور الصقلي الذي كان مصدره الأساس المؤرخ هيرينيموس الكاردي HIERONYMUS OF CARDIA، وكان موظفاً ذا مرتبة في بلاط أنطيوخوس، وفي وصف الأنباط الأوليين في أول استيطانهم في البتراء إثر اندثار قبيلة قيدار في القرن الرابع ق.م يقول: «يعيشون في العراء، يدعون أصلهم في أرض فقير لا أنهار فيها ولا ينابيع غزيرة، يمكن لأي جيش معاد أن يحصل منها على الماء، ليس من عاداتهم أن يزرعوا القمح، أو يغرسوا شجرة مثمرة أو يتناولوا النيذ، ولا أن يبنوا بيتاً. وإذا وجد من يتصرف خلافاً لذلك يكون جزاءه الموت، إنهم يتبعون هذه العادة؛ لأنهم يؤمنون بأن الذين يمتلكون هذه الأشياء لكي يحتفظون بها؛ يكون من السهل على الأقياء أن يجبروهم على القيام بما يأمرونهم به. بعضهم يربي الجمال وبعضهم الآخر الغنم ويرعونها في الصحراء، إنهم مولعون بالحرية على نحو استثنائي، وكلما اقتربت منهم قوة من الأعداء يلجؤون إلى الصحراء، يستخدمونها حصناً لأنها تفتقر إلى الماء ولا يمكن للآخرين أن يعبرونها. أما ما يتعلق بهم وحدهم ولأنهم جهزوا خزانات تحت الأرض مبطنة بالحصص فهي تؤمن لهم السلامة». <DIODORUUS 19. 94>. بعد ثلاثة قرون من هيرينيموس أتى سترابون وتحدث عن الأنباط بعد استيطانهم وتفاعلهم مع البيئة الطبيعية والاجتماعية، يقول: «إنَّ عاصمة الأنباط هي البتراء، البتراء يحكمها دائماً ملك من الأسرة المالكة، وللملك من بين مرافقيه شخص بمثابة مدير الأعمال يدعى الأخ. الأنباط شعب حساس وهم مبالون كثيراً إلى اكتساب الأملاك، حيث إنهم يقرمون علناً أي شخص أنقص ممتلكاته ويمنحون ألقاب التكريم لأي شخص يزيد، بيوتهم مكلفة بسبب استعمال الحجر، لكن المدن ليست مسورة بسبب السلم. إنَّ معظم البلاد مزودة جيداً بالثمار باستثناء الزيتون، لأنهم يستعملون السمسم بدلاً عنه، لا تربي الخيول، تتكفل الجمال بالخدمة، اللون السائد في حياتهم آنذاك هو الأرجواني». Strabo 16.4.21، لعلنا نتلمس بعد هذين المعطيين كيف يمكن لقيم ومعايير تفاعل البيئة الطبيعية والاجتماعية

ويبدو أنَّ الدولة النبطية قامت على أنقاض المملكة الإيدومية في شبه جزيرة سيناء، بالإضافة إلى انتهاء فاعلية بنو قيدار التي امتدت إلى ددان، واستولوا على ادوم، وتذكر المصادر أنَّ الحجر كان داخلياً في منطقتهم. ويشير الدكتور إحسان عباس إلى أنَّ الفاعلية النبطية ورثت ثقافة الإيدوميين وبنو قيدار أو كانت امتداداً لهما.⁽¹⁾

واتجاهاً نحو القرن الأول قبل الميلاد نجد مملكة الأنباط كانت في أوج فاعليتها السياسية، حيث انتشرت في دمشق وسهل البقاع والأقسام الجنوبية الشرقية وفلسطين وحوران وأدوم ومدين إلى ددان على ساحل البحر الأحمر.

ويبدو أنَّ الشرط التجاري لموقع الأنباط بعاصمتهم البتراء/ سلع هو الذي أدى إلى ازدهار هذه المملكة. وتجدر الإشارة إلى أنَّ الاسم النبطي للبتراء هو الرقيم.

استفاد الأنباط من موقعهم المتميز على طريق التجارة الدولي، لا سيما تلك الطريق الآتية من جنوب الجزيرة العربية نحو الشمال إلى مناطق شرق الأردن، مروراً بجرش وربة عمّون (عمان) حتى تبلغ الساحل الشرقي، أو تتجه شمالاً حتى تصل بصرى ثم دمشق أو غرباً إلى غزة والعريش.

يشير الدكتور جواد علي إلى أنَّ الأنباط قاموا بأنفسهم بالوساطة التجارية بين بلاد الشام ومصر ومواضع من جزيرة العرب، وكان ميناء غزة ميناء الأنباط المفضل على البحر المتوسط، وهو في الواقع ميناء كل التجار العرب؛ إذ كان المرفأ الوحيد الذي ترفأ إليه تجارة العرب، كما اتجه الأنباط إلى موانئ شرق شبه الجزيرة العربية، حيث كانوا يتبادلون السلع مع السفن الواردة من الهند أو من أواسط آسيا إلى جرها على ساحل الخليج العربي.⁽²⁾

تفاصيل تبادلاتهم التجارية:

«السلع الرئيسة تتألف من المر والتوابل والبخور من جنوبي الجزيرة العربية، والمنسوجات الحريرية الفاخرة من دمشق وغزة، والحناء من عسقلان، والأواني الزجاجية والأرجوان من

مع المحيط التجاري من أن تسهم في تغيير نمط الشخصية الاجتماعية تاريخياً؛ لهذا يمكننا أن نسقط حالة التفاعل هذه على مجمل الانسياح البشري إلى المشرق المستندة إلى ثلاثة عوالم تفاعلية، سواء سلباً أو إيجاباً، البداوة- الزراعة- المدينة. انظر: تاريخ العرب في جزيرة العرب، والملاحظة هنا أنه في العصر الإسلامي أصبحت كلمة نبطي تُرادف كلمة مزارع أو فلاح.

(1) تاريخ دولة الأنباط- د. إحسان عباس- 1987 - دار الشروق- الأردن.

(2) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام- مرجع سابق.

صيدا وصور، واللؤلؤ من الخليج العربي. وكان الإنتاج المحلي لبلاط الأنباط يضم الذهب والفضة وزيت السمسم الذي كانوا يستخدمونه مكان زيت الزيتون.

وُيَرَجَّحُ أَنْ الإسفلت وغيره من المعادن المربحة كانت تُستخرج من الساحل الشرقي للبحر الميت، وكان الحرير الخام يُستورد من الصين مقابل ما يصدر إليها.

وقد عُرِفَ الحرير الصيني مادةً في سورية منذ أيام السلوقيين. وكان الحرير الخام يُنْسَجُ في صيدا في القرن الأول الميلادي⁽¹⁾.

واتجاهاً نحو شمال شبه الجزيرة العربية كان موقع تيماء مركزاً تتصالب عنده طرق التجارة القادمة من مأرب، مارة بمعين ونجران ويثرب وددان والحجر ومدائن صالح، ومنها يذهب فرع إلى وادي الرافدين وآخر إلى عاصمة الأنباط البتراء وحائل.

ولمقاربة أكثر لقوة الفاعلية النبطية في القرن الأول قبل الميلاد؛ إن امتداد المملكة النبطية حتى مدينة دمشق وضمها لفاعليتها في عهد ملكها الحارث الثالث قرابة 85 ق.م، تم في وقت كانت دمشق فيه حاضرة للمملكة السلوقية وذلك بموافقة سكان المدينة.⁽²⁾

إذاً، نحن أمام فاعليةٍ مملكةٍ امتدت إلى البادية الشامية وشملت دمشق وأطراف الفرات، كما توغلت في بلاد الحجاز، وقد انتهت الفاعلية النبطية سياسياً مع قضاء الرومان على عاصمتهم زهاء 106م دون تدميرها. حيث ورثت تدمر الفاعلية التجارية للأنباط وشهدت حركة هجرة لهم إليها.

والإمبراطور تراجان أنهى الفاعلية التاريخية لدولة الأنباط، وضمها إلى الإمبراطورية الرومانية، وأنشأ الولاية العربية (المقاطعة العربية الرومانية) التي أصبحت عاصمتها بصرى الشام.

وتلاشى الأنباط في محيطهم الحيوي دون دولة تحت السيطرة الرومانية، وامتزجوا مع بقية الأرومات المشرقية والعربية حتى نجد في صدر الإسلام ذكراً لهم.⁽³⁾

(1) فيليب حتيه تاريخ سورية ولبنان وفلسطين دار الثقافة-لبنان.

(2) العرب في سوريا قبل الإسلام- رونه دوسو- مرجع سابق.

(3) حين زارها الإمبراطور هادريانوس في 130م كانت البتراء ذات حيوية جيدة نسبياً.

الجدير بالذكر أيضاً أنّ مدينة البتراء عاصمتهم أضحت مركزاً معتقدياً في الحقبة البيزنطية،
وعام 363م تعرض ومدن أخرى لزلازل مدمر. (إحسان عباس - 1987).

الغريب أنّ الأنباط الذين عاشوا على المشارف الشمالية من بلاد الحجاز ليس لهم أي
ذكر في المصادر العربية التي تحدثت عما قبل الإسلام.

القاع الثقافية للأنباط هي العربية؛ عربية القوافل الجوالّة! حتى استقرت وتفاعلت
وتمازجت مع البيئة الاجتماعية المشرقية والطبيعية، وعبرت عن نفسها في فاعلية عربية
آرامية متمازجة. والمتتبع لثقافة الأنباط يلحظ أنّ أسماء الأعلام لديهم عربية؛ كالحارث
وعبادة... إلخ، وكذلك معبوداتهم لا سيما ذو الشرى.

العلاقات بين الأنباط وتدمر كانت قائمة منذ القرن الأول الميلادي، وقد ذكر سترابون
نشاط الأنباط الذي امتد من خليج أيله (العقبة) حتى جرهاء على الطرف الآخر للبحر
الأحمر.⁽¹⁾

الغاية الرومانية من إنهاء فاعلية الأنباط موقعها الجغرافي، ونحن نعلم ميل الرومان إلى
الاهتمام بالمدن الأكثر تمدناً، وروما المزاحمة التجارية أيضاً.

تكلم الأنباط بالعربية، لكن غياب القلم العربي جعلهم يستعملون كتابة العصر آنذاك،
فالآرامية كانت ضرورة حضارية، ووسيلة عملية للتفاهم مع من حولهم ممن يستعملونها في
مكاتباتهم، ولم تكن الآرامية وسيلة للتفاهم مع الفئات غير العربية فحسب، بل كانت وسيلة
كذلك للتفاهم مع العرب في منطقة الصفا جنوب الشام، وإلى الجنوب من منطقتهم؛ إذ لم
تكن بين تلك القبائل لغة عربية مشتركة.

وقد ظلت الآرامية لغة الكتابة لديهم بعد أن سقطت دولتهم، مدة مئتي عام، ثم بدأوا
يكتبون العربية بالحروف الآرامية، غير أنّ اللغة الآرامية التي استعملوها لم تكن آرامية خالصة،
وهذا يتضح بخاصة في النقوش المتأخرة، أما كتابتهم فكانت بالقلم الآرامي المأخوذ من
القلم الآرامي القديم، وقد عرف قلمهم بالقلم النبطي، تمييزاً له عن باقي الأقلام.

(1) كان للأنباط فرعٌ في تدمر وبقيت فاعلية تجارية نبطية على سواحل البحر الأحمر بعد سقوط البتراء، فحين
سقطت تدمر أضربت البتراء، ويقال: إنها دمرت المعبد الروماني فيها.

وقد عثر على كتاباتهم في مواقع البتراء، الحجر، العلا، تيماء، خيبر، صيدا، دمشق، حوران، اللجاة، طور سيناء، الجوف، اليمن، ومصر. (جواد علي).

الوسيط الكتابي: الكتابة النبطية والقلم العربي:

يشير الدكتور محفل إلى أنَّ الخطَّ النبطي المتأخر ذا الأصل الآرامي كان له دورٌ كبيرٌ في نشوء القلم العربي الحجازي. (العربية لغة وكتابة)

ويضيف: إذا عرضنا للكتابات النبطية التدمرية قبل نهاية القرن الثالث الميلادي التي سبقت النقوش العربية في أم الجمال والنمارة وغيرها، وهي النقوش التي عثر عليها في شمال شبه الجزيرة العربية وفلسطين والأردن وسيناء وتدمر وتوابعها وغيرها من أطراف بلاد الشام وباديتها، لاحظنا ازدياد أوجه الشبه بين شتى لهجاتها وبين عربية الشعر الجاهلي وصدر الإسلام.

وفي محاولة لمقاربة الهوية العربية للأنباط يشير الدكتور جواد علي إلى أنَّ الأنباط عرب، وهم أقرب إلى قريش وإلى القبائل الحجازية التي أدركت الإسلام، فهم يشاركون قريشاً في أكثر أسماء الأشخاص، كما يشاركونهم في عبادة أكثر الآلهة، وخط النبط قريب جداً من خط كتبة الوحي.

هناك كلمات عربية كثيرة في النصوص النبطية المدونة في الآرامية، وهي عربية خالصة من نوع عربية القرآن؛ لهذا أرى أن النبط أقرب إلى قريش وإلى العدنانيين. (جواد علي).

وقد أشار بعض الباحثين إلى أنَّ لهجات النقوش النبطية آرامية صرفه وبقلم آرامي، وبعضهم اعتبرها وبحق تراكيب آرامية/عربية، وبخط آرامي نبطي.

«رونيه دوسو» يناقش هذه المسألة، حيث يرى أنَّ البدوي الذي يقيم في إقليم متحضر يفقد غالباً لغته وعاداته، وإلى هذا الحد يظهر لنا النبطيون وقد أحاطوا إحاطة تامة باللهاجات الآرامية. ويبدو أنه للهجة النبطية لكنة استمدتها من استعمال اللهجة الآرامية؛ لذا فقد كان العرب في الحجاز يتهمون النبط بأنهم شوهوا اللغة العربية.

ويشير الدكتور جواد علي إلى أنَّ تَبَرُّاً العرب من الأنباط وإبعاد أنفسهم عنهم، لأنهم عابوا عليهم لهجتهم، فهم تثقفوا بثقافة الآراميين وكتبوا بكتابتهم وتأثروا بلغتهم، حتى

غلبت الآرامية عليهم، ولأنهم خالفوا العرب في اشتغالهم بالزراعة والرعي واحتراف الحرف والصناعات اليدوية، وهي حرف يزدهرها العربي الصميم.

وهنا ينبغي الإشارة إلى حالة تبادلية مهمة، وهي أن عالم الألف الأول قبل الميلاد، شهد انتشار اللغة العربية في البادية الشامية، كما شهد انتشار الآرامية في شبه الجزيرة العربية، لا سيما من أوسطها إلى شمالها، وهذا ما يؤكد حالة التمازج بين ثقافتين مختلفتين اجتماعياً؛ لكن كل واحدة تسعى نحو الأخرى ووفق مصالح الحياة وتطورها، ذكرنا سابقاً أننا لم نشهد صراعاً آرامياً عربياً مطلقاً.

ولا بأس هنا من استعراض بعض النقوش النبطية على اختلاف أزمته، مع الإشارة إلى أن هذه النقوش تصنف جغرافياً إلى ثلاثة أنواع:

- نقوش العلاء في الحجاز.
 - نقوش البتراء في وادي موسى، جنوب البحر الميت وشمال خليج العقبة.
 - نقوش بصرى الشام.
- هذه النقوش تقدم دليلاً كبيراً على صلة عرب بلاد الشام في بلاد الشام بعرب الحجاز.
- نقش من منطقة العلاء، شمال الحجاز: نقش أب بن مقيمو:

يعود إلى عام 9 قبل الميلاد:

دا نشا أب بر هذا تمثال أب

بمقيمو بر مقيم إل دي بن مقيمو بن مقيم الذي بناه

له أبوهي بـ يرح إلول له أبوه في شهر أيلول

شنة الحرتت ملك نبطو في السنة الأولى للحارث ملك النبط

- نقش معيرو بن عقرب: يعود إلى نهاية القرن الأول الميلادي، وهو من الكتابات المتأخرة عند الأنباط، حيث يلاحظ التأثير العربي الواضح، ليس في الكلمات فقط بل في الأسلوب أيضاً؛ حيث نلاحظ أن الأنباط يتركون اللهجة الآرامية ويندمجون تدريجياً في اللغة العربية:

دنه حمنا عبد معيرو بن عقرب هذا هو مذبح النار الذي صنعه معير بن عقرب

(ب) بت أسد وإكها إله معينوفي سنة سبع لهدرنيس قيسر بيت أسد الإله إله معين في السنة السابعة لهدرنيس قيصر.

- نقش من منطقة صلخد شمال حوران في جنوب الشام:

أهمية هذا النقش في أنه يحتوي على كلمة مسجد، وهذه نقطة معرفية مهمة للمعتقدات اللاحقة والأديان:

| | |
|--------------|---------------------------------|
| دا مسجد | هذا مسجد |
| دي عبد | الذي صنعه |
| عبيد بن | عبيد بن |
| أطيفق | أطيفق |
| لبعل شمن إله | لبعل شمين إله |
| متنويشنة | متن في سنة |
| لملك | لملك |
| ملكا ملك نبط | ملكا ملك الأنباط ⁽¹⁾ |

وثمة إشارة مهمة إلى أن النصوص النبطية حوت أسماء علم كانت تُستعمل بكثرة في مكة والحجاز، فنجد على نحو عام في النصوص العربية الشمالية/النبطية، الثمودية، الصنفوية، واللحيانية أسماء مثل:

عبد الله، محمد، عبد مناف، عبد اللات، قصي، هاشم، كلب، عمرو. عبد عدلون (عبد عدنان)، ما يقدم دليلاً على عمق التفاعل النبطي العربي-الأرامي مع وسط شبه الجزيرة العربية.

وقد حوت النصوص النبطية، كما ذكرنا، ألفاظاً عربية وأسماء عربية كالتالي ذكرناها وهي ما نجدتها في العربية، ولا سيما أسماء مثل: أذينة، أسد، أوس، عبده، أوس الله، بكر، رجب، عمر، عدي، معن، وهب

(1) فقه اللهجات العربيات - د. محمد بهجت قبيسي - دار شمال 1999 - دمشق.

ويبدو أن انتشار الأنباط بعد سقوط دولتهم أفاد لجهة انتشار الكتابة النبطية (القلم النبطي)، لا سيما الكتابة المتأخرة منها، فهذه الكتابة كانت مُستعملة عند العرب قبل الإسلام، حيث إنَّ ارتباط الأنباط بالعرب في وسط الجزيرة العربية كان ارتباطاً وثيقاً، حتى إنَّ المسيحيين العرب كانوا يستعملون الكتابة النبطية واللهجة الآرامية، حيث كانت الآرامية لغة الحياة عند المسيحيين في المشرق، والذين لم يألّفوا اللغة اليونانية مع الفاعلية السلوقية.

ويعتقد الباحثون أيضاً أنَّ القلم العربي كان في البدء لا يتميز عن الكتابة النبطية، ثم انتشر في البادية الشامية، ومن ثمَّ انتقل إلى المراكز التجارية والفكرية في بلاد الحجاز.

إذاً، نحن مع الفاعلية النبطية أمام جملة معطيات أدت إلى تكريس معالم التفاعل الآرامي-العربي وترسيخه، إن كانت في حركة الجولان المعتادة للقبائل العربية وتأثرها بالمراكز الآرامية من جهة، والعربية المتحضرة من جهة أخرى.

بالإضافة إلى عالم التجارة والنشاط التجاري الذي شكل رافعة للتفاعلات الحضارية وللمثاقفة بين الشعوب آنذاك.

ونحن نعتقد أنَّ الفاعلية النبطية أسهمت أساساً في التأسيس الثقافي والحضاري للمعالم الثقافية لشبه الجزيرة العربية، وسيستمر في فاعليته تجاه صدر الإسلام.

يشيرُ الدكتور عدنان البني في بحثه في مجال النقوش العربية إلى أنَّه باستثناء كتابة زيد، أنه سبغ من الكتابات العربية الثماني المعروفة تعود إلى ما قبل الإسلام وتتضمن نصاً عربياً أو جاءت بكتابة عربية ولغة عربية، قد وجدت في القسم الجنوبي الغربي من بلاد الشام وفي منطقة الأنباط حصراً وهي:

- كتابة عبادة في النقب:

وهي كتابة نبطية تحمل نصاً عربياً وتعود إلى الألف الأول الميلادي.

- كتابة أم الجمال الأولى شمال شرق الأردن:

وهي نبطية تحمل نصاً عربياً في القرن الثالث الميلادي

- كتابة النمارة في شرقي جبل العرب جنوب الشام:

نبطية تحمل نصاً عربياً وتعود إلى مطلع القرن الرابع الميلادي 328م.

- كتابة معبد رم شرقي العقبة- مرحلة انتقالية بين النبطية والعربية، في القرن الرابع الميلادي.

- كتابة أم الجمال الثانية:

مرحلة انتقالية بين النبطية والعربية- مطلع القرن الخامس.

- كتابة جبل أسيس جنوب شرق دمشق:

عربية كتابة ولغة، في أواخر القرن السادس الميلادي

- كتابة حران من اللجة شمال جبل العرب بالشام:

عربية كتابة ولغة، في أواخر القرن السادس الميلادي.⁽¹⁾

أما نقش زبد (خربة زبد) في شمال بلاد الشام بين حلب والفرات الذي يعود إلى عام 512م فهو، حسب رأي الدكتور البني، مغاير لتلك الكتابات ذات الأصول النبطية، وهو أقرب شكلاً إلى الكتابة السريانية الكوفية وكتابات النقود الإسلامية الأولى.

وهذا ما يدفع إلى افتراض أنه كان في بدايات الكتابة العربية وسطان: نبطي في جنوب الشام، وسرياني في شمالها مؤثران في ولادة الكتابة العربية، وكل منها يعمل ويتطور مستقلاً عن الآخر.

ويصل إلى القول: «قد يساعد هذا الاستنتاج على توكيد أن تطور الخط السرياني إلى الخط العربي، ووصوله عن طريق الأنبار فالحيرة طبقاً للمصادر العربية الإسلامية إلى الشام والحجاز، وتأثيره في الكتابة النبطية ذاتها كما هو ملاحظ في نقش حران. (البني - 2001).

في النصوص النبطية المتأخرة نجد اقتراب الألفاظ العربية من نقوش الأنباط، وهذا يعطي دليلاً على سيطرة العربية المحكية على لسانهم، وكذلك على تدفق عناصر بدوية جديدة متفاعلة إلى النسيج النبطي.

الجدير ذكره أن حروف كتابات سينا النبطية العائدة إلى القرنين الثاني والثالث الميلادي، هي خطوط قريبة من الخط العربي الذي اشتق عن الخط النبطي؛ إذ يبدو أن الخط النبطي

(1) يمكن الرجوع لدراسة: د. محمد محفل العربية لغة وكتابة. ود. عنان البني - قصة الكتابة في الشرق العربي القديم لقراءة النقوش.

منذ ذلك الوقت يميلُ إلى ربط الحروف وتعليقها ببعضها، والابتعاد عن الطريقة السائدة التي تفصل بين حروف الكلمة الواحدة.

وحسب رأي الدكتور محمد محفل في دراسته «العربية لغة وكتابة»؛ حيث يشير إلى أنَّ القلم النبطي/ الآرامي راح يتعد تدريجياً عن أصله الآرامي بعد سقوط دولة الأنباط عام 106م، وأخذ يقترب أكثر فأكثر من القلم المسند الحميري والخطوط المشتقة منه: اللحياني، الثمودي، صفائي. وبذلك راح يتكون قلم نبطي متأخر له دور جذري في نشوء القلم العربي القديم بفرعيه الكوفي والنسخي.

وأنَّ العرب بعد أن كتبوا الخط المسند استعملوا خطأً عربياً شمالياً متأثراً بالخط النبطي المتأخر، حيث إنَّ القلم الآرامي أسهل في الكتابة من المسند، وذلك في المنطقة الممتدة من الحجاز إلى الشام، كتبوا نصوصاً في القرون الخمسة للميلاد، ثم جاء خط آخر من الأنبار فالحيرة، ووصل إلى الشام فالحجاز متأثراً بالخطوط السريانية والآرامية اللينة التي عُرِفَت فيما بعد باسم الخط الكوفي، وبعد مدة صاحبه خط آخر هو النسخي، ويرى بعضهم أنه امتداد إلى الخط النبطي.

وقد نشأ عن الخطين: الأول والثاني أصناف وألوان الكتابات العربية المعروفة المختلفة، تبعاً للفوارق الجغرافية من شرقية ومغربية وفارسية وتركية.

الجدير ذكره أنَّ الخط الكوفي استُعملَ في الأغراض التذكارية وفي صك النقود والنقش على الحجارة والمعادن عامةً، وفي نسخ القرآن حتى القرن الثاني عشر الميلادي. كما ظهر الخط النسخي الحجازي، ويبدو أنَّ النسخ الحجازي أقدم من الكوفي.

وقد تنوعت الخطوط تبعاً للانتشار الإسلامي في الجهات الأربع، فظهرت أنواع عديدة أهمها: الثلث، النسخ، الرقعة، الديواني، الكوفي، الفارسي، وما زال النسخي يتقدم الخطوط الأخرى ويُستعملُ أكثر من غيره. (محفل)

والكتابة العربية أصبحت كتابة إسلامية، وصلت حيشما وصل القرآن، فانتشرت عند الفرس والآتراك والهنود والملايو وبعض شعوب إفريقيا الشمالية والوسطى والشرقية والغربية.

ونتج عن ذلك ظهورُ أنواعٍ جديدةٍ من الخطوط، ففي المغرب العربي والأندلس ظهر الخط المغربي، وتمكن الفرس من ابتكار خط رشيق أسموه «نستعلق» واستعملوه في المخطوطات وطباعة الشعر، أما الأتراك فابتكروا خطَّ الرقعة السلس وخط الثلث والإجازات.

الخط الآرامي استُعملَ في شمال غرب شبه الجزيرة العربية وشرقها في العهد الفارسي 539 - 334 ق.م، واعتمده لاحقاً كل الكيانات المنتشرة في أطراف البادية السورية.

وينسق بانورامي يمكننا مقارنة تطور الكتابة واللغة العربية بارتحال جماعات عربية! منذ القرن الخامس ق.م نحو البتراء وتدمر نتيجة الجفاف الذي حلَّ في مناطق شبه الجزيرة العربية الوسطى.

كما أنَّ سيرورة تحمّل اللغة بأصوات مختلفة وأحرف ساكنة إضافية قد تسببت في النشوء التدريجي للخط النبطي، إلى أن أصبح في القرن السادس الميلادي ما نعرفه بالخط العربي.⁽¹⁾

روما والمشرق الشامي - سلامٌ سلبياً في مدن أو شكّت أن تموت:

في إيطاليا شكّل سهل اللاتيوم الذي يقع على حوض نهر التير الأسفل وسط إيطاليا مركزاً لتجمعات بشرية على حالة ثقافية أولية في مطلع الألف الأول ق.م. إلى ما يقارب القرن الثامن ق.م، فقد أنشئت روما من اتحاد سبع قرى في التلال تقع جميعها شرق نهر التير. والمعطيات تشير إلى أن الأتروسكيين⁽²⁾ هم الذين أوجدوا روما وأعطوها مركزاً مهماً في اللاتيوم، حتى إن اسم روما أطلقه الأتروسكيون عليها ويعني نهر رومو⁽³⁾.

(1) انظر: روبرت هيلند- مرجع سابق.

(2) أرنت ستراناد، ناقش مداخلات مؤتمر «أصل الأتروسكيين» الذي انعقد في فلورنسا في إيطاليا عام 1985. حيث يشير إلى مداخلات باحثين عن وجود تأثيرات مشرقية على الحضارة الأتروسكية التي كانت نتيجة للاحتكاك التجاري، لا سيما مع الفاعلية الكنعانية الساحلية الشرقية الفينيقية. ولأن المؤتمر يبحث في أصل الأتروسكيين فقد ذكر الباحث أن العالم هرزوفي الذي فك رموز اللغة الحثية والضيع في اللغات المشرقية القديمة، تحدث منذ عام 1928 عن اللغة الأتروسكية أنها لغة مشرقية قريبة من اللغات السورية القديمة، فالجذور السورية تتجلى في المفردات الاقتصادية والسياسية والتجارية والحقوقية في تلك اللغة.

نساءل هنا: هل الأتروسكيين مشرقيون بالحدس العلمي؟ لا نعتقد، فالتأثر اللغوي لا يعني أن الأصل واحد.

وقد تحدث إلينا الدكتور نقولا زيادة عن لغة سكان جزيرة مالطة التي تحوي مفردات عربية كثيرة؛ لكن هذا لا يعني أن المالطيين عرب. انظر: كتابنا حوارات في الحضارة السورية 2008. وانظر: الباحث أرنت ستراناد، في كتاب «أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام- 1989 - دمشق.

(3) الحقيقة أن نشوء روما مدينةً اختلطت فيها الأسطورة مع الواقع التاريخي، وقد استندنا إلى مؤلف الدكتور محمد محفل و الدكتور محمد الزين «دراسات في تاريخ الرومان» لمقاربة أكثر علمية من المقاربات الأخرى. انظر: الكتاب - جامعة دمشق- 1992 - 1993.

ومنذ تشكل روما عانت، على مدى قرون عديدة، الحروب والهجمات من محيطها الغزير بالدول والتجمعات، وأخطر حروبها كانت مع الغالين عام 390 ق.م، التي استمرت طويلاً حتى عصر يوليوس قيصر. وبعد كل معالم الحروب والصراعات استطاعت هذه المدينة أن تجد لها مكاناً تحت الشمس، وفي مطلع القرن الخامس ق.م أصبحت قوة ذات نفوذ وسلطان وأكبر دولة في إيطاليا الوسطى⁽¹⁾.

مرت المدينة بعصرها الملكي منذ 616 - 475 ق.م، ثم عصرها الإمبراطوري الذي بدأ بأغسطس 30 ق.م - 14م، حيث استطاع أن يقضي على الحروب الأهلية الداخلية في إيطاليا وفي الولايات الرومانية، واستمرت هذه الحروب نحو قرنين⁽²⁾.

وأخذ البحر المتوسط يشكل مجالاً دولياً للصراع منذ أن بدأت معالم قوة روما، حيث كانت قرطاجة سيدة المتوسط آنذاك وتحكم بحركة التجارة الرومانية خصوصاً في الساحل الغربي للمتوسط.

عام 509 ق.م عقدت روما وقرطاجة معاهدة تعترف فيها قرطاجة بسيادة روما على شاطئ لا تيوم، في مقابل تعهد روما بالأ تسيّر سفنها في البحر المتوسط غرب قرطاجة.

وتبعاً لنمو الفاعلية التاريخية لروما فإن نهاية الصراع الروماني القرطاجي كانت سقوط قرطاجة عام 202 ق.م⁽³⁾، أما تدميرها النهائي وتمليح أرضها لثلاثا تقوم لها قائمة بعد ذلك فكان في 147 ق.م⁽⁴⁾. هنا صار بإمكان روما أن تطلق على البحر المتوسط اسم MARE NOSTRUM أي «بحرنا»، وفي العصر العربي كان العرب يطلقون عليه اسم «بحر الروم»⁽⁵⁾

(1) ولادة القوة الرومانية الحقيقية تعود إلى عام 295 ق.م، حيث أصبحت روما سيدة إيطاليا التي امتدت من مقاطعات الغالين في الشمال إلى المقاطعات اليونانية في الجنوب.

(2) عند اقتراب أوغسطس من الموت قال: «لقد نجحت في الدور الذي مثلته فصفقوا واصرفوني من المسرح مهللين» وكان التراجميديا الإغريقية فعلت فعلها هنا.

(3) معلوم أنه بعد سقوط قرطاج فرّ حتّى بعل إلى أنطيوخوس الثالث ملك سوريا وأصبح مستشاراً له، في وقت لم تكن سوريا على درجة من الراحة والسلام الداخلي حيث الصراعات بين الدولة السلوقية والبطلمية ثم صراعات الأسرة السلوقية فيما بينها، بينما كان الجانب الآخر الروماني ينحو باطراد نحو القوة والهيمنة.

(4) انظر: المؤلفات التي تختص بالصراع الروماني- القرطاجي- تاريخ قرطاج- مادلين هورس ميلان- قرطاج- فرانسوا دوكره.

(5) وثائق المشرق في الألف الثاني ق.م تطلق على البحر المتوسط اسم بحر «أمور». يبدو أن هذا البحر كان دوماً ضحية العنصر الحضاري الأقوى من بين الدول التاريخية المطلة عليه.

وإن كان أغسطس هو المُشكّل لنقطة الانعطاف التاريخية في تأسيس فعليٍّ للإمبراطورية الرومانية، فإنَّ روما، مع تخبّطاتها عدّة قرون خلت، حاولت وسعت إلى تكوين حضور تاريخي لها⁽¹⁾.

فقد استغلت تهالك الدولة السلوقية وصراعاتها مع الدولة البطلمية في مصر⁽²⁾، وأغرقت سوريا بالفوضى تمهيداً للسيطرة على شرق المتوسط، وعمدت إلى تغذية الخلافات الأسرية بين السلوقيين، وكذلك دعمت الخلاف السلوقي والبطلمي إلى درجة معينة، حسمته حين لم يكن في صالحها سيطرة السلوقيين على مصر⁽³⁾، كما تشير المعطيات إلى دعم الرومان اليهود ضد الدولة السلوقية⁽⁴⁾.

عام 70 ق.م انتخب الرومان بمبيوس قنصلاً، فمضى في توطيد فاعلية روما بإنهاء أخطار القراصنة في غرب المتوسط، ثم شنّ حروباً في آسيا الصغرى وأجهز على الحكم السلوقي وجعل سوريا ولاية رومانية عام 64 ق.م.

ويمكن النظر إلى معالم الاحتلال الروماني لسوريا في نظرة موضوعية لا سيما بعد التدهور السلوقي الذي أدى إلى تشرذم سوريا، فحرب الرومان واحتلالهم سوريا جاء بالسلام، فقد قمع الرومان شعوب المنطقة التي لا تلين ولا تُقهر وأحلّوا الهدوء والنظام.

جعل بمبيوس سوريا الطبيعية ولايةً وأبقى أنطاكية عاصمة لها، وعلى نحو عام استفاد الرومان من هيكلية الدولة السلوقية، فقد أبقوا على الحكام المحليين من أبناء سوريا في إماراتهم كملوك الرها، والايثوريين في عنجر وأسرة شمسيجرام في حمص والأنباط في بترا وكذلك في تدمر.

بمبيوس باحتلاله سوريا بسط نفوذه على المنطقة الممتدة من جبال طوروس إلى سيناء.

(1) فرانك ولبانك يناقش في كتابه «العالم الهلنستي» حضور القوة الرومانية في العالم الهلنستي، ويُعيد ذلك إلى أواخر القرن الثالث ق.م.

(2) أحوال مصر البطلمية أخذت بالتدهور بدءاً من عهد بطليموس الرابع ثم خلفائه.

(3) حاول الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث أن يتحالف مع ملك مقدونيا فيليب الخامس حين شعر بتصاعد القوة الرومانية، وذلك ليضعاً حدّاً لقوة روما؛ لكنه هُزم في اليونان، وعاد إلى آسيا الصغرى، ولذلك أجبرته روما أن يتخلى عن المنطقة الواقعة إلى الشمال من جبال طوروس ويتنازل عن كل ادعاء بها في المستقبل. انظر: «العصور القديمة» - جيمس بريستد. أيضاً، كما ذكرنا سابقاً: إن أنطيوخوس الرابع 164-175 ق.م هاجم مصر، وحين أوشك أن يسيطر عليها تدخلت روما وأمرته بالرجوع.

(4) عقدت روما معاهدة مع اليهود الثائرين ضد الدولة السلوقية في 167 ق.م، وذلك ردّاً فعل نكاية بالسلوقيين واعترفت باستقلالهم، ومع هذا لم تقدم لهم أيّ دعمٍ.

والحقيقة التي تفرض نفسها أنه لولا القوة الرومانية التي أعادت إلى المشرق تماسكه لما أمكنَ لتدمير أن تقومَ وتُعبّر عن فاعليتها، فموقع تدمر وواحتها المواجهة للفرس الأعداء التقليديين لروما، منح تدمر خصوصيةً من قبل روما، تجلت في زمن الإمبراطورين هدريانوس ثم سبتيموس سيفيروس، وما بينهما تراجان الذي أنهى الفاعلية النبطية، فقوى ذلك الفاعلية التدمرية على نحوٍ غير مباشر.

سوريا تحت الاحتلال الروماني:

احتل الرومان سوريا التي كانت تتألف من الساحل الكنعاني/الفينيقي والسلسلة الجبلية المحاذية للشاطئ من أعالي طوروس حتى قمة جبل لبنان، المنطقة السهلية خصيبة في الشمال وتتحول إلى بادية حين نمضي جنوباً. أما التكوين السكاني لسوريا آنذاك فكان يتشكل من الكنعانيين الساحليين والآراميين والعرب، والعرب هنا تنوعَ حضورهم بين مستوطن مشرقي بحكم التفاعل والذوبان مع المناطق الحضرية، وبين رُحّل من القبائل، حيث استفادت من صراعات الأسرة السلوقية وأخذت موقعها في المدن وما حولها.

يشير اسحق شيفمان إلى أنَّ قسماً من سكان الريف أيضاً تحولوا إلى العيش في المدن السورية.⁽¹⁾

قلنا: سلامٌ سلمي؛ لأنَّ الأوضاع في المشرق لم تكن كما ينبغي؛ حيث كان الجناح الشامي خارج من مآسي الاستنجد بالقوى الكبرى والفاعلة طلباً للنجاة كأنطاكية ودمشق، ومكونات عربية في المراكز بسبب ضعف الأداء السلوقي في أواخر أيامه، بالإضافة إلى روح الفوضى التي تحكمت في الفضاء المشرقي.

وكان الجناح الرافدي تحت احتلال فارسي فرثي استمرَّ حتى اعتلاء الساسانيين عرش فارس الذي استمرَّ حتى دخول الجيش الإسلامي.

في 113 ق.م احتل الفرثيون مدينة «دورا أوروبوس»، هذا الحصن السلوقي على الفرات، وأخذ الفرات من حينها شكلَ الفاصل بين جناحين: رافدي وشامي.

القوة الرومانية شكّلت سلاماً سلبياً على بلاد الشام، لأنها جاءت بقوة عسكرية احتلالية؛ لكنّها كانت مهمة لإعادة الحياة المشرقية الشامية إلى مجاريها الطبيعية، وقوة الثقافة المحلية

(1) انظر: المجتمع السوري القديم- اسحق شيفمان- دمشق- مؤسسة الوحدة- 1987.

أنداك جديرة بالتعبير عن نفسها، حيث نعلم بالعمق الحضاري الشامي إزاء حداثة روما وثقافتها وسنعلم مبلغ القوة الحضارية والثقافية التي عبّرت عن الواقع الاجتماعي في بلاد الشام.

كان بومبيوس مستلهماً الروح الهلينية كحال الفاعلية الرومانية في نشوئها، فقد أبقى الدول المحلية على استمراريتها، وهي بدورها قبلت أن تصبح «صديقةً وحليفةً للشعب الروماني».

معظم سوريا الطبيعية ضُمَّت إلى الإمبراطورية الجديدة، سوريا الشمالية كاملة، وفي الجنوب دمشق والمدن العشر الهلنستية: فيلادلفيا (عمان)- سقيثو بولس (بيسان)- بيللا (فحل)- جرش- قناتا (قناة)- جدارة (أم قيس)- ددان (تل الأشعري)- هيبوس (قلعة الحصن)- إبيلا.⁽¹⁾

سعى بومبيوس أيضاً إلى استرجاع كل المدن التي كان المكابيون قد استولوا عليها وضمّتها إليها مملكة اليهودية، وعلى الساحل أعاد تأسيس دوره باسترجاع مدنه: قلعة استراتو، أرتوزا، أبولونيا، يافا، يينا، أشدود، غزة، رفح، واعترف بعسقلان مدينة حرة، ورمم بيسان ومريسة في إيدوميا، ويبدو أنه قزم استطلاعات مملكة اليهودية وأعادها إلى حجمها الطبيعي، ضامةً السامرية والجليل وبرايا فقط.

والأردن قسّمها «غابينيوس» ثلاث مقاطعات: أريحا وجدر (السلط حالياً) وأماتس.

نظم بومبيوس أحوال ثلاث إمارات: النبطية واليطورية واليهودية.

أصبح السهل الساحلي من النهر الكبير إلى الحد المصري سلسلةً من دول مدنية، واعترف بمدن الساحل صيدا وصور ووعسقلان. (سارتر).

أوكل حكم سوريا إلى حاكم قوي وشكلت مقاطعة مهمة جداً في الإمبراطورية الرومانية من جهة الشرق، هذه المقاطعة امتدت من الفرات إلى غزة، وأنشئت الولاية العربية التي ضُمَّت إليها البتراء بعد السيطرة عليها.

موريس سارتر يشير إلى أنه في 194م قسّم سبتيموس سفيروس سوريا قسمين: سوريا المجوفة في الشمال وعاصمتها أنطاكية.

(1) سوريا في العصور الكلاسيكية- موريس سارتر- مرجع سابق.

سوريا الفينيقية في الجنوب وعاصمتها صور.

وإلى الشرق أنشئت مقاطعة أوسرهوين وراء الفرات، وشملت عدّة إمارات أضيفت إليها إديسا (الرها) 213-214 م. وقعت هذه المقاطعة بين الفرات والبلخ. ومقاطعة ما بين النهرين أيضاً امتدت من الخابور إلى دجلة.

بقوة الساسانيين استطاعوا ضمن صراعاتهم مع الرومان السيطرة على دورا وأوروبوس عام 252م، ثم دمروها عام 256م. وحين أخفق الرومان في صراعهم مع الساسانيين حضرت تدمر بوصفها قوة محلية في عصر ملكها أذينة ووصل إلى طيسفون في الجناح الرافدي⁽¹⁾، وصار ملك الملوك يوازي إمبراطور روما.

الساسانيون بوصفهم حيويةً جديدةً على عرش الفرس عام 226م، امتدوا إلى الهند، ووصلت أنطاكية. ومشهد سقوط أنطاكية اختصرته مسرحية كانت تجري على مسرح أنطاكي، حيث قالت الممثلة فجأة: هل نحن في حلم أم أنّ الفرس هنا؟ وحين تطلّع الحاضرون إلى ورائهم أمطرتهم السهام الفارسية وقتلتهم، ثم أشعلت المدينة وذبح غير قليل من سكانها، وذلك في عهد شابور الأول عام 260م. انظر: فيليب حتي.

وفي حروبها مع الرومان أسرت الإمبراطور الرومانية فاليريان في عام 260م، وأنهت مملكة الحضر العربية، ثم احتل الساسانيون مصبات الفرات ودجلة ومملكة بيسان على شط العرب، كانت بيسان محطة مهمة للتجارة التدمرية وحكمها تدمري.

الإمبراطورية الرومانية فيما بعد ديوقليسيان 305 - 311م، الذي اشتهر بإصلاحاته، قسّم مقاطعات سوريا وحدات أصغر ضمن المقاطعات الثلاث: المجوفة والفينيقية وأوسرهوين، حيث أضيفت فراتيا (أوفراتيزيا)، ومنبج الفرات (هيرابوليس). والولاية العربية جنوباً استمرت أصغر من قبل، وضمت أنطاكية عاصمة أبرشية الشرق، تجمعاً من ست عشرة مقاطعة ما بين النهرين إلى مصر وليبيا⁽²⁾.

قراية 400 م قسمت سوريا الجوفاء قسمين:

سوريا الأولى: الشمال بعاصمتها أنطاكية.

(1) الصراع التدمري مع الساسانيين بموافقة روما حصل في 252م و268م.

(2) سارتر- مرجع سابق.

سوريا الثانية: الجنوب بعاصمتها أفاميا.

على الساحل المشرقي الفينيقي:

فينيقيا الأولى وعاصمتها صور، وتمتد على طول الساحل.

فينيقيا الثانية عاصمتها دمشق في الداخل.

الصراع فيما بعد بين بيزنطة وفارس بقي بين أخذ ورد، وبين مد وجزر، وصل الفرس إلى أسوار أنطاكية عام 529 م، ونهبت وأجلت سكانها عام 540 م⁽¹⁾، ثم تابع الفرس إلى أفاميا فيما بعد، وأُحرقت أفاميا تماماً، وفي عام 614م، وقعت سوريا تحت الاحتلال الفارسي حتى عام 629 م.

تدمر أقصر إمبراطورية في التاريخ:⁽²⁾

منذ منتصف القرن الثالث الميلادي، أصبحت قوة يُعتدُّ بها، وكان وراء ذلك أذينة الذي حكم ما بين 253 و268 م، وهو نمط من أنماط الدكتاتوريات التاريخية.

الوعي السياسي لهذا الملك أنه كان يوازي بين الانصياع لحاجات روما وضرورات الشخصية المشرقية في غياب مركز أو رافعة حضارية للمشرق آنذاك، يبدو أنّ الرياح قد هبّت وحنّ قطافها.

تكمن أهمية تدمر بالنسبة إلى روما، بوصفها موقعاً استراتيجياً شرق الإمبراطورية، ولأنها تحمي حركة التجارة، فأضاف أذينة القوة التدمرية إلى المعادلة، فقد كانت تدمر تمتلك استقلالية على الرغم من السيطرة الرومانية السياسية، واستطاع اقتناص فرص الوقوع الروماني تحت القوة الساسانية لفرض نفسه ملكاً في شرق الإمبراطورية، لا سيما أنّ جيوشه قد دكت طيسفون المركز الفارسي في الجناح الرافدي.

لم تكن روما دائماً قوية، فالأباطرة الضعاف كانوا يفسحون المجال للجيش على التدخل في السياسة ومجاريها وقادتها. والمعطيات تشير إلى أنه في عام 193م وبسبب اهتراء الوضع السياسي لجأ الحرس الإمبراطوري إلى عرض عرش الإمبراطورية بالمزاد، وقد رسا الأمر

(1) كانت أنطاكية تُعدُّ في القرن الأول الميلادي ثالث مدينة بعد روما والإسكندرية.

(2) هذه الأفكار نكتبها من المحفوظات الشخصية بكتابتنا لمؤلف حول تدمر، وتشكل خلاصة لمجريات الصراع التدمري الروماني، على أن توثق في كتابنا القادم عنها، كما اعتمدت دراسة سابقة لنا في كتابنا: دراسات في حضارة المشرق العربي القديم - 2003.

على أحد أعضاء مجلس الشيوخ هو «ديدوس يوليانوس» فاشترى العرش بخمسة وعشرين ألف سترسة.

فدفع هذا الأمر القائد العسكري سبتموس سفيروس الفينيقي -ابن مدينة لبداء الليبية، وتزوج من جوليا دومنا الحمصية من عائلة الكاهن شمي جرام- إلى أن يتدخل ويأخذ عرش روما إلى الاتزان في 197 - 235م؛ لكن التوازن الصحيح في السلالة السورية الحاكمة آنذاك كان في عهده أكثر من خلفائه الذين أتعبوا زوجته جوليا دومنا.

مع زوال حكم الأسرة السفيرية دخلت الإمبراطورية في مهزلات العرش ثانية، وهذا ما دفع إلى تدخل الجيش في تعيين الأباطرة. المؤشرات ترصد أنه في تسعين عاماً بلغ عدد الأباطرة الذين اغتيلوا قرابة ثمانين إمبراطوراً، معظمهم ليسوا إيطاليين. (بريستد).

وبين 235 و 270 م تواتر على عرش روما سبع وثلاثون إمبراطوراً، مع أوبئة خصوصاً الملاريا التي اجتاحتها ما بين 260 و 265م.

الأخبار آنذاك أشارت إلى أن خمسة آلاف شخص يموت كل يوم من الوباء ولعدة أسابيع. هنا كان أذينة يتابع مجريات المهزلة الرومانية السياسية، ويعكس قوة تدمير المستندة إلى حركة تجارة نشطة وتطور اقتصادي وفاعلية حياة جديدة بها.

يبدو أن لمعان نجم أذينة لم يوافق التطلعات الإمبراطورية فاغتالته الإمبراطورية بواسطة قريب له يدعى معن⁽¹⁾، خصوصاً بعدما أصبح صاحب السيادة المطلقة على آسيا الرومانية من أرمينيا إلى شبه الجزيرة العربية.

وما يجدر التحدث عنه هنا أنه كان عضو مجلس الشيوخ الروماني. ومع موت أذينة ذهب عرش تدمير إلى ابنه وهب اللات وكان قاصراً، فأدارت زنوبيا حكم تدمير.

وينبغي الإشارة إلى أن العلاقات بين الساسانيين وتدمير في عهد أذينة لم تكن على ما يرام، غير أن علاقة زنوبيا معهم لم تكن صدامية.

كما أن أذينة كان يمالئ الرومان وفق مصلحة تدمير أحياناً، وزنوبيا كانت على صدام معهم.

(1) كرجل دولة كان أذينة الذي يُعتقد أنه عربي متمشوق يسعى إلى مجابهة الرومان ومحاولة إنشاء رافعة مشرقية ضد التدخلات الأجنبية والقوى الكبرى آنذاك.

في وصف الملكة زنوبيا، وباقتراب إلى التجرد قليلاً، لم تكن في مستوى ألق أذينة؛ إذ كانت منفعة وغير قارئة جيداً للظروف الدولية واختلافاتها، ولم تستطع أن تؤسس قاعدةً حقيقية تدمرية لمواجهة إمبراطورية بحالها⁽¹⁾، ظنت أن تهاوي الحياة السياسية الرومانية كفيلاً بأن تحقق لها تطلعاتها الإمبراطورية.

وحين شرعت بمواجهة روما في عهدها القصير، لم تبني الأسس الحقيقية للمواجهة، خصوصاً أن موقعها مدينةً وسط الرمال في البادية الشامية يجعلها منقطعة نسبياً عن الإمداد بالمقاتلين والمؤن.

كذلك فإن ما يستطيع الرومان جمعه من عدد الجيش وعتاده لا يمكن لتدمر أن تحققه. لم تكن علاقات تدمر مع أنطاكية إيجابية، فقد كان الأنطاكيون يصفون التدمريين بأنهم أجلاف، كذلك لم تكن حمص من المدن التي يُعتمد عليها في صراعها مع الرومان. وبالإمكان مراقبة احتفالات مدمر تدمر «أورليانوس» حين عاد بعد تدميرها إلى حمص متفاعلاً في معبد إله الشمس الحمصي. كذلك العرب المحيطون بتدمر لا يُعوّل عليهم كونهم مرتحلين ذوي مضارب ينتمون إلى الأقوى.

إشارات الصراع التدمري الروماني نجدها حين مضى القائد الروماني «هيرقليانوس» لحرب الفرس، زنوبيا تعقبته واشتبكت معه، ويقال: إنه نجا منها بصعوبة وبهزيمته، توّطد نفوذ تدمر في المشرق بجناحيه.

(1) زنوبيا: اسم زنوبيا التدمري هو «بت زبّي» أي ابنة العطاء أو العطية، أما زنوبيا فهو اسم يوناني لاتيني أطلق على ملكة تدمر، وهو مؤنث زنوبوس وتعني هذه (قوة زيوس الحيوية) كانت تتكلم المصرية واليونانية، علّمها مستشارها لونجين الأفلوطيني المحدث الآداب اليونانية، فقد كان أستاذاً في الفلسفة في أثينا قبل أن يأتي إلى تدمر. قرأت زنوبيا تاريخ روما باليونانية، على قاعدة اعرف عدوك. وكتبت كتاباً حول تاريخ الشرق ومصر، أما مواقفها الفكرية فنلاحظ أنه بالإضافة إلى لونجين، ضمت إليها الأسقف بولص السمساطي أسقف أنطاكية. وبعد موت الإمبراطور غالينوس وعودة الأباطرة الإليريين تجمّع أتباع الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ومعظمهم سوريون، أمثال فورفوريوس وكليتيكوس ولونجين وغيرهم في سورية، وكان أملهم أن تكون زنوبيا ملكة تدمر دعماً لهم ويصبح بلاطها مركزهم الفكري. وهذا ما كان، حيث وضع لونجين في البلاط التدمري وأصبح موجهاً لسياسة تدمر.

يقول فيليب حتي: إنه في القرن الثالث للميلاد أصبحت أفاميا مركز المدرسة الأفلاطونية الحديثة وتمتع ببعض الأهمية، وقد أسسها أمبيلوس تحت رعاية زنوبيا. أما اشبنجلر فيقول في كتابه «تدهور الحضارة الغربية»: إن الأفلاطونية الحديثة تمّت إلى الحضارة العربية ولا يدخلها في سياق الحضارة اليونانية، بينما يلاحظ فرانتس إلتهايم أن معظم أتباع أفلوطين كانوا من أصل سوري. فكما كانت الرواقية ذات بعد شرقي في وجه المتضادات الفلسفية اليونانية كانت الأفلاطونية الحديثة التي تبنتها زنوبيا تمتلك البعد الشرقي والسوري في القرن الثالث الميلادي الذي شهد أحياء قوية للهلنستية في نواحي الفلسفة.

ثم في عهد الإمبراطور «كلاوديوس» الذي كان مهتماً بإصلاح أحوال الإمبراطورية وشعبها، استغلت زنوبيا الأمر واحتلت مصر عام 270 م، ليس كل مصر وإنما الإسكندرية كما يُعتقد⁽¹⁾، وبذا قطعت الغلال عن روما من أجل التسبب في مجاعتها وإضعافها⁽²⁾.

ثم انتقلت جيوشها نحو الأناضول وحطت في أنقرة. هكذا أصبح كل القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية تحت فاعلية تدمر إلى حين.

أخيراً امتدت الإمبراطورية التدمرية قصيرة الأجل من البوسفور إلى دجلة فالنيل شاملة مصر وقسماً كبيراً من شبه الجزيرة العربية.

في عام 271م، أعلنت زنوبيا استقلال تدمر، لكن في المقلب الآخر حيث روما، كان التشكّل السياسي يمضي في اتجاه آخر ومعاكس للرغبة الوطنية التدمرية.

في أثناء احتلال تدمر للإسكندرية تولى عرش روما رجلٌ من إليريا، ينتسب إلى البلدان الواقعة في جنوب نهر الدانوب والواقعة تحت السيطرة الرومانية، والمعتمد أن «أورليانوس» نشأ في مستوطنة رومانية في يوغسلافيا (بنونيا السفلى)، كان في مواقفه يعارض كل ما لا ينتمي إلى اللون الروماني إن كان في الفلسفة أو السياسة وهكذا.

بذل جهده منذ اعتلائه العرش في سبيل الحفاظ على التقاليد الرومانية، وسعى إلى لملمة أحوال الإمبراطورية من أعدائها وإعادة التوازن إليها، فأمر ببناء سور حول روما تحسباً للآتي. وعلى الدانوب ثمة برابرة يشاغبون على الإمبراطورية، قضى عليهم، ولكن إلى الشرق كانت تدمر الإمبراطورية التي قطعت الغلال عن روما واحتكرت الخط التجاري الدولي إلى الشرق الأقصى، وأعلنت استقلالها عن روما التي بدأت تعاني المجاعة.

تقدم جيش روما بقيادة أورليانوس إلى الأناضول ليواجه جيش تدمر بقيادة زنوبيا، ليستعيد الأناضول ويرسل من يعيد مصر إلى الإمبراطورية أيضاً. وفي أنطاكية 272 م يواجه

(1) الجيش التدمري لم يستخدم البحر المتوسط نحو مصر، فهذا الطريق تحت سلطة روما، ولا سيما من تدمر نحو البحر؛ لذا توجه الجيش التدمري جنوباً نحو دمشق وبصرى فدَمَّرَ معبد بصرى، ثم إلى سيناء من البتراء.

(2) احتلال الإسكندرية التي كانت تُعدُّ من أكبر مرافئ الشرق، سوف يقطع الغلال عن روما، وهو بالوقت نفسه سيحوّل خط التجارة لصالح تدمر. المعطيات هنا تتحدث عن أن ميناء الإسكندرية ومنذ عهد أغسطس قيصر، كان يجهز ما لا يقل عن مئة وعشرين سفينة تجارية نحو الموانئ الهندية. هذه النقطة لم تكن في صالح تجارة تدمر. انظر: بريستد.

جيش روما تدمر، صراع بين «يد على سيف»، وهو لقب أورليانوس و«أغستا» زنوبيا الحاملة
بعرش روما الإمبراطورية.

لم تجر الأمور لصالح جيش تدمر، إذ انسحب إلى حمص ليلاً بمسرحية في شوارع
أنطاكية لئلا يتعرض له أهل أنطاكية⁽¹⁾، وفي حمص يتواجه الجيشان أيضاً، جاءت رؤية
لأورليانوس في أثناء المعارك المحتمدة أن إله الشمس الحمصي يباركه، فمالت الكفة
للرومان، وانسحب جيش تدمر إلى المدينة.

قيل: إنه حاصرها لكن الباحث «ميشيل غاوليكوفسكي» يشير في بحث له إلى أن تدمر
آنذاك لم تكن تمتلك سوراً حولها!⁽²⁾، ونحن نخالفه الرأي بالطبع⁽³⁾.

سقطت تدمر وأسرت زنوبيا، قيل: إن أورليانوس اشترى ضمائر العرب البدو المدافعين
مع جيش تدمر، كما أسر بعض العملاء الفرس، ومضى أورليانوس بغنيمته «زنوبيا» وفي
تدمر ترك حامية من ستة آلاف جندي روماني عام 272 م.

وفي ربيع 273م تمردت تدمر وأجهزت على الحامية الرومانية فيها⁽⁴⁾، فعاد أورليانوس
ودمّر تدمر على رؤوس ساكنيها، فقد قيل: هَجَرَ ما يقارب خمسا وسبعين ألف شخص من
مملكة تدمر إلى شمال إفريقيا.

الحماقة الرومانية الآن تُوضّح في أنّ الخطوط التجارية التي كانت تحميها تدمر في شرق
الإمبراطورية سقطت ولم يعد بالإمكان تأمين مركز يمتلك القوة لصيانة النشاط التجاري،
بل انفتح المجال العربي من شبه الجزيرة العربية إلى البادية الشامية أمام الخوف الروماني
كالامتداد الشرقي للجنح الشامي نحو الرافدين وفارس.

(1) ليهرب الجيش التدمري من أنطاكية عمد إلى أخذ شبيه لأورليانوس واستعرض في أثناء انسحاب الجيش صيده،
ليتبين فيما بعد أنه شخصية مزيفة.

(2) يمكن الاطلاع على بحث غاوليكوفسكي من الرابط:

Les défenses de Palmyre. Michel Gawlikowski

https://www.persee.fr/doc/syria_0039-7946_1974_num_51_3_6450

(3) من غير المعقول ألا تكون تدمر مسورة آنذاك، ربما أعاد الباحث السور الموجود إلى عصر جوستينيان، لكن
التفكير هنا يدور حول مدينة في واحة لا دفاعات لها، وحولها كثير من الأعداء كالمكونات البدوية الغازية،
فليس من التصور أن نجد هكذا مدينة في عز ازدهارها لا تحمي نفسها بسور. ربما استعملت أحجار السور
الأساسي القديم الذي تهدم في إشادة سور عهد جوستينيان.

(4) قيل: إنه حين سقطت تدمر، قامت ثورة في مصر تعترف بتدمر وتهدد روما بالمجاعة بقطع طرق الإمداد كذلك
أضربت البتراء.

ما بعد الفراغ السياسي المشرقي

الواقع الشامي تحت الاحتلال الروماني:

كالعصر الهلنستي الذي شهد بناء مدن أو إعادة إنشاء مدن قديمة، منها ما أخذ شكل مستوطنات لمقيمين من جنسيات مختلفة، كذلك نشأ في بلاد الشام مستوطنات رومانية خالطها شيء من تنوع ديمغرافي. مواقع في شرقي لبنان الشرقي شهدت هكذا توضعات.

اهتم الرومان ببلاد الشام كونهم حسبوها من أملاك الإمبراطورية، فقد أمنوا الحدود الصحراوية فيها بحصون قوامها قبائل موالية. والقبائل العربية قد مضى عليها نحو ثلاثة قرون، بعضها تمشرق وبعضها أخذ به وبعضها ما زال على حالة الارتحال والبداءة، وهؤلاء شكلوا حالة قطاع طرق وناهيي القوافل التجارية. تمحورت الطرق التجارية من الرافدين حتى الفرات إلى مدن الساحل المشرقي مروراً بتدمر، وثمة طريق ينطلق من دمشق جنوباً إلى حوران فجلعاد وموآب ثم نحو الجنوب إلى طريق قوافل شبه الجزيرة العربية.

المعطيات تشير إلى ازدهار المدن السورية تحت هذا السلم السلبي والخضوع لقبضة حدت من الانفلات المحلي، لا سيما بعد التراجيديا السلوقية الهزلية في أواخر عهدها.

قيل: في القرن الثاني الميلادي بلغ عدد سكان بلاد الشام نحو سبعة ملايين نسمة. أوجه الحياة بمناحيها كافة من تجارة وزراعة وحرف وصناعات عبرت عن حيويتها.⁽¹⁾

الإمبراطور «تراجان»، وسّع بصرى وحصنها لأنها محطة مهمة على طريق التجارة شمالاً وجنوباً، وفي بداية القرن الرابع الميلادي أصبحت عاصمة ولاية بلاد العرب.⁽²⁾

حضر النبيذ السوري المرغوب في أصقاع بلاد الإمبراطورية، أنطاكية- طرابلس- جبيل- بيروت- حوران- صور- عسقلان- غزة، كانت مدناً تشتهر بإنتاج النبيذ.⁽³⁾ والعمق الحضاري التجاري للجنح الشامي نسبة إلى حداثة الروم، دفع إلى تراجع التجار الرومانيين أمام التجار السوريين بالمعنى الواسع.

(1) تذكر الأخبار أن اتساع حرفة صباغة النسيج في صيدا وصور، وهي حرفة تاريخية للمدينتين، أدى إلى أن أصبحت صوراً غير صالحة للسكن من كثرة المشاغل والورش.

(2) فيليب حتي - مرجع سابق.

(3) قيل آنذاك: إن خمراً أفاميا كان يصح للمزج مع العسل. أفاميا التي بلغ عدد سكانها في عهد أغسطس نحو مئة ألف نسمة. أما أنطاكية في القرن الثاني الميلادي كان عدد سكانها مئتين وخمسين ألف نسمة.

وحرفة صناعة الزجاج أبدعت صيدا بها، «انيون»، الصيدوني عثر على آلياته الموقعة باسمه في مصر وقبرص وإيطاليا وجنوب روسيا، في القرن الأول الميلادي.

الواقع الديمغرافي آرامي كنعاني ساحلي، وعرب تمشوقوا أو في طريقهم إلى التمشوق⁽¹⁾. منذ أوائل القرن الثالث الميلادي، صار الحضور العربي المتمشوق فاعلاً في تدمر، المدينة المركزية في بلاد الشام تحت الاحتلال الروماني. تبدى هذا الحضور في أن من أصل ستين رمزاً دينياً نجد منها عشرين تخص رموزاً عربية، ثم إن أقدم نص تدمري يعود إلى 44 ق.م يتضمن أسماء عربية وتعابير عربية مميزة.

«شيفمان» في كتابه «المجتمع السوري القديم» يتحدث عن وثائق تدمر التي حوت ذكراً لنسبة جيدة من القبائل العربية في القرون الميلادية الثلاثة الأولى⁽²⁾.

ما يلفت النظر أنه زمن فاعلية الممالك الآرامية في الألف الأول ق.م، لم نجد تدمر كمملكة آرامية يرد ذكرها، يبدو أنها كانت مدينة تجارية بلا إدارة آرامية، ولا دولة آرامية. ثم نفتقد وجود معبد آرامي فيها، لا سيما للإله أدد، بمعنى آخر: إن التأسيس لتدمر كدولة تم على أيدي القبائل العربية المتمشوقة في القرن الأول الميلادي باتحاد أربع قبائل كبرى: بنو قمر وبنو متبول وبنو معزن وبنو عطر، وانضوت تحتها باقي القبائل الصغرى التي ربما بلغ عددها نحو أربعين اسماً.

المعطيات تؤكد هنا أنه منذ القرن الأول الميلادي يُلاحظ تغلغل المفردات العربية في الوثائق التدمرية، حيث نلاحظ استبدال المصطلحات اليونانية باصطلاحات عربية. ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا: أين الوثائق الآرامية الخالصة في تدمر قبل مدة التأسيس؟ أي خلال مدة الفاعلية السياسية الآرامية في المشرق في الألف الأول ق.م⁽³⁾.

الثقافة الرومانية استلهمت الثقافة الهلينية، وهذه بدورها حضرت في بلاد الشام، فالمثاقفة حاضرة تحت هذا السلام السلبي. في لاوديكية (اللاذقية) كانت تجري سباقات الخيل والحيويات، تتلمسها أيضاً في حضور ممثلين من بيروت، ولاعبي سيرك من صور، وراقصي باليه من قيصرية، وعازفين من هليوبولس (بعلبك)، وموسيقيين من غزة ومصارعين

(1) مؤلف د. عرفان شهيد «روما والعرب» يقارب مسألة العرب في أثناء العصر الروماني بتفاصيل وافية.

(2) المجتمع السوري القديم - اسحق شيفمان - 1987 - مؤسسة الوحدة - دمشق.

(3) بعض هذه الأفكار عن مخطوطنا قيد التأليف عن حضارة تدمر.

من عسقلان. ثمة فرق تمثيلية جواله تجول أنحاء المدن بممثليها. تحدّث الرومان أيضاً عن «لاعبات الناي السوريات» (Ambubaia). تحدّثوا أيضاً عن فينيقيا التي «ترن بالأغاني البديئة من أقصاها إلى أقصاها».

عام 160م يعود الإمبراطور «فيروس» إلى سوريا بعد حربه ضد الفرثيين، يحل في لاوديكية ودفنة للترويح عن النفس واللهو، ثم يمضي إلى روما، وقد رافقته ثلة من الموسيقيين والممثلين والمهرجين السوريين.⁽¹⁾

الواقع الديني هو اعتقادات محلية بحسب الديمغرافيا السائدة؛ لكن إله الشمس كان حاضراً بقوة، وجرت المطابقات بين رموز الحضارات المختلفة، وشيئاً فشيئاً بدأت المسيحية تُحَضَّر كدين توحيدي مشرقي.

في 362م الإمبراطور «يوليانوس» قضى الشتاء في أنطاكية قبل المضي في مقارعة الفرس، فأكثرية سكان أنطاكية كانوا من المسيحيين، وهو لم يكن مسيحياً، حاول إعادة الناس إلى المعتقدات السابقة، وعُرفَ عن أهل أنطاكية السخرية، قالوا: قرم يتباهى بلحية تيس. (فيليب حتي).

العمق الشامي أثر في روما وحضارة الإمبراطورية، مما يدفع الكاتب «جوفنال» إلى القول في القرن الثاني الميلادي: «منذ زمن بعيد ونهر العاصي السوري يصب ماءه في نهر التيبير جالباً معه لغته وعاداته وقيثارته بأوتارها المائلة».

تحت سلطة قوية أمكن للمدن السورية أن تتعرف إلى نفسها أكثر، ما لقيصر لقيصر، وما للمدينة للمدينة، هكذا يبدو الشعار الآن، تداخلات رومانية سورية وتفاعلات منها السلبي ومنها الإيجابي. بلاد الشام أدلّت بدلوها الحضاري في مظاهر عديدة كالعمران والمعتقد الشمسي والقانون والحقوق والفلسفة والسياسية والعرش وبالمسيحية كذلك. لنستعرض إذًا:

(1) دفنة المجاورة لأنطاكية بالإضافة إلى سيفسائها المعتبرة، كان يضرب المثل فيها لخلاعتها آنذاك.

ذكرت المعطيات أن أحد أعضاء مجلس الشيوخ في أنطاكية رافق الإمبراطور أغسطس إلى روما، كان قد وضع كل ثروته لإقامة الاحتفالات في دفنة لمدة ثلاثين يوماً للألعاب الأولمبية؛ كالرقص والتمثيلات والسباقات الرياضية، ثم في أوائل القرن الثالث الميلادي جرى تمديد المدة إلى خمس وأربعين يوماً.

في التشريع والحقوق:

في مطلع القرن الثالث الميلادي أصبحت بيروت مركزاً لمدرسة الحقوق، وبقيت حتى منتصف القرن السادس، وأشهر مدرسة من مدارس الولايات في الإمبراطورية الرومانية. ويشير الباحثون إلى أن مؤسس هذه المدرسة هو الإمبراطور سبتيم سيفير 193 - 211 م، ثم تعهد بها خلفاؤه السوريون من بعده. ونتيجة لريادة هذه المدرسة المشرقية أطلق الإمبراطور جوستينيان على بيروت اسم «أم القوانين ومرضعتها».

وطبعاً، نحن هنا ليس أمام منجز حضاري لزمان معين وعصر معين.. ولا بدّ أن ننظر على نحوٍ شمولي ضمن دائرة الحقوق، حيث إنّ المشرق شهد أولى الشرائع والقوانين، ومن لبت عشتار إلى أور نمو إلى حمورابي إلى القوانين الآشورية، وصولاً إلى مدرسة بيروت للحقوق التي كانت نواة الفكر القانوني.

يقول بول كولينيوت: «في بيروت كان يتم إعداد الحقوق الرومانية الجديدة، وإلى جماعة من الفينيقيين السوريين هم عائلة سبتيموس سيفيروس ومستشاروه، لا تزال الحقوق الرومانية الجديدة مدينة ببلوغها أوج الكمال».

ففي زمن حكم السلالة السورية لعرش روما 193 - 235م يبدو أنه طوّرَ الشرعُ الروماني ونُقِلَ من الطور الابتدائي إلى طورٍ متقدم بواسطة مؤلفات الفقهاء السوريين الخمسة، الذي أحاط بعضهم بالإمبراطور سبتيموس سيفيروس ومستشارين له مثل بابنيان وألبان.

وبالإضافة إلى هذين الفقيهين كان هناك غايوس وبولس وموديستينوس.

والجدير ذكره هنا هو أنهم كتبوا مؤلفاتهم الحقوقية باللاتينية، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يطلق عليهم اسم الفقهاء الرومانيين، فانسحب على التشريع الذي وضعوه فأطلق عليه اسم التشريع الروماني.

تبين الأبحاث أنّ ما قدمه هؤلاء الفقهاء السوريون للتشريع الروماني يزيد على 80 % منه، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى القول: في القرن الثالث الميلادي كانت سوريا تصدر إلى العالم تقاليداً الحقوقية التي تُعدُّ مصدرَ الحقوق الرومانية وأصلها.

ويمكننا استعراض مؤلفات هؤلاء الفقهاء:

الفقيه غايوس: 130 - 180م، اعتبرت مؤلفاته مرجعاً يلتزم به القضاة، نتيجة الموقف الإيجابي للإمبراطور فالتين منها، وهذا ما أضفى عليها صفة رسمية. وقد عدَّ المؤرخون الرومان مؤلفاته القانونية مصدراً أساسياً لمدونات الإمبراطور جوستينيان.

وتشمل مؤلفات غايوس أربعة أجزاء تبحث في الأصول والأشكال وحقوق الأسرة والميراث والملكية. والجدير ذكره هنا هو أنَّ هذه المدونات اعتمدت لأهميتها كمادة تدريجية في المعاهد والجامعات الأوروبية.

الفقيه بابنيان، 140م، لقَّبَ بأمير الفقهاء، وعمل مستشاراً للإمبراطور سبتيموس سيفيروس، ودرَّس مؤلفه «الأسئلة والأجوبة» في مدارس الحقوق الرومانية.

ومن الأحداث التي تؤكد إنسانيته وتصالحه مع نفسه وأصالته، أنه بعد مقتل جيتا على يد كركلا أخيه غضب الرأي العام ومجلس الشيوخ على كركلا القاتل من أجل العرش، فما كان من الإمبراطور القاتل (كركلا) إلا أن يطلب من بابنيان الفقيه أن يوجد له مخرجاً ويبرئه من فعلته بقتل أخيه، غير أن بابنيان يرفض ويقول لكركلا: إنَّ ارتكاب جريمة القتل أيسر من تبرئة المجرم منها، واتهام البريء القتل بعد مقتله هو قتل آخر وجرم ثان.

وهذا الموقف أدى إلى أن دفع بابنيان حياته ثمناً له، بأمر من كركلا، علماً أن الأخير تلمذ في يفاعته على يد بابنيان.

والجدير ذكره في هذا المجال أنَّ الإمبراطور اسكندر سفيروس آخر أباطرة السلالة السورية في روما 222 - 235 م، أحاط نفسه بالفقهاء السوريين ألبان، موديستينوس، وبولس، وفي عهده بنيت أول كنيسة وأعاد الحجر الأسود المقدس إلى حمص، وأقام بدلاً منه ثلاثة تماثيل نصفية لزارادشت وإبراهيم والمسيح.

ولتبيان أهمية ما قدمه الفقهاء السوريين للتشريع الروماني ينبغي الإشارة إلى أنَّ الإمبراطور تيودور الثاني أصدر مرسوماً بتاريخ 426م، عرَّفَ بقانون المرافعات، حيث صنَّف الفقهاء إلى صنفين وحظر على القضاة اعتماد سواهم في جميع الأحكام التي يصدرونها:

الصنف الأول: ويشمل الفقهاء السوريين الخمسة.

الصنف الثاني: ويشمل الفقهاء الذين اعتمدتهم الفقهاء السوريون الخمسة.

وقد جاء في المرسوم الإمبراطوري أنه إذا اختلفت القضاة على رأي ولم يجمعوا عليه فعلى القاضي أن يأخذ برأي الأكثرية، وإذا تساوت الآراء فعليه أن يأخذ برأي الجانب الذي فيه بائنان.

كما أن ما يسمى بمدونات جوستينيان في القانون استمدت موادها على نحو رئيس من مواد الفقهاء السوريين الخمسة، ومدرسة بيروت الحقوقية، حيث تشكل نسبة ثمانين في المئة منها. علماً أن ما يسمى بمدونات جوستينيان في القانون تتألف من خمسين كتاباً، وقد تضمنت نحو ألفين وأربعمئة واثنتين وستين فقرة قانونية أخذت من الفقيه أليان وحده، وشكلت اكمال الشرع الروماني.

وتعدُّ هذه المجموعة أساسَ الحقوق الشرعية في القرون الوسطى والعصور الحديثة، وقد أصبحت هذه المجموعة المصدر الرئيس الذي استمدت منه الدول الأوروبية الحديثة قوانينها، لا سيما فرنسا وألمانيا وإيطاليا، وإسبانيا.

ويعتقد أن الفقهاء الخمسة كانوا رواقيين، وهذا ما يعث على الاعتقاد من أن روحيتهم المشرقية الرواقية أسهمت في تخليص التشريع الروماني من القسوة والفظاظة.

في الكتابة والأدب |

حفل العصر الروماني بأدباء ومفكرين مشرقين أسهموا بتجاتهم، في تخصيب حقول المعرفة الإنسانية وأثروا إلى حد بعيد في مجاري الفكر الإنساني.

في العمران والعمارة:

كما ركزنا سابقاً على الناحية التراكمية النوعية للمنجز الحضاري الإنساني للمشرق، فلا بُدَّ أن نؤكد من جديد أن العمران والعمارة المشرقية في العصر الروماني لم تكن وليدة وقتها فقط ومعلوم أن نشوء المدن الأولى كان سمةً حضارية من سمات المشرق، ومن ثمَّ عمارته في العصر الروماني تستند بالحقيقة إلى إرث نوعي وتراكمي موغل في القدم.

ولا نعتقد أنه يمكننا العبور في العصر الروماني لجهة العمارة والعمران، دون أن نعرج على مبدع مشرقى دمشقي، عبّر بمنجزه العمراني والمعماري عن خصائص العمارة المشرقية وروحيتها، وهو أبولودور الدمشقي.

تحدث تاريخ كمبردج عن سورية أنها كانت متقدمة على روما في مجال العمارة، بل كانت بالنسبة إليها النموذج الذي احتذته، ويتابع المرجع المذكور فيضيف: لقد تفوقت سورية على روما بعبقريتها المبدعة وفي معارفها التقنية وفي مهارة عمالها.

أما أبولودور الدمشقي 60 - 125م فقد كان قريباً من الإمبراطور الروماني تراجان، وقد أوكلت له مهمات عمرانية وإنشائية وفنية، قدّم بها جلّ عبقريته المجتمعية والفردية.

فقد أنشأ الميدان التراجاني في روما، ويعتقد العالم بيانكي بانديلي في كتابه «أبولودور الدمشقي» أن الفكرة المعمارية لهذا الميدان، خصوصاً لجهة ساحته، مستمدة مما كان حول معبد جوبيتير في دمشق، ويؤكد أن هذه الفكرة المعمارية هي فكرة شرقية أكثر مما هي رومانية.

وثمة منجز لأبولودور أخذ بعداً إنسانياً تمثل في العمود التراجاني الذي حوى تحت قاعه قبر الإمبراطور تراجان، حيث شيّد العمود بارتفاع 33 متراً، يلتفّ حول جذعه شريطٌ حلزوني منحوت وملون، ويشمل تسجيلاً فنياً لمنجزات الإمبراطور وفي داخل العمود درج دوار.

ويتفق الباحثون على أن أسلوب هذا العمود فنيٌّ، يحاكي أسلوب المنحوتات الآشورية المشرقية. وقد أثر هذا العمل لأزمان لاحقة في التصاميم التذكارية في عدة بلدان أوروبية،

ويؤكد د. عدنان البني أنّ هذا العمود أثر تأثيراً عميقاً في العمارة حتى العصر الحديث، ففي عام 408م بُنيَ عمودٌ مماثل في عهد الإمبراطور أركاديوس في مدينة القسطنطينية.

وفي ألمانيا عام 1022م شُيّدَ عمودٌ من البرونز يحاكي عمودَ تراجان، وذلك في كاتدرائية هيلدسهايم في مدينة هانوفر. وعام 1806 - 1810م أنشئَ في فرنسا عمودُ الفاندوم تخليداً لحروب نابوليون، وكان ثمة تشابه كبير بين نقوشه البارزة ونقوش عمود أبولدور.

يقول جيروم كاركوبينو في كتابه «الحياة اليومية في روما في أوج الإمبراطورية»: إنّ ميدان تراجان وسوقه هما قمة من قمم الفن، يتلاقى فيها خيرة بنائي أفضل العصور ويسمون إليها تلامذة متحمسين أو مقلّدين مثل ميكيل أنجيلو الذي ينقل شيئاً من هذا التنسيق المتكشف القوي إلى واجهة قصر فارنيزة، ومعماريو نابوليون الذين يذوّبون مدافع أوسترلينز ليصنعوا عمود فاندوم.⁽¹⁾

في الكتابة والأدب: حفل العصر الروماني بأدباء ومفكرين مشرقين أسهموا بتنتاجاتهم، في تخصيص حقول المعرفة الإنسانية وأثروا إلى حدٍّ بعيد في مجاري الفكر الإنساني: لوقيانوس السميساطي - فيلون الجبيلي - جامليق في كتابه عن تاريخ بابل.

بربوس البيروتني امتاز بالنقد

أنتبأتر المنبجي «هيرا بولس» تميز بفن كتابة الرسائل، سوف يصبح سكرتيراً مهماً للإمبراطور سبتيموس سيفيروس ومعلماً لولديه كاركلا- جيتا.⁽²⁾

لونجينوس المسؤول في بلاط زنوبيا ألّف كتاباً «في الروعة»

مارينوس الصوري أول واضع للمصورات الجغرافية المرسومة على أسس علمية.

أرخيجينس الأفامي الطبيب في روما كتب رسالة عن «النبض».

أدريانوس الصوري البليغ الذي درّس فن البلاغة في أثينا

(1) د. بشار خليف- 2003.

(2) بعد أن قتل كاركلا أخاه كتب أنتبأتر إلى القاتل كاركلا أنه بهذه الجريمة الشنيعة، فلم يبق له سوى عين واحدة. ويد واحدة.

المعتقد الشمسي:

أوتو، شمس، هيلوس، ذوالشرى، يرحبول، كلها أسماء لحقيقة واحدة هي الشمس التي حين تشرق وتستبد بالسماء نهاراً فإنها تُخفي بنورها وسطوعها كل الأجرام السماوية بما فيها القمر شقيقها في المعتقدات القديمة، وتُظهر ما خفي وتنجلي الحقيقة والعدالة؛ لذا فقد تمثلت عند المشركين القدماء في الألف الثالث والثاني قبل الميلاد في أنها روحُ العدالة ورمزُ العدالة والحق، وتذكر أن ملك بابل حمورابي حين أرسله الإله العالي أنو وساعده الأيمن الإله الملائكي انليل لنشر العدالة، فإنَّ القوانين التي وضعها واستمد بعضها من قبله الذي استلمها من صاحب التخصص بالعدل والحق وهو شمس؛ لذا قلنا: إنه في أعلى مسلة القوانين تلك نجد نقشاً يظهر حمورابي واقفاً يأخذ القوانين من شمس الجالس ومع هذا فهو أطول منه.

والشمس بطبيعتها وخواصها رمزٌ زراعيٌّ بامتياز، وارتبطت بمعظم المعتقدات الزراعية أو ذات المنشأ الزراعي وذلك لأهميتها في الحياة النباتية، ومع ذلك فإنها ارتبطت أيضاً في معتقدات القبائل شبه البدوية؛ لأنها مارست بعض الزراعات الخفيفة في مستوطناتها المؤقتة أو الدائمة.

وثمة شيء آخر يدفعنا إلى نقد ما درجت عليه الأدبيات التاريخية في مسألة ربط عبادة الشمس بالتوحيد، فمعظم مناقشات أخناتون لإضفاء عبادة الشمس في مصر الفرعونية أكدت أن هذا الأمر محاولة توحيدية بامتياز، وهذا ما جرى أيضاً في مناقشة محاولة نبونيد الكلداني في عبادة القمر بدل مردوخ، حيث اعتبرت توحيدية أيضاً.

وهنا لا يمكننا الأخذ بهذا المساق الفكري إذا شئنا التحدث عن التوحيد بالمعنى الإلهي وليس بالمعنى المجرّد.

فإن كانت الأدبيات قد عنت بالتوحيد التوحيد المجرّد فليس ثمة إشكالية معها؛ ولكن أن يتم ربط عبادة الشمس بالتوحيد الإلهي والوصول إلى فكرة الألوهة فهذا نراه مخالفاً للحقيقة الفكرية؛ ففي التوحيد المجرّد يمكن لأي رمز أن يأخذ صفة الإله الجامع للمجتمع كالقمر أو الشمس أو الطقس والمطر... إلخ، ولكن في التوحيد الإلهي لا يمكننا فهم هذه الحالة إلا بمساقها التطوري الطبيعي من أنو إلى ايل نحو الله.

ويُوضَّحُ الأمر في كتابات القرون الميلادية الأولى، لا سيما في منحها الأفلاطوني الحديث فقد قيل: «إذا أردت رؤية الله فكّر في الشمس ودوران القمر ونظام النجوم فمن هذا الذي يحافظ على نظامها؟ إن هيلْيوس (إله الشمس) هو أعظم الآلهة في السماء، ولكن مرة أخرى يظهر تميز الله عن الشمس التي لم تكن سوى صورته المرئية ومثالاً له.

صحيح أن هيلْيوس هو ملك الآلهة الأخرى ولكنه منفصل عن الله الواحد. وهيلْيوس مجرد صورة للنظام الكوني منفصل عن الله بعاملي الأبد والكون. وساعة خلق العالم قسمت المادة النارية فتكوّن منها أفراد الآلهة التي نراها نجومًا».

إنّ هذه النصوص مع عفويتها وطفولتها العقلية تقدم لنا تصوراً عن انفصال الأجرام السماوية عن معنى الألوهة وفكرتها العالية والسامية، وتضعنا أمام نقطة متقدمة في التطور نحو مفهوم الألوهة بمعناها العالي والخالق والسامي.

وإن كان اعتقاد الشمس قد وافق أغلب معتقدات المشرق والمجتمعات المستقرة أو شبه المستقرة، فإنه في القرون الميلادية الأولى شهد حضوراً مهماً في المدن المشرقية لا سيما مدينة حمص التي حكمتها عائلة من أصل عربي أوصلت أولادها فيما بعد إلى سدة الحكم في الإمبراطورية الرومانية، قصدت بذلك أسرة شمسي جرام.

ويبدو أنّ مجيء هذه الأسرة العربية بعد ارتحالها وجولانها وحلولها في حمص ثم استقرارها نهائياً جلب معها اعتقاد الشمس أو أنّها رسخته من جديد استناداً إلى معتقدات المشرق السالفة.

وقد أشار فرنسيس التهايم إلى أنّ اعتقاد الشمس الحمصي نشأ في قلب الجزيرة العربية ثم ما لبث أنّ تحلّل شيئاً فشيئاً من الروابط الموروثة متخذاً طريقاً مختلفاً كلياً عن السائد في العصور الكلاسيكية.

ويشير أيضاً إلى أنّ تاريخ الإله الشمس في المرحلة المتأخرة هو تاريخ عملية تطهيرية، وإجمالاً استقر طقسه البدوي المنشأ في إحدى المدن السورية هي حمص.

وقد انتقل منصب الكاهن من جيل إلى جيل بالوراثة، كما جرت العادة عند القبائل البدوية، مما يعطي انطباعاً أننا أمام دولة مستقرة، غير أنها قبلية النظام السياسي.

وقد كان من مجريات العادات أن يتم ختان الكاهن الأعلى في المعتقد المشرقي بالإضافة إلى الامتناع عن أكل لحم الخنزير.

ونحن نعلم أن الاعتقاد بالشمس لدى البدو ليس بذى أهمية تذكر مقارنة مع رمزية القمر، فمن طبيعة الجماعات المترحلة أنها تتخلى عن معبوداتها حين تستقر لصالح الإله المعبود لدى المستقرين؛ أي نوع من التماهي الاجتماعي التفاعلي.

وهذا ما كان في معظم ما تبدى من معتقدات القبائل المترحلة، ونحن نذكر كيف أن عرب مناطق الصفا بنوا عبادة ذي الشرى كطابع استقرارى لهم، فذو الشرى كان يرتبط بالشمس والقطاف وعناقيد العنب الناضجة وكان الرمز الأساسي الاعتقادي الوسيط لدى الأنباط، ويمكن تلمس آثاره حيثما وصلت القوافل التجارية إلى الأنباط.

الجدير ذكره هنا أن الإله الشمس الحمصي كذي الشرى لدى الأنباط كان يملك حجراً مقدساً هو رمزه الإلهي. وكان يطلق على هذه الأحجار المقدسة اسم «بت إيلوي» أي بيت الإله، فهذه الأحجار هي بيوت للإله وليست إلهاً بحد ذاته.

وكان الحجر المقدس في حمص مخروطي الشكل مدبب الرأس على قاعدة مستديرة، وعليه نقش بارز لصورة نسر وفي منقاره حية وهي صورة معروفة رمزاً للشمس.

وهذا يشير إلى أن الحجر لم يمثل الشمس بل حمل صورتها فقط، والحجر ليس ملازماً للمكان وليس ثابتاً بل يمكن تحريكه أو نقله وتبني الإله يتم بواسطة حجره.

ويبدو أن الاعتقاد برمزية الحجر المقدس شمل معظم الفضاء الجغرافي المشرقي وشبه الجزيرة العربية؛ إذ لا نجد في معظم العبادات الشمسية طريقاً للتوحيد إلا في مفهومه المجرد، أما في المفهوم التوحيدي الإلهي فإن الشمس مظهر من مظاهر التجلي والخلق الإلهي لا غير. وإن كانت رمزية الشمس قد أخذت أولوية في المعتقدات العائدة إلى القرون الأولى الميلادية فإن هذا يقدم صورة عن واقع المجتمعات، خصوصاً الزراعية التي تستمد شرعيتها الحياتية اعتماداً أشعة الشمس، فالاعتقاد هنا هو اعتقاد مصلحي واضح يرتبط بالإنتاج الزراعي وكفاف المجتمع وأمنه الغذائي.

وكان معتقد الشمس السوري يتميز بطقس حازم وتحضيرات صارمة من التطهر ولم يكن المؤمنون يقبلون في الاحتفالات والصلوات إلا بعد التطهر.

وما يقدم دليلاً على أنّ جوهر الأرضية المعتقدية بطقوسها المتوارثة بقيت سائدةً بصرف النظر عن المعبود، حيث إننا نقرن الآن مجمل العبادات والصلوات بحالة التطهر والقربان والابتهاال والصلاة.

وقد أصبح المعتقد الشمسي الحمصي فاعلاً بقوة كما أشرنا مع حكم أسرة شمسي جرام.

ومنذ بداية القرن الثاني الميلادي إلى منتصفه تسلمت عرش روما أسرة سورية حمصية هي سليلة كاهن معبد الشمس في حمص، لا سيما الإمبراطورة جوليا دومنا زوجة سبتيموس سفيروس وأخواتها وأولادهن الأباطرة أيضاً.

وتذكر المعطيات أنّه حين تسلم ايلّا جبل (إله الجبل) عرش روما فإنه شيدَ معبداً لإله الشمس الحمصي في روما أمام أسوارها.

وفي منتصف الصيف كان القيصر هذا ينقل الحجر المقدس على عربة إلى هذا المعبد، حيث كانت ستة خيول بيضاء تجر العربة التي لم يسمح للإنسان الجلوس فيها، ولا أن يمسك أزمّتها التي نُفّت حول الحجر المقدس، حيث إنّ الإله نفسه، حسب اعتقادهم، كان يقود العربة، أما ايلّا جبل فكان يمشي في المقدمة وظهره إلى الأمام حتى لا يغيض النظر عن وجه إلهه أبداً.

وهذا المشهد يعيدنا إلى ما عثر عليه منقوشاً على سقف معبد بل في تدمر، حيث نجد الموكب المقدس للحجر المقدس الذي نُقِلَ على جمل في وقت يسير كبير كهنة إله الشمس أمام العربة المحمولة بالحجر المقدس واضعاً قدميه إلى الوراء ويمسك بزمام الجمل وعينه مركزتان على الإله.

وبعد ملل الرومان من هذا المعتقد المشرقي وموت ايلّا جبل اغتياًلاً، أُعيدَ الحجر المقدس إلى وطنه سوريا وأُعطيَ معبده في روما لإله آخر.

فحُمل على الدواب وقالوا: «الحيوانات التي تحمل الحجر تعرف طريقها بنفسها» وهذا حسب منطقهم آنذاك.

يقول التهايم: «إنَّ الديانات السورية كانت قديماً تميلُ إلى التوسع وتطمح إلى الانتقال من العبادة المحلية إلى العبادة العالمية، وكانَ الهدفُ المنشود نصبَ الإله الأُوحد والشامل الذي تكون الشمس أعلى تجلياته حتى يبدو أنَّ رب حمص يتحول إلى إله عالمي».

وهنا لا يسعنا إلا أن نركز على مفهومنا، أننا أمام توحيد مجرد وليس توحيد إلهي. والجدير ذكره أنَّ الحجر المقدس كان، كما أسلفنا، بيتاً ورمزاً للإله ومكاناً لعبادته، وبما أنَّ الحجر والإله متلازمان كانت حمص مسكنَ الإله مادام الحجر موجوداً فيها.

وبالعودة إلى محاولة ايلا جبل نرى أنَّ محاولته تلك التي أفضت إلى نقل عبادة إله الشمس الحمصي إلى روما عبر طموحه باعتلاء عرشها تزامن مع كونه كاهنَ إله الشمس؛ لذا نجد أنه قد سبق حضوره إلى روما بأن جعلَ صورته الضخمة في زي الكاهن تسبقه إلى روما طالباً أن يقدمَ لها الناسُ تحية الإجلال، حيث إنه بفعلته هذه أدخل إلى روما الطقوس السورية بشكلها المشرقي الخالص.

وبعد هذا نحو خمسين عاماً نجد أننا أمام عودة إله الشمس الحمصي إلى روما، فحين واجه الإمبراطور أورليانوس جيش تدمر في المعركة الفاصلة قرب مدينة حمص على بوابة تدمر، كان على إله الشمس أن يختار بين أورليانوس وزنوبيا، وذلك حسب ما تخبرنا به سيرة القيصر المدونة في آخر العصر الروماني، وعندما بلغت المعركة ذروتها وكانت الكفة تميل لصالح جيش تدمر اضطرب جيش روما ومالَ جنوده إلى الهروب، وفي هذه اللحظة تجلّى الإله على المشاة وأوصاهم بمواصلة القتال وانتصر الجيش الروماني ودخل الإمبراطور أورليانوس إلى حمص يعزو انتصاره إلى وقوف إله الشمس الحمصي إلى جانبهم.

وبعد احتلال تدمر يعود الإمبراطور إلى روما آمراً ببناء معبد على منحدر في روما تعظيماً لإله الشمس الحمصي.

الجدير ذكره هنا أن أورليانوس إذا أخذ إله الشمس الحمصي معبوداً إلهياً لأصقاع الإمبراطورية كافة فإنه في الوقت نفسه أخذ بل ويرحبول التدمريين غنيمتين إلى روما.

وتدرجياً توسخَ إله الشمس الحمصي في روما بالروح والملاح الرومانية، وكانوا يقيمون احتفالاته في 25 كانون الأول، وهو في تاريخ ميلاد الآلهة الشمسية المشرقية، كما أنَّه عدَّ تاريخ ميلاد السيد المسيح.

وُصِفَ إله الشمس الحمصي بأنه لا يقهر، كما كانت ألقاب أذينة ملك تدمر «كاهن الشمس»، «أسد الشمس المروع المخيف».

والجدير ذكره بعد كل هذا الاستعراض الذي رغبتنا فيه في الإشارة إلى رمزية المعتقد الشمسي الحمصي المستند إلى رمزية المعتقد المشرقي الضاربة في الزمن، التي كانت النواة الأولى لمفهوم الحجر المقدس والذي نجد بداياته في الثقافة الكنعانية أيضاً.

وهنا سوف نشير إلى أن فورفوروس الأفلاطوني المحدث أنزل كل الآلهة إلى المرتبة الثانية في وجه إله الشمس، ثم كان على إله الشمس نفسه أن يتنازل عن منزلته لصالح الروح الواحد غير المرئي، بتعبير آخر: أن يتنازل عنها لله، وهذا ما أدى إلى فتح معتقدي جديد يبدو أن زنوبيا كانت تسير في خطاه بعد أذينة.

بقي أن نشير إلى أن العرب في شبه الجزيرة العربية قد اعتقدوا بالشمس أيضاً، وهذا يدل على معالم استقرارهم هناك. وقد أكدت أسماء القبائل ذلك حيث نجد «عبد شمس» و«امرئ شمس» وعبد الشارق وعبد المحرق. ويشير ابن منظور إلى أن «عبد شمس» كانت بطناً من قريش.

فالاعتقاد الشمسي إذاً كان مشرقياً المولد والمنشأ وانتشر في غالب المشرق القديم، ومع الألف الأول قبل الميلاد أخذته القبائل العربية المتجولة والمترحلة فصار رمزاً اعتقادياً في شبه الجزيرة العربية أيضاً، ولا سيما في المناطق الشمالية والوسطى.

وفي الحقبة الكلاسيكية مع القرون الميلادية الأولى فُعِّلَت عبادته في حمص السورية؛ إذ إنَّ البدو كانوا يحجون إلى معابده لتقديم القرابين. وكان بيته الحجر المقدس الذي انتشرت رمزيته إلى شبه الجزيرة العربية بيتاً ورمزاً للإله الشمسي، ثم عُدَّ بيتاً لله أو رمزاً له حسب الروايات العربية.

إذاً، معتقد الشمس لم يأت من الجنوب إلى الشمال بل العكس، وهذا لا ينفي نشوء معتقده في شبه الجزيرة العربية ثم التقائه مع المعتقد الشمسي المشرقي الأقدم تاريخاً.

في القرن الثالث الميلادي أصبحنا أمام معتقدات إنسانية صار أساسها معتقدات «كتب» إذ نجد اليهودية والزرادشتية والمسيحية والغنوصية والمانوية، حتى الأفلاطونية الحديثة لم تنج من هذا التقليد أو المظهر، ففي ذلك الوقت «لم يكن لمعتقد أو دين ناشئ أن يتجنب الكتاب إذا أراد أن يؤثر في العالم اليوناني الروماني لينال اعترافه به.

وكان التبشير بالدين مستحيلاً دون «الكلمة والكتاب»، وكان لا بُدَّ من الدخول في حلبة التنافس مع عالم الكتب الذي تبلورت فيه الديانات الكلاسيكية المتأخرة».

ففي القرن الثالث ق.م تقريباً، قام حمصي يدعى «هيليودور» في تأليف كتاب باسم «الأيثوبيكا»، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية عام 1950م، وحظي باهتمام الأدباء والمفكرين أمثال شكسبير وراسين وسرفانتس ورافائيل وتاسو.

الكتاب جاء على شكل رواية في زمن فاعلية «إله الشمس الحمصي»، ويبدو أنَّ هذا الكتاب أُلّف بعد إخفاق محاولة الإمبراطور ايلاجبل في أن يجعل معتقد الشمس الحمصي معتقداً عالمياً في مركز العالم آنذاك روما.⁽¹⁾

أنطاكية:

بعد معركة إسوس مضى الإسكندر المقدوني إلى الجنوب، وفي طريقه توقف عند نبع ماء ليشرب منه، قال: «إنه يضارع لبن أُمي»، وأطلق على النبع اسم أولمبياس وأنشأ معبداً باسم «زيوس بوتيايوس». كان ثمة قرية قرب الموقع اسمها «بوتيا»، هنا أسس فيما بعد سلوقس الأول مدينة أنطاكية.

الأبحاث تشير إلى أن التصميم المعماري الإنشائي لأنطاكية ولاوديكية كان من مصدر معماري واحد. ولإنشاء المدينة لا بُدَّ من طقس وبخور وآلهة ومخيلة:

«سلوقس بصحبة الكهنة يمضي إلى أنيتجونية لتقديم القرابين إلى زيوس لانتقاء موقع لإنشاء المدينة حسب مشيئة الآلهة. يقدم الملك القربان للإله على نية الاختيار الجغرافي الإلهي.

النسر وهو طائر الإله زيوس سينقض على لحم القربان ويحمله. أنطيوخس ابن سلوقس يلحق النسر على صهوة حصانه ليضع القربان على المذبح الذي أنشأه الإسكندر المقدوني. هكذا اختارت الإرادة الإلهية مكان إنشاء أنطاكية.

قيل: إنه حين إنشاء المدينة أوقفت فيلة جيش سلوقس في مواضع بناء الأبراج في سور المدينة وأن حبوب القمح استخدمت لتحديد مسارات الشوارع.

(1) انظر: د. بشار خليف- نشوء فكرة الألوهة.

في العصر الروماني امتدت فاعلية أنطاكية على كامل المنطقة الريفية التي تشكل الجزء الأكبر من شمال سوريا.

احتفظت بكونها عاصمة في العصر الهلنستي والروماني. وقرابة 400 م أصبحت عاصمة سوريا الشمالية فقط.

في المرحلة السلوقية الحرجة حين عانت المدن السورية فراغاً سياسياً بسبب صراعات السلطة السلوقية، قامت ثلاث مدن مشرقية بإنشاء اتحاد فيدرالي بينها، وأصدرت نقشاً كُتب عليه «الشعوب الشقيقة»⁽¹⁾.

في المرحلة الأولى من الاحتلال الروماني حصلت على حكم ذاتي كما في العهد السلوقي في زمن سبتيموس سيفيروس 194م، وألغي هذا التمييز وجُعِلت تابعة للاذقية عقاباً على موقفها السياسي في صراعها مع منافس له كانت قد أيدته، وفي عهد كركلا أصبحت مستعمرة.

أنشأ يوليوس قيصر فيها مسرحاً ومدجراً، وأسهم هيرودوس بأبنية فيها، كما أضاف كاليغولا وتراجان وهادريانوس عدداً من الحمامات فيها.⁽²⁾

في نهاية القرن الثاني الميلادي أعاد كومودوس تنظيم الألعاب الأولمبية الدورية. ووصفت أنطاكية بالمدينة المشاكسة، حيث كانت على خصام دائم مع الأباطرة الذين أقاموا فيها. ومع مجيء بولص الرسول كانت الحاضنة المسيحية لانتشار المسيحية في العالم القديم. تبعث تدمر في أثناء فاعليتها القوية، وضم بلاطها أسقفها «بولص السميساطي».

يبدو هنا أن تدمر هي أول مدينة مشرقية تعترف بالمسيحية ديناً إلى جانب رموزها الدينية الكثيرة. وكان أذينة قد أصدر مرسوماً يمنع فيه التعدي على المسيحيين أو الكنائس في المملكة التدمرية، وذلك نحو منتصف القرن الثالث الميلادي.

الجنح الرافدي والإمبراطورية الرومانية:

النظر إلى الجنح الرافدي في أثناء الحقبة الرومانية مشوب باحتلالين فرثي وساساني، المدن الرافدية تابعت حياتها لكن ما يلفت نظر الباحث أن نهر الفرات صار فاصلاً بين

(1) أنطاكية القديمة - جلائيل داوني - دار نهضة مصر 1967.

(2) فيليب حتي - مرجع سابق.

مملكة فرثية وإمبراطورية رومانية، فأثر في المشرق الذي لم يشكل له الفرات سابقاً عائقاً وحدوداً بين جناحين. وبالمقاربة بين جموح الإسكندر وهضمه فارس، ووقوف روما في شرق الإمبراطورية عند الفرات، نجد أنّ هذا جعل بلاد الرافدين لقمة سائغة لبلاد فارس.

الخيار الروماني هذا دفعتم منه روما في حروب متلاحقة مع الفرثيين ثم الساسانيين، لم يكن من نتائجها سوى اللا جدوى ومحاولات إثبات الوجود لا أكثر، كأن هدر الدماء وسفكها كان مجانياً، وفي رأينا لو أنّ الإمبراطورية الرومانية شملت بلاد ما بين النهرين لكان الأمر أكثر توازناً في الصراعات الدولية.

العدوانية بين الطرفين تصاعدت إلى درجة أنه بعد حرب عام 53 ق.م قرب حران بين الفرثيين وروما، جاء الجنود برأس القائد الروماني كراسوس حين كان ملك فرثيا يشاهد عرضاً مسرحياً لمسرحية «السكيرات» ليوريديس، يطلب الملك أن يستخدم رأس الروماني المقطوع في لزوميات المسرحية⁽¹⁾.

وفي المقابل وبالسوية الكوميديّة التاريخيّة نفسها في 211م إمبراطور روما «كركلا» وهو ابن سبتيموس سيفيروس حيث قتل أخاه جبتا وأخذ العرش الإمبراطوري.

يعرض مصاهرة ملك فرثيا أرطبان الخامس والزواج من ابنته، وافق الملك شرطاً أن يحضر كركلا بنفسه احتفال المصاهرة. وفي طيسفون قام الاحتفال الملكي الكبير، وفي أثناء ذلك هجم الرومان على الفرثيين وقتلوا كثيراً منهم، فدفع ملك فرثيا إلى الهروب إلى الجبال.

وتابع كركلا تدميره القلاع الفرثية واستولى على أربيل واحتل آشور كما يُعتقَد عام 216م، ثم قضى على مملكة الرها حران.

وقيل: حين زيارته معبد الإله سين في حران طعن بخنجر ومات عام 217 م، انظر: صالحى - 2017.

ولم يتوان الرومان في دكّ المدن الرافدية تحت الاحتلال الفرثي ثم الساساني؛ لذا تعددت الحروب في أرمينيا أو الأناضول أو الجناح الرافدي. ويبدو أنّ إحساس الرومان بخطئهم التاريخي دفع بعض الأباطرة إلى تجاوز الفرات بجيوشهم، ها هو تراجان ثم سبتيموس

(1) عبد الله الحلو - صراع الممالك - مرجع سابق.

كراسوس بدوره كان سيطر على عدة مدن رافدية ومارس مجازره.

سفروس، لابل استطاع الرومان تجاوز نهر دجلة واحتلال سنجار في عهد تراجان، إضافة إلى آشور وكركوك وسلوقية وطيسفون عاصمتهم في الرافدين.

قام تراجان بعد هذا برحلة نهريّة وصل فيها إلى الخليج العربي وأقام تمثالاً له على ساحله، ولم ينسَ في طريق عودته إلى بابل أن يمرّ إلى قصر نبوخذ نصر الثاني ويدخل الغرفة التي قضى فيها الإسكندر المقدوني ويُقدم الأضاحي.⁽¹⁾

لم تكن السياسة الرومانية قائمةً على ضابطة سياسي في التعامل، فقد كانت تؤدي النوازع الشخصية ونمط شخصية كل إمبراطور في إدارة دفة التعامل.

ها هو هادريانوس الإمبراطور الجوال/117 - 138م يعقد صلحاً مع الفرثيين ويتنازل عن كل ما ضمه تراجان، وفرثياً بدورها تراقب الواقع السياسي الروماني فتستغل اهتزازة، ويدفع الثمن المشرق بمدنه.

في عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس 161 - 180م، اجتاحت القوات الفرثية سوريا بعد عبورها الفرات وبثت الرعب، وكان ردُّ الفعل الروماني اجتياح الروماني «فيروس» بلاد الرافدين وتدمير طيسفون وسلوقية والسيطرة على إديسا ونصيبين.

تعود حكاية الحدود بين القوتين إلى الظهور عام 166م، حيث تنص المعاهدة بينهما على أن يكونَ غرب رافد الخابور على نهر الفرات الحدَّ الفاصل بين المملكتين، على أن تكونَ إديسا ونصيبين تحت النفوذ الروماني، وبذا يتخلى الرومان عن توسعهم في الجناح الرافدي.

لتعود السلسلة الدموية نفسها عهد سبتموس سفروس في 195م، حيث يعبر الفرات مصفّقة له إديسا ومملكة الحضر العربية. وفي 198م اجتاح طيسفون وسلوقيا وحاصر الحضر، وفي نهاية حكمه كانت القلاع الرومانية تنتشر في منطقة الفرات الأوسط على مسافة 120كم جنوب دورا أوروبوس.⁽²⁾

الواقع السياسي لم يكن أفضل بين الساسانيين 226م مع الرومان. فقد كان التماسك الساساني أقوى من الاهتزاز الروماني. والضربة الكبرى لروما حين قام شابور عام 260م

(1) د. صلاح الصالحي- بلاد ما بين النهرين- 20ج- بغداد - 2017.

(2) شابور الملك الساساني عام 253م قام بحملة على طول الفرات ودمر القلاع الرومانية على طول مجرى النهر. قيل: استولى خلالها الساسانيون على سبع وثلاثين مدينة مشرقية. انظر: الصالحي- 2017.

بحملته الثالثة واستولى على المشرق وأسر الإمبراطور فاليريان وبعض أعضاء مجلس الشيوخ الروماني.

ضعف الإمبراطورية الرومانية في الشرق استطاع أن يملأه ملك تدمر أذينة، وقد أرسل وفداً إلى شابور برفقته جمالاً تحمل الهدايا تودداً سياسياً.

وشابور المزهو ظنَّ أنَّ هذا تودداً ضعيفاً لجبار، قال: من هذا أذينة حتى يرسل إلي؟ فألقى الهدايا في نهر الفرات، فجمع أذينة قواته وحلفاءه ومضى إلى الرافدين نحو طيسفون ولقن شابور درساً في القوة المشرقية، ثم توالى الحروب ولم تتوقف إلا بضعف روما في المركز وفي الأطراف.

مما سبق نجد واقع المشرق أنه لم يكن على ما يرام، وواقع العلاقة بين الجناحين ليست كسابق عهدها في المرحلة السلوقية، لكن مع هذا بقي الحضور المشرقي فاعلاً وحيوياً استناداً إلى القاع الاجتماعي الثقافي الذي تأكد في الحضور الشامي بالمعنى الواسع في ثقافة الحضارة الرومانية وسياستها وتجاريتها.

العرب من جهة أخرى كان لحضورهم وتركزهم منذ المرحلة السلوقية دورٌ مهمٌ في زمن الاحتلال الروماني. يتحدث «عرفان شهيد» عن السياسة الرومانية التي ساعدت العرب على أن يحافظوا على هويتهم وذواتهم الشخصية، حيث تركوا يحكمون المناطق التي كانوا فيها⁽¹⁾.

مع الأخذ بمعالم التفاعل البيئي الطبيعي والاجتماعي، حيث أصبحنا أمام حضور عربي متمشوق، كحضور عربي ما زال على ثقافة شبه حضرية وشبه بدوية.

كان الحفاظ على هوية المجموعات العربية القريبة من شبه الجزيرة العربية أشدَّ وضوحاً، وكلما نأت عنها اقتربت من التمشوق. هذا من ناحية الاندماج، كما أنَّ النشاط التجاري مع مواقع شبه الجزيرة العربية فتح أفقاً مهماً لهذه كي تهبَّ عليها رياح عربية متمشوقة منتمية إلى النسيج الديمغرافي المشرقي. القصة هنا: تفاعلات اجتماعية حقيقية وليست توصيفاً لهوية.

(1) روما والعرب - مرجع سابق.

وبحسب رأي الباحث «شهيد» إنّ الأنباط والتدمريين مثّلوا النمط العربي لقبهم من شبه الجزيرة العربية، في حين أنّ الإيدوميين حافظوا على قليل من هويتهم العربية مع حضورهم إلى الغرب من البحر الميت، حيث تعرضوا لعمليات تطبيع آرامي وهليني ويهودي وروماني. كذلك الأتوريون الذين فقدوا كثيراً من هويتهم العربية بحكم التأثير والتفاعل. انتقالاً إلى عرب حوض العاصي حمص والرستن، نجد أنهم عاشوا على طريقة اليونان والرومان كما أخذوا أسماءً رومانية إضافة إلى أسمائهم العربية، وفي منحى المعتقد نجد التزامهم بإله الشمس الحمصي.⁽¹⁾

الملاحظ هنا أنّ روما تعاملت مع عرب المشرق وليس عرب شبه الجزيرة العربية في أول القرنين الميلاديين، وأن المكونات العربية المشرقية في حمص والرستن وآتوريا بقيت مسؤولة عن الأمن الداخلي والدفاع عن بلاد الشام ضد الهجمات التي تشنها قبائل الرُّحَل وشبه الجزيرة العربية. قلنا: إنّ المسألة اجتماعية سياسية وليست عرقية.

ولا ننسى هنا دور مملكة تدمر في حماية الحدود الصحراوية باضطراباتهما وارتحالاتهما؛ لهذا بعد سقوط تدمر⁽²⁾ لم تجد روما بديلاً لحماية إمبراطوريتها في الشرق جنوباً إلا أنّ تقوم هي بذلك في احتكاك مع شبه الجزيرة العربية على نحو مباشر.

وروما على الرغم من إسقاطها فاعلية تدمر كسبب الرهان على العرب.

«فرانتس التهايم» يصف القرن الثالث الميلادي بأنه تميز بازدهار العروبة، فقد أخذت تتنامى دولٌ وممالكٌ عربية مثل الحضر والحيرة وتدمر⁽³⁾. ينبغي هنا أن نركز على مفهوم العروبة ثقافةً في وجود عربي متمشرق.⁽⁴⁾

(1) الدراسات تعيد إله الشمس الحمصي في رمزيته الأولى إلى شبه الجزيرة العربية. لتفاصيل أكثر انظر: نشوء فكرة الإلهة - 2011.

(2) حتى عند سقوط تدمر حارب العرب الأتوريين والسرقينيين تحت قيادة أورليانوس ضد تدمر.

د. شهيد يشير إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا إلا عرب تنوخ الذين كانوا على عداء متأصل مع التدمريين.

(3) فرانتس التهايم - إله الشمس الحمصي - العربي للنشر - دمشق - 1990.

(4) تعريب المشرق، في رأينا، كان في عدة أشكال:

تعريب طبيعي: حصل بحكم الحضور العربي في الألف الأول ق.م، ثم تمركزه وتفاعله بمكونات متمشقة ووضّحت بقوة في القرن الثالث الميلادي.

تعريب قسري: حصل بفعل الدخول الإسلامي إلى المشرق، بقرار سياسي للتعريب في العصر الأموي.

تعريب سياسي: مارسه السلطات السياسية في دول المشرق في العصر الحديث حتى شمل إبدال أسماء المدن والقرى غير العربية.

أفلوطين - ماني - سر سقوط الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية:

منذ الحروب الرومانية الفارسية بسلاطينها الحاكمين، ثمة سؤال كبير يتسرب بين رمال المعارك ودماؤها للبحث عن جواب وجودي.

أفلوطين الأفلاطوني المحدث، 205-270م، وماني صاحب المذهب المانوي -216 م 276 م الإيراني الأصل وعراقي المولد. كلاهما انضم إلى جيش بلاده، كلاهما تحاربا دون أن يريا بعضهما في حرب 243-244 م، والسؤال يطرح نفسه عن العلاقة بين هذا العالم البعيد عن الكمال وبين الحقيقة الأبدية التي تبدو في المظاهر وفيما ورائها.

والسؤال أيضاً عن أصل الشر الذي هو واقع مأساوي في التجربة البشرية. يبدو أن الجواب أتى تقريباً بعد أربعمئة عام، فروما منذ فجيعتها عام 260 م مع الفرس الساسانيين تعرضت لهزات وانقسامات ثم توحدات، كل هذا مع نشاط لقبائل القوطيين الغربيين الذين استباحوا روما عام 410 م وكذلك الفندال عام 455م.

ومن بين الأباطرة الرومان الذين يُعتمد عليهم كان ديوقلسيان 284-305 م، وقسطنطين 306-337 م، اللذين حاولا إحياء الإمبراطورية.

تأكد ديوقلسيان أن نقل العاصمة من روما إلى نيقوميديا (إزميت)، عند الزاوية الشمالية الغربية لآسيا الصغرى، كان أجدى لأحوال إمبراطوريته وسط الهجمات المعادية.

وأكمل قسطنطين الحالة لينقلها غرباً قليلاً إلى بيزنطة ذات الميناء المهم على الطرف الجنوبي للشاطئ الأوروبي لمضيق البوسفور -بيزنطة هي إسطنبول حالياً- وأطلق الإمبراطور اسمه عليها (القسطنطينية)، ودُشنت في 11 أيار عام 330م.

أسهمت الديانة المسيحية الناشطة آنذاك في خلخلة المعتقد الروماني القائم على تقديس الشمس، كما على حالة غير دينية؛ لكنها سياسية اعتقادية تدور حول تقديس الأباطرة لغايات سياسية لا أكثر. عدة أباطرة حاولوا القضاء على الدين الجديد هم ديسيوس، فاليريان، ديوقلسيان، وغاليريوس.

الصراعات الاعتقادية/السياسية في ذروتها أثرت في أداء الإمبراطورية واتزانها، غاليريوس بعد اضطهاده ورفضه المسيحية وفي أثناء احتضاره، يُلغى المراسيم التي صدرت عنه وعن سلفه ضد المسيحيين، ويسمح بحرية العبادة. وبين 312 و395م انتصرت المسيحية في

الإمبراطورية الرومانية⁽¹⁾، وقسطنطين يعتنق المسيحية وتعود العبادة الشخصية للإمبراطور إلى المقعد الخلفي.⁽²⁾

عام 395م، انقسمت الإمبراطورية الرومانية، وتبين أنَّ روما أصبحت صالحه فقط عاصمةً لشبه الجزيرة الإيطالية، ولا يمكنها أن تدافع عن حدود إمبراطورتها عند الفرات وعند الدانوب والراين.

المشرق الذي كان مركزَ الثقل الاقتصادي لها لم يعد بالإمكان حمايته، فعام 430م، اعترفت روما بعجزها عن الدفاع عن إمبراطورتها وعن نفسها، فانهارت الإمبراطورية الغربية لصالح الشرقية المولودة حديثاً التي تمتلك الروحية للانثاق الحضاري نوعاً ما. كانت أولويات هذه الاحتفاظ بسوريا ومصر، ولا بُدَّ أن تعود متواليه الحروب الفارسية مع المولودة الجديدة.

بين 572 و591م حروب بينهما صلح، ولكن في 626م تحصل الحرب القاتلة بينهما، فيها هم الفرس عند الشاطئ الآسيوي لمضيق البوسفور، وها هو الجيش الفارسي يحتل سوريا وفلسطين ومصر وبرقة.

نهضت بيزنطة وردت الصاع صاعين بوصول جيوشها إلى طيسفون في الرافدين، فقد خلعت الملك الساساني 628م.

وحل صلح بينهما، فتبدت بوادر الانحلال الساساني وضعفت الحالة الرومانية الشرقية. نحو جنوب المشرق نجد قوة تتصاعد في شبه الجزيرة العربية، وفي عام 633م أرسل جيشاً لمهاجمة الجارتين المتعبتين في الشمال، وبدأت حقبة جديدة على المشرق بانتصار الفاعلية الإسلامية ديناً ودولةً، فسقطت إمبراطورية فارس، وتقلصت الإمبراطورية الرومانية الشرقية في احتواء آسيا الصغرى والقسطنطينية وبعض الجزر.

مات ماني ومات أفلوطين فلم يعثرا على جواب دائماً.

أسس مذهب الأفلاطونية الحديثة أمونيوس ساكاس 185 - 242م، وقد ولد هذا من أبوين مسيحيين، وتلمذ أفلوطين 205 - 270م على يده، أفلوطين مصري المنشأ، وشامي الزيارة، ورومي الإقامة، حيث كان يتمثل ما لا يقل عن ثمانية قرون من فلسفة الأغارقة وغيرهم.

(1) يُعدُّ فيلب حتي أنَّ انتصار المسيحية في الإمبراطورية الرومانية هو سيطرة سوريّة على نفوس الرومان. (تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين).

(2) لتفاصيل أكثر يمكن العودة إلى: أرنولد توينبي- تاريخ البشرية- ج2. نشوء فكرة الألوهة- د. بشار خليف.

في حين يشير اشبنجلر في كتابه «تدهور الحضارة الغربية» إلى أنَّ الأفلاطونية الحديثة تمتُّ إلى الحضارة العربية، ولا يدخلها في سياق الحضارة اليونانية، في حين أن فرانسيس التهايم، يشير إلى أنَّ معظم أتباع أفلوطين كانوا من أصل سوري.

فإذا كان القرن الثالث الميلادي هو زمن توطّد العروبة في بلاد الشام، حسب تعبير التهايم، فإنَّ القرون الثلاثة الميلادية الأولى شهدت تطورات مهمة على صعيد الإنسانية، فقد أصبحنا أمام تواصل نشيط بين أنحاء العالم المعروف من شواطئ المحيط الهندي وسواحل البحر المتوسط، والعالم الذي قربت فيه المسافات، وتنقل فيه التجار والرحالون بصورة لم تكن معروفةً من قبل، وقد أدى ذلك إلى اختلاط الأعراق والآراء، فوصلت آراء هندية صوفية وفكرية إلى أماكن في حوض المتوسط، فأصبحت المنظومة الفكرية التي يدعو إليها مفكر أو مدرسة تقوم على تركيب فلسفات وآراء متعددة كي تنتهي إلى شيء جديد.

وقد بلغت الأفلاطونية الحديثة نضوجها في القرن الثالث الميلادي على يد أفلوطين، الذي يُعدُّ أكبر شخصية جاءت بعد أفلاطون، وقد وصف مذهب الأفلاطونية الحديثة بأنه عبارة عن فلسفة دينية أو دين مفلسف، وقد تشكل هذا المذهب في سوريا وروما وأثينا. إذًا، منشأ الأفلاطونية الحديثة كان من أمونيوس ساكاس، ومن ثم تلميذه أفلوطين، وكلاهما مصريان ثم جاء فورفويوس وهو عربي متمشوق، ولونجينوس وكلينيكوس وأمبيلوس وكلهم سوريون، في أوائل القرن الرابع الميلادي.

عام 263 م التقى فورفوريوس بأفلوطين، كما التقى بلونجينوس 213 - 273 وتلمذ على فكرهما الواحد.

ويجمع كتاباً عن أفكار أفلوطين بعنوان التاسوعات الذي يعرض فيه حياة أفلوطين، وأفكار مذهبه، وقد كان تجمُّع الأفلاطونيين في روما مُرحَّباً به، طالما كان الإمبراطور جالينوس وزوجته الإمبراطورة سالوفين داعمين لهم ومؤمنين بأفكارهم، غير أن مجيء الأباطرة الإليريين نتيجة ضعف الإمبراطورية وإصابتها بالنكبات، أدى إلى محاربة كل ما هو ليس رومانياً بحثاً، فكرياً وثقافة وحضارة، وقد بذل هؤلاء الأباطرة جهودهم للحفاظ على التقاليد الرومانية القحة، وهذا ما أدى إلى محاربتهم الأفلاطونية الحديثة، ومفكريها، ما دفع زنوبيا إلى مد يد العون لهم وإفساح المجال لهم في المجال المشريقي الحضاري، وهذا يدخل ضمن سياق الصراع الحضاري بين تدمر وروما.

تقول جانين بالتّي: «كانت زنوبيا بعد معرفتها الإشكاليات الفلسفية وكثير من المذاهب الفكرية في عصرها قد جعلت تدمر إحدى المراكز الأولى للأفلاطونية الحديثة التي تطورت فيها بشكل لافت للنظر، المفاهيم الأساسية لنظرية الروح، التي تبتتتها فيما بعد في القرن الرابع الميلادي، مراكز حضارية أخرى نذكر منها أفاميا وقبرص (نيابافوس).

لذا فإن زنوبيا حين جعلت مملكة تدمر مركزاً للأفلاطونية الحديثة وجعلت لونجينوس مستشارها الأول، فإن هذا برأينا كاف للدلالة على أهمية تفكير هذه الملكة، لا سيما إن أضاء لنا على هذا المذهب المتطور في عصره الذي استمرت إشعاعاته إلى العصور اللاحقة، وقد أشار الدكتور «حربي عطيتو»، إلى أن هذا المذهب أثر على الفلاسفة المسلمين، كالكندي والفارابي وابن رشد وابن سينا.

وقد ناقش التهايم في كتابه «إله الشمس الحمصي» أهمية الأفلاطونية الحديثة لجهة استمراريتها حيث إنَّ المسيحيين المونوفيسيين واصلوا آراء الأفلاطونيين المحدثين في سوريا ومصر؛ إذ إنَّ كلا الطرفين كان يدافع عن مبدأ الوحدة الإلهية.

ولإيضاح مذهب الأفلاطونية الحديثة ورؤيته لفكرة الألوهة سوف نقارب كتاب «التاسوعات» لأفلوطين، حيث يقدم وصفاً ورؤية لله، تبدو كأنها رؤية دينية ناضجة، لنقرأ: «تبدأ الميتافيزيقا عند أفلوطين بثالوث مقدس يمثله الواحد أو الأول (الله)، ثم ما يصدر عن هذا الواحد الساكن الثابت، وهو العقل الكلي الذي يحتوي على الصور أو المثل الأفلاطونية، ثم ما يصدر عن هذا الأخير وهي النفس الكلية، فالله عند أفلوطين، هو المصدر الأسمى للوجود يقوم على قمة الأشياء جميعاً هو الواحد، الخير، الأب، لكن ليس بالمعنى المسيحي للكلمة.

الله: هو اللامتناهي في مقابل المتناهي، الأول في مقابل الكثرة، المعقول في مقابل العقل. هو الواحد الذي لا صفة له، ولا يمكن إدراكه لأنه متعال، وهو الغني بذاته والمكتفي بذاته، والواحد يفوق العقل ويسمو عليه كلياً، وهو لا يمكن أن يكون شيئاً ممتداً قابلاً للامتداد أو الانقسام، ولكنه قبلي سابق على سائر الموجودات الأخرى، وهو الواحد دون أي كثرة أو تعدد أو انقسام، كما أنه لا يوجد في الواحد ثنائية الجوهر والعرض، وهو الخير؛ بل إنه أكثر من الخير، مطابق لذاته فوق الفكر وفوق الوجود. لا متناه، واحد، خير، فوق كل تحديد أو تعريف».

إنَّ مجمل التصور الأفلاطوني الحديث لفكرة الألوهة يقدم فكرةً مهمةً حول وحدانية الله في المنظور الفلسفي، حيث إننا نبتعد هنا عن مفهوم الصراع الفكري الديني الفلسفي، ويبدو أنَّ هذا المذهب كان توفيقياً تصالحياً، خصوصاً أنَّ في زمنه كان الاعتقاد الشمسي سائداً في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، إضافة إلى مظاهر تأليه الأباطرة الرومان.⁽¹⁾

المشرق بعد تدمر نحو التعريب والأسلمة:

في نهاية القرن الرابع الميلادي كان ثمة سوريتان تحت الرعاية الرومانية، وكذلك فينيقيتان، وفلسطين مقسمة ثلاثة أقسام.⁽²⁾

أصبحت سوريا مسيحية في هذه الحقبة، فجدور الديانة المسيحية كانت تتبع التطور والواقع الاجتماعي الزراعي والمديني، وثمة دراسات تبحث في الجذور المشرقية للمسيحية، والرومان في صراعهم مع اليهود في القرن الأول والثاني الميلادي ظنوا أنَّ المسيح يهودياً، لكنَّ المعطيات تشير إلى آرامية المسيح فهو تكلم الآرامية وسطَّ اليهود، وهذا يعني ما يعني. التفاعل الديني التجاري نقلَ المسيحية نحو جنوب الجناح الشامي إلى شبه الجزيرة العربية⁽³⁾، على عكس التبشير المسيحي الذي حمله تلامذة المسيح، لا سيما بولص حين نقل المسيحية من أنطاكية إلى أوروبا.

(1) انظر: د. بشار خليف- 2011.

(2) سوريا الأولى بعاصمتها أنطاكية مدنها الأساسية: سلوقية، لاودكية، جبلة، بيرويا (حلب)، خالكيس وغيرها.

سوريا الثانية بعاصمتها أقاميا تتبعها ابيغائية (حماة)، اريتوزة (الرسنن)، لاريسا (شزر).

فينيقيا الأولى بعاصمتها صور تتبعها بتولمايس (عكا)، صيدا، بيروت، جبيل، البترون، طرابلس، عرقة، أرواد.

فينيقيا الثانية (داخلية) عاصمتها حمص تتبعها دمشق وبعليك وتدمر.

فلسطين الأولى عاصمتها القيصرية، تتبعها أورشليم ونيابولس (نابلس)، جوبا (يافا)، غزة، عسقلان، ومدن أخرى.

فلسطين الثانية عاصمتها سقيثوبولس (بيسان)، تتبعها جدره، طبريا.

فلسطين الثالثة عاصمتها البتراء وتضم الولاية العربية السابقة. انظر: فيليب حتي.

(3) الغساسنة من آل جفنة استقروا جنوب الشام، صاروا على المسيحية، دعمتهم بينظنة، امتدت فاعليتهم من الرصافة وحتى المدينة (يثرب)، لهم صلات قوية بعرب الحجاز واليمن. الدراسات تعيد أصولهم إلى اليمن، كانوا على المذهب اليعقوبي. والمعطيات تشير إلى صلاتهم التجارية القوية جنوباً حيث أشادوا الأديرة على طول الطريق التجاري بين الشام والحجاز، هذه الأديرة كانت محطات للقوافل التجارية ومراكز تبشير. أرسل الغساسنة بدورهم عشرات الأساقفة إلى بلاد العرب للتبشير بالمسيحية، حيث أطلق عليهم اسم «أساقفة الخيام» أو قيل: كان مطران بصرى يشرف على عشرين أسقفاً انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان. الإشارة هنا إلى أنَّ الغساسنة كتبوا بالآرامية، بمعنى آخر: استلهموا ثقافة المشرق في جناحه الشامي.

«الطابع الذي طبع المسيحية في القرون الأولى منذ نشأته كان طابعاً آرامياً، وشمل كل المجالات كالشعر والموسيقا والهندسة واللاهوت والعقائد؛ فالمسيحية نشأت في بيئة حضارية متمدنة موعلة في القدم ومؤسسة بذهنية اعتقادية متطورة. يبدو أنه حان الآن أوانها».

آراميو المسيح- السريان:

السريانية صفة دينية؛ ليست هوية قومية، والآراميون الذين صاروا على الديانة المسيحية سمّوا أنفسهم سرياناً ليفرقوا أنفسهم عن الآراميين الذين ظلوا على اعتقادهم السابق الوثني¹. وهذا حصل منذ بداية القرن الثاني الميلادي.

الباحث «زيادة» يقول: إنَّ اللغة الآرامية واللغة السريانية هما شيء واحد، الآرامية المسيحية أصبحت سريانية والسريانية نسبة إلى سوريا، واسم السريانية من مسمى سوريا.⁽¹⁾ الآراميون المسيحيون عانوا ما عانوه مع بدء إيمانهم بالدين الجديد، فقد تعرضوا إلى اضطهادات في سنة 251م وكذلك في 260م لكن الاضطهاد الأكبر كان بين 303 و312م.

مع عهد الامبراطور قسطنطين هدأت الحال قليلاً؛ ولكن مع عهد «تيمودوسيوس» الكبير عدَّت المسيحية ديناً رسمياً للدولة الرومانية عام 389م، وصار بالإمكان اعتبار سكان الإمبراطورية مسيحيين عدا اليهود.⁽²⁾

السريانية بوصفها شعوراً قومياً ظهرت باندماج المشاعر العاطفية للمجموع مع المعتقد حين تعرضت للمخاطر والرفض والإلغاء⁽³⁾، لذا فهي صفةً دينية لا أكثر، تطورت لغتها عن الآرامية وكذلك كتابتها.

(1) نقولا زيادة- المسيحية والعرب- مرجع سابق.

وكذلك حوارات في الحضارة السورية- حوار مع نقولا زيادة- مرجع سابق.

(2) بسبب هذا عمدت الدولة الرومانية إلى إغلاق مدرسة أثينا الفلسفية وكذلك المدارس الأخرى. حتى إنه في عام 580م، لزم تسيير الجنود لإغلاق معبد بعلبك (الوثني). انظر: موريس سارتر- مرجع سابق.

(3) بالطبع هذا ينسحب على المظاهر القومية الحديثة الممزوجة مع العقيدة، كحال النزعة الكلدانية والنزعة الآشورية، فمثلاً: الآشوريون المعاصرون تسميةً أطلقها البريطانيون على السريان في شمال العراق لتحريضهم على الانفصال والتمرد أثناء ثورة الثلاثينيات في القرن العشرين، الملاحظة هنا أنّ بريطانيا مبدعة في غرس الأسافين في الأماكن التي تحتلها لتمزيق وحدة المجتمعات والدول.

د. محفل يشير إلى أنه لا علاقة لكتابة هؤلاء الآشوريين ولغتهم بالآشورية القديمة، فالتسمية زُرعت لأهداف سياسية انفصالية.

انظر: د. محمد محفل- دمشق الأسطورة والتاريخ. دمشق- 2008.

في مقاربتنا للثقافة السريانية الآرامية لا نبتعد عن خط ذهني فكري واحد شكّل المشرق وتواصل منذ ما قبل نشوء المدن وصولاً إلى النصف الأول من الألف الأول الميلادي. ووجهة نظر الحضارة تقول: إنّ السريان أسأؤوا إلى السلف الآرامي (الوثني)⁽¹⁾، كيف ذلك؟ الخطوة الأولى هنا أنّ الآراميين الذين اعتنقوا المسيحية عمدوا إلى استبدال اسم جدهم الوطني «آرام»، بالتسمية اليونانية «السوريون» أو «السريان» وأطلقوا على لغتهم اسم السريانية، رفضاً للوثنية القديمة!

ها هم يُتلفونَ كلَّ آثارهم الفكرية والأدبية والذهنية السابقة للمسيحية لعلاقتها بعالم الظلام الآرامي، ولم يتبعوا سوى ما لا يتعارض مع الديانة الجديدة. «أغناطيوس أفرام الأول برصوم»، يشير في مؤلفه «اللؤلؤ المنتور» إلى «إحراق السريان لكل كتب الآراميين والآثار المدنية والعلمية خشية أن تُوقَع معالمها الوثنية أحفادهم في شرك الوثن»⁽²⁾

إذاً؛ من الواجهة الحضارية وعلى ثنائية النور الجديد والظلام القديم الذي لجأت إليه الأديان التوحيدية، وبدا أنّ الأمر يخالف حركة العقل والتاريخ والتطور. ونحن نعلم أن اصطلاح الجاهلية شكّل ثغرة معرفية مهمة في الأدبيات الإسلامية أيضاً. لماذا قلنا: إن تدمير المنجز الآرامي من وجهة نظر الحضارة كان نقيصة؟ نحن نعلم أنّ مجمل ذهنيات الديانة المسيحية تستند إلى المعطى الحضاري المشرقي أساطيراً، و ليتورجيات وطقوس، والمعنى هنا أنّ الأرضية الذهنية للمسيحية تشكلت قبل ظهورها، وما جرى هو استبدال الرموز بحلول الله السماوي.

«المدقق في طبيعة مفهوم الألوهة يستطيع أن يدرك، دونما عناء، أنّ ثمة خطأً ذهنياً واحداً بدأ منذ ظهور الإنسان واستمر صعوداً حتى تبلور في الأديان السماوية، فالذهنية الاعتقادية لما قبل الديانات السماوية لا تناقض في جوهرها تلك الديانات، لا بل تشكل الأرضية الذهنية- الثقافية لها، فليس ثمة قطعة بين قبل وبعد، كما درجت معظم الأدبيات الدينية

(1) لنا موقف نقدي من مصطلح (وثني) فباعتبارنا العلمي الذي توصلنا إليه في مؤلفنا «نشوء فكرة الألوهة» نميل إلى عدّ خط الألوهة واحداً لفكرة الألوهة «نميل إلى اعتم من أنو إلى ايل حتى الله. الوثنية تبدو شتيمة من أصحاب الديانات التوحيدية لمن سلف من المارقين الكافرين!.

(2) أغناطيوس أفرام الأول برصوم- اللؤلؤ المنتور- دار ماردين 1996.

على ترويجه، ولعل ثنائية الوثنية والتوحيد تحتاج إلى إعادة نظر استناداً إلى قراءة جديدة للموروث الاعتقادي المشرقي». (د. بشار خليف 2011).

لم يعد وَفَقَ التطور الدماغي والذهني أن يستعان بالرموز للوصول إلى آنو أو ايل أو الله. ومع هذا حلَّ المسيح وسيطاً بين البشر والله أيضاً.

الباحث السوري د. حسني حداد يقارب النظر إلى المسيحية كدين برؤية مميزة: «المسيحية أقرب للدين الشعبي من أي دين آخر، والدين الشعبي أقصد به ما قبل المسيحية وما بعدها. انتشرت الطقوس القديمة عند الفلاحين، والفلاحون أثروا في المسيحية بقدر ما أثرت هي فيهم.

الكنيسة أخذت من التقاليد الشعبية وجعلت منها تقاليد رسمية، فعيد الميلاد يعود إلى تاريخ ما قبل تاريخ المسيح، أعني طقوسه: الولادة، العذراء، ظهور النور وغيره، وكذلك موت المسيح وقيامته، كل هذا يرجع إلى تموز وأدونيس وبعل أجاريت، وهذا التابع موجود في المسيحية.

كتاب «الفلاحة النبطية» لابن الوحشية يشير إلى وجود طقوس تموز في الشمال السوري ويطلق عليه الناس عيد البوقاد، وابن الوحشية نقل هذا الكتاب عن مؤلف سرياني يدل في كتابه على وجود طقوس تموز في الشمال السوري حتى القرن الرابع عشر ميلادي، ويسمونها تموز، وتموز هو بعينه جرجس»⁽¹⁾.

المسيح كان آرامياً وابن بيثة مشرقية، تكلم بالآرامية كما تكلم بها تلامذته أيضاً، وتنقل في أرجاء مدن الجناح الشامي، في دمشق التي كانت ضمن تحالف المدن العشر، فبعض الإشارات تقول: إنه لم يفر إلى مصر في زمن هيرودس بل إلى دمشق.

إنجيل مرقس يذكر المسيح في «فينيقيا التي في سوريا». و«لوقا» يذكر في أعمال الرسل قول المسيح لبولص: «قم وادخل المدينة (دمشق)، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل». وفي إنجيل «متى» يكتب: «ذكر المسيح شاع في سوريا كلها»⁽²⁾

المعطيات تشير إلى جولان المسيح في مدن بلاد الشام وقراها، في صور وصيدا والجولان، وفي زيارته إلى دمشق حيث تبعه تلاميذه تنبأ بما سيُدبر له.

(1) حوارات في الحضارة السورية- مرجع سابق.

(2) فايز مقدسي- الأصول الكنعانية للمسيحية- دار الأبجدية- دمشق- 1996.

مشرق السريان:

منذ سقوط بابل في منتصف الألف الأول ق.م بدا الواقع الديمغرافي المشرقي مزيجاً من الأموريين بما فيهم البابليون والآشوريون، وكذلك الآراميون وكنعانيو الساحل المشرقي، ووجود مكونات عربية قبلية سوف تصبح مشرقية.

ومع انتشار المسيحية والتزام مكونات هذا المزيج بها أصبحنا أمام اسم جديد: سرياني. «حين أصبح الآراميون مسيحيين تكلموا السريانية لكي يختلفوا عن الآراميين غير المسيحيين، وسموا أنفسهم «سريان»، أي أنهم سوريون»⁽¹⁾.

أول من التزم بالسريانية كان آراميو الشمال السوري، ولسوف تبنى الكنيسة المسيحية في بلاد الشام في القرن الثاني الميلادي اللغة السريانية التي عمت مدن المشرق كافة.⁽²⁾ اللغة السريانية إضافة إلى كونها لغة الكنيسة استعملت في مختلف الجوانب الثقافية من علوم ومعرفة وفلسفة وأفكار.

إطلاع السريان على الأدبيات اليونانية بأنواعها وترجمتها دفع اللغة السريانية إلى التطور، وها هي ترجمات في الطب والصيدلة والمنطق، تتم ترجمتها في الرها وجنديسابور وتنتقل في مدى المشرق، ولم يكتفِ السريان بالترجمة فقط؛ بل أسهموا بمؤلفاتهم حتى ازدهرت العلوم السريانية والآداب، كما نجد في القرن الخامس الميلادي؛ حيث عمت المدارس الدينية والعلمية معاً، في الوقت ذاته الذي بلغ انتشار المسيحية معظم المشرق.⁽³⁾ الكنائس انتشرت في القرن الرابع الميلادي في صور وأنطاكية؛ لكن بناء الكنائس في القرن الخامس شهد اهتماماً ونشاطاً مميزاً، وقوة المسيحية المشرقية آنذاك جعلت يوحنا فم الذهب بطريراً للقسطنطينية.

(1) فؤاد قرانجي - أصول الثقافة السريانية في بلاد ما بين النهرين - دار دجلة - بغداد - 2010.

(2) ثمة نقش عثر عليه في موقع مدينة «دورا أوروبوس»، يُعدُّ أقدم النماذج للكتابة السريانية، حوى النقش مجمل العناصر الأساسية في الخط السرياني اليدوي، واستمر هذا الخط مستعملاً كخط دنوبي في الشؤون الاقتصادية والتجارة والثقافة دون الدين.

انظر: نينا بيغولفسكايا، ثقافة السريان في العصور الوسطى - دار الحصاد - دمشق - 1990.

(3) مخاض الانتشار المسيحي يعبر عن نفسه في أن أول أسقف في بصرى، جنوب الشام، «بيريليوس»، في بداية القرن الثالث للميلاد، التقى بشارح كتب مقدسة، «أوريجينس» الذي استدعى إلى أنطاكية للتحدث عن الدين الجديد مع الإمبراطورة السورية على عرش روما «جوليا دومنا». (موريس سارتر - مرجع سابق. ويجدر الذكر هنا: أن أذينة ملك تدمر أصدر مرسوماً يمنع فيه التعدي على المسيحيين وكنائسهم. وشيء آخر: فإن أسقف بصرى في عام 363م قدّر عدد المسيحيين وغير المسيحيين أنه كان متساوياً آنذاك في المدينة.

وكعادة كل فكر جديد سوف يختلف التابعون والمريدون في شؤون هذا الفكر أو المعتقد. ها هي طبيعة السيد المسيح محطّ خلاف بين التابعين، بين يعاقبة في بلاد الشام، ونساطرة في الرافدين، وليس في الأمر إطلاق هنا.

«موريس سارتر» يحكي عن خلافات قسمت العالم المسيحي السوري إلى متصارعين حتى أدى ذلك إلى استخدام العنف بين الفرق.

المشهد الآن: موكب لألف راهب ملكي (كلدان) كان متجهاً إلى مقر القديس سمعان، وسوف يتعرض لكمين نصبه لهم خصومهم وأودى بحياة 350 راهباً.

مسلة في أعالي الجزيرة السورية تعود إلى نهاية القرن السادس الميلادي أو بداية السابع، حوت نقش لعنة يقرأه رهبان يؤمنون بالطبيعة الواحدة ضد أنداهم.⁽¹⁾

فيليب حتي يشير إلى أن سوريا في أول عهدنا المسيحي كانت مركزاً للعقيدة النسطورية ثم العقيدة المونوفيزية، ويضيف: كلتا العقيدتين كانت منفصلاً للناس يعبرون فيه عن رغبتهم في الانفصال عن بيزنطة.⁽²⁾

د. زيادة، يقارب الاختلاف بين المكونات المحلية المشرقية وانعكاس هذا على الحضور المسيحي، يقول: «في الأجزاء الشمالية من الرافدين لم تنجح الهلينية في هلينة مجتمعاتها إلا في أمور سطحية؛ لكن الجذور بقيت آرامية. هذا ينطبق على المدن والأرياف.

ففي حين نجد مدناً سورية مثل: أنطاكية هي جزر هلنستية في جو ظلّ في معظمه آراميّ الثقافة، نجد مدن الرافدين لم تتطور على هذا النحو؛ لذا فالمسيحية حين تجذرت هنا كانت تختلف عن تلك التي عرفتها سوريا الغربية، فقد كانت حرةً واكتشفت طريقها ورسمت خططها على أسس محلية وطنية غير مستوردة، وبسبب هذا التجذر الوطني لغة وثقافة فإنّ التطور العام كان أيضاً وطنياً أصيلاً، وكان بوسع المسيحية أن تخاصم المسيحية اليونانية في منطقة ظلّ لها الطابع المحليّ الآرامي- السرياني.⁽³⁾

(1) موريس سارتر- مرجع سابق.

(2) منذ الحقبة الأولى اختلفت الكنيسة المسيحية السورية لغةً وطقوساً عن الكنيسة البيزنطية، ومع مرور الزمن ازدادت حدة الخلافات العقائدية بين الكنيستين. انظر: فيليب حتي- خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى- 1982.

(3) نقولاً زيادة- المسيحية والعرب- مرجع سابق.

ومن جهة ثانية، فيليب حتي يتحدث عن تطور الكنيسة المسيحية في سوريا من ناحية لغوية في اتجاهين: اتجاه

اللهجة أو اللغة السريانية انقسمت لهجتين كما نعلم: شرقية رافدية، وغربية في الجناح الشامي، وبقيت عدة قرون بعد دخول المسلمين حتى تراجعت بقوة حضور اللغة العربية وكتابتها، وتراجع الحضور المشرقي بثقافته.

وما يلفت النظر هنا أنَّ الصراعَ حول طبيعة المسيح لم يُؤسر بالطابع الديني بل تعداه إلى أبعاد فكرية؛ فنحن أمام حالات استحواذ فكري شكَّلت هاجساً قوياً منذ البداية وشملت المدن والأرياف حتى التأثير في القبائل العربية التي أصبحت مشرقية.

أحد المونوفيزيين وهو «دنحا الأول» كان يشغل كرسي تكريت، كتب مستاءً من المدارس النسطورية: «بنوا في كل قرية مدرسة، جذبوا الناس إلى مدارسهم مطبقين في كل المناطق النظام ذاته من حيث الانشاد والتراتيل».

ليجيء بعد ذلك الرد من قبل المونوفيزيين بإنشاء مدارس مماثلة في منطقة بيت نوهاذر بين دجلة والزاب الكبير، فبنيت المدارس في بيت كوكي، وبيت تارلي، وتل زطة، وبيت باني. هذا في القرن الثامن الميلادي في أثناء السيطرة الإسلامية.

الثقافة السريانية:

من المراكز المسيحية الأولى تُعدُّ أنطاكية ريادية هنا، حتى إنها حلت عاصمةً العالم المسيحي، وفي المقابل حظيت اديسا في شمال الرافدين بمكانة مشابهة؛ فعدت كأثينا العالم الآرامي. ونعلم أنه منذ الاحتلال الأحميني للرافدين كانت الآرامية لغة الدولة ولغة المراسلات سواء في اديسا أو نصيبين أو أمد وقنسرين.

وتدرجياً اكتسبت الآرامية صفات نوعية حولتها إلى سريانية متطورة، وأصبح بالإمكان التعبير بها عن مفاهيم ومصطلحات فلسفية وعلمية ودينية.

ولا يغيب عن فكرنا هنا أن تطور الكتابة السريانية جرى في ارتباط وثيق وضمن تأثير متبادل مع الكتابة التي انتشرت منذ أقدم الأزمنة في الرافدين مع الكتابات التي كانت رائجة في الساحل السوري، وكذلك الكتابة النبطية والكتابة التدمرية.⁽¹⁾

الأكاديميات والمدارس السريانية التي عمت مدن المشرق أنشئت لغايات دينية، وسرعان ما شملت مختلف النشاطات الفكرية وحركة تأليف وترجمات علمية وأدبية وفلسفية تُعبر

يوناني على الساحل وفي المدن التي تأثرت بالهلينية، واتجاه سرياني في الداخل، ومنذ القرن الثالث الميلادي فرضت السريانية نفسها تجاه اليونانية. انظر: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين.

(1) نينا بيغولفسكايا- مرجع سابق.

عن حيوية مجتمعات المشرق آنذاك، فإن كانت اديسا أثينا العالم الآرامي، فهذا هي نصيبين تسمى «أم العلماء»، والجدير ذكره هنا هو أن عالم الكتابة والقراءة كان حضوره مميزاً ومعمّداً كونه أساس كل نشاط معرفي وفكري.

الزخم المعرفي والفكري تراكم محلياً وتفاعلاً مع الفكر المتوسطي ليشكل في النهاية بالخاصية الهلنستية الضاربة بجذورها هنا؛ فاللغة السريانية بسبب مجمل هذه التفاعلات حملت تصورات أيديولوجية جديدة وأفكاراً فلسفية ومفاهيم فلكية وجغرافية وعلمية، لا يمكننا هنا القفز فوق الأصالة المشرقية المستمرة منذ آلاف أعوام خلت وجبّت، والإضافة عليها في طريق التطور المعرفي الإنساني والحضاري.

فمدرسة اديسا التي ازدهرت حتى عام 489م هدمها الإمبراطور زينون، ما دفع علماءها وأساتذتها إلى الانتقال نحو مدرسة نصيبين، وسرعان ما ورثت فعالية اديسا مركزاً علمياً سريانياً يونانياً.

تلك المدارس رغم دورها الديني شكلت مراكز تنويرية وحددت بدرجة كبيرة نمط الحياة العقلية في كامل المشرق، وجهة النظر هنا لبيغوليفسكايا.⁽¹⁾

المدارس السريانية:

مدرسة أنطاكية وجوارها: اشتهر فيها إسحاق الأنطاكي الكبير ويعقوب الرهاوي. مدرسة قنشرين: تعود إلى القرن السادس ميلادي، اشتهر فيها توما الحرقلي الذي نقل الانجيل من اليونانية إلى العربية، كذلك مفكرها سويرا الذي وصلت منه الأرقام الهندية إلى العرب.

مدرسة طيسفون (المدائن): اشتهر فيها ططيان الآشوري في القرن الثاني الميلادي. مدرسة الرها: أنشأها ملوك الرها الأبرجيون، وازدهرت من القرن الثاني حتى الخامس الميلادي، اشتهر فيها برديصان والمفكر وafa والعالم أسوانا.

«مسروب» القديس الأرمني، حين فكّر في وضع حروف أرمنية أوائل القرن الخامس الميلادي، قصد مدينة الرها مع بعض تلامذته وتخرجوا في مدرستها، والمعطيات تشي بنقل الأرمن كثيراً من المؤلفات السريانية إلى الأرمنية.

(1) المرجع السابق.

مدرسة نصيبين: من القرن الرابع حتى السابع الميلادي، اشتهر فيها مار يعقوب الكبير، والمعلم نرساي وباباي.⁽¹⁾

مدرسة رأس العين: اشتهر فيها سرجيس الرأس عيني، كان هذا منذ أول نقلة من اليونانية إلى السريانية، اهتم بالطب والفلسفة أيضاً.

مدرسة قرتمين: تعود إلى القرن الرابع الميلادي، اشتهر رهبانها بصنع الرقوق وتهيئتها لنسخ الكتب، ويقال: إنهم تفننوا بتجويد الخط وتجديد الكتابة السطرنجيلية.

في إحصاء لعدد المدارس في الجناح الرافدي تبين وجود ما يزيد على خمسين مدرسة شملت نشاطاتها مختلف العلوم السريانية واليونانية، إضافة إلى الآداب المسيحية، وسنكون أمام ترجمات لمؤلفات أرسطو وجالينوس وأبقراط.⁽²⁾

الثقافة السريانية انتقلت إلى الفرس أيضاً، وللعرب في زمن الخلافة العباسية، حيث ستنتقل العلوم والأفكار السريانية والمعارف كلها، ولم تقف الحيوية السريانية على حدود المشرق فحسب، فها هي الأديرة السريانية في مصر التي يزيد عددها على 18 ديراً، بعضها يعود إلى القرن السادس الميلادي، ولم تكن أديرة دين بقدر ما كانت مراكز للثقافة وتفاعلاتها.⁽³⁾

نقل البطريك يوحنا الثالث الإنجيل إلى العربية في عامي 631-649م. والملاحظ هنا الرافعة الاجتماعية للمشرق حتى في زمن الاحتلالات والسيطرة الأجنبية عليها، فقد شكلت سداً ثقافياً في وجه التغريب والخروج عن الأصالة الإنسانية الطبيعية. الثقافة الآرامية المسيحية (السريانية)، استطاعت أن تُعبر عن حيوية المشرق واستمراره حتى مع دين التوحيد أيضاً.⁽⁴⁾

(1) فيليب دي طرازي- عصر السريان الذهبي - دار هنداي- مصر - 2012.

(2) نظام التعامل وقواعده في المدارس نلمسه كما تبدى في مدرسة نصيبين، وربما يُحسب على نظم المدارس الشرقية كافة، والدراسة لمدة ثلاثة أعوام، والعام الدراسي يتألف من فصلين بينهما عطلة لا بد منها. ولا يسمح للطالب أن يعمل خارج أوقات الدوام بمهن تسيء إلى المدرسة ومنتخرجيها، ثمّة قواعد ناظمة في العلاقة بين المدينة والمدرسة، وبين المجتمع والمدرسة.

يسمح للطلاب الفقراء بإعطاء دروس مأجورة على ألا يزيد عدد التلاميذ المتعلمين على ثلاثة. ولا بأس في أن يقوم طلاب المدرسة بأعمال الحصاد قبل الدوام الصيفي، وجمع التين والزيتون قبل الدروس الشتوية.

(3) مكتبة دير والده الله في وادي النطرون ضمت محفوظات سريانية قديمة ترقى إلى القرن الخامس والسادس الميلاديين، بعض المحفوظات كانت تنسخ وتحفظ في أديرة أخرى كما في مكتبة دير الشرفة في لبنان.

(4) في إحصاء بسيط بلغ عدد المؤلفين السريان قرابة 400 مؤلف، بلغت مؤلفات بعضهم نحو 40 كتاباً، ويبدو أنه قد فقد كثير منها بفعل الحروب والزلازل وعوادي الزمن.

المكونات العربية المتمشقة في المشرق آمنت بالدين الجديد كأول دين إلهه كوني وليس قومياً.

«الباحث نقولاً زيادة» يشير إلى أن ما بين 140 و240 م ظهرت مؤلفات عديدة تتناول حياة المسيح وتحاول تفسير طبيعته، وأكثر هذه المؤلفات وُضِعَت باللغة السريانية في إديسا (الرها) وجوارها. وكان كثيرٌ من الكتاب في هذه الديار يغلب عليهم العنصر العربي»⁽¹⁾.
الوثائق المسيحية العائدة إلى القرن الثالث الميلادي تذكر أسماء مطارنة عرب أيضاً، حتى إنه في جميع المجامع المسكونية كان لهؤلاء حضور مهم، والواقع الديمغرافي في المشرق نجده في استقرار عربي، ومكونات عربية مرتحلة إلى جانب الآراميين وكنعانيين الساحل، والآراميون هنا حين أصبحوا مسيحيين أُطلقَ عليهم اسم السريان. فالسريانية ليست هوية قومية؛ بل صفة دينية لا أكثر.

قَدِمَ بنو قضاة إلى بلاد الشام، كان أول ملوكهم تنوخ بن مالك، وهم على دين المسيحية، ثم جاءت سليح وتغلبت على تنوخ، وصارت تدير شؤون عرب بلاد الشام بموافقة رومانية. أما آل جفنة الذين استقروا في جنوب الشام فبقيت إمارتهم تتمتع بحكم ذاتي وتبع الإدارة البيزنطية حتى نهاية القرن السادس الميلادي، حيث ألغت بيزنطة حكمها الذاتي وتبعتها مباشرة.

نشبت حروب عديدة بين الغساسنة واللخمين المدعومين من الفرس وهم مسيحيون أيضاً من المذهب النسطوري، هذه الحروب صورةٌ عن الصراع الروماني الفارسي. ويُعتَقَدُ أنَّ اللخمين يعودون إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، استقروا بعد انتقالهم إلى المشرق على طول الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية، حيث استُخدموا حاجزاً في مواجهة الرومان، كما استُخدم هؤلاء الغساسنة حاجزاً آخر معاكساً.

نشبت عدّة معارك بين هاتين الدولتين، الإشارة هنا إلى أن أول مجيء آل جفنة إلى جنوب الشام كان مركزهم السياسي مخيماً متنقلاً، وعندما استقروا أصبحوا في الجابية في منطقة الجولان وأحياناً في حلق في جنوبي حوران.

(1) نقولاً زيادة- في سبيل البحث عن الله- الأهلية للنشر- بيروت- 2000.

المسيحية والعرب- دار قدس- دمشق- 2000.

عام 580م، حرق المنذر بن الحارث الغساني الحيرة عاصمة اللخمين، وفي 582م، استدعي إلى القسطنطينية ثم إلى صقلية؛ حيث تقطع المساعدات عن الغساسنة. يبدو أن دورهم قد انتهى، ولعب العرب آنذاك دور حضورهم ضرائر كمدن المشرق سابقاً.

المكونات العربية المسيحية في المشرق نتلمسها في:
بكر بن وائل: من غرب دجلة إلى الجبل المطل على نصيبين.
ديار ربيعة: بين الموصل إلى رأس العين والخابور.
ديار مضر: سهول شرق الفرات نحو حران والرقعة.
بنو كلب: غرب الفرات والسماوة امتدوا حتى تدمر والسلمية وحمص.
بنو تميم: حران. بنو سليح: الرها. بنو عقيل: أعالي الخابور.
تغلب: أسفل الخابور وبهراء وقسم من تنوخ في حمص.
كنانة: في حماة وشيزر. إياد: السواد والجزيرة. تنوخ: قنسرين. (د. بشار خليف- 2011.
المعلوم هنا أن القديس سرجيوس (مار جرجس) شهيد الرصافة كان شفيح بني تغلب.
والواقع السياسي كان ثقیلاً بالمعنى الحربي، فقد بدأت الصراعات الفارسية مع بيزنطة عبر بلاد الشام.

عام 540 م الهجوم الفارسي أشعل مدينة حلب، وهيرا بولس نجت بتقديم ضريبة الولاء، أنطاكية تعرضت للهجوم، وأرسلت فينيقيا الثانية من حمص وحدة عسكرية لنجدها، هُدمت أنطاكية وأسر سكانها إلى مدينة جديدة إلى جانب طيسفون سُميت أنطاكية كسرى. ماتت أنطاكية ودُمّرت بفعل زلزالين عام 526 و528م. ووصل الجيش الفارسي إلى أفاميا التي لم تُدمر.

وفي نهاية القرن السادس الميلادي تشرذمت دولة الغساسنة، فقد تحالف بعض أمرائها مع الفرس، وآخرون حافظوا على استقلالهم وبقي بعضهم إلى جانب بيزنطة.⁽¹⁾
ما بين 611 و614م اجتاحت الفرس بلاد الشام. وحارب العرب الغساسنة مع الروم جيش المسلمين عام 636م، فالمصالح تغلب الأصل أحياناً.

(1) انظر: فيليب حتي وآخرون- تاريخ العرب- دار الكشاف- بيروت- 2007.

في المشهد الأخير يبدو أنه منذ سقوط بابل حتى ألف عام وأكثر، لم يكن المشرق سوى تابع، فلا رافعة حضارية ووجودية بالمعنى السياسي له.

حاولت تدمر أن تجعل نفسها هذه الرافعة للانبعاث المشرقي؛ لكن رياح الآخرين كانت عاصفة أدت إلى تفرغ المشرق وجعله تابعاً طوأل هذه الحقبة وصولاً إلى دخول الجيش الإسلامي دولةً وكتاباً، ديناً ودولةً، نحو التعريب فالأسلمة.

لم يعد المشرق إلى حضارته السابقة، مع الإسهامات المشرقية السريانية والأموية والعباسية والأندلسية، والمعطى هنا اختلاف البيئة الطبيعية، ومن ثمّ الاجتماعية بين ثقافة صحراوية وثقافة مدنية زراعية رعوية منسجمة ومتداخلة في فعل حضاري واحد.

هنا قال السيف كلمته ولم يكتب التفاعل جملة كما ينبغي أن تكون حروفه.

قلنا: الأصل واحد؛ لكنّ البيئة مختلفة حدّ التناقض الجذري، فليست الحالة العرقية

مهمة بقدر ما للاجتماع البشري الحضور الأكبر في تحديد شخصية المجتمعات.

مرّ على المشرق الذي حدّته الجغرافيا والديمغرافيا والمناخ والبيئة آلاف الأعوام حتى استطاع أن يعبر عن ذاته، إن صحّ هذا القول، فكلّ ما تراكم منذ سقوط بابل من معطيات إيجابية وسلبية فعلت فعلها، لا سيما في العصر الحديث، عصر الاتصالات والعولمة الرأسمالية التي تأخذ بالمجتمعات الإنسانية نحو فراغ جديد مع أهمية المنجز، وحيث يضرب المناخ بعرض حائط التقدم العلمي وصناعاته لتزيد الأعباء على البشرية وعلى الكوكب برمته، ربما سيقال يومئذ: كان المشرق.

الفن الوجه الآخر للدماغ |

فن المشرق . وجه الدماغ الآخر:

المقاربة هنا لفنون المشرق خاصةً وفنون الإنسانية عامةً، وهي مقاربةٌ أشبه بدمج المادة والروح في ثلاثية: الدماغ والعين واليد، فلا معطى فنياً خارج هذا الثالوث البيولوجي والفيزيولوجي والروحي. هذا الثالوث يخضع لإشراطات أقوى منه وفَقَ حيز الوجود الإنساني، حيثُ المناخ ومن ثمَّ البيئة الطبيعية؛ أي إمكانات هذه البيئة أولاً، ثم البيئة الاجتماعية التي تفرض جملة من تفاعلات متنوعة هي الأساس في خصوبة الفن. فليس بالإمكان ملامسة قيمة فنية دون النظر إلى السماء أيضاً، فوحدة الوجود (منشأ الفن) كانت تبصم بصمتها شاءت كائناتها أم أبت.

إنَّ الحوار الذي يدور بين عين حديثة وفن قديم (العلاقة المتحفية) يحتاجُ إلى جملة من المعالجات⁽¹⁾. أتذكرُ الآن مشاهدات لباحث بعين اللون يقول:

«في بخارى تجد آثار الصين في الألوان، فهناك يبدأ اللونان الأصفر والأزرق يتجاوران في البناء.

في المنطقة عندنا لا يوجد هذا التجاور، هناك تجاور ألوان أخرى. القضية قضية جو ومناخ وشمس؛ لذلك تلاحظ أنه حتى الأماكن التي فيها ضوء ساطع، الألوان التي تستعمل فيها هي الألوان الغامقة حتى تخفف من حدة الضوء، على عكس الأماكن التي تنعدم فيها الشمس، حيث نجد استخداماً للألوان الفاتحة. في أصفهان انعدم الجوار بين الأزرق والأصفر، هنا حضر الأزرق فقط».

ظنُّ الفن هنا وفق البيئة الطبيعية والسماء من جهة، وفي الميل الآخر، التفاعلات اللونية بين المجتمعات. فالنظر إلى الفنون في العمارة والنحت والتشكيل والرسوم الجدارية والنقوش والفخاريات والأختام وحتى الكتابة والرقص والغناء والموسيقا، تحتاج إلى مقارنة زمن نشوئها وفق وعي الزمان كما وعي المكان وجملة التأثيرات الطبيعية والإنسانية والسيكولوجية.

(1) ربما علينا أن نواكب نشوء الفن الدادائي في العصر الحديث مثلاً؛ لفهم المسوغات التي أدت إلى نشوءه بما يعني طفولة الفن والنظر بعين اللامحدود إلى الأشياء والتعبير عنها بكينونتها لا كما ألسناها رداءً عقلياً وتقليدياً يُخفي عريها.

السُّلْسُل:

ضمن حدود الأنسنة مع ثقافة الإنسان العاقل، منذ ما يقارب خمسين ألف عام، ستكون مقاربتنا، وقد أعدنا كائنات النياندرتال والهوموهاركتوس والهوموهابيليس إلى أزمتههم، فالطفرة العاقلة جدتنا الأولى، وضمن هذا المجال تحضر ثقافة الصيد والالتقاط كثافة الاستقرار والزراعة.

لم يقدم المشرق في مواقعه فناً كهفياً حتى الآن، فكهوف أوروبا في إسبانيا وفرنسا وغيرها قدّمت معطيات الفنون الأولى، والأفكار تتضارب في اعتبارها فنوناً أم رسائل لا تملك الحضور الفني مع تقنياتها المهمة آنذاك، وإجمالاً كلُّ فن صياد لا قَطُّ هو فنُّ كفايةٍ وفنُّ مصلحةٍ وجودية، ولا يمكنُ صرفُ النظر عن إمكاناته الفنية وتقنياته المبكرة.

لا مجال هنا لمقولات: «الفن للفن»، و«الفن الغائي» و«الفن الهادف»، أو سريرية الفنون القديمة في عصر البدء.

في رأينا «فن الكفاية» وُلد ملازماً للخوف وعدم أمان وليس للدين، ولو أنَّ الأول أدى إلى الثاني. المحيط القاسي بالبيئة والمناخ والكائنات دفع الإنسان العاقل الأول إلى تعبيرات فنية تحمي وجوده، فالصياد الداخل في غابةٍ ما أو في السافانا كان يختبر المكان من أجل الصيد. فإن خرج منها أو خطَّ بها على حجر في الطريق إشارةً منه أو رسمَ رسومات باهتة لعدة غزلان، كان يقول لأخيه الإنسان:

إن مررت فلا مانع من الدخول فالصيد وفير، لكنه إن خرج لاهثاً دون صيدٍ نقشَ بأصابع مرتجفة إشارات أو رسومات لغزال وبجانبه رسم أسداً أو حيواناً مفترساً، تحذيراً للدخول أنه ربما لا يخرج. ربما لا ينتمي هذا النشاط النفعي إلى الفن وعالمه، ولكن مع انعدام ثقافة الكتابة وحلول الثقافة الشفهية كان هذا الأمر أول رسالةٍ في التاريخ.⁽¹⁾

(1) في مماثلات فنية لفن الرسائل هذا ولكن بتطورات دماغية زمنية، سنجد بعد خمسين ألف عام تقريباً رسائل فنية كتابية، كرسائل تُقدم الغاية الفنية في معتقد أو شأن اجتماعي. معبد عين داره في الشمال السوري، وهو معبد آرامي وليس حثياً، هذا المعبد قدّم طبقات أقدام متسلسلة لدخول المذبح، تقول للدخول: بالقدم اليمنى إن سمحت. دون أي نقش يُذكر، ولكن بعد أكثر من ألف عام، نَحَتَ رجل تدمري تمثالاً مهيباً لأسد الربة اللات في تدمر، ونقش وأتقن نقشَ أسد يحضن أياً في مشهد عاطفي، ومن لم يفهم رمزية العمل له أن يقرأ أسفل التمثال بالأرامية: إن الربة اللات تُبارك من لا يسفك الدم في المعبد.

إنسان الكهوف في مواقع أوروبا كان يُمنّي النفس بصيد وفير، وهذا فن التمنيّ، وهو أن يجعل سهاماً مغروزة في بطن الضحية إن كان ثوراً أو أيلًا، فقال لنا: لا بأس، سوف أحصل على صيد وفير.

وبعد آلاف السنين تبدلت الحالة الإنسانية، مما دفع «رودان» مثلاً بعد إنهاء منحوتته «المفكر» إلى أن يصرخ فيه: «انطق».

فوظيفة الفن آنذاك لم تكن خلقَ البديل الرمزي للموضوع على الإطلاق من التمنيّ إلى الكفاية، ومال فكر ذلك الإنسان إلى أدواته القتالة، ربما صارت مدللته؛ فهي أساس بقائه واستمراريته.

«برونو فسكي» يتحدث عن «الأداة بكونها امتداد لليد البشرية، فهي أداة رؤية، اتحاد اليد مع العقل فرضَ المادة بذاتها عن طريق اليد؛ لهذا كانت مسيرة البشرية عبر العصور ليست سوى تحسين عمل اليد البشرية وصلقه»⁽¹⁾.

نعلم سببَ غزارة أبحاث تطور أدوات الصيد لدى المجتمعات القديمة في الدراسات الأثرية والتاريخية، فقد كان تطور الأداة في مواجهة الحياة مهماً لحفظ البقاء وليس لقتل الآخر، هذه قصة عقلية أخرى لها مقاربتها، حتى الحيوانات المصادة جُعِلت عظامها أدوات جديدةً أخرى، كمتواليه صناعات حربية.

في أوليات الفن لم يكن ثمة حضور اجتماعي أو ديني أو ما قبل الدين، فقد كان فن الكفاية التعبيرَ الأكبر لوصول الإنسان إلى الطمأنينة والسلام الوجودي.

هذا ما نظر إليه «أرنولد هاووزر» أيضاً من أن الفن كان وسيلة للحصول على الغذاء، والفن آنذاك لم يخرج عن واقعيته، ولن يحلم بالخروج بما أنه فن كفاية، حتى الصورة الملتقطة آنذاك كانت كالشيء المصوّر في آن واحد، فالوظيفة الفنية محصورةٌ بواقعية العيش؛ كفعل صيد الحيوان، لم تكن وظيفة الفن بديلاً رمزياً على الإطلاق.⁽²⁾

(1) برونو فسكي - ارتقاء الإنسان - مرجع سابق.

(2) أرنولد هاووزر - الفن والمجتمع عبر التاريخ - دار الوفاء - مصر - 2005.

لوهلة مرَّ شكْلُ الفزاعة في الحقول أمام أوراقي، سأقول: ليس بعد، فهذا ارتبط بمعالم الاستقرار والتملك والزراعة، فلم يكن الفن آنذاك في «خدمة الحياة تماماً» كما توقع «هاوزر»، لعله أقرب ما يكون إلى خدمة البقاء والاستمرار الوجودي لا أكثر.

السؤال هنا: هل يُعدُّ ما نحن فيه فناً؟ الجواب بالضرورة القصوى: نعم؛ ففي غياب الكلام ربما والكتابة بالتأكيد، نحن أمام فن كفاية لغاية الوجود واستمراريته، وبما أن التعبير كان فناً ولو بسداجة، ينضم براحة بال إلى منظومة الفنون الأولى.

وبازدياد الارتباط التجمعي للكيانات الإنسانية نحو القبيلة نشأت منظومات عمل وتفاعلات تربط بين المجموع، هذا الربط والارتباط نقل الفن إلى عالم السحر ما قبل الدين. الروح الأولى تحضر في الجد القديم، والتطور الاجتماعي يُحتم الترابط الاجتماعي في الروحية الواحدة، سنكون إذًا أمام قدسية من نوع آخر واعتبارية جديدة.

القدسية لروح الأسلاف والاعتبارية من فن الكفاية -الحيوان المصاد والمدلل- لبقاء الوجود. من هذا التناغم بين روحية الجماعة وضرورتها في الحياة والبقاء نشأ الدمج بين السحر والواقع المعاش.

المشهد الآن سوف يبدأ بفنٍّ في أطواره الأولى: أداة لأعمال السحر التي هي وسيلة لضمان البقاء، ثمَّ تحول هذا الفن إلى أداة يصطنعها «المذهب الحيوي» الذي يجعل لكل شيء روحاً؛ للتأثير على الأرواح الخيرة أو الشريرة، وهذا تصاعد زمنياً نحو تماثيل الآلهة ومن ينوب عنها في الأرض هم الملوك، هذا من جهة، لكن الشيء الآخر الأهم أنه قبل النقش والرسم والتصوير الفني حضرت المادة عنصراً حيوياً في الحالة العقلية.

حتى الحجارة غير المنحوتة كان يُعتقد أنَّ لها معنى رمزياً، فهي أماكن سكن الأرواح أو الكائنات العليا، وفيما بعد الآلهة. نفهم الآن قصة التواصلية الحضارية للحجر في القبور أو حجارة الحدود أو في أحجار السماء المقدسة.

هل ثمة إشارات إلى استمرارية ما لقدسية الحجر كما تلمسناها في «بيت إيلوي» بالديانة الشمسية فيما بعد، وكذلك في رمزية الحجر الأسود الكنعاني الأصل؟

والحق يقال: إنَّ الأنيما (الروح)، كانت تجول في دماغ الصيادين اللاقطين؛ «كل شيء يملك وعياً ومشاعر ويُشارك الجميع في ذلك؛ الحيوانات والنباتات، والظواهر الطبيعية،

كلهم في تواصلية وجودية، حتى تلك الصخرة في أعلى الهضبة لديها رغبات وحاجات؛ إذ ربما تغضب أو تفرح، وكذلك شجرة البلوط، والنبع وغير ذلك. كل شيء يحيا وفق مشيئة الوجود، كائنات مادية وغير مادية؛ كأرواح الموتى هي كائنات لطيفة أو مؤذية، وستكون فيما بعد ملائكة وشياطين وجنيات. (يوفال هراري - العاقل).

الأحجار قبل العمل عليها كانت تمتلك مجالها التعبيري الفني الذي يحمل معنى آخر أو عمقاً روحياً ما⁽¹⁾.

كانت المفاهيم الغريزية لدى الإنسان تتدفق إلى عقل الإنسان، وكان باستطاعة عقله الواعي الذي يتطور أن يحقق التكامل بينها وفق نمط نفسي متماسك⁽²⁾.

فنُّ الكفاية الذي تحدثنا عنه والذي سعى إلى طمأنينة الاستمرار والعيش باندماجه مع الطبيعة وإيقاعها جعلنا أمام فن طبيعي لا يُحمَل الصورة أو النقش أيَّ محمولات رمزية أو دلالية، وما تقوله الصورة هو الفن بحد ذاته دون تأويل أو لبس؛ لكنَّ البعدَ الروحي حضرَ في إحياءات للروح الحارسة للجماعة تتجلى بوضوحها الفني كلما اندمجت الجماعة بروحيتها الواحدة؛ لهذا لن نتعجب من أهمية الجمجمة في المكان أو رمزيتها في عقد على الصدر أو نقش يُسبب الطمأنينة. وربما كان نقشاً موحداً وموحداً لأفراد الجماعة.

قال «لوروا غوران»: لقد وصل إلينا دين العصر الحجري القديم بقمته التصويرية⁽³⁾. هذا حال الفن فيما سبق المجتمعات المختلطة بين صيد والتقاط وبديات استقرار في معسكرات مؤقتة مثلاً، لكنَّ مفاهيمنا، نحو بدايات الاستقرار، ستتقلب جداً؛ إذ تطورت أدواتنا مع بدء المحاصيل، وخزُّ المحاصيل قائمةً على طمأنينة الكفاية المرجوة.

تحرَّرَ الإنسان من عبودية الحيوان في اصطياده، واستنست الحيوانات، فأفسح المجال للفصل بين الحيوانات المفترسة والإنسان، كلُّ بحاله؛ فالسافانا سافانا، والحواضر الزراعية لحواضرها، وبقي السحر حاضراً حتى اكتمال الوعي الذهني، نجده في تلك الأقنعة الحجرية وربما الخشبية لروح السلف، وحضرت الجمجم في الأرواحية ذاتها، بل تفننا

(1) انظر: أنيلا يافي - دراسة: الرمز في الفنون البصرية - كتاب: الإنسان ورموزه - كارل غوستاف يونغ - دار منارات - عمان - 1987.

(2) كارل غوستاف يونغ - مقارنة العقل الباطن - المرجع السابق.

(3) أديان ما قبل التاريخ - أندريه لوروا غوران - المؤسسة الجامعية للدراسات - بيروت - 2006.

في جماجم حتى في قولبتها، ما يعني نواة عقيدة الانبعاث والحياة ضد الموت. لكن للفن أيضاً هنا عالمٌ آخر يحمل حدثه، فأغلق الباب بوجه المذهب الطبيعي ومذهب الكفاية، ولم تعد ثمة حاجة إلى التطابق مع الطبيعة.

لن ننظر إلى الموضوع كما هو، لا، ثمة ذهنية وعمليات دماغية تفرض دلالات رمزية جديدة على الموضوع، فلم يعد أمام الفن أن يعيد تكرار ذاته، والغاية بلوغ فكرة الشيء، ومفهومها، وجوهرها غير المرئي. وُلد الفن حالياً.

حضرت الرمزية إذاً، ليست متأخرة كعادتها، والمُعطى المُعاش والمناخي والبيئي وطمأنينة الكفاية نقلت الأجواء إلى حلمٍ آخر، لم يعد ثمة نسخ مطابق للموضوع، والأهم من كل هذا أنه حضر الإنسان بقوامه وحقيقته في الفن، كما بقي الحيوان المدلل حاضراً حضوراً استثنائياً كالثور مثلاً، وألحق فيما بعد بالسماء ليكون ثور الإله. معالم الاستقرار والزراعة، التي أسهبنا في الحديث عنها سابقاً، قلبت مفاهيم الجمال أيضاً.

الإشارة هنا أنها لا صلة لها بوظيفة الفن في تحقيق الجمال، ففي الحياة الإنسانية ووظيفة الفن ليست لتحقيق الجمال، بل لتحقيق شيءٍ قد يتجاوز الحياة بتناقضاتها مع الموت، فلا فنٌّ دون جدلٍ يُعبّر برزخ الموت والحياة، والنور والظلام، الحزن والفرح، الجدوى ونقيضها، الفراغ وملأه، الأثني والذكر، الأرض والسماء، الإله والإنسان، المقدس أيضاً والديني؛ لهذا القباحة أيضاً شيء من أشياء الفن، كشكل جمجمة مقولبة تضحك في سرّها لأنها مستمرة في الحياة.

شيء آخر يُعبّر عن مزاجية جديدة بين الفن وبواكير الرمزية الدينية في الظواهر الطبيعية، هو حين بدأ دمج الصورة بالرمز الطبيعي للتعبير عن إيمانٍ ما، إضافة إلى ثلاثية المعتقدات الأرضية في الثور والأم الولود والأرواحية، فحدث افتراق مهم لولادة الدين في الفن.

لوروا غوران رأيٌ في مسألة الديانة، على أنّها لا تقوم على الدين فقط؛ لكنها تستتبع موكباً من الوقائع الفيزيولوجية والنفسانية التي تخلق حقلاً عاطفياً لا يكون فيه للتفسير العقلي المكان الأول⁽¹⁾، مضى الأسلوب الفني، ومن الطبيعي بإخلاص إلى التجريدي مع

(1) المرجع السابق.

ملاسمات واقعية أحياناً، هذا يوازي تماماً حال الانتقال الثقافي في المعطى الأثروبولوجي من الصيد والالتقاط نحو الزراعة والاستقرار وولادة الملكية.

لم نعد ننسى أنهم بالزراعة سيطروا على الطبيعية وبالحال نفسه عبودية للمناخ والظواهر الطبيعية. السيطرة على الطبيعة عنت استقلالية الإنسان ومجتمعه عن الهرولة خلف طعامه، وربما استطاع مصافحة الطمأنينة أكثر من إنسان الصيد والالتقاط قلقاً. «جاك كوفان» يحكي عن ثورة الرموز في عصر الزراعة والاستقرار، كذلك «لوروا غوران».

ها نحن إذأمام لحظة البداية في عملية إنتاج فن بصيغة العقل، حيث استعصى عن الصور والأشكال بعلامات ورموز وتجريدات واختصارات وأنماط عامة وعلامات اصطلاحية. رُكبت الظواهر والتجارب المباشرة بالفكر والتفسير والتأكيد والمبالغة والتشويه والتحريف. العمل الفني لم يعد تمثيلاً لشيء مادي؛ بل أصبح تمثيلاً لفكرة.

وأصبح فارق التذكر لصالح الاستبصار، والعناصر الفكرية لا الحسية بدأت تفعل فعلها في خيال الفنان ضاربة عرض الحائط بالعناصر الحسية اللاعقلية، والصورة تحولت تدريجياً إلى لغة رمزية تتخذ شكلاً تمثيلاً.⁽¹⁾

الصيد اللاقط قبل ذلك وظف حواسه من أجل البقاء. يوم استقر بعد حين اتجهت حواسه إلى استيعاب الواقع الاستقراري الجديد، فطوّر الدماغ آليات تفاعلاته ليصبح فناً هذا العصر مفكراً ومتجرداً ليس محايداً بالضرورة.

مقابل ثنائية الفلسفة في الفكر والواقع، ظهر الفن ممتلكاً ثنائية الواقع والنموذج المبتكر له، هذا الجدل يشكل أساس فكرة الفن. وكما أن لكل شيء نقيضاً فإن إيقاع الجو الزراعي وثقافته في الثبات والاستقرار، فخلق فن ثابت إلى حد ما، ليس في التصاوير فحسب؛ بل في مجالات الفن كافة، وهذا ما تتوارثه الأجيال المزارعة جيلاً بعد جيل. سنراقب معايير الفن المعماري في تطوارته من البيت الدائري إلى البيت المستطيل تبعاً للتطور الاجتماعي، ثم تباعد البيوت والتحامها وتلاصقها ضمن أحياء تشكل قرى زراعية.

فهنا كهناك لا ينفصل المنجز الفني عن واقعه لكنه يملك خيارات غير مرئية عندما يريد. بعد كل هذا كأن الحقيقة تقول: لا شيء اسمه فن بقدر ما هناك فنانون.

(1) أرنولد هاوزر- مرجع سابق.

ما بعد العصر الزراعي منظومةً كاملة من المعايير والقيم تشكلت، فالمُلكية الزراعية أصبحت سلطة مدنية، والظواهر الطبيعية في بعدها الرمزي تجسدت وأصبح لها رموز تجريدية. تعمقَ تزاوجُ الفن والدين كرمى آلهة يجب ألا تغضب، تحضر التمثيلات الإلهية في المعابد، تماثيل تكاد تنطق لكنها تأكل وتشرب، وتستمتع وتغضب وتُسرَق وتُنقل إلى معابد مدن منتصرة.

التجريدية حاضرة كالواقعية، كذلك الفن المبالغ فيه؛ إذ كلما أخذت مملكة أو مدينة بأسباب القوة جاء فنُّها وفنانونها بتصفيق من نوع آخر.

حظيتُ المعابد والقصور بدلالتها الفني. الملكية الفردية خُتمتُ بأختام مسطحة وأسطوانية، كذلك المؤسسات، كل ختم يحمل قناعة حامله ونمط شخصيته وربما إيمانه. انفصلَ الفنُّ إلى ورشٍ تباع التماثيل قرب المعابد، كما حلَّقَ الفنانون خلف المجهول والمعلوم، ونشرة الأخبار حاضرة في مسلات الملوك المنتصرين، ولو شابتها المبالغات الساذجة.

أفلاطون فيلسوف الفضيلة لم يحترم الفنَّ كثيراً حين اتهمه بتزييف صورة الواقع وأنَّه يقوم على نماذج مشوهة، لكنَّ سقراط الأكثرَ عملية كان يمارس النحت ويعيش على مردود مبيعاته. أرسطو استبعدَ الفنانين بصمت.

«غومبرتش» لا ينظر إلى الفن بالتقدم والكفاءة الفنية، بل بمنظومة من الأفكار والحاجات والتصورات⁽¹⁾؛ لهذا جاءت معاني كلمة «نحّات» في اللغة المصرية «المُبقي على الحياة»؛ لهذا حين أدرك المصري القديم في تحنيطه جثة ملكه أنَّ الجسد يفنى والملامح لن تدوم، ابتكرَ القناعَ المُذهب وغيره لحفظ الملامح بمعدن نفيس.

مرَّ الفن بلحظة خديعة، كما مر بلحظات كاذبة، فها هم الملوك المشرقون بأعمال فنانهم الضخمة من مسلات وأنصاب ورسوم جدارية ومنحوتات يُظهرون كيف يدوس ملكهم على الأعداء القتلى، لكن لماذا يخلو المشهد من جندي آشوري مثلاً مقتول إلى جانب هذا الملك الآشوري؟ في الأمر دعاية، كما في الأمر تحذير حين تُوضَعُ خلفَ عرش الملك منحوتة أو رسم جداري يُظهر جماجم الأعداء المتراكمة فوق بعضها. قال الرسم: احذر! رسالة موجهة إلى الحاضرين دوماً.

(1) إي - ه - غومبرتش - قصة الفن - وزارة الثقافة السورية - 2012.

الآن وجهة نظر لفاتح المدرس، هذا الريادي في الفن:

«إذا كانت مهمة الفن هي تجميل العالم فهو عمل جيد، ولكن مفهوم الجمال يتغير من حقبة إلى أخرى، ففي العصر الآشوري وما قبله كان هنالك فن الرعب... الملك يضع حيوانات خرافية أمام باب قصره لإرهاب الشعب. مثلاً وجود حيوانين مجنحين لهما لحي طويلة مخيفة أمام باب قصر أو معبد يبيث الرعب في قلوب الناس، حتى الفنان نفسه مهما كان قديراً وينجز تمثالاً آشورياً كان يخاف منه»⁽¹⁾.

بوسعنا أن نقول الآن: إنَّ معالم هذا الرعب كامنة في نفس الملك الخائف هو أيضاً. وَفَقَ هذه الأسس الموجزة يمكننا تتبع حركة نشوء الفنِّ ومظاهره في المشرق منذ المكونات العاقلة الأولى إلى فتح المناخ لستارة الوجود الإنساني الفاعل.

المشرق العاقل ما قبل التاريخ -«فن الكفاية والمُعاش» - موجز فني:
«غومبرتش» حين قال: كلما ابتعدنا في التاريخ وجدنا أنَّ الأهداف التي يفترض أن يخدمها الفن أكثر تحديداً، ولكن أكثر غرابة أيضاً.⁽²⁾

التحديد هنا ينبع من الظرف المُعاش والأمان الوجودي المُرتجى، لكنَّ انعدام الطمأنينة يدفع إلى غرابية فنية تحاول إيجاد التوازن بين المادة والروح؛ لهذا امتلك الفنُّ حينها وجهاً بمرأتين: التعبير الطبيعي الواقعي، وفي الرؤيا الأخرى تجاوزاً للطبيعي في تحالف مع ما وراء الطبيعة، انحصر في أرضيات ودنيويات كالجد القديم، والمرأة الولود، والحيوان صاحب الحظ باحتلال عرش الفن، الثور أو الغزال.

لا مجال للبحث في كفاءات التقنية، فقد آن أوان التحالف بين الغامض والواضح لجلاء الصورة بما يكفي لاستمرارية الحياة وربما الفن.

هذا ما أشار إليه أيضاً «يان إيلينيك» بقوله: «الفن في مراحلهِ الأولى لم يكن ولا للحظة واحدة إلا تصويراً فوتوكوبياً بسيطاً للطبيعة، التعبير عن نموذج ما، متكرر وغالب بوحدة من مواصفاته المميزة هو قرار فني قديم في الثقافات القديمة»⁽³⁾.

(1) فاتح وأدونيس - حوار - دمشق - غاليري أتاسي - 2009.

(2) غومبرتش - مرجع سابق.

(3) يان إيلينيك - الفن عند الإنسان البدائي - دار الحصاد - دمشق - 1994.

لسنا في وارد الاتهام النقدي لمجريات الفن آنذاك، لكن البيئة الدماغية لم تفسح المجال أكثر لتعبيرات تجريدية أو رمزية وسواها، فالثبات قرين الاستقرار، ولا مجال للتعددية الفنية إذاً.

لا ننسى أنّ «العملَ الفني لا يقلُّ تفرداً عن أي كائن إنساني قائم على عدة مستويات أو أنماط من الوجود؛ كالوجود الفيزيائي، النفسي، الروحي، الاجتماعي والإنساني»⁽¹⁾. ولم نصل بعد إلى القول كما قيل في الموسيقى: بأئسة تموت لحظة عزفها.

يداً بيدٍ إذاً نحوَ مواقع المشرق ما قبل التاريخية والعاقلة سنتذكر القاعدة الجميلة لمجمل التطورات الفنية وَفَقَ أنساق الدماغ واليد والعين والبيئة الطبيعية.

في فن الكفاية كصنع أدوات العمل اليومي كالصيد والقطاف، سنقارب تطورات في تقنيات صنع الأداة، من الأدوات الساذجة من الصوان وربما الخشب الذي لا يُحفظ بعامل الزمن إلى تطورات في صنع أدوات ميكروليتية هندسية، وأصبحت أدوات مركبة ليست أحادية المادة.

وأداة صوانية بمقبض خشبي أو عظمي مثلاً لضرورات العيش الأمثل، وللحماية والصيد والعمل اليومي.

وبعد حين اختفى كلُّ هذا لصالح الجدوى أكثر. أدوات أكثر ملائمة لضروب العيش المتعددة.

المواد تنوع وفقاً لممكّنات البيئة الطبيعية وأحياناً حسب التفاعل مع الجوار أو تفاعلات ديمغرافية. مواقع الثقافة الزارزية شمال الرافدين قدمت أدوات مصنوعة من الحجر البركاني، السبج وكذلك الأوبسيديان. الألف العاشر ق.م قدّم أدوات مصنوعة من العظم وأدوات بازلتية ثقيلة من أجل الزراعة. شيئاً فشيئاً وُضِعَت قبضات عظمية لأدوات نُقِشَ على قبضاتها رموزٌ وإشاراتٌ وكذلك رؤوس غزلان وغيرها، ولا ننسى أدوات الزينة أيضاً من الخرز والصدف، وتلك الأواني الحجرية التي تحوي حزوزاً زخرفية.

في موقع زاوي شمسي شانيدار في الرافدي 10.000-6500 ق.م، الأدوات الصغيرة مصنوعة من العظم، نُقِشَ عليها حزوز وأشكال هندسية، وعُدَّت الأولى في تلك المنطقة.

(1) إيتيان سوريو- تقابل الفنون- وزارة الثقافة- سوريا- 1993.

نعثر أيضاً على أدوات من الأوبسيديان وأحجار الهيماتيت، والمغرة الحمراء التي لا بدّ منها في الطقوس.

في المربيط في سوريا ثمة دلائل على صقل الحجر، وهناك خرز من الحجر المصقول، قيل: هذي أولُ الدلائل على صقله، كذلك لا بدّ من العثور على أدوات لقطع الخشب. قلنا فن المعاش أيضاً.

في فلسطين، «الكبارا»، النطوفي، ها هي المناجل العظيمة تحلّ في الواقع، مناجل تنتهي على شكل رأس غزال، أشار إلى هذا موقع وادي فلاح.

في وادي الأردن موقع عين ملاحه النطوفي، فنحن أمام قرابة خمسين ألف قطعة بين أدوات زراعية كبيرة وحجرية صغيرة الحجم.

في سوريا موقع الجرف الأحمر 9500ق.م فيها أدوات من البازلت منقوش عليها وجوه حيوانية وخطوط مبهمة.

معظم المواقع المشرقية حوت ما يدل على التجمّل، والتجمّل فن قائم بحد ذاته، أدوات الزينة من خرز (حلق) من الصدف أو من الأسنان المثقوبة (أطواق وزخارف. وبالاتجاه نحو الثقافة الحلفية (الخلفية)، وتبعاً للتفاعلات مع بيئتين اجتماعية وطبيعية، أصبحنا نعثر على قلائد وأختام وأدوات زينة صنعت من الأحجار النادرة. ضرورات التطور هنا.

موقع «جرمو» الرافدي، نحو الألف السابع ق.م، كان سكانه يتجملون، يتزينون، ثمة خواتم، أساور من المرمر المزين أيضاً. الخرز، الإبر، القلادات، المخارز، كل هذا رافق يوميات الموقع آنذاك.⁽¹⁾

موقع زاوي جيمي الرافدي أظهر خرزة مصنوعة من النحاس قبل اعتماد العصر النحاسي بعد ثلاثة آلاف عام تقريباً؛ وبذا تمكن إنسان الزمن النطوفي والزراعي من السيطرة على مجمل حيوياته المعاشة بحركة اجتماعية ناشطة مشغلة بمنظومات تفاعلها مع واقع معاش وقاس. بعض تلك المجتمعات الأولى لم تفارق مغاورها كلياً، وبعضها التحق بالأرض المنبسطة بحذر، وكان ينبغي أن يُنشئ البيت.

في البدء شملت البيوت الدائرية والبيضوية معظم مواقع المشرق، فالتطورات الدماغية والوقائع لم تقدم سوى حال الدائرة. وفي الأبنية الدائرية تنعدم إلى حد ما ظاهرة التوسيع

(1) سلطان محسن- عصور ما قبل التاريخ - 2004. كذلك: زهير الصاحب- تاريخ الفن في بلاد الرافدين- 2019.

والتحديث؛ لهذا كان الانتقال تحت محرض الكثافة السكانية وازدياد عدد السكان إلى بيوت مستطيلة تمتلك خاصية التوسيع والتكبير.

البيوت المستطيلة تشير إلى علاقة البيئة الاجتماعية بالمكان، والحيوية البشرية تفرض حضورها هنا. ما قبل الألف العاشر ق.م لم يكن ثمة بيوت مستطيلة، ولكن بعد تلك الألفية نعث على بيوت دائرية، فهذا هو موقع خانجي داره الرافدي العائد إلى الألف السابع ق.م، يشتمل على بيوت مستطيلة ودائرية بُنيت بطريقة خاصة غير معروفة، حيث تناوبت فيها مداميك من الكلس واللبن ذي الأشكال المحدبة.

في وادي الأردن موقع عين الملاحه، بيوته مغروسة قليلاً في الأرض، أساساتها من حجر، والجدران من الطين القاسي ارتفاعه متر، السقف من الخشب والأرضية مرصوفة بالحجارة، فقد كان الشكل دائرياً.

موقع جرمو الرافدي في الألف السابع ق.م، فيه بيوت من طين وحجر، يبدو أنهم لم يعرفوا اللبن، السقوف أنشئت من الطين والقصب، وبيوت تميزت بدقة التنظيم، ثمة مدخل واحد تلتف حوله باحة مقسّمة إلى غرف.

موقع «علي كوش» الرافدي أيضاً، فيه بيوت كبيرة من طين وحجر. تل يونس قرب كركميش، يعود إلى نهاية الألف السادس ق.م، حوى بيوتاً دائرية مقببة شُبّهت بخلايا النحل، كانت هذه الظاهرة تميز الأبنية في الثقافة الحلفية.

موقع أم الدباغية في الرافدين، يعود إلى الألف السادس ق.م، فيه رسوم جدارية رُسِمَت بالألوان الحمراء خاصة، هذا الموقع منح دلالة على أقدم نموذج معروف للقوس في المشرق.

موقع سامراء يعود إلى 5300 ق.م، استعملت القوالب الخشبية أول مرة لتكييف اللبن وإشادة الجدران. وظهر القرميد المشوي في الثقافة الحلفية نحو 5500 ق.م.

في موقع المريط ثمة رسوم جدارية محاها الزمن منذ 8000 ق.م.

موقع أريحا في فلسطين فيه منشأة عمرانية معمارية مهمة في زمن زراعي، قرابة الألف الثامن قبل الميلاد. فيه بناء محاط بخندق محفور بالصخر بعمق 2,7م وعرض 3,2م، وسور حجري بطول 8م وعرض 3م وارتفاع 8,5م. والجدار يستند إلى برج حجري ضخم، بلغ

عرض قاعدته 10م وارتفاعه 8,5م، للصعود إلى قمة البرج ثمة درج يتكون من اثنتين وعشرين درجة.

وبالانتقال إلى تل المغزاليا في سفوح جبل سنجار في الرافدين ثمة منشآت دفاعية تظهر، يبدو أنها أول نظام حماية في تلك المنطقة يعود إلى 7000 ق.م تقريباً.

موقع «جعدة المغارة» في شمال سوريا على نهر الفرات، يعود إلى الألف التاسع ق.م، ثمة رسوم جدارية ريادية في المشرق.

ورسوم على جدار بيت بثلاثة ألوان: أبيض وأحمر وأسود، لا رمزية في الأشكال، فهي محض هندسة، كأننا أمام رقعة شطرنج تتقاطع فيها تلك الألوان.

الباحث «إيريك كوكونيو» يحكي عن البناء الدائري الذي بلغ قطره 7,5م. حوت ثلاثة جدران على رسوم، والاعتقاد هنا أن بيوت ذلك الزمن كانت مستطيلة، وهذا قد يدل على أن البناء كان مخصصاً لنشاطات عامة وليس خاصة.

ونحو الحقة العبيدية نجد قفزات تطويرية إنشائية ومعمارية، فيها هو معبد اريدو جنوب الرافدين العائد إلى ما يقارب 4500ق.م الذي شكّل بمخططه نموذجاً عاماً للمعابد الرافدية فيما بعد. والمعبد ثلاثي الأبعاد، ثمة صالة مستطيلة كبيرة في الوسط، والدراسات تشير إلى اعتبارها حرماً لممارسة الطقوس، في صدر الصالة ثمة محراب وصفان من الأبنية يحيطان بالحرم. وقد حدث تطور عمراني مهم هنا في الشأن الديني. «يوليوس ليبس» أشار إلى أن المجتمعات كلما استطاعت تكريس وقت أطول لتزيين مساكنها من الداخل والخارج.⁽¹⁾

سنؤكد الآن أن الكثافة السكانية في المواقع، واتساع الأبنية السكنية والتحامها ونشوء أحياء وشوارع، تمنح ظهوراً لقرى زراعية وبلدات اتجاهاً نحو تشكّل مدن موروثية فيما بعد. فن العمارة مرتبط ارتباطاً قوياً بحركية المجتمعات وحيويتها وتفاعلاتها الإيجابية والسلبية مع المحيط والبيئة. النحت لم ينبج من التطور أيضاً، هي قدرة الحياة في الفن وقدر الفن في الحياة.

(1) يوليوس ليبس - بدايات الثقافة الإنسانية - وزارة الثقافة - سوريا - 1988.

فن الكفاية حضر بقوة هنا، منحوتات حيوانية ثم إنسانية لا سيما المرأة الولود والخصيية. معظم مواقع الزراعة في المشرق تغزُر فيها التماثيل الحجرية والطينية. وها هو موقع المربيط يقدم منحوتات للأُم الولود بتقنيات روحية ركّزت على معالم الخصوبة عند الأنثى، وفي المقابل جاءت الفنون النطوفية الأولى من فلسطين، فيها منحوتات حيوانية من الطين والحجر ومصنوعة من قرن الغزال.

المشاهد واقعيةٌ هنا؛ لكن في بعضها إحياءات مختزلة وبمبسطة. وقدم موقع الواد رأساً بشرياً منحوتاً على لوحة حجرية مال إلى البساطة أكثر.⁽¹⁾

موقع عين صخري في فلسطين أيضاً، قدّم منحوتة بدلالات جنسية بين الذكر والأنثى. وموقع المربيط تماثله الحجرية النسائية بسيطة الإتقان والمشهد، غير واقعية على نحو خاص. التركيز كعادة الخصوبة الزراعية على الصدر والفخذين والورك.

وانتقالاً نحو الجنوب حول دمشق هناك تل أسود وتل الغريفة في الغوطة فيها منحوتات نسائية من الطين المشوي، وتماثيل صغيرة لحيوانات، وهي في تطور مهم.

السوية الرابعة من المربيط أظهرت لنا أشكالاً تمثل الرجال أول مرة، وثمة قرط من الحجر على شكل رأس ملتج، في أريحا أيضاً ثمة دمية رجل ملتج.

في تل الرماد تماثيل نسائية تعود تقريباً إلى 6000 ق.م، بعضها رافق الجماجم المخصصة. أول تماثيل واقعي تقريباً نعثر عليه في بقرص على الفرات الأوسط، وتمثال طيني لامرأة تجلس القرفصاء، العيون منزلة بما منح الوجه الحالة الواقعية تقريباً.

كذلك في الرافدين موقع جانجي داره، يشمل دمي إنسانية نسائية تمتلك الخواص الفنية للمرأة الولود والخصيية، كذلك موقع أم الدباغية يعود إلى الألف السادس ق.م. واتجاهاً نحو الألف الرابع تقدم لنا المواقع العبيدية إضافةً إلى مواضيع الأختام ذات الزخارف الهندسية، وصور حيوانية أول مرة، إضافة إلى تطورات في تقنيات الدمى البشرية الطينية والحجرية.

(1) محسن - مرجع سابق.

الفن حين يعتقد:

ضرورات الأنسنة، كما أسلفنا، معتقد، فن ونطق. دمجُ المعتقد بالفن أو العكس سوف يضعنا وجهاً لوجه مع ظاهرة فنية تركيبية وتجميلية وانبعاثية ترتبط بمجمل التصورات الذهنية الاجتماعية في صدمتها الوجودية بالموت.

قلنا: فصلُ الرأس عن الجسد، ودفن الجمجمة تحت أرضيات البيت كطقس أرواحي يخص الجد القديم المتواصل حضوراً.

يبدو أنه لم يعد يكفي أن تفصل رأساً عن جسد وتدفن وتحل روحية الجماعة بالطمأنينة من ذاك الجد القديم.

كان لا بد من اللعب على الموت بالفن.

الجماجم المقولبة مع نهاية الألف الثامن ق.م، ولمدة ألف عام، ظاهرة فنية معتقدية جدية بالتأمل.⁽¹⁾

(1) تدل الأبحاث العلمية والميدانية الأثرولوجية على وجود جماعات بدائية، حتى الآن تعيش منعزلة في أماكن عدة من المعمورة، لا سيما في إفريقيا وأستراليا والأكيمو، وما زالت تمارس الأرواحية التي مرت بها المجتمعات الإنسانية في أطوارها الأولى. وقد بينت هذه الدراسات أنَّ سكان هذه الأماكن يعتقدون أنَّ الأجداد يستمرون بالتدخل في حياة الجماعة، بل يظهرون موافقتهم أو عدمها عبر مدلولات طبيعية؛ لأنهم ما زالوا جزءاً من الطبيعة وخاصة من خواصها، ولعل الأحلام عند هؤلاء تؤدي دوراً مهماً في ربط عالم الأموات بعالم الأحياء. ويبدو أنَّ عبادة الأجداد تنزع فيما تنزع إليه إلى تمتين أواصر اللحمة بين الجماعة واستمرارية تقاليدها وأخلاقها التي صاغها الأجداد، وبذا توضح ظاهرة المعتقد هنا بأنها ظاهرة اجتماعية بحثة أوجبتها ظروف الصراع في الحياة من أجل البقاء.

فحسب اعتقاد تلك الجماعات إنَّ الجدَّ المدفون يجعل الأرض خصبة إذا عرفوا كيف يكسبون عطفه؛ لهذا فإذا أرادت جماعة ما أن تهاجر فينبغي أن تحمل جماجم أجدادها معها، فالأجداد إذا هم جزء من المجتمع الإنساني الحي، وعلى حد قول فرويليش إنَّ عبادة الأجداد هي عقدة من سلسلة طويلة اسمها الزمن؛ لهذا فإنَّ معرفة الأنساب والحفاظ عليها لها فائدة كبرى في المجال الاجتماعي، حيث تمتن الأواصر الاجتماعية بقيادة الأجداد، إذاً هي ظاهرة قبلية بامتياز. فالأجداد هم ضامنو النسب للقبيلة وعبادتهم تضمن استمرارية التقاليد والأخلاق الاجتماعية بين أفراد الجماعة، كما أنَّ هذه العادة تؤدي إلى توازن في المستوى النفسي الجمعي بين عالم الأحياء وعالم الأموات بما يضمن استمرارية دورة الحياة للأجداد واستمرارية حياة الأموات في وجود الجماعة، وهذا ما يطلق عليه تعبير الأخلاق النفعية. ويختصر أحد شيوخ القبائل التي درست عبادة الأجداد بقوله: «إن الأموات يعيشون بقدر ما نفكر بهم وعلينا أن نطيعهم».

ويشار أيضاً في هذا المجال إلى وجود ظاهرة أخرى هي ظاهرة الأفتعة التي عُثرَ عليها في موقع وادي حمار، فإنَّ هذه الأفتعة توحى بتظاهرات ذات طابع جمعي شعبي، حيث كان القناع يصمم لكي يضعه أحد الأشخاص رمزاً أرواحياً، وتقام طقوس وشعائر ربما في عيد الأموات. ويشير جاك كوفان إلى أنه ربما يحمل دلالات خصبية كانت الأفتعة تثقب بثقوب دائرية، أما الأنف فعبارة عن نتوء قليل البروز والشم نصف مفتوح، وثمة ألوان بالأحمر

«غومبرتش» يظنُّ أنَّ قصة الفن ليست قصة التقدم في الكفاءة الفنية بقدر ما هي تغير الأفكار والحاجات والتصورات.

قراية 7500ق.م المكان موقع أريحا في فلسطين فيه بيت عُثِرَ فيه على جمجمتين مكسوتين بالطين الأملس الجصي، وحُفِظَت ملامح الوجه إلى حد ما بتقنية فنية، وقد صُبِغَ الوجه بلون بني فاتح كلون البشرة، والعيون نُزِلَتْ بصدف أو قواقع.

إحدى الجماجم وبالمغرة الحمراء، تم تشكيل خطوط بنية متلاحقة على رأس الجمجمة، وجمجمة بلا شعر لا تبعث على الحياة.

وقدمَ موقع بيسامون مثل هذا الفن الاعتقادي أيضاً. وفي سوريا قدّم موقع تل الرماد اثنتي عشرة جمجمة تشابه شقيقاتها في فلسطين.

قدرة الفن على الإحياء توقفت هنا في سعي إلى اتزان الروح الحارسة عند الجد القديم موحد الجماعة عبر الزمن.

ثم ماذا؟

كان على الفن أن يرافق التجارة في طريقها، والتجارة حساب والحساب جرد وأشياء أخرى، وبالعودة إلى منحوتات الجرف الأحمر التي تُدكَّر بالرسوم الواقعية والصور الرمزية التي تشير إلى الأشياء، ثمة في الكتابة الأولى بعد خمسة آلاف عام تقريباً شيء يُدكَّر بهذه النقوش.

فحين تاجر المزارعون المُخزّنون سعوا إلى تسهيل التبادل السلعي، وابتكرَ نظامُ جرد حسابي رمزي تقريباً منذ 8000 ق.م.

ذكرنا سابقاً قصة الفيش في الطريق نحو منجز الكتابة، عودة إليها قليلاً:

فيش ذات حفر وتجاويف وأخاديد تطورت رموزها وإشارات ما أدى إلى وعي نوعية المرموز إليه من بضائع وحيوانات.

والأخضر تشكل خطوطاً مشّعة من المركز تجاه محيط الوجه، وتحمل هذه الأتعة على طرفها صفاً من الثقوب لتثبيتها مع وجود آثار حمر تدل على استخدام مادة لاصقة لشعر مستعار. ويشير كوفان، إلى أنَّ هذا الطقس إنما يعبر عن أصل المسرح المقدس في المشرق القديم، ويعتقد أنه ربما يعود إلى عصور أقدم بكثير من زمنه. (جالك كوفان)- الألوهية والزراعة.

عُلفت الفيش فيما بعد بمغلفات طينية، نجدها في مخلفات موقع أوروك وحبوبة كبيرة الرافدين وسوريا.

وحلّت البصمات على الجدار الطيني للمغلف لتمييز محتويات الأغلفة. التطور نحو الكتابة التصويرية أخذ وقته قرابة خمسة آلاف عام؛ هكذا عبرت الكتابة من الفن بالتجارة نحو الاكتمال. هو الفن حين كتبَ أخيراً.⁽¹⁾
«الصور والحروف يجمعها نسب واحد في الواقع».⁽²⁾

تأملات في فنون ما قبل المدينة:

السذاجة التعبيرية الأولية في المنحوتات النسائية التي اختصت بالأم الولود والخصية، ينبغي الوقوف عليها قليلاً.

فمقابل التمثيلات الحيوانية الطبيعية والواقعية إلى حد ما صُوِّرت الأنثى بتحميل التفصيل شيئاً من قول.

لم تظهر النقوش الحيوانية تعبيراً عن فكرة ما. هنا أمام النقوش النسائية يفهمنا الفنان ما يريد قوله، سنقرأ تلك التصاوير لفهم أن الفنان يريد أن يقول: هذه السيدة التي تمتلك صفة وسر الخلق عمدت إلى تضخيم عناصرها الجسدية الأنثوية الإيحائية التي تُقدم حياة تبدأ من السر الأكبر إلى ديمومتها، من الفخذين والورك الكبير القادر على احتضان جنين سيأتي، ومن ثم إرضاعه حتى يشب ويقفز إلى الحياة الزراعية.

والعنصر البشري مهم في الحياة الزراعية؛ فإلى الآن لم تكن ثمة أفضلية لذكر على أنثى، الكل في دائرة البذر والحصاد.

التمثيلات الأولى للأنثى الولود جرى وصفها في الدراسات ذات الصلة بأنها Venus، هنا ليس بعد.

(1) ها هي الرموز التصويرية تصبح رموزاً مجردة شيئاً فشيئاً لنقول: إن الصورة كانت أمي. والإشارة هنا إلى أنه باختراع الكتابة تصاعد الفن التجريدي حيث لم تعد الصورة أداة تعبيرية أو رسالة. فقد حلت الكتابة وصار بإمكان الفن أن يتجه لفنّه.

(2) غومبرتس - مرجع سابق.

تلك حالة أولية من الاستقرار والكفاية التي تستوجب صياغتها بالخصوبة الإنجابية لا أكثر.

عشتار فيما بعد كانت أكثر حضوراً كإلهة جنس وحب، وبعد أن تشدّبت الحالة الإنسانية، صار الجمال حضوراً بحد ذاته وتراجعت الأم الولود إلى مقعد خلفي.

وجرى هذا مع بداية نشوء المدن وظهور السلطة الذكورية، حيث عوضت المرأة عن تراجعها بالحضور الجمالي تعويضاً وجودياً لها وتعبيراً أيضاً.

أنسنة الفن هنا ظهرت بالأم الولود وتصوراتها، لكن الجمالية حضرت فيما بعد، فالجمالية الأولى كانت تنتمي إلى صياغة الخلق والوجود واستمراريته لا أكثر.

إلى جوار المشرق قليلاً نحو الشمال فالنقوش التخطيطية الضخمة والبارزة في موقع شاتال هيوك في الأناضول على جدران المعابد البيئية.

آلهة ولود تباعد ذراعيها وفخذيها لتنجب ثيراناً. ثنائية روحية في المعتقدات الأولى سترافقنا إلى العصور التاريخية بأشكال وتمثيلات أكثر تطوراً.

«جيمس ميلارت» يقف هنا ليصف كيف تسود ربة الحياة على الموت.⁽¹⁾

«جاك كوفان» يصف هذه المنظومة الرمزية في المشرق، فمواقع منطقة الفرات قدمت التآليفين الأنثى/ الثور، لكن المشرق الجنوبي لم يحن وقت تمثيلاته الحيوانية بعد.

في البعد النفساني التاريخي لمجتمعات الزراعة نقارب منذ الألف العاشر ق.م، كائنين أعلىين، المرأة الولود والثور، آلهة يرافقها قرين مذكر (الثور)، نحن هنا أمام مركز القبة لنظام ميثولوجي كامل يقارب التدين قليلاً.

وثمة صدع حاصل إذاً في قلب الخيال البشري بين أعلى وأدنى، وبين نظام للقوة الإلهية المشخصنة المسيطرة، ونظام «لبشرية يومية»⁽²⁾.

(1) جاك كوفان - مرجع سابق.

(2) كوفان - مرجع سابق.

يصف كوفان، هنا ثورة للرموز اقترنت مع إنتاج المعيشة، فالألم والموت انبثقا منذ ذلك الحين، وتلك الأم الرهيبة التي نحملها في الطبقات العميقة من لا وعينا. الثور القرين للأم الولود، سوف يستحيل مع العصور التاريخية إلى ثور الإله بعد تراجع دور الأم الكبرى إلى الخلف.

قلنا سابقاً: إنَّ الدين ظهر مع الزراعة لا أقل ولا أكثر، ومنذ هذا التأسيس الميثولوجي الأول المقترن بالمعيشة والكفاية مشمولاً بالفن الطبيعي فالتعبيري، مضى المشرق نحو العصور التاريخية، حيث كتابته ومدنه ومجمل تطوراته التي أُسِّست هنا في عالم الزراعة وتنويعاته.

فن المدينة:

بالمضي نحو المدن الأولى، نجد ثمة قرى كبيرة وبلدات زراعية تحولت إلى مدن موروثية، هضمت ثقافة العيش الزراعي وعبرت عن وجودها المدني. هناك مفاهيم تغيرت، وتصورات جديدة حضرت، والفن شمله متغيرات الواقع الجديد. تطور مفهوم السلطة بأفئوميتها المعبدي والزمني.

سنتصور بدايةً سلطة المعبد وفنها المعبدي، بعد حين سنجد ترافق السلطتين: المعبد والقصر، واندماج سلطتين في فن واحد، سوف تختلط التصاوير والأعمال بين ملك وكاهن؛ فملك استمد السلطة من الإله لم يرافقه الثور قريباً، لكنه يحيط القصر بتمثيل الأسد المرعبة، فهو أسد الإله وممثله على الأرض.

وبانفصال القصر عن المعبد صار الفن دينياً في المعبد، وفن السلطة في القصر، ومع هذا أمكنت السيطرة بمقدرة عالية على المادة الخام لجهة الفن، وحصلت هذه الغزارة في النحت والعمارة والرسوم الجدارية والأختام، ترافق كلَّ هذا مع الموسيقى والرقص والغناء تلك الفنون التي أسهمت في تشكل الثقافة المشرقية على ما يرام.

قلنا: مدن موروثية، لكن في الجانب الآخر حقيقة تفرض نفسها هي إنشاء مدن مؤسَّسة، لم تتطور من قرى أو بلدات. هنا المقدرة الإنشائية والفنية تُعبّر عن ألقها.

فعند الفرات الأوسط تتشكل مدينة ماربي وفق مخطط مسبق، والمخطط المسبق يعني ذهنية فنية تمتلك التصور والمخيلة، يعني كذلك هضم البيئة والجغرافيا وجملة التفاعلات بالأنبوب النهري، أساس تلك الحضارة.

مدينةٌ تعود إلى أوائل الألف الثالث ق.م، مخططها دائري، ما الذي يمنع أن تُبنى على مخطط مربع مثلاً؟ في الدائرة سرٌّ إذًا، سنجده في الزخارف الحلقية التي تحوي دوائر ضمنها رموز رباعية حول مركز.

الطابع النفسي العميق في فن الإنشاء كان حاضراً، لم يُفكّر به؛ لكنه عبّر عن نفسه بدائرة الوجود «ماندالا»، ودائرة النفس الكلية التي تتفاعل ضمنها وفق حركة الرمز الرباعي «السواستيكا» حول المركز.

هكذا بُنيت المدينة بقدرة نفسية وعلمية وفنية، فدفع منقبتها «جان كلود مارجرون» إلى القول:

«عُمرت ماري وفق مخطط وتنظيم هادفين، يشهد على ذلك منشآتها المائية وآثار السور الذي يحيط بها. إنَّ منظرَ المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد يدلُّ على تفكير منطقي متجانس» (د. بشار خليف - 2018).⁽¹⁾

إذاً، فن إنشاء المدينة في المشرق حضر بقوة مستوعباً خواصه النفسية والجغرافية والتجارية والمعيشية.

واتجاهاً نحو عالم النحت مع معالم نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، نكون إزاء معطى سبق مرحلة تشكل المدن الأولى، لم يكن فن النحت ليتجاوز صنع التعاويذ والرقى، دمي طينية منذ عصر العبيد سوف نعثر عليها في موقع مدينتي أور وأوروك.

تلك التعاويذ أخذت أشكالاً نسائية ورجالية بعد أن نُزعت الصفات الطبيعية الواقعية منها.

بعض الدراسات تشير إلى أنّ مثل هذه الدمي ليست فناً؛ بل حرفاً يدوية، كصناعة الأواني الفخارية⁽²⁾.

ولا نجاري تلك الدراسات في اعتقادها، فحتى الحرف اليدوية هي فنٌ وحالة فنية بصرف النظر عن الغائية منها.

الإشارات الأولى إلى ظهور فن النحت الحقيقي على الحجر تؤرخه السوية الرابعة من أوروك، ونحن نعلم أنّ الثقل الحضاري المشرقي بدأ في الجنوب الرافدي منذ منتصف الألف الرابع ق.م.

(1) لاستزادة أكثر هناك بحث مهم لأنيبلا يافي بعنوان: «الرمز في الفنون البصرية» جدير بالقراءة.

انظر: الإنسان ورموزه - مرجع سابق.

(2) انطون مورتكات - فنون سومر واكاد - العربي - دمشق - 1988.

يبدو أنّ التماثيل الأولى التي عثر عليها تحت بلاط أحد المعابد الأوروكية أوحى بذلك دون إمكان مقاربتها بسبب تهشيمها، لكنّ مشاهدًا على أختام أسطوانية تُظهر أسرى حرب آخذين وضعية القرفصاء، تجعلنا نلامس أحوال التماثيل والمنحوتات الأولى التي تُظهر لنا أنّ الواقعية حكمت مسيرة هذا الفن برفقة التجريد.

وثمة منحوتة تعود إلى أوائل الألف الثالث ق.م لامرأة عارية من أوروك، يظهر فيها ثديا المرأة أقرب ما يكونا إلى الواقع، لعلنا أمام نواة المذهب الواقعي في جماليات المشهد.

الفنان المشرقي آنذاك امتلك القدرة على معالجة الأمور المادية والروحية على الحجر. وإنّ تطور تقنيات النحت سنجدها مع الصعود الحضاري الزمني للمدن الأولى، وشيئاً فشيئاً سنكون أمام أعمال تشكل صوراً مطابقة للحياة، حتى صار بالإمكان تمييز منحوتة لكاهن من منحوتة ملك أو قائد عسكري.

وتمتلك معظم المنحوتات قوة الحياة الخفية الدافعة؛ ومن ثمّ سيدفع قدماً إلى نسيان التشكيلات الرمزية والتجريدية السابقة.

فالآلهة زودت رؤوس تماثيلها بقرون الألوهية.⁽¹⁾

ما يقدمه فن النحت في الطور الأول لظهوره هو تلك الوحدة العضوية المتكاملة على كافة الأصعدة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والفكرية والفنية، الدنيوي والمقدس متحالفاً في حجر واحد، واقع مادي ملموس وفكري تجريدي بالمطلق.⁽²⁾

الدراسات ذات الصلة بالنحت المشرقي ترى أنّ فنّ النحت في الألف الرابع ق.م، كان تكعيبياً هندسياً، وفي الألف الثالث ق.م غداً أخذاً بالمنحى الواقعي؛ فالفنان صار يجتهد لرسم واقع منظور يحاكي الحياة مع مميزات فردية وشخصية لشخصه؛ وبهذا تم الانطلاق من التجريد إلى التصويرية، حتى أصبحنا أمام تماثيل لأفراد عائلة واحدة، ولكن لكل منها شخصيته وملامحه التي تميزه من الآخر كالواقع.

الزمن أحياناً لا يتبع الخط التطوري نفسه في الفن. فقد لاحظ «أندريه بارو» أنّ تماثيل الألف الأول ق.م كان من المستحيل تمييزها من بعضها، فتمثال شاروكين لا يختلف عن

(1) نحن نعلم أنّ الاسكندر بعد حوالي 3000 سنة سوف يسمى الاسكندر ذو القرنين، ومال إلى تأليه نفسه.

(2) مورتكات - مرجع سابق.

تمثال سنحاريب أو آشور ناصر بعل عن غيره، في حين أن منحوتات الألف الثالث ق.م، تميزت بدقة الملامح وتميزها وتمايزها بين الشخصوص كما حال الواقع.⁽¹⁾

ففي الألف الثالث ق.م شمل فن النحت مجمل المدن والممالك المشرقية القائمة، المنحوتات في ماري في الألف الثالث ق.م استمدت روحيتها وتفصيلها من المنجز الفني الرافدي في الجنوب، وطبيعة الحركة التجارية شكلت رافعة لتفاعل فني خصب.

وفي الألف الثاني ق.م سوف نقارب فناً ماريّاً قائماً بحد ذاته مستنداً إلى الموروث المشرقي، كذلك في إبلا ومدن أخرى الخصوصية الفنية فيها بدأت ضمن خط الفن المشرقي.

التراكم الفني منذ نشوء المدن أدى إلى تحول نوعي للنحت واستعماله وغاياته في المجتمعات المشرقية.

وفي منتصف الألف الثالث ق.م نجد الكثافة والغزارة في صنع التماثيل بأنواعها لا سيما التماثيل الفردية للمتعبدين.

وفي ماري مثلاً كانت تماثيل الملوك وكبار الكهنة توضع في المعابد نذراً للآلهة، المعطيات تشير هنا إلى وجود مشاغل في ماري تقوم بصناعة التماثيل، لا سيما اللا شخصية، حيث تباع للحكام والكهنة لوضعها في المعابد.

والتماثيل الرجالية أغزر من التماثيل النسائية، على خلاف ما كان في بداية الألف الثالث ق.م؛ إذ كثرت التماثيل النسائية.

التقنية نتلمسها في تحرير الفنان جسم التمثال من الكتلة الحجرية فيؤدي ذلك إلى إظهار الذراعين والساقين والرأس مع الاحتفاظ بتوازن التمثال.

تمكن الفنان من الشغل في الحجر مُظهرًا الفواصل بين أعضاء الجسم البشري ذات الشكل المنتظم وكذلك المحيط الخارجي للجسم كاملاً.

(1) أندريه بارو- سومر- بغداد- 1977.

الدكتور أبو عساف يحكي عن ظاهرة حصر العمل ضمن إطار هندسي، تلك التي شغلت بالباحثين الذين رأوا فيها مقاربة بين النحت في الحجر والقطع في الخشب وسكب المعدن وطرقه.⁽¹⁾

التعبيرية والواقعية في أدق حالاتها نجدُها في تمثال الملك ادريمي ملك الالاح العائد إلى منتصف الألف الثاني ق.م، حيث ملامح الوجه مفعمة بالقهر، وهيئة جلوسه نمطها هزيلٌ، استطاع الفنان أن يوصلها بدقة مثلما أوصلته كتابات التمثال من مأس.

في فنِّ العمران الديني انتقلت صفات المعابد الأولى ومخططها إلى العصور اللاحقة. في أوروک نقارب أولى المعابد: معبد إنانا ومعبد انكي، والزقورات نشأت بإعادة إشادة المعبد على أنقاض أسلافه حتى أصبح معبداً عالياً هياً لنشوء الزقورات، خصوصاً في المناطق السهلة، والغاية منها الوصولُ إلى الإله في السماء.

تكريس العلو الإلهي عمرانياً.

السوية الخامسة في أوروک قدمت معبد الحجارة الكلسية القائم على مبدأ التناظر الحاد، الأساس مستطيل الشكل، زواياه الأربع تماثل الاتجاهات السماوية الرئيسة. جدران حوت زخارف على شكل محاريب منتظمة.

لم يستمر هذا النمط العمراني في الجنوب الرافدي بالحجارة، فهذا الأسلوب لا يلاءم طبيعة التكوين الذاتي لهذا النمط من العمران، وليس بالإمكان دوماً أن نقارب تطورات مع الزمن لجهة فنِّ ما، فها هو فن بناء المعبد يشهد بعد انبثاقه الأول القوي مدة من فقد التوازن الداخلي والخارجي، حتى بدأ أن معابد ما قبل المدة بين 2700 و2550 ق.م، لم تعد تخضع لأي قاعدة من قواعد البناء الأصلية والأساسية، وحلت الفوضى الفنية العمرانية الدينية. هذه المدة عانت فنون المشرق الانحطاط، وشمل هذا حتى فن النقش على الأختام بأنواعها الأسطوانية والمسطحة.

لا يمكننا في هذه المقدمة في تاريخ الفن المشرقي أن نتناول تفاصيل كلِّ معالم التطورات، على أن نمناها الدراسة الكافية في مؤلف خاص بها، ولكن بالمُعطى الفني

(1) علي أبو عساف- نشوء الممالك القديمة في سوريا- 1993. وآثار الممالك القديمة في سوريا- 1988. وبنار خليف- 2018.

العام، والتأسيس الفني المشرقي استمر معبراً عن الحياة المشرقية وذهنيتها واستطاع مواكبة الحرب والسلام، كالنور والظلام.

في فلسفة الفن المشرقي ينظر أندريه مالرو إلى أن الفن المشرقي لم يكن يعي ذاته فناً، وأن تأثيره ينبع من قوة شبه سماوية تخص الفنان وحده؛ أي رسم ما لا تراه بالضرورة عيناً الفرد المرتبط بالأرض.⁽¹⁾

تأثير الديمغرافيا في الفنون تظهر جليةً في مطلع الألف الثاني ق.م؛ حين التشكل الديمغرافي الأموري/ الكنعاني على مدى المشرق، مع تراجع التأثير والأثر الرافدي الجنوبي (السومري).

«هنري فرانكفورت» يعترف بعدم القدرة على تمييز فن الألف الثاني ق.م من الفن الذي سبقه قليلاً، ففنُّ بابل مثلاً لا يفترق عن فن ايسن ولارسا السابق له، وما قدّم يد المساعدة هنا هو الكتابات التي أعانت على تحديد تاريخ العمل الفني بدقة.

لعل ما يميز فن الألف الثاني ق.م، كما تبدى من فنون بابل، أن التنظيم الشكلي الصارم ارتبط باقتصاد مرن، وأقرب إلى الطابع الحضري، وهذا ما ميز مختلف المواقع المشرقية آنذاك. يبدو أنه بأنواع الحكم المطلق والأشد صرامة، والروح الدينية الأشد تزمناً -بما لا يُقاس عن أحوال الألف الثالث ق.م- قد أخضعت الفن للبلاط والمعبد، وحسب رأي «هاوزر» لم يكن ثمة تأثير في ممارسة الفن خارج إطار الحاكم والكهنة.⁽²⁾

شيء آخر: النزعة العقلانية التجريدية كانت حاضرة في الفن المشرقي في الألف الثاني ق.م. لم يكن الأمر يقتصر على عرض الهيئة البشرية عن طريق الالتزام الدقيق لمبدأ المواجهة، حيث يُدار الرأس لإظهار المنظر الجانبي، بل إن الأجزاء المميزة للوجه، وهي الأنف والعين، تكبر إلى حد بعيد، في حين تصغر جداً السمات الأقل أهمية كالجبهة والذقن.⁽³⁾

(1) أندريه بارو- مرجع سابق.

(2) أرنولد هاوزر- الفن والمجتمع عبر التاريخ- 2005.

(3) المرجع السابق.

في الألف الثاني ق.م نجد في منحى الرسوم الجدارية في المشرق دمجاً مع الإرث الفني للألف الثالث ق.م، ففي هذا العصر المذهب الطبيعي واضح في المفهوم الأموري للفن على نحوٍ عام.

فالرسوم الجدارية في قصر ماري توضح هذه العلاقة جيداً. إحدى الدراسات أشارت إلى الرسوم والتلوينات الجدارية في إحدى صالات قصر ماري، حيث تُعدُّ أقدم الرسوم الفنية، ويلاحظُ أنه رُسِمَ على طبقة من الجبس وتحتها طبقة من الطين، ثم رُسِمَ بعد جفاف الطبقتين.⁽¹⁾

الأختامُ الأسطوانية يعود ظهورها إلى زمن اختراع الكتابة في المشرق إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، ويبدو أنَّ الدافعَ الأساسيَّ وراء ظهورها يكمن في الشأن الاقتصادي والتجاري وأمور الملكية الفردية، ولا تُعرَفُ إلى الآن حضارةٌ أخرى ابتكرت هذا المنجز الفني؛ فهو إبداعٌ شرقيٌّ تميزت به حضارةُ المشرق.

في الشكل: الختم هو قطعة أسطوانية يخترقها ثقب طولاني، وثمة أختام طولها يتراوح بين 5 و7 سم، وهي شائعة في حين كانت أبعادها مع أول ظهورها بين 8 و10 سم.

وعلى السطح الخارجي للأسطوانة نُقِشت أشكال ومواضيع ناتئة وغائرة، وحين سحب هذا الختم على مادة طرية، فإنَّ الأشكالَ والرسوم والنقوش تنطبع على تلك المادة وأكثر ما استُعملت هذه المادة من الطين.

وباطرادٍ مع الزمن كان التطويرُ في تقنية صناعة الختم يؤكد نفسه، فمع بدايات ابتكاره كان يصنع من أنواع هشة من الحجارة كالحجر الكلسي والالباتر والستياتيت وحجر السرياتين واللازورد ولب القواقع البحرية.

(1) بارو يدرس تلك الرسوم الجدارية: التكوينات كانت تصويرية بكل ما في الكلمة من معنى، وتؤلف تكملة أو إيضاحاً على سطح مستو للتماثيل التي عثرنا عليها. الشجر مرسوم بأسلوب هندسي مقابل شجر مرسوم بأسلوب واقعي.

ماذا يقول هذا المشهد؟ إنه لوحةٌ تعبّر عن صدى لشجرة الجنة (الحياة والخير والشر)، والملائكة تحرس شجرة الحياة وتمنع الاقتراب منها، ثمة أنهار الجنة الأربعة أيضاً.

في الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، تحولَ إلى استعمالِ المواد القاسية كالهيماتيت والعقيق اليماني واليشب والعقيق الأحمر والأمايست والكريستال الصخري والكوارتز والجذع وحجر الكالسيدون.

وفي عصر الفاعلية المارية الأولى، التي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، شاع استعمال الهيماتيت.

عثر في مواقع المشرق على أعداد كبيرة من العلب المعدنية المخصصة لحفظ الأختام الأسطوانية في داخلها.

أمّا في مجالات استعمال الختم الأسطواني فتشير المعطيات إلى عدةِ استعمالات له متوافقة مع الأزمنة منذ ابتكارها، ثم مع اختراع الكتابة، فاستعملت طمغة للسدادات الطينية التي كانت تستعملُ في سدّ فوهات الجرار والأواني منعاً من فتحها والوصول إلى ما تحويه، كان هذا مع بداية ظهور الختم.

أما طريقة العمل في ذلك فهي بوضع قطعة قماش أو جلد فوق فوهة الإناء أو الجرة مباشرة، ثم تُغطّى هذه القطعة من كل جهاتها بكتلة من الطين الطري، ثم يُدحرجُ الختم الأسطواني فوقها فتُطبَعُ رسوم الختم ونقوشه على الطين، وإن وصلت هذه الأواني المغلقة ومحكمة الإغلاق إلى مستلمها تُكسّرُ الكتلة الطينية المطبوعة بنقوش الختم وتُرفَعُ قطعة القماش أو الجلد فتوصل إلى محتويات الجرة أو الآنية.

مع استعمال الكتابة على الألواح الطينية استُعملت هذه الأختام طمغةً لها، وذلك لتوثيق محتوياتها. وقد شاع هذا الأمر في الألف الثاني قبل الميلاد.

ولعل استعمال الختم في طمغ الأواني والجرار يُعبّر عن شيوع الملكية الفردية، هذه الصفة الملازمة لعالم الألف الثاني قبل الميلاد، ويعود أيضاً إلى مرحلة الفاعلية الأكادية في النصف الثاني للألف الثالث قبل الميلاد؛ وبذا صار الختم المُعبّر عن الشخصية الفردية الاعتبارية للتاجر والحرفي والنشاطات الاجتماعية والفاعليات الاقتصادية كافةً.

من الطريف أنه حين كان يُفقد ختم الشخصي لأحد الأشخاص عليه أن يخبر السلطات الرسمية فتعلن فقدان الختم بنفخ البوق في شوارع المدينة حتى لا يستعمل الختم المفقود شخصٌ آخر.

وفي موازاة ذلك، إنَّ استعمالَ الختمِ الأسطواني وشيوعه كان متزامناً مع البنية السياسية للنظام في مدن المشرق، فإنَّ شهدت الفاعلية السومرية نظامها السياسي القائم على ثنائية القصر والمعبد فإنَّ الأختام اقتصرَت على المؤسسات الرسمية.

ومع ظهور معالم فصل الدين / المعتقد عن الدولة شاع الختم الشخصي الذي عبّر عن شيوع الملكية الفردية في المجتمعات المشرقية، وهذا ما يتبدى جلياً في الألف الثاني قبل الميلاد.

ومن طرائف تلك الحقبة أنَّ الوثائق تشيرُ إلى عدم وجود أختام لدى بعض المتعاقدين، وهنا يلجؤون إلى صنع أختام سهلة الصنع من الطين والخزف، أو يستعملون أظفار اليدين أو طرف الرداء بديلاً عن الختم، كما يمكنهم استعمال ختم شخصي لرجل آخر، ولكن يذكر في الوثيقة نوعُ الختمِ البديل.

الجدير ذكره هنا أنَّ ثمة أختاماً لنساء تعود إلى الألف الثالث، مع قلة هذه الظاهرة في الألف الثاني، وكانت الأختام تنتقل من الأب إلى الابن فالأحفاد.

ثمة دلائل على وجود أختام للإلهة، حيث إنَّ الملك الآشوري أسر حدون 680 - 669 ق.م، استعملَ طبعة ختم الإله آشور على إحدى الوثائق الكتابية، وبدراسة أسلوب النقش لهذا الختم دلَّ الأمر على أنَّه ربما يعود إلى طور الفاعلية الآشورية في مطلع الألف الثاني ق.م. ما يعني أنَّ بعضَ الأختام بقيت قيد التداول مدةً طويلة من الزمن.

وقرابة منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ظهرت الكتابة أول مرة على الأختام الأسطوانية، حيث كانت تتضمن اسم مالك الختم الأسطواني ومهنته، ومع الزمن أخذت الكتابة تتوسع لتشمل كلمات جديدة مثل الوالد والإله والملك، ثم أصبحت تحتوي صلوات وتعاويد وأدعية.

المواضيع المنقوشة على الختم الأسطواني:

منذ ابتكار الأختام تشهد التحريات الأثرية العثور على أختام أسطوانية تحمل مواضيع عدة، منها: مشاهد دينية وطقسية، معارك، حيوانات مفترسة، كائنات أسطورية وخرافية، حيوانات أليفة (بقر - أسماك).

وفي الألف الثالث إلى ثلثه الأخير نجد تنوعاً في المواضيع المنقوشة على الختم، فثمة زخارف هندسية وحيوانية ونباتية غير مميزة، وقد تحولت أشكالها إلى زركشة شبيهة بزركشة الثياب أُطلقَ عليها اسم «البروكار».

كما عثر على طبقات أختام لأشكال بشرية وحيوانية، وتكثر مواضيع حماية الإنسان للحيوانات الأليفة وقتله للحيوانات المفترسة في مجمل نقوش الأختام.

نجد أيضاً مواضيع منقوشة تختصُّ في تصوير مجالس الشراب وابتكرت في هذه الحقبة أشكالاً جديدةً تختصُّ بالجمع بين الإنسان والثور المقدس.

وثمة دلالة من اللقى الأثرية على أن المواضيع المنقوشة قسمت إلى مشاهد على شكل مربعات أُضيفَ إليها اسم صاحب الختم على النقش أو اللوحة واسم الإله أو الآلهة.

مع الإشارة هنا إلى أنّ فنّان هذه الحقبة تجاسر وعمّق أشكاله في سطح الختم حتى تظهر بارزة عند الطبع.

وفي عصر الفاعلية الأكادية نحا الختم الأسطواني، لا سيما في عصر نارام سين، إلى الأخذ بمواضيع عديدة منها: مشاهد عراك الحيوانات، ومجالس الشراب، والمثول أمام الآلهة، وتمثيل الآلهة.

وفي الألف الثاني قبل الميلاد استمرت المواضيع القديمة في الاستعمال والنقش، ولكنّ ظهرت مواضيع جديدة، لا سيما موضوع تمثيل الأرباب مع شعاراتها، مثل: ربة الحرب التي تدوس بقدمها على الأسد وهي مسلحة، إله الشمس والمنشار بيده اليمنى والجبل تحت قدمه اليمنى، الرب ذو الصولجان، وإله الطقس يقف فوق ثور يحمل صورة البرق... إلخ.

كما نعثر على نصوص خطية في وسط الأختام محاطة بها ربتان، بالإضافة إلى مواضيع لمصارعة بين أشخاص. (د. بشار خليف - 2018).

النحت التدمري:

يُعدُّ النحت التدمري بمثابة مدرسة فنية قائمة بحد ذاتها، ويمكننا أن نطلقَ عليها تعبيراً مدرسة الحياة. فالمعلوم أنّ أغلب هذه المنحوتات هي منحوتات جئائزية مصدرها المدافن، ومع هذا فالتعبير التي توشحها تضجُّ بالحياة.

ويؤكد الباحثون على أنّ النحت التدمري فنٌ ناضجٌ وواضحٌ وقائمٌ بذاته منذ القرن الأول قبل الميلاد، ويؤكد الدكتور البني أنّ الفنّ التدمري لا يخرجُ عن التقاليدِ المعروفة للفن السوري في القرون الميلادية الأولى وغيره من الفنون الشقيقة، ويركّز العالم الفرنسي سيريج على ذلك بقوله: لم يتمكّن الحكم الروماني الذي دام قرنين ونصف قرن مع كل ما رافقه من احتكاك بالغرب من تغيير النحو الغريب في ترتيب الأشكال المنحوتة ذلك النحو الذي يشارك فيه التدمريون جيرانهم الشرقيون.

أمّا في مجال التأثيرات الفنية للثقافات الأخرى المعاصرة، فلا بدّ أن نؤكدَ فعلَ المثاقفة بين تدمر والمراكز الثقافية في العالم آنذاك مع التركيز على مبدأ الأصالة الذي يُعدُّ خصيصة رئيسة من خصائص حضارة المشرق عامة.

يقول العالم سيريج: إنّ التأثيرَ الغربي في الفن التدمري سطحيٌّ بوجه الإجمال، وهذا يدلُّ على عدم الاستعداد للتأثر، ليس بأسلوب أجنبي وإنما بعقلية أجنبية، وهذا الأمر يردُّ أيضاً عند «جان شارل بالتّي»، حيث لوحظ أنّ التدمريين يبذلون مقاومة ثقافية نحو روما.

ولدى دراسة اللقى التدمرية، خصوصاً في بانونيا على نهر الدانوب، لوحظ أنّ البيئة التحتية المحلية المشرقية ظاهرة بقوة وحيوية، لا سيما في اللباس الوطني التدمري وفي ارتداء اللباس المحلي، ويصلّ إلى القول: إنّ هذه الظاهرة شاهدٌ على المقاومة لظاهرة الاندماج.

ولا تبتعد الباحثة «ماري موريهات» عن المضمون العام الذي ذكرناه بقولها: إنّ أقرب الأساليب الفنية شبيهاً بالأسلوب الفني التدمري نجدها في الأساليب التي ازدهرت في القرون الثلاثة الميلادية الأولى في سورية الداخلية والنحت النبطي في الأردن وجنوب سورية. (د. بشار خليف - 2003).

وعزفتُ الموسيقى:

مشرق الموسيقى عالم قائم بحد ذاته.

ما قبل منتصف الألف الثالث ق.م المقبرة «y» في مدينة كيش الرافدية.

أموات بأتباع بشريين، ملك أو أمير مدفون مع أتباعه لخدمته في العالم الآخر، جوقة موسيقية حيوانية ترافق الميت.

الآلات الموسيقية حاضرة؛ واحدة على شكل عود زخرفت واجهته الأمامية بأشكال مرصعة، وحوث حقولاً متتالية من الأعلى إلى الأسفل.

حقل أعلى: الإله دموزي ينتصب حامياً للثيران.

حقل ثان: حيوان يشبه الكلب والأسد يسيران نحو اليسار، الكلب يحمل مائدة عليها رأس خنزير وساق ورأس خروف، والأسد ينقل وعاءً كبيراً وقصعة ونصف صدفة.

حقل ثالث: حمار يعزف على عود أو قيثارة لها أحد عشر وترًا ويجلس أمامه دبٌّ منهمكٌ بمساعدته، وبين الاثنين ثمة ثعلب يقرع طبلاً.

الحقل الأخير: إنسان عقربي الشكل يرقص ويتبعه غزال، كلُّ منها يحمل كأساً في كل يد.

عازفة العود التي دُفنت حية مع أميرها يحملُ عودها مشهدٌ رمزيٌّ لقهر قوى الموت، الجوقة الحيوانية على يد دموزي.⁽¹⁾

في موازاة هذا إلى أور المقبرة الملكية للأميرة شبعاد «بو - آ - بي» قرابة 2450 ق.م في أرض المدفن وضعت قيثارة بطول 120 سم، تكونت من صندوق خشبي مُطعم بالذهب ومربوط بأشرطة ذهبية عريضة، عند نهايتها رأس ثور متقن الصنع من الذهب الخالص.⁽²⁾

وما يعيننا من هذه المقاربة هذا الحضور الموسيقي وما يُعبر عن فاعليات موسيقية في المجتمعات، ويمنح الدليل على مرافقة الموسيقى نشوء المدن، إن لم يكن قبل ذلك.

هذا التفنن في صنع الأدوات الموسيقية لا يعود إلى وقته، ثمة تراكمات سابقة أدت إلى ما نحن عليه. حلت الكتابة فكان لا بُدَّ من أن تُوثق النشاطات الموسيقية على نحوٍ موفق.

أقدم رقيمٍ موسيقي حتى الآن نعث عليه يعود إلى ما يقارب 1800 ق.م، تدوينٌ هذا الرقيم في هذا الزمنٍ يشيرُ أيضاً إلى تراكم الفاعلية الموسيقية في المشرق حتى دوتت.

بهذا نعلم الآن حدسياً بنشوء الموسيقى المعبدية ثم الحياتية وأخذها إلى موضعها في المشرق.

(1) أنطون مورتكات - تاريخ الشرق الأدنى القديم - 1967.

(2) شاه محمد علي الصيواني - أور - بغداد - 1976.

وفي الجنوب الرافدي عُثِرَ على عدة رُقَم تعطي كثيراً من المعطيات عن موسيقا المشرق آنذاك.

وبعد ألف عام تقريباً عُثِرَ في أجازيت على رقيمات تحوي قطعاً موسيقية تعود إلى 1400ق.م. وتبين أنّ وثيقة أجازيت ليست إلا تطبيقاً لما كُتِبَ في مواقع الجناح الرافدي.

وبعد الأبحاث التي أُجريت تبين أنّ سلمَ فيثاغورس وسلم صفي الدين العربي، ليسا سوى خَلْفَ للسلم الموسيقي الرافدي. التواصلية الحضارية موسيقية هنا عبر آلات تنوعت بين طبول وقيثارات وناي وقانون ومزامير وصنوج وغيرها.⁽¹⁾

الجدير ذكره هنا أنّ خطَّ التواصل الإنساني الذي مارسه الأموريون الكنعانيون ثم الآراميون والسريان أدى إلى تطور الموسيقا مع العصور وانتقالها إلى المجال الحيوي المتوسطي الأوروبي. «أرنولد توينبي» يشير إلى أنّ الأسلوب البيزنطي في الموسيقا والشعر الابتهالي الذي أصبح المُلْك المشترك لجميع الشعوب الشرقية الأرثوذكسية، وضعه سوري مسيحي خلقدوني هو رومانس 480 - 550م وقد كتب رومانس أشعاره بالكويني الاتيكية القديمة لكن تفاعيله وأناشيده كانت سورية، ويصل إلى أنّ هذه الخطوة بالنسبة إلى الموسيقا والشعر اليونانيين كانت منطلقاً جديداً منعشاً. (د. بشار خليف- 2003).

تفاصيل:

إضاءةٌ أكثر على الواقع الموسيقي نجده في الوثائق المشرقية بإخلاص، لنقرأ:

«شيمروم» وزير البلاط الحلبي يعلن لبعثة ماري المكلفة بمجريات زواج ملكها زيمري ليم من شيبوتو ابنة ملك حلب. يقول للبعثة: «واحدة بواحدة»، المقصد: زوجناكم شيبوتو، وهو يريد أن يتزوج من المغنية المارية «كبراناتوم».

فقال: «امرأة مقابل امرأة».

ثمة وثيقة تتحدث عن إرسال زمري ليم رسالة إلى زوجته يطلب فيها أن يتم اختياراً ثلاثين فتاة من اللائقات من أجل تشكيل فرقة رقص. (د. بشار خليف- 2018).

(1) الحوليات الأثرية السورية. مجلد 29-30

الفرق الموسيقية كانت تجوب في حفلاتها بين مدن المشرق، ها هي فرقة ماري الموسيقية أحييت حفلاتها في حلب/يمحاض، في أثناء رجوع رئيس الفرقة ووصوله إلى مدينة إيمار، احتجَزَ مع آلاته الموسيقية، ثمة دين على ماري كان ينبغي أن تسدده لإطلاق سراح الرجل وآلاته، فتم الأمر فيما بعد وأُفْرِجَ عنه.

ووثيقةٌ أخرى تتحدث عن طلب ملك آشور شمشي أدد من ابنة «يسمع أدد» أن تُعلمُ بنات ملك ماري المقتول يخذون ليم الموسيقا؛ حيث أوصوا على خمس قيثارات، ولكن صنعها كان بطيئاً فنبهوا المسؤول عن ذلك.

تتحدث الوثائق أيضاً عن ثلاثة مغنين كبار وثلاثة وعشرين مغنين صغار من ماري كانوا في إبلا.

وهناك نص يتحدث عن إعطاء أربعة وأربعين ثوباً لاثنتين وعشرين مغنياً من مدينة سازا. نصٌّ يشير إلى تسلّم مغني صغير من ماري ستة وأربعين ثوباً من نوعين مختلفين. وأحد النصوص يأتي على ذكر ثلاثين مغنياً وتسعة من عازفي القيثارة.⁽¹⁾

سنجد من المهن أيضاً مهنة صانع الأغاني دنيوية ومقدسة:

غنوا أغنية: «لقد برز إله النار، سيد المعارك. أواه يا سيدي.

إن حبك أشبه بشذا عود الأرز

تعال إلى حديقة الملك فهي ملاءى بأشجار الأرز

لقد شهدت في الشوارع عاهرتين».

نتخيل الآن مدن المشرق في أعيادها الدينية والحربية والشعبية بحال من أحوال الغناء والرقص والموسيقى، في مدارس تُعدُّ الراقصات والراقصين، والعازفات والعازفين، وورش لصناعة الآلات الموسيقية، وأولئك الكتبة الذين يدونون الغناء والألحان.

نتصور الرقص راقق بعض الأغنيات، واللُقى الفنية تُظهر استعمال الراقصين عصي الرقص، بل ثمة مشهد يُظهر رجلين يضربان طبلاً كبيراً بالتزامن مع حركات ملاكمين، وثمة صنوج مرافقة، الحماس الرياضي هنا ممزوج بالموسيقا. حتى يفرح المشرق.

(1) عيد مرعي - مصدر سابق.

في المجمل، أول من تفنن لم يخشَ سطوة الخيال، قفز فوق عتمة الكهف بنوره، والكهف كهفان، واحد لخارج وآخر لداخله، أدرك مسعاه بضربة لون أو خرمشة ازميل، زرع في الظلمة دهشته وراح يمارس الحياة بدهشتين، واحدة كالجدل الصاعد وأخرى للهبوط بقدميه على أرض خُلقتْ لقدميه.

أول من تفنن، شاء كشف ما لا يكتشف، ليس مستوره بمرغوب لكن الشمس ومنذ البدء وُلدتْ عارية، خاف الغيم على مفاتها فمنحَ الشتاء حق الغيوم بعباءة تستر الشمس وغلانها من ظلمة الكهف وحجاب الشمس وُلد القمر ابن ليل، نafs الشمس في خدعة بصرية، انقسم الأتباع: قميون وشمسيون، كانت الغلبة أخيراً لمحتوى النور في الظلام، لمدى اللامحدود في المحدود.

صارت غاية الفن وسيلة لتحقيق النبوءة، من رسمَ وجهه فقدَ ماء وجهه فجفَّتْ لوحته. لامكان لأحد بين لون وآخر سوى تمازج الأضداد ليبقى السؤال جديراً بإجاباته المتعددة.

أول من تفنن ضحكَ على الزمن بمزيجه ومزاجه، الضحك كائن بحد لونه

لا شيء يحزنه لأن غاية الفن كينونته

الموت - شعائره ووثائقه |

«أخبرني، صديقي، أخبرني صديقي

أخبرني بحالات العالم السفلي، الذي رأيت».

(ملحمة جلجامش)

مذ وعى الإنسان ظاهرة الموت صوراً هذا في نفسه، فظاهرة مؤلمة كالفقد أثر فيه شعورياً ولا شعورياً. فصدّم الإنسان بمصيره الحتمي، فشكّل لديه انفعالاً أدى إلى تصورات مشحونة بهذا الانفعال عبّر عنها في الدراسات النفسية بعقدة التخلي أو النبذ.

وهذا ما حُسِبَ على موقف اجتماعي من الموت.

كل عقدة نفسية لدى الإنسان تمتلك ضروباً تعويضية لا شعورية، تسعى به نحو التوازن الذي يتراوح بين الإيجابية والسلبية. فهي عقدة الإحباط الانفعالي، وعقدة الاستبعاد، وسواس القطيعة وفي صورتها المصعّدة، تصبح هذه العقدة فلسفة في الوجود الإنساني، فالإنسان «مُلقى في هذا العالم» فريسة التخلي وحصر العزلة الذي يتصف بأنه مقضيّ عليه ميتافيزيقياً. ضروب التعويض عن هذه العقدة تتبدى في مستويات عدّة:

المستوى الأول: معاناة من ألم التخلي والفقد بما يؤدي إلى الانكفاء والعزلة في الحياة واجترار الكآبة والاستسلام للموت.

المستوى الثاني: تعذيب الإنسان لنفسه وتحميلها ألواناً من حياة سوداوية كثيفة.

المستوى الثالث: حيث يلجأ الإنسان إلى الحلول الصوفية أو الإيمان بالتقمّص أو التناسخ أو بوجود حياة بعد الموت.

المستوى الرابع: حيث يميل الإنسان إلى الانتحار ورفض الحياة وربما تتتابه نوازع عدوانية سادية.

المستوى الخامس: أن يتزن الإنسان وفق المبدأ الرواقي حيث القبول بالموت عبر العمل في الحياة كأن الإنسان خالد، واعتبار الموت جزءاً من الحياة.⁽¹⁾

الموت في المستوى الاجتماعي ليس نقيضاً للحياة بل جزءاً منها، فهنا يمتلك المجتمع صفة الديمومة بين الأجيال السابقة واللاحقة، إلا إن تعرّض المجتمع لنهاية وجودية ماحقة.

(1) روجر موشيلي- العقد النفسية- ترجمة وجيه أسعد- وزارة الثقافة السورية- 1985.

على هذا نؤسس لمقاربة فكرية، تاريخية، أثرية، وثائقية، لمعالم هذه الظاهرة كما تبدت في المشرق، بدءاً من إنسانه العاقل.

فهنا نحن أمام جدنا المباشر وجهاً لوجه، فهو يمتلك تقريباً كل الصفات الفيزيولوجية والاجتماعية التي يملكها إنساننا الحالي. فطرداً مع تطور بنيته الدماغية، وحجم دماغه، تطورت أساليب عيشه، وتطورت حياته الروحية والاجتماعية والاقتصادية.

ويبدو أنه صار يفهم الطبيعة أكثر، فهو جزء منها ويحاول الانفكاك عنها بالسيطرة عليها. كل هذا أدى إلى تطور في مناحيه الروحية ومن ثمّ المعتقدية والفنية، وبقي صياداً ولاقطاً مع تبلور إحساس اجتماعي أقوى من سلفه.

شعائر موت المكونات ما قبل الزراعية:

تميزت شعائرها بعناية مخلصمة بعالم الموت، وتشير إلى دلالة على اهتمامها بالأحياء واستمراريتهم، والمرفقات الجنائزية تقدم أدلة واضحة على ذلك.

طرق الدفن عند الصيادين اللاقطين العاقلين بقيت داخل الكهوف في وضعية القرفصاء، مع ميل إلى دفن الأموات قرب المواقد، كما أنّ طريقة الدفن بوضعية الجنين، ذكرت بعض الباحثين أنّ لدى الإنسان العاقل ميل روحي، لاعتبار أنّ الدفن الجنيني هذا ربما يعيد الميت إلى الحياة كون أن الأرض رحم!

نستبعد مثل هذا الاعتقاد لدى الإنسان العاقل، ونميل إلى الأخذ باعتبارات أنّ مساحة الكهف هي التي حددت وضعية الدفن الجنيني، أو أخذ جثة الميت هذه الوضعية على نحو طبيعي، ربما نتيجة لموتٍ طبيعي وما أدى إلى ذلك.

لوحظ أيضاً أنّ الجثث بدأت تطلّى بالمغرة الحمراء، ونعتقد أنّ هذا يدخل في مجال التعويض عن الشحوب الذي يعترى الجثة. وهذا ما أثبتته الأبحاث العلمية على قبائل بدائية تعيش في إفريقيا حتى الآن؛ حيث ظهر أنهم مازالوا يصبغون الجثث بهذه المغرة لاعتقادهم أنّها علامة الحياة.⁽¹⁾

(1) هـ. فرويليش. ديانات الأرواح الوثنية. ت يوسف شلب الشام. دار المنارة. دمشق. 1988.

ولدى الإنسان العاقل بدأ يتشكل إحساس الرهبة من الموت، وقد دلَّ على ذلك وضعهم لأحجاراً ضخمة على أيدي الميت وأقدامه وصدرة، ربما كيلا يستطيع القيام والعودة إلى الحياة، ومن ثمَّ إيذاء الأحياء، وهذا ما أكدته الأبحاث الأنثروبولوجية التي جرت على قبائل بوبواس في غينيا الجديدة، حيث لوحظ أنهم كانوا يضعون الحجارة الكبيرة على رأس الميت وصدرة وأقدامه.

مع اعتدال الحالة المناخية 12000 تعتدل البيئَة بما يؤدي إلى بدء حضور وجودي فاعل لمجتمعات الإنسان العاقل المشرقي، التي تبدأ بهضم المكان وبيئته، ما يتبع شيئاً فشيئاً معالم إشادة قراها النصف مستقرة ومع هذا فلم تغادر الكهوف نهائياً.

وبقيت أساليب الدفن متواصلة على ما كانت عليه، مع ميل نحو ظهور مظاهر دفنية، معمارية تمثلت بصقّين من الحجارة للمدافن. وتغيرت أدوات المرفقات الجنائزية مع الحفاظ على ما سبق.

سنعثر في أحد القبور في موقع الكبارا على ثلاثة حجارة طحن، إحداها مدقة موضوعة فوق الرأس. كما عثر على زبدية بازلتية بجانب الرقبة وجزء من حجر الطحن أيضاً.

فهل هذا يدل على مهنة صاحب القبر؟ ومن ثمَّ الإيحاء بأن بعض الرجال في هذه الحقبة مارسوا الحرف والمهن بديلاً عن الصيد؟ لأن هذه المرفقات «المهنية» سوف نجدها بغزارة في قبور العصور التاريخية مع أصحابها.

وفي الجناح الرافدي، كهف شانيدار عثر على قبر لطفل في هذه الفترة حوت مرفقاته مئات القطع من الخرز والأحجار المنوعة، كما عثر على قبر امرأة حوى سكيناً بقبضة عظمية ونصلة صوانية.

وفي الألف العاشر ونتيجة التطور الآخذ صعوداً في مجاري الحياة الاقتصادية الاجتماعية والروحية، بدأنا نلاحظ أننا أصبحنا أمام مجتمعات متجانسة تميزت بالسكن في البيوت وتحولت الجماعة إلى مرحلة القبيلة وبقيت تمارس الصيد والاتقاط ولم تغادر الكهوف نهائياً، ما يدل على بعض التطور الشعائري المرتبط بروح الجماعة.

نحن هنا أمام إشادة مقابر كبيرة؛ حيث مورست عملية الدفن الفردي والجماعي، ويبدو أن المقابر انفصلت عن المساكن وبقيت إلى جوارها، وطلبت الجثث بالمغرة الحمراء،

وهذا لا يعني أن الدفن لم يجبر في المساكن، فقد عثر على عمليات دفن تحت أرضيات البيوت، وهنا يبدو أنه قد حصل انعطاف في البنية الذهنية للإنسان، حيث بدت بواكير فصل الجمجمة عن الجسد ودفنها منفردة بما يوحي ببوادر نشوء اعتقاد «عبادة الأجداد»، الذي سوف يتضح أكثر في العصور اللاحقة.

والملاحظ في هذا المجال أن الدفن كان في قبور منتظمة، أما المرفقات الجنائزية فكانت أسلحةً حجريةً وأسنان ولؤلؤاً وقرون غزال، بالإضافة إلى سنن حصان وأجزاء حيوانية أخرى.⁽¹⁾

الموت والزراعة:

وفي منجز الزراعة انفصلت المجتمعات بوصفها جزءاً من الطبيعة عن الزراعة، وسيطروا عليها سيطرةً نسبيةً، وهذا أثر في البنية الذهنية وتفاعلها مع الطبيعة ومنوعاتها وإيقاعها، وترتكز في ظاهرة الموت؛ الموت الدوري للنبات، ثم انبعثه في مواجهة الموت الخطي قبل الانفصال عن الطبيعة، ولا سيما في نشوء ظواهر الاعتقادات الدفينة الخصبية التي تجلت في ميل اعتباري للثور (الظاهرة الأقدم) وعبادة الأم الكبرى، وصولاً إلى الأرواحية أو عبادة الأجداد التي يُعبّر عنها بعبادة الجماجم بفصلها عن الأجساد.

في منتصف الألف الثامن قبل الميلاد غدت الجماجم موضع اهتمام كبير، وهذا ما وُضح في مواقع هذه الحقبة؛ ففي المربيط عُثر على هياكل دفنت بلا رؤوس تحت أرضيات بيوت السكن. أما الجماجم فبعد فصلها عن الأجساد توضع على امتداد جدران المنازل لاعتبارات اعتقادية. كذلك عثر على هذه الظاهرة نفسها في أريحا في فلسطين.

ولم تكن الجماجم تُترك؛ بل كانت تعالجُ تعويضاً في المستوى النفسي الجمعي، وكانوا يحاولون إعادة تشكيلها من الجص، وصبغها بما يماثل لون البشر، ثم تنزل العيون بالصدف أو القواقع ويرسمون على الجمجمة خيوطاً بنية دلالةً على شعر الرأس.

وقد عُثر على هذه الجماجم المقولبة في مواقع عدة في أريحا وبيسامون ووادي حمار وفي تل الرماد.⁽²⁾

(1) بورهارد برينتس - مرجع سابق.

(2) المزارعون الأوائل - مرجع سابق.

نحو 6000 - 5000 ق. م استمرَّ تطوُّرُ المجتمعات الزراعية بتعايشها مع مجتمعات الصيد والرعي، وبقيت طقوسُ الدفن تحت أرضيات المساكن أو بقربها، وشملت المرفقات الجنائزية أوان فخاريةً وحجريةً ودمىً نسائيةً وحيوانيةً مع ملاحظة أن في هذه الحقبة لم يعثروا في مواقعها على دلائل تشير إلى استمرار عقيدة عبادة الأجداد، كما أنهم لم يعثروا حتى الآن على جماجم مقولبة، مع اعتقادنا أنها استمرت؛ لأنها ستظهر في العصور اللاحقة. الحقبة التي بين 5000 و3500 ق.م تطورت فيها تقنية الزراعة إلى الري الصناعي والأقنية، وأصبحت الزراعة أكثر إنتاجيةً، ومن المدافن يُستنتجُ أنَّه ثمة تمايز اجتماعي ظهر بين الكهنة ورجال الدين والسلطة والتجار من جهة، وبين بقية الناس من جهة أخرى؛ فقد حفلت قبورُ الأغنياء بالمعادن الثمينة، لا سيما الذهب والفضة.⁽¹⁾

مجتمعات هذه الفترة مارسوا الدفن، ويبدو أنَّهم دفنوا الجماجم بمعزلٍ عن الأجساد؛ ما يشي بعبادة الأجداد التي استمرت حتى العصور التاريخية؛ فقد عُثِرَ على عبادة الأجداد في إبلا باكتشاف المقبرة الأمورية هناك التي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد.⁽²⁾

والجدير ذكره هنا ظهوراً ظاهرةً دفنية جديدة تجلت في حرق الجثث ووضعها في جرار، وكان هذا للكبار فقط، أما الصغار فكانوا يدفنون على نحوٍ اعتياديٍّ.

وأكثرُ الدفن في البيوت كان للمولود الجديد المُتوفَّى، أما الكبار فقد دفنوا خارج البيوت. بعضُ القبور شملت على مرفقات جنائزية مثل التماثيل والأواني مع وجود سفن من طين، وهذه دلالة على نشوء مفاهيم جديدة في هذه الحقبة لعالم ما وراء الموت، سوف يتضح في العصور الكتابية؛ حيث ثمة في العالم الآخر نهر «عبر» يعبره الإنسان بسفينة ليصل إلى العالم السفلي.

ها هم يزودون موتاهم بسفنٍ من أجل الانتقال في نهر يعبر نحو العالم السفلي.

(1) بريتنس - مرجع سابق.

(2) إبلا - مجموعة باحثين - ت: قاسم طوير - دار يعرب - دمشق - 1984.

العصور التاريخية - نشوء المدن والموت:

مع تشكل المدن وبدء العصور التاريخية والبرونزية، نحن هنا مع استمرار تقاليد وشعائر الدفن التي كانت سائدة مع ازدياد التطور لجهة مناحي الحياة الدفينة، وفي متابعة البحث، خصوصاً في العصور التاريخية الكتابية، ينبغي لنا الإشارة إلى عدة مرتكزات:

أولها: أنّ العصور التاريخية في المشرق تُعدُّ نقطة اتصال أو حلقة وصل بين العصور ما قبل التاريخ، والعصر الحديث لجهة شعائر الموت ومعتقداته، أي ثمة استمرارية حضارية متواصلة، مع الأخذ بعين الاعتبار ما قدمته الثورة المدنية العمرانية من جهة، وما قدمه اختراع الكتابة من معايير وقيم جديدة على حياة المجتمع، والشعائر التي مارسها في مجال الموت من جهة أخرى، بالإضافة إلى بدء اعتمادنا ما خطته المجتمعات على الرُّم الطينية، فأدى إلى توسيع دائرة الرؤية لمعرفة شعائرهم ومعتقداتهم على نحوٍ يتعد عن الاعتقاد إلى الجزم، ووصل المفاهيم الشفاهية السابقة بالكتابية اللاحقة، وهذا يستتبع الإشارة إلى أن ثمة تواصلية تاريخية حضارية بين تلك المجتمعات ومجتمعات مشرقنا المعاصرة نتلمسها في تفاصيل التعامل مع ظاهرة الموت.

ثانيها: كنا في مجال العصور ما قبل التاريخية نعتمد على اللقى وبقايا المباني والمقابر والمرفقات الجنائزية لتفسير موقف المجتمع من الموت، أما مع اختراع الكتابة فنحن الآن مع مسار يأخذ منحنيين:

الأول: إرجاعي بما يفسر الرموز والبنى ما قبل التاريخية عبر الوثائق الكتابية المكتشفة.

الثاني: واقعي بما تقدمه الوثائق، وتدعم ذلك البنى الأثرية واللقى في حيز العصور التاريخية، وبذا أعطت الوثائق الكتابية حالة توثيق لمناحي المجتمع كلها، ومنها مسألة الموت.

الشعائر والطقوس الجنائزية:

مع فجر التاريخ قرابة 3500 ق.م، نلاحظ أنّ شعائر الدفن في المشرق القديم بقيت على حالها، واستمر الدفن تحت أرضيات المساكن (الظاهرة الأقدم)، مع ملاحظة أننا أصبحنا أمام ظاهرة دفن تتم في الجرار الفخارية للأطفال أولاً، ثم شملت الكبار أيضاً، ولم يُعثر على ظاهرة فصل الجماجم عن الأجساد؛ أي أن عبادة الأجداد أو حتى ظاهرة الجماجم المقولبة

التي لم تظهرها المواقع الأثرية حتى الآن، وربما الذي حصل نتيجة للتطورات الاجتماعية الاقتصادية الروحية، ومع بدء تأسيس المدن ونشوء السلطة نظاماً سياسياً أنه قد تحولت عبادة الأجداد القبلية إلى عبادة الملوك وتألّيههم بعد الموت، دون أن ننسى دور الكهنة في عامل الربط بين السماء والأرض.

المرفقات الجنائزية استمراراً لما كان سائداً من قبل، فقد عُثِرَ في بيبلوس «جيل» في لبنان على مقبرة تؤرخ إلى ما يقارب 4000 - 3100 ق.م، حيث دُفِنَ الموتى داخل جرار كبيرة بعد قصّ أحد جوانب الجرة لإدخال الجثة فيها، واستفادوا من القسم المقصود بأن أصبح غطاءً للجرة.

المرفقات الجنائزية كانت أوان فخارية تحوي طعاماً وشراباً، وزُوِّدَ الموتى بالأسلحة الحجرية والنحاسية، وشملت قبور النساء أدوات الزينة والتبرج.

وفي جرة كبيرة عُثِرَ على هيكلٍ عظميٍّ لرجل، والى جانب هذه الجرة ثمة جرةٌ صغيرة حوت هيكلًا عظمياً لكلب، ما يشي باعتقاد أن الميت كان صياداً. وفي أريحا في فلسطين عُثِرَ على قبورٍ محفورةٍ في المنحدرات الصخرية، يُعتَقَدُ أنّ الدفن فيها استمرَّ إلى أجيال متعاقبة وإلى مئات السنين.

وفي الرافدين عُثِرَ في موقع تل قاليح آغا على دفنٍ تحت أرضيات البيوت، بالإضافة إل جرار تحوي هياكل أطفال، وكانت جرارُ الأطفال ذات شكل كروي ولها فوهات واسعة حيث يُدْفَنُ الطفلُ فيها بوضع جنيني، وتُدْفَنُ الجرة في باطن الأرض بعمق يتراوح بين متر وأربعة أمتار.

وفي مواقع أخرى عُثِرَ في بعض القبور على نماذج فخارية لزوارق شراعية، وهذا ما سنناقشه لاحقاً مستندين إلى النصوص المسمارية.

الأهم هنا موقع أور الرافدي؛ حيث عُثِرَ على مقبرة تضم ستة عشر قبراً ملكياً تعود إلى ما يقارب 2900 - 2750 ق.م، والشيء اللافت هنا هو احتواء المقبرة على ضحايا بشرية ترافق الملك في عالم القبر، وكأنّ اعتقادهم أنّ الميت يحيى في القبر ويتنظر انتقاله إلى العالم السفلي عبر نهر «عبر»، فلا بُدَّ من وجود حاشيته معه للعناية به.

ففي قبر عائد إلى ملك أور «آ - كلام - دك» عُثِرَ على أربعين مرافقاً من الحاشية، وفي قبر عائد إلى الملك «آ - بار - كي» عُثِرَ على ثلاث ضحايا بشرية في جزءٍ منه، وفي جزءٍ آخر عُثِرَ في حفرة كبيرة على اثنتين وستين جثة من بينها ست جث لجنود وتسع جث لنساء.

الملاحظُ أنَّ أصحاب هذه الجث دُفِنوا بملابسهم وزينتهم، أمَّا الحرس فكانوا يحملون أسلحتهم، والموسيقيون قيثاراتهم وصنوجهم، ويتقدم هذه الضحايا عربتان رُبطَ بكلٍّ منهما ثلاثة ثيران، وجلس في داخلها الحوذيون.

أما قبرُ الملكة «بور - آبي» فقد عُثِرَ على عدة جث لنساء مرتبة في صفين، وفي آخر الصفين قيثارةٌ بالقرب منها هيكل امرأة امتدت عظامُ يديها في حطام القيثارة، وبلغ عدد الضحايا البشرية مع الملكة قرابة خمس وعشرين ضحية.⁽¹⁾

وفي قبر آخر نجد قرابة أربع وسبعين ضحية بشرية منها ثمان وستون لنساء والبقية لرجال. يبدو أنهم جنود؛ إذ إنهم متكئون على الجدار مع أسلحتهم، في حين أنَّ أربع نساء يقفن أمام قيثاراتهن. ولتفسير هذه الظاهرة الاستعبادية بوجود ضحايا بشرية ترافق الملك في عالم القبر التي تُعدُّ في رأينا ظاهرةً مستوردة، لا تُعبرُ عن ذهنية المشرق بدليل عدم وجودها سابقاً، وعدم استمراريتها، مع أن هناك دلائل على أن مواقع مدينة كيش الرافدية شهدت هذه الظاهرة؛ فقد عُثِرَ فيها على ثمانين ضحية دُفِنَت مع حكام.

ونحن نعتقد أن هذه الظاهرة مستمدة من الطقوس المصرية؛ فقد عُثِرَ حول قبر الفرعون (جبر) خليفة (غور آخا) في أبيدوس على ما يقارب ثلاثمئة وثمانية وثمانين قبراً معظمهم لنساء، ويبدو أنه قد من قوايين يرافقن الفرعون إلى العالم الآخر.

وفي موقع آخر جرى دُفِنَ مئتان وتسع وستون ضحية بشرية إلى جانب الفرعون، كما رافقت زوجة الفرعون «ميرنيت» أحد وأربعون ضحيةً، في حين أن الفرعون «أوداجي» رافقه مئة وأربع وسبعون ضحية.

يُلاحظُ أنَّ الضحايا يكونون من أصحاب الحرف؛ كالخزافين والنجارين والحجارين والرسميين وصانعي السفن، كلُّ مع أدواته، وتعود هذه القبور إلى ما يقارب

(1) د. نائل حنون- عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين القديمة- وزارة الثقافة- بغداد- 1985.

3100 - 3000 ق.م. وفي موقع أبو ضنة في سوريا الذي يعود إلى مطلع الألف الثالث ق.م، عُثِرَ على عمليات دفنٍ تحت أرضية البيوت في جرارٍ فخارية.

في ماري لُوْحِظَ أنه في الألف الثالث قبل الميلاد كان السكان يدفنون موتاهم تحت التراب دون تابوت، وكانت الجثة تُحاط بطبقة من الجرار الصغيرة، أما المرفقات الجنائزية فكانت أوانٍ فخارية تحوي الأطعمة والشراب لِيُؤَمِّنَ لِلْمَيِّتِ قوت يومه في العالم الآخر، أما قبور الملوك فكانت، منذ مطلع الألف الثالث ق.م، قبوراً حجرية ضخمة.⁽¹⁾

الطقوس الجنائزية⁽²⁾:

تُعَدُّ الطقوس الجنائزية ذات أهمية في مجتمعات المشرق، فقد ساد الاعتقاد أنه إذا لم تُقَدَّم القرابين للموتى، الطعام أو الماء أو إقامة الشعائر على الأموات في يوم النذب، فسوف تخرج أرواح هؤلاء الموتى المحرومين بهيئة أشباح تعكّرُ صفو حياة الأحياء وتعيثُ فساداً وشرأ؛ فإحدى التعاويذ المقروءة على نصٍّ مسماريٍّ تقول على لسان إنسان يبدو أنه ضحيةٍ مريضٍ أو شأنٍ سلبيٍّ فهمَ منه أنه يعاني شبحاً، قالت التعويذة:

«سواء كنت شبح شخص غير مدفون، أو كنت شبحاً لم يلقَ عنايةً لائقة، أو شبح الميت الذي لم تُقَدَّم له القرابين الجنائزية أو الذي لم يسكب له الماء...»، كما أن أحد النصوص يتحدث عن «أن الأشباح الشريرة تخرج من القبر من أجل الحصول على الطعام والماء».

النصوص تتحدث أيضاً عن شخص ابتليَ بمرضٍ ما، وحسب اعتقاده بروح شريرة، حيث يتضرع إلى أرواح الموتى من عائلته لينقذوه فيقول بحس وجداني عال: «يا أرواح عائلتي، يا أرواح أبي وأمي وأجدادي وأخي وأختي وكل أهلي وأقربائي! كنت أقدمُ إليك القرابين الجنائزية وأسكب الماء لكِ وأبذل العناية لكِ وأبجلك. قفي الآن أمام شمش وجلجامش واعرضي قضيتي واحصلي على قرار رافةٍ بحقي، ليتسلم نمتار الروح الشريرة التي في جسدي وأعصابي وليمنعها نيدو من العودة ثانية، خذي هذه الروح إلى أرض اللاعودة ودعيني، أنا خادمك، حياً. سأقدم الماء البارد لشربك فامنحيني الحياة لأعني بمديحك».

(1) أندريه بارو- ماري- مرجع سابق.

(2) استندنا في هذه الوثائق إلى مؤلف د. حنون- مرجع سابق

وثمة رسالة من حاكم ترقا «التابعة لماري» إلى ملك ماري زمري ليم، يشير فيها الأول إلى أن الإله دجن طلباً بوساطة الكاهن ماخو إقامة الشعائر الجنائزية لروح يخدون ليم والد زمري ليم، حيث يبدو أن زمري ليم انقطع عن إقامة الشعائر لوالده المتوفى. وها هو آشور بانبيعل يذكر في أحد نصوصه: «لقد قمت بإعادة الشعائر التي تشمل الطعام والشراب المقدم لأرواح الموتى الملوك التي كانت مهملة، وأنجزت كل ما هو حسن للإله والإنسان، للميت والحي».

وكان موعد إقامة الشعائر والطقوس يختلف بين المدن، ففي بابل مثلاً كان يتم في التاسع والعشرين من كل شهر، حيث يعتقد أن أرواح الموتى تتجمع في ذلك اليوم والقمر محاقاً. وكان هذا اليوم يوصف بيوم سكب الماء.

ويوم القرايين الجنائزية، يوم الكآبة، يوم الندب، وفي إبلا كان يتم في الشهر الحادي عشر من السنة وهو شهر عشتار، أما العيد السنوي لإقامة الطقوس فكان يتم في شهر آب في بابل وفي آشور كان يتم تقديم الطقوس في شهر شباط.

وينبغي الإشارة أيضاً إلى أن الطقوس الجنائزية كانت تقام أيضاً لإرضاء الآلهة لا سيما آلهة العالم السفلي.

وقد جاء في أحد النصوص: «إنك تقدم القرايين الجنائزية من أجل الحقل الذي لا ينتج ومن أجل الأقتية التي لا تجلب الماء. إنك تقدم القرايين لآلهة العالم السفلي».

ومن طرائف الأمور أن إحدى الوثائق الأكادية التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد تذكر أن من يُتبنى عليه أن يلتزم بتقديم القرايين إلى روح متبنيه بعد موته، فقد جاء في النص: «في حياتي تقومين بإطعامي وحين أموت تقدمين لي القرايين الجنائزية».

الحرمان من الدفن عقابٌ من المجتمع ضد الأفراد في الحروب، وقد كان لمن لا يمثل للقانون في مدن الدول آنذاك، إضافة إلى أن الانتقام خلال الحروب كان يركز على نبش أضرحة ملوك الأعداء؛ ففي الأدعية كان يقال: «عسى أن يتهاوى جسده ولا يدفنه أحد».

«وعسى ألا يدفن جسده في التراب» بل إن أحد القوانين الآشورية يذكر: «إذا أجهضت امرأة حامل نفسها فيجب أن يحاكموها، وإن أدينت توضع على الخازوق ولا تدفن، وإذا ماتت أثناء الإجهاض فيجب أن توضع على الخازوق لا تدفن جثتها».

وعلى مسلة تعود إلى أمير لاجاش «آي - أناتم» وتؤرخ إلى ما يقارب 2600 ق.م، ثمة صورٌ منقوشة تصور انتصاراته على أهل مدينة «أوما»، حيث يظهر القتلى مكدسين على الأرض، وجنود أمير لجش يسيرون فوقها، وقد نقشت رسوم النصور على المسلة وهي تطير من ميدان المعركة حاملةً بمناقيرها ومخالبها رؤوسَ وأيدي القتلى من الأعداء.⁽¹⁾ ويؤكد ذلك نصٌ يصفُ فيه الأمير حربَهُ وانتقامه فيقول بتصرف:

«ذبحت جيش أوما في مدينتهم وتركت أجسادهم في السهل للطيور والوحوش، لتلتهمها، ومن ثمَّ كومت هياكلهم خمسةً أكوام في خمسة مواضع منفصلة». وتذكر حوليات آشور بانيبعل أنه في حربته ضد العيلاميين حربٌ أضرحة ملوكهم، وأخرج عظامهم ونقلها معه إلى آشور كأسلوب انتقام يقول: «لقد نبشت قبور ملوكهم السابقين والمتأخرين الذين لم يخافوا من هيبة آشور، والذين أفلقوا أسلافي من الملوك، لقد نبشتها وعرضت هياكلهم للشمس وأخذت عظامهم إلى بلاد آشور، لقد فرضت الإزعاج على أرواحهم وقطعت عنهم قرايين الطعام وسكب الماء».

ومن الطريف في هذا المجال ما فعله «مردوك - بلادان» حين تمرد على الملك سنحاريب، فعقب إخفاق تمرده أخرج هياكل أسلافه وفرَّ بها بعيداً، خشية أن يلحق سنحاريب الأذى بها.

التوابيت:

مع بداية العصور التاريخية كانت الجثث تدفنُ بعد لفِّها بحصر من القصب، أو تدفنُ في قبرٍ مبطن بالحصر، وهذا ما أكدته مواقع «أور - تل صوان - كيش».

كما استعملت التوابيت الخشبية في كيش، وعثرت على توابيت طينية في موقع خفاجة.

وشاع الدفن في الجرار الفخارية في المشرق، كما استعملت السلالُ لدفن الأطفال. وعثرت على توابيت فخارية تشبه «طشت الغسيل»، حيث كانت تُغطى بجذوع النخيل أو أغطية فخارية أو طينية، ففي موقع الأنصاري قرب حلب 2400 - 1600 ق.م عثرت على مقبرة تشبه مقابر بلاد الشام من الناحية المعمارية، ومن ناحية المرفقات الجنائزية، لا سيما مقابر

(1) أندرية بارو- سومر- مرجع سابق.

قطنة والسلنكحية وتل برسيب وإبلا، وحوى أحد القبور هيكلاً عظيماً لامرأة داخل جرة كبيرة لها فوهتان.

وفي ماري شاع الدفن داخل الجرار الفخارية خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وقد عثر على جرتين كبيرتين كانت فوهة كل منهما مقابلة الأخرى. وكان من أهم المرفقات الجنائزية ثلاثة أقنعة لرجال مرد مع زوائد متطاوله تمثل الأذنين، وقد ثبت القناع على صدر الميت. والجدير ذكره أن الأقنعة هذه عثر عليها في مواقع عديدة في الجناح الشرقي للمشرق وفي أجاريت.

شعائر الموت في إبلا:

تقول مرغريت يون: «من البحر المتوسط وحتى الفرات يلاحظ استمرار العديد من مظاهر الأثاث الجنائزي للمدافن».

فإبلا لا تشذ عن هذا الأمر، ويبدو على نحو عام أن شعائر الموت ومعتقداته، بدءاً من السيادة العمورية على مدن المشرق القديم، قد تجانست ضمن معايير معينة وضمن نظام واحد مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف البيئة الخاصة بين مدينة وأخرى.

فقد عُثِرَ في إبلا على مقبرة ملكية أمورية تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وعن هذا يقول باولو ماتيه: «إن هذا التقليد الإبلائي يعود إلى فجر التاريخ، وقد شاع هذا التقليد - ويقصد المقبرة الملكية تحت القصر الملكي وفي قلب المدينة - في جنوب الرافدين منذ منتصف الألف الثالث ق.م، كما في أور». فقد ظهرت تحت أرضيات القصر الغربي مقبرة ملكية هي أربعة مدافن، أهمها مدفن الأميرة ومدفن سيد الماعز ومدفن الخزانات.⁽¹⁾

مدفن الأميرة يعود إلى ما يقارب 1800 ق.م، أما مدفن سيد الماعز فيؤرخ نحو 1750 ق.م، وفي هذا المدفن عثر على تميمتين من العاج إحداهما تشي بطقس جنائزي، حيث أنها تتألف من سلسلتين من الصفائح العاجية الرقيقة، وقد حوى المشهد الأول منها على وليمة جنائزية مؤلفة من رجل عاري الرأس، يمسك بعضاً، ويجلس رواء منضدة مليئة بأرغفة الخبز، ويقف أمامه عدد من الخدم ورجل وامرأة عاريين، أما المشهد الثاني فيتألف من قردين في حالة ابتهاج أمام ثور، ومن شكل ثانوي لرجل يحمل فأساً. وقد فسر ماتيه هذا

(1) د. بشار خليف- دراسات في حضارة المشرق العربي القديم- وكذلك: حضارة مدينة ماري.

المشهد مستنداً إلى أبيات من شعر أجاريتي تتعلق بالإله «كيريت»، حيث يتولى الابن الأكبر والابنة الكبرى مهمّة مراسم دفن والدهما الملك المتوفى، ففي المشهد الأول الملك هو صاحب الوليمة الجنائزية، ومن ثم تنسخ روحه بعد الوفاة على هيئة ثور يبتهل له القردان. ويشير ماتيه إلى تفسير هذه المشاهد وفق أسطورة تموز.

والجدير ذكره أنّ مدافن تلك الحقبة تشبه مثيلاتها في أريحا في فلسطين وجبيل في لبنان.

وقد دلّت المقبرة الأمورية في إبلا على ظاهرة عبادة الأجداد أو عبادة الملوك «ماتيه» ونحن نعتقد أنّ الظاهرة هنا لا تعبر عن عبادة الأجداد بالمعنى القبلي؛ لأن نظام إبلا السياسي شهد ملوكاً مختلفين ولا يشكلون علاقةً أسرية متوارثة، ومن ثمّ فنحن لأميل للأخذ بتقديس الملوك بعد موتهم.

شعائر الموت في أجاريت:

اكتُشفت مدافن متوضعة تحت أرضيات السكن، فالبيت الأجاريتي عموماً يحتوي طابقه الأرضي على مركز للأعمال الحرفية أو المنزلية والمستودعات، ويكون مفتوحاً على الشارع. وثمة طابق ثانٍ مخصصٌ لسكن العائلة، وربما هناك طابق ثالث ثم السطح. أمّا تحت الطابق الأرضي فيوضعُ مدفن العائلة ويكون لها باب إلى الشارع مباشرةً إضافةً إلى ارتباطها ببقية أجزاء المنزل.⁽¹⁾

عُثِرَ في أحد المدافن ضمن المنازل على مرفقات جنائزية تضمُّ بيوض النعام؛ حيث كانت تستورد من مدن المشرق الأخرى، وكانت القبور تحوي الأسلحة والحليّ، وعُثِرَ في القصر الملكي على مدافن ملكية كبيرة تعود إلى ما يقارب 1400 ق.م، وحوى أحد القبور على منحوتة لموسيقي يعزف على صنّاجتين.

وقد قرئ أحد النصوص الأجاريتية التي تتحدث عن أرواح الموتى «الابوم»، ويبدو أنّها مرتبطةٌ بعبادة أو تأليه الموتى، ربما الملوك، أو إقامة شعائر جنائزية فيما يُسمّى بالمرزح.

ويبدو أنّ المرزح كان على شكل مؤسسة اجتماعية تعنى الطقوس الجنائزية التي تقام في دار مرزح لبكاء الأموات، وربما استذكارهم، حيث يقسم الخبز ويشرب النبيذ للتعازي

(1) الحوليات الأثرية السورية- 29 - 30 - مجلد خاص بأجاريت.

بالأموات. وفعل رزح يعني السقوط على الأرض، وقد افترض «جوناس جرينفلد» أن ثمة توافقاً بين المرزح وبين طقس كيسبو الرافدي، فالمدعوون إلى الوليمة هم الأجداد وأرواح الموتى.⁽¹⁾

ويبدو أن المرزح كان يشملُ وليمة جنازية تُدعى لها أرواح الأجداد لذكراهم والتبرك بهم. وفيما يعاصر أجاريت نتجه نحو أريحا في فلسطين، حيث عُثِرَ على مدافن شبيهة ببقية مدافن بلاد الشام، ولكنَّ الشيء الجديد هنا أنَّ المرفقات الجنازية جديرةٌ بأن نطلق عليها اسم أثاث جنازي، فقد حوى أحد المدافن أثاثاً «مناضد وطاولات وكراسي خشبية» واستلقى الميت وسط الغرفة على سرير بالقرب من طاولة، محملة بقطع من أدوات مهنية، استعملها الميت في حياته. ويبدو أنَّ الأثاث الجنازي يشبه ما حوته المدافن المصرية.⁽²⁾

(1) المرجع السابق.

(2) بريتنس - مرجع سابق.

العالم السفلي عند المشرقيين القدماء:

يتألف العالم السفلي حسب أحد النصوص الآشورية التي تعود حقبة السيادة الأمورية على المشرق 2000 ق.م إلى أن الأرض تُقسّم ثلاث طبقات:

الأرض العليا: أرسيتو إلتو «بالأكادية».

الأرض الوسطى: أرسيتو قبليتو.

الأرض السفلى (العالم السفلي): أرسيتو سبليتو.

أما مداخل العالم السفلي فهي القبر وأيضاً مدخل يقع عند مغيب الشمس.

وفوق العالم السفلي الذي يوضع في الطبقة الأخيرة تحت الأرض فقد كانت تمتد مياه العمق، وثمة نهرٌ يؤدي إلى العالم الأسفل يطلق عليه بالأكادية نهر «عبر» وهو يحيط بالمدن، والاعتقاد آنذاك أنه لا يمكن العبور للموتى بهذا النهر والوصول إلى أسوار مدينة الموتى إلا بعد إقامة الشعائر الجنائزية وتقديم القرابين لآلهة العالم السفلي، عبّر نهر «عبر»؛ لهذا كانت المرفقات الجنائزية ترفق بسفن ونماذج منها، إضافة إلى قطع نقود سوف يأخذها المسؤول عن عبور الموتى للعالم السفلي.

بصورة عامة في المشرق، شهر شباط هو شهر أخذ الأحياء إلى الموت، وهذا الاعتقاد ما زال مستمراً في عصرنا الحديث.

وكان يسمى شهر نهر «عبر»، حسب الوثائق الآشورية ورد في أحد النصوص المشرقية العائدة إلى الألف الثاني ق.م: «دعهم يعبرون نهر العالم السفلي ولا يعودون».

ومن أسماء العالم السفلي وصفاته نلاحظ مدى تشابه الكلمات الأكادية مع الكلمات العربية، فالقبر في الأكادية: قبرو، وأرض الموتى: أرسيتو ميتوتي.

وأناس سفليون «في العالم الأسفل» نجدها في الأكادية: نسي سبلاتي. وخربة أي مقبرة نجدها في الأكادية: خربو.⁽¹⁾

شعائر الموت عند الآراميين:

دفن الآراميون موتاهم بطرق عادية، حيث دفنت الجثث داخل قبور مبنية على شكل غرف.

(1) حنون- مرجع سابق.

يشار هنا إلى أن شواهد القبور هي ابتكارٌ آرامي بامتياز، استمر إلى عصرنا الحاضر؛ ففي شمال عُثْرَ على شاهدة قبر ارتفاعها مترٌ ونصف متر، وتمثل مشهداً مائدةً تجلسُ إليها سيدة ترتدي ثياب الاحتفالات، وأمامها طاولة تحوي أصنافاً من المأكولات، وخلف المرأة تقفُ الوصيفة ويدها الأولى مذبة، ويدها الأخرى سكين.

يعتقد الدكتور أبو عساف أن هذا المشهد يصفُ تصويراً لعقيدة الحياة في العالم السفلي.⁽¹⁾

بالإضافة إلى شواهد القبور ظهرَ لدى الآراميين ابتكارُ التماثيل الجنائزية، حيث عُثِرَ عليها في عدة مدافن آرامية، ففي جوزن اكتُشِفَ تماثلان لامرأتين جالستين وتمثالٌ لرجلٍ وامرأة يجلسان على مقعد واحد، وقد اتسمت هذه التماثيل بالتعبير الواقعي لحالة الموت، حيث العيونُ مغمضة وتوحي الشخصوس بالجمود، دلالة على أنهم أموات.

وفي تل حلف عُثِرَ على تماثيل للموتى توضعُ شاهدةً لقبر، وانتشرت الكتابة تحت قوس شاهدة القبر، وعلى أسفل ثوب الميت؛ فمثلاً عُثِرَ على شاهدة قبر لكاهن «سن» المتوفى، حيث نقرأ أسفل الثوب على الشاهدة:

«سن - أرز - ابني» كاهن سن هو متوفى وهذه صورته وقبره. وينتهي النص بلعن كل من يسيء إليه. (أبو عساف - 1988).

وانتقالاً نحو تدمر في أول القرون الميلادية الثلاثة وما قبلها نحو قرن، لا نجدُ التدمريين اهتموا بالموت أكثر من الحياة.

تخلو المدافن من المرفقات الجنائزية الثمينة لغلبة العقلية التجارية على الاعتقادات الماورائية، فمن العبث وضعُ أشياء ثمينة مع الميت الذاهب إلى «بيت عالما»؛ أي بيت الأبدية إلا فيما ندر؛ لكن الميسورين بذخوا في إعمار مدافنهم، وهناك متاجرة بسكن المقابر أيضاً وإضافة أموات جدد.

اختُصر الموت بكلمة «حبل» أي «أسف» على الميت. ولم تكن التماثيل الجنائزية إلا لعنصر شاب، حيث تنعدمُ التماثيل التي تخصُّ الشيخوخة، مقابل حضور الأطفال.

(1) علي أبو عساف - الآراميون - مرجع سابق.

ويبدو أنه لم يكن لديهم اعتقادٌ بحياةٍ مادية بعد الموت بدليل استعمالهم المدافن البرجية في معارك الدفاع عن تدمر، بل كانوا إذا فتحت ثغرة في سور تدمر في أثناء الحروب، فسرعان ما يغلقونها بالقبور الحجرية. (خالد الأسعد- حوارات في الحضارة السورية).

الفن التدمري كان فناً جنائزياً بإخلاص.

الخلاصة المشرقية: إنَّ الموقف من الموت وظاهرته كان رافدياً أكثر تأثراً وانشغالاً به، منذ صرخة جلجامش في وجهه، ومنذ وصيته لبناء ضريح وفق نمط يدخل تحت عباءة البارانويا لا أكثر.

البيئة الطبيعية لعبت دورها في خلق موقف قاسٍ تجاه الموت، على خلاف ماتبدي في بلاد الشام.

وصفت «غابرييلا ماتيبه» موقفَ السوريين من الموت: «إنه نهاية مفتوحة على الحياة».⁽¹⁾

(1) د. بشار خليف- حوارات في الحضارة السورية- مرجع سابق.

خاتمة |

ليس ثمة خاتمة؛ فهل اكتمل حديثُ المشرق حتى نختمَ المشهدَ التاريخي ببدءٍ ومنتهى؟
لا نعتقد ذلك.

ثمة تلال كثيرة لم تنقب، ووثائق ما زالت طي الكتمان، الخطوط العريضة لانبثاق هذه الحضارة حاولنا مقاربتها بموضوعية، منذ أول المكونات العاقلة صعوداً إلى الألف الأول الميلادي.

الآفاق مفتوحة للجديد الآثاري، فليس ثمة إطلاق تاماً، ولا إنهاء ولا تبلور لفكرة.

النظر إلى المشرق كينونةً تاريخيةً فرضت نفسها، تلك الوثيقة المشرقية العائدة إلى الألف الثاني قبل الميلاد، التي تذكر أحوال ممالك المشرق شرقاً وغرباً لم تُشر إلى عائق فراتي بين الجناحين، لنقرأ:

«لا يوجد ملك قوي بمفرده، هناك عشرة ملوك أو خمسة عشر ملكاً أو حاكماً يسيرون في ركاب حمورابي ملك بابل، ومثلهم في ركاب ريم سن ملك لارسا، ومثلهم تابعون لملك اشنونا، ايال بي ايل، ومثلهم في ركاب أموت بي ايل ملك قطنا، وعشرون ملكاً يتبعون ياريم ليم ملك يمحاض».

إذاً، ليس في الأمر قضية تاريخ مركب على فكرة، ولكن للقصة تنمة هنا، لكلا الجناحين المشرقيين خصوصيةً حتمتها وقائع البيئة الطبيعية، والشخصية الاجتماعية تتشكل في معيارها الحاسم وفق بيئتها الطبيعية، وعليه فحين ننظر إلى الجناح الشامي نرى البعد المتوسطي حاضراً بقوة، فأثر في شخصية مجتمعاته وجعلها أكثر انفتاحاً بالوجه البحري على الثقافات المتوسطية، لهذا نجد مثلاً أن الهلينة لم تأخذ مداها في الجناح الرافدي نسبة إلى ما أخذته في الجناح الشامي.

«خميرة بلاد الشام أحسن من خميرة الرافدين بالنسبة إلى الثقافة اليونانية، وكانت أحسن من خميرة مصر؛ لأن مصر كانت حدودها بالإسكندرية».

هي فكرة للدكتور نقولا زيادة تأخذ سياقها الطبيعي في مناقشتنا هذه.

قاربنا المكونات الأولى، حضر المناخ بقوة بين صديق وعدو، بين تحريض واستجابة لمجتمعات تكيفت حتى بقيت.

الفرات خاصةً كان عصبَ الحضارةِ المشرقية، مياه، تجارة، طوفان، حروب، توطن، زراعة ومدن.

المعطيات تتراكم، مع انتهاء مؤلفنا حول التساؤلات الكبرى، الأصل السومري، الهوية الأكديّة المزعومة، وهكذا.

دراسات ارتباط الظواهر المناخية بحركة الاجتماع البشري تأخذ حيزها الموضوعي والمتجدد، وحالما ننهي كتابنا تصلنا أفكارٌ جديدة عن تأثيرات المناخ في نشوء الزراعة والمدن الأولى، لا سيما في الجنوب الرافدي.

«وجد علماء الآثار أدلة على هجرة جماعية من شمال بلاد الرافدين الأكثر اعتدالاً إلى المنطقة الجنوبية القاحلة قرابة 6400 قبل الميلاد. وعلى مدار ألف عام ماضية كان الناس يزرعون الأراضي الصالحة للزراعة في شمال بلاد الرافدين باستعمال مياه الأمطار الطبيعية لتوريد محاصيلهم، لذا تساءل علماء الآثار لمدة طويلة: لماذا انتقل القدماء من منطقة حيث يمكنهم الزراعة بسهولة لتبدأ حياة أصعب بكثير في الجنوب؟ قال هارفي وايس، منقب تل ليلان في سوريا، من جامعة ييل: يظهر سجل المناخ في بلاد الرافدين القديمة وحول العالم حدثاً مفاجئاً لتغير المناخ في عام 6400 B.C.، قرابة 8,200 عام من الكربون الإشعاعي قبل الحاضر.

استمرت مدة من التبريد الهائل والجفاف لمدة من مئتين إلى ثلاثمئة عام قادم. وعندما ضرب الجفاف الشديد والتبريد المنطقة لم يعد هناك ما يكفي من مياه الأمطار لاستمرار الزراعة في الشمال، ولم يكن الري ممكناً بسبب الطوبوغرافيا؛ لذلك ترك هؤلاء السكان أمام احتمالين: الحياة الرعوية أو الهجرة.

بدأ علماء الآثار باكتشاف أدلة على وجود مستوطنات في جنوب بلاد الرافدين بعد مدة وجيزة من عام 6400 قبل الميلاد.

في الجنوب منطقة قاحلة جداً لاستدامة زراعة اعتماداً الأمطار، وكان من الممكن أن يكون الري من نهري دجلة والفرات حيث تتدفق الأنهار على مستوى سهل، وزراعة الري أخذت من ثلاثة أضعاف إلى أربعة أضعاف جهد العمل الذي تطلبه الزراعة المطرية، ولكن زراعة الري كانت ستجعل إنتاج الفائض أسهل؛ لأن الغلة كانت أضعاف الزراعة المغذية بالأمطار.

يقول وايس: «إن فائض الانتاج يعني أن الناس يمكن أن يبدووا في التخصص في الحرف اليدوية بدوام كامل بدلاً من الاعتماد حصراً على الزراعة، مما يؤدي الى نشوء المجتمع والمدن الاولى»⁽¹⁾.

هل نفهم من هذا أن الظهور السومري خدعة وأن التأسيس الرافدي الجنوبي قبل العبيد هو حصيلة انسياح من الشمال نحو الجنوب؟

لهذا قلنا في البدء: ليس ثمة خاتمة، وإنما مرتكزات قامت عليها حضارة المشرق، كحال عمود فقري سيمتلئ بالمنجزات الحضارية.

وجدنا قيم التفاعل آخذة بروحية المشرق نحو فضاءات جديدة، ومنذ التفاعل الرعوي الزراعي المدني، وحتى جملة التفاعلات بين البيئات الاجتماعية الأصيلة والوافدة، ومن عمق هذا التفاعل سلباً أو إيجاباً تبلور المشرق بثقافته.

المدن الموروثة فالمؤسسة، عالم نشوء آخر في منحى الإبداع الإنشائي والمدني والعمراني، مخططات تتشابه في قصور الجناح الرافدي مع الجناح الشامي كالمعابد، وفي أحوال السكنى كذلك.

من التفكير الأول مروراً بالمحاكمات العقلية والذهنية، أنشأ المشرق منظومة قيمة ومعرفية أسهمت في تطور الفكر الميثولوجي والديني فيما بعد، وحين كتب شاء أن يوثق ما تفوه به حتى مليون وثيقة وستزيد.

في حركة الصراع البشري كان الجناح الرافدي أكثر إخلاصاً للقتال والتمدد، مقابل الجناح الشامي الذي لم يُعرِ الواقع العسكري وصراعاته بعداً توسعياً، عدا بعض حالات من الدفاع عن نفس لا أكثر.

التفكك والتشرد السياسي صفةً مشرقيةً بامتياز، لم تُترك الأمور لتفاعلات تؤدي إلى اتحادات أو وحدات، والعامل العسكري أدى دوره في نشوء امبراطوريات مؤقتة، لكن وحدة المجتمعات القائمة في ثقافة واحدة هي التي شكّلت ضامن التواصل الحضارية والاستمرارية.

(1) https://leilan.yale.edu/.../pdf/geotimesfebruary_2004.pdf

لريادته الزمنية منح المشرق ما منح، ثم أثر وتأثر، وهو المحاط بمراكز قوية تتحين الفرص للانقضاض. الريادية والأقدمية والأفضلية حاضرة، لكنّها لم تكن للتباهي والاستعلاء؛ بل للضرورة الإنسانية.

مجتمعات المشرق الآن مجتمعات تاريخية، تحيا ثقافتها الضاربة في القدم عبر اللاشعور الجمعي مع التراكمات المريضة على مر العصور.

الربط بين الماضي والحاضر والمستقبل يحتاج إلى نور من الوعي المحايد؛ للتخفيف من معالم التشكلات الكاذبة في المشرق، وتاريخياً ليس بالإمكان هضم ما لا يُهضم، فالمنظومة الحضارية والثقافية قائمةٌ في حد ذاتها.

لم ينته مشوار المشرق بعد، فثمة ما يدعو إلى الانتظار والبحث والتأمل في كون هذا المركز مشعاً ولو حلّ الظلام.

قائمة المصادر والمراجع

- براين فاغان- الصيف الطويل- عالم المعرفة الكويتية- 2007 - عدد 340.
- فرانسوا بون- عصور ما قبل التاريخ بوتقة الإنسان- المركز القومي للترجمة- مصر- 2013.
- رالف لتون- شجرة الحضارة- قصة الإنسان- ج-1 المركز القومي للترجمة- مصر- 2010.
- زيدان كفاقي- بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ- جامعة اليرموك- الأردن- 2011.
- إيان تاتيرسول- العالم من البدايات- هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث- 2011.
- سينيشيا براون- تاريخ الأحداث الكبرى في التاريخ من الانفجار إلى الزمن الحاضر- المركز القومي للترجمة- مصر- 2010.
- الوحدة الحضارية للوطن العربي من خلال المكتشفات الأثرية- مؤتمر- وزارة الثقافة السورية- 2000.
- جاك كوفان- الألوهية والزراعة- ثورة الرموز- وزارة الثقافة السورية- 1999.
- سلطان محيسن- المزارعون الأوائل- دار الأبجدية- دمشق- 1994.
- سلطان محيسن- عصور ما قبل التاريخ- منشورات جامعة- 2004 - 2003.
- علي أبو عساف- آثار الممالك القديمة بالجزيرة وطور عابدين- وزارة الثقافة- سوريا- 2011.
- جان شالين- الإنسان نشوؤه وارتقاؤه- دار بترا- دمشق- 2005.
- د. بشار خليف- نشوء فكرة الألوهة- دار الأهالي- دمشق- 2011.
- مجموعة باحثين- المدينة في سوريا وأقاليمها- المورثات والمتحولات- دار الجندي- 2004.
- بيتر فارب- بنو الإنسان- عالم المعرفة الكويتية- 1983 - عدد 67.
- يوفال هراري- العاقل- دار منجول- الهند- 2018.
- بورهارد برينتس- نشوء الحضارات القديمة- دار الأبجدية- دمشق- 1989.
- بونغارد ليفين الجديد حول الشرق القديم- موسكو- 1988.
- ج. برونوفسكي- ارتقاء الإنسان- عالم المعرفة الكويتية- عدد 39 - 1981.
- جين اتشنسن- بذور الكلام- وزارة الثقافة السورية- 2009.

- سوريا وأصل الكتابة- دار بريولس- الترجمة العربية وزارة الثقافة- سوريا.
- مايكل ترايمبل- الروح في الدماغ- دار علاء الدين- دمشق- 2011.
- كريستين تمبل- المخ البشري- عالم المعرفة الكويتية- 1978 - عدد 287.
- كارل ساجان- تنانين عدن- اتحاد كتاب العرب- دمشق- 1996.
- غولايف- المدن الأولى- دار التقدم موسكو- 1989.
- عيد مرعي- تاريخ بلاد الرافدين- دار الأبجدية- دمشق- 1991.
- عبد الله حلو- صراع الممالك في تاريخ سوريا القديم- دار بيسان- بيروت- 1999.
- فوتيك زاماروفسكي- في البدء كانت سومر- جامعة دمشق- الأدب العلمي- دمشق- 2015.
- نائل حنون- حقيقة السومريين- دار الزمان- دمشق- 2007.
- زينون كاسيدوفسكي- الواقع والأسطورة في التوراة- دار الأبجدية- 1990.
- أ. كوندراتوف- الطوفان العظيم- دار وهران- قبرص- 1986.
- جان بوترو- بابل الكتاب المقدس- دار كنعان- دمشق- 1994.
- مجموعة باحثين- من القرية في العصر الحجري إلى المدينة السورية الرافدية- وزارة الثقافة- دمشق- 2012.
- عيد مرعي- تاريخ سوريا القديم- وزارة الثقافة السورية- 2010.
- ه. فرانكفورت- فجر الحضارة في الشرق الأدنى- دار مكتبة الحياة.
- ايف كوبنز- أفريقيا وقصة الإنسان- ت- د. سلطان محيسن- دار شمأل- 1996 - ط-1 دمشق- سوريا.
- فرنسيس أور- حضارات العصر الحجري القديم- ت- د. سلطان محيسن- مطابع ألف باء- ط-1- 1989 دمشق.
- أرنولد توينبي- تاريخ البشرية- ت: د. نقولا زيادة- الأهلية للنشر- 1981 - بيروت.
- هنري فرانكفورت وآخرون- ما قبل الفلسفة- ت: جبرا إبراهيم جبرا- المؤسسة العربية للدراسات- 1980- بيروت.
- د.م ادزارد. بوب. ف رولينغ- قاموس الآلهة والأساطير- ت: وحيد خياطة- مكتبة سومر- 1987 - حلب.

- د. بشار خليف- مملكة ماري وفق أحدث الكشوفات الأثرية- دار الرائي- 2005 - دمشق.
- جورج كونتينو- الحياة اليومية في بابل آشور- ت: سليم طه التكريتي- وزارة الثقافة العراقية- 1986 ط-2 بغداد.
- جان بوترو- الديانة عند البابليين- ت: د. وليد الجادر- مركز الإنماء الحضاري 2005 - حلب.
- جرجي كنعان- تاريخ الله- مكتبة سومر- 1990 - حلب.
- طه باقر- ملحمة جلجامش- وزارة الإعلام العراقية- 1975 - بغداد.
- د. نائل حنون- ملحمة جلجامش- دار الخريف- 2006 - دمشق.
- ف. فون زودن- مدخل إلى حضارات الشرق القديم- ت: د. فاروق اسماعيل- دار المدى- 2003- دمشق.
- د. بشار خليف- دراسات في حضارة المشرق العربي القديم- مركز الإنماء الحضاري- حلب- 2003.
- صموئيل هوك- ديانة بابل وآشور- ت: هاد خياطة- دار العربي- 1987 - دمشق.
- أنطون مورتكات- فنون سومر وأكاد- ت: وحيد خياطة- دار العربي- 1988 - دمشق.
- كارين أرمسترونغ- الله والإنسان- ت: محمد الجورا- دار الحصاد- 1996 ط-1 دمشق.
- ماريو مونييه- الآلهة السورية- لوقيان السميساطي- ت: موسى ديب الخوري- دار الأبجدية- 1992 ط-1 دمشق.
- جان ماري دينزر وآخرون- المعبد السوري- ت: موسى ديب الخوري- دار الأبجدية- 1996 ط-1 دمشق.
- رونه دوسو- الديانات السورية القديمة- ت: موسى ديب الخوري- دار الأبجدية- 1996 ط-1 دمشق.
- ألفرد هالدان- العموريون- ت: د. شوقي شعث- دار الأبجدية- 1993 - ط-1 دمشق.
- د. جواد علي- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام- نسخة إلكترونية مصورة.
- د. بشار خليف- حوارات في الحضارة السورية- دار الرائي- 2008 - ط-1 دمشق.
- سبتينو موسكاتي- الحضارة الفينيقية- ت: نهاد خياطة- دار العربي- 1988 - ط-1 دمشق.

- اسحق شيفمان- ثقافة أجازيت- ت: حسان إسحاق- دار الأبجدية- 1988 - ط-1 دمشق.
- اسحق شيفمان- مجتمع أجازيت- ت: حسان إسحاق- دار الأبجدية- 1988 - ط-1 دمشق.
- جان مازيل- تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية- ت: ربا الخش- دار الحوار- 1988 - ط-1 سوريا.
- هورست كلينغل- تاريخ سورية السياسي- ت: سيف الدين دياب- دار المتنبى- 1998 - ط-1 دمشق.
- جيمس بريستد- العصور القديمة- ت: داود قربان- مؤسسة عز الدين- 1983 - بيروت.
- د. علي أبو عساف- الآراميون- دار الأمانى- 1988 - ط-1 سوريا.
- د. علي أبو عساف- آثار الممالك القديمة في سورية- وزارة الثقافة السورية- 1988- ط-1 دمشق.
- دوبون سومير- الآراميون- ت: ناظم الجندي- دار الأمانى- 1988 - ط-1 سوريا.
- رونه دوسو- العرب في سوريا قبل الإسلام- ت: عبد الحميد الدواخلي- دار الحداثة- ط-2-1985 بيروت.
- سهيل قاشا- الحكمة في وادي الرافدين- بغداد- 1983.
- جيوفاني غاريني وآخرون- أبحاث في الجزيرة العربية الجنوبية قبل الإسلام- ت: نجيب غزاوي- دار الأبجدية- 1996 - ط-1 دمشق.
- د. نقولا زيادة- المسيحية والعرب- دار قدمس- 2000 - ط-1 دمشق.
- د. نقولا زيادة- في سبيل البحث عن الله- الأهلية للنشر- 2000 ط-1 بيروت.
- حربي عباس عطيتو- ملامح الفكر الفلسفي والديني في مدرسة الإسكندرية القديمة- دار العلوم العربية- 1992 - ط-1 بيروت.
- زنوبيا وتدمر- المؤتمر الدولي- جامعة البعث- 2003 - سوريا.
- فرانتس التهايم- إله الشمس الحمصي- ت: ايرينا داود- دار العربي- 1990 ط-1 دمشق.
- خ. تكسيدور- كنيفه- الحياة الدينية في سورية قبل الإسلام- ت: موسى الخوري- دار الأبجدية- 1996 ط-1 دمشق.
- جلانفيل داووني- أنطاكية القديمة- ت: إبراهيم نصحي- دار النهضة- 1967 مصر.

- هورست كلينغل - آثار سورية القديمة - ت: قاسم طوير - وزارة الثقافة السورية - 1985 - دمشق.
- وثائق الآثار السورية - وزارة الثقافة السورية - 2002 - دمشق.
- د. بشار خليف - العبرانيون في تاريخ المشرق العربي القديم - دار الرائي - 2004 ط-1 - دمشق.
- فيليب حتي وآخرون - تاريخ العرب - دار الكشف - 2007 ط-12 بيروت.
- جاك كوفان - ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام - ت: سلطان محيسن - دار دمشق - 1988 ط-1 دمشق.
- سامي سعيد أحمد ورضا جواد الهاشمي - تاريخ الشرق الأدنى القديم - إيران والأناضول - وزارة التعليم - بغداد.
- مجموعة مؤلفين - شريعة حمورابي - ت: أسامة سراس - دار العربي - 1988 ط-1 دمشق.
- دومينيك بوناتز - هارتموت كونه - الأنهار والبادي - وزارة الثقافة السورية - 1999.
- زينون كاسيدوفسكي - الواقع والأسطورة في التوراة - دار الأبجدية - دمشق - 1990
- صموئيل كريمر - من ألواح سومر.
- مجموعة مؤلفين - الشرق القديم ونحن - دار المدى - دمشق - 2007.
- د. عدنان البني - المدخل إلى قصة الكتابة في المشرق العربي القديم - دمشق - 2001.
- فيصل عبد الله - مقدمة في علم الأكاديات - دار الأبجدية - دمشق - 1990.
- يوهانس فريدرش - تاريخ الكتابة - وزارة الثقافة السورية - 2004.
- عامر الجميلي - الكاتب في بلاد الرافدين القديمة - اتحاد الكتاب العرب - 2005 - دمشق.
- ألبير نقاش - حسني زينة - أخذة كيش - دار المطبوعات - لبنان - 1989.
- د. صبحي رشيد - تاريخ الفن في العراق القديم - ج-1 المؤسسة الإسلامية للطباعة بيروت - لبنان.
- الأختام الأسطوانية في سوريا - معهد اللغات الشرقية - جامعة تونيفن - 1980.
- د. علي أبو عساف - فنون الممالك القديمة في سوريا - دار شمال.
- توفيق سليمان - دراسات في حضارات غرب آسية القديمة - دار دمشق - 1985.

- نائل حنون- المدافن والعاقد بلاد الرافدين القديمة- دار الخريف- دمشق- 2006.
- شاه محمد علي الصيواني- أور- وزارة الإعلام- بغداد- 1976.
- إبلا- مجموعة باحثين- ت: قاسم طوير- دمشق- 1984.
- المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية- Ifapo- 1989.
- أندريه بارو- ماري- وزارة الثقافة السورية- 1979.
- أنطون مورتكات- تاريخ الشرق الأدنى القديم- دمشق- 1967.
- سبتينو موسكاتي- الحضارات السامية القديمة- ت: د. السيد يعقوب بكر دار الرقي- بيروت- 1986.
- فيليب حتي- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين- ت: جورج حداد- عبد الكريم رافق- دار الثقافة- بيروت- 1982.
- د. بشار خليف- حضارة مدينة ماري- جامعة دمشق- الأدب العلمي- 2018.
- جاك بيرين- الحضارة السومرية- ت: عزمي سكر- عالم الكتب- بيروت- 1999.
- قاسم الشواف- ديوان الأساطير- دار الساقى- 1999.
- مجموعة مؤلفين- تاريخ الكتابة- مكتبة الإسكندرية- 2005.
- سامي الأحمد- تاريخ فلسطين القديم- سلسلة دراسات فلسطينية 15.
- هورست كلينغل- حمورابي ملك بابل وعصره- وزارة الثقافة- بغداد- 1982.
- عاصمة العاصي- فنون آثار مملكة قطنا القديمة- 2005 - دمشق.
- محمد العزب موسى- هزيمة الهكسوس- مطابع الدار- القاهرة.
- إريك اتش كلاين- انهيار الحضارة 1177 ق.م- مؤسسة هندايوي- المملكة المتحدة- 2020.
- جيمس بريستيد- تطور الفكر والدين في مصر القديمة.
- عبد العزيز صالح- الشرق الأدنى القديم- مكتبة أنجلو- القاهرة- 1973.
- فاروق إسماعيل- مراسلات العمارة الدولية- إنانا للنشر- دمشق- 2010.
- صفية سعادة- أجاريت- دار فكر- لبنان- 1982.
- قاسم شواف- أخبار أجاريتية- دار طلاس- دمشق- 1999.

- بلاندين كير - أيوب- فيلا- النساء في أغاريت- الأبجدية- دمشق- 1990.
- مجموعة مؤلفين 2018 مملكة أجاريت- وزارة الثقافة السورية- 2018.
- علي أبو عساف- نصوص أدبية من أجاريت- وزارة الثقافة السورية- 2018.
- توماس طومسون- الماضي الخرافي- دار قدمس- دمشق- 2003.
- جان بوترو- ولادة إله التوراة والمؤرخ- دار الكلمة- دمشق- 1990.
- أحمد سوسة- العرب واليهود في التاريخ- دار العربي- دمشق.
- اسحق دويتشر- من هو اليهودي- دمشق- 1967.
- آرثر كوستلر- إمبراطورية الخزر وميراثها- دار الجليل- دمشق- 1985.
- فرانك ولبانك- العالم الهلنستي- المركز القومي للترجمة- القاهرة- 2009.
- ديمتري زهيراتي- الإسكندر- دار طلاس- 1999.
- فوكس- بيرن- الإسكندر الأكبر- دار مطابع المستقبل- إسكندرية.
- مفيد رائف العابد- سورية في عصر السلوقيين- دمشق- دار شمال- 1993.
- ي. بيكرمان- الدولة السلوقية- دار الأبجدية- دمشق- 1993.
- أندريه بارو- بلاد آشور- وزارة الإعلام العراقية- 1980.
- جورج رو- العراق القديم- بغداد- 1984.
- أسامة يحيى- أبحاث في تاريخ المشرق الأدنى القديم- آشور بنيعل للكتاب الإلكتروني- بغداد- 2014.
- د. إحسان عباس- تاريخ دولة الأنباط- دار الشروق- الأردن- 1987.
- أرنست ستراناد- أضواء جديدة على تاريخ وآثار بلاد الشام- دمشق- 1989.
- إسحق شيفمان- المجتمع السوري القديم- مؤسسة الوحدة- دمشق- 1987.
- موريس سارتر- سوريا في العصور الكلاسيكية- وزارة الثقافة- سوريا- 2008.
- د. صلاح الصالحي- بلاد ما بين النهرين- بغداد- 2017.
- د. أحمد هبو- الأبجدية- دار الحوار- 1984.
- سهيل قاشا- أحيقار- دار بيسان- بيروت- 2005.

- حسن فاضل جواد- كتاب حكمة الكلدانيين- بغداد- 2000.
- أرنولد هاووزر- الفن والمجتمع عبر التاريخ- دار الوفاء- مصر- 2005.
- الإنسان ورموزه- كارل غوستاف يونغ- دار منارات- عمان- 1987.
- أندريه لوروا غوران- أديان ما قبل التاريخ- المؤسسة الجامعية للدراسات- بيروت- 2006.
- فاتح وأدونيس- حوار- غاليري أتاسي- دمشق- 2009.
- يان إيلينيك- الفن عند الإنسان البدائي- دار الحصاد- دمشق- 1994.
- إيتيان سوريو- تقابل الفنون- وزارة الثقافة- سوريا- 1993.
- زهير الصاحب- تاريخ الفن في بلاد الرافدين- 2019.
- يوليوس ليبس- بدايات الثقافة الإنسانية- وزارة الثقافة- سوريا- 1988.
- مجموعة مؤلفين- دراسات أجزائية- دار المنار- 1988.
- روبرت هيلند- تاريخ العرب في جزيرة العرب- دار قدمس- 2010.
- عيد مرعي- التقويم وحساب الزمن في حضارات الشرق القديم- وزارة الثقافة- سوريا- 2016.
- فريد سباير- التاريخ الكبير ومستقبل البشرية- المركز القومي للترجمة- مصر- 2006.
- أ. ه. م. جونز- مدن بلاد الشام في العصر الروماني- دار الشروق- عمان- 1987.
- فوزي مكاي- الشرق الأدنى القديم في العصرين الهلنستي والروماني- القاهرة- 1999.
- ايكارت فولاند- وولف شيفنهوفل- التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين- المركز القومي للترجمة- مصر- 2015.
- فوزي رشيد- سرجون الأكادي- بغداد- 1990.
- فاروق إسماعيل- اللغة الآرامية القديمة- جامعة حلب- 1997.
- إي. ه. غومبرتش- قصة الفن- وزارة الثقافة السورية- 2012.
- أرنولد هاووزر- فلسفة تاريخ الفن- المركز القومي للترجمة- مصر- 2008.
- عيد مرعي- إبلا- دار الأبيدية- 1996.
- جان بران- الفلسفة الرواقية- ت: جورج أبو كسم- دار الأبيدية- دمشق- 1990.

- الآثار السورية- مجموعة أبحاث أثرية تاريخية- دار فورفرترس - فيينا- LAND DES BAAL 1982 - .
- أ.د. سدني.م. لامب- الشبكات الدماغية- وزارة الثقافة السورية- 2009.
- مايكل كورباليس- في نشأة اللغة- عالم المعرفة الكويتية- 2006.
- دونالد ريدفورد- مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة- المجلس الأعلى للثقافة- مصر- 2004.
- إبلا- مجموعة باحثين- ت: قاسم طوير- دمشق- 1984.
- ل. ديلابورت- بلاد ما بين النهرين- وزارة الثقافة- القاهرة- 1997.
- حرب فرزات- عيد مرعي- دول وحضارات في الشرق القديم- دار طلاس- 1990.
- عمار عبد الرحمن- مملكة الالاخ- المديرية العامة للآثار والمتاحف- 2008.
- جان بوترو- ولادة إله التوراة والمؤرخ- دار الكلمة- دمشق- 1990.
- أغناطيوس أفرام الأول برصوم- اللؤلؤ المنثور- دار ماردين- 1996.
- فايز مقدسي- الأصول الكنعانية للمسيحية- دار الأبجدية- دمشق- 1996.
- فؤاد قزانجي- أصول الثقافة السريانية في بلاد ما بين النهرين- دار دجلة- بغداد- 2010.
- نينا بيغولفسكيا- ثقافة السريان في العصور الوسطى- دار الحصاد- دمشق- 1990.
- فيليب حتي- خمسة آلاف عام من تاريخ الشرق الأدنى- الدار المتحدة- بيروت- 1982.
- محمد محفل- دمشق الأسطورة والتاريخ- دمشق- 2008.
- الأناجيل.
- فيليب دي طرازي- عصر السريان الذهبي- دار هنداوي- مصر- 2012.

المراجع الأجنبية

- D.CHARPIN, LES ARCHIVES ROYALES DE MARL, IFAPO, DAMAS,1989.
- EXPOSITION SYRO - EUROPE'ENNE D'ARCHE'OELOGIE, DAMAS,1996.
- EN SYRIA AUX ORIGINES DE L'ECRITURE, BREPOLS, 1997.
- SYRIA TERRE DE CIVILISATION, QUEBEC, CANADA, 2001.
- ART OF THE FIRST CITIES, JOAN ARUZ WITH RONALDOW ALLENFEI THE METROPOLITAN MUSEUM OF ART, NEW YORK, 2003.
- G: contenau, les civilisations anciennes du proche - orient.
- Syrie Memoire et Civilisation, Institut Du Mond Arabe,1994.
- L'Art Et les Grandes Civilisations, Editions D' art Lucien Mazenod, 1977, Paris.
- Histoire de l' Ecriture, Flamarion, Paris, 2001.
- Andre Parrot, Sumer.
- Paolo Matthiae, Ebla, Tornto, 1980.
- Jean Chaline- Lévolution Humaine. Presses universitaires de France – Paris, 1996
- Leroi Gourhran. l'évolution de vegetation au moyen orient, les derniers 10000 ans, palermo 1983-
- Eric H, Cline. 1177 B.C. rinceton University, 2014.
- Ian Tattersoll, The World From Beginnings To 4000 BCE, Oxford Universitye, 2008.
- Les Industires Paleolitique Du Paosh – Orient – 1973
- The Last King of Agade. Cambridge 1971 –J.Gadd.
- A.K.Grayson,.. The Empire of Sargon of Akkad.1974.
- Albrecht Alt, Essayson old Tastament History and Religion – New York. 1908.

دوريات ودراسات

- الحوليات الأثرية السورية- وزارة الثقافة السورية- دمشق.
- نقولا زيادة- مجلة الفكر العربي- عدد -52 بيروت- لبنان.
- الوثائق الأثرية السورية- وزارة الثقافة السورية.
- محمد محفل- دراسة «العربية لغة وكتابة»- مجلة التراث العربي- مرجع إلكتروني.
- صباح الناصري- العرب وبلاد ما بين النهرين في الألف الأول قبل الميلاد- مرجع إلكتروني.
- إبراهيم القيسي- الدور الحضاري لقبيلة اليخروم في حضارة بلاد الرافدين- مرجع إلكتروني.
- فاروق إسماعيل- عيد مرعي- الأموريون- مرجع إلكتروني.
- دراسات تاريخية- جامعة دمشق.
- علي أبو عساف- إيمار وحوض الفرات الأوسط بين مملكتي إبلا وماري- دراسة غير منشورة- 1991.
- فؤاد قرانجي- الآراميون والكلديون ودورهم في بلاد بابل.

-SYRIA.REVEUE D'ART ORIENTAL ET D'ARC LE'OL OGIE.IFAPO.

- Ugaritica, Missions de Ras Schamra. Paris, Leiden.

المؤلف

- د. بشار خليف
- طبيب أسنان وباحث في تاريخ المشرق.

مؤلفاته:

- دراسات في حضارة المشرق العربي القديم.
- العبرانيون في تاريخ المشرق القديم.
- حوارات في الحضارة السورية.
- مملكة ماري وفق أحدث الكشوفات الأثرية.
- حضارة مدينة ماري.
- طبعة ثانية مزيّدة ومنقحة.
- نشوء فكرة الألوهة. مقارنة فكرية تاريخية.
- كتب أدبية في الشعر والقصة.

المحتوى

| | |
|----|--|
| 5 | نحو المشرق |
| 9 | الحكاية واحدة لكن الرواة كثر..... |
| 10 | محض هراء فكري، وبعد: |
| 13 | البدايات |
| 13 | هذا المناخ: |
| 18 | حين أشرق المناخ: |
| 18 | وبدأ المشرق. |
| 19 | دفع المشرق - البدايات: |
| 22 | منطقة سهل الغاب: |
| 22 | منطقة سهل الحولة: |
| 23 | الثقافة الكبارية: (14000 - 19000) عام مضى |
| 26 | النطوفيون المشرقيون: |
| 28 | إلى موقع «أبو هريرة» إذاً..... |
| 34 | في الزراعة تعود، ولكن في التحول نحوها كان المخاض عسيراً..... |
| 37 | العمران النطوفي: |
| 37 | السكن في القرى النطوفية يناقش في نمطين: |
| 38 | أمننا الطبيعية - الزراعة..... |
| 41 | تفاصيل: |
| 43 | تفاصيل أكثر: |
| 44 | هنا في المشرق، حتى النبات تكيفَ لضرورة إنسانية..... |
| 45 | ماذا يقول القمح؟ مفتاح الزراعة: |
| 46 | المواقع الطبيعية في تبلور الزراعة في المشرق: |
| 50 | لغة المشرق: |
| 51 | كيف نطق؟ |
| 54 | لغة المشرق في التاريخ: |
| 55 | « بريد وود» ناقش واقع الكثافة السكانية في المشرق: |
| 56 | استنتاجات زراعية: |
| 59 | ماذا فعل مزارعونا الأوائل؟ |
| 60 | وباستعراض موجز: |
| 61 | 6500 - 5500 - عصر حجري فخاري: |
| 73 | مدن واقفة - النشوء |
| 75 | نحو المدن: 3500 ق.م..... |

| | |
|-----|--|
| 75 | مناقشات عُبيدية - «سومرية»: |
| 79 | ماذا يقول الماء؟ |
| 82 | لماذا كان علينا ذكر الطوفان العبيدي؟ |
| 83 | ما المدينة؟ |
| 84 | ولكن ما مقومات المدينة؟ |
| 89 | مدن المشرق الأولى - حين تمدّنت الآلهة: |
| 96 | المدن كُتبتْ. |
| 99 | مدنٌ تُفارق أميتها: |
| 103 | حين كتبَ المشرق- اختراع الكتابة: |
| 108 | مدن أمية: |
| 110 | النطص الأكدي: |
| 111 | النص معرباً: |
| 112 | مشاهدات: |
| 114 | الأختام الأسطوانية Cylinder Seal |
| 116 | الألف الثالث ق.م - مدن تؤكد نفسها: |
| 118 | حرب المئة عام: |
| 132 | ماري - تل الحريري 2900 - 1760 ق.م. |
| 133 | بنّاو ماري: |
| 138 | ساحل الجناح الشامي للمشرق وجنوبه في الألف الثالث ق.م: |
| 143 | جبيل (بييلوس): |
| 146 | أكد ابنة كيش: |
| 148 | بين النشوء التطوري والنشوء المكتمل: |
| 152 | نبوءة موت أكد: |
| 154 | مقاربات أكديّة: |
| 155 | انبعاث المشرق: |
| 158 | المظاهر الحضارية للمشرق في الألف الثالث ق.م: |
| 162 | زرعوا أيضاً: |
| 163 | وتاجروا: |
| 164 | زمان المشرق: |
| 168 | وحدة الدعم النفسي: فيض الرموز في الألف الثالث قبل الميلاد: |
| 169 | ماذا يقول الدماغ؟ |
| 170 | المعابد بيوت الآلهة: |

| | |
|------------|--|
| 171 | كتبوا خوفهم..... |
| 177 | أساءَ الإنسان إلى ما خَلَقَ..... |
| 177 | مظاهر الثقافة الأكديّة:..... |
| 181 | مناخ الديرغرافيا..... |
| 183 | الألف الثاني قبل الميلاد:..... |
| 183 | الغرييون/ الأموريون/ مارتو..... |
| 188 | ممالك المشرق الأمورية - الألف الثاني ق.م:..... |
| 191 | السلالات الأمورية الحاكمة في مشرق الألف الثاني ق.م:..... |
| 196 | ممالك المدن الأمورية في مطلع الألف الثاني ق.م إلى منتصفه:..... |
| 196 | ماري:..... |
| 201 | بابل وموت ماري:..... |
| 203 | آشور:..... |
| 204 | بابل:..... |
| 206 | الجنوب الشامي في عصر السلالات الأمورية:..... |
| 209 | قطنا - تل المشرفة:..... |
| 210 | حران:..... |
| 211 | يمحاض / حلب:..... |
| 213 | إبلا:..... |
| 215 | المظاهر الحضارية في النصف الأول من الألف الثاني ق.م:..... |
| 216 | في الحياة الدينية والمعتقدية:..... |
| 217 | حياة مجتمعات المشرق:..... |
| 220 | استخدام الحيوان:..... |
| 222 | وشربوا:..... |
| 222 | مشروب النخيل:..... |
| 224 | متفرقات مشرقية يومية:..... |
| 225 | وللتنجيم حكايته:..... |
| 227 | ملوك البلاد الأجنبية يجتاحون مصر Hekau Khasut:..... |
| 231 | العذراء السمراء «تن تحت وطأة الوباء»:..... |
| 233 | مجريات الأحداث:..... |
| 236 | النهاية: «ثم أُسلمت أفاريس للنهب والسلب»..... |
| 238 | المشرق المحتل بين كلابتين:..... |
| 238 | بالمختصر التاريخي:..... |

| | |
|-----|---|
| 241 | معركة اللاحرب/ مجدو:..... |
| 243 | وللحثيين جولتهم في المشرق:..... |
| 248 | مشاهدات من النصف الثاني للألف الثاني ق.م:..... |
| 250 | نتائج:..... |
| 254 | مراسلات مُخجلة:..... |
| 255 | إلى أمنحوتب الرابع أخناتون:..... |
| 261 | مملكة أجاريت - رأس الشمرة:..... |
| 264 | حياة أجاريت- الواقع السياسي:..... |
| 269 | عمق الثقافة الأجاريتية:..... |
| 272 | الأبجدية الأجاريتية التي توقفت عن التطور:..... |
| 274 | يوميات أجاريتية:..... |
| 278 | مجالات أخرى:..... |
| 279 | استنتاجات حضارية:..... |
| 282 | موت أجاريت. 21 كانون الثاني 1192 ق.م!..... |
| 287 | استنتاجات:..... |
| 287 | حين ضربَ المناخ - شعوب البحر 1200 ق.م:..... |
| 290 | تأثيرات إضافية:..... |
| 292 | العبرانيون في المشرق: «الستارة القديمة لا تصنع مسرحية جديدة»..... |
| 293 | من أين؟ إلى أين؟..... |
| 300 | إضاءات عابرة:..... |
| 301 | ماذا أيضاً؟..... |
| 302 | المسمار الأخير:..... |
| 303 | 1 - يسرائيل فنكلشتاين:..... |
| 305 | 2 - البروفسور الإسرائيلي زئيف هرتزوغ:..... |
| 306 | 3 - الباحث الإسرائيلي مازار:..... |
| 306 | 4 - الباحث الإسرائيلي ناخاي:..... |
| 306 | 5 - الباحث الإسرائيلي أوسيشكن:..... |
| 307 | 6 - الباحث الإسرائيلي أمنون بن تور:..... |
| 307 | 7 - الباحث الإسرائيلي نادفا:..... |
| 309 | حين قامت آشور على عكازتين- الألف الأول ق.م:..... |
| 312 | آشور:..... |
| 314 | الآراميون:..... |

- 315 الممالك الآرامية في الجناح الشامي:
- 318 آراميو منطقة الجزيرة السورية وطور عابدين:
- 320 آراميو الجناح الرافدي:
- 325 حروب آشور وأرام- إله وشيخ:
- 331 حروب آشور والعرب:
- 334 استنتاجات في أوانها:
- 335 بابل الكلدية الآرامية: «حتى الكلب الداخلى إلى بابل يمنع قتله».
- 336 قالت الوثيقة:
- 337 حكى نبونيد قصته:
- 339 مقارنة لشخصية نبونيد (أخنتون المشرق):
- 343** فراغ سياسي مشرقى خرافي
- 345 الحاجة المؤلمة - الفرس الأخمينيون:
- 349 الهلينيون في المشرق:
- 354 تأملات شخصية في شخصية الإسكندر المقدوني 323 - 336 ق.م:
- 355 أحوال الطفرة ما قبل الهلنستية:
- 358 تقاسم الكعكة:
- 358 الإمبراطورية السلوقية:
- 362 الحرب الرابعة: 219 - 217 ق.م.
- 362 الحرب الخامسة: 202 - 200 ق.م.
- 363 الحرب السادسة: 170 - 168 ق.م.
- 365 عالم هلنستي: «ليس من عادتنا أن نبيع الفلاسفة».
- 367 الفلسفة الرواقية تعبرُ بإخلاص عن الروح الهلنستية.
- 368 موت المعجزات الحديثة:
- 373 عالم المشرق - الألف الأول ق.م:
- 375 المكونات العربية في الجناح الشامي:
- 377 مناقشات الأبجدية الكنعانية:
- 378 أرواد:
- 379** المدى الآرامي:
- 382 تأملات رافدية في الألف الأول ق.م:
- 384 مؤرخٌ مُتهكِّمٌ وحكيم:
- 385 فيلون المؤرخ «تاريخ عالمي يبدأ بأصل محلي»
- 386 مقتطفات فيلون «التاريخ الفينيقي»:

- 387 في اللاهوت الفينيقي وعالم النشوء والتكوين:
- 387 ويستمر تطور الخلق الأسطوري، يكتب فيلون:
- 388 لوقيانوس: «لم أره بنفسي ويقال إنه واسع ويرجع لزمن سحيق»
- 391 الطوفان الفينيقي:
- 392 الطقوس:
- 393 عيد المحرقة/ عيد المشاعل:
- 393 عادات:
- 393 الختام:
- 394 أحيقار/ أبو - نينو - داري - «حاملاً لختم سنحاريب ملك آشور»
- 395 حكمة أحيقار (مقتطفات):
- 397 الأنباط - من الكتابة الآرامية إلى القلم العربي 587 ق.م - 106م:
- 398 تفاصيل تبادلاتهم التجارية:
- 401 الوسيط الكتابي: الكتابة النبطية والقلم العربي:
- 407 روما والمشرق الشامي - سلامٌ سلبيٌّ في مدن أوشكتُ أن تموت:
- 410 سوريا تحت الاحتلال الروماني:
- 413 تدمر أقصر إمبراطورية في التاريخ:
- 419 ما بعد الفراغ السياسي المشرقي
- 421 الواقع الشامي تحت الاحتلال الروماني:
- 424 في التشريع والحقوق:
- 427 في الكتابة والأدب
- 429 في العمران والعمارة:
- 430 بربوس البيروتي امتاز بالنقد
- 431 المعتقد الشمسي:
- 437 أنطاكية:
- 438 الجناح الرافدي والإمبراطورية الرومانية:
- 443 أفلوطين - ماني - سر سقوط الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية:
- 447 المشرق بعد تدمر نحو التعريب والأسلمة:
- 448 آراميو المسيح - السريان:
- 451 مشرق السريان:
- 453 الثقافة السريانية:
- 454 المدارس السريانية:

| | |
|-----|---|
| 459 | الفن الوجه الآخر للدماغ..... |
| 461 | فن المشرق - وجه الدماغ الآخر:..... |
| 462 | أسس:..... |
| 469 | المشرق العاقل ما قبل التاريخ - «فن الكفاية والمُعاش» - موجز فني:..... |
| 475 | الفن حين يعتقد:..... |
| 476 | ثم ماذا؟..... |
| 477 | تأملات في فنون ما قبل المدينة:..... |
| 479 | فن المدينة:..... |
| 483 | تكريس العلو الإلهي عمرانياً..... |
| 487 | المواضيع المنقوشة على الختم الأسطواني:..... |
| 488 | النحت التدمري:..... |
| 489 | وعزفتُ الموسيقى:..... |
| 491 | تفاصيل:..... |
| 495 | الموت - شعائره ووثائقه..... |
| 498 | شعائر موت المكونات ما قبل الزراعية:..... |
| 500 | الموت والزراعة:..... |
| 502 | العصور التاريخية - نشوء المدن والموت:..... |
| 502 | الشعائر والطقوس الجنائزية:..... |
| 505 | الطقوس الجنائزية:..... |
| 507 | التوابيت:..... |
| 508 | شعائر الموت في إبلا:..... |
| 509 | شعائر الموت في أجاريت:..... |
| 511 | العالم السفلي عند المشرقيين القدماء:..... |
| 513 | شعائر الموت عند الآراميين:..... |
| 517 | خاتمة..... |
| 523 | قائمة المصادر والمراجع..... |
| 534 | المراجع الأجنبية..... |
| 535 | دوريات ودراسات..... |
| 536 | المؤلف..... |
| 536 | طبيب أسنان ومهتم في تاريخ وأثار المشرق..... |
| 536 | المؤلفات التاريخية:..... |
| 537 | المحتوى..... |